الأب الياس زحلاوي

قد يكون لي ما أقوله

قد يكون لي ما أقوله

الأب الياس زحلاوي

2014

إنّ لدمشق تاريخاً قديماً، تحجبُه سحبُ عراقة جليلة. فإذا ما تركنا جانباً، الفصولَ الأحد عشر الأولى من العهد القديم، فليس ثمّة من حدثٍ معروفٍ وثابت، إلاّ وكانت دمشقُ في القلب من بيانه. ارجعْ بالتاريخ قدرَ ما تشاء... في كتابات كلّ القرون، وعلى مدى أربعة آلاف عام... ستجد دائماً اسم دمشق مذكوراً وقد نُظِمت فيه أناشيد المجد... فالسنونُ بالنسبة إليها ليست سوى لحظات، والعقود لا تتعدّى نثرات تافهةً من الزمن! ودمشق، لا تَقيس الزمن بالأيّام والأشهر والسنين، إنّما بالإمبراطوريّات التي شهدت نهوضَها وازدهارَها، ثمّ أفولَها ودمارَها.

إنّ دمشقَ أنموذجٌ للخلود. فقد شهدت إرساء مداميك بعلبك وطيبا وأفسس. وأبصرت هذه القرى، تتطوّر إلى مدن جبّارة، أدهشت العالم بعظمتها، وبقيت لتراها مقفرةً مهجورةً، وقد استولى عليها طيور البوم والخفافيش. وقد رأت مملكةَ إسرائيل في مجدِها، ورأتها في زوالها. ورأت بلاد الإغريق تصعد وتتألّق طوال ألفي عام، ثمّ تموت. ودمشق، بعمرها المغرق في القدم، رأت روما ترتفع وتحجب العالم بجبروتها، ورأتها تموت. وإنّ قرون القوة والألق في جينوا والبندقيّة، ليست سوى وميضٍ عابرٍ قلّما يستحقّ الذكر، إزاء دمشق العريقة.

وهي إذ رأت كلّ ما حدث على الأرض، لا تزال تنبض بالحياة. وقد سرّحت نظرَها فوق العظام النخِرة لآلاف من الإمبراطوريّات، ولسوف تسرّحه فوق قبور آلافٍ أخرى قبل أن تغيبَ بدورها.

ومع أنّ سواها يزعم حيازة اللقب، إلاّ أنّ دمشق، هي بحقّ المدينة الخالدة!

مارك توين

قد يكون لي ما أقوله...

الأب الياس زحلاوي

حقـوق الطبـع محفوظـة للمؤلف

الطبعـة الأولى

2014

تصميم الغلاف

الفنان الياس الزيات

الأب الياس زحلاوي

قد يكون لي ما أقوله...

إهـــداء

إلى سورية...

سيرد في هذا الكتاب ذكر العديد من الوثائق المختلفة، رأيت أن أضعها في قرص مرفق، بدل نشرها في صفحاته، وذلك لسببين:

الأول، كي تتحرّر الوثيقة من قياس الصفحة، فلا تُجبر على الخضوع له، خاصةً وأنها تمتدّ من بطاقة بريديّة إلى مخطط عقاري.

الثاني، كي تبقى على طبيعتها التي آلت إليها، خاصة وأنّ بعضها قد مرّت عليه سنواتٌ طويلة، فلا تتمّ طباعتها بالأسود والأبيض.

لديه الكثير ليقوله...

غسان الشامي

يا إلهي، كم هو شاقّ ومشوّق كتابةُ نص أو جملة عن رجل رسوليّ النزعة، وكم تجزع من عدم إيفاء الرسالة والرسول حقّهما في مقدمة لكتاب/حياة.

هذا ما انتابني عندما جاءني صوت الأب الياس زحلاوي الذي عرف الدهر بكل قساوته وغوطته، وبقي الناي في بُحّته كبقاء القصب على الينابيع والحور على بردى، قائلاً بدمشقيّته الدمثة أنّ كتابه سيصلني، وأنني منذورٌ لأكتب مقدمةً لأساه وفرحه وروحه ومدينته ورسوليّته وتجربته الرائدة...

يا إلهي، كم تصعب مقاربة الصفصاف، بخاصةٍ إن عرفتَه وشهدتَ نتاجه باكراً، أو ترعرعتَ وأنت تشاهد الهواء يحنو على أوراقه أو يقسو عليها، لكنه لا يتوقّف عن التسامق والتطاول على الشواهق.

مقدمات الكتب مدخلٌ صغير، أو لنَقُل، عتبةٌ للدخول إلى دار الكاتب، لذلك يجب على كاتبها أن يكون مثل الضيوف الأعزاء، خفيف الوطأة، أو حتى مثل من أوكلهم صاحب الدار باستقبال ضيوفه، لذلك ما دمت ضيفاً قارئاً، عليَّ أن أخفّف وأترك للكتاب/صاحب البيت وللدار الواسعة أن تحكي عن نفسها.

ما لفتني منذ فاتحة رحلته هو تواضع المضيف الجمّ الذي عنوَنَ ذكرياته بـِ "قد يكون لي ما أقوله"، مع أنه لكل من مرّ على هذه الحياة أو مرّت هي عليه ما يقوله، فكيف بالأب زحلاوي الذي عاش مدناً وقرى وتعليماً ووعظاً وعملاً وتدريساً وتربيةً ومرجَ ثقافة، وفي الأزمنة الصعبة والظروف التأسيسيّة، في الآمال والخيبات، في الرجاء وحواف اليأس، نعم لديه الكثير ممّا لا تتّسع له مساحةٌ ورقيّةٌ في كتاب بدفتين.

ها هو يجول بنا صغيراً في أحياء مدينته دمشق، انطلاقاً من حيٍّ يتغزّل بأشجار الغوطة التي تآكلت رويداً رويداً، بفعل انكباب الريف على المدينة والتكاثر السكاني وتكلّس الوعي البيئي، وعلى رمية رمشٍ، من الصوفانية، أو الصفوانية حيث عسكر العرب قبل دخول الشام، وعلى ترجيع شهقة من باب توما، المدخل البهيّ إلى آرام دمشق. حيٌّ يعرفه ويعرف ساكنيه جاراً جاراً، يطلعنا ويؤكّد لنا في زمان تفشّي الصراخ الطائفي أنّ أهلَ مدينتهِ وبلده، لم يعرفوا للتعصب الديني درباً، ويدلّنا على

أهله وأقربائه وشقاوته، وحال عائلته والعائلات الجارة والعلاقة مع الوالد والوالدة وطبيعة الحياة، حياة الناس السوريين الطيّبين الذين يعملون ويتعبون ليوفّروا حياةً لائقةً لأبنائهم.

يبدو أنّ شهباً دلّهُ على القدس، ليبدأ مشواره الكهنوتي من دروبها، رغم أنّ من حفزه إليها ازورَّ عن ثوبه الكهنوتي، وربّما عن القدس، لكن منذ أن دخلها طالباً قبل ثلاثة أعوام من نكبتها ونكبتنا، باتت ووطن الجليليّ هاجسَه، فجاء إلى لبنان، ثم عاد إليها واصفاً لنا بعينيه ومشاعره حجارة الطرق التي سلكها ومن مشاها معه، حتى ذهابه إلى فرنسا وتعرّفه على "البرادو" كجمعية، ثم عودته ورسامته كاهناً في دمشق عام 1959... وانطلاقه بعدها في رحلة عمل وعلم وعذاب وآمال ولحظات يأسٍ لا يخفيها، ولا يخشى التعبير عنها وعن قناعاته وآرائه، وهو ما كلّفه الكثير في حياته الكهنوتية، لكنه مضى مؤمناً صلباً ورهيفاً ومعجوناً بحبّ بلاده والسير مع الفقراء ونشر الثقافة والفرح، محاوراً ومجادلاً وصاحب موقفٍ وقضيّة.

ألم أقل لكم إنّ الكتابة عن أبونا زحلاوي شاقّة، لأنك لا يمكن إلاّ أن تكيل له المديح الذي يستحقّه ولا يحبّه، ولا أحبّه أيضاً، لكن لا يمكنك الاختفاء خلف أصابعك لتحجب ما أنجزه وينجزه.

بين الشام ولبنان وفرنسا وأوروبا وأمريكا الجنوبية والشمالية واستراليا جال هذا الدمشقيّ متسربلاً بكهنوته، متدثّراً بروح النسّاك وتقشّفهم، مشاغباً على ما لم يقتنع به، أو ما يحيد عن درب يسوعه، مختلفاً مع بطاركة وأساقفة ومع مؤسّساتٍ دينية، وملتقياً مع آخرين، غير هيّابٍ، ومن دون ادّعاء، وواصفاً الرجال مهما زُركشت أثوابُهم الكهنوتية ووُشّيت وارتفعتْ عصيّهم وتذهَّبت تيجانُهم، بما كان يراه في أعماقهم من دون مواربةٍ أو زلفى.

في كنيسته عُرف برجل المواجهات، ربما كانت خساراته الشخصية كثيرةً، لكن أرباحه كانت بحجم مملكة بين الناس من كل الفئات، فهو يدخل إلى بيوت أهل بلده من دون استئذان، يقرع الأجراس في المساجد ويرفع التكبير في الكنائس، حتى لتخاله مدنيّاً وطنيّاً في ثوب كهنوتي...

لذلك عاش نكسات ونكبات بلاده وانتصاراتها مثل جوقة فرح أسّسها، أينعت فرحاً في حورِ بردى وحدائق العالم وشكلّت ظاهرة في جمع القيم المشتركة موسيقياً وإنسانياً، وفي تأسيس جمعية "فرسان المحبة"، وحماية ظاهرة "الصوفانية" جارته وشجرته.

أبونا زحلاوي الذي لا يكلّ ولا يتوقّف عن العمل، مالئ الصفحات باسم "كاهن عربيّ"، يرسل رسائله المحبّة والمريرة والجريئة إلى الفاتيكان، يكتب في الصحف، يعلّم في الجامعة، يدرّس في المسرح، يترجم أمّهات الكتب، يؤلف، يحلم، يصلّي، يحزن... لكأنه أُعطيَ حيوات عديدةً في جسدٍ حاول المرض أن يهدّه باكراً ولمراتٍ عدّة، لكنّه أبى الهزيمة أمامه، وامتشق إيمانه بالله والحياة وتابع طريقه.

لم تقعده أزمة سوريا بكل آلامها عن تبصّر المستقبل وعن مقارعة القتل، فكراً وعملاً، لكنها حفرت عميقاً في وجدانه، وحزّت أخاديد أسىً وأملٍ بوطن يؤمن أن الطائفية طارئةٌ عليه، مثل جراد الغرباء الذين يحاولون اجتياح أخضر الشام، مع إيمانٍ عميقٍ بأنّ هذه الجغرافيا النضرة لن تستسلم للتصحّر، وستتفجّر فيها ينابيع التنوير مجدّداً.

أبونا زحلاوي، ما دمتُ ضيفاً شرّفته بعتبة كتابك، الذي لم أتركه حتى أحسست أنّ ما فاتني من حيواتك كثير، اسمح لي أن أكون خفيفاً كنسمات كتف غوطة طفولتك، وأن أترك لمن يحبّك ويحترمك اكتشاف الريح والخضرة ومواويل الفرح والحزن في كتابك.

أبونا زحلاوي، لديك الكثير لتقوله، وأتمنّى أن تتسامق بك الروح مديداً، لتصنع الكثير.

ها نحن ننتظرك دائماً...

ها إنّ أصدقاءك ومحبّيك مثل قاسيون.

مقدمة

ماذا عساني أقول، وأنا اليوم في الثمانين؟

ولمن تراني أقوله؟

وهل هناك من يسمع؟

لَكَم ترددت قبل أن أقرّر الكتابة!

سنوات!

كان الكثيرون يلحّون عليّ بالكتابة.

ثمّة أيضاً أصدقاء خلّص ينهونني عن الإقدام على مثل هذا الأمر.

إنما هو واجب الأمانة لذاتي ولربّي، قبل أي شيء آخر!

ههنا يكمن، في نهاية المطاف، دافعي الرئيسي للكتابة.

ولكن، كيف لي أن أكتب، والدنيا كلّها تبدو على شفير هاوية؟

بل هي تمضي سريعاً إلى الهاوية!

أأكتب والمسؤولون عن "الكلمة"، داخل المؤسسة الوحيدة التي قامت منذ ألفي عام، على "الكلمة" وحدها، وبقوة "الكلمة" وحدها، أراهم وقد تخلّوا، منذ مئات السنوات، ولا سيما في العقود الأخيرة، عن النطق "بالكلمة" الصادقة، المُحِبّة، النيّرة، الجريئة؟

أأكتب في زمن لم يعد يُسمع فيه سوى دويّ المدافع والقنابل والرشاشات، وهدير الطائرات والصواريخ، وأنباء التحريض والتلفيق والقتل والخطف والتقطيع؟

أأكتب في زمن يَرفَع فيه دعاةُ "الحريّة" و"حقوق الإنسان"، في الشرق والغرب على السواء، وفي الغرب قبل الشرق، بكلّ عهرٍ ودونما خجل، رؤوس الناس بيدٍ، من أطفال ورجال ونساء، ورزمات الدولار واليورو بيد؟

أأكتب وقد سكن عقلي وقلبي وروحي، بل وجسدي، تَوقُّع قتلي في كل لحظة: على هيكل الكنيسة، لدى خروجي منها، إبان لقائي الناس في الطريق، في وضح النهار، أو في عتمة الليل؟

أأكتب، وفي عينِي الوحيدة سكنت جميع عيون المشردين والخائفين والجياع، وفي قلبي جثَمَ حزنٌ قاتل، بلغ من ثقله ما يجعلني أدهش لاستمراري حيّاً حتى الآن؟

ويا له من حزن!

إنه حزنٌ كونيٌّ حقّاً...

على الجالسين فوق كراسٍ تخوّلهم "حقّ" إصدار الأوامر بالقضاء على شعوب برمّتها...

وعلى الذين يَقتُلون ويُقتَلون...

وعلى الذين تورّطوا، فقراً وحقداً وإيماناً وجهلاً، في "جهادٍ" يقتل الله، قبل أن يطالَ الإنسان...

وعلى الذين شاؤوا أن يُقتلَعوا من أرض سورية، التي باركها الرب قديماً لألفي سنة خلت، وحديثاً لثلاثين سنة خلت، فقذفوا بأنفسهم وبأسرهم وأطفالهم، في متاهات غربٍ سافلٍ، كاذبٍ، مارق...

وعلى الذين باعوا ذواتهم رخيصةً، قبل أن يبيعوا أوطانَهم، بأموال طائلة...

وعلى الذين ظنّوا أنّ الأوطان ليست سوى ما في جيوبهم وأرصدتهم، فحملوها معهم وذهبوا، وحملوا معها ذلاً في أعماقهم، وخيانةً لربّهم وللناس جميعاً!

لمَن أكتب؟

ولِمَ أكتب؟

وما عساني أكتب؟

أأكتب، والمؤسسة الدينية التي شاءتني لها، لثلاثٍ وخمسين سنةً خلت، وشئتني لربّي من خلالها، لا تني تحاول، منذ كلماتي الأولى، أن تخنق "الكلمة" لديّ وفيّ؟

أأكتب؟...

كفى!

سأكتب!

سأكتب، وفاءً منّي "للكلمة"، ربّي!

سأكتب، وفاءً منّي لذاتي!

سأكتب، وفاءً منّي لوطني الصغير... الكبير... الكبير... سورية!

سأكتب، وفاءً منّي لوطني الأكبر، الإنسانية جمعاء، وقد باتت سورية، سوريّتي، أجل، مفتاح وجود كلّ إنسان فيها!

أجل، سأكتب،

ولتكن "كلمتي"، ذرّةً تُلقى في بحار الأرض الواسعة.

سأكتب، ولتكن "كلمتي"، نقطةً في حروف مَن كان وحدَه، ذات يوم، "الكلمة"، في فلسطين المصلوبة منذ سبعين عاماً، على وجه الدنيا!

الفصل الأوّل

يومَ كانت الطيور تعشّش في جنبات الغوطة

في تلك الأيام، من أواخر الثلاثينيات، كنّا أشبه بالطيور، نعود من مدارسنا المختلفة، من حكومية وخاصة، لنلتقي في عمق حارتنا.

حارتنا هذه، كان اسمها "حارة الصليب الثانية". وكان أجمل ما فيها أنها كانت تفضي إلى بساتين الغوطة الشرقية...

يومها، كان يحيط بدمشق، إحاطة بياض العين بالبؤبؤ، بحرٌ من الأشجار المثمرة، لا يقلّ عددها عن ستّة عشر مليون شجرة مثمرة، كما جاء في بعض الدراسات الأجنبية...

ويومها، كانت دمشق كلّها، لا يتجاوز عدد أبنائها وبناتها، ثلاثمائة ألف نسمة، بين مسلمين ومسيحيين ويهود. وكانت عبارة عن مدينتين متلاصقتين، قديمة وحديثة.

فالقديمة، وهي، كما يُعرف، أقدم مدينة مأهولة حتى اليوم، تقع كلّها داخل الأسوار المختلفة، من رومانية وعربية وتركية. وفيها حارات سكنية مكتظّة، رُصِفت طرقاتها كلّها بحجارة بازلتية سوداء. ألأنها تضمّ أقدس ما لدى المسلمين من مساجد قديمة، يأتي على رأسها مسجد بني أمية الكبير، الكبير بحجمه وروعته وهندسته، والكبير لكونه المسجد الإسلامي الوحيد في العالم، الذي يضم ضريح شهيد "الكلمة" الأول، القدّيس يوحنا المعمدان؟ أم لأنها أيضاً تضمّ بعد القدس، أقدس ما لدى المسيحيين، من كنائس، على رأسها مزار القدّيس حنانيا، حيث نال المُضطهِد السلفي اليهودي، شاول، العماد المقدس، فأصبح القدّيس بولس في الزمن اللاحق؟ أم لأنها تضم أيضاً كنيسين يهوديَّين؟

أما المدينة الحديثة، فكانت، في حركة وئيدة وخجلة، تتمدّد وتتوسّع على حساب البساتين المحيطة بالمدينة كلّها، في اتجاهاتٍ مختلفة، لا سيما إلى الشمال من باب توما العريق، في محاذاةٍ لنهرها الحامل الحياة لها، بردى، ومن ثم إلى الغرب منها. وكان أن جاء يوم تسلّقت فيه بيوتها، ثم حاراتها الضيقة، جبل قاسيون الصخري، على مساحات واسعة، لتستقبل "المهاجرين" إليها من مشارق الأرض المعذبة...

وكانت شوارع هذه المدينة الحديثة، شوارعها الكبرى، كلّها معبدة، بإسفلت كثيف ومستقيم، وعلى جوانبها أرصفة مغطّاة ببلاط إسمنتي، صلب ومُستوٍ. وكانت المدينة تضمّ، هنا وهناك، مختلف الأبنية الحكومية، القليلة. وكان من أبرزها للعيان السراي الحكومي، القريب من ساحة المرجة الرئيسية، ومن ثم المجلس النيابي في منتصف شارع العابد، وأخيراً قصر رئيس الجمهورية، على طريق حي المهاجرين...

وأما الحارات السكنية، الجديدة والصغيرة، في المدينة الحديثة، كما هي الحال في حي القصاع، فلم تكن كلّها معبدة، بل كان معظمها ترابيّاً. إلا أنّ هذه الحارات كانت مشهورة بنظافتها، ذلك لأنّ كل عائلة فيها، كانت، كل يوم، تقوم في انتظام، بتنظيف المساحة الملاصقة لعتبة بيتها. فكانت هذه الحارات، خصوصاً طوال الربيع والصيف، كلّ يوم بعد الظهر، أشبه بمجمّع من المقاهي البسيطة، المتتابعة، يمتدّ فيها جلوس الرجال وبعض الأطفال مع بعض النساء أحياناً، على كراسٍ صغيرة من الخشب والقشّ، عند عتبة الدار، فيما الأراكيل أمام بعضهم، بحيث لم يكن عابر سبيل يمرّ، راجلاً كان أم راكباً حماره أم طنبره، إلا ويُدعى بحرارة، للجلوس وتبادل الحديث، وتناول القهوة...

ويومها كانت السيارات في دمشق كلّها، تُعدّ على أصابع اليدين ليس إلا. وكان "الترامواي" الكهربائي يخترق معظم شوارع المدينة الحديثة، الرئيسيّة، على خطوطه الحديديّة المثبّتة عميقاً في الأرض وفي الإسفلت... يومها، ما أحلى ما كانت رحلاتنا مع أهلنا، بين حين وآخر، في "الترامواي"، عبر بساتين بلدات جوبر وحرستا والقابون، مكافأةً لنا على "تعقّلنا" في الحارة، أو دعوةً لنا لمزيد من "التعقّل"!

حارتنا هذه كان يقوم في أوّلها، نادٍ رياضي كبير، يُعرف باسم نادي القدّيس جاورجيوس. وكان يضم عدداً من شبّان الحي والأحياء الأخرى، يمارسون فيه مختلف أنواع الرياضة، وبالأخص المصارعة الحرة. وكان يحدّها على مبعدة قصيرة إلى الشرق منها، ملعب نظامي لكرة القدم، كان يُعرَف باسم ملعب نادي "الهومنتمن"، كما كان يحدّ بيوتَها على مسافة وجيزة إلى الغرب منها، ملعب لكرة القدم أيضاً، كان يعرف باسم ملعب نادي "الدالفوريك". وإني لأذكر جيداً أن نادي "الهومنتمن" كان يضجّ على مدار السنة بالحركة والمباريات، بقدر ما كان نادي "الدالفوريك" راكداً ومهملاً!

وإلى ذلك، كانت حارتنا تضم على امتداد جانبيها، إحدى وثلاثين عائلة، أذكر حتى الآن وجوه وأسماء معظم كبارها وأفرادها، إذ كنّا كلّنا أشبه بعائلة واحدة. وكانت كلّها، باستثناء عائلتين فقط، تسكن في بيوت عربيّة، ذات فسحة "سماويّة" أي مكشوفة، تتوسّطها حتماً بركة ماء، وتنبت في زواياها أشجار مثمرة، من أهمّها

الليمون والكبّاد، ونبتات صغيرة محمّلة برائحة زكية، مثل البابونج والياسمين، فضلاً عن الدالية، المغروسة في كل بيت، والمتعرّشة إلى السطح، حيث كانت تبسط أذرعها المديدة فوق مساحة واسعة منه. وكانت هذه العائلات، على ما بين بعضها من تفاوتٍ ماديّ ملحوظ، تكنّ كلّها مودّةً واحتراماً لبعضها البعض، ينعكسان تلقائيّاً على علاقات الأولاد فيما بينهم، كباراً كانوا أم صغاراً، كما كانا ينعكسان خصوصاً على علاقات الأهل مع بعضهم البعض، لا سيما في بعض المواسم. فما أحلى ما كانت مواسم سلق القمح جماعيّاً، في هذه الدار أو تلك، والتعاون في نشره على الأسطحة، ثم جرشه جماعيّاً، بقصد توفير مؤونة البرغل لبعض العائلات، أو في بعض الحالات الطارئة، إبان وفاة أو مرض أو حلول حادث أليم، أو ضيق مفاجئ ما... عائلة واحدة استثنت ذاتها من هذه الأجواء العائليّة الشاملة، إذ كانت على جانب واضح من الثراء. إلا أنها لم تُوفّق دائماً إلى منع بعض أولادها الذكور الثلاثة، من مشاركة رفاقهم الصغار في الحارة، بعض ألعابهم وتسلياتهم...

كان أهلي يقطنون مع شقيقَي أمي ووالدتها، بيتاً عربياً أيضاً، تقوم في قسمه الأرضي، فضلاً عن المطبخ والحمام ودورة المياه، ثلاث غرف، واحدة لخالي الأكبر "نقولا"، مع أسرته المؤلفة من زوجته وخمسة أولاد، ابنة واحدة، وأربعة صبيان، فيما الغرفة الثانية لخالي الثاني، "حنين"، وكان عازباً، والثالثة كانت بمثابة صالون استقبال في تصرف الجميع. أما القسم العُلويّ من الدار، فكان يتألّف من مطبخ صغير ومُعتِم. يفضي بدرج خشبي لولبي إلى السطح، ومن ثم من غرفتين فقط، كانتا في تصرّف جدّتي وأسرتنا، التي كانت تضم مع والديّ، أخواتي البنات الثلاث، "روز" و"نور" و"جوزفين"، ثم أخي "ميشل" وأنا وأختي الصغرى، "رينيه". وإني لأذكر جيّداً أن بيتنا هذا كان ملكاً لكنيسة الأرمن الكاثوليك، لأني كنت أحياناً ألتقط بعض ما يدور بين أبي وأمي، من جدال حول أجرة البيت، فأُفاجَأ، على صغر سنّي، بما كنت أسمعه من إصرار الكاهن المسؤول عن الوقف، على زيادة الأجرة...

كان والدي، واسمه "جرجي"، يعمل حلاّقاً للرجال، في محل استأجره في منطقة "برج الروس"، ملاصق لحارة الصوفانية. وكان قلّما يعرف ما يدور في الحارة أو في المدرسة، إذ كان يمضي إلى عمله في ساعة مبكّرة، ويعود غالباً في ساعة متأخّرة. وكان ذا طبع هادئ جداً ومسالم للغاية، ما لم يُستفَزّ في ظلم، وعندها كان يفاجئ الجميع بحدّة طبع، تنطفئ بالسرعة ذاتها التي كانت تشتعل فيها. كان محلّه هذا يتّسع لكرسيَّي حلاقة فقط، ولمقعدين مستطيلين أُسندا إلى الجدارين المتبقّيين، يتّسعان

لعدد لا بأس به من الزبائن، ينتظرون دَورهم، إما في لعب طاولة الزهر، أو في قراءةٍ في نسخة قديمة جداً من الكتاب المقدس، كانت دائماً موضوعةً على طاولة صغيرة خاصة. ثمّة أمرٌ في هذا المحل، كان يسترعي نظري الفتيّ على الدوام، وهو لوحة زجاجيّة كبيرة، كانت تعلو الجدار الأوسط من الدكان، وقد كُتبت عليها عبارةٌ رائعة، خُطّت بأحرف عربيّة فضيّة، غاية في الجمال، وانحفرت في أعماق ذاكرتي، وقد جاء فيها: "الله جميلٌ يحبّ الجمال"!

وكان والدي أحياناً كثيرة، ونزولاً عند رغبة والدتي، خلال بعض العطل المدرسية، أو خلال فترات من الصيف، "يضبّني" عنده في محلّه، كي يلجم شيطنتي في حارتنا. فكان أن تعلّمت من جراء ذلك، أموراً كثيرة ومبكّرة. منها، مثلاً، لعب طاولة الزهر، وكنت لا أزال في السابعة من عمري، ولكن هذه التسلية لم تستطع أن تستهويني في ما بعد... ومنها اكتشافي للهوى المتأصّل لدى الناس، في الثرثرة على بعضهم البعض، وكذلك تمتّعهم باغتياب بعضهم البعض دون أيّ حرج، لا سيما عندما يكونون مسترخين في كرسي الحلاقة، فتعلّمت بذلك ألاّ أثق بسهولة بما أسمع، مهما كانت النبرة حارّة أو عالية... إلا أني اكتشفت أيضاً أنّ والدي، المعروف بصمته الدائم داخل البيت وخارجه، كان في محلّه أيضاً قلّما يجاري الناس في ثرثراتهم، فيتركهم أحياناً كثيرة يُفرغون ما في أعماقهم دون أيّ تعليق، حتى مغادرتهم المحل، ومن ثمّ يتصرف وكأنه لم يسمع شيئاً! وكان موقفه هذا ينسحب على جميع زبائنه، وكثيراً ما كان يثير حيرتي، على صغر سنّي. إلا أني، كنت بذلك قد تعلّمت منه، من حيث لا أدري، بمرور الوقت، أهمية الإصغاء إلى الناس، بل حاجتهم إلى إفراغ ما في أعماقهم، لمجرد هذا الإفراغ. كما أني تعلّمت منه أيضاً ما هو أهمّ من كل ذلك، وهو ضرورة التكتّم على ما يقول الناس عادةً، سواء كان ذلك في حقّ أو في غير حقّ. وقد تبيّن لي، بعد ذلك، أنه لم يكن يروي في البيت، شيئاً ممّا كان يدور من أحاديث في المحل.

وكان والدي يكنّ مودّةً، صادقةً ومتبادلة، لجميع جيرانه من أصحاب المحالّ في المنطقة ذاتها. إلا أني أرى ضرورة ذكر اثنين منهم فقط، لما لهما من علاقة مباشرة مع بعض أبعاد شهادتي هذه.

أول هذين الجارين، كان حَذّاءً ماهراً، يدعى "عبدو حسكور". وإني لأذكره الآن، لا من أجل الأحذية المتقنة التي كان يصنعها، والتي كان ثمنها فوق قدرة أهلي الشرائية، بل من أجل ابنه البكر، "خليل"، الذي كان زميلي في الصف، ورفيقي في "مدرسة لورد" في حي القصاع. ذلك بأن "خليلاً" هذا، حدث له ذات يوم من عام 1939، أن غاب عن

المدرسة لأيام متتالية... وفجأة سمعنا الناس يقولون أن السيّد المسيح يظهر له في بيت أهله، في حي الزبلطاني القريب. ثم ضجّت مدينة دمشق بأخبار هذا الظهور المزعوم. وكان أن غصّ بيت "حسكور"، لثلاثة أسابيع متتالية، بجماهير المصلّين والفضوليّين، حتى إن والدتي اصطحبتني معها مرغماً إلى البيت، ودهنتني بالزيت، ثم أرغمتني على ابتلاع قطعة من القطن المبلل بالزيت، أملاً منها في وضع حد لشيطنتي المفرطة! ثم كان أن عاد "خليل" إلى المدرسة، بعد هذه الأسابيع الثلاثة. ولم يعد أحد يتحدّث عما حدث في هذا البيت! إلا أنّ ما حدث كان له، بمرور الوقت، أثر عميق في نفسي، على صغر سنّي... فقد رسّخ لدي، شيئاً فشيئاً، منذ ذلك الحين، الانطباع بأن أمور الدين يمكنها أن تكون عرضةً لغرابات أو استغلالات، غير سليمة وغير مستحبّة... ولقد تحوّل هذا الانطباع الطفولي لديّ، ولا سيما إثر دراساتي الفلسفيّة واللاهوتيّة في القدس، وبفعل مطالعاتي المتعدّدة، إلى ما يشبه القناعة الراسخة والرافضة بحقّ، عندما حدث في أواخر شهر تشرين الثاني من عام 1982، ما حدث في حيّ الصوفانية بدمشق...

وكان ثاني هذين الجارين، بائع خضار مسلماً، يدعى "عباس"، كانت تربطه بوالدي مودّةٌ وثقة، انتقلت عدواهما شيئاً فشيئاً إلينا نحن أبناء عباس وجرجي... حتى إني اليوم، وأنا في الثمانين، عندما أمر ببقاليّة ابنه "محمد"، المجاورة لحارة "بولاد"، في حي باب توما، أجدني تلقائيّاً أدخل دكّانه بفرح، فيقبّل أحدنا الآخر، ونستذكر شيئاً من الماضي البعيد... القريب. ويسرني أن أضيف أني، عندما لا أجد "محمّداً" في المحل، بل أحد أبنائه، أسعد باستقبال ينمّ عن انتقال المحبة من الأهل إلى الأبناء!

وكان أهلي، على ما كانوا يتحلّون به من محبة وصبر مدهشين، يبحثون لي عن محلّ، غير محل والدي، أقضي فيه عطلة الصيف أو بعضها، عسى أن يكون هذا الغريب، أقدر على لجم الشغب المتأصّل فيّ، أكثر من والدي. فوجدتني في نهاية أحد الأعوام الدراسية، في محل حلاّق... للسيدات، يدعى "توفيق رومية"، كان يقع في مطلع حارة القيمرية في باب توما. ولكم أذكر حتى اليوم، بتأثّر، معاملة هذا الإنسان الرقيق، لي، إذ عرف أن يستخرج من هذا "المشاغب"، اندفاعاً في إنجاز الأعمال الصغيرة، التي كانت تُطلب مني، في نشاط وسرعة، وأن يجعلني أتذوّق في سنّ مبكّرة، طعم الفرح في العطاء. وعلى ما كان بيننا من فارق في السن، شاسع، احتفظتُ له دائماً، بمودّةٍ كبيرة، كانت تدفعني حتى أواخر حياته، لمعانقته بفرح، كلّما كنت ألتقيه في الطريق!...

أما أمي، واسمها "ماري"، فإني، حتى اليوم، وبعد مضي ثلاثة وثلاثين سنة على وفاتها، وهي في التاسعة والسبعين، أتساءل كيف قُيّضَ لامرأةٍ مثلها، أن تحيا بمثل ما

كانت تتميّز به حتى لحظتها الأخيرة، من إيمان ومحبّة وتضحية. أعرف أنّ مثل هذا السؤال يتبادر تلقائيّاً إلى ذهن كلّ ابن... إلا أنّ ما كانت والدتي تحمل وتتحمّل، يبدو لي حتى اليوم أنه يفوق الطاقة البشرية العادية. فلقد كانت هي، حقّاً، قلبَ البيت وعقلَه وروحه. كانت أبداً كتلةً متّقدةً من العطاء والمسامحة، على ما كانت تعاني دائماً، بفعل ما كانت تتحمّل من مسؤوليات في نطاق البيت والعديد من الأهل والأقرباء، من ارتفاع في الضغط الدموي، وألمٍ مبرّح ودائم في الرأس، انتهيا بها إلى إجهاد قلبها، فانطفأت، وهي راقدة، ليلة 12- 13 تشرين الثاني من عام 1979.

حسبي الآن ما كانت تقوم به داخل البيت، إذ كانت تقوم بخدمة أمّها، التي كانت تلازم الفراش بصورة دائمة. وكانت كلّ يوم تقريباً، تغسل أغطية سريرها، لا سيما عندما كان الممرّض يستخدم العلق من أجل سحب الدم لها، مخافة حدوث انفجار في الدماغ، بسبب ارتفاع مفرط لضغط الدم لديها... وكانت أمّي، إلى ذلك، تقوم بخدمة خالي العازب "حنين"، الذي كان حنوناً بقدر ما كان صاخباً... وكان عليها أن ترعى شؤون البيت طبعاً، وكنا صبيّين وأربع بنات. فكانت كلّ يوم تغسل بيديها المناشف والفوط البيضاء، التي كان والدي يأتي بها كل مساء، ليحمل غيرها صباح اليوم التالي... ولما كانت نفقات البيت، العادية منها والاستثنائية، تفوق قدرات والدي المالية، قررت أمّي أن تقوم بعمل ما، فأخذت تتعاطى التطريز، ونجحت، فباتت تُطلَب منها المطرزات بكثرة.

وكانت أمّي عزيزة النفس. فما كانت تطلب شيئاً من أحد، لا سيما وأنّ أختها الصغرى، "ذكية"، كانت زوجة أحد أثرى أثرياء دمشق. ولكن خالتي لم تكن تقصّر في إرسال ما يفيض عن أولادها الستة، من ألبسة وأحذية بين حين وآخر.

وكانت أمي هي التي تهتمّ بشؤون مدارسنا، أخواتي وأخي وأنا، سواء في "مدرسة لورد" في حي القصاع، أو في "مدرسة المحبة" في باب توما، أو في "المدرسة البطريركية" في حارة الزيتون. وكان مسؤولو تلك المدارس جميعاً على بيّنة من وضعنا المادي. وما كانت أمي تُخفي علينا أنهم كانوا يتساهلون معنا بعض الشيء. من ذلك مثلاً أن أختي نور درّست أطفال مدرسة "لورد"، وهي بعد في الثالثة عشرة من عمرها... وقد حدث لأختي الثالثة "جوزفين"، الأمر نفسه، إذ سُمح لها أن تدرّس في سنٍّ مبكرة، في مدرسة "راهبات المحبة" في "باب توما" سنوات طويلة، حتى عام 1955، حيث قرّرت اختيار الحياة الرهبانية...

وأما أختي الكبرى، "روز"، فقد تركت المدرسة باكراً، وتعلّمت الخياطة على يد خيّاطة ماهرة تُدعى "مدام فرح". وكانت في السادسة عشرة من عمرها، عندما فتحت

مشغلاً للخياطة في بيتنا، كان يضمّ لا أقلّ من ثماني فتيات، معظمهنّ مسلمات. فاستطاعت بذلك أن ترفد العائلة بدعم مالي لا بأس به.

ثمّة وجهٌ آخر لا بد من الإشارة إليه، وهو يخصّ حياتنا الدينية.

كانت أسرتنا، كسائر الأسر المسيحية في الحارة، تعيش إيمانها تلقائيّاً، فكان انتماء العائلات الطائفي، يُعرَف من الكنيسة التي كانت كل أسرة تصلي فيها. إلا أنّ ذلك لم يكن ليؤثّر بأي حال على العلاقات بينها، لا على صعيد الكبار، ولا صعيد الشبيبة والأطفال. وكانت حارتنا - التي أُزيلت كلّياً بسبب امتداد شارع بغداد - تقع بين كنيسة الصليب المقدس، الأرثوذكسية، من جهة، وكنيسة القدّيس كيرللس الكاثوليكية، من جهة أخرى. وكانت كلتا الكنيستان حديثتي العهد، إذ يعود بناء الأولى منهما، إلى عام (1933)، فيما يعود بناء الثانية إلى عام (1930).

وكان أهلي، عندما يريدون أن يصلّوا، يذهبون إلى الكنيسة الكاثوليكية، لا سيما يوم الأحد وأيام الأعياد. وكنت حكماً أرافق أمّي إلى الكنيسة، مع أخي وبعض أخواتي. إلا أني، بسبب ما فُطِرتُ عليه من حركة دائمة، كنت أحبّ أن أقوم ببعض الخدمات الطقسية، كحمل الشموع خلال دورة الإنجيل أو دورة القربان، أو خلال قراءة الرسالة والإنجيل، أو حين تقديم البخور للكاهن. وبذلك كان الوقت يمضي سريعاً، دون أن أفطن لما كان يتوجّب عليّ أن أقوله خلال الصلاة، ولا كان أحد يهتم بمثل هذا الأمر، لا لديّ، ولا لدى سائر الأطفال في الكنيسة. وكان كاهننا متقدّماً في السن. فكان أحياناً يحتاج إلى كاهن آخر يساعده في بعض الأعياد، مثل عيد الميلاد أو عيد الفصح. وكان الكاهن المساعد هو أيضاً متقدّماً في السن. إلا أني بدأت ألاحظ لديه، وهو على الهيكل يصلّي، ما بدا لي أنه "تمتمة" شبه دائمة، كثيراً ما كانت تثير استغرابي لديه هو بالذات. واستبدّ بي الفضول لأعرف سر هذه "التمتمة". وذات يوم، جاءني جواب من أحدهم، زادني استغراباً واستهجاناً... فقد قيل لي: "إنه يراجع دائماً، الحسابات التي كان قد وضعها في "بنك مرقّدة"، والتي خسرها كلّها، بعد أن أُعلِن إفلاس هذا البنك، من زمان!"... وما كنت أسمعه أحياناً، خلال بعض الأحاديث بين الطلاب في المدرسة، أو أثناء بعض الزيارات، حول اهتمام الكهنة والراهبات، المفرط، بالمال، ثبّت في ذهني الطفولي، هذه التهمة البشعة بحقّ هذا الكاهن، زماناً طويلاً، إلى أن علمت، بعد سنوات كثيرة، أنّ ثمّة صلوات في القداس، يتلوها الكاهن في سرّه، وفق الترتيب الكنسي، فيبدو معها وكأنه "يتمتم"، فيما يكون المرنّم يصدح بصوته... إلا أن هذه "التهمة" الظالمة، كان لها يومذاك، فضلاً عمّا كان يرافقها من ثرثرات الناس حول

المال في الكنيسة، تأثير عميق في نفسي، ولّد لديّ باكراً نفوراً عظيماً من المال، لم يبارحني حتى اللحظة، لا سيما منذ أن قرّرت اختيار الكهنوت المتبتّل، نهجاً لحياتي...

ومن آثار طفولتي الدينية أيضاً، الراسخة لديّ، في غير سبب واضح لها، كان حبّي ليسوع وعطفي على الفقراء.

أمّا حبّي ليسوع، فقد كان تلقائيّاً، عفويّاً، لا مسوّغ فكري له، وأنا في مثل هذه السن. أهو نبت في البيت أم في إحدى المدارس؟ لست أدري. إنما الذي كنت أدريه وأتذكّره دائماً، هو أنّ أهلي، وقد كانوا يثقون بصدقي: إذ لم أكن أكذب، ودرجوا على الاستعانة باسم يسوع، عند نشوب أية مشكلة مزعجة، في المدرسة أو الحارة، كان يُنسب إليّ المشاركة فيها، فيسألونني القَسَم باسم يسوع. وكان الجميع يعرفون أني، إذا ما أقسمت باسم يسوع، كان ذلك الدليل القاطع على أني بريء من كل ما أُتهم به، براءةً كاملة!

وأما عطفي على الفقراء، فقد يكون نشأ لديّ من جرّاء ما كنت أسمع وألاحظ في البيت، وما كنت، خلال بعض الزيارات، أسمع وأقارن بين بيتنا وبيت بعض الناس! ثم إني كنت أعرف الصعوبة التي كان أهلي يواجهونها أحياناً، في تأمين أجرة البيت. كما أني كنت أسمع أنّ الإدارة في هذه المدرسة أو تلك، كانت تخفّض الأقساط المترتّبة علينا. وكنتُ أرى أمي، بعد كلّ ما كانت تتحمّله من عناء في البيت، تسهر الليل لتنجز بعض التطريزات، وأموراً أخرى كثيرة كانت ماثلة أمامي، ولا أدري لها تفسيراً ولا نهاية... ولذا كنت أتعاطف مع كل الفقراء في الطريق، وإن كنت غير قادر على تقديم أيّ شيء لهم... وعندما أكون في البيت، كنت أتحيّن مجيء أحدهم إلى بيتنا، كي أحمل له شيئاً ما. وقد حدثت لي ذات مرة حادثة طريفة، سأرويها على غرابتها. كنت ذات يوم على سطح البيت، بالقرب من الدالية الكبيرة، فقُرع الباب. وأسرعتُ أطلّ على الطارق فوق الدرابزين الحديدي، وإذ به فقير يقرع الباب من جديد ويقول: "من مال الله!". ولما كنت أسمع أحياناً من لا يريد أن يعطي الفقير شيئاً، يقول له: "الله يعطيك"، خطر ببالي أني إن قلت له: "الله لا يعطيك"، سيظلّ عند الباب ينتظر من يعطيه! أجل، هكذا فكّرت! وقلت له على الفور: "الله لا يعطيك"، وركضت نحو المطبخ وحملت له رغيفاً، وهبطت الدرج بسرعة، واندفعت نحو الباب الخارجي وفتحته... ولكني لم أجد أحداً! فحزنت، وأخذت أحدّق في الحارة، يميناً ويساراً، عساني أعرف الشحّاذ بين المارّة... ولم أوفّق، فوقفت أتساءل: لِمَ لَم يفهم عليّ؟

وقد يكون حبّي للفقراء، ورغبتي في مساعدتهم، السبب في ما كنت أحياناً أشعر به من

غضب حيال الأغنياء، ولا سيما الذين يتباهون بمظاهر ثروتهم أمام الناس. وإن ذلك الشعور ليذكّرني بحادثة أخرى، فيها من الوقاحة ما فيها. إلا أني سأرويها بتفاصيلها البشعة. فقد نشب ذات يوم عراك بيني وبين طفل، كان لا يني يتباهى أمامي وأمام الأطفال الآخرين، بغنى أهله، وبامتلاك والده سيارة، يوم كانت السيارات في مدينة دمشق، تُعدّ على أصابع اليد الواحدة أو اليدين في أحسن حال. وفجأةً شعرت بلكمة قوية على رأسي، فالتفتّ فإذا بي أمام والد الطفل، الذي لكمني لتوّه، فما كان مني إلا أن حدّقت فيه، وقلت له في تحدٍّ وقح: "عبتتقاوى على طفل؟ أنت حمار محمّل دهب!"

وفي هذا الإطار العائلي والنفسي والاجتماعي، لا بدّ لي هنا من الإشارة إلى حدث خطير طرأ علينا في شتاء عام 1939. ذلك أن خبر انتشار مرض التهاب السحايا بدأ يسري في دمشق. وتحدّث الناس عن إصابة شابّين من حيّنا، بهذا المرض، لم يعتّما أن وافتهما المنية. في هذه الأثناء، أُصيبت أختي الصغرى، "رينيه"، وكانت يومها لمّا تبلغ الثالثة، بالتهاب، لم يطل الأمر بالأطباء في المشفى الفرنسي، القريب من منزلنا، والذي كان خالي الأكبر، "نقولا"، يعمل فيه، بصفة نجّار ومسؤول عن المشتريات، أن قالوا إنه التهاب السحايا. فأخبروا أمي وخالي، بضرورة نقل أختي إلى المشفى، في محاولة مزدوجة، الأولى لإنقاذها، والثانية لإنقاذنا في البيت من العدوى. إلا أنّ والدتي كانت ترفض بعناد عجيب. لم أعرف يومها، ولم أحاول أن أعرف في ما بعد، سبب رفضها هذا! أهو عجزنا الواضح عن دفع تكاليف المشفى يومذاك، أم خوفها على تفريط الأطباء والممرضين بطفلتها؟ وأياً كان السبب، ظلّت أختي الصغرى في البيت ثلاثة أشهر كاملة، وهي تترنّح بين الحياة والموت، وكانت خلال هذه الفترة، غائبة كلّياً عن الوعي.

وكان طوال هذه المدة، فضلاً عن بعض الأطباء، يزورنا كل يوم، ممرّض من المشفى، يدعى "متري"، يحظى باحترام الجميع. وكان لا يخفي إيمانه بالسيدة العذراء. أما صداقته لخالي "نقولا"، فكانت أكثر من معروفة. وإذ به يحيط الطفلة "رينيه" بعناية ومحبّة، جعلت البعض يقولون أنه يتصرّف حيالها وكأنها ابنته، إذ لم يكن قد تزوّج بعد. وكانت خبرته الطبية الواسعة، محطّ ثقة الجميع، ولا سيما أطباء المشفى الفرنسي، وعلى رأسهم الطبيب الفرنسي الشهير، "شارل". وكان الشتاء في ذلك العام، قاسياً جداً وكثير الثلوج. إلا أنه لم يتخلّف يوماً عن الحضور إلى البيت، في موعد وفي غير موعد. وإني لأذكر جيداً كيف كان يقول لأمي: "أم ميشل، أنت مؤمنة! اتكلي على الله"، في حين كان جميع الأطباء دون استثناء، يؤكدون أن الطفلة، إن أفلتت من الموت، ستكون حتماً إمّا ضريرة، وإمّا مجنونة!

في هذه الأثناء، أُرسِلتُ، على تمنّعي، مع أخي "ميشل"، إلى بيت خالتي في "باب توما"، خوفاً علينا من العدوى، وذلك لفترة غير محدودة!... فأقمت هناك أسبوعاً واحداً، وقد رفضت الاستمرار فيه، لأن أحد أبناء خالتي، وهو في مثل سني، قد تصرّف معي تصرّفاً بدا لي على جانب من التعالي. ويومها، ما كنت قد بلغت السابعة! فغادرت البيت دون إعلام أحد، ولا حتى خالتي، التي كنت أحبّها كثيراً، وفاجأت أهلي بعودتي إلى البيت. ولم أعد أغادره إلا إلى المدرسة، فيما أخي ظلّ هناك ثلاثة أسابيع كاملة. إلا أنه يوم عودته بالذات، أصيب بالتهاب من نوع "الباراتيفوئيد"، ألزمه الفراش، فكان في الغرفة الواحدة، ثلاثة مرضى: جدتي في سريرها، وأختي في سريرها، وأخي في فراشه على أرض الغرفة. وظلّ أربعين يوماً حتى أبلّ من "الباراتيفوئيد".

وكانت أمي أبداً واقفة، في جاهزية مدهشة وإيمان رائع، وذلك دون أن تهمل أحداً من أفراد العائلة، ولا عمل والدي، ولا التطريز... ولكم من مرة كنت أتساءل، على صغر سني، هل هي نامت؟ هل هي أكلت؟ كانت لغزاً وحسب. واليوم، إذا ما سُئِلت عن شَبَهٍ لله على الأرض، لا أجد سوى قلب الأم جواباً شافياً. وإني لأذكر أكثر ما أذكر من تلك الفترة، أنّ أمي كانت، كلّما قدّمت الدواء لمريض، ولا سيما لجدتي وأخي وأختي، تقول بنبرة قوية، خالية من أي رتابة، كلمة انغرزت في أعماقي، حتى بتّ أردّدها تلقائياً، كلّما تناولت حتى الآن، دواء ما: "مِن يَدِّك يا عدرا!".

وكانت أمي، أبداً، كل يوم، في غرفتنا الثانية، تملأ قنديل العذراء بالزيت، وتضيئه ليلَ نهار، أمام أيقونتها العجائبية!

وجاء يوم، تلفّظت فيه أختي "رينيه" فجأة، بعد ثلاثة أشهر، بكلمتها الأولى: ماما! وكان صوتها يومها أضعف من ضعيف! إلا أنه كان الفرح والفرج والشفاء الكامل، وقد ثبت، خلافاً لتوقّعات جميع الأطباء، أنها سالمة بالكلية... وأضيف: أنّ أحداً من أهل البيت لم يُصَب بالعدوى الخطيرة!

وهنا أشعرني مدفوعاً تلقائياً لرواية ما حكت خالة أمّي "أسماء" للعائلة والأهل، إثر شفاء أختي الصغرى "رينيه"، ممّا كان حدث لي من مرضٍ كاد أن يقضي عليّ، يوم كنت بعد في الثانية من عمري.

روت أني أصبتُ بحرارة مفاجئة ومرتفعة، تواصلت عدة أيام، حتى إنها كانت مع خالتي "ذكية"، تتناوبان لتساعدا أمّي لئلا تبقى وحدها بقربي. وذات يوم ساء الوضع، واستشعر الطبيب الخطر. فأخبرهما بذلك، فظلّتا مع أمي بالقرب مني. وفي ذلك المساء، عاد أبي من محلّه على عادته، في ساعة متأخرة، فحيّى الجميع وسأل عني.

فأجابته أمي بغضب، وهي تبكي: "الولد راح يروح. وينه القدّيس جاورجيوس؟". وعندها فقط، لاحظ أبي أن الأيقونة مقلوبة على وجهها... فقال لأمي بهدوئه المعهود: "القدّيس جاورجيوس معو، وخايفة؟... عيب! جلّسي الصورة. جلّسيها". وأعاد الصورة إلى وضعها الطبيعي فوق رأسي... ولكنهم كلهم ظلّوا طوال تلك الليلة، في سهر وقلق وصلاة... وفي الصباح، جاء الطبيب، وفحصني فحصاً دقيقاً، ثم التفت إليهم باسماً وقال: "الحمد لله! في تحسّن!..." ثم كشف عن كامل جسمي، فوجد في أعلى ساقي اليسرى ما يشبه الدمّل، فقال لهم من جديد: "أنا شايف هون علامة خير! الحمد لله! برجع الظهر... اتكلوا على الله! سلامته!"

وعاد ظهر اليوم نفسه، وكانت الحرارة قد سجّلت انخفاضاً واضحاً. وكان أول ما فعله أنه كشف عن ساقي اليسرى، وإذا بالدمّل كان قد انتفخ على نحو كبير، فأبدى ارتياحه وهو يكرّر: "الحمد لله! الحمد لله!" طمأن الحضور وطلب وعاءً كبيراً، ثم أخرج قطناً ومبضعاً ومعقّمات، وقال وهو يشق الدمل: "باسم الله!" وتدفّق القيح في الوعاء بكمية مذهلة للحظات... ثم التفت الطبيب إلى أمي وأبي وخالتي، وقال لهم مبتسماً: "مبروك! ابنكم ولد من جديد! الحمد لله! الحمد لله!" ثم نظّف الجرح ومضى... وكان أن تعافيت حقّاً... وقد ترك الدمّل ندبة كبيرة حتى اليوم في أعلى ساقي اليسرى!

هذا بعض من ملامح أمي الرائعة. وثمة ملمح آخر، عجبتُ له بعد مضي سنوات طويلة، وقد ترك في قلبي، كلّما تذكّرته، حزناً عميقاً، بفعل ما كنتُ سبّبت لها من ألم، فوق جميع همومها، من جراء انشغالي المفرط باللعب، وانصرافي بين حين وآخر عن الدراسة. ولكم حاولت أن أفهم السبب العميق لمثل هذا التصرف. أتراني كنت بذلك أحتجّ على عدم اهتمامها بي، الاهتمام الذي كنت بحاجة إليه؟ لست أدري. والواقع أني كنت أعشق اللعب في الحارة، وأتقن فنّ تجميع الأولاد أترابي، وحتى مَن يكبروني سنّاً، حولي، ولم أكن يومها قد تجاوزت السابعة. وكنت أعرف كيف أقسّم اللاعبين إلى فريقين، حتى بتّ أُعرَف لدى الكبار جميعاً، بأني محرّك الحارة بالنسبة إلى معظم من فيها وفي الحارات المجاورة، من أولاد. وكان عمق حارتنا، المجاور لبساتين الغوطة، يستهوينا. وكنّا، ما إن نعود من مدارسنا المختلفة، حتى يمرّ كلٌ منّا بأهله، فيلقي حقيبته المدرسيّة، ودون الالتفات إلى احتجاجات الأهل، يهبّ راكضاً إلى "الملعب"، حيث الرفاق ينتظرون، ثم ننظّم اللعب وفق أعمارنا، بين "كرة قدم"، نستخدم فيها كرة محشوة بالقماش، و"طمّيمة" تقذف ببعضنا إلى أول البساتين، لنختبئ في النباتات العالية، أو وراء الأشجار. وكان أصحاب هذه البساتين من معارف أهل الحارة

وأصدقائهم، من فلاحين مسلمين، بينهم وبين أهلنا صداقات وزيارات. ويومها، ما كان أحد من الأطفال يفرّق بين جورج وأحمد، وجميل وهلال، وميشل وعمر، ونمر ومحمود، وحنين ونسيب. وكنا، إذا ما بدا "لأبو وحيد"، أو "أبُو علي"، أو "أبو حمزة"، أننا بالغنا في إيذاء بعض النبات لديهم، نسمع من أهلنا فقط تنبيهات مشدّدة، بضرورة احترام هذه الصداقات، لا سيما وأن أحداً من هؤلاء الفلاحين، ولا من زوجاتهم، ما كان ليتعرّض لنا بكلمة أو بتنبيه... وكان أهلنا يقولون لنا: إننا أبناء حارة واحدة، وكفى!

وكنا، عندما كان يقترب عيد الصليب، في 14 أيلول من كل عام، نسعى لجمع الحطب من أجل "قبّيلة" العيد، من البساتين والبيوت في حارتنا والحارات المجاورة، في تظاهرات صبيانية صغيرة، تضمّ بضعة أطفال ليس إلا. وما كان "أهلنا" من الفلاحين المسلمين، يبخلون علينا بما لديهم من أعواد الحطب. وفي مساء 13 أيلول، كنا نجتمع، جموع الأطفال، من مسيحيّين ومسلمين، لنرتّب الحطب، ونكوّمه على نحو مدروس في أوسط نقطة في الحارة. وفي المساء، كنا نشعل النار فيه، فترتفع ألسنة نار "القبّيلة" عالية، فيما بعضنا يغذّيها بالمزيد من الحطب، وآخرون يتباهون بالقفز العالي فوق ألسنة النار، على مرأى من جميع أهل الحارة والجوار، في جوّ من البهجة العارمة، يستمرّ ما استمرّت ألسنة النار مرتفعة، ثم يخمد بخمودها...

وكنا في أيام الأعياد المسيحية الكبرى، كثيراً ما نرى بعضاً من هؤلاء الجيران المسلمين، يزورون أهلنا مهنّئين. وإني لأذكر جيّداً أني كنت أرافق أهلي، إذ يمضون لردّ الزيارة، أو للتهنئة بعيد الفطر أو عيد الأضحى... ويطيب لي الآن أن أذكر أن بعض هذه الصداقات قد تواصلت عبر السنين، حتى إني بتّ، وأنا كاهن، أرافق بفرح طبيعي، أمي، قبل وفاتها، لزيارة أختها "الخالة أم وحيد"، في بلدة "تل منين"، بالقرب من دمشق، حيث كانت قد انتقلت مع ابنتها "زهرية"، التي عملت لسنوات، في مشغل أختي الكبرى، في بيتنا. كما وأني كنت أرافق أختي "نور"، بعد وفاة أمي، في زيارة "خالتي أم وحيد"، سنوات طويلة أخرى، في البلدة ذاتها...

كان هذا جانباً من حياتنا الاجتماعية. وثمّة جوانب أخرى أحب أن أشير إليها، لأن تغييبها يشوّه صورة الحياة الواقعية، التي كنا نحياها في حارتنا.

وكانت إحداها السهرات العائلية والطارئة في الشتاء، التي ما كانت تخضع لمواعيد مسبقة، ولا لبرنامج رسمي، يزعج هذا أو تلك أي تغيير فيه. فكان كل شيء آنذاك وليد الساعة ومرتجلاً. وكنا، نحن الأطفال، خلال هذه الزيارات، نلمس حقّاً الفرح الذي كان يغمر الجميع في غير تصنّع. وكثيراً ما كانت "اللقمة" الطيبة توضع بالقوة،

على صينية كبيرة، فيلتفّ حولها الكبار، بينما كان الأطفال يلتفّون بدورهم حول صينية أخرى في الغرفة ذاتها، أو في غرفة مجاورة. ولم يكن بنادرٍ أن تحمل أحياناً، طنجرتان من الوجبة الشعبية الدمشقية، المسماة "تسقية"، واحدة للكبار وواحدة للأطفال، فتكتمل الحلقتان حولهما، ويأخذ كل واحد يتناول الطعام بالملعقة من الطنجرة مباشرةً، دون أن يبدر من أحد، ما يوحي بقرف أو نفور! وكانت قمة السهرة، عندما تُحمَل الطنجرتان إلى المطبخ، ويجلس الجميع، يتقدّمهم الأطفال، ليستمعوا إلى مسلسلات القصص التي كان يعشقها الكبار والصغار، والتي لم يكن جمالها مع تكرارها ليخبو، لا سيما عندما يكون المتحدّث مشهوراً، كما كان قريبنا "غطاس كويتر"، وصديقنا "غطاس حلاق"!

وأما سهرات الصيف الصاخبة والمحبَّبة، فكانت كثيراً ما تُقام في باحة البيت الواسعة، حول البحيرة، وأحياناً على أسطح المنازل. وكانت كثيراً ما تترافق بأنغام العود والدربكة، وأصوات جميلة من أبناء الحارة أو من أصدقائهم... وكانت هذه السهرات تطول... ولم يكن من النادر أن يرتفع بين هذه الأصوات، صوتٌ جميلٌ لطفل، كما كان صوت صديقي الطفل "الياس ديراني". وكان الياس هذا يتقن بعض أغاني محمد عبد الوهاب، ولا سيما أغنيته المفضلة "يا ورد مين يشتريك"، التي كان يهوى غناءها، كلّما كان يمشي وحيداً في العتمة، حتى بيت أهله في عمق الحارة، القريب من بساتين الغوطة.

ثمّة حادثة، كان يمكنها أن تكون خطيرة، أتذكّرها، كلما تذكّرت صديقي هذا، الطفل "الياس ديراني"، الذي كان يكبرني بعام واحد. فقد كان يهوى إلقاء الحجارة على كلب، كنت قد جلبته ليحرس بيت خالي "حنين"، الذي كان نجّاراً، وكان قد شيّد له بيتاً ومعملاً للنجارة، متلاصقين، يقعان في قلب البساتين المجاورة لحارتنا. وكنت، بين حين وآخر، أصحطب هذا الكلب معي، في جولة عبر الحارات والبساتين. ووجدتني بعد ظهر أحد الأيام، أقوده من سلساله المتين، بالقرب من بيت أهلي. وإذ به يقذف بنفسه فجأة، وهو يزمجر. فرأيتني على بُعد خطوات قليلة من الياس هذا، وقد التصق بالحائط مرتعداً، فيما كان يحمل الخبز لأهله. وأخذ عواء الكلب يعلو، وتهجّمه على الطفل يشتد، وكأني به قد تحوّل إلى وحش. وكنت أمسك السلسلة الحديدية بكلّ قوتي، فيما عواء الكلب وتهجّمه يتفاقمان، حتى إنّ الكثيرين من أهل الحارة، خرجوا إلى شرفات منازلهم، يحدّقون فينا في قلق. وكانت أختي الكبرى "روز" قد خرجت إلى الشرفة، وعلا صوتها ينبّهني من ارتداد الكلب عليّ... وفجأة، رأيت الكلب يرتدّ عليّ ويعضّني من حالبي. إلا أني ظللت قابضاً بقوة على الجنزير، ليقيني

بأنّه، لو طال الياس، لكان مزّقه. وكانت أختي "روز"، في هذه الأثناء، قد هبطت الدرج بسرعة، وفتحت الباب، وأسرعت إليّ، وأمسكت بالجنزير، وصرخت في الكلب بصوت قوي، وأدخلته البيت، وصفقت الباب خلفها! ويومها اقتادوني إلى المشفى الفرنسي، حيث عولجت بحقنة في العضل ضد مرض الكَلَب.

في تلك الفترة، كان حديث الناس يدور دائماً حول الحرب القائمة بين الألمان، ومن كان يُطلَق عليهم اسم الحلفاء. وكانت بعض المظاهرات، التي تجوب شوارع دمشق بين حين وآخر، تذكّرنا أيضاً على طريقتها بهذه الحرب. وكان الليل أيضاً يذكّرنا بها كل مساء، إذ كانت الأنوار داخل البيوت وفي الحارات والشوارع، مطليّةً كلّها باللون الأزرق، تحت طائلة العقوبة، خوفاً من الغارات الجويّة! وكانت دمشق كلّها، بسبب ذلك، تخضع لتعتيم عام!

أما السهرة التي لا يجوز لأحد أن ينساها، والتي كان الجميع يترقّبونها، فقد كانت سهرة أم كلثوم، في آخر خميس من كلّ شهر. هذه السهرة، كان ينعم بها، نظريّاً، من يملك جهاز الراديو فقط. ولكن هؤلاء أقل من قلة. والواقع أن الرجال وبعض النساء، كانوا يتدفّقون بالعشرات على من كان يملك الراديو، وما كان لأحد أن يعتذر، مهما طالت السهرة... ولكم كانوا يتحدّثون عنها في الأيام التالية... حتى تحين السهرة الجديدة!...

ضمن هذا الإطار الاجتماعي، مرت سنوات الدراسة التي أعيها جيّداً، من عام 1937 إلى عام 1945. وقد تنقّلت خلالها بين ثلاث مدارس، هي "مدرسة لورد" في حي القصاع، ومدرسة "راهبات المحبة" في حي باب توما، و"المدرسة البطريركية" في حارة الزيتون، بالقرب من الباب الشرقي. وكانت المدرستان الأولَيان بإدارة راهبات المحبة، والمدرسة البطريركية، بإدارة الآباء البولسيين أولاً، ثم بإدارة الآباء المخلصيّين. وكنت جدّيّاً في دراستي، بصورة عامة، ولكني لم أكن يوماً مجلّياً فيها. ولم أسعَ يوماً إلى ذلك، ما لم يأتِني تنبيهٌ شديد، يترافق بدموعٍ من أمي، فأشدّ الهمّة، وأعوّض بسرعة ما يكون قد فاتني. ذلك بأني كنت دائماً أجدني تلقائيّاً، في جميع هذه المراحل الدراسية، أجمع الأولاد حولي، أو هم يتجمّعون حولي، لما كان يتجلّى لديّ، داخل جميع هذه المدارس، من ميلٍ صريحٍ وجريءٍ للدفاع عن المستضعفين. فبتّ، بذلك، أمارس، من حيث لا أدري، شيئاً من الزعامة الصبيانية. وقد دفعني هذا الشعور مرتين، على صغر سني، إلى التطاول بلكمةٍ من قبضة يدي، على مدرّستين مختلفتين في مدرستَي الراهبات، وبالكلام الوقح على الكاهن المسؤول عن النظام في المدرسة البطريركية، على ما كان يتميّز به من صرامة، بل من قسوة!

كانت جميع هذه الممارسات كثيراً ما تدفع أهلي، خلال الصيف، إلى إبعادي عن دمشق، في ما من شأنه أن يغريني بتسلية تخلو من طيش الحارة والصبية فيها. وهكذا كنت أجدني، لفترة تطول أو تقصر، في مصيف الزبداني الجميل، في منزل أشبه بقصر، يعود لزوج خالتي "ذكية"، التي كنت أحبّها كثيراً. وفي الحقيقة، كنت أمضي هناك، أياماً حلوة، مع أولاد خالتي الستة، خمسةٌ منهم صِبيان وشُبّان، وكان أحدهم يصغرني بسبعة أيام. وكانوا كلّهم، بما فيهم ابنتهم الكبرى، يعاملوني بمنتهى اللطف والصبر. وكان هذا "القصر" كثيراً ما يغصّ بالضيوف، القادمين من قريب، ومن بعيد. وكانوا كلّهم يجدون فيه مودّةً فائقةً، ومائدةً شهيّةً، وإقامةً طيّبةً للغاية. وكنت أحياناً أؤخذ بهذه الأجواء الجديدة... إلا أني كثيراً ما كنت أفاجِئ نفسي بمقارنةٍ لا مفرّ منها، بين ما أراه وآكله وأعيشه هنا، وبين ما كان في بيت أهلي... وتستبدّ بي المقارنة، فأحاول أن ألجم مشاعري هذه، أقلّه كُرمى لخالتي الطيبة، الحنون، فأختبئ في الحمام وأسترسل في البكاء، ثمّ، بعد برهة، أغسل وجهي وأخرج، وكأنّ شيئاً لم يكن... إلا أني مراتٍ كثيرة، كنت أنفجر فلا أعود أتمالك نفسي، وأُخرج ما في قلبي من شعور بالظلم، وأُصرّ على العودة إلى دمشق. وعندها ما كان أحد أو شيء يستطيع ثنيي عن قراري...

وهنا، لا بد لي من ذكر حادثة كان لها تأثير كبير عليّ فيما بعد، وإنها لعلى قدر كبير من الغرابة...

طوال هذه المرحلة من الطفولة المشاغبة، كنت، حتى عام 1939، أسمع أنباء طارئة عن وفيات كثيرة، فلا تثير لديّ شيئاً يُذكر، إذ كانت الحياة من حولي تواصل مسيرتها المألوفة. وما كنت حتى ذلك الحين، واجهت واقعة الموت ولا مرة واحدة.

وذات صباح من هذا العام عينه، فوجئت بأمي وهي تبكي بمرارة. وحاولت معرفة السبب، فلم أظفر منها بشيء. فأقلقني الأمر كثيراً. فسألت أخواتي، فعلمت أن ابنة عمّ أمي، واسمها أديل، قد ماتت. وكنت أعرف أن أمّي كانت تحبّها كثيراً، وكانت أديل فتيّةً بعدُ وجميلةً جداً، وأُمّاً لطفلة وثلاثة صبية، اثنان منهم كانا رفيقَي لعبنا في أغلب الأحيان.

فاستبدّ بي الفضول لأعرف كيف يكون الميت، ربّما لأرى كيف كانت تبدو أديل، وهي ميتة. وبعد تردّد طويل، قرّرت، في غفلة من أهلي، أن أمضي بمفردي إلى بيت أديل... وهو يبعد قرابة مائة متر عن بيتنا، في منعطف حارتنا. فوجدته طبعاً يغصّ بالناس. والغريب أنّ أحداً لم ينتبه لوجود طفل في هذا البيت، وفي مثل هذا الوقت. وتسلّلت إلى الغرفة التي كان فيها جثمان أديل ممدّداً على السرير، وسط الورود الكثيرة، فيما

كانت النسوة ينتحبنَ... عجبتُ لها أن تموت، وهي في مثل هذا العمر والجمال... وأطلت التحديق فيها، حتى انغرست صورتها في ذاكرتي حتى اليوم، إذ أكاد أشاهدها الآن، كما رأيتها مسجّاةً في سريرها... وإني لأذكر أيضاً أني تساءلت، وأطلت التساؤل: "لماذا هي لا تتحرّك؟ هل كل الأموات لا يتحرّكون؟" كما أني أذكر جيداً أني قلت يومَها في ذاتي: "أنا، عندما أموت، سأتحرّك!..." قولٌ غريب؟ بل أكثر من غريب!

وهل لغير الطفل أن يفكر على هذا النحو؟

ثم لست أدري لِما استبدّت بي رغبة قوية في مرافقة الجثمان إلى المقبرة، كما يفعل الكبار، وما كنت يوماً، حتى ذلك الحين، دخلتُ مقبرة.

والغريب في الأمر أنّ أحداً لم يلتفت إليّ، بعد الظهر، أثناء التشييع، وأنا أسير بين من يرافقون الجثمان، سيراً على الأقدام، حتى المدافن الكائنة في منطقة الباب الشرقي. فأقيمت الصلاة مرة أخرى في كنيسة المدفن، فحضرتها أيضاً... ثم تحرّك المنيّحون حاملين النعش حتى مكان الدفن، وكانت عيناي مسمّرتين على النعش... وحضرتُ إنزال النعش في الأرض، ورأيت بعض الكبار يرسمون إشارة الصليب على صدورهم، فيما آخرُون كانوا يلقون بعض التراب فوق النعش، فيسمع له صوت غريب... وأخذ الناس يغادرون منطقة القبر ثم المدفن، فتبعتهم حتى وصلت إلى الحارة، وانزويت في البيت مرتعداً، دون أن يفطن أحدٌ لغيابي، لسبب بسيط، وهو أني كنتُ كثيراً ما أغيب عن البيت.

وبعد قليل، رأيتُ أمي تقترب منّي وهي تمسح دموعها، ثم تحتضنني بقوة، وتقول لي: "ليش عملت هيك؟ ما كنت لازم تروح!" وأذكر أنها في ذلك المساء، أبقتني بقربها طوال الوقت، حتى العشاء. وعندما حان وقت النوم، أصرّت عليّ أن أنام معها في السرير. وأذكر ليلتَها أني نمت، وأنا أردّد وراءها، جملةً جملةً، ما كانت تتلو من صلوات للسيدة العذراء...

إلا أني في تلك الليلة، عرفت لأول مرة في حياتي، ما يُدعى كابوساً، إذ وجدتني بين يدي أمي، وهي تحاول تهدئتي، فيما يداي تتحرّكان، كما لو كانت تحفران صدري بالذات، وأنا أصرخ في هلع: "ما بدّي موت هون!... ما بدّي موت هون!"... تُرى، هل كانت هذه الحادثة وراء ما كان يستبدّ بي من نزوع دائم إلى البكاء، ولكن في خفية وصمت، كلّما كنتُ أرى في بيت أهلي، أحداً راقداً دون حراك؟!...

في هذه السنوات كلّها، كانت الأوضاع السياسية في البلد، في اضطراب دائم، لا يعرف مَن كان في مثل سنّي، لا أسبابه، ولا نتائجه، لا سيما وأنّ وسيلة الإعلام الوحيدة

آنذاك، كانت "الراديو". وكان "الراديو" غائباً كلّياً عن بيوت عامة الناس، مثل بيتنا. وأما الصحف اليومية، فكانت قلّما تصل إلى البيوت المماثلة لبيتنا. إلا أننا كأطفال، كنا نرى ونسمع المظاهرات، التي كانت، بين حين وآخر، تجوب شوارع دمشق. وكان بعضها يمرّ بمنطقتنا، يوم كانت هذه المظاهرات تأتي من مناطق دوما وحرستا وجوبر. وكان بعضها يُطلِق شعارات، قلّما كنّا ندرك معانيها، الصغيرة أو الكبيرة. وكان بعض الأسماء يُذكَر أمامنا، فيعلق هذا الاسم أو ذاك، في ذاكرتنا، ومنها، مثلاً، اسم رئيس الجمهورية آنذاك، "الشيخ تاج". ولَكَم كنّا نُفاجَأ عندما كنّا نسمع، وهو على قيد الحياة، شعارات تُطلَق على الملأ بحقّه، وهي جارحة جداً... وكانت كلماتها تُردَّد وتُردَّد، دونما خوف أو خجل، حتى إنّ بعضها، على فجاجته، ما زال إلى اليوم راسخاً في ذاكرتي. فإن كان لي أن أذكر بعضها، فإنما أنا أفعل على مضض، إذ هي تقول بالحرف الواحد:

"يا شيخ تاج يا بومة　　يا بو اللفّة المبرومة
اعطيني شعرة من دقنك　　تساوي فيها التاسومة..."

ودارت الأيام، واجتاحت مظاهرات واسعة، بعد وفاته بفترة وجيزة، شوارع دمشق، وهي تصيح بأعلى الأصوات:

"يا شيخ تاج، يا أبونا　　كلابك جوّعونا!..."

وثمّة مظاهرات أخرى كانت تطلق شعارات وطنية، ما كنت آنذاك أدرك جميع معانيها، ولكنها كانت تلقى في أعماقي، في ما يشبه الحدس الوطني، ترحيباً تلقائياً... منها:

"نحن العرب، لو متنا　　ما منرجع عن كلمتنا
ومننده من تحت الكفن　　بدنا عزّك يا وطن"

وشعار آخر، كنت أدرك، على صغر سني، أنه كان يعنيني في الصميم، وهو يقول:

"فلتحيَ الوطنية　　إسلام ومسيحية!"

هذه الأجواء المضطربة، كانت دائماً تحرّك فينا، كأطفال، أوتاراً سريّة، قلّما كنّا ندرك بواعثها الحقيقية... من ذلك مثلاً أننا كنّا نغضب، ولكن دون الإتيان بأيّ حركة، عندما كنّا نرى العساكر المغاربة، التابعين للجيش الفرنسي، يقتحمون حارتنا لأيام أو لساعات، فيربطون أرسنة بغالهم الضخمة، بقضبان حديد شبابيك بيتنا أو بيوت الجيران... ولَكَم كان يثيرنا أن نرى بعد رحيلهم، أن بعض القضبان الحديدية قد لويت أو انخلعت من مكانها...

وقد حدث لنا مرة واحدة، عام 1939، إذ كان الثلج يغطّي الحارات والشوارع، أن

رأينا جنوداً سنغاليين، يسيرون الهوينى، وعيونهم على الناس يميناً ويساراً... فأطلق أحدنا صيحة استفزّتهم، فيما كان بعضنا يلوّح لهم بالأيدي في حركات غير مهذبة! وإذ بهم يهبّون لملاحقتنا، ورفع أحدهم الساطور بيده، وهو يزمجر، وأخذ يعدو خلفنا، فاستولى علينا الذعر، وتناثرنا كالعصافير في الحارات والأزقة، وقفز بعضنا في "الترامواي"، إذ كان عابراً، وهكذا نجونا بأنفسنا!

وجاء يوم، شاهدت فيه انسحاب فلول الجيش الفرنسي من دمشق! يومها كنتُ واقفاً مع الكثيرين، من أطفال وكبار، في رأس حارتنا، مقابل المشفى الفرنسي. وقد شعرت، على صغر سني، بذلٍ في مشية هؤلاء الضباط والجنود وراء آلياتهم، وقد رسّخت هذه المشية الذليلة، صورتهم حتى اليوم في ذاكرتي!

وفي الأيام التالية، لم أعد أرى بيننا الأخوين الطفلين جورج وجميل حمصي. فسألت عنهما. ففوجئت إذ علمت أن أباهما، الذي كان ضابطاً في الجيش الفرنسي، برتبة ملازم، وكان اسمه "نعيم"، قد اختار أن يرحل مع عائلته. فحزنت كثيراً لرحيل جورج وجميل وأهلهما، دون أن أدرك تماماً أبعاد هذا القرار... وبعد تحريات طويلة، كانت تحرّكها صداقة الطفولة، علمت أنهم آثروا البقاء في لبنان، وأنهم استقروا في زحلة... ولما أتيح لي بعد بضع سنوات أن آتي إلى لبنان، وأستقرّ بدوري في رياق، بالقرب من زحلة، أخذت على نفسي أن أبحث عنهم، حتى عثرت عليهم وزرتهم، ولَكَم كانت فرحتنا يومها غامرة!

واليوم، ونحن في عام 2012، أحبّ أن أقول إني، كلّما كانت تُتاح لي الفرصة لزيارة العائلة في زحلة، كنتُ أسارع إليهم، وكأني بي أستعيد بهم ومعهم، شيئاً من الطفولة الغائبة. وأما جورج، وقد استقرّ في بيروت، فكثيراً ما كنت أزوره، وأستعين به أحياناً في بعض الملمّات، وكان الصديق الوفيّ والمحبّ! وعندما سافر إلى كندا، حيث استقرّ في مونتريال، وأقام له عملاً هناك، كان دائماً يغمرني فرحٌ كبير إذ ألتقيه في بيته مع أسرته الرائعة، ونستعيد بالطبع بعض الذكريات الحلوة من الطفولة. وهو إلى اليوم من عام 2012، والأحداث تعصف بسورية، يواصل الاتصال بي للاطمئنان عليّ وعلى سورية. وأما جميل، فيسرني أن أقول إنه آثر العودة إلى سورية، حيث دَرَس الطوبوغرافيا، ثم درّسها في الجامعة. ثم تطوّع في الجيش العربي السوري، وتزوّج وعاش في دمشق، وظلّ يقدّم فيها خدماته بأمانة وحب، حتى وفاته بالسرطان عام 2000!

الفصل الثاني

كيف لطائرٍ أن يسجن نفسه؟

في مطلع صيف عام 1945، عاد من القدس إلى دمشق، شابٌ قريبٌ لنا، ما كنت أعرفه. وكان قد أمضى سنوات طويلةً في أحد الأديرة هناك، حتى بلغ مرحلة دراسة الفلسفة واللاهوت، استعداداً للكهنوت، فسُمح له بزيارة ذويه في دمشق. وكانت أمّه، واسمها "أسماء"، خالة أمي. وكانت أمي توليها حبّاً عظيماً، حتى بدت في تعاملها معها، وكأنها اتخذت منها أمّاً فعلية لها، تبثّها كلّ همومها وشجونها، نظراً لما كانت عليه جدّتي من مرض مزمن. والحقيقة أن تلك الخالة كانت إنسانة استثنائيّة، بلطفها، وصبرها ولسانها الدافئ، وذكائها، ورقّتها، واستيعابها للناس، وبقدرتها الفريدة على إيلائها اهتماماً شخصيّاً ومتابعاً، لجميع معارفها وأقربائها، كباراً وصغاراً، فضلاً عن أبنائها السبعة. وإني لأشهد لها بأنّ اهتمامها الواسع هذا قد رافقها حقّاً حتى الرمق الأخير.

هذا الشاب كان يدعى "إبراهيم". وقد علمتُ أنه ذهب طفلاً في مثل سنّي، وها قد عاد شاباً في العشرين، يرتدي الثوب الكنسي الأسود، الذي يخوّله للقب "شماس"، أي طالب الكهنوت. وقد تدفّق الأقرباء والأصدقاء إلى بيت أهله، يهنّئونهم ويحيّونه، وكثيراً ما كانوا يستعيدون معه بعض ذكريات الماضي، ولَكَم كانت تثير هذه الذكريات الضحك!

أما هو، فكان هادئاً ولطيفاً، على وسامة، دائم البسمة، منخفض النبرة. وكانت له لحية أنيقة شقراء، تغطّي خدّيه البيضاوين. وأما في الكنيسة، فكان يرنّم بصوت رخيم، خاشع. ولكم أدهشني هذا التحوّل، وأثار لديّ من تساؤلات، لم أصارح بها أحداً. وشيئاً فشيئاً، شعرتني معنيّاً بهذا التحوّل، فصرت، كلّما أُتيحت لي الفرصة، أغادر محلّ والدي، وأسارع إلى بيت خالتي "أسماء"، إذ كان يقع فوق هذا المحل بالذات. وصرت أرتاح لقضاء بعض الوقت مع "الشماس إبراهيم"، أسأله عن الدير وحياة الطلاب فيه. وكان أن جاء يوم شجّعني فيه على فعل ما فعل هو، يوم كان صغيراً مثلي. ولم أستهول ما حدّثني عنه من ضرورة الغياب الطويل عن أهلي، وأنا أراه أمامي بادي السعادة، ومصمّماً على العودة إلى القدس.

وما كان مثل هذا الأمر ليخفى على خالتي أسماء، فاستدرجتني، وفوجئتُ بنفسي أقول لها: "إني أريد أن أكون مثل إبراهيم!". ففرحَت وسارَعت إلى إعلام أمّي بذلك. فما أبدت أمّي فرط اهتمام بما سمعت... إلا أني أخذت شيئاً فشيئاً أخفّف من لعبي في الحارة، وبتّ أحياناً كثيرةً، أحبّ البقاء في صالون والدي، كي أصعد بعد ذلك إلى بيت خالتي أسماء، وأجلس أراقب "إبراهيم"، وأستمع إلى أحاديثه مع زوّاره الكثيرين. وذات يوم، سألته ما إذا كان يترتب عليّ فعل شيء، إذا صمّمت على الذهاب معه إلى القدس. فعلمت منه أنّ بعثة من "الآباء البيض" آتية قريباً إلى دمشق، لتجري فحصاً للأولاد الذين يودّون الذهاب إلى القدس. وبالفعل، تمّ فحصنا بعد أيامٍ قليلةٍ، بحضور بعض الكهنة في دار البطريركية في حارة الزيتون... وبُلِّغ أهلي بعد ذلك بنجاحي... ففرحتُ كثيراً. لا سيما وأنّ أمّي لم تُبدِ يومها أيّة ممانعة، في حين أنها كانت، لسنةٍ خلت، قد رفضت رفضاً قاطعاً، الحديث في مثل هذا الأمر، يوم كان مدير المدرسة البطريركية، الأب نقولا نعمان، قد زار أهلي، ليطلب منهم السماح لي بالذهاب إلى دير الآباء البولسيين في حريصا!... وأخبرت "إبراهيم" وخالتي أسماء بقبولي. فنصحني "إبراهيم" بدراسة الأبجدية اليونانية، كي يهوّن عليّ دراسة اللغة اليونانية، فور وصولي إلى القدس. وهكذا كان، فبدأت أدرس الأبجديّة اليونانيّة على يده، وأتقنت حفظها.

ودارت الأيام... ولم يعد "إيلي" يحرّك الحارة، وينظّم اللعب فيها. وبتّ أقيم في البيت فتراتٍ أطول. وأخذ أهلي، على ما بهم من ضيق، يهيّئون لي ما هو ضروري من لوازم السفر، وقد تحدّد في أوائل شهر أيلول. وهنا كان لخالتي الحنون، "ذكية"، فضلٌ كبيرٌ في ما استطعت حمله معي، يوم السفر، في حقيبتي الوحيدة. ولَكَم كان الوداع صعباً. إلا أني لم أكن أدري عندها، ما سيسبّب لي هذا الفراق من آلام طاحنة، في ما بعد!...

كنّا عشرة أطفال، في مغادرتنا دمشق إلى القدس، تحت رعاية الأب الياس صارجي... الطريق متعب، مملّ... معظمه كان قاحلاً! وصلنا مدينة عمّان قبيل الغروب، فاستقبلنا المطران "بولس سلمان" في دار المطرانيّة المتواضعة، بلطف جمّ، واقتادنا إلى غرفة واسعة وضعنا فيها حقائبنا... ثم أخذونا في جولة قصيرة عبر مدينة عمان، التي بدت لي يومها أشبه بقرية متواضعة، مقارنةً بدمشق. وفي المساء، تناولنا العشاء، ثم تلونا الصلاة مع الأب الياس صارجي، واضطجع كلّ منّا في فراشه في الغرفة الواسعة إيّاها. ولكن الليلة لم تكن هنيئة على أيٍّ منا، إذ سمعت بكاءً كثيراً، فيما كنتُ أنا لا أكفّ عن البكاء! فلكم افتقدتُ أمي في تلك الليلة! لكأني لم أكن أشعر بوجودها قبل أن أفارقها! إلا أنّ أحداً منا لم يقل في اليوم التالي، إنه يريد أن يعود إلى دمشق!

وانطلقنا نحو القدس. لم أعد أذكر من كل تلك الطريق الطويلة، الجبليّة والقاحلة، أيّ شيء، باستثناء مشهدٍ واحد، كان هو إطلالتنا المفاجئة على مدينة القدس، من منعطف، عرفتُ فيما بعد، أنه منعطف قرية "أبوديس". كان حقّاً مشهداً فريداً، أسرني للحظتي. لست أدري ما الذي حدث لي في ذلك الحين. فقد تملّكني فجأةً شعورٌ عارمٌ بأنّ هذه المدينة، على جهلي التام آنذاك بتاريخها القديم والحديث، قد استقرّت حقّاً في قلبي، على نحو يصعب عليّ، حتى اليوم، تفسيره... ولكم من مرة حدث لي، عبر السنوات التالية، أنّ ذاكرتي باتت تستعيد هذا المنظر عينه، على نحو آلي، كلّما كان يحدث لي، قبل عام 1967، أن أسافر إلى القدس، بمفردي أو برفقة آخرين، وأرى السيارة تدنو من منعطف "أبوديس"، أو كلّما تذكرتُ القدس، أو ذُكِر اسمُها أمامي في مناسبة جادة... إنه المنظر عينه الذي كان قد ملأ عيني عام 1945: أسوار شاهقة وممتدة، ترتفع خلفها قبّةٌ عظيمةٌ، وتنغرس كلّها في أعماقي!

سبعةٌ وستون عاماً مضت على وصولي الأول إلى القدس. ترى، ما الذي بقي عالقاً من ذلك حتى اليوم، في ذاكرتي؟

في الحقيقة، لا يسعني إلا أن أقول إنّ ما بقي عالقاً في أعماقي، إنما هو أقرب إلى كياني الكلّي، منه إلى أي شيء آخر. فقد وجدتني ألجُ، على فجأة، ودفعةً واحدةً، عالماً يختلف كلّياً عن ذاك الذي عشتُه وخبرته خلال طفولتي في دمشق.

ههنا في القدس، عالمٌ جديدٌ ومغلق، يقوم، كما بدا لي يومها، على أمور ثلاثة طاغية:

أوّلها، بناءٌ ضخم، ذو ثلاثة طوابق مرتفعة وقبو، بناء يضمّ في الطابقين الأول والثاني، قاعات الدراسة، وغرف الكهنة المسؤولين، وكلهم أجانب يرتدون جلباباً أبيض، وتغطّي صدورَهم مسبحةٌ كبيرة تتدلّى من أعناقهم، كما يضمّ مهاجع واسعة في الطابق العلوي، والمطبخ ومائدة الطعام في القبو الممتد على مساحة البناء كلّه.

ثانيها، باحةٌ واسعة، ترتفع منها أشجار الصنوبر الباسقة، ويتوسّط عمقها الشمالي، تمثالٌ كبيرٌ للسيدة العذراء، فيما يظلّل قسماً واسعاً من غربها، قرميد يقي من الأمطار والثلوج...

ثالثها، كنيسةٌ مهيبةٌ، تعود إلى عهد "الصليبيّين"، وقد بُنيت كلّها من حجارة كبيرة، وتتوسطها أعمدة حجرية عالية، إلا أنّ أجمل ما فيها كان دائماً في نظري، خلوّها من أيّ زينة كنسية معروفة.

في هذا الإطار، كنّا نقضي الأيام كلّها، بين صلاة ودراسة ولعب. وما كان يهمنا آنذاك أن يكون اسم الدير "الصلاحيّة" أو "إكليريكيّة القدّيسة حنّة". كان هذا عالمنا

وحسب. وما كان لنا، من ناحية أخرى، أي علاقة، بعالم "الكبار"، والذين كانوا يقيمون في بناء آخر خلف الكنيسة. هؤلاء كانوا يرتدون الثوب الرسمي الأسود والفضفاض، وكنّا نعرف أنهم يواصلون دراسة الفلسفة واللاهوت، ومنهم نسيبي "الشماس إبراهيم". فلم يكن يجمعنا بهم إلا إقامة القداديس الاحتفالية، أيام الآحاد والأعياد، إذ كانوا يتولّون في معظم الأحيان خدمتها، فينشدون ترانيم بيزنطيّة باليونانية، بأصواتهم القوية، الساحرة، التي كثيراً ما كانت تدفعني للتساؤل في سرّي: متى سيحين دوري؟

كان عالمنا هذا عالماً مغلقاً. إلا أنّه كان يملؤنا فرحاً ونشاطاً. وما كان يُتاح لنا الخروج منه إلا مرةً واحدة في الأسبوع، ومرةً أخرى في الشهر. ففي كل يوم خميس بعد الظهر، كنّا نغادر الدير في نزهةٍ قصيرة، تقودنا إلى بعض الأماكن المقدسة، داخل مدينة القدس أو خارج أسوارها، ويُشرح لنا عندها ما جرى فيها من أحداث عظيمة أو بسيطة، تخصّ السيّد المسيح أو السيّدة العذراء، ثمّ نختتم كلّ ذلك بصلاة جماعيّة وشخصيّة، أو ترنيمة. كما كنّا، في مطلع كلّ شهر، نمضي يوماً كاملاً في رحلة طويلة نقطع خلالها، سيراً على الأقدام، مسافاتٍ واسعةً عبر تلال القدس وجبالها، لنعود في المساء منهكين!

هذا النمط من الحياة، ما كان ليخطر لي ببال يوماً... والغريب أني ألِفته في سرعة، وتوافقت مع كلّ ما تخلّله من إيقاعٍ دراسي كثيف وجدّي، فيه العربية والفرنسية واليونانية واللاتينية، وفيه لعبٌ جماعي، منظّم وهادف، في الباحة الواسعة، وفيه صلاةٌ دائمةٌ، تفتتح وترافق وتختتم كلّ نشاط، وذلك بدءاً من استيقاظنا صباحاً، حتى رقادنا مساء. ولقد بدت لي الأمور، وكأنّي خُلقتُ لهذا النمط من الحياة. وإنّه ليصعبُ عليّ أن أحدّد الآن بوضوح، كلّ ما أدين به في شخصيتي، لهذه الفترة التي قلبت حياتي رأساً على عقب. إلا أنّ هناك أموراً ثلاثةً أرى أنها انغرست عميقاً في كياني، خلال هذه المدة الوجيزة والحاسمة، أكثر من سواها. ولَكَم يسرّني أن أذكرها الآن في مثل هذا الاعتراف: الأول شغفي الشديد بالمطالعة، باللغتين العربية والفرنسية، الثاني، التأكيد على موهبتي الصوتية وتشجيع المسؤولين لي بشأنها، والثالث، والأهم، تعميق محبّتي ليسوع وللعذراء أمّنا.

وأما اتصالاتنا بأهلنا، فكانت هي أيضاً تخضع لقانونٍ صارم. فقد كان يُتاح لنا أن نكتب رسالةً واحدةً لهم كلّ شهر، فيما كانت رسائلهم إلينا، توزّع مرةً واحدةً أيضاً في الشهر، مهما كان عدد هذه الرسائل. ثم إنّ رسائلنا لأهلنا، ورسائلهم لنا، كانت دائماً تخضع "لرقابة ما"، أجل لرقابة، بحيث كنا نسلّم رسائلنا إلى أهلنا، إلى الأب المسؤول،

مفتوحةً، ونتسلّم رسائل أهلنا إلينا، مفتوحةً أيضاً! وما كان أحد يكتب لي سوى أمي. وكانت تكتب دائماً بلغتها المحكية، وهي تعكس ما فُطِرت عليه من حبّ خارق، وحنان لا حدود له، وتقوى فطرية!

ومع ذلك، وربما بسبب ذلك، كان هناك أمر لا بد لي من الاعتراف به، وقد كنت أعاني منه في سرّي، دون مصارحة أحد به. كان ذلك شوقي الحارق إلى أهلي، وخصوصاً إلى أمي. وقد استبدّ بي أشهراً طويلة، حتى إنه بلغ حدّاً، صرت أحنّ معه في الغالب، إلى ساعة النوم مساء، كي أدسّ رأسي تحت الغطاء، وأستسلم للبكاء في هدوء. أكان ذلك مجرّد شوق، أم ندماً على سلوكي السابق مع أهلي، وخصوصاً مع أمّي؟ لست أدري.

مضت أشهر على هذه الحال، دون مفاجآت تُذكر. غير أني ذات يوم، لاحظت أن نسيبي "الشماس إبراهيم"، الذي كنت أرقب طلّته، إبان دخول الشمامسة الكبار إلى الكنيسة، متغيّب! بادئ الأمر، لم يُثِر ذلك لديّ أيّ تساؤل. ولكن، لما اتّضح لي أنّ هذا التغيّب تواصل بضعة أيام، صمّمت على معرفة السبب. وكان أن عرفت أنه... غادر إلى غير رجعةٍ، عائداً إلى دمشق. فصدمني الخبر، وشعرتني للحظتي في وحدةٍ مفاجئة، بل في ما يشبه الخيانة!... أيشجّعني هو "الكبير"، على المجيء إلى الدير، أنا الطفلٍ، وهو يغادره في مثل هذا العمر، بعد أشهر قليلة، ودون أن يودّعني؟!

ومضت أشهر أخرى، وانتهى العام الدراسي. وكان يقال لنا إن أشهر الصيف ستكون حلوة، في مصيف بلدة عين كارم الجميلة، وهي تبعد عن القدس بضعة كيلومترات. إلا أنّ ما حدث بعد ذلك قلب الأمور كلّها. فقد حدث تفجير في فندق الملك داود بمدينة القدس، يوم 26 تموز عام 1946. وما كنا، نحن الأطفال، ندري من عالم الكبار شيئاً. ولا كان أحد يحدّثنا عما كان يحدث، وعما يمكن أن يحدث. وفجأة بُلّغنا بضرورة مغادرة القدس والعودة إلى ذوينا بسرعة، على أن نُبلَّغ فيما بعد ما يترتّب علينا فعله. وبالسرعة ذاتها، نُظّمت عودة الطلاب إلى ذويهم. فعدت مع رفاقي الصغار إلى دمشق، برفقة بعض الكبار من الشمامسة. إلا أني لم أعد إلى ما كنت عليه في السابق، إذ كان الشيء الكثير قد تغيّر فيّ.

ففي دمشق، التقيتُ مجدّداً أهلي وأمّي الرائعة، وفرحت بهم فرحاً لا يوصف، ولكني لم أدَع هذه العودة المفاجئة وغير المتوقّعة، تبتلعني في ما كنت فيه في السابق من لاوعي وأنانية...

وفي دمشق، التقيتُ مجدّداً أولاد الحارة وأهل الحارة، بفرحٍ غامر، ولكني لم أدع شهوتي في تزعّم الأطفال من جديد، تستجرّني إلى لعبٍ دون طائل...

وفي دمشق، ما كان جرس الدير يذكّرني، بإيقاع محدّد، بما كان عليّ أن أفعل من صلاةٍ أو درسٍ أو صمتٍ، إذ كان جرسٌ آخر في أعماقي يذكّرني ببعض ذلك، في إيقاع خفيٍّ ومحبّب...

وفي دمشق، ما كانت علامات آخر الشهر، هي التي تحفّز لديّ الرغبة في النجاح والتقدّم، بل كان شيئاً آخر، أستشعره بغموض، فأنصاع له...

وفي دمشق أيضاً التقيت "نسيبي إبراهيم" وأمّه الرائعة، ولكني أذكر أني فرحتُ بهما وحسب، وتركتهما يفرحان بي، ويهنّئان أمّي وأهلي بي. ولكم ازداد فرحي، على صغري، عندما سمعت ذات يوم "إبراهيم الكبير" يروي بحضور بعض الأهل، أمامي، في نكتة، تخلّيه عني، بعد أن "ورّطني"!

وعندما مضت أشهر الصيف، بلّغنا الأب الياس صارجي، الذي اعتاد أن يجمعنا بين حينٍ وآخر، أنه بات علينا أن نستعدّ للعودة، ولكن، لا إلى القدس، بل إلى لبنان...

وفي اليوم المحدّد، اجتمعنا في البطريركية بحارة الزيتون، وانطلقنا إلى لبنان برعاية الأب الياس صارجي بالذات.

ويومها كان الوداع خفيف الوطأة علينا جميعاً، إذ كنّا نعرف أننا بتنا قريبين من أهلنا، وأنه لن يستحيل عليهم، كما أكّدوا لنا، أن يزورونا بين حين وآخر.

الفصل الثالث

أكان ذلك خروجاً من القفص؟

في مطلع شهر أيلول من عام 1946، بدأ عامنا الدراسي الجديد في بلدة رياق، في سهل البقاع بلبنان.

كانت مدرستنا الجديدة في الحقيقة، قبل فترة وجيزة، ثكنة عسكرية فرنسية تتّسع، كما قيل لنا، لخمسة آلاف ضابط وجندي. وكان عددنا يومها لا يتجاوز المائة وخمسين طالباً، من مختلف الصفوف والأعمار...

كان مدخل ديرنا الجديد عبارةً عن بوابةٍ حديديّةٍ واسعة، يقوم خلفها، إلى اليمين واليسار، بناءان كبيران يجمعهما طريقٌ معبّدٌ رحب للغاية، يلتفّ حول أرض مستطيلة شاسعة، نبتت على طول أضلعها الأربعة أشجار صغيرة، وتحيط بها ثلاثة أبنية ضخمة للغاية، تمتدّ إلى الشمال والغرب والجنوب منها. ثمّة أبنية أخرى، كثيرة وكبيرة خلف هذه الأبنية، فضلاً عن ملعبَي كرة قدم وكرة سلة، نظاميين، في النهاية الجنوبية من هذا المجمّع الضخم، يحيط بهما مسرى سباق للخيل، مغطّى بحصى أسود صغير. وإلى الغرب من كلّ ذلك، مسبح نظامي بطول 33 متراً، وعرض ثمانية أمتار، تعلوه منصة إسمنتية، أُثبت فيها سلّم حديدي بارتفاع أربعة أمتار! وكانت جميع هذه الأبنية مربوطة بشبكة من الطرقات الواسعة والمعبّدة بإسفلت، كان يبلغ من الثبات والاستقامة ما أتاح للكثيرين من الطلاب في ما بعد، التسابق فوقه بما كان يدعى لعبة "الدواليب الحديدية" المسماة بالفرنسية (patins)!

كانت مساحة الأرض في مقرّنا الجديد تبلغ (155,000) متراً مربعاً، وكانت تضمّ، فضلاً عن كلّ ما ذكرت، مناطق زراعية، أتاحت لنا، في زمانٍ لاحق، أن نمارس عليها هواياتٍ عديدةً، منها العمل على تنظيفها بسواعدنا وبأدوات حديدية، من الكتل الإسمنتية المغروسة فيها، والتي كانت تقوم عليها، هنا وهناك، برّاكات عسكريّة، واسعة ومتعدّدة الاستخدامات، ومنها أيضاً إحداث آلاف الحفر بالمعاول، زرعنا فيها أشجاراً باتت كثافتها، بمرور الزمن، أشبه بكثافة غابة.

كيف لي أن أُجمل هذه السنوات الست، التي قضيتها في رياق، من عام 1946 إلى عام 1952، سنة انتقالي مجدّداً إلى القدس؟

لقد كان ذلك، والحقّ يُقال، انتقالاً مفاجئاً إلى عالم جديد كل الجدّة، على بقاء الأساس، نظرياً، واحداً.

فنحن هنا في دير، بات يحمل اسم "القدّيسة حنّة" أيضاً. وهو بإدارة الآباء البيض أنفسهم. ولكن كيف لي أن أقارنه بالدير الذي احتضننا في القدس، أجل في القدس، وليس في سواها!

فالقدس هي القدس، وليس على الأرض مدينةٌ أو بلدةٌ، تشبهها لا من قريب، ولا من بعيد. ذلك بأن كلّ ما في القدس من بشر، مسيحيّين ومسلمين، وسواهم، بل من طرقات وأحجار ومساكن، وجبال ووديان وأشجار، يذكّر كلّ إنسان يعيش فيها أو يأتي إليها، شاء أم أبى، بذاك الذي عاش فيها وعلّم فيها، ومات فيها، وقام فيها، ذاك المسمّى يسوع. فكيف بنا، نحن الأطفال الآتين من مختلف بلدان هذا الشرق المؤمن، الذين تفتّحت عيوننا على صورته، وقلوبنا على حبّه، وقد أتينا إلى مدينته في مسعى من أحبّة لنا، وكنّا نظنّه منّا، لنصبح ذات يوم بعيد، من كهنته، لنحمل نورَه وحبّه، فينا وحولنا؟

وها قد اقتُلعنا منها، بعد أن ألِفناها وتنشّقنا هواءها وسلكنا طرقاتها، وتلمّسنا حجارتها، وصلّينا في كنائسها، وأحببنا ناسها وأحبّونا؟

اقتُلعنا منها فجأةً، لنُزرَع في مكان آخر، ليس فيه ما يذكّر بيسوع، لا من قريب ولا من بعيد، بل لنُزرَع في ثكنة عسكريّة!

مفارقة عجيبة، أراهن بأنّ أحداً ما كان ليتوقّعها!

ولكم كان الاختلاف كبيراً، بين ما كنّا عليه، وما صرنا إليه، لا من حيث المكان وحسب، بل خصوصاً من حيث طبيعة العلاقة الجديدة، التي فرضها علينا انتقالنا إلى هذا المكان، والتي نشأت بفعل وجودنا في هذا الإطار، المختلف كلّياً عن إطار الدير في القدس.

ثمّة عوامل كثيرة لا بدّ من الإشارة إليها، في هذا الشأن.

فهنا، الطبيعة مختلفة، وشتاؤها قارس جداً. وما كانت الإدارة الجديدة في الدير تملك بادئ الأمر، من المال والإمكانيات، ما يمكّنها من مواجهة الظروف المستجدّة، ولو ضمن الحدود الدنيا المقبولة، لا على صعيد التدفئة، ولا على صعيد الغذاء. وقد سارعت إلى شرح الأمر لنا دون مواربة، فتحمّل الجميع هذه الحال، بروح عالية من

التحدّي، فالقبول، فالتضحية، طوال العام الأول، وإن كان ترك هذا البرد بعض الآثار السلبيّة على هذا أو ذاك من الطلاب، وقد كنتُ منهم، إذ أُصبت منذ العام الأول، بالتهاب في الصدر سبّب لي سعالاً عنيداً ومزمناً، بات يتجدّد كلّ شتاء دون هوادة، وكثيراً ما كان يجلب لي ضعفاً في الحنجرة، يحول دون قدرتي على الترنيم، ممّا أعاق نشاطي طويلاً في السنوات الأخيرة، إذ كنت مسؤولاً عن قيادة الجوقة في الدير. إلا أنّ الأمور العامة، من تدفئة ومأكل، استقامت في العام الثاني على نحو معقول نسبيّاً...

وهنا أيضاً، اكتشف الآباء البيض حاجتَهم في إدارة المدرسة الجديدة، وإتمام كوادرها التربوية والتعليمية، إلى عناصر جديدة وجديرة بالمسؤولية. فاستعانوا، على مدى سنوات طويلة، بكهنة وعلمانيّين. وكان الكهنة من خرّيجي ديرهم السابق في القدس، من لبنانيّين، أمثال الآباء حنا نداف، والياس عرجا، والياس مسعد، وميشل بدين، ومكسيموس قسطنطين، ويوسف ريّا، ومن سوريين، أمثال الآباء ميشل يتيم ويوحنا جاموس، وباسيليوس كناكري، وغبرييل سمّان، ومن مصريين، أمثال الأبوين بولس أنطاكي، وبطرس حداد. وكان العلمانيون أيضاً من خرّيجي المدرسة إيّاها في القدس، الذين لم يبلغوا الكهنوت، أمثال سهيل سماحة، وجان سماحة، وإيلي معكرون، وجوزيف سلامة وبشارة حداد، والياس روفائيل.

وهنا، أيضاً، تبيّن للإدارة الجديدة، أنه لا بدّ لها من الالتزام بالمناهج الدراسية المتّبعة في لبنان، فاتّخذت الإجراءات اللازمة، بحيث بات جميع الطلاب فيها، يقدّمون جميع الامتحانات الرسمية، المطلوبة في نهاية العام الدراسي. ولما كنّا في الدير ندرس اللغتين اليونانيّة واللاتينيّة، فضلاً عن سائر المواد الدراسيّة المقرّرة، ارتأت الإدارة أيضاً أن تُخضِع طلابها لامتحان شهادتي البكالوريا، اللبنانيّة والفرنسيّة، على أن يكون امتحان الشهادة الفرنسيّة وفق المنهاج المسمّى كلاسيكياً، أي بمادتي اللغتين القديمتين، اليونانيّة واللاتينيّة. وهكذا كان. وقد اقتضى الأمر التطابق بين منهاجنا الدراسي السابق، والمنهاج المتّبع في لبنان. فأُضيفت سنة دراسيّة أخرى، إلى نظامنا الدراسي السابق في الدير، علماً بأني، أنا وجميع الذين كانوا قد قَدِموا مثلي إلى القدس عام 1945، كان قد فُرض علينا سنة إعادة، بسبب دراستنا الجديدة آنذاك لهاتين اللغتين، اليونانيّة واللاتينيّة. وهما لغتان أساسيّتان، كما قيل لنا، بالنسبة إلى الطقوس البيزنطيّة، ودراسة اللاهوت فيما بعد. ومثلما أنّ أحداً منا لم يحتَجّ على سنة الإعادة عام 1945، فإنّ أحداً لم يحتجّ على سنة الإضافة عام 1946. والواقع أن تلك الإضافة حقّقت مكسباً هاماً جداً، بالنسبة إلى جميع الطلاب في الدير، سواء

منهم من كان سيصل إلى الكهنوت، أو من كان سيتوقّف دونه، لأنّ الحصول على الشهادة الثانويّة المسماة بكالوريا، اللبنانيّة أو الفرنسيّة، أو الاثنتين معاً، كان يتيح لكلّ مَن يريد أن يتابع الدراسة، قبوله في الجامعات. وكان مثل هذا الأمر، خلال الدراسة السابقة في القدس، غير متاح البتّة.

ثمّة أمور ثلاثة أخرى وهامة، لا بد لي من التوقّف عندها. اثنان منها من صلب حياتنا في الدير، والثالث فرض نفسه بكل جدّته، بسبب وجودنا في هذا المكان بالذات.

ولأبدأ بالثالث. كان ذلك هو عالم الرياضة. في القدس، لم يكن لدينا شيء يُسمّى الرياضة، سوى بعض ألعاب محدودة، تُنظّم ضمن الباحة الواحدة، التي كان يتقاسمها الجميع، في شيء كثير من التنظيم. أما هنا في رياق، فكان لدينا ملاعب رياضية نظامية، وكان لدينا مسبح، وكان لدينا فسحات لا حدود لها من طرقات إسفلتية كثيرة ومستقيمة، تمتدّ في كلّ جانب... ولكم كان ذلك منذ اللحظة الأولى، هاماً بالنسبة إلى الجميع، ليواصلوا اللعب حيثما شاؤوا، ويفرّغوا ما لديهم من شحنات متجدّدة! فنشأت فرق كرة القدم، بعدد لاعبيها النظامي، على رحابة الملعب. وكنّا نُستنهَك، ولكنّا كنّا سعداء! ويومها ما كنا نلعب بكرة جلدية محشوة بالقماش، بل بكرة نظامية، حتى جاء يوم كنا نقيم فيه مبارياتنا مع فرق نظامية من بلدة رياق. كما أنه كان لنا فرق كرة سلة، نظاميّة هي أيضاً. وكان مسرى ملعب الخيل حول الملعبين، مجالاً رحباً لمسابقات العدو السريع. وأما المسبح فكان المتعة القصوى لنا، لا سيما في أيام الحرّ الشديد. وكان معنا دائماً كاهن ليراقبنا، ولكن أحداً لم يكن يهتمّ بتعليمنا... حتى جاءنا بعد عام، كاهنٌ إفرنسي شاب، أصرّ على تعليمنا، ولكم أفلح في ذلك!

وكانت الطرقات الإسفلتية المستقيمة تستدعينا دائماً للّعب في الشتاء، عندما يكون ملعبا كرة القدم وكرة السلة موحلين من شدة الأمطار. فكنّا نستجيب لنداء الإسفلت، وننظّم العديد من المباريات والألعاب فوقه، ولو بأقدامٍ حافية، لمتعة اللعب حفاةً أوّلاً، ولتجنّب اهتراء أحذيتنا ثانياً... حتى جاء يوم أخذنا نتدرّب فيه على السير بالأحذية ذات الدواليب الحديدية، حتى أتقنّا قطع مسافاتٍ طويلةٍ بها، وصرنا ننظّم مسابقات السبق بها... ولا أذكر أن أحداً منّا أُصيب يوماً بأذى!

كلّ ذلك كان جديداً ورائعاً، ولا مجال فيه لأيّ ملل، كما كان يتيح لنا تشكيل فرق نظاميّة فيما بيننا، تغذّي بقوّةٍ روحَ التنافس الإيجابي، حتى إنّنا كنّا أحياناً، وليس دائماً، لا ننزعج للفشل إذا حدث، إذ كنّا نقول: حسبنا أنّنا لعبنا!

بالطبع، هذه الحياة الرياضية لم تكن تُلغي ما كنا ألِفناه في القدس أيضاً، من

نزهات داخل القدس أو في جبالها. إلا أننا هنا كنّا نرتاح لنزهات طويلة أو قصيرة، سيراً على الأقدام، ولكنّها كلّها كانت تقودنا إلى خمائل، نرتاح فيها بجوار السواقي الكثيرة، أو إلى بحيرة واسعة، كما في بلدة "تربل"، إلى الجنوب الشرقي من رياق، حتى لو كانت الأمطار الغزيرة تفاجئنا أحياناً فيها بالذات، على نحو لا يخلو من خطر، بحيث كان الدير يسارع إلى إرسال شاحنة لنا، لإنقاذنا ممّا كنّا فيه. كما أنّ مدينة زحلة الرائعة، كانت أحياناً تغرينا بزيارة واديها ونهرها "البردوني"، سيراً على الأقدام، لنعود منهكين. وأما الجبال، ولا سيما "صنّين"، فكثيراً ما كنا نتسلّقه في بعض منحدراته، كما حدث لنا مرّاتٍ كثيرة في بلدة "الفرزل"، حتى جاء يوم تسلّقناه حتى قمّته. وكنّا ستّة شبّان فقط، بقيادة الأب الطيب "أندريه بوشيه" بالذات، يوم 13 أيلول من عام 1951. وما أجمل ما كانت عودتنا في ذاك المساء، ونحن ننحدر إلى وادي البردوني، المتألق بالأضواء ونيران عيد الصليب، عبر وادي العرايش!... وفي ذاك المساء، عدنا إلى رياق بالسيارة، مثلما كانت أقلّتنا في الصباح حتى زحلة.

أعود الآن إلى الأمرين الآخرين: الحياة الدينيّة، والحياة الاجتماعيّة.

الحياة الدينية كانت مبرّر وجودنا الأوحد في الدير في القدس، ومن ثمّ في هذا الدير أيضاً. فليس منّا من لا يعرف، بصورة أو بأخرى، الغاية من وجوده هنا. إنّها، على المدى البعيد، التكرّس للربّ في الكهنوت. وبالتأكيد، ليس بين جميع الطلاب، حتى الكبار منهم، مَن كان يستطيع الجزم آنذاك، ببلوغه درجة الكهنوت ذات يوم. فالمعهود والمعروف بهذا الشأن لدى الجميع، بدءاً من المسؤولين والمربّين في جميع الأديرة، أنّ الكثيرين يتحمّسون بادئ الأمر، أو يدفعهم أهلهم لشتى الأسباب، منها مجرّد الدراسة لتحصيل تعليمٍ عالٍ، ولكن القلّة القليلة جداً منهم، كانت تبلغ الكهنوت. ومع ذلك، فكلّ ما في الدير من توجيهات عامّة، وصلوات مشتركة، وإرشاد شخصي، وتضحيات كثيرة، ينصبّ على التأثير في الطلاب، عسى أن يكتسبوا منه الكثير أو القليل، لإغناء خيارهم وقرارهم النهائي. هكذا كانت الحال أيضاً في القدس. إلا أنّ كفّة المؤثّرات الدينيّة الخارجيّة هناك، كانت تفوق بما لا يقاس، ما يمكن أن يتوفّر من تأثير بهذا الشأن في الدير في رياق. ففي القدس، كان كلّ شيء دون استثناء، يذكّر بيسوع. بل إنّ مجرّد وجود الإنسان في القدس يذكّره بيسوع، فكيف به إذا كان طالباً، كبيراً أو صغيراً، في دير؟ وأما في رياق، فيكاد التذكير بيسوع يتلاشى، أمام ما يبدو مجرّد حياةٍ دراسيّة، ذات نظام داخلي. ومع ذلك، فهنا صلواتٌ تبدأ منذ الصباح، وتمتدّ عبر النهارِ كلّه، وترافق الطالب حتى الفراش ليلاً. وهنا توجيهٌ روحي يخصّ كلّ فئة

من الطلاب، في المساء، قبل تناول الطعام. وهنا قراءاتٌ تُتلَى فيها سِير القدّيسين خلال تناول الغداء والعشاء في صمتٍ مطبقٍ، كلّ يوم، باستثناء يوم الأَحد وكلّ عيد. وهنا قداديس مرتّلة يحضرها الجميع كلّ يوم، وكلّ يوم أحد وعيد، تُلقى فيها عظات قصيرة موجّهة. وهنا طقوس مرتّلة أيضاً، تقام كلّ سبت مساء. وهنا تدريب أسبوعي على الترنيم، يُجرى للجوقة. بل هنا أيضاً أغانٍ دينيّة أو شبه دينيّة، تلقّن بالعربية أو بالفرنسية، تُنشَد في الغالب، خلال الأعمال التطوعية الكثيرة، التي تُطلب من الطلاب، أو خلال النزهات الطويلة، خارج الدير، سيراً على الأقدام. وهنا أيضاً ركيزتان روحيّتان هامّتان: الاعتراف الدوري بالخطايا، لدى الكاهن المرشد، والإرشاد الشخصي الذي يقوم على لقاء الطالب على انفراد، مع مرشده الروحي، كلّما دعته الظروف إلى ذلك، أو كلّما شعر هو بحاجة إلى الإرشاد.

إنّ مثل هذا السرد لهذا الجانب من الحياة الروحيّة في الدير، قد يوحي بأنّه يجثم على الواقع اليومي، بثقلٍ لا يُطاق. إلا أنّ الحقيقة تخالف مثل هذا الانطباع، ذلك بأنّ ترتيب هذه الفقرات الدينية، يخضع لبرنامج دُرِس عبر سنوات طويلة، وكثيراً ما عُدّل، بحيث بات ينساب عبر تفاصيل الحياة اليومية، دون تصنّع أو ضغط، وكأنه جزء لا يتجزّأ منها...

وثمّة جانب هام من حياتنا الدينية في الدير، في رياق. أعني به جانب الحياة الطقسية، التي يحتلّ فيها الترنيم مجالاً واسعاً. فالمعروف أنّ جميع الطقوس الكنسية في جميع الكنائس، تترافق بالترنيم. إلا أنّ الطقوس البيزنطية، لا تترافق بالترنيم وحسب، بل هي تكاد تقوم على الترنيم. وإنّ هذا الترنيم لَيعكس حضارة كبيرة وعظيمة، امتدّت أكثر من ألف عام، واتّسمت بازدهار وتألّق واسعَين. فكان من الطبيعي أن تعكس موسيقاها الكنسية، أصالتها وتنوّعها وجمالها. ومَن يعرف الكنيسة البيزنطية، يعرف جيّداً أنّ كل طقس فيها، طويلاً كان أم وجيزاً، يبدأ وينتهي ويترافق بالترنيم، حتى إنّ اتساع الترنيم فيه، يكاد يبتلع كل فرصة للصمت. ولذلك كان المطلوب دائماً أن يكون الترنيم متقناً، وأن يكون المرنّم صاحب صوت جميل، بل جميل جداً.

قبل انتقال ديرنا إلى رياق، كنّا ونحن أطفال، طوال عامنا الأول في القدس، نصغي باندهاش إلى هذه الطقوس الرائعة، تُقام في كنيسة "الصلاحية" المهيبة، وتنشدها أصوات تعلّم أصحابها أصول وتاريخ الفنون البيزنطيّة، من موسيقى وهندسة وأيقونة. وكنّا، إذ نصغي إليهم، وهم ينشدون بأصوات أُتقن تدريبُها وصقلُها، نشتهي اليوم الذي يأتي فيه دورنا، لننشد على نحو يشبه إنشادهم. وكنّا نعرف أنهم كثيراً ما كان يُتاح لهم

أن يزوروا كنيسة القيامة، في الأعياد الكبرى، ليستمتعوا بترنيم كبار المرنّمين الإغريق فيها، ويلتقطوا من طريقتهم المتميّزة بالإنشاد، ما يسعهم التقاطه.

أما في رياق، فكانت الطقوس البيزنطية على جانب كبير من البساطة. وكنّا نفتقر إلى أستاذ متخصّص بالموسيقى البيزنطيّة. صحيحٌ أن مَن كان يدرّسنا الألحان الكنسية، كان يملك صوتاً جميلاً، ولكنّه كان يفتقر إلى علوم الحضارة البيزنطيّة، وخصوصاً إلى فنّ الإنشاد البيزنطي. كان يدعى "سهيل سماحة"، وكان مُكلّفاً أيضاً بتدريس بعض المواد الدراسية. فكان يقود تدريب الجوقة في مواعيد محدّدة، كما كان يقودنا أثناء الاحتفالات في الكنيسة. وكان لطيفاً بصورة عامة، إلا أنّه كان صارماً في بعض الأحيان، لا سيما وأنّ المرنّمين لم يكونوا دائماً في مستوى الانضباط المطلوب. وكان، مثله مثل أي قائد جوقة، يصرّ على الجميع بالترنيم المتفاعل. وكان يصرّ على وقوف أصحاب الأصوات الجميلة في الصف الأمامي، أثناء التدريبات، كي "يشدّوا"، كما كان يقول، الأصوات الأخرى. وكان، بعد فترة من التدريبات، أن برزت أصوات ثلاثة اعتبرها متميّزة، وصار يتيح لها الظهور بين حين وآخر. كان أحدها لطفل من بيروت، وأحدها لطفل من حلب، وأحدها لطفل من دمشق، كان هو كاتب هذه الأسطر. ولكم كنّا نسرّ، عندما كان يُطلب من ثلاثتنا، أداء غناءٍ ما، أو ترنيمةٍ ما مشتركة، في مناسبة دينيّة أو وطنيّة!

وذات يوم، لاحظ أنني لم أكن أرنّم. فدعاني للترنيم أسوةً بغيري، فاعتذرت له وبيّنت له أنّ صوتي آخذٌ في التبدل، فلا يجوز لي أن أتعبه لئلاّ أفقدَه. فضحك وقال: "لستَ أنت من يقرّر ذلك، بل أنا". وأصرّ مرّةً أخرى عليّ للترنيم. فامتنعت. فلم يعد يقول شيئاً. إلا أني تعرضت في المساء عينه، لتوبيخٍ من مدير النظام، الذي كان كاهناً معروفاً بعبوسه وتشدّده، وذلك أمام جميع الطلاب، خلال الدرس المسائي الصامت! ودُعيت عندها بصرامة للترنيم في التدريب القادم، وكأنّ شيئاً لم يكن. إلا أني في التدريب المعيّن، امتنعت أيضاً عن الترتيل، فغضب أستاذنا، وتلفّظ بتهديدات صريحة. فما إن انتهى التدريب، حتى سارعت إلى طلب مقابلة رئيس الدير، وكان الأب "جورج جونيل"، وسألته السماح لي بمغادرة الدير على الفور. فلمّا عرف السبب، رطّب خاطري، وأكّد لي أن مثل هذا الأمر لا يستدعي أبداً مثل هذا الحلّ. ودعاني للتخلّي عن فكرة الرحيل المتسرّعة، على أن يعالج هو القضية بما يراه مناسباً. وكان أن سُمِح لي بعد ذلك بالتوقف عن الترتيل، لئلا "أجرح" صوتي، كما قيل لي. ويؤسفني أن أضيف أنّ الصوت البيروتي الآخر استمرّ في الترتيل فترةً أخرى، حتى جاء يوم بعيد

طُلِب فيه منه أن يتوقّف، ولكن صوته كان قد "جُرح" كما قيل، ولم يُتَح له بعد ذلك أن يستعيد شيئاً من صوته السابق. وقد قيّض لصاحب هذا الصوت أن يصبح كاهناً...

وهنا يطيب لي أن أذكر أستاذ مادة الرياضيات، الأب "إيلوا لوغران" (Eloi LEGRAND)، فقد كانت له طلّة مهيبة بلحيته الشقراء الطويلة، وقامته المديدة، وكان يخشى عليّ دائماً من نزعتي التمرّدية، في مواجهة بعض القضايا، لا سيما عندما كانت تستدعي مراجعة المسؤولين الأعلين في الدير. وقد بلغ من فرط خشيته عليّ، أنه كان يناديني أحياناً في نبرة محبّبة، وربما محذّرة، بإقدامه على تغيير المقطع الأخير من اسمي، واستبداله بمقطع مناقض تماماً، فيقول لي (ZAHLANON) بدلاً من (ZAHLAOUI)، إذ أن مقطع (oui) باللغة الفرنسية يعني (نعم)، فيما المقطع (non) يعني (لا)... ولقد بيّنت الأيام لي... وللكثيرين، أنه كان، منذ ذلك الحين، مصيباً في حدسه هذا، أكثر من جميع الذين عرفوني!

وأما الحياة الاجتماعية في الدير، فقد كانت في حقيقة الأمر، تشكل القاعدة القوية والثابتة، لكل ما يبرّر وجود الدير، من بناء إنساني وفكري، وعلمي وروحي وديني. فلئن كان الدير بناءً من حجر يحتوي بشراً، فإنه قبل كل شيء، بناء من بشر مسؤولين كُلّفوا، أولاً وأخيراً، مساعدة أطفال، فمراهقين، فشبّان، فرجال، على بناء ذواتهم، فكراً وروحاً، وخياراً والتزاماً، وتضحية في فرح.

وهنا كان واضحاً، أن انتقال الدير إلى رياق، أتاح لإدارته فرصةً عظيمةً، لإبداع أسلوب جديد في تعاملها مع الطلاب، بفضل هذا الإطار السكني والمكاني، المختلف كلّياً عمّا كان عليه الوضع في القدس. وذلك بأنّ نسق الأبنية القائمة فيه، الكبيرة والمتناثرة، فرض توزيعاً جديداً بين الطلاب، أخذ بعين الاعتبار صفوفهم، وبالتالي أعمارهم وحاجاتهم. فبرزت لهم بذلك ثلاث فئات، هي، بحسب الأعمار، الصغرى والوسطى والكبرى. فكان لكلّ منها بناء خاص بها، للدراسة والنشاطات المختلفة، فيما كان للنشاطات المشتركة والجماعيّة، مثل الصلاة والطعام والنوم، ثلاثة أبنية أخرى، مستقلّة. وكُلِّف رعاية كلّ فئة على حدة، كاهن من الآباء البيض، كي يسهر على تنظيمها وتوثيق الروابط بين أفرادها، فتصبح كتلةً واحدةً تتألّف من حلقات صغيرة، وكي يختار المساعدين له من أفرادها، فيرسموا معاً خطة عملها، ويحدّدوا مراحل تنفيذها.

قد يوحي مثل هذا الوصف السريع، بأنّ ثقل العمل التربوي في الدير الجديد، يقع على هذا أو ذاك من الكهنة فقط، ومن الآباء البيض تحديداً. إلا أنّ الحقيقة الميدانيّة أعمق وأشمل من هذا الوصف السريع والأوّلي. ذلك بأنّ في الدير إدارة عامة

ومعروفة، تتألّف من مجموع الآباء البيض والكهنة العرب، ومن المدرّسين العلمانيّين، الذين اختيروا بعناية فائقة. ومن كان يمسك بزمام الأمور في هذه الإدارة، هو كاهن عريق في جمعية الآباء البيض، له خبرة تربوية طويلة في الشرق. إنه الأب "جورج جونيل" (Georges GENEL)، الذي يشهد الجميع باستقامته ونزاهته، ومحبّته، وتفانيه، وبُعد نظره. وما كانت هذه الإدارة الجديدة صوريّة البتّة. بل كانت لها اجتماعاتها الدوريّة والفاعلة. وما كان يرشح منها للطلاب قطّ، ما قد يوحي بحدوث أيّ خلاف أو اختلاف بين أعضائها، على ما كان بين الآباء البيض أنفسهم من تفاوت في الحضور والخبرة والتعامل، من جهة، وعلى ما بينهم وبين الآباء العرب من جهة ثانية، من تفاوت أيضاً، في قوة التأثير وشهوة المبادرة وقدرة الإبداع.

لذا كان للآباء البيض دون شك، في هذه الإدارة الجديدة، التأثير الأكبر. والمعروف أنهم أخذوا على أنفسهم، منذ عام 1882، في شخص مؤسِّسهم، الكردينال الفرنسي، "لافيجري" (LAVIGERIE)، أن ينهضوا بكنيسة الروم الكاثوليك، عن طريق تنشئة إكليروس عربي، جديد، كفوء ومسؤول. فوضعوا، منذ ذلك الحين، نخبة من كهنتهم، من فرنسيين وسواهم، في خدمة هذه الكنيسة. وقد تمّ ذلك، منذ ذلك الحين، في دير الصلاحية بالقدس. ونجحوا إلى حدّ بعيد. نجحوا ليس فقط في إنشاء إكليروس شاؤوه كفوءاً ومسؤولاً، بل نجحوا أيضاً في تنشئة أجيال من الرجال، الذين درسوا في القدس، ومن ثمّ في رياق، ولم يتابعوا حتى الكهنوت، فخرجوا مزوّدين بعلوم وأخلاق وإيمان، أهّلتهم لأن يبنوا أسراً متماسكةً ومؤمنة، ويساهموا بفعالية، في تطوير مجتمعاتهم، في كلٍّ من فلسطين وسورية ولبنان ومصر والأردن.

وقد نجحوا أيضاً في أمرٍ بالغ الخطورة، سقطت وتسقط فيه، حتى اليوم، جمعيّات رهبانيّة أخرى من أصل غربي. فالجميع يشهدون للآباء البيض، بأنهم لم يحاولوا يوماً أن يقتنصوا لصالح جمعيّتهم، أيّاً من آلاف الأطفال والشبّان، الذين تعاملوا معهم حتى ذلك الحين، في القدس، والذين تعاملوا معهم، بعد ذلك، في رياق، مع أنّهم كانوا دائماً - وما زالوا - بحاجة إلى كهنة من أصل عربي. ولم يكن المعجبون بهم، وبنمط حياتهم، بين طلابهم، إن في القدس أو في رياق، قليلين!

أما سلوك الآباء البيض الفردي، داخل هاتين المؤسّستين وخارجهما، فقد كان، هو أيضاً، محطّ تقدير واحترام دائمين، لدى جميع مَن عرفوهم وتربّوا على أيديهم، علماً بأنّ للطالب الداخلي، كما هي حال الطلاب في كلّ دير، وفي كلّ مؤسّسة تربويّة، عيناً حادّة لا يخفى عليها شيء! وهنا لكَم كان يطيب لي، لو استطعت، أن أذكر

بالاسم الكامل والصفات، جميع الكهنة الذين عرفتهم، من الآباء البيض، منذ عام 1945، حتى اليوم من عام 2012، سواء في الشرق أو في الغرب! وأنا بذلك، لا أحاول قطعاً إنكار ما قد يكون بدر من هذا أو ذاك، من هنات قد آتي على ذكر بعضها لاحقاً. إلا أني أرى من واجبي، وأمام ضميري، أن أقرّ لهم جازماً، بأنّهم، كلّهم، وضمن حدود معرفتي، كانوا بحقّ عنواناً للتجرّد والتضحية والتفاني.

بالطبع، ما كان لأحدٍ منهم أن يشبه الآخر، أو يتشبّه به. وكان لكلّ منهم أسلوبه، وهو ينبع من شخصيّته. وكان، بالتالي، لكل منهم طريقته الخاصة، في التعامل مع الطلاب الذين كان مسؤولاً عنهم. وقد كان واضحاً لنا أنّ بعضهم لم يوفّق إلى ما يريحه ويريح الطلاب، الذين كان يتعامل معهم، إلا بعد فترة، طويلة أو قصيرة، تفاوت فيها النجاح، حتى استقرّ على الطريقة التي بات يُعرف بها... وبذلك ارتُكبت هناتٌ غير مقصودة، لا سيما في الفترة الأولى التي أعقبت وصول هذا الكاهن أو ذاك، إلى الدير، فنُسِيت ولم يعد أحد يذكرها، أمام الإبداعات الفنيّة أو المسرحيّة أو الموسيقيّة، التي تألّقت بها شخصيّة هذا الكاهن أو ذاك، كما حدث مثلاً للأب الشاب "جوزيف فاندريس"...

من هنا كان تأثير هؤلاء الآباء، على اختلاف شخصياتهم، على جميع من أُتيح لهم أن يعرفوهم، ويخبروا محبّتهم وتضحياتهم، طوال سنوات وسنوات. وما كان التعامل مع مائة وخمسين طفلاً ومراهقاً وشاباً، من لبنان وسورية وفلسطين والأردن ومصر، بالأمر السهل. صحيح أنّ القانون واحد، والنظام واحد، إلا أنّ الطباع ليست بواحدة، والعادات ليست بواحدة، والحساسيّات خصوصاً كثيراً ما كانت تتقلّب أحياناً، كلّ يوم، مرات، عند كل فرد! فلَكَم حاولوا أن يعلّمونا الانضباط، كما يعرفونه في الغرب! ولكم بذلوا، كي يقنعونا بأهميّة المطالعة، كما يعشقونها في الغرب! ولكم سعوا ليؤسّسوا فينا الثقة بالذات، كما يتوارثونها في الغرب! ولكم أصرّوا على الثقة بنا، في محطات بالغة الدّقة، كما هي ساعات الامتحان، بعد أن كنّا أثبتنا لهم أنّنا لا نستحقّ هذه الثقة، كما فعل ذات يوم أحدهم - وكان أشدّهم صرامةً! وهو الأب "جان مانيان" (Jean MAGNIN) - إذ أعطانا أسئلة الامتحان، وعاد فأكّد لنا ثقته بنا، وغادر القاعة، وترك لأحدنا مسؤولية تسليمه الأوراق، بعد انتهاء مدة الامتحان المقررة! فكان أن كسب الرهان، وأتاح لنا أن نكسب أنفسنا!

لقد كان جليّاً لنا أنّ بذلهم الدؤوب والعنيد، لم يكن يصبّ إلا في مصلحتنا، مجموعاتٍ كنّا أم أفراداً. ومع ذلك، فقد كان إصرارنا الغبيّ على تكرار الخطأ، يدفع

هذا أو ذاك منهم إلى الإحباط أحياناً، ولكن دون الاستسلام له. وقد بلغ بأحدهم ذات يوم، وكان المسؤول عن النظام، أن لجأ إلى ما بدا لنا أسلوباً بوليسيّاً، إذ عوّد أحدنا، وكنّا في الصفوف العليا، على الوشاية، فتقرّر أن نواجهه، وكلّفتني المجموعة مهمّة مصارحته بالأمر في مكتبه، ومطالبته بالكفّ عن اعتماد هذا الأسلوب، إنقاذاً لصورته في نظرنا، ولزميلنا وللمجموعة كلّها. وما كان من هذا المسؤول إلاّ أن تقبّل وتبدّل!

وكان أيضاً منهم مَن تميّز على كلّ صعيد، منذ لحظة وصوله. وهنا أرجو أن يُسمح لي بأن أرسم بعض ملامح أحدهم، وما كان له بالتالي من تأثير عميق وشامل، على المجموعة الوسطى التي كُلِّف رعايتَها، وعلى جميع أفرادها، وكانوا يقاربون الأربعين، وكنتُ، لحسن حظي، المسؤول عنها.

كان اسمه الأب "جاك بوديه" (Jacques BODET). إلا أنّ الإدارة، إذ أعلمتنا بدنوّ وصوله، قالت أن اسمه "جاك بوديتّ"، وذلك خشية تحويل اسمه الحقيقي لدى الطلاب، إلى لقب بشع، يعني في حقيقة الأمر، باللغة الفرنسية (الحمار)، وذلك لمجرّد تغيير حرفين في اسمه (BAUDET). وانطلت على جميع الطلاب لعبة تغيير اللفظ في الاسم، حتى فترة طويلة...

ولّما علمنا الأمر، كانت شخصية الأب "بوديه"، قد اكتسبت محبّةً واحتراماً، لم يعد معهما يخطر ببال أحد، أن يجعل من اسمه مدعاةً لأي سخرية! إذن فقد ترقّبنا وصوله، وفوجئنا به شابّاً، طويلاً، وسيماً، يبسم لنا في ارتياح، وكأني به يعرفنا من زمان بعيد. ولكم كان الانطباع الأول مشجّعاً، بخلاف ما كان حدث لنا مع هذا أو ذاك من الكهنة. وقد تبيّن لنا منذ اجتماعنا الأول به، أنه يحبّنا حقّاً، وأنه سيعمل قبل كلّ شيء، على مساعدتنا على صقل شخصيّاتنا، وعلى اكتشاف مواهبنا، أية كانت، وعلى تنميتها بطرق فرديّة وجماعيّة على السواء. وكانت لغته هذه جديدةً علينا. إلا أنه عرف أن يترجمها بمرور الزمن، في إصرار وفرح، إلى واقع كنّا نحن أوّل المندهشين منه. وقد بدأ بتطبيق ذلك على أصعدة عديدة، كان أوّلها المسارعة إلى حضور الاجتماعات العامة، قبل الوقت بقليل، بحيث يكون الجميع حاضرين عند بدء الاجتماع بالصلاة. وقد أفهمنا أنّ احترام المواعيد هو من احترام الذات!. وكان يريد للصلاة ألا تكون روتينيّة، بل شخصيّة، بحيث طلب إلينا أن يرتجل أحدنا الصلاة من وحي الساعة، وكان هو، في البداية، المبادر الأول!... وخلال الاجتماع، كان يصرّ على تلقيننا فن الإصغاء والحوار، بحيث تعوّدنا أن نصغي جميعنا إلى كل فردٍ منّا، عندما يُعطَى الكلام. وفاجأنا بجديد، فكان يقترح علينا، عندما كنّا نبلغ منتصف الاجتماع،

أن يعلّمنا أغنية فرنسيّة بصوته الجميل، ليجدّد الحماس فينا. وكثيراً ما كان يعزف اللحن على آلة الهرمونيكا، ليسهل علينا حفظها!

هكذا بدأ عمله مع مجموعتنا. وكان دائم البسمة! فانتزع ثقتنا ومحبّتنا. وتوالت المبادرات من قبله، حتى صرنا نترقّبها. وإحداها كانت رغبته في الاشتراك معنا بلعبة كرة القدم. ولكم جهد في أن يعلّمنا فنّ اللعب للّعب، لا للفوز والتعالي... وكانت منه أيضاً المبادرة إلى إعداد مغارة الميلاد، بتماثيل من صنع أيدينا، وما كان أحد منّا يوماً خطر بباله أن يصنع من الطين الفخاري تمثالاً... ونجحنا، حتى باتت المحاولة تتكرّر كلّ عام بتماثيل جديدة، تختلف عن سابقاتها... كما أنه بادر معنا لإبداع لوحات ميلاديّة رمزيّة، نكمل بها المغارة، برسوم كبيرة نصنعها من أوراق شفافة ملونة، تندرج ضمن جدران المغارة الورقيّة وحولها...

أما على صعيد التدريس، فقد أسعدنا أنه كان يدرّسنا الأدب الفرنسي. وقد اتّضح لنا منذ البداية أنه لا يستوعب مادّته وحسب، بل يحبّها ويحب أن يدرّسها، فعلّمنا أن نحبّها بدورنا. ففتح أمامنا آفاقاً واسعةً، يدرك أبعادها من أتيح له أن يكتشف عوالم الأدب الفرنسي. وكان يجيد المقارنة بين المؤلفين القدامى، وبعض المؤلفين المعاصرين. وهكذا اكتشفت على يده كاتباً فرنسياً، يدعى "ليون بْلَوا" (Léon BLOY)، قُيّض له بمرور الزمن، واكتشافاتي الأدبيّة اللاحقة والمختلفة، أن يكون في نطاق الأدب الفرنسي، مؤلفي المفضل حتى اليوم. ولكم حدّثتني صفحات هذا الكاتب النارية، عن الفقر والفقراء، وخصوصاً عن الفقير الأكبر، الله! حتى أني سارعت، يوم اكتشفت كتاباً له بعنوان "دم الفقير" (Le Sang du Pauvre)، عند زميل في الدير يسبقني بصف واحد، إلى استعارته منه، ونسخت منه نصفه تماماً بخط يدي. فما كان من هذا الشاب، عندما علم "بفعلتي"، إلا أن قدّمه لي هدية مجانية!

وكان للأب "بوديه" في الدير، مرسم قلّما يتيح لأحد زيارته. وكان منه، ذات يوم، أن سمح لي بذلك. فتوقّفت عند لوحتين مدهشتين، إحداهما بالألوان النافرة، وهي تمثل وجهاً ليسوع، خارجاً لتوّه من القبر، والثانية بالحبر الصيني، وهي تمثّل يسوع مصلوباً، ولكنه ينحني من صليبه، ليُنهض إنساناً منهاراً فوق الأرض. ولكم أحببت رمزيّة هاتين اللوحتين. إلا أنّ التي بالحبر الصيني سيطرت عليّ لأيامٍ كثيرة، إذ كنت في تلك الفترة بالذات، أصارع فكرة طغيان الشر في العالم، وضرورة مقاومته. ولكم كانت هذه المسألة تستبدّ بي وتجهدني! فسألته نسخة صغيرة منها. فأعطانيها. وكان أن حفظتها حتى تاريخ سيامتي الكهنوتية، في 1959/7/5، فاستأذنته في طباعتها

وتوزيعها على الناس في تلك المناسبة، بعد أن طبعت عليها ثلاث عباراتٍ من الإنجيل، كانت بمثابة شعاراتٍ لحياتي الكهنوتية! وقد جاء في الأولى من هذه العبارات:

"في البدء كان الكلمة، وكان الكلمة الله،

والكلمة صار جسداً، وسكن في ما بيننا" (يوحنا 1: 1، 14)

وجاء في الثانية:

"وقال الربّ لبولس: "لا تخفْ، بل تكلّم، لا تسكت: إنيّ معك" (أعمال 18: 9)

وجاء في الثالثة:

"لا يستطيع أحدٌ أن يخدمَ سيّدين، لا تقدرون أن تعبدوا الله والمال" (متى 6: 24).

هل تراني ذكرت كل ما يتوجّب عليّ ذكرُه عن الأب "جاك بوديه"؟

ثمّة أمور كثيرة ومثيرة تخصّه، أودّ أخيراً الإشارة إلى بعضها، باقتضاب.

كان معظم آباء الدير يرافقونا أثناء السباحة، لا لشيء إلا لمراقبتنا، تحسّباً منهم لأي خطر. وقلّما كان أحدهم يشاركنا السباحة. أما الأب "بوديه"، فقد كان دائماً أوّل من ينزل إلى الماء، وكان سبّاحاً وغطّاساً ماهراً. إلا أنّه كان يُصرّ على تعليمنا السباحة النظاميّة، ويحاول ما أمكن أن يمنعنا من السباحة تخبّطاً في الماء، كما كان معظمنا يفعل. وهكذا أتيح لي أن أتعلّم على يده السباحة النظامية، والغطس من علو معقول. وبتّ أعشق السباحة، حتى كانت بالنسبة إليّ، مع كرة القدم، رياضتيّ المفضّلتين... وما كنت أدري يومها، أنّ مثل هذه السباحة، ستتيح لي، بعد أكثر من أربعة وثلاثين سنة، أن أعلّم المئات من أطفال وشبان وشابّات جوقة الفرح، وأصدقائهم الكثيرين، السباحة المتقنة في مسابح دمشق، لسنوات طويلة...

وكان الأب "بوديه" يهوى أيضاً كرة القدم. وقد صدف لنا ذات يوم، أن حدّدنا معه موعداً لمباراة، كان مصمّماً على الاشتراك فيها. إلا أنه، قبل المباراة بأيام، أُصيب بألم مفاجئ في قصبة رجله اليمنى، وأُجريت له عملية جراحية فيها. ثم كان أن انهمر الثلج في يوم المباراة، فغمر الملعب بقشرة كثيفة منه. ولمّا كنّا جميعاً مصرّين على اللعب، تشاورنا معه، فما كان منه إلا أن اقترح علينا أن نجري المباراة فوق الثلج، ولكن حفاة، أجل حفاة! وهكذا فعلنا، وقد كان هو بين اللاعبين، وقدمه مربوطة بالضمادات! أجل فعلناها! ولكننا يومها، لم يطل بنا اللعب فوق الثلج أكثر من نصف ساعة، إذ باتت أقدامُنا شبه مجمّدة!

وكنّا أيضاً نهوى ركوب الدراجات الهوائيّة برفقته، في سهل البقاع. وقررنا ذات يوم

من نهاية عام 1951 الدراسي، أن نطلب من الإدارة، مكافأةً لفئة صغيرة من مجموعتنا، وقد تفوّقت في مختلف النشاطات، بعد أن باتت الفئة الكبرى في الدير، مكافأة شئناها رحلةً على الدراجات من رياق إلى بيروت، على أن يكون الأب "بوديه" معنا! وقد وافقت الإدارة على طلبنا، على غير ما كنّا نتوقّع، لِما في ذلك من خطورة. وعلمنا من الأب "بوديه"، أنّ الأب الرئيس أوصاه بأن يعمل على العودة بنا، "سالمين وغير مقطّعين!". وكان أن عدنا في اليوم التالي، من بيروت، جميعاً سالمين، ولكن... على متن باص، ودراجاتنا معنا... وذلك لأنّ أحد الطلاب في الدير، كان في يوم انطلاقنا إلى بيروت، قد حدث له حادث خطير، أثناء الغطس في مسبح الدير، اقتضى نقله على الفور إلى بيروت في سيارة إسعاف، إلى مشفى "أوتيل ديو"، حيث توفّي في اليوم نفسه في المشفى! عدنا إذن في موكب رفيقنا وأخينا الشاب الدمشقي، رزق الله ذكرا!...

أخيراً، لا بدّ لي من التوقف عند ما أرى فيه التأثير الأكبر للأب "بوديه"، وهو إرشاده الروحي الشخصي، لكلّ مَن شاء أن يختاره مرشداً له. وفي الحقيقة كانوا كثيرين. إلا أنه كان دائماً، وعلى الرغم من مهامّه الكثيرة والمتنوّعة، يجد متّسعاً من الوقت، ليصغي في هدوء واحترام، وغالباً في ابتسامة، إلى كلٍّ مِن مريديه على حدة، في جلسات طويلة أو في اعترافات متكرّرة، وكانت كلّها، بالطبع، تظلّ طيّ الكتمان في قلبه وصلاته!...

بالطبع، ليس في نيّتي أن أضخّم دور الأب "بوديه"، لأنفي أدوار غيره من الكهنة... في رياق، لم يكن بوسع أحد أن يلغي غيره، بل كان نمط الحياة في الدير، وفي مثل هذا الإطار الطبيعي، هو الذي يتيح لكلّ شخص أن يكون أولاً، ثم أن يبدع من ذاته ومن سواه، ما تملي عليه مسؤولياته ذاتها، أو بالأحرى إدراكه لهذه المسؤوليّات، أن يبدع. والحقيقة أنّ الكثيرين من الكهنة، الأجانب والعرب، احتفظوا بحجم متواضع، وكثيراً ما كنّا، نحن الطلاب، نطرح التساؤلات فيما بيننا، بشأنهم. أجل، كنا نعترف للجميع بنزاهتهم، إلا أنّنا كنا نأخذ على الكثيرين منهم، ولا سيما الآباء العرب، افتقارهم إلى روح التحدّي. من ذلك مثلاً أنّ أحداً منهم لم يشاركنا يوماً في السباحة، ولا في النزهات الطويلة على الدراجات الهوائيّة، ولا في تسلّقنا الجبال، لا قليلاً، كما في منطقة الفرزل، ولا كثيراً، عندما تسلّق بعضنا قمّة صنّين مرتين! وإن كان لي أن أخصّ بالذكر أحداً من الآباء العرب، فإنه يتبادر تلقائياً إلى ذهني أربعة منهم. أولهم الأب "ميشل بدين"، لما كان يتمتّع به من فرح طبيعي وروح نكتة، كانا يتجلّيان لديه على وجههما الأكمل، عندما كان يدرّسنا الأدب العربي في الصفوف العليا. ثانيهم

الأب "جرمانوس مصري"، الذي كان يدرّسنا التاريخ بطريقة يتقن بها غرس الأحداث التاريخية في ذاكرة الطلاب، والذي كان يدرّسنا أيضاً جانباً من الأدب العربي، فحرص، على حبّه للأدب القديم، أن يكشف لنا جمال الشعر الحديث، ولا سيما شعر سعيد عقل وميشل طراد! وكان ثالثهم الأب "بطرس حداد"، الطيّب، الذي كان الوحيد بين الآباء العرب، من يحبّ اللعب معنا في كرة القدم، والذي كان أشبه بناسك يقضي الساعات الطوال راكعاً في الكنيسة، حتى بتنا نعرف، عندما يتخلّف عن موعد المباراة، أنه راكع في الكنيسة يصلّي، فنضطرّ لإرسال من يستدعيه، فيأتينا باسماً ومعتذراً، ولكنه، في الملعب، كان لاعباً! ورابعهم الأب "غبرييل سمان" الحلبي، الذي كان ينبئني دائماً بوصول الرسالة من أمي - إذ كانت رقابة الدير لاتزال قائمة، كما كانت الحال في القدس! - ليؤكّد لي فرحه العظيم بالطريقة العفوية والبالغة الحنان، التي كانت أمي تخاطبني بها في رسائلها!

هذه السنوات الست مضت على هذا النحو. إلا أنّ حدثاً كبيراً طرأ خلالها، لم يُحكَ لنا عنه شيء، ولا عن محطاته الكبرى، مع أنها كانت تملأ الدنيا كلّها، وخصوصاً الشرق العربي. وكانت أولاها قرار تقسيم فلسطين عام 1947، وكانت الثانية فيها ما أعقب قرار التقسيم من حرب، أُعدّ لها طويلاً من قبل اليهود، وارتُجلت ارتجالاً من قبل العرب، وما جرّت من تداعياتٍ خطيرةٍ على جميع الدول العربية، بدءاً من سورية. مع أنه كان بيننا طلاب من فلسطين. وما كان الآباء، لا البيض ولا العرب، ينبسون بكلمة واحدة بهذا الشأن. ولكم كنّا نسألهم وبأي إلحاح! وأذكر أن أكثر مَن كنّا نسأله، كان الأب "ميشل يتيم"، وهو حلبي، وكان هادئ الطباع إلى حدّ مثير. فكان جوابه دائماً هو هو، لا يتغير، إذ كان يمسك بيده اليمنى مفتاح غرفته الكبير، ويرفع به جانباً من شاربه، ويقول بنبرته الحلبيّة المتميّزة: "الحيلة جيمدة" (الحالة جامدة)!. فقلت له ذات يوم في شيء من الغضب: "أبونا، فلسطين طارت، وأنت تقول لنا دائماً: الحيلة جيمدة!".

وعندما انتقل طلاب الفلسفة واللاهوت، في مطلع عام 1948، من القدس إلى رياق، استقرّوا في بناء كبير، لم يكن قد استُخدِم بعد، وكان مشفى للثكنة أيام الفرنسيّين. وكان يقوم إلى غرب ملعب كرة القدم. وقد أمضوا سنة دراسية واحدة بكاملها في رياق. وكان الانقطاع بيننا وبينهم شبه كامل. إلا أنه كان يُسمَح لنا، بين حين وآخر، بتنظيم مباراة كرة قدم معهم، كانت تُتيح لبعض منهم أن يسخروا منا، إذ كانوا يرونا نركض، كما كانوا يقولون، وراء "قطعة جلد محشوة بالهواء!".

وطوال هذه السنوات الست، كان يتاح لجميع الطلاب في رياق، أن يمضوا مدة عند أهلهم، تطول أو تقصر، في كلّ عطلة صيف. وبذلك أُلغيَت فترات التغيّب عن الأهل، الطويلة والقاسية، كما في السابق. وقد كنت، من ناحيتي، أحرص خلال هذه العطلة القصيرة، قبل كلّ شيء، على قضاء معظم الوقت في البيت، في قراءات أدبيّة وروحيّة، وما كنت أمتنع عن جلب كتاب باللاتينية، بناء على نصح أحد مدرّسينا، لأزداد تمرّساً بها، استعداداً لدراسة اللاهوت، إذ كانت الكتب المعتمدة في تدريس اللاهوت، كلّها باللغة اللاتينية...

وهنا يطيب لي أن أذكر أنّ تغييراً كبيراً طرأ على كنيسة القدّيس كيرللس بالقصاع، بدءاً من عام 1946، إذ حلّ كاهن جديد مخلّصي، يدعى بطرس حداد، محلّ الأب "معري". وكان كاهناً نشيطاً، ودوداً، متعفّفاً عن المال، محبّاً للجميع، وكان متحدّثا لبقاً، وخطيباً جذّاباً. وقد أحاطني طوال سنوات العطل الصيفية برعاية خاصة، تأصّلت محبّة لازمتنا حتى لحظة وفاته! وكان لهذه المحبّة تأثير حاسم على موقفه من ظاهرة الصوفانية، يوم كان الكثيرون يتجاهلونها أو يقاومونها.

وخلال هذه الأيام القصيرة، كنّا نتتبّع الأخبار ما أمكن. يومها ما كان لأهلي راديو. إلا أنّ أقوال الناس كانت تحمل الكثير من الأخبار... وكانت كلّها مقلقة... ثمّ إني كنت أحاول دائماً تجديد العلاقات مع الأصدقاء والأهل والجيران. وكان ذلك مجلبة لفرح كبير لي... إلا أني كنت أحياناً كثيرة، أُفاجأ بصراحة كان الكثيرون من الأهل والجيران، يستخدمونها معي، عندما يعلمون أني مصرّ على المضي إلى نهاية الشوط حتى الكهنوت. فكان بعضهم يؤكّدون لي ضاحكين أنهم لن يصدّقوني، حتى لو رأوني واقفاً على الهيكل! وكان آخرون يذهبون إلى ما هو أبعد، فيقولون إنهم يراهنون على قطع يدهم، إن رأوني كاهناً! وكنت عندها أتساءل في أعماقي: أتراني كنت مشاغباً إلى حدّ بلغ من الفظاعة، ما لم أكن أعيه، حتى زرع فيهم مثل هذا اليقين؟ وهنا، لا يسعني إلا أن أذكر منذ الآن، أني، يوم سيامتي الكهنوتية، في كنيسة القدّيس كيرللس، التي هي كنيستي، يوم الأحد 1959/7/5، وجدتني أقول في الكلمة التي ألقيتها، بعد السيامة مباشرة، أمام البطريرك مكسيموس الرابع الصائغ، وحشد كبير من الأهل والأصدقاء والجيران وآخرين، في جملة ما قلت، هذه العبارة بحرفيتها: "لو كان للذين أقسموا على قطع يدهم، إذا أصبحت كاهناً، أن يفعلوا الآن، لكان يكون لدينا اليوم، في دمشق متحف نادر الوجود، من الأيادي المقطوعة!"

الفَصْلُ الرَّابِعُ

العودة إلى مدينة المدائن

في مطلع صيف عام 1952، غادرت الدير في رياق، بعد أن نجحت في امتحان البكالوريا الفرنسية، بقسمها الكلاسيكي، وعدتُ إلى دمشق، حيث قضيت أشهر الصيف، بين تحدّي معظم من عرفني، وتصميمي على الاستمرار في ما اخترت. وحدهم أهلي لم يتّخذوا أيّ موقف من قراري هذا. وكانت أمي تختزل كلّ نقاش، بكلمة رائعة، كانت تردّدها للقاصي والداني: "الله يقدّم له هللي في الخير!". وكانوا حريصين، على ما بنا من ضيق مادّي، ألا يشعروني بما كانوا يتحمّلون من نفقات إضافية، بشأن الثياب الجديدة السوداء، التي كان عليّ أن أرتديها في القدس، من "صاية" و"جبّة" و"قلنسوة"، كما هو معروف في رجال الدين في كنيستنا، فور وصولي إلى الدير، في احتفال ديني، ضمّ جميع من كان في مثل وضعي.

وفي القدس، تبيّن لنا أنّ ما كان مقر طلاب الفلسفة واللاهوت سابقاً، قبل عام 1945، قد تحوّل إلى دير تقيم فيه راهبات حبيسات، لا يغادرن الدير البتة، ويمضين الوقت كلّه فيه في صلاة وتأمل، وبعض الأعمال اليدويّة والتقويّة. وهو منفصل على نحو قاطع، عمّا بات دير الآباء البيض وديرنا، نحن الطلاب الجدد، فيما كان في السابق، طلاب الصفوف الابتدائية والإعدادية والثانوية، يقيمون فيه. ويومها لم يكن عددنا ليتجاوز الثلاثين طالباً، في مختلف مراحل الدراسة الفلسفية واللاهوتية. وقد قَدمنا من فلسطين وسورية ولبنان والأردن ومصر. وكان لقب "الشماس" يُضاف إلى اسم كل واحد منا، وهي كلمة سريانية تعني الخادم، وجمعها بالعربية "شمامسة".

كان مُدرّسونا عدداً لا يستهان به من الآباء البيض، فضلاً عن كاهن عربي واحد، كان يأتينا، بعد إنهاء تخصّصه في روما. وقد جاء في طليعتهم الأب "ناوفيطس إدلبي"، الذي أصبح فيما بعد، أسقفاً على حلب، ثم الأب "جوزيف حجار"، ثم الأب "بطرس الراعي". هؤلاء الكهنة الثلاثة، كان منهم اثنان يملكان مشروعاً ثقافياً ودينياً، صريحاً.

فالأب ناوفيطس إدلبي، كان يعلّمنا في دروس علم الاجتماع، أن كنيسة لبنان تنوء بملكية واسعة للأراضي في لبنان، تقارب النصف منه، وأن هذه الملكية الفاحشة

ستكلّفها غالياً جداً في المستقبل، إن لم تتحرّر من قسمها الأعظم، بما يبعث فيها الروح من جديد، ويؤهّلها لاستثمار ما سيتبقّى في ما يبني الإنسان والمواطن فيه.

أما الأب جوزيف حجار، فكان له حكم قاسٍ على كنيسة الغرب، ما كان ليخفيه علينا كطلاب، خلال دروسه في تاريخ الكنيسة، وكان يجاهر به بين حين وآخر، أمام الآباء البيض. فهو كان يرى أن كنيسة الغرب لا تزال أسيرة ماضٍ، غرقت خلاله في متاهات السلطة الزمنية، وأنّ بعض أخطر هذه المظاهر بالنسبة إلى الكنيسة الشرقية، كانت الحملات المسمّاة "صليبيّة" خطأً، وسعيها إلى إنشاء الكنائس المتحدة مع روما، على حساب الكنائس الأرثوذكسيّة الأصيلة، إثر عهد "الامتيازات" الذي قام بين ملك فرنسا فرنسوا الأول والسلطات العثمانية!...

وكان هناك أيضاً "أَخَوان" مُسنّان فرنسيّان، وكلاهما من جمعية الآباء البيض، وقد مضى على وجودهما معاً في القدس، وفي الدير عينه، قرابة ستّين عاماً. وهما مكلّفان بالخدمات الماديّة الصرف. وقد علمنا أنهما هما مَن زرعا في باحة الدير الواسعة، أشجار الصنوبر الباسقة، التي باتت رؤوسها تباهي بارتفاعها سطح الدير. وقد لا يكون من النافل أن أشير إلى ما كان كلّ منهما يختلف فيه عن الآخر: إذ كان الأخ "بنجامان" الباريسي، مرحاً ونحيلاً، وكثير الحركة، ويهوى التدخين في السر، بقدر ما كان الأخ "آبولينير" دائم الصمت والهدوء والبسمة، وبادي السمنة. إلا أنهما كانا يتشابهان في أمرين جليّين: قصر القامة، وطفولة العينين!

في هذا الدير الضخم والفسيح، بدأت حياتنا الجديدة. كان لكل منا غرفته الخاصة، التي لم يكن يحق لأحد أن يدخلها، تحت أي سبب أو ذريعة. وكان نهارنا، صيفاً وشتاء، يبدأ في الخامسة والنصف صباحاً، وينتهي في التاسعة والنصف ليلاً. ففي السادسة، كنّا نحيي، في قاعة كبيرة في الدير، صلاةً صباحيّةً وجماعيةً، تعقبها فترة تأمّل شخصي وصامت، في الكتاب المقدس، أو في كتاب روحي آخر، حتى السابعة إلا ربعاً، ثم كنا ننتقل إلى الكنيسة الكبيرة والمهيبة، حيث كان القدّاس الإلهي يُقام في إيقاع هادئ، تتخلّله بعض الترانيم البيزنطية، ينشدها الجميع، أو هذا أو ذاك من المرنّمين، وفق المناسبات الدينيّة. ثم يعود كلّ منا إلى غرفته، لمطالعة أخرى في الكتاب المقدّس، حتى موعد الفطور في الثامنة. أما الدروس، فكانت كلّها تبدأ في الساعة التاسعة، حتى الثانية عشرة والنصف ظهراً، حيث كنا نتناول طعام الغداء في صمت تام، إذ تسوده قراءة باللغة الفرنسية في كتاب ما. وكانت الصلاة تسبق وتلي الغداء دائماً. ثم كنّا، بعد فترة من الراحة في الغرف، لقيلولة وجيزة، أو لتسلية هادئة، بعيدة

عن أي صخب، نعاود، في تمام الثانية، الدروس والمحاضرات حتى الرابعة. وعندها كنّا نجتمع كلّنا لتناول العصرونيّة بسرعة، ثم ننصرف، مع هذا أو ذاك من الآباء البيض، إلى الأعمال اليدويّة، من حفريّات نجريها معه وبإشرافه، في المواقع الأثرية المتعدّدة، ضمن أرض الدير، أو من تنظيف لقاعات الدير الكثيرة، وللباحتين، تلك المجاورة للكنيسة القديمة، وتلك الواسعة، المحيطة بتمثال السيّدة العذراء، أو لتنظيف المراحيض الكثيرة، إذ لم تكن يومها للدير تمديدات صحيّة نظاميّة. وفي تمام الخامسة والنصف، كنا نعود إلى غرفنا الشخصية للدراسة حتى السابعة، حيث كان الجرس يدعونا لحديث روحي يومي، يؤدّيه لنا، بحضور جميع كهنة الدير، من غربيّين وعرب، رئيس الدير، أو نائبه في حال غيابه، حتى السابعة والنصف، موعد العشاء. وكنّا نتناوله في صمت، إذ يُتلى خلاله كتاب يختاره رئيس الدير. وفي تمام الثامنة أو بعدها بدقائق، ينطلق الجميع في صمت إلى الكنيسة الكبرى، حيث كنّا نتلو صلاة شكر واستغفار لنا جميعاً، واسترحام للعالم أجمع، نختمها بترنيمة جماعيّة، نعود بعدها كلّنا في صمت إلى غرفنا، حيث يُتاح لكل منا أن يظلّ ساهراً حتى الساعة التاسعة والنصف فقط.

ذلك كان برنامج حياتنا اليومية، طوال الأسبوع. وما كان يتخلّله إلا استثناءان، هما نزهتان نصفيّتان، نقوم بهما بعد ظهر كلّ يوم خميس وأحد، إما في القدس إلى أماكنها المقدسة الكثيرة من مسيحية وإسلامية، أو خارج أسوارها في ما يحيط بها من ضاحية إلى الشمال والشرق والجنوب. أما الضاحية الغربية، فكانت المنطقة اليهودية، وهي بالطبع ممنوعة منعاً باتاً، وتحدّها الأسلاك الشائكة، والتحصينات العسكرية، التي تفصل بينها وبين الأرض العربية، منطقة منزوعة السلاح تسمى "الأرض المحظورة" (No Man's land). وكان لنا كلّ شهر، أن نقوم "بنزهة طويلة"، تمتدّ على يوم كامل، وتقودنا غالباً برفقة أحد الآباء، عبر الجبال المحيطة بالقدس، إما إلى بيت لحم وضواحيها في الجنوب، ورام الله في الشمال، وإما إلى أريحا وبحر الميت في الشرق. وكانت هذه النزهات الطويلة، لا سيما تلك التي تقودنا إلى بيت لحم، تجعلنا نكتشف بين حين وآخر، الطريقة المنتظمة والثابتة، التي كان المحتلّ الإسرائيلي، يقضم بها الأراضي العربية، فنُفاجأ بالأسلاك الشائكة والتحصينات القوية، وقد انتقلت من مواقعها إلى مواقع أخرى، داخل الأراضي العربية، حتى جاء يوم بات فيه الطريق إلى بيت لحم، بعد أن كان لا يزيد على ستة كيلومترات، يعبر المرتفعات في خط مباشر، يسلك منحدرات كثيرة وخطيرة ومتعرّجة، يبلغ طولها اثني عشر كيلومتراً!

وما كانت الأخبار السياسية تصلنا إلا مساء، خلال القراءة الروحية، بكلمات وجيزة وطارئة، يقولها لنا رئيس الدير، بين حين وآخر، ليوضح لنا بعض ما كان يصلنا من أصداء، عبر هذا أو ذاك من خدّام الدير، أو من حلاّقنا المسلم، أو أيضاً ليفصّل لنا بعض ما كان يطرق مسامعنا من تفجيرات، كثيراً ما كانت تتناهى إلى مسامعنا، دون أن نعرف عنها شيئاً.

يومها لم يكن ثمّة تلفزيون. وأما الراديو، فكان جهازاً كبيراً وعتيقاً، قد خصّت به غرفة المطالعة، ولم يكن يُسمح لنا باستخدامه إلا صباح كلّ أحد، لمدة نصف ساعة فقط. وكان ذلك أيضاً يسبّب لنا مصدر توتّر إضافي، كنّا كلّنا بغنى عنه، لأنه كان علينا أن نتّفق بشأن المحطة التي كان علينا اختيارها، بما يرضي جميع الأذواق والآراء. وما كان ذلك، بالطبع، بالأمر السهل. فكنّا في الغالب نرضى بما يرضي هذا أو ذاك، أو مجموعة منّا، تبعاً للأخبار التي كانت تخصّ هذا البلد أو ذاك.

والمعروف أنّ تلك الفترة لم تكن بالمستقرّة سياسيّاً. فقد كانت "ثورة الضباط الأحرار" في مصر، في شهر تموز من عام 1952، تشدّ انتباه الجميع في الدير، بين مؤيّد ومعارض. وكنت أنا من المتحمّسين لها، في وجه العديد من إخوتنا اللبنانيين، الذين كانوا دائمي التخوّف ممّا كانوا يسمّونه المدّ الإسلامي. وكان الملك حسين في الأردن، حديث العهد بالحكم، وهو بعد في الثامنة عشرة من عمره. وكانت الكلمة العليا يومها، للضابط البريطاني المسمّى "كلوب باشا". وكانت الأوضاع في سورية، في عهد الشيشكلي في هدوء... المرجل! وأمّا في فلسطين، فحدّث ولا حرج! فكان كل ذلك يثير فينا جميعاً، تساؤلات دائمة ومضنية، كنّا نحاول أن نتلمّس لها جواباً، حول المستقبل العربي عامة، ومستقبل العرب المسيحيّين خاصة. وكان، بشكل أو بآخر، ينعكس على علاقاتنا الشخصية، نقاشاً وتوتراً وصلاةً، على نحو دائم.

أما دراستنا، فقد كانت تشمل طيفاً واسعاً من المواد المختلفة، تأتي في طليعتها الفلسفة، من بداياتها الإغريقيّة حتى الوجوديّة المعاصرة، مروراً بالفلسفة الإسلاميّة وسكولاستيكية القرون الوسطى، ومفكّري عصور التنوير، الألمانية والفرنسية. وكانت تشمل في التاريخ حقباً واسعة من تاريخ الشعوب القديمة والمعاصرة، وتتوقّف طويلاً عند تاريخ المسيحية في انطلاقتها من سورية الطبيعية، وانتشارها في رحاب الشرق والغرب. وكانت دراسة الكتاب المقدس تحتلّ حيّزاً واسعاً من الوقت، وتتقاطع مع دراسة التاريخ القديم حصراً، دون الولوج إلى تداعيات هذا "التاريخ المقدّس" على لاهوت ما سُمّي "أرض الميعاد"، وعلى ما آل إليه هذا "اللاهوت"، على أرض الواقع، في فلسطين...

وإلى ذلك، كانت لنا أيضاً دراسات مستفيضة في القانون عامة، والقانون الكنسي خاصة، وفي الاقتصاد وعلم الاجتماع، ودروس مطوّلة أيضاً في نشوء الطقوس والفنون الكنسية، من عمارة وأيقونة وموسيقى. وقد اتضح لنا أن مدرّسينا كانوا، على العموم، يمتلكون بجدارة ناصية المواد التي يدرّسونها، ويتفانون في تحضيرها وتقديمها لنا، إمّا مشافهةً، وإمّا في نصوص مطبوعة من وضعهم. إلا أننا صُدمنا منذ اللحظة الأولى، لغياب مدرّس مادة الموسيقى البيزنطية، بشقّيها النظري والعملي. وقد تواصلت هذه الحال طوال سنوات دراستنا في القدس، الأمر الذي حرمنا من ذخيرة غنيّة، كان أسلافنا من طلاب الفلسفة واللاهوت، قد زُوّدوا بها على نحوٍ وافٍ. وقد وجدنا أنفسنا مضطرّين للتعويل على ما كنّا كسبناه في رياق، من علم نظريٍ ضئيل، ومن خبرة عمليّة لا بأس بها، في تدريباتنا واحتفالاتنا الكنسية المختلفة، سواء منها ما كان داخل الدير، أو خارجه في مختلف كنائس القدس وضواحيها... وإنّه لصحيحٌ أنّنا كثيراً ما كنّا نزور كنيسة القيامة في القدس، ولا سيما في الأعياد الكبرى، لنتابع الصلوات اليونانيّة فيها، ونصغي إلى ترنيم المنشدين الكبار فيها، علّنا نكتسب شيئاً من أدائهم المدهش. ولكنّا كنّا على الدوام نشعر بافتقارنا إلى ثقافةٍ موسيقيّةٍ وافية.

أما دراسة اللاهوت، فقد كانت بمثابة القلب من كل هذا الهيكل العلمي والمعرفي والفلسفي. وقد لُقّناه وفق خطّين متلازمين ومتكاملين، أحدهما هو خط الدراسة النظرية، المعتمدة في جميع الجامعات المسيحية في العالم، والآخر هو خط ما أسمّيه اللاهوت الحي، الذي كان من نصيب المؤمنين الكبار الأوائل، أولئك الذين أُطلق عليهم وحدَهم اسم "آباء الكنيسة"، والذين، واجهوا بإيمانهم وفكرهم وكتاباتهم، وأحياناً باستشهادهم، مناوئيهم من يهود ومثقّفين وثنيّين، وسلطات رومانيّة، من جهة، ووجّهوا بقدوتهم وصلواتهم ومواعظهم وكتاباتهم أيضاً، جموع المؤمنين في جميع أنحاء الإمبراطوريّة الرومانيّة، من جهة ثانية. فكانوا بحقّ هم من أنجب هذا الصرح الديني والفكري والثقافي، الذي بات معروفاً باسم "اللاهوت المسيحي". والجدير بالذكر أنّ أوائل هؤلاء "الآباء"، ومعظم اللاحقين منهم، كانوا من سورية، بدءاً من "إغناطيوس"، أسقف أنطاكية الذي استشهد في روما عام (117)، وانتهاءً بالقدّيس يوحنا الدمشقي، الذي كان كبير وزراء الخلافة الأموية، ثم تنسّك في ديرٍ بجوار بيت لحم، ومروراً بالقدّيس يوحنا الذهبي الفم الأنطاكي، أعظم خطباء الكنيسة في الشرق والغرب.

وكانت المدّة المقرّرة لهذه المراحل الدراسية، ستّ سنواتٍ فقط. وكان كل طالب ينال رتبة "شماس قارئ"، في ختام السنة الرابعة، ورتبة "شماس إنجيلي"، في ختام الخامسة.

وأما السيامة الكهنوتية، فكانت تُقام في ختام السادسة، إما في القدس، وإما في بلد الكاهن الجديد، وبين ذويه. وبعد ذلك، كان عليه، إما متابعة الدراسة للتخصص في روما، أو في إحدى الجامعات الأوروبية، وإما النزول المباشر إلى معترك الخدمة الكهنوتية، حيث تقتضي الحاجة، ويقرّر البطريرك أو المطران المسؤول.

هذا كان عالمنا الجديد في القدس. والحق يُقال أنه فتح أمامنا أبواباً، وأغلق أخرى. فقد فتح لنا الباب واسعاً على شخصية يسوع، وقادنا يوماً بيوم، بل لحظة بلحظة، على دروب الالتزام به، وشهوة التشبّه به، إذ كان ليسوع في القدس وفلسطين، حضور ليس كمثله حضور في الأرض كلّها. إلا أنّ هذا الحضور كان مؤلماً، بل مؤلماً جداً، لأنه كان ممزّقاً بين كنائس مختلفة، تحاربت في الماضي، ويتقاتل اليوم بعض ممثّليها، في قلب الكنائس، وفي مناسبات تحيي المراحل الأهمّ من حياة يسوع، مثل ميلاده، كما كان يحدث للرهبان اللاتين واليونانيّين في كنيسة المهد في بيت لحم، ومثل أسبوع آلامه وقيامته، كما لا زال يحدث للرهبان اللاتين واليونانيين والأحباش، في كنيسة القيامة في القدس، حتى اليوم!

وفُتح الباب واسعاً على حقيقة العيش المشترك بين المسيحيين والمسلمين، إذ كانت مدينة القدس، المدينة الثانية التي عرفت بعد دمشق، انطلاقة نظام جديد للعيش المشترك بين المسلمين والمسيحيّين، حيث التقى فيها خليفة المسلمين، عمر بن الخطاب، وكبير المسيحيين العرب، صفرونيوس، بطريرك القدس الدمشقي، ووقّعا على العهدة العمرية، التي رسمت للفاتحين العرب، طرقاً للتعامل مع الشعوب الأخرى، لم يعرفها، قبلهم وبعدهم، فاتح آخر، وجعلت المؤرخين الغربيين أنفسهم يقولون عنهم، "إنهم أرحم الفاتحين". إلا أنّ هذه الحقيقة أيضاً كانت مشوّهة جداً، بحكم وجود العنصر الغربي الطاغي، في جميع المؤسّسات المسيحيّة في القدس، من يوناني وفرنسي وإنكليزي وألماني وسواهم، بحيث كانت تذكّر جميع السكان العرب، من مسيحيين ومسلمين، بأصول هؤلاء الغربيين "الصليبية"، من جهة، وتوحي للمسلمين منهم، بأن معظم رجال الدين المسيحيين، المتواجدين في أرض فلسطين، غربيون، من جهة ثانية! ولَكَم من مرة فوجئنا، إذ كنّا نتجوّل في ربوع بيت لحم أو رام الله أو أريحا، بثيابنا السوداء الطويلة، بعدد من الشبان العرب، يحاولون التحرش بنا بطريقة زرية، وبلغة إنكليزية، فينقلبون في لحظات إلى "أقرباء" في غاية المودة، إذ يعرفوننا عرباً مسيحيين من فلسطين والأردن، وسورية، ولبنان، ومصر، وقد قَدِمنا للدراسة في القدس. وما كان الوقت يطول بنا جميعاً، حتى يبادروا لزيارتنا في دير "الصلاحية". ولا تعتّم أن ترسخ

الصداقة بيننا، فنمضي لزيارتهم مراراً في مخيمات بالقرب من أريحا، أو في مخيم "الدهيشة" بالقرب من بيت لحم! ولقد كان لإحدى هذه "المصادفات"، الفضل في اكتشافي لأحد أهم الكتاب المصريين في الخمسينيات، وهو "خالد محمد خالد"، إذ كان بعض هؤلاء الشبان يدمنون قراءته! فأدمنته بدوري!

وهنا أجدني أمام الباب الثالث الذي انفتح واسعاً جدّاً أمامي، وفي ألم لا يوصف، لأنه انفتح على الصراع العربي الإسرائيلي، وعلى ما انطوى عليه من ظلم فاضح، تواطأ فيه الغرب كله، وسكتت عنه، حتى اليوم، كنيسة الغرب كلّها!

هذه القضايا الثلاث: العيش مع يسوع، والعيش مع المسلمين، والصراع العربي الإسرائيلي، كانت تجتاح فكري وقلبي ليل نهار. وجاء يوم بُعثت فيه الحياة، في تساؤلات مضنية، كثيراً ما كانت ترهقني في رياق، وحاولتُ مراراً كبحها أو التغاضي عنها، ليقيني باستحالة وجود أجوبة شافية عليها. ما جدوى الوجود؟ لمَ هذا الضعف في الحق، وهذا الجبروت في الظلم؟ أي جدوى لفداءٍ، باتت كنائسه كلّها على هذا القدر من الغياب والتناحر، والتمزّق والهشاشة؟ وأيّ جدوى لأيّ كهنوتٍ فردي؟

في رياق، كانت مثل هذه التساؤلات تتّخذ بُعداً ذاتياً، لا مساس له مباشراً بالواقع. وكان لدينا من النشاط اليومي والرياضي، بل ومن الأفق الطبيعي، الجميل والرحب، والصداقات المتنوّعة الكثيرة، ومن نقاء العمر، بل وسذاجته، فضلاً عمّا كنت ألقى من تفهّم وتشجيع من مرشدي الروحي، الأب "بوديه"، بل أحياناً من بعض زملاء الصف، وهم يودّعوني دون سواي، مغادرين الدير نهائيّاً... ما كان يمكّنني أحياناً كثيرة من التخفيف من ثقل هذه التساؤلات وإلحاحها...

أما هنا، في القدس، فكنت كمن يسمع الحجارة تصرخ، والناس يصرخون، والأخبار تصرخ، وضيق المكان يصرخ، وضيق الوقت يصرخ، وهزال الكنائس يصرخ... وإلى ذلك، كنت مرتاحاً ودؤوباً في دراستي، واضحاً في تعاملي مع الجميع، صريحاً كل الصراحة مع الكهنة المسؤولين، بدءاً من الرئيس نفسه، ومروراً بالآباء المدرّسين جميعاً، غير هيّاب من توجيه ملاحظات لهم، بشأن تغرّبهم عن ثقافة البلاد ولغتها، أو تعالي بعضهم عليها، على ما كان يملأ حضورهم وعملهم، من حب صادق وتضحية صارخة...

وكنت دؤوباً في المطالعات الكثيرة والمتنوعة، إذ كانت لدينا مكتبة عامرة بالكتب والمجلات، القديمة والحديثة، ودائمة التجدّد بأحدث المؤلفات في الفلسفة واللاهوت، والتاريخ وعلم النفس، على ما كان يستبدّ بي، كلّما دخلتها، وتأمّلت صفوفها المتراصة، من تساؤل عنيد وملح: ما نفع كل هذا؟ وأين مؤلّفوه مما يجري اليوم؟

وكنت أيضاً كثير الصلاة في أعماقي، بل أهواها وأرتاح إليها، في تكرار داخلي دائم لاسم يسوع والعذراء مريم، إذ أجد فيها سلاماً وطمأنينة، ورجاء وقوة. وقلّما كنت أجد مثله في الصلاة الجماعية، حيث التلاوة الرتيبة تكاد تأتي على كل نضارة، وحيث الترنيم، الذي يقتضي من كل مرنّم، السهر على ضبط النغم الجماعي، أكثر من الغوص في معنى الكلمات... فكيف بمن كان مثلي في موقع المسؤولية من قيادة الجوقة والترنيم؟

ثمّة أمر كنت أهواه وأمارسه تلقائيّاً، في الدير في القدس، ولكن ضمن غرفتي فقط. كان ذلك هو ترنيمي للإنجيل، لا على الطريقة البيزنطية، التي كنت أتقنها، بل على الطريقة القرآنية، أجل كنت أحب أن أجوّد الإنجيل، إن صحّ التعبير، وأنا في غرفتي، بين حين وآخر. وكنت أرى أن تلك المحاولة كانت تنطلق من شغفي العميق بالتجويد القرآني، وتندرج في نطاق سعيي إلى تعريب الطقوس الكنسية، بدءاً من طريقة ترنيم الإنجيل. وإني لأذكر جيّداً بهذا الصدد، ما كان بادرني به صديقي الأب يوحنّا جاموس، يوم مضيت إلى حلب، إثر إصابتي بالحنجرة، في صيف عام 1966، لقضاء بضعة أيام في صمت وهدوء، ولم يكن يعلم ما كان قد حلّ بي... يومها، ما إن رآني وعرف أني سأمضي بضعة أيام، في غرفة مجاورة لغرفته، حتى قال لي: "أهلاً وسهلاً! ولكن إيّاك أن تصرعنا بتجويد الإنجيل، مثل ما كنت تعمل في القدس!"

وكنت كثير البحث في مطالعاتي، عن جواب أو ملامح جواب... وأقلّب الكتب، وأبتلع الكثير منها، بالعربية والفرنسية.

كما كنت أترقّب زيارات لشخصيّات معروفة، كنت أرجو أن ألتقط لديها ما يمكنه أن يرسم لي ملمحاً لجوابٍ ما... وكان لنا مع بعضهم، في الدير في القدس، لقاءات لا تُنسى. كان منهم المستشرق الفرنسي، "لويس ماسينيون" (Louis MASSIGNON)، الذي صارحنا بحبّه الكبير للإسلام والمسلمين، والأب الدومينيكي المستعرب، "جاك جومييه" (Jacques JOMIER)، الذي كان يقيم في القاهرة، حيث أمضى عمره، وكان صديقاً لنجيب محفوظ، والأب الروماني "أندريه سكريما" (André SKRIMA)، الذي حدّثنا طويلاً عن خبرة الكنيسة القاسية في بلده "رومانيا"، مع الحكم الشيوعي، وكان منهم الأخ - آنذاك! - "عفيف عسيران" اللبناني، الذي اعتنق المسيحية حبّاً بيسوع، خلال دراسته الفلسفة في بلجيكا، واختار أن يصبح راهباً، وأخيراً عاد إلى لبنان، وعاش فيه حتى وفاته عام (1988)، كاهناً مارونياً في خدمة الجميع، من المثقّفين والجامعيّين، إلى أطفال الشوارع!

وكان منهم أيضاً الأب "مكسيموس جنادري" اللبناني، الذي اختار أن يخدم في كنيستنا في الأردن، في مطلع الخمسينيات. وكان أن عيّن في بلدة "السلط"، حيث جرت

له حادثة رواها لنا يومذاك، وكانت من الغرابة بحيث رسخت حتى اليوم في ذاكرتي، لما لها من أبعاد اجتماعية ونفسية وإنسانية. ذلك بأن الرجال من أبناء كنيسته، وقد رأوه شاباً عازباً، اتفقوا على مراقبته خصوصاً أثناء الليل. فتناوبوا طوال ستة أشهر، على مراقبة منزله الخاص، كي يتثبّتوا من صحة تبتّله! وقد اعترفوا له بذلك، بعد أن توثّقت العلاقات بينهم. ولشدّ ما فوجئت به يأتي إلى حريصا، يوم الثامن من هذا الشهر حزيران عام 2013، وهو في الثانية والتسعين، بهمّة وابتسامة مدهشتين. فذكّرته بتلك الحادثة، فما كان منه إلا أن استسلم للضحك، وأعاد روايتها للكهنة الحاضرين!

وكنت أنتهي دائماً من جميع هذه المطالعات، ومن جميع هذه اللقاءات، على أهميتها وفرادتها وغناها، إلى نتيجة واحدة: ليس ثمّة جواب جاهز!

وكنت كثيراً ما أضيق ذرعاً بنفسي، إلا أني لم أنزع يوماً إلى الهروب، أياً كان نوع هذا الهروب. وعندها، كنت، مرة أخرى، أطلب موعداً من مرشدي، الأب "بول ترنان" (Paul TERNANT). وكان يدرّسنا مادة الكتاب المقدّس. وكان على درجة عالية من الشفافية والصدق، ويتمتّع بذكاء نافذ، وبقدرة نادرة على الإصغاء... فأعود إلى مصارحته بكل ما بي، وبكل ما قد يكون طرأ من جديد... وأغوص وإيّاه في أدقّ التفاصيل، الماضية والحاضرة، الشخصية والعامة، الكامنة، أو التي قد تكون كامنة وراء هذه التساؤلات. وكنّا نحاول أن نتبيّن الطريق التي تحتّم عليّ هذه التساؤلات عينها، في أمانة مني لذاتي، سلوكها، في الوقت الحاضر، وفي المستقبل...

وفي ذات يوم، بلغ مرشدي هذا، من الصدق مع ذاته ومعي، أن نصحني بمراجعة طبيب نفسي في بيت لحم، وقد حدّد لي اسمه، عساه يساعدني على الخروج ممّا كنت أتخبّط فيه، وممّا عجز هو عنه. وكان مني أن امتثلت دون تردّد... إلا أنّ هذا الطبيب، وكان مسلماً من آل "اللبان"، أبدى من التفهّم والتوقّع لمثل هذه التساؤلات، ما جعله يدفعني لمتابعة المواجهة الشخصية لها، دون النزوع إلى أي هروب رخيص. وقد جاء قراره هذا، بعد ثلاث جلسات طويلة ودقيقة. ولَكَم فاجأني، عندما أكّد لي أنّ مثل هذه التساؤلات، قد تشكّل لي منطلقاً لالتزام جديد، سوف تتبيّن ملامحه لاحقاً، عبر المواجهة ذاتها.

وفي ختام السنة الدراسية الثانية، صارحني مرشدي بما يبيّت لي من مشروع، قد يفضي بنا إلى ما كنّا نبحث عنه، وسألني التكتّم المطلق بشأنه. وأما هذا المشروع، فكان قضاء فترة لا تقل عن سنة دراسيّة، في فرنسا، ضمن جمعيّة من الكهنة المعروفين بالتزامهم الإنساني والاجتماعي، هي "جمعية البرادو" (PRADO)، التي يعرفها جيداً، لأنها نشأت في مدينة "ليون"، وهي المدينة التي وُلد ونشأ ودرس فيها. بالطبع فوجئت

باقتراحه. ولكن ثقتي به، وما كنت قد بلغت من إعياء من جهة، ومن رغبة قوية في العثور على حلّ، من جهة ثانية، كلّ ذلك جعلني أبدي استعدادي لخوض مثل هذه التجربة. إلا أنّ الأمر لم يكن سهلاً. فقد كان على مرشدي أن ينال موافقة رئيس الدير أولاً على أمرٍ كهذا، ودراسة الصيغة المناسبة لمثل هذه الخبرة. وكان كلّ ذلك يقتضي وقتاً طويلاً، وكان عليّ، من جهتي، أن أنال موافقة البطريرك، بوصفه السلطة العليا في كنيستنا، علماً بأنّ مثل هذا الأمر ما كان قد حدث فيها، في ما سبق. ويومها، ما كان أمر النفقات المترتبة على مثل هذه "المغامرة" ليخطر ببالي، نظراً لما كان يستبدّ بي من ضيقٍ وإحساسٍ بالضياع، ومن تصميمٍ على الخروج ممّا كنت فيه.

ثم جاء صيف عام 1954، وقد عدت إلى دمشق. حسبي أن أذكر منه أمرين فقط:

أولهما كان ما حدث لي غداة وصولي إلى دمشق، إذ ذهبت صباحاً إلى دار البطريركية، لأحيّي البطريرك ونائبه آنذاك المطران انطونيوس فرج.

لحظة بلوغي بناء البطريركية، رأيت ورقة نعي ملصقة على بوّابتها. وكنت بالطبع بكامل لباسي الأسود، فبدوت أشبه بكاهن. وما إن وقفت أمام البوابة لأقرأ اسم المتوفّى، حتى سمعت صوتاً خلفي يقول في لهجة متهكّمة، الكلمات التالية، بحرفيّتها: "هَه! إجت الرزقة!". فشعرت بطعنة في الصميم. ودون أن ألتفت إلى الوراء، اجتزت بوابة البطريركية، وأنا في حالة غضب لا يوصَف. ومَن يومها حتى اليوم 2012/12/31، لم أسمح لنفسي بقراءة أيّ ورقة نعي!

أما الأمر الثاني، فكان بالدرجة الأولى حرصي، طوال أشهر الصيف، على استبعاد كل ما من شأنه أن يشتّتني على صعيدَي الصلاة والمطالعة. فأُتيح لي بذلك أن أنظّم لقاءاتٍ مع العديد من الأطفال والشبان، في إطار كنيسة القدّيس كيرللس. وكانت لنا حلقات نقاش حول بعض الأمور الدينية، ورحلات ممتعة إلى مزارات السيّدة في صيدنايا، والقدّيس إيليّا النبي في المعرة، والقدّيسة تقلا والقدّيس سركيس في معلولا. كما كنّا نقوم بجولات رائعة في جنبات الغوطة، على دراجات هوائيّة. وما كنت أمتنع عن مرافقة بعضهم إلى مسبح المزّة الشهير، ولمّا كنت ملتحياً، سُئل بعضهم كيف لهم أن يرافقوا "إخونجياً"؟ وخلال هذه العطلة أيضاً، أسعدني أن أقيم، كما في الصيفية السابقة، مخيم الأطفال الفقراء، في مدرسة المطران في يبرود، بفضل الدعم المادي والمالي، الذي كان الأب إيلاريون كبوجي يوفّره لنا، وبمساعدة بعض الطالبات الجامعيّات. ولكَم يؤسفني أن أتذكر الآن بُحَيرة "القرينة" فيها، التي كانت لا تزال

عامرة بالمياه، تعبرها مراكب سياحيّة صغيرة. وجاء يوم دبّ فيه الوهن بجسمي، وقد تبيّن أنني مصابٌ بفقر في الدم. فاضطررت لتخفيف هذا النشاط قبل عودتي إلى القدس.

وكان أن عدت إلى القدس، وأنا لا أزال أعاني من وهن كبير. فما إن وصلت إلى الدير، حتى أعلمت الأب الرئيس بالأمر، فأرسلني برفقة أحد الكهنة، إلى المشفى الفرنسي، في منطقة تُسمّى "شافاط"، حيث كان الآباء وطلاب الدير يعالَجون. وخلال الفحص السريري، الذي قام به الدكتور "أَلبينا"، وهو فلسطيني، سمعته يقول عبارة ظلّت لسنوات طويلة مثار تساؤل لديّ. هذه العبارة قالها باللغة الفرنسية، وكان بالتأكيد يقولها للكاهن الذي كان يرافقني. قال بالحرف الواحد: " Ça, c'est le coeur d'un homme fort". وهي تعني بالعربية: "هذا القلب، هو قلب رجل قوي!" إلا أنّها ظلّت لسنوات طويلة مثاراً لتساؤلات محيّرة لديّ، حتى شرحها لي ذات يوم، من بات صديقاً غالياً لي بعد سنوات، وهو الدكتور وليد فطايري!...

وانقضت سنة دراسيّة جديدة في القدس. لم يكن لأحد أن يدري خلالها، ما كنت أخبّئ مع مرشدي، في نهايتها، من مفاجأة. وكان مرشدي قد تدبّر الأمر بجميع تفاصيله، مع رئيس الدير من جهة، ومع "جمعية البرادو" في فرنسا، من جهة أخرى. إلا أني كنت قد أطلعت عليه، في سرية تامة، خال أمي، الأب "الياس كويتر"، إذ كان في البرازيل منذ سنوات طويلة، راجياً إيّاه مساعدتي في نفقات السفر، تخفيفاً عن أهلي. وقد استجاب لي. إلا أنّ البطريرك أصرّ على الرفض، أوّلاً لرئيس الدير، ثانياً لي، وقد ذكّرني ذلك برفض آخر، مارسه معي قبل سنين، يوم سألته السماح لي بتأدية خدمة العلم، فكان جوابه يومها: "هذا الباب مقفل. لا أريد أن نفتحه!". وكان جوابه هذه المرة أيضاً: "لِمَ تريد أن تفتح أبواباً مقفلة؟". ومع ذلك، فقد كنت مصرّاً على السفر، وصارحت البطريرك بذلك، وبيّنتُ له أنّ دافعي الأوحد، إنما هو البحث عن إجابة شافية على السؤال المزمن، الذي كان يستبدّ بي، وهو: هل من مكانٍ لي في الكنيسة، إن أنا أصبحت كاهناً؟".

وفي مطلع شهر أيلول، سافرت من بيروت بطريق البحر، تخفيفاً للنفقات، إلى فرنسا، خلافاً لإرادة البطريرك. إلا أني كنت أحطت مستشاره، المطران "بطرس كامل مدوّر"، بجميع حيثيّات رحلتي، فباركني، وسألني التواصل معه دونما تأخير.

الفصل الخامس

عام الاكتشافات في فرنسا 55-56

قطعت المسافة بين مدينتي مرسيليا وليون، في القطار. الطبيعة مذهلة، طوال الطريق، بكثافة الخضرة وغزارة المياه. وفي مدينة ليون، اهتديتُ بسهولة إلى مركز "جمعية البرادو"، إذ لم يكن بعيداً عن محطة القطارات، المسمّاة "بيراش". وهنا وجدت أن كلّ شيء يخصّني، أُعدّ بدقة. فاجتمعتُ قليلاً بنائب رئيس الجمعيّة، الأب "جان هوجيه" (Jean HUGUET). لغياب الأب الرئيس. ثم اقتادوني في سيارةٍ عتيقةٍ إلى حيث حدّد مقرّ إقامتي. كان يقع في إحدى الضواحي الصناعية، إلى الجنوب من مدينة ليون، وفيها تجمّع سكني كثيف، يُدعى "سان فون" (Saint-FONS)، واستقبلني فيها كاهن رَبِع القامة، كثيفها، وبادي الطيبة، يدعى "جوزيف كارتيرون" (Joseph CARTÉRON). وما عتّم أن تجمّع سائر الكهنة معاونوه، الذين قُيّض لي، خلال السنة، أن أعايشهم، وهم الآباء "غي دو كريستين" (Guy de CHRISTEN)، و"عمانوئيل دو مونغولفييه" (Emmanuel De MONTGOLFIER)، وكان ثلاثتهم يرتدون الثوب الأسود الطويل، ورابعهم كان "جان أورتوبيز" (Jean HURTEBIZE)، الذي كان بلباس مدني بسيط، وقد علمت للتوّ أنه يعمل وفق دوام نصفي فقط، في أحد المعامل، أسوةً بالكثيرين من الكهنة العمّال، الذين كانوا قد تكاثروا في فرنسا آنذاك. ثمّة كاهن خامس، واسمه "جوزيف فويا" (Joseph FOUILLAT)، لا يزال غائباً، لأنه كان يعاني من انهيار عصبي، وعودته باتت قريبة.

بدت لي أعمارهم، للوهلة الأولى، تتراوح بين الأربعين والخمسين. فاجأتهم لغتي الفرنسية. وسرّني ألا ألمس لديهم شيئاً من الترفّع أو الاستعلاء. إلا أنهم فاجأوني كلّهم بسؤال شبه جماعي، وبدا لهم طبيعيّاً، وقد جاء في طليعة الأسئلة الكثيرة، التي أمطروني بها، وهو: كيف هي علاقة المسلمين بالمسيحيّين في سورية؟ ولكم فاجأهم جوابي، إذ كان واضحاً أنهم كانوا يتوقّعون مني وصفاً مأساويّاً. وتبيّن لي أنهم يجهلون كلّ شيء، لا عن سورية وحسب، بل عن العالم العربي كلّه، باستثناء الجزائر، إذ كانت تقلقهم كثيراً آنذاك. وكانوا كلّهم حليقي الذقن. ولكم سررت عندما أفهموني أنه عليّ أن أتخلّى عن ذقني،

وأحتفظ بثوبي الأسود الطويل. فسرّني ذلك، واستجبت لهم فوراً، لا سيما وأن الحلاق كان حاضراً في غرفة مجاورة. ذلك بأني كنت دائماً أرى في الذقن - ذقني وذقن غيري من رجال الدين! - قناعاً، كثيراً ما حلمت بانتزاعه! وعلمتُ أن مقرّ إقامتي سيكون في تلّة قريبة، تشرف على بلدة "سان فون"، وتدعى "ليه كلوشيت" (Les CLOCHETTES)، (ومعناها الأجراس الصغيرة)، حيث سأقيم مع الأب "فويا"، عند عودته. وفي هذه الأثناء، سيحلّ محلّه الأب "دو مونغولفييه". وقد علمت أنّ مقرّ إقامتنا هذا، ينطوي على رمزيّة عظيمة بالنسبة إلى كهنة "البرادو"، لأنه كان مقرّ الخلوة الروحيّة الوحيدة، التي كان مؤسّس هذه الجمعية، الأب "أنطوان شفرييه" (Antoine CHEVRIER)، يلتجئ إليها، كلّما دعت الحاجة. كما بيّنوا لي لحظتها، أنّنا، على اهتمامنا برعية منطقة "الكلوشيت"، وقد باتت واسعة وكثيفة السكان، سيكون لنا، كلّ يوم، لقاء مع جميع كهنة "سان فون"، على... المائدة ظهراً، كما سيكون لنا كلّ أسبوع، لقاءان، أحدهما للتباحث في شتى أمور الرعيّتين، وثانيهما لما يُسمّى "مراجعة الحياة"، وهي عبارة تعني، كما شرحوها لي، وكما اتضح لي فيما بعد، ما يشبه الاعتراف الجماعي، الذي يحدّد فيه كل واحد، أمام الآخرين، موقعه من الرب يسوع، في فكره وصلاته وعمله، ثم يتبادل الرأي مع الجميع، في حرية وصراحة، فيتبيّنون كلهم عندها، ما هو الأفضل لكل منهم، ولمجموعهم! كل ذلك كان جديداً عليّ، وكان مفاجئاً لي، أنا القادم من كنيسة فُرِضت فيها عزلة على الكاهن، يحاول أن يتحرّر منها باسترضاء سلطة كنسية، قلّما تقف عند حدّ، وباسترضاء شعب يمتهنه في أعماقه، لأنه يعرف معرفة اليقين أنه في عوز!

كل ذلك، بُلّغته منذ اللقاء الأول، وكأني أليفهم من زمان.

ثم تناولنا طعام الغداء، بعد صلاة شخصية، ارتجلها بصوت هادئ وواضح، الأب "جوزيف كارتيرون" ولكم فوجئت، عندما سمعتهم طوال الغداء، يتبادلون الآراء المختلفة، بهدوء وإصغاء، حول أمور المنطقة، وشؤون العمال، ورأي الكنيسة في كل ذلك، بعيداً عن أي لغو وشطط. وكنت أصغي لهم بأذنيّ الاثنتين، فيما عقلي يستنتج، ويقارن بين "هنا" و"هناك"! ولكم سرّني أن أكتشف طوال إقامتي معهم، ومع سواهم من الكهنة لاحقاً، أنّ هذا النمط من التعامل مع الأحداث، حتى على المائدة، كان هو الأمر الطبيعي بالنسبة إليهم، وأنه ليس فيه أي تصنّع.

واقتادني، بعد ذلك، الأب "دو مونغولفييه"، في سيارة عتيقة، إلى مقرّنا الجديد، حيث تنتصب تلّة "ليه كلوشيت" (Les Clochettes)، وقد غطاها العديد من البيوت المستقلة عن بعضها البعض، وذات الطابق الواحد، تحيط بها جميعاً مساحات ضيقة

مزروعة. كما كانت هناك بعض الأبنية الضخمة، الشبيهة بمستودعات عالية. فوجدت مقرّنا هذا شبيهاً بسائر البيوت المحيطة به، ولا يميّزه عنها سوى أمرين واضحين للوهلة الأولى: الأول، مظهره الخارجي المغرق في الفقر، والثاني تجاوره مع كنيسة لا يميّزها عن سائر البيوت الأخرى، سوى الصليب الخشبي الذي يعلوها.

إلا أن ما وجدته في الداخل، صعقني وأفرحني في آن. ففي الطابق الأرضي، لم يكن هناك سوى برّاد عتيق وفارغ، وبجواره طاولة خشبيّة قديمّة، وضع "بنكان" خشبيان عتيقان إزاء اثنين من جوانبها الأربعة. وثمّة باب صغير إلى الجنوب، يفضي إلى غرفتين عاريتين كليّاً، إلاّ من كتابات فرنسية صادمة، خُطّت بأحرف سوداء كبيرة، على الخلفية الكلسية لجدارَي الغرفة الأولى، فوق مذود خشبي طويل، غُرس في أسفل الجدار، وتحت صليب كبير غرس في الجدار، وعلى جدار الغرفة الثانية، فوق هيكل من خشب عتيق، يعلوه شمعدانان متواضعان، يحيطان ببيت القربان. فكان من الواضح أنه أُعدّ لإقامة القدّاس. هذا كلّ شيء. ولكم كان معبّراً، ولكم كانت الكلمات المرسومة على الجدارين، صادمةً، مقارنةً بما ألِف الناس أن يروا من بذخ وترف في الكنائس لدينا، ومن البذخ والترف الصارخين، اللذين سيُتاح لي، في فرنسا وفي سواها من بلدان العالم، فيما بعد، أن أرى! وقد لاحظ الأب "دو مونغولفييه"، وجومي، بل جمودي إزاء هذه الكتابات، وأنا أعيد قراءتها في دهشة. فرأى أن يشرح لي أنّ مجموع هذه الكتابات، باتت تُعرف باسم "لوحة سان فون" (Le Tableau de Saint-Fons)، التي أراد مؤسّسهم، الأب "شفرييه"، أن يلخّص بها روحانيّة جمعيّته.

ثم صعدنا إلى الطابق الأول والوحيد، بسلّم خشبي لولبي، يئنّ من عتقه عند كل درجة. وقد قادنا إلى ممر خشبي ضيّق وصغير، يفضي إلى غرفتين، إحداهما لا تكاد تسع سوى سرير ضيّق، وخزانة جلدية صغيرة، وطاولة في منتهى الصغر، وتلك كانت غرفتي. والثانية كانت أكثر اتساعاً بقليل، وكانت تحتوي مكتبة وطاولة، وعلمت أنها غرفة الكاهن المنتظر!

وقد يكون الأب "عمانوئيل" خشي عليّ، ممّا لاحظت من فقر مدقع في هذا المقرّ. فسألني على الفور: "هل كنت تتوقّع ما رأيت؟" فجاءه جوابي فورياً وصريحاً: "هذا أشهى ما أتمنّى!"

وإني لأرى من الطبيعي، أن أُدرج هنا "لوحة سان فون" هذه، في مطلع شهادتي حول خبرتي الجديدة في فرنسا، قبل أن أتابع رواية تفاصيلها. وإني لأدرجها بلغتيها اللاتينية والفرنسية الأصليتين، وبترجمة إلى العربية.

1- النص الأصلي:

SACERDOS ALTER CHRISTUS *Verbum caro factum est et habitavit in nobis.* *Exemplum dedi vobis, ut quemadmodum ego feci, ità et vos faciatis.*					
CRÈCHE PAUVRETÉ		CALVAIRE MORT A SOI-MÊME		TABERNACLE CHARITÉ	
Pauvre	*Humble*	*Mourir*	*S'immoler*	*Donner*	*Donner la vie*
dans le logement, le vêtement, la nourriture, les biens, le travail, le service,	d'esprit, de Coeur, vis-à-vis, de Dieu, des hommes, de soi-même,	à son corps, à son esprit, à sa volonté, à sa réputation, à sa famille, et au monde.	par le silence, la prière, le travail, la pénitence, la souffrance, la mort,	son corps, son esprit, son temps, ses biens, Sa santé, Sa vie,	par sa foi, sa doctrine, ses paroles, ses prières, ses pouvoirs, ses exemples.
Plus on est pauvre, plus on s'abaisse, Plus on glorifie Dieu, Plus on est utile au prochain		Plus on est mort, Plus on a la vie, Plus on donne la vie.		Il faut devenir du bon pain.	
Le prêtre est un homme dépouillé.		*Le prêtre est un homme crucifié.*		*Le prêtre est un homme mangé.*	

2 - الترجمة:

الكاهن هو مسيح آخر *"الكلمة صار جسداً وسكن فينا"* *"لقد جعلت لكم نفسي قدوة، لتصنعوا ما صنعت إليكم"*					
المغارة المحبة		الجلجلة الموت عن الذات		بيت القربان المحبة	
الفقر	*التواضع*	*الموت*	*التضحية*	*عطاء*	*منح الحياة*
في المسكن في اللباس في المأكل في الخيرات في العمل في الخدمة	بالروح بالقلب حيال الله والبشر والذات	عن جسده عن روحه عن إرادته عن سمعته عن عائلته عن العالم	بالصمت بالصلاة بالعمل بالتوبة بالألم بالموت	بجسده بروحه بوقته بخبراته بصمته بحياته	بإيمانه بتعليمه بأقواله بصلواته بسلطته بقدوته
كلما كان الكاهن فقيراً ومتواضعاً ازداد تمجيداً لله وازداد فائدة للقريب		كلما ازداد الكاهن موتاً ازداد حياة وفاض بالحياة		يجب أن يصبح الكاهن خبزاً طيباً	
الكاهن هو إنسان متجرّد		**الكاهن هو إنسان مصلوب**		**الكاهن هو إنسان مأكول**	

حياتي الجديدة هذه، كانت سلسلة اكتشافات يوميّة ومتلاحقة. وقد حرصت منذ اليوم الأول، على تدوينها في دفتر خاص، لازمني طوال مدة إقامتي في فرنسا، وحتى لحظة عودتي إلى سورية. وقد دوّنت معظمها باللغة الفرنسية، لأحتفظ بنقائها وجدّتها وعفويتها، إلا أنّ هناك مواقف وكلمات، لم أدوّنها، لكنها تظل راسخة حتى الآن في ذاكرتي.

تُرى، ماذا اكتشفت؟

الكثير، إلا أني سأحاول أن أختزل.

كان أول ما اكتشفت، هذا النمط الجديد من الكهنة. كانوا كهنةً وحسب، يفيضون بالإيمان، ويفيضون بالمحبة في آن واحد. وسرعان ما تبيّن لي، أن محبّتهم لا تتوقّف عند حدود فرنسا، ولا عند حدود الإنسان الفرنسي. وقد اتّضح لي منذ الأيام الأولى، أن المغاربة الكثيرين، الذين يملأون الشوارع، ليقوموا بأعمال الحفر والتنظيف، التي يأباها الفرنسي، كما يملأون المصانع الكثيرة، المنتشرة في المنطقة، كانوا على الدوام محطّ تفكيرهم وحفاوتهم، وصلاتهم واهتماماتهم. وإلى ذلك، فقد ارتأوا أن يحذّروني من الاختلاط بهم، ومن زيارتهم في بيوتهم، وكان بعضها في جوار كنيستنا، خشيةً عليّ من تدخّل بوليسي ما، بسبب الأحداث في الجزائر، ينتهي بي إلى إقصائي الفوري عن فرنسا!

لم يكن من الصعب عليّ، أن أكتشف مَن وما الذي كان يحرّك هؤلاء الكهنة، إذ كنت أعيش معهم، وأصلّي معهم، وأشاركهم في كل شاردة وواردة، من الصباح إلى المساء، وأتبادل وإيّاهم الآراء بمنتهى الصراحة، حول مختلف القراءات والنشاطات، التي كنت أقوم، أو يقومون هم بها. بل ما كان ذلك بخافٍ، حتى على مَن لم يكن على علاقة مباشرة بهم، ولا بمن لم يكونوا ليصلّوا في الكنيسة. وقد أُتيح لي أن أتعرّف إلى بعضهم، كما حدث لي، بُعيد وصولي، مع أحد الأطباء في عيادته، إذ كنت أراجعه في أمر صحي، وقد فوجئ بي قادماً من سورية، وأنا طالب لاهوت. ولكم أراحني، خلال حديث طويل، إذ سمعته يقول لي بالحرف الواحد: "أحسنَ جداً من اختار لك هذه الجمعية، لأنّ الكهنة الذين ينتسبون إليها، قطعوا شوطاً بعيداً ومرموقاً، في الخروج من الهاوية التي انتهت إليها الكنيسة في القرن الماضي، من حيث ابتعادها عن عامة الناس، وخصوصاً من حيث خسارتها للطبقة العاملة. وأنا لست مؤمناً، ولكني أحترمهم، وأقدّر عالياً نمط حياتهم وخدمتهم". أجل، مَن ومَا كان يحرّكهم، لم يكن لا المال، ولا المركز، ولا إعجاب الناس، ولا استرضاء مسؤول أو رئيس ما... بل كان يسوعاً، ويسوعاً ليس إلا! أجل كان يسوعاً، كما جاء في الإنجيل، الذي كان يتوجّب عليهم

دراسته يومياً، في قراءة الإنجيل، كما جاء في دستور الجمعية، وكما فهمه وعاشه مؤسّسهم، الأب "أنطوان شفرييه"، إذ كانوا يسعون لاستكشافه يومياً، بدأب عجيب، من خلال ما كتب، ولا سيما كتابه "التلميذ الحقيقي"، ومن خلال رسائله الكثيرة، التي جُمِعت ونُشِر معظمها.

واكتشفت أيضاً المحبّة، التي كانت تشدّهم إلى بعضهم إلى بعضهم البعض، وإلى جميع الناس. وقد يكون للأب المسؤول فيهم، "جوزيف كارتيرون"، تأثيرٌ ما على هذا الصعيد، بفضل ما كان يتمتّع به من رقّة حاشية، ولطف في الحزم، ودأب صبور على العمل، وإصرار هادئ على الإعداد الجيد لكل الصلوات واللقاءات، وتتبّع محبّ لنشاط كل مسؤول من الكهنة أو العلمانيين. إلا أنّ ما كان يشدّ هؤلاء الكهنة، الواحد إلى الآخر، كان يبدو لي أبعد وأعمق من مجرّد حسن تصرف المسؤول فيهم. كان واضحاً لي أنّ ما بينهم من علاقات إنسانية أولاً، وترتيبات خِدَميّة ثانياً، على تنوّعها وزخمها الدائم، ينبع من أعماقهم، في غير تكلّف. ولكم كانت تدهشني وتفرحني محبّتهم لبعضهم البعض، أو قلقهم على هذا أو ذاك منهم، في الحضور والغياب على السواء. وكثيراً ما كنت أصغي بشكر - وحسرة! - إلى أحدهم وهو يهنّئ آخر، في لقاء، أو حتى على المائدة، لعظة ألقاها في القداس، فيما هو، في الوقت نفسه، يلفت نظره إلى جانب هام، أغفله في العظة ذاتها. حقّاً، كانت لهم قدرة عجيبة على محبة الجميع، وعلى تقبّل الآخر، وعلى الفرح معه في نجاحه، والقلق عليه في ضعفه. وإن أنسَ، لا أنسَ لقاءً لأيام، كان لنا بعد أشهر طويلة، في مكانٍ ناءٍ، وقد طُرِحت فيه الأمور كلّها، بما فيها الأمور الشخصية، المتعلقة بمستقبل هذا أو ذاك من الحاضرين. وكان الجو مشحوناً بشفافية عالية، فشئنا أن نختم كل ذلك بصلاة أخيرة، تجمعنا وتوجّهنا. وإذ كنّا كلّنا راكعين في الكنيسة، مغمورين بحضور استثنائي، سمعت أحدهم، وكان صوت أكبر الحاضرين سنّاً، يقول بصوت خفيض متهدّج: "ربي، أنا، بعد هذه الأيام الحلوة، أشعر بالخوف يستبدّ بي..."

وكان أن اكتشفت أن الصلاة لدى هؤلاء الكهنة، سواء كانت في الكنيسة، أو في أي مكان آخر، لا تخضع بأي حال من الأحوال، لآلية العادة والتقليد، أو خصوصاً لضيق الوقت. فهم يتصرّفون وكأني بهم اتّخذوا شعاراً أولياً لهم، القول العربي المأثور: "إنّ لله عليك حقّاً!". فالصلاة هي الصلاة، وهم يصرّون على الإعداد لها، بحيث تُكسَر وطأة الروتين، وتُبعَث اليقظة في جميع الحضور، بدءاً ممن يتولّى شأنها. فثمّة الحرص على اختيار النصوص الإنجيلية، وصياغة الصلوات الإضافية، وإدخال التعديلات على الصلوات المألوفة، واختيار المؤمنين المكلّفين بتلاوة الصلوات، أو بإعلان بعض النيات

الهامة، في هذه أو تلك من المناسبات، واختيار الترانيم الملائمة، وتدريب الناس على حفظها، وإتقان أدائها. أما العظة، فكانت محطّ الاهتمام الأكبر، إذ كان يدفع هذا أو ذاك من الكهنة، إلى سؤال سائر الكهنة بشأنها، حتى على مائدة الطعام. أجل! وحتى مَن كان منهم موهوباً حقّاً في الوعظ، كما كان الأب "فويا"، فلم يكن يتردّد في استشارة هذا أو ذاك، في ما يجب التأكيد عليه، أو الامتناع عنه، في ما كان يطرأ من أحداث هامة، كانوا يحرصون على ربطها بالإنجيل، ليستنيروا وينيروا الناس، بموقف أو بكلمة من يسوع. ولشدّ ما كان يلفت انتباهي ويثير إعجابي، حرصهم الدائم على ولوج الكنيسة، قبل موعد الصلاة بفترة طويلة، وقبل قدوم الناس، كي يتسنّى لهم أن يستكينوا في حضور مَن لا استكانة لإنسان من دونه!

واكتشفتُ أيضاً ألماً دائماً كان ينتابني، كلّما أقيم القدّاس، لا سيما يوم الأحد، بحضور جمهور المؤمنين. كان ذلك يعود لترتيب، ألزمت الكنيسة اللاتينية نفسَها به، على مستوى العالم، ولا يجرؤ أحد في الغرب على تخطّيه. وهو يقوم على قراءة من العهد القديم، تأتي مباشرة قبل قراءة الإنجيل. وكثيراً ما كانت هذه القراءة تزكّي الشعب اليهودي، وتوهم الناس بأنّ إسرائيل العهد القديم، ليست سوى إسرائيل اليوم! بالطبع، كنت أحاول بين حين وآخر، أن أثير، انطلاقاً من هذه القراءات، موضوع الصراع العربي الإسرائيلي. إلا أنّ التربة، القديمة منها والحديثة، لم تكن قط مهيّأةً لمثل هذه النقاشات، لا على مستوى الكهنة، ولا على مستوى الشعب عامة، والمؤمنين القلة خاصة. وأقول "القلة"، لسببين وجيهين، أولهما لأنّ المنطقة التي كنت أعيش فيها، كانت كلّها منطقة عمّالية تنضوي بمعظمها تحت لواء الحزب الشيوعي، وثانيهما لأنّ شعور الفرنسيين عموماً، ورجال الكنيسة خصوصاً، بعقدة الذنب تجاه اليهود، كان مستفحلاً. ولم يكن هناك مَن يجهل أنّ المجتمع والكنيسة في الغرب، مارسا طوال قرون وقرون، لاساميّةً مقيتةً حيال اليهود، فضلاً عن الأهوال التي ارتكبها النازيّون بحقّ اليهود، طوال فترة الاحتلال، وتلك التي ارتكبوها أيضاً في معسكرات الاعتقال الكثيرة، التي أقاموها حيثما كانوا وفرضوا احتلالهم. ثم إنّ الحرب العالمية الثانية، لم تكن قد توقّفت إلا منذ عشر سنوات. إلا أنّ ما تركته من دمار مادي ونفسي، كان ماثلاً بقسوة. وإلى ذلك، فقد كانت وسائل الإعلام، والتحقيقات الصحفية، ومراكز الأبحاث والدراسات، وبعض الروايات والمسرحيّات، والعروض السينمائيّة، كلّ ذلك كان يتبارى في انتقاء نماذج مثيرة من هذه الوقائع المخزية، ليمطر بها الناس ليلاً ونهاراً!... فمِن أين لي أن أجد المدخل، أو المأخذ لمثل هذه النقاشات؟

ثمّة استثناءان في هذا الواقع العام والمرير. ولقد اكتشفتهما، حيث لم أكن أتوقّعهما. وأولهما كان الأب "جوزيف فويا"، الذي قيل لي إنه كان يعاني من انهيار عصبي، والذي قَدِم بعد شهر واحد من وصولي، فتسلّم مسؤولية كنيسة "الكلوشيت"، من الأب "دو مونغولفييه". ولكم كان لقاؤنا الأول دافئاً وعفوياً. فبدا كلٌ منّا للآخر، وكأنه صديق العمر. وقد تبيّن لي سريعاً، أنه إنسان بكل معنى الكلمة. فمصافحته، ومعانقته العفوية لي، وابتسامته، ونبرة صوته، وتطليعته في وجهي، أسقطت في لحظة، كل ما كان يمكن أن يقوم بيننا من حواجز. هل كان هناك مَن هيّأ مثل هذا اللقاء؟ ربما. إلا أني تبيّنت لاحقاً أنّ الأب "فويا" هو هو، في كل موقع ومع الجميع. غير أنه بدا لي يتخطّى ذاته، عندما كان يصلّي ويخاطب الناس، إذ لم أعثر لديه على شرخ، ولو طفيف، في شخصيته. وظل سبب انهياره يحيّرني، إذ كيف لكاهن على هذا القدر من الإيمان والمحبة والانسجام مع ذاته، أن يعرف الانهيار إلى شخصيته سبيلاً؟ وخجلت من سؤاله. وإني لأذكر بَوحاً له ذات مساء، وقد اشتدّ به الضيق، إذ سمعته يقول: "لَكَم هو جميل، يسوع المسيح"! فبدر مني سؤال: "وهل رأيته؟". فقال: "نعم". قلت: "كيف؟". فأجاب على الفور: "من شدة الألم!". أجل، لكم أمضيت من الأماسي معه، نتبادل الخبرات الإنسانية والروحية، دون أي تكلّف، على ما بيني وبينه من فارق في البيئة والعمر والمعاناة. وتبيّن لي أنّ الألم كان رفيق عمره. وكان الانهيار الذي كان قد أصابه قبل سنة، قد زاده إرهافاً ورقّةً، وإحساساً بآلام الناس. وكان يريحني للطريقة التي كان يستقبل بها روايتي لمأساة الشعب الفلسطيني، وخصوصاً للطريقة التي كان يذكّر بها جموع المصلّين يوم الأحد. ولكَم من مرة سمعته يسألني بإلحاح: "أما من عمل يمكن فعله؟"

أما الاستثناء الثاني، فكان مجموعة مدهشة من... الكهنة الفرنسيين، يتزعّمهم كما بدا لي، شقيق الأب "كارتيرون" الأكبر، واسمه "ألبير". وكانوا كلّهم يتكلّمون، بتفاوت، العربية الفصحى، بلكنة مغاربية. وقد تعرّفت إليهم بعد أن علموا بمجيئي، وتقصّدوا اللقاء بي. وسألوني دروساً في اللغة العربية، لا سيما لإتقان اللفظ والنطق، وكانت بعض الحروف كالقاف والكاف والعين والحاء، تُربكهم. فاستجبتُ بفرح. فأتيح لنا بذلك أن نلتقي مراراً في دار الكهنة، في "سان فون". وشيئاً فشيئاً، نشأت بيننا صداقة متينة، رسّخها همّان مشتركان: الهمّ الفلسطيني من جانبي، والهمّ الجزائري من جانبهم. ولم يعتّموا أن كشفوا لي تعاطفَهم وتعاونهم مع الجزائريّين المقيمين في فرنسا أولاً، وتأييدهم لحقّ الشعب الجزائري في التحرّر من الاستعمار الفرنسي، ثانياً. وهنا، يطيب لي أن أسرد باقتضاب كبير، موقف هؤلاء الكهنة المدهشين من

الاستعمار، إذ كانوا دائماً على اتصال بالكردينال "جرلييه" (GERLIER)، وهو رئيس أساقفة مدينة ليون، ويرأس في الوقت نفسه مجلس الأساقفة الفرنسيين. وقد علمتُ منهم، أنهم كانوا يحيطونه علماً بجميع نشاطاتهم وتحرّكاتهم. وقد بلغت الثقة بيننا حدّاً، دفعهم لدعوتي للاشتراك معهم في اجتماعهم السنوي، الذي كان يترأسه الكردينال "جرلييه" نفسه، والذي كان يضمّ جميع الكهنة المنتشرين في فرنسا، والمتضامنين مثلهم مع الجزائريّين المقيمين فيها. وقد عقد الاجتماع يوم اثنين الفصح من عام 1956. وكان كلّه بحضور الكردينال "جرلييه". وكان بين الكهنة المدعوّين يومها، كاهنٌ شاب من مدينة "بيزنسون"، يدعى "أندريه شاييس" (André CHAÏS)، وكان من أبطال "الموتوكروس". أما المجموعة الأولى من هؤلاء الكهنة، فقد آنَ لي أن أذكرَهم بأسمائهم، وبما آلوا إليه. كان كبيرهم الأب "ألبير كارتيرون"، ثم الأب "جوزيف كوربون" (Joseph COURBON)، والأب "هنري لو مان" (Henri le MASNE)، وكان رابعهم كاهن غاب اسمه، للأسف، عن ذاكرتي. هؤلاء كلّهم باستثناء الأب "لو مان"، انتقلوا فيما بعد إلى الجزائر، بعد استقلالها، وحصلوا على الجنسية الجزائرية، وعاشوا في أوساط شعبية، يخدمونها بما لديهم من علوم، إذ كان "ألبير" ممرّضاً، و"جوزيف" مدرّساً. والجميع يعرفون أنهم كهنة ويحبّونهم. وعندما مات كلّ منهم، أُقيم له مأتم شعبيّ حافل، وأُلقيت فيه كلمات رائعة، أحتفظ ببعضٍ منها حتى اليوم، وينتابني شعور بالزهوّ، كلّما قرأتها، لمعرفتي بهؤلاء الشهود الاستثنائيين. أما الأب "هنري لو مان"، فقد آثر البقاء في فرنسا، ملتزماً بنهجه الإنساني، مع كل إنسان يطرق بابه، وخصوصاً مع كلّ عربي أُتيح لي أن أرسله إليه، فكان يستقبله في بيته الصغير... الكبير، لفترة تطول أو تقصر، حتى يطمئنّ إلى أنّ ضيفه، بل "أخاه"، قد استقرّت به الحال، وعندها فقط كان يسمح له بمغادرة بيته، دون منّة. وإنّ لي على ما أقول شاهداً من دمشق، وهو طبيب، أرجو كل من يودّ تصديقاً لما أقول، أن يبادر إلى سؤاله. إنه الدكتور ماهر مبيض. وقد أذن لي بالاستعانة به!

ربما آن لي أن أذكر ما كان عملي الرئيسي في مركز "الكلوشيت"، قبل أن أنتقل إلى محطات أخرى، تخلّلت إقامتي في ذاك العام في فرنسا.

كُلِّفتُ برعاية الطفولة والشبيبة، التي ترتاد مركز الكنيسة. وكنت أشرف عليه مع بعض الشبان، ولا سيما بعض طلاب اللاهوت من جمعية البرادو، الذين كانوا يأتون كلّ أسبوع، وإبان كل تجمّع كبير. فكنّا نلقّن الأطفال والشبيبة مبادئ الديانة المسيحيّة، والأخلاق العامة. كما كنّا نختار لهم أفلاماً تربويّة، من بعض المراكز الثقافية والدينية

في مدينة "ليون"، كي يشاهدوها، ومن ثمّ نناقش مضمونها معهم. وإلى ذلك كنا ننظّم رحلاتٍ لهم، بعيدةً أو قصيرةً، تُخرجهم من بيئتهم الضيقة، ولو ليوم واحد، وتعرّفهم بمناطق جميلة من فرنسا، وما أكثرها!. وأحياناً، كان بعض الشبّان يزورونني، ليطرحوا بعض الأسئلة. بل كان بعضهم يأتيني على انفراد، للقاءات شخصية. وكلّ ذلك، كان يضطرني بين حين وآخر، لزيارة بعض العائلات. وعندها كان يُفسَح المجال واسعاً للحديث عن مشاكل الشبيبة. وكثيراً ما كانت تفضي المناقشات إلى مقارنة بين المجتمع الفرنسي والمجتمعات العربية، وكانوا يجهلونها كليّاً. وكنت أحرص بين حين وآخر، على دعوة الشبيبة لتنظيف الكنيسة، أملاً مني بتنمية حسّ الانتماء فيهم، أو بالأحرى بزرعه فيهم، لأنّ معظم البيوت لم تكن تبدي اهتماماً يُذكر بالشأن الديني. وكان الواقع الاجتماعي يطغى، على نحو صارخ، على كل هذه الأمور. وأياً كان النشاط الذي كنّا نخطّط له، أو ننفّذه، ولو كان ذلك على أتمّ وجه، كنّا نشعر في نهاية المطاف، وكأنّنا ندلق المياه على أرض مبلّطة. ولكم من مرّة شعرنا في اجتماعات الكهنة، المتلاحقة والمنعقدة ضمن رقعة جغرافية واسعة، بما يشبه الإحباط، أمام المدّ المتمادي من الطغيان المادي والشهواني. ولم يكن ذلك الواقع بخافٍ على أحد، لا في المؤسسات الكنسية، ولا في نطاق العائلات، لا سيما وأنّ عائلاتٍ كثيرةً كانت تعاني من تصدّعات مختلفة، كثيراً ما انتهت بها إلى طلاق مدني، بات يستشري في المجتمع برمته. ويومها، لم تكن فرنسا قد استطاعت التحرّر من آثار الحرب المروّعة على كل صعيد، مع أنها كانت تسعى جاهدةً للنهوض في شتى المجالات. إلا أنّ الشبيبة بدت لي، وبعضها منذ الطفولة، مشدودةً بإفراط إلى كلّ ما من شأنه أن ينسيها الماضي المرير، الذي كان من نصيب أهلها، ويدفعها دفعاً وراء كلّ ما من شأنه أيضاً، أن يوفّر لها تسلية ومتعة سريعتين ورخيصتين. فكانت الكحول، ومنها الخمر الشديد الانتشار في فرنسا... وكانت المخدرات ومشتقاتها... وكان الجنس!

وكنت في سعيي للكشف عن مختلف التيارات الفاعلة في المجتمع، وبالتالي في الشبيبة، اكتشفتُ اسم باحثة اجتماعية، دأبت على الكتابة وعلى التكلم في المنتديات، في شجاعة نادرة، عن وضع المرأة الفرنسية، وما يتهدّدها من شتى العوامل والتنظيمات السرية، داخل المجتمع الفرنسي وخارجه. كان اسمها "أوديت فيليبون" (Odette PHILIPPON). فطالعت بعض كتبها بدهشة، لأنها كانت تشير بإصرار إلى خلل فادح في المجتمع الفرنسي، ترى أنه كان ينذر بويلات آتية، فيما كان الكثيرون ينكرونه، أو يسعون إلى تغييبه! ومن أهم مؤلفاتها، كتاب بعنوان "استعباد المرأة"

(L'esclavage de la femme)، وهي تذكر فيه، كما سمعتها تقول ذات مرة في إحدى محاضراتها، أنّ عشرة آلاف امرأة وفتاة، يُختَطفن كلّ عام في فرنسا، ليصار إلى بيعهنّ في أسواق الرقيق الأبيض، داخل فرنسا و... خارجها!

كان ذلك بعضاً من "خلفيّات" المجتمع الفرنسي. إلا أنّ هناك ما كان منتشراً أمام الملأ، في المجتمع كله، وما لم أكن أتوقّع وجوده، لا في فرنسا، ولا في أي مكان آخر من العالم.

فمنذ وصولي إلى "سان فون" و"الكلوشيت"، كنت ألاحظ في الشوارع، وجود رجال ونساء في مقتبل العمر، وأحياناً شباناً، يهيمون على وجوههم، بثياب متّسخة وشعور منفوشة، متلبّدة من القذارة. فكنت أفاجأ بهذا المظهر، بادئ الأمر، وأظنّه نادراً. ولكني ما عتّمت أن اكتشفت أنه منتشر على نطاق واسع، في أحيائنا العمالية، كما في أحياء البورجوازية الثرية من مدينة "ليون". ولكم حاولت، قراءةً ونقاشاً، أن أعرف السبب، أو الأسباب الكامنة وراء هذا المظهر المتخلّف والمحزن. فقرأت وسمعت تعليلات كثيرة، أهمها أنّ المجتمعات الصناعيّة كلّها، والبالغة التطوّر، تفرز دائماً مثل هذه "النفايات" البشرية. وأحياناً كان يُقال أمامي، بكلّ برود، وكأن الأمر بات عصيّاً على أية معالجة مجدية، إنّ هناك مؤسّسات اجتماعيّةً قد أُنشئت لاحتوائهم وإسكانهم وإطعامهم، مع أنّ أعدادهم في مختلف أنحاء فرنسا، تجاوزت مئات الألوف. ويعود مُحدّثي ليؤكّد بالهدوء ذاته، أن معظم هؤلاء المشرّدين، باتوا يعشقون وضعهم، ويهربون من كل مأوى، حتى عندما يُقادون إليه بالقوة، مهما توفّرت فيه وسائل الراحة والتدفئة والنظافة.

وكان أن حلّت بمدينة "ليون"، في الأول من شهر شباط من عام 1956، هجمة مفاجئة من الصقيع القطبي، تواصلت طوال هذا الشهر، بدأت في الأول منه، بخمس عشرة درجة تحت الصفر، واستمرت تهبط حتى اثنتين وعشرين درجة تحت الصفر! وكان أن تجمّدت، أثناء الهجمة، مياه كل من نهري "الرون" و"السون"، المعروفين بسرعة جريهما، لأيام طويلة. وتفجّر في مناطق كثيرة، لا سيما الفقيرة منها، كما في "سان فون" و"الكلوشيت"، العديد من الأنابيب الجوفية، التي تمدّ البيوت بالغاز المنزلي للطبخ والتدفئة، فمات الكثيرون وهم نيام. ويومها قيل وكُتب أنّ الكثيرين من هؤلاء المشرّدين، وُجدوا مجمّدين تحت جسور الأنهار، التي كانوا يأوون إليها في الليالي الطويلة، وعلى أرصفة المدن والقرى... ولكم كنت أردّد يومها في أعماقي، وأمام الكهنة، وبعض معارفي هناك، أنّ المجتمع العربي الشرقي، لن يسمح بظهور مثل هذه "النفايات" أبداً، بسبب متانة الروابط الاجتماعية فيه من جهة، وخصوصاً بفضل تماسك الأسرة الشرقية، وتأصّل المحبة فيها، من جهة ثانية. وهنا، أودّ أن أعترف، دون أي ادّعاء أو تبجّح، أنني،

طوال ذاك الشتاء القاسي، وخصوصاً طوال هذه الفترة الاستثنائية، خجلت من ارتداء العباءة السميكة السوداء، التي كانت أمي قد خاطتها لي في دمشق، بناء على نصح بعض العارفين، لأتّقي بها البرد القارس. ومع ذلك، وجدتني أتحمّل البرد القطبي، لشدة شعوري بالتضامن مع الفقراء الكثيرين من أبناء هذه المنطقة العمالية، وذلك دون أن أتعرّض لأي طارئ صحي، على ما كان ينتابني، يوم كنت في رياق، وفي مناخ ألطف بكثير، من التهابات متلاحقة في الرئة والحنجرة والأذنين!

ثمّة موضوع لا بدّ من الإشارة إليه، لتكتمل، إلى حد ما، لوحة الحياة التي كنت أعيشها آنذاك في "سان فون" و"الكلوشيت". إنه موضوع الدروس التي حرصت، منذ البداية، على ارتيادها في مختلف جامعات ليون، حيث اخترت موضوعات في علم نفس الأطفال، وأخرى في العلوم الاجتماعية. وكنت حريصاً على متابعتها، في محاولة جادة مني، للتوفيق بينها وبين نشاطاتي المختلفة. وكان كل ذلك قد تمّ بالتنسيق مع الكهنة المسؤولين في "سان فون". وكان ذلك يفرض عليّ التنقل الكثير بين منطقتنا ومدينة "ليون"، حيث هذه الجامعات، وحيث المؤسّسات الاجتماعية والمراكز التربوية، التي كانت نشاطاتي مع الأطفال والشبيبة، تضطرني للتعامل معها. وكنت أستخدم باصات النقل العامة. وجاء يوم وجدتني فيه أهدر وقتاً ثميناً، كان يمكن استثماره بطرق أخرى. ففكرت في اقتناء وسيلة نقل خفيفة ورخيصة، تكون في تصرّفي في كل زمان ومكان، وتوفّر عليّ بالتالي وقتاً كثيراً. وسألت عن ثمن الدراجة الهوائية، (bicyclette)، فوجدتها تفوق قدرتي الشرائية. وخجلت من مفاتحة صديقي الأب "فويا"، بالأمر. وعلى فجأة، جاءني زائر إلى مدينة "ليون" من "نيويورك"، ما كنت أعرفه ولا أتوقّعه! كان هو المتبرع الأميركي، الذي كان قد تبنّاني منذ سنوات، دون علمٍ مني، في رياق والقدس، عن طريق مؤسسة كنسية أميركية، كانت تتولّى أمر هذه التبرعات. وما كنت أعرف عنه شيئاً سوى اسمه، وهو "هارولد روسيني"، ولقبه "باد"، الذي كان يستخدمه في التوقيع على الرسائل التي كانت تصلني منه، خالية من أي عنوان. فمضيت إلى الفندق الذي حلّ فيه، وفوجئت برجل أصلع، معتدل القامة، باسم وودود، وقد بدا لي أنه تجاوز الأربعين قليلاً. وكنت أحمل معي قاموساً صغيراً مزدوجاً، باللغتين الفرنسية والإنكليزية، لأستعين به، وأعينه هو أيضاً، على التحدث قليلاً فيما بيننا، تاركين لعيوننا وأيدينا وابتساماتنا، أن تكمّل ما كنّا نعجز عن التعبير عنه! وفجأة، أخذ يبكي، واستعان بالقاموس ليفهمني أنّ شقيقته الكبرى والوحيدة، قد توفّيت منذ فترة وجيزة، وقد ظلّ أبوه وحيداً الآن في نيويورك. وبعد فترة لا تزيد عن نصف ساعة،

فوجئت به يقول لي إنه ينوي العودة إلى نيويورك، لأنه كان يحب أن يتعرّف عليّ، وها هو قد فعل، وهو، بعد الآن، لا يطيق أن يظلّ هنا يتنزّه بضعة أيام، فيما أخته ترقد تحت التراب! صُعِقت لهذا الإنسان ولهذا المنطق، وعاد يبكي بمرارة، وهو يُفهمني، مستعيناً بالقاموس، بضرورة عودته فوراً إلى نيويورك! ثم تمالك قليلاً، وسألني ما إذا كنت بحاجة إلى شيء، ليوفّره لي، ثم يعود إلى نيويورك! حرت فيه، وحرت في لغتي الإنكليزية التعيسة، عساني أقنعه بالبقاء بضعة أيام، يزور فيها برفقتي مدينة ليون، وهي مدينة جميلة ومليئة بالآثار. وأخيراً وافق على البقاء أربعة أيام لا غير، على أن أخبره بما قد أكون بحاجة إليه... ويومها، سألت الأب "فويا" عن ثمن دراجة هوائية، وحكيت له قصة صديقي الأميركي. فغشي عليه من الضحك. ورأى أن يختار لي دراجة سباق سريعة، لم أعد أذكر قيمتها، وقد اقتنيتها بالمبلغ الذي كان "هارولد" قد قدّمه لي، قبل أن يغادرني إلى نيويورك، حيث شقيقته المتوفّاة ووالده! غادرني، فيما صورته ماثلة حتى الآن في ذهني، صورة عن الإنسان الأميركي العادي، الطيب، الساذج، الإنساني، العطوف، والمحب!

تُرى، هل انتهت اكتشافاتي في فرنسا!

ثمّة اكتشافات أخرى، بعضها مؤلم جداً، وبعضها مفرح جداً. إلا أني سأذكرها كلّها لتكتمل اللوحة، لوحة هذه الخبرة الاستثنائية التي حظيتُ بها، والتي قد يرى بعضهم أني انتزعتها انتزاعاً. وعلى عادتي سأكون صريحاً، بل بمنتهى الصراحة.

حلّ عيد الميلاد واحتفلنا فيه في "الكلوشيت" و"سان فون". ثم استأذنت وانطلقت بالقطار إلى باريس، وقد اصطحبت معي دراجتي السريعة، وحملت بعض حوائجي في كيس كشفيّ يُلقى على الظهر. كان لديّ عنوان صديق واحد في باريس، كان قبل عام يدرس معنا في الدير نفسه في القدس. وكان متقدّماً في السن، وقد أصرّ على استقبالي عنده في باريس. وصلت باريس والدنيا ماطرة ومعتمة. اشتريت خريطة مفصّلة للمدينة، وحدّدت مساري عليها، وانطلقت على دراجتي، والكيس الكشفي على ظهري... كنت مطمئناً إلى أن صديقي في انتظاري، وهو يقيم في بناء بالقرب من "برج إيفل". فوجئت بحارس البناية يخبرني أنه سافر لبضعة أيام. أين أمضي، وما معي من النقود قد لا يكفيني لقضاء ليلة واحدة في فندق؟... تذكرت أنّ في باريس كنيسة صغيرة تدعى "كنيسة القدّيس اليان الفقير" (St-Julien-le-Pauvre)، بالقرب من كاتدرائية "نوتردام" (NOTRE - DAME)، وفيها كاهن سوري أعرفه جيداً، يدعى الأب "جوزيف نصرالله". فحدّدت مساري من جديد على الخريطة، وانطلقت وأنا مبتلّ

كلياً. في الطريق مررت بإزاء بناء ضخم بشكله وامتداده والإضاءة المسلطة عليه من كل جانب. فتوقفت وسألت الشرطي: "من فضلك، ما هذا البناء؟" فنظر إليّ بدهشة لا توصف، وقال: "ولو! هذا هو اللوفر!" (Voyons, c'est le Louvre). وأخيراً وصلت إلى كنيسة "سان جوليان لو بوفر"، وكانت مفتوحة. فارتاح بالي. دخلت، صلّيت، ودلفت إلى غرفة في مؤخرة الكنيسة، وكان فيها الأب "جوزيف نصرالله" بالذات، جالساً خلف طاولة. حيّيته بحرارة بالعربية، وعرّفته على نفسي. فظلّ جامداً، وسألني بكل برود، باللغة الفرنسية، دون أن يقف: "ماذا تريد؟". فأجبته بهدوء، متمالكاً نفسي، ولكن بالفرنسية: "كنت متواعداً مع صديق لي، ولكنه سافر. وأنا لا أعرف أحداً سواه في باريس، فأرجو أن تسمح لي بأن أقضي الليلة عندك، ريثما أتدبّر أمري غداً!". فجاء رفضه قاطعاً. فألححت بتأدّب، ورجوته قضاء الليل في مكتبه هذا. ولكنه كان مصراً على رفضه... أخيراً خطر ببالي أن أسأله عنواناً، لأحد أديرة الآباء البيض في باريس. فكتب لي عنواناً على ورقة، وكان "31rue Friant ,"، فخرجت من الكنيسة حزيناً، وحدّقت من جديد في الخريطة، وانطلقت على الدراجة. ولما طرقت باب الدير، فتح على الفور، وانتصب أمامي كاهن من الآباء البيض، قصير القامة، يرتدي جلباباً أبيض، وتتدلّى على صدره مسبحة سوداء كبيرة. فما أن بادرته بالتحية، ولم أكن بعد قد عرّفته على نفسي، حتى قال لي، وهو يشدّني من يدي: "ولك ادخل، أنت مبتلّ حتى عظامك" (Mais entrez donc! Vous êtes trempé jusqu'aux os!). وأدخلني وأغلق الباب. ثم قبّلني وسألني عن اسمي، وقال لي: "اترك الدراجة هنا، واحمل الكيس معك، واصعد معي إلى الغرفة، وسأعدّ لك الحمّام، ثم تنزل لتتناول العشاء، وعندها سنتحدّث!" الله! يا لها من دنيا!... وكان اسم هذا الكاهن الفرنسي الخارق، "بيير بوز" (Pierre BOZ)... وعلى طاولة الطعام، وجدت كاهنين ينتظرانني، أحدهما أستاذي الرائع في رياق، الأب ميشل بدين، الذي كان يُمضي عاماً للتخصّص في الأدب العربي، وثانيهما الأب بولس خوري البولسي، الذي كان يختصّ في الفلسفة... وبعد قليل جاء الأب "بوز"، يحمل أربع بطاقات لدخول صالة سينما، قريبة من الدير، كان يُعرَض فيها فيلم ساحر "لوالت ديزني"، وهو فيلم "الحسناء الراقدة في الغابة". وفي ذلك المساء، شاهدنا جميعاً هذا الفيلم!

وفي صباح اليوم التالي، مضيتُ في ساعة متأخرة، ريثما استطاع الأب "بوز" أن يكمل تجفيف ثوبي الأسود، إلى الكنيسة حيث الأب "جوزيف نصرالله"، وكأنّ شيئاً لم يكن. إلا أني مضيت هذه المرة بالمترو، وكانت هي المرة الأولى التي أستقلّه فيها، بعد أن

سألت الأب "بوز" عن كيفية استخدامه. وفي ختام القداس، دخلت مع بعض المؤمنين، غرفة الأمس. وكنت بالطبع في ثوبي الأسود الطويل، فعرّف الأب نصرالله الحاضرين عليّ، وهو واقف خلف مكتبه. فسلّم عليّ البعض بحرارة... وطرح آخرون بعض الأسئلة. ثم تقدّمت مني سيدة في منتصف العمر، وصافحتني بابتسامة عريضة، وهي تحدّق طويلاً في عينيّ الزرقاوين، وكأني بها تبحث عن شيء ما... ثم قالت لي بلهجة شامية عتيقة: "يا لطيف! عيونك بتذكّرني بعيون رفيقتي بالقورشي" (وكان "القورشي" حيّاً قديماً من أحياء دمشق)، وتابعت: "مو معقول! نفس العيون! كيف ما عمبتذكّر اسمها؟"... فقلت لها: "إذا بقلّك الاسم، بتتذكّريه؟". قالت: "شو لكان؟". فقلت لها: "هل اسمها ماري؟". أجابت بفرح واضح: "هو بالذات!". فقلت لها أيضاً: "هل تتذكّرين اسم أهلها؟". قالت: "ذكّرني تشوف!". قلت سائلاً: "زينية؟". فحدّقت من جديد بي مهلّلة، وصرخت: "تمام! تمام!". وعندها سألتها من جديد: "بتصدّقيني إذا قلتلك إنها أمي؟!". فصرخت من فرحها، وضمّتني إلى صدرها، وهي تدور بي كما لو كنت ابنها، غير عابئة بالحضور، إذ كان الجميع ينظرون إلينا بدهشة لا توصف، وهي تردّد: "يا لطيف! ابن ماري! بعد كل هالعمر! قلبي كان ناقزني من وقت ما شفت عيونك!". ثم كان منها أن أبعدتني عنها قليلاً، ثم سألتني، وهي لا تزال ممسكة بي: "مين تزوجِت أمك؟". فقلت لها: "جرجي زحلاوي!". فازدادت دهشتها وصرخت: "هلّق أخي جورج راح يطير عقله!". ثم ودّعت الحضور بسرعة، وجرّتني بيدي، كما لو كانت تخشى فقداني. وكنت حتى هذه اللحظة أجهل اسمها!

وكان البيت قريباً من الكنيسة. وقد ملأت هذه المسافة القصيرة بقصة أخرى عجيبة، وهي أن أخاها جورج - وكلاهما من الزبداني، وكانا يقطنان مع أهلهما حي القورشي، مثل أهلي، في دمشق - تشاجر ذات يوم، وكان له من العمر ثلاثة عشر عاماً فقط، مع طفل مسلم من عمره. فما كان من أخيها، إلا أن طعن الطفل بسكين في بطنه، وقد جرى ذلك أمام دكان أبي، يوم كان حلاقاً في حي الميدان. فخرج أبي للتو من الدكان، وأمسك بجورج وهرب به عبر الحارات، ثم مضى به إلى بلدة الزبداني، حيث سلّمه لبعض أقربائه. ومن يومها، لم يعد جورج يعرف شيئاً عن أبي، ولا أبي عنه. وقد روت لي ماري كل هذا بإيجاز عجيب، وتأثّر بالغ حتى وصلنا الدار. فدقّت الجرس. وفتح الباب. فقدّمتني لأخيها بانفعال شديد، وهي تقول له: "جورج، احزر مين هالشب؟ اتطلّع بعيونه! لازم تحزر!"... فتفرّس فيّ طويلاً وهو يقول: "مين يا ربي؟ مين يا ربي؟". فقالت له: "هالعيون ما بتذكّرك بعيون جرجي زحلاوي؟". فقال في

دهشة: "والله امبلا!". فقالت له: "ولك هدا ابن جرجي زحلاوي وماري زينية!". فارتمى عليّ يقبّلني وهو يبكي! وكان في ما بدا لي، يقارب الستين!

من يومها، بات لي في باريس أخ وأخت، يكبراني سنّاً، ويملآني دائماً، كما كانا يملآن جميع معاركي فيها، بحب غامر، هما جورج وماري خوري.

ومن يومها، بات لي في باريس، أهل هم الآباء البيض، أقيم في بيتهم، كلّما دعتني الحاجة للعودة إليها، في شارع "فريان" (FRIANT).

ومن يومها، بات لي في باريس أخ كبير، قل نظيره، هو الأب "بيير بوز" (Pierre BOZ).

وفي ذاك الأسبوع، اكتشفت معالم باريس الرائعة على... دراجتي، إذ كان الطقس فيها، لحسن حظي، ماطراً في الليل، وصحواً في النهار.

ليس بودّي أن أقول ما كانت باريس بالنسبة إليّ آنذاك. فهي مدينة فريدة بكل المقاييس. وقد لا تكون مدينة أخرى في العالم، حظيت بمثل ما حظيت به من إعجاب واهتمام وقوة وإغراء. ويبدو لي أن أجمل ما فيها أنها تفاجئ الإنسان دوماً بجديد، كلّما عاد إليها مكتشفاً. وهي تزخر بمفاجآت لا تنتهي، على صعيد التاريخ والمتاحف والمعارض والهندسة والعمران ووسائل المواصلات، والفنون والآداب، وسواها الكثير من الإنجازات الحضارية والاجتماعية والثقافية. إلا أنّ أروع ما أُتيح لي أن أكتشفه في هذه المدينة "الغول"، كان حضوراً إنسانياً متميّزاً في بعض مَن عرفتهم فيها، خلال تلك الفترة الوجيزة، أمثال الأب "بيير بوز" و"ماري خوري وأخيها جورج، وشرطي أدين له بحياتي، لحظة انقلبت الشارة الضوئية فيه إلى اللون الأخضر، وأنا ماضٍ على دراجتي بأقصى سرعة في قلب شارع "سان ميشل" في الحي اللاتيني، فانتصب في وسط الشارع وهو يبسط ذراعيه ويصرخ بي بملء صوته: "يا أبونا، ما بك؟" (Voyons, mon Père!)، فيما تجمّد بقدرة قادر، سيل السيارات الذي كان يهدر وراء ظهره!...

وفي عيد الفصح، اصطحبني معه الأب "أندريه شاييس"، على "الموتور"، من "ليون" إلى "بيزنسون"، بعد ذاك الاجتماع الذي ضمّ الكردينال "جرلييه" والكهنة الفرنسيين، المتضامنين مع الجزائريّين. وفي اليوم التالي توجّهت إلى مدينة "بلفور" (BELFORT)، ومنها إلى بلدة "رونشون" (RONCHAMP)، حيث حللت ضيفاً على كاهن فرنسي جديد، يدعى "موريس إيجرمان" (Maurice EGERMANN)، كان خلال صيف عام 1954، قد زار سورية مع صديقه الأب "روبير جورنس" (Robert JORENS)، والتقيتهما في دمشق. وإني لأذكر هذه الزيارة لثلاثة أسباب، شكّلت بالنسبة إلي اكتشافات جديدة، أضيفها إلى سابقاتها.

أولها كان اجتماع عائلة "إيجرمان"، حول الوالدين المسنّين والرضيّين، بكامل أعضائها الأربعة، ومنهم الأب "موريس"، والأحفاد الصغار. فأمضيت أسبوعاً كاملاً معهم، كنّا نفتتحه كل يوم بالقداس، يقيمه الأب "موريس". ثم كان النهار كلّه ينقضي في نزهات، في تلك المنطقة المذهلة بكثافة أشجارها وتنوّعها. وقد علمت أنها كانت منطقة حافلة بالمقاومين الفرنسيين، إبّان الاحتلال النازي.

ثانيها كان استقبال عائلة "إيجرمان"، بعد مجيئي بيوم واحد، لعائلة ألمانية، حلّت ضيفةً عليهم في بيتهم الكبير، لأيام كثيرة. ولكم كان الجو صافياً، بين هذه العائلة الألمانية، وتلك العائلات الفرنسية! حتى كان يوم قلت لهم فيه: "من يراكم، لا يصدّق أن الحرب كانت قائمة بين بلديكم، منذ عشر سنوات فقط". فكان جوابهم: "الحروب ليست أبداً من صنع الشعوب، بل هي في الغالب، من صنع الزعماء. وهمّ الشعوب الوحيد أن تعيش في أمان"!

وأما ثالثها، فكان الكنيسة الشهيرة التي كان المهندس الفرنسي "لوكوربوزييه" (Le CORBUSIER)، قد أصرّ، بالاتفاق مع مطران المنطقة، على بنائها على شكل سفينة في الخارج والداخل، وزرعها في قمة جبل، تغطيه الغابات الكثيفة، ويُطِلّ حتى الأفق البعيد، على وديان وجبال تكسوها الغابات، ولا شيء غير الغابات. فظهرت بذلك هذه الكنيسة، أشبه بسفينة تقلع فوق بحور من الخضرة نحو اللانهاية... ولَكَم سطا عليّ هذا الانطباع، بل هذا الانجذاب نحو اللانهاية، عندما وقفت مع الأب موريس، على سطح "هذه السفينة"، أحدّق في الأفق البعيد، البعيد... وعندها، كما أذكر، سألته: "من تراه يكون هذا "اللوكوربوزييه"؟". فجاوبني جواباً محيّراً: "يقال إنه كان ملحداً". فقلت له على الفور: "لو كان جميع الملحدين مسكونين باللانهاية مثل "لو كوربوزييه"، لكانت الدنيا كلّها بألف خير!".

وعندما غادرت بلدة "رونشون" (RONCHAMP) الوادعة، حملت منها صداقة كاهن فرنسي، كان قلبه الوديع ينبض دائماً بحب المعذبين في الأرض، ولا سيما في إفريقيا وفلسطين، حتى غيابه عام 2010.

ولم تعتّم محطة عيد العنصرة، التي تحلّ بعد عيد الفصح بخمسين يوماً، أن حملت لي لقاء جديداً في باريس، مع رئيسي الأعلى، البطريرك الصايغ، الذي كان قد رفض سفري إلى فرنسا. ذلك بأن "مبرّة الشرق" (L'Oeuvre d'ORIENT)، التي قامت في باريس، لمئة سنة خلت، من أجل ما يُسمّى "دعم الشرق المسيحي"، شاءت أن تحتفل بهذه الذكرى، بحضور بطريركنا ولفيف الأساقفة من حوله، وبحضور العديد

من المسؤولين الفرنسيّين، من رجالات الكنيسة والدولة. وكانت ذروة هذه الاحتفالات، إقامة القداس الإلهي البيزنطي، في كاتدرائية "نوتردام" بباريس، برئاسة البطريرك الصائغ، يوم الأحد الموافق 20 نيسان عام 1956. وكان المطران بطرس مدوّر، مستشار البطريرك، قد كتب لي قبل ذلك، وشجّعني على مقابلة البطريرك، في موعد كان قد حدّده هو، لي، مع البطريرك.

لم أكن مرتاحاً إلى كل ذلك، لا سيما وأني كنت من زمان طويل، أعرف ما يحيك الغرب الملحد عملياً، من مؤامرات ضد الشرق العربي، يلبّسها أحيانا لبوساً دينياً ومالياً. وما كانت أحداث عام 1860، في دمشق وفي لبنان، لتغيب عن بالي، على جهلي للكثير من خلفياتها وتبعاتها! فحضرت القداس. وكان منظر البطريرك والأساقفة، يحيطون به حول الهيكل الرئيسي، في هذه الكنيسة الخارقة، فيما الجمهور يملأها، وعلى رأسه العديد من رجالات الكنيسة والدولة، والترانيم البيزنطية الرائعة تصدح في هذه الأجواء، كل ذلك كان حقّاً أخاذاً وساحراً. إلا أني كنت طوال الوقت، أتساءل في حرقة: "ما علاقة مثل هذه الاحتفالات بواقع الناس؟ بل ما علاقة الرب يسوع بها؟". ومضيت في تساؤلاتي، أحدّق في البطريرك، وأنا أقول في نفسي: "كيف لإنسان يحاط بمثل هذه الأبّهة والتكريم، أن يظلّ إنساناً، ولا يؤخذ بنشوة الكِبَر؟"... وكنت أنتهي من كل ذلك، إلى حتميّة لقائي به في الغد، بشيء كثير من التوجّس...

وفي الغد، كان لقائي بالبطريرك. كنت أتوقّع منه شيئاً من اللهفة والمودّة، بعد طول غياب، مع أني ما انقطعت عن مراسلته، ومراسلة مستشاره المطران الوديع، بطرس مدوّر. إلا أني وجدته هو هو، ثابتاً في تصلّبه، ومستغرباً إصراري على السفر إلى فرنسا، بل غاضباً لأني قاومت رغبته الصريحة في بقائي في القدس... فحاولت جاهداً أن أتمالك نفسي، وأحتفظ بهدوئي. وأخذت أحدّثه عن بعض انطباعاتي، وعمّا فتحت أمامي من آفاق جديدة أفادتني كثيراً، وقد تكون مفيدة لكنيستنا في المستقبل. ورأيت أن أشير بهدوء، إلى الموضوع الذي كنت، قبل خمسة أسابيع تماماً، وبالتحديد في 14 آذار، قد كتبت بشأنه رسالة لمستشاره، المطران بطرس مدور، وهو احتمال متابعة دراستي اللاهوتية في فرنسا، وفي مدينة "ليون"، حتى الكهنوت، ليتسنّى لي أن أوفّق بين الدراسات النظرية، والخبرة العملية الرعوية، التي كنت أعيشها يومذاك، لأني كنت أتوجّس خيفةً، من العودة إلى الدراسة اللاهوتية بين أربعة جدران، كما هي الحال في القدس... وفي لحظة سريعة، وجدتني أمام جدار صلب، لن يجديني الحديث معه، لا قليلاً ولا كثيراً... وفجأة، أخذت نبرة صوتينا ترتفع، ووجدتني أعاتبه على

رفضه القاسي، لكل ما كنت راغباً بصدق في نقله إليه، من هذه الخبرة الجديدة... وكل ما أذكر بعد ذلك، أني خرجت دون تقبيل يده، وصفقت الباب ورائي. وكنت في ذروة الغضب. وفوجئت بالأب بولس الأشقر، الذي كان آنذاك رئيس الجمعية البولسية، واقفاً وحده في الغرفة المجاورة، وكان يعرفني جيداً، فتقدّم مني بسرعة، وحاول تهدئتي، حتى أرغمني على الجلوس معه، وأخذ يرطّب خاطري... لم أعد أذكر ما الذي تبادلناه من آراء، إلا أني أذكر أنه قدّم لي سيكارة، وإزاء تمنّعي الشديد، قال لي: "المثل يقول: نفّخ عليها تنجلي! هي سيكارة!"... وكان أن أخذت أدخن هذه السيجارة، وكانت الأولى التي طالت شفتيّ في عمري كله. ولم أكمّلها. ثم شكرته وخرجت. وعدت لتوّي بالقطار إلى مدينة "ليون"، ثم إلى "سان فون". وأخبرت الأب "جوزيف كارتيرون"، بما كان. وكنت آنذاك في حيرة قاتلة ممّا أنا فيه، وممّا ينتظرني بعد عودتي إلى سورية. وكان السؤال الأكبر: ماذا عساني أقرّر؟ صحيح أنني أعشق يسوع، ولكن كنيسته تمزّقه، وهي تمزّقني، فما العمل؟ وكان من الأب "كارتيرون"، أن أشار عليّ بلقاء رئيس "جمعية البرادو"، المطران "ألفريد أنسل" (Alfred ANCEL)، وكان قادماً بعد أيام قليلة إلى "سان فون" بالذات. وقد حدّثني عنه الأب "كارتيرون"، على عادته، ببساطة ومودّة ودون تكلّف، على نحو أذاب بعض ما كان لديّ، من تحفّظات عنيدة حيال السلطات الكنسية جميعها. وبدأت أرقب مجيء المطران "أنسل"، الذي قيل لي إنه "أسقف عامل" - أجل عامل وفق دوام نصفي في أحد مصانع المنطقة!... وهو المسؤول الأعلى من قبل الفاتيكان عن تجربة "الكهنة العمّال" في فرنسا، وإنه مُدرِّس فلسفة سابق. وهو، إلى ذلك، يصرّ على مناداته بـ "الأب أنسل"، وليس "المطران أنسل"... وهو يتنقّل دائماً على دراجة هوائية، ويقيم في بيت عادي، مع كاهنين عاملين مثله، في حي عمّالي قريب من "سان فون"! والذي زاده كِبَراً في عيني، معرفتي بأنه قضى سنواتٍ طويلةً في المعتقلات النازية، حيث فقد إحدى عينيه!

وفي اليوم التالي، أفقت، على غير عادتي، مصاباً بسعال، كنت أشعر معه وكأن سكّيناً يقطّع رئتيّ. وإلى ذلك، كان الطقس عادياً، علماً بأنّ ما خبرته من برد قطبي، خلال شهر شباط، لم يترك لديّ أي أثر لالتهاب ما، قد يقارب هذا الذي أصابني آنذاك، مدة أسبوعين كاملين. وكنت عبثاً أحاول معرفة السبب... ولم أنتهِ إلا إلى سبب واحد، فرض نفسه عليّ فرضاً، وهو أني دخّنت سيكارة، وأنا في نزوة عارمة من الغضب. أكان هذا الاستنتاج مصيباً أم مخطئاً، إنما المهم أني انتهيت إليه، وانتهيتُ منه إلى قرار رفض السيكارة مستقبلاً، أياً كان الظرف أو الإغراء. وهكذا كان حتى اليوم!

وفي هذه الأثناء قَدِم "الأب أنسل". وأقام الاحتفال مع الأطفال. وكنت طوال الوقت، أراقبه وأتسقّط الكلمات التي كان يتلفّظ بها، بنبرته الوادعة والمتواضعة، والواثقة في آن واحد، التي كان يخاطب بها الصغار والكبار. فشعرت بارتياح كبير... وكان أن التقيته في اليوم نفسه، لفترة تجاوزت الساعة والنصف. كان إصغاؤه مدهشاً. وكانت نظرته، من عينه الوحيدة، في منتهى الوداعة. وكانت ابتسامة طفيفة تحوم على شفتيه طوال الوقت، حتى عندما كان يتكلّم. وكانت كلماته مقتضبةً جداً، ومنتقاةً بتأنّ. وقد تبيّن لي أنّ الكهنة في "سان فون" و"الكلوشيت"، قد أحاطوه بمعلومات كثيرة تخصّني، وتخصّ طريقة تفكيري وعملي. وعندما صارحته بما كان من أمر دفعني للخروج على إرادة البطريرك، وللاستجابة لرأي مرشدي في القدس، قال ببساطة وثقة: "للرؤساء أحياناً أخطاء، تغفرها لهم طبيعة الناس المحيطين بهم، وثقتهم المفرطة بأنفسهم، بحكم مركزهم...". وقد شجّعني على المضي في ما أنا فيه، على أن أسارع إلى الإعداد لتقريرٍ وافٍ، أقدّمه للبطريرك، حين عودتي، بعد أن باتت قريبة. وقبل أن نفترق، وضع يده اليمنى على كتفي، وكنّا واقفين، وقال لي: "إيلي، سأكون سعيداً إن اعتبرتني منذ الآن، أباً روحيّاً لك. أريد ألا توفّرني أينما كنت، واجتهد بالكتابة لي، فقد أستطيع مساعدتك. ولكن، إيّاك أن تتراجع!". ثم قبّلني من جبيني، ورسم عليه إشارة الصليب، وقال: "إلى اللقاء قريباً"!

وكان لي معه، بعد ذلك، لقاءان آخران، قبل مغادرتي فرنسا. وفي هذين اللقاءين، ظل "الأب أنسل" عند رأيه، في متابعتي الطريق الذي اخترته كهنوتاً لي في كنيستي. ولشدّ ما أدهشني، عندما سألني على فجأة، في اللقاء الثاني: "ما يسوع بالنسبة إليك؟". فجاءه جوابي فورياً وعفوياً: "كل شيء!". فسألني سؤالاً آخر لم أكن أتوقّعه، بعد سؤاله الأول. وكان: "والمرأة في نظرك؟". وجاءه أيضاً جوابي فورياً وصادقاً: "لا غنى عنها في حياة كل إنسان، إلا في الحياة مع يسوع!". وعندها أذكر جيداً أنه صمت، فبدا لي وكأنه كان يصلّي، ثم نظر إليّ، وقال في ابتسامة: "إيلي، تابع طريقك، ولا تخف. يسوع سيكون دوماً معك!".

وفي اللقاء الثالث والأخير، سألته رأيه في ما كنت أراه ضرورةً للفقر والمجانية، في حياة الكنيسة عامة، وفي حياة الكاهن خاصة، ولا سيما في الشرق العربي، على ما في ذلك من صعوبات كبيرة وكثيرة، تراكمت بفعل الزمان الماضي، وبفعل إغراءات الزمان الحاضر، وخصوصاً بفعل غياب يسوع الفعلي عن حياة الكثيرين في الكنيسة وخارجها. ويومها أكّد لي شيئاً بسيطاً وهاماً في آن واحد، وقد سمعته منه في اليوم نفسه، يقوله

لما يقارب أربعين كاهناً من "جمعية البرادو"، كانوا قد جاؤوا لقضاء ثلاثة أيام معه، يصغون فيها إليه، ويصلّون معه، ويستشيرونه، في دير "نوتردام ديه دونب" (N-D. des DOMBES)، إلى الشمال من مدينة "ليون". ولقد قال لهم في شأن الفقر والمجانية ما حرفيّته، كما أذكر، وكما دوّنته في دفتري: "عندما تواجهون مقاومةً بشأن الفقر والمجانية، سواء من السلطة الكنسية، أو من زملائكم الكهنة، لا تستطيع قوة في الدنيا، أن تمنعكم من طلب الإذن الصريح من رؤسائكم، كي تعيشوا الفقر والمجانية، في حياتكم الكهنوتية، كما يقتضيها يسوع، وكما يذكّرنا بهما مؤسّسنا الأب "أنطوان شفرييه". ويومها أيضاً، قبل أن يودّعني ويباركني على عادته، استوقفني وقال لي بتأثّر واضح: "إيلي، تذكّر دائماً، إن رفضتك يوماً كنيستك، أننا نحن بحاجة إليك!". وقد أهداني يومها كتابه "فقر الكاهن"، الذي قيّض له أن يبلور لديّ، مع خبرتي الجديدة، فكرة تبنّي نهج "البرادو"، في كنيسة الشرق العربي.

وبدأت أعدّ للعودة إلى سورية. والحقّ أن هذه الجملة الأخيرة، كانت حاسمة في تعجيلي بالعودة، بدل أن تغريني بالبقاء في فرنسا. وكان ثمّة عاملان يحثّاني على العودة بطريق البرّ، حتى نابولي في إيطاليا، ومن ثم بطريق البحر إلى بيروت. العامل الأول كان افتقاري إلى المال بيدي، وثقتي المفرطة بقدرتي على قطع المسافة بين ليون ونابولي، على دراجتي. ولما أخبرت بذلك بعض أصدقائي من الكهنة الشبّان، في دير الآباء اليسوعيّين في تلة "فورڤيير" (Fourvière) في "ليون"، وكان بينهم يومذاك الأبوان "جوزيف بيطار" و"فرنسيس نعمة"، حذّراني من الإقدام على مثل هذه "الفعلة الجنونية"، نظراً للمخاطر التي كانت تنطوي عليها. ومع ذلك نصحوني بالسفر بالقطار إلى نابولي، ومنها أبحر إلى بيروت، وزوّدوني بعناوين لأديرة الآباء اليسوعيين في كل من "جنوا" و"البندقية" و"تورينو" و"ميلانو" و"روما" و"نابولي". وعندما كتبت لصديقي الأميركي الطبيب، "هارولد روسيني"، أخبره عن مخطط عودتي وتاريخها، إذ به، بسرعة البرق، يرسل لي بطاقتين: الأولى بطاقة سفر بالقطار من "ليون" إلى "نابولي"، والثانية بطاقة سفر بالبحر على الباخرة الفرنسية "الماريشال جوفر"، من "نابولي" إلى بيروت!...

وعندما علم أصدقائي الكهنة الفرنسيّون، المتضامنون مع الجزائريّين، بسفري القريب، دعوني لزيارة مزار "سيدة الساليت"، برفقتهم، مدة ثلاثة أيام. فقمنا معاً بتلك الزيارة الرائعة، الرائعة برفقتهم وصلواتهم وأحاديثهم، والرائعة بالجبال الخلابة طوال الطريق، وعند المزار وحوله، والرائعة فوق كل ذلك، بمشهد التمثال الحديدي الكبير، للسيدة العذراء، وهي مكبلة بالحديد، كما ظهرت للرعيان الثلاثة هناك، عام 1846.

وجاء يوم ودّعتُ فيه الكهنة في "سان فون" و"الكلوشيت"، في اجتماع ضمّنا جميعاً، وقد قدّموا لي هدية ثمينة، هي نسخة من ترجمة حديثة للكتاب المقدّس، وقد وقّعوا كلّهم عليها. وإني لأحتفظ بها حتى الآن، إحياءً لمحبتهم ووقفتهم معي، طوال تسعة أشهر حافلة.

وكانت العودة كما رسمت: القطار من "ليون" إلى "جنوا" ليلاً، ومن ثم اكتشاف مدينة "جنوا" على دراجتي! وهكذا فعلت في "البندقية"، إلا أنني في البندقية، استخدمت "الغندول" بدلاً من دراجتي.

وفي تورينو (Torino)، تسلقت على دراجتي، التلّ المخضوضر الذي تقوم في قمته كنيسة رائعة، تضم ما يعرف بكفن السيّد المسيح. ثم هبطت إلى قلب المدينة لأزور ما يسمّى "البيت الصغير"، المعروف هناك باسم "La Piccola Casa"، الذي كان مؤسّسه الأب القدّيس "كوتولينغو" (Cottolengo) قد أنشأه من أجل الأطفال المعاقين، والذي كان يومذاك يحوي لا أقلّ من ثمانية آلاف معاق، تقوم برعايتهم وخدمتهم، جمعية من الراهبات، كان الأب "كوتولينغو" قد أسّسها أيضاً. وأما في مدينة ميلانو، فقد أمضيت ساعات طويلة في زيارة كاتدرائيّتها الكبرى، التي استغرق بناؤها مئات السنوات، ولّما تكتمل، والتي تنفرد بحشد مذهل من منحوتات غاية في الإتقان، تملأ جميع جنباتها، وطالت حتى سطحها الشاسع!

وفي روما أقمت أربعة أيام، تجوّلت فيها بحرية تامة على الدراجة، وأقمت في دير للآباء اليسوعيين. أما في نابولي، فقد قضيت ليلة واحدة في أحد هذه الأديرة، واستقلّيت الباخرة بعد الظهر إلى بيروت. ولَكَم لفت نظري الانفلات المتدرج، ما بين "ليون" و"نابولي"، من حيث نظام السير، وزمامير السيارات، و"نظافة" الطرقات، حتى شعرتني في "نابولي"، وكأنني في بيروت أو في دمشق! إلا أننا في الإسكندرية، حيث توقّفت الباخرة لساعات، أُتيح لي أن أتجوّل في شوارعها سيراً على الأقدام، فقد علمت من أحد المارة أنّ جمال عبد الناصر كان ليلة أمس، قد أعلن أمام الجماهير المحتشدة، تأميم قنال السويس، فغمرني الفرح والخوف في آن واحد... تُرى، ما الذي سيُدبَّر له ولمصر؟ وفي بيروت كان خالي الحنون نقولا في انتظاري. وقد أخبرني بعد وصولي بقليل، بوفاة كاهن بولسي شاب، هو الأب "حكمت خياط"، كنت أعرفه جيداً، لما كان بين أهلي وأهله، من روابط محبّة شبه عائلية، لسكننا المشترك في دار واحدة، طوال سنوات، في حي القصاع بدمشق. وكان ذلك اليوم، يوم 31 تموز من عام 1956.

الفصل السادس

بذور "البرادو" في القدس، والسيامة الكهنوتية في دمشق

عدت إلى دمشق، مُعبّأً بنظرة جديدة، كنت أريد ترجمتها في عملين محدّدين: أولهما، صياغة تقريرٍ وافٍ عن خبرتي في فرنسا، وثانيهما السعي لإرساء بذور نهج كهنوتي عربي، جديد.

إلا أنّ ذلك كان يتوقّف على موافقة البطريرك على عودتي إلى القدس. فرأيت أن أقابل أول الأمر، مستشاره، المطران "بطرس مدوّر". فكان، على عادته، في منتهى الرقة والتفهّم. واستفاض في سؤالي عما عشته هناك، علماً بأني كنت دائم التواصل معه بالرسائل. واستوضحته عن موقف البطريرك مني. فوجدت أنه كان قد مهّد الطريق أمامي. وشجّعني على زيارته دونما تأخير، وشكره، وطلب بركته للمرحلة القادمة. كما شجّعني على موافاته بتقريرٍ وافٍ وصريح، عن هذه الخبرة الجديدة في فرنسا. ثم دعاني لمرافقته في زيارة البطريرك، وقد دخل قبلي ينبئه بحضوري، فبدا البطريرك مرتاحاً لعودتي، ورحّب بي، ولكن دون أن يثير موضوع عودتي إلى القدس، كما لو كانت أمراً مسلّماً به، أو هكذا بدا لي. وخرجنا معاً من مكتب البطريرك، وهو يستحثّني على الإسراع بصياغة التقرير.

وانصرفت إلى صياغة التقرير. وقد شئته باللغة الفرنسية، لكي أنقل فيه ما عشت هناك، بمسمّياته، ووقائعه، وشهاداته الحية. واستندت في ذلك، إلى ما كنت أدوّنه في دفتر يومياتي، وإلى الكثير ممّا كان قد رسخ في ذاكرتي. وشئته وافياً، صريحاً، عملياً. وعندما انتهيت من كتابته، وقد تجاوز السبعين صفحة، سألت أختي الصغرى، رينيه، أن تطبعه على الآلة الكاتبة، في سرّية تامة، كي أسلّمه للبطريرك ولمستشاره المطران "مدوّر"، قبل سفري إلى القدس. وهكذا كان، بحيث حُرِمت من القيام بالنشاط الذي كنت أخصّ به شبيبة كنيستنا. كما أني حُرِمت من إحياء المخيم الذي كان صديقي الأب "إيلاريون كبوجي"، قد سألني أن أنظّمه، في كل صيفية، منذ عام 1953، للأطفال الفقراء، في يبرود، طوال ثلاثة أسابيع متتالية، والتي كان يغطّي نفقاته كلّها، فيما كانت بعض الفتيات الجامعيات، يتطوّعن للعمل فيه مجاناً...

وفي عودة إلى تقريري هذا، أرى لزاماً عليّ أن أشير إلى أني لن أضمه إلى ملحق هذا الكتاب، لأنه يقع في 79 صفحة كبيرة، مطبوعة على الآلة الكاتبة. فأكتفي هنا بإيراد مقدمته وخاتمته، في ترجمة عربية. وهو بتاريخ 1956/10/5.

هذه المقدمة وهذه الخاتمة، هما أشبه برسالتين وجيزتين إلى البطريرك.

« تقريري بالفرنسية حول الفترة التي أمضيتها في فرنسا – (1955 – 1956)

المقدمة

صاحب الغبطة،

سألتني تقريراً عن أسباب ونتائج خبرتي في فرنسا، بوصفي طالب لاهوت. أستجيب لرغبتك في شيء من القلق. إلا أني أفعل، مدفوعاً بصدق مطلق، وبأكبر قدر من الإيجاز، ولكن أيضاً بأكبر قدر من الوضوح.

وأنا أفعل ذلك في ثقة أيضاً، فإني لأرجو أن يؤخذ ما سأكتبه بعين الاعتبار. فأنا أرى أن لطلاب اللاهوت ما يقولونه، في موضوع على مثل هذا القدر من الأهمية، مهما كانت خبرتهم متواضعة، لأنه هو الذي يؤسّس لتبرير وجودهم.

الخاتمة

صاحب الغبطة،

أودّ، قبل ختام تقريري، أن أعرب لك من جديد عن ثقتي التامة.

إن مجرد توقعي لحياة كهنوتيّة أسوقها في عزلة، بالغاً ما بلغت مهامّها، يغمرني بقلق جسيم. إلا أني أراهن على إلحاحي، في التقرير، على ضرورة البحث التي أقترحها، لا سيما في الفقرة التي تتعلّق بحياتنا في الإكليريكيّة.

أرجو أن تغفر لي الحرية الكبيرة التي عالجت بها بعض القضايا، وأسلوبي في التعبير عنها. فأنت تعرف جيداً أن اللغة المنمّقة ليست مبتغاي.

أخيراً، أعرب لك مجدّداً عن شكري البنوي والعميق، لأنك أتحت لي أن أعرف وجهاً آخر لكنيسة المسيح. كما أسألك بركتك الرسولية لجميع من كانوا لي عوناً في ذلك، من كهنة أو علمانيّين، ولجميع أهلي والمحسنين، ولزملائي ولي.

ابنك المطيع »

وفي مطلع أيلول من عام 1956، عدت إلى القدس. وكنت سعيداً حقّاً بالعودة إليها، وفي القدس ما فيها، ما لا شبيه له في أي بقعة من بقاع الأرض. وكان استقبال الآباء

البيض، ولا سيما مرشدي، حاراً. وكان أول ما فعلت، أني قدمت للأب الرئيس ولمرشدي، نسخة من التقرير. وكنت أترقّب ملاحظاتهما. وكان أن أبديا لي، بعد أيام قليلة، تخوّفهما ممّا قد تكون ردود أفعال لدى البطريرك، إزاء المقترحات التي طرحتها فيه، أولاً بشأن نمط الحياة في الدير، المنقطع عن واقع الحياة في الكنيسة، أو بالأحرى في الكنائس، وفي المجتمع، ثانياً بشأن الدروس المتّبعة وضرورة إغنائها، من ذلك مثلاً دراسة الإسلام دراسة وافية ومعمّقة، وكذلك الديانات الأخرى، وثالثاً بشأن تعريب الترنيم البيزنطي، والبحث الجدّي عن إحياء الطقوس القديمة، ببعض التجديد الأصيل...

ولحسن حظي، حظيت هذا العام بغرفة تقع في الطابق العلوي، وتُطلّ على قبة الصخرة وباحة المسجد الأقصى. وكان حسبي صعود بضع درجات، لأجد نفسي فوق سطح يُطلّ على كامل آفاق القدس، من جهاتها الأربع!

وعدنا إلى إيقاع الصلوات والدروس، وزياراتنا للأماكن المقدسة، وإلى كلّ ما هو مألوف من حياتنا السابقة. ولم يكن ثمّة جديد، سوى أمر واحد، وهو رغبة البعض من زملائي، في الاطلاع على شيء من خبرتي في فرنسا، ولا سيما على نمط الحياة الكهنوتية هناك. إلا أني كنت أمتنع عمداً عن المبادرة إلى مفاتحتهم بأي موضوع يتعلّق بهذه الخبرة. وكنت أرتاح إلى التحدّث على انفراد مع من كان يرغب في ذلك. وكان أوّل المهتمين بذلك، هو "جورج جاموس" - وهو اليوم الأب "يوحنا جاموس" في حلب - وكان يصغرني بسنة واحدة من حيث الصف. وكنا نتبادل الرأي ببساطة، وفق الظروف، دون افتعالها. وكان كثير التساؤل بشأن المجّانية في الخدمة الكهنوتية، وبشأن الحياة المشتركة بين الكهنة، داخل كل كنيسة ورعية. وكان واضحاً أن ما كان يشغل بالنا، هو واقع الوحدة المفروضة على كل كاهن في كنيسته، وما يستتبع ذلك من تفرّد في العمل، يحول دائماً دون التكامل الضروري، بين الطاقات والأهداف في الخدمات الكنسية. وشيئاً فشيئاً، أخذَتْ بعض الأفكار تتسرّب إلى آخرين. وكنت قد حملت معي بعض المؤلفات، المتعلّقة "بجمعيّة البرادو"، فأبدى البعض رغبةً في الاطلاع عليها. ثم جاء يوم، صرنا نتشاور فيه بشأن إحداث حلقة ضيّقة، نتبادل فيها الرأي حول قراءاتنا هذه. ثم أخذنا نولي قراءة الإنجيل، المألوفة لدينا، على طريقة "البرادو"، اهتماماً خاصّاً. وكان ارتياح الآباء المسؤولين في الدير، لهذا النمط من الاهتمام الجديد، جليّاً ومشجّعاً.

وجاء يوم، طُلِب فيه مني إعطاء دروس في الديانة المسيحية، لطالبات أحد الصفوف الثانوية، في إحدى مدارس الراهبات الأجنبيات في القدس. كان ذلك، بالطبع،

بموافقة إدارة الدير. كما طُلِب إليّ في الوقت نفسه، أن أعلّم الراهبات البندكتيّات الحبيسات في جبل الزيتون، الترنيم البيزنطي، مرةً في الأسبوع. وكنت سعيداً بهذين النشاطين المختلفين. ولم يطل بي الوقت، حتى سألتني الراهبات البندكتيّات أيضاً، الاهتمام بما لديهنّ من يتيمات صغيرات، كي أعلّمهنّ التعليم المسيحي والترتيل. وكانت الأخت المسؤولة عن هؤلاء اليتيمات، راهبةً عربيّة فلسطينيّة، تدعى "ماري الصعود"، بالفرنسية "لاسانسيون" (Marie de l'Ascension). وكانت هي أيضاً قد نشأت يتيمة في هذا الدير بالذات، وأصبحت راهبةً فيه. وكانت تشكو من نتائج خلع ولادي، رافقها منذ الطفولة، إلا أنها كانت تفيض سلاماً ومحبة، وحناناً وفرحاً.

ترى، هل من ضرورة لذكر مثل هذه الأمور، التي هي في الحقيقة، عادية جداً، وقد تبدو تافهة؟ أجل، أذكرها لسبب هام وبسيط في آن واحد، تعلّمته من خلال تدريس طالبات الصفوف الثانوية في القدس، وجعلت منه قاعدة التزمت بها طوال حياتي، في تعاملي مع الشبيبة عامة، ومع الفتيات والسيّدات، بل والراهبات خاصة. ذلك بأن الراهبة المسؤولة عن الصف، وكانت غالباً ما تحضر دروسي، استدعتني ذات مرة بعد أحد الدروس، لتخبرني في شيء من الارتباك، أنّ البطاقات التي كنت أكتبها لكلّ طالبة منهنّ، لأبدي ملاحظاتي حول الوظيفة التي كنت، بين حين وآخر، أطلبها منهنّ، كان بعضهنّ يخبّئنها في صدورهنّ، ويتنافسنَ في ذلك. فاعتبرتُ، وامتنعت فوراً عن كتابة أية بطاقة لأي منهنّ، وانتهيت إلى قرار بضرورة الاحتفاظ دائماً بمسافة، مكانيّة ومعنويّة، مع جميع الإناث، أيّاً كان عمرهنّ ووضعهنّ. ومع ذلك، فلكم اضطررت لتثبيت هذه المسافة دائماً وفي كل مكان، ودون إسقاط عامل الزمن من حسابي، حتى لا أفاجأ بما كان بعضهنّ يفاجئْنني به من بطاقات ورسائل...

ضمن هذا الإيقاع الهادئ والواعد من الحياة، حدث فجأةً العدوان الثلاثي على مصر، في أواخر شهر تشرين الأول من عام 1956. فاجتاحت المظاهرات شوارع القدس وحاراتها لبضعة أيام. وشُحنت النفوس بالغضب. أمّا أنا ففكرت على الفور بمغادرة الدير، والالتحاق بالجيش في سورية. وسارعت إلى مقابلة الأب الرئيس، "موريس بلونديل"، وكان فرنسياً. فسرّني أنه لم يفاجَأ بموقفي. بل أكّد لي أنه لو كان مكاني، لكان فعل ما أنوي فعله اليوم. إلا أنه ألحّ عليّ بأن أترقّب الأمور بضعة أيام، ريثما تنجلي، وعندها يترك لي أمر القرار في البقاء أو الرحيل. فوجدت موقفه حكيماً. ثم إني لا أملك أية خبرة قتاليّة، لا سيما وأنّ سورية لم تدخل المعركة، فماذا عساني أقدّم أو أؤخّر؟ وقد أخسر بذلك السنة كلّها، وأُغضب البطريرك، فيتّخذ مني موقفاً

قد لا يريده هو، وأهدر بذلك كل الجهود التي كنت بذلتها حتى الآن... فكان أن هدأت واستكنت، وبتّ أترقّب الأخبار، التي كنّا نسمعها من "إذاعة الشرق الأدنى" آنذاك، والتي كان حتى الإصغاء إليها في قاعة المطالعة، كثيراً ما يثير لغطاً. وقد أثارنا مرة حتى الضرب بالأيدي، كما حدث لي مع صديقي الأقرب إلى قلبي، وكان شاباً لبنانياً يدعى حبيب خوري. وحتى في هذه الحالة، كان الأب الرئيس يبدي تفهّماً عظيماً، ويسارع إلى مصالحتنا!

وبُعيد عيد الميلاد، فوجئنا كلّنا بزيارة البطريرك للدير في القدس. وكان لنا معه لقاءان فقط، الأول منهما كان مع طالب لاهوت يدعى جورج هبرا، وكان فلسطينياً يهوى آباء الكنيسة، بحيث كان يعتبرهم المرجع الأوحد في اللاهوت، ويجاهر بذلك. ولَكَم كان يحاول التشبّه بهم، وإنما كما كان يتصوّرهم، في لحاهم الطويلة، ووجوههم العابسة الجادة، وكامل ثيابهم الرسمية، بما في ذلك القلنسوة فوق الرأس. وقد ألحّ في لقائه مع البطريرك كي يفرض علينا جميعاً، هذا اللباس الرسمي، حتى في رحلاتنا الطويلة، سيراً على الأقدام، عبر جبال القدس!...

أما اللقاء الثاني، فكان مع مجموع الطلاب، وإذ به في مضمونه، على طرفي نقيض مع ما سمع البطريرك من زميلنا جورج... فاستفاض الجميع بالحديث عن الحاجة إلى ممارسة شيء من الرياضة، التي ألفنا أن نمارسها لسنوات طويلة في رياق، حتى لو اضطررنا لممارستها في غير ثيابنا السوداء... كما أُثيرت موضوعات أخرى تتعلّق بمواد الدراسة، بحيث تشمل الإسلاميّات والديانات الأخرى. وطالبنا أيضاً بتمديد أوقات الاستماع إلى الراديو، لنكون على بيّنة مما يجري من أحداث، لا سيما في ما يتعلّق بالصراع العربي الإسرائيلي. وأقلّ ما يسعني قوله عن هذا اللقاء، أنّ البطريرك لم يكن فيه مرتاحاً، بل كان حادّاً في بعض اللحظات... إلا أني أذكر بتأثّر بالغ، تحذيره، القوي والملحّ، من إغواء المال!

وبعد سفره بأيام، سُمِح لنا بتمديد أوقات الإصغاء إلى الراديو. إلا أنّ السماح لنا بممارسة كرة القدم، في الملعب البلدي، لم يأتنا إلا بعد أسابيع، وبشرط واحد: أن نحتفظ بالثوب الأسود الطويل خلال اللعب. ومع ذلك أقدمنا مرة أو مرتين على اللعب بكرة القدم، بثوبنا الطويل، ثم تخلّينا عن هذه الهواية مُكرَهين، لاستحالة اللعب بالثوب الأسود، وتجنباً للسخرية التي أثرناها بلعبنا على هذا النحو.

وكان أن سُمِح لاثنين منا، كانا الشماس المصري "بولس قروشان"، وأنا، وذلك في نطاق المساهمة في خدمة المناطق المفتقرة إلى كهنة، أن نذهب مع كاهن فرنسي يتكلّم

العربية، ويَدرُس في معهد الكتاب المقدس في القدس، إلى منطقة الكرك، للاحتفال هناك بأسبوع الآلام وعيد الفصح. وكان هذا الكاهن يملك سيارة "سيتروين". فأمضينا بصحبته أسبوع الآلام ويوم عيد الفصح، هناك. وكانت المنطقة يومها تفتقر إلى الكنائس، وإلى الحدود الدنيا من الطرقات، لا سيما في منحدرات ومرتفعات وادي الموجب الشهير... وكان معظم الناس ما زالوا يعيشون تحت الخيام. فأقمنا بعض الصلوات تحت الخيام، وكانت أحياناً "طاولة الهيكل"، فُرُشاً مرصوفة فوق بعضها البعض. ولَكَم من مرة قمنا بالتطواف في الهواء الطلق، على ضوء الشموع والقمر، فيما كانت الخراف والكلاب تدور مع المؤمنين الطائفين معنا!...

وتواصل العام بهدوء، على إيقاع التطورات القليلة، التي طرأت على حياتنا في الدير. وحلّت نهاية العام، وفيها الاحتفال بمنح "رتبة القارئ" لمن بلغها، وأنا واحدٌ منهم. وقُبيل الاحتفال بأيام قليلة، جاءني رئيس الدير في زيارة مفاجئة إلى غرفتي، وكان ذلك أمراً قلّما يحدث له. فتوقّعت خبراً ما. وفي الواقع، فقد أخبرني، في شيء من الارتباك، أنّ البطريرك كتب يسأله الامتناع عن منحي "رتبة القارئ". فلم أفاجأ. وحاول الأب الرئيس أن يحتفظ بتفاؤله المعهود، ثم انسحب بلطف، وهو يرجو لي كل خير.

بالطبع، مثل هذا الإجراء من قبل البطريرك، أثار الكثير من التساؤلات، لدى الكهنة والطلاب في الدير. من ناحيتي، لم أفاجأ به، إنما استغربت تأخر البطريرك في الإيعاز به. وغادرت القدس مع سائر الطلاب، يوم الخامس من تموز، ووصلت مساء إلى دمشق. وأخبرت أهلي بما حدث، فتقبّلوا الأمر دون استغراب، وربما بشيء من التفاؤل... وفي صباح اليوم التالي، بعد حضوري القداس في كنيسة الرعية، سلّمت على كاهن الرعيّة الطيّب، الأب "متري نعمة"، وأحطته علماً بالأمر، فأوصاني برباطة الجأش. ثم انطلقت إلى البطريركية على دراجتي. وارتأيت، قبل كل شيء، أن أحيّي مستشار البطريرك، المطران "بطرس مدوّر". فرحّب بي ترحيباً حارّاً، وأصرّ على وضعي في صورة الموقف، الذي اتخذه البطريرك مني. وإذ به يطلعني على نسخة الرسالة، التي كان البطريرك قد أرسلها لرئيس الدير، وهو يغمرني فيها بأحلى الأوصاف، إلا أنه في الختام، يطلب فيها من رئيس الدير الامتناع عن منحي الرتبة. قرأت الرسالة كلّها بالحرف الواحد، كما جاءت بالفرنسية. فقال لي المطران: "أترى رأي البطريرك فيك؟ إنه لا يكفّ عن مدحك، ولكن يبدو أنه يخاف منك. فكيف لك أن تطمئنه؟...". شكرت للمطران محبّته وثقته، وخرجت قاصداً مكتب البطريرك. وقرعت الباب، فسمعت: "تفضل!". ففتحته ودخلت محيّياً البطريرك، وانحنيت وقبّلت يده. فظل جالساً يحدّق فيّ، ويده لا تزال في يدي. فقلت له:

"عدت مساء أمس من القدس، وأنا أريد أن أعرف السبب في حرماني من رتبة شماس قارئ.وأعتقد أن ذلك من حقي". فقال: "طبعاً من حقّك". قلت: "إذن ما هي الأسباب؟". قال: "شوف يا ابني، هناك ثلاثة أسباب، أولها أنك متمرّد، ثانيها أنك تطالب بتغيير المنهاج التدريسي، المتعارف عليه منذ عشرات السنين، وثالثها أنك تطالب بإصلاحات طقسية غير مقبولة". قلت: "تريد أن تسمع جوابي حول كل نقطة، أم أنسحب، ويُطوى الموضوع سلباً ونهائياً؟". فقال، وهو لا يزال جالساً، ويدي بيده: "هات ما عندك!". فقدّمت له إجاباتي باقتضاب عجيب على كل نقطة، دون أن أتذكّر البتة ما قلت. ثم حدّقت في عينيه، وسألته: "سيّدنا، شو قررت؟". فحدّق فيّ طويلاً، ثم قال: "غداً صباحاً، تأتي وتخدم لي القداس، الساعة السابعة في الكنيسة الصغيرة، وبعد القداس، أمنحك "رتبة شماس قارئ!". فعدت وقبّلت يده شاكراً، وعندها فقط وقف ليودّعني.

وفي صباح اليوم التالي، الموافق 1957/7/7، خدمت القدّاس للبطريرك، ولم يكن سواي في الكنيسة الصغيرة. وبعد القداس، طلب مني البطريرك أن أركع أمامه، ثم تلا صلاة تخصّ "رتبة القارئ"، وقَصّ عندها خصلة من شعر رأسي، ثم قبّلني، وقدّم لي هدية، كانت أيقونة صغيرة للسيدة العذراء، محاطةً بإطار خشبي متواضع. فقبّلت الأيقونة، ثم قبّلت يد البطريرك، وهممت بالخروج. فعاد وقبّلني وقال: "مبروك، يا ابني!". فخرجت أحمل الأيقونة، وقد قرأت ما كان مكتوباً في أسفلها باللغة الفرنسية: "سيدة قازان، طُبِعت في حريصا". وزرت بالطبع المطران "بطرس مدوّر"، وشكرته. ثم مضيت للتو إلى البيت، وقدّمت صورة العذراء لأمي، فقبّلتها ووضعتها في غرفتها، فوق سريرها، وهي تقول لي: "هي تمشي معك!". وفي اليوم نفسه، كتبت لرئيس الدير ومرشدي، أحيطهما علماً بكل ما جرى.

ويومها، من أين كان لي وللبطريرك، أن نتوقّع ما الذي كان مقرّراً أن تُحدثَه "صاحبة هذه الأيقونة بالذات"، "سيدة قازان"، بدءاً من شهر تشرين الثاني (نوفمبر) من عام 1982، من تأثير في حياة الناس في دمشق، ومن ثمّ في حياتي وحياة الكنيسة، في سورية وعلى امتداد العالم؟!...

وفي هذه الصيفية، انصرفت، كما في السابق، إلى نشاطي مع شبيبة الكنيسة، ثم إلى إقامة مخيّم الأطفال الفقراء في يبرود، بتغطية مالية وغذائيّة كاملة من الأب "إيلاريون كبوجي"، ودائماً بمساعدة بعض الطالبات الجامعيات. إلا أني، في هذا الصيف، كما في الصيف السابق، كنت كل يوم ظهراً، طالما كنت في دمشق، أحمل على درّاجتي طعام الغداء إلى أخي ميشيل، الذي كان عاملاً في شركة الكهرباء في القابون.

وكنت كثيراً ما أسمع انتقادات ساخرة أو قاسية، بشأن استخدامي الدرّاجة، بل بشأن حملي الأكل لأخي في "مطبقية"! فلا ألتفت لها. كما أني تابعت زياراتي كل يوم جمعة، لبعض سجناء القلعة في دمشق، أحمل لهم محبّتي وبعض ما يحتاجون إليه من مال أو ثياب أو طعام أحياناً. ويطيب لي أن أذكر منهم شاباً لبنانياً اسمه جوزيف، كان شعره يميل إلى الشقرة، وعيناه زرقاوان. وكنت أُسرّ عندما أسمع بعض السجناء، إذ يرونني من وراء القضبان، ينادونه قائلين "جوزيف، إجا أخوك الخوري!".

ولكم يطيب لي أن أذكر وأتذكّر الآن خدمتي، طوال النصف الأول من شهر آب، كما في كل صيف، لصلاة الابتهال (الباراكليسي) استعداداً لعيد السيّدة في 15 آب، في كنيسة الرعية في القصاع، حيث كنت أقوم بالترتيل مع من بات أخاً وصديقاً غالياً، المدعو جميل بغدان، الذي ظل يرتّل في كنائس دمشق، وخصوصاً في كنيسة سيدة دمشق، حتى عام 2011، والذي كان يتحلّى بجمال في الصوت، لا يعدله إلا جمال في الخلق والتعامل!

وفي مطلع أيلول، عدت مع سائر الطلاب إلى القدس، حيث كانت تنتظرنا مفاجأة سارّة، إذ كان قد وفد إلى ديرنا بالذات للدراسة معنا، طلاب الفلسفة واللاهوت، التابعون لجمعية الآباء البولسيّين في لبنان.

وعلمنا بسرور بالغ أنهم طلائع جميع طلاب الفلسفة واللاهوت، في جميع أديرة الروم الكاثوليك في لبنان، إذ قد تقرّر أن توحّد جميع هذه المعاهد، في دير القدّيسة حنّة، في القدس! وقد شاركونا العيش في الدير لفترة، ثم اتّخذوا مقراً لهم في "بيت حنينا"، على مقربة من رام الله، وظلّوا يأتون كلّ يوم إلى القدس للدراسة.

وتبين لنا، بعد مدة، أنّ مشروع التوحيد أُبطل، دون معرفة الأسباب.

ومع ذلك، فقد تفاءلنا بوجودهم، لما كان ذلك ينطوي عليه، من تقارب إنساني وروحي وفكري، بين مَن سيصبحون بعد سنوات قليلة، كهنة في عدد من الكنائس، في الشرق العربي. وبدا لنا ذلك خطوة هامة على طريق لطالما حلمنا به، وهو إعادة الوحدة إلى العمل الكنسي، في النطاق الكاثوليكي، ريثما تتحقّق الخطوة الأهم، في استعادة الوحدة في نطاق الكنيسة كلّها... أقلّه في الشرق العربي... إلا أنّ ما تحقق فعلاً، بفضل هذا الدمج غير المتوقع، بين دير القدّيسة حنّة وجمعية الآباء البولسيين، كان، على أهميته، دون ذلك بكثير، وإن كان قد أحدث صداقاتٍ جديدةً ودائمة، بين العديد ممن أصبحوا كهنة فيما بعد، وما كان ذلك بالأمر اليسير...

في هذه الأثناء، كانت بوادر حركة وئيدة، تتعلّق "بجمعية البرادو"، قد أخذت ترتسم شيئاً فشيئاً، بفعل انجذاب عدد جديد إليها، فضلاً عمّن كانت قد استهوتهم في العام

الماضي. وانتقلنا من الأحاديث الفردية، إلى تبادل الرأي بين عدد من الطلاب أخذ يتّسع. وجاء يوم، سمحت لنا فيه إدارة الدير، بعقد اجتماعات ضيّقة ودورية، نتلمّس فيها استيعاباً لنهج "البرادو"، ومدى صلاحيته في إطار كنائسنا في الشرق. وكان مثل هذا الأمر في غاية الدقة، لأننا كنا مصرّين على رفض الانضواء تحت إغراء الغرب، كما كان يحدث للبعض. وقد بدا لي أنّ هذا الهاجس، على ما فيه من صعوبة وتعثّر، أخذ ينغرس عميقاً لدى البعض، كما أنّه كان يترك، من خلال بعض الملاحظات أو المقترحات، أثراً واضحاً وواعداً، لدى هذا أو ذاك... وكنت شديد الحرص على ألا أتصرف مع زملائي المسكونين بهذا الهاجس، لا كعارف، ولا كموجّه. وقد كنت، في حقيقة الأمر، مثلهم، أتلمّس الدرب بمزيد من حذر، لا لشيء إلاّ لأني كنت قادماً من فرنسا، وعارفاً، إلى حدّ ما، بما فيها... وكنت أحاول ما أمكن، إطلاع "الأب أنسل"، على محاولاتنا هذه، الحذرة والبطيئة.

وانقضى عام 1956–1957 الدراسي، بسلام وهدوء، وكذلك عام 1957–1958، دون أمور استثنائية تذكر. إلا أن فكرة "البرادو"، كانت آخذة في التبلور، ضمن عدد بات جيّداً من طلاب الدير، منهم خصوصاً من كان من سورية ولبنان ومصر. وفي ختام عام 1958، باتت "رتبة الشماس الإنجيلي" قريبةً، وكنّا أربعة نستعدّ لها، برياضة روحيّة مدّتها أسبوع كامل، بعيداً عن الدير. وارتأينا معاً أن نمضيها في "دير اللترون"، بالقرب من القدس، حيث الرهبان الصامتون، الذين يطلق عليهم بالفرنسية اسم "الترابست" (TRAPPISTES). وقد أحياها لنا راهب من هؤلاء، روى لنا حادثة جرت للراهب المكلّف في الدير ذاته، باستقبال الضيوف، وكان هو وحده بحكم عمله، مع رئيس الدير، يحقّ لهما أن يتكلّما عند الضرورة. وكانت الحادثة من الطرافة والعمق في آن، بحيث انغرست في ذاكرتي، وتعوّدت أن تعود إلى حيّز الظهور، إزاء الكثير من الظروف التي رافقت حياتي، حتى إني لا أزال أذكرها إلى اليوم من عام 2013، لما تركت لديّ من تأثير. ولست أنكر بأنها كانت الشيء الوحيد الذي تبقّى لديّ من تلك الرياضة الروحيّة.

وهي ذي: قدم ضيوف إلى الدير. واستقبلهم الأخ المضيف. وفي ساعة الغداء، ذات يوم، حمل لهم وعاء كبيراً يحتوي الشوربة المعهودة في كلّ وجبة. ثم عاد إلى مكانه، مستنداً إلى الحائط، وعيناه مغمضتان. وكان قد نسي أن يحمل مع الوعاء "الكفكيرة"، وظلّ هو في مكانه، فيما كان الضيوف ينتظرون "الكفكيرة". ولما مضت دقائق وهو جامد في مكانه، وهم ينتظرون، نهض أحدهم، وتقدّم منه وقال له: "أخي، عفواً"...

ففتح الأخ عينيه وحدّق فيه. فقال الضيف مبتسماً: "عفواً، نسيت أن تجلب لنا الكفكيرة"... فأجابه الأخ على الفور: "وما أهمية ذلك بالنسبة إلى الأبدية؟". وبالفرنسية كما رسخت في ذاكرتي: "qu'est- que c'est en face de l'éternité!".

وفي صيف عام 1958، أقدم أهلي، بمساعدة خالي النجار حنين وتشجيعه، على اقتناء البيت، الذي لا يزال أخي ميشيل يعيش فيه مع زوجته سميرة. كان قبواً في بناء كبير، إلا أنه كان رخيصاً، فاقتنوه "هيكلاً عظمياً"، وأخذوا شيئاً فشيئاً يكسونه ويجهّزونه الخ... ولَكَم كنت سعيداً بذلك، لأنّ ما كان يُقال وأسمعه باستمرار، عن كهنة في دمشق، عمّروا أو اقتنوا بيوتاً لأهلهم، كان يذيقني الموت. ولذا فرحت جدّاً لاقتناء أهلي هذا القبو، على كونه قبواً، قبل أن أصبح كاهناً بعام كامل. ومن طريف الأمور، أني قَدِمت ذات يوم إلى القبو، وحيّيت العمّال فيه، وإذ بسيّدة تدخل، وكانت تقطن منذ أشهر، مع زوجها، القبو المقابل لقبونا. فعرفتني وحيّتني، وما كان منها إلا أن هنّأتني، أجل هنّأتني، باقتنائي البيت لأهلي... وكنت يومها، بالطبع، ألتحي وأرتدي الثوب الأسود، ولم تكن تعرف أني لم أصبح بعد كاهناً. قالت: "أبونا، بهنّيك، لأنك اشتريت هالقبو لأهلك!". فأجبتها على الفور: "ولِمَ لا... طالما أني حتى الآن آخذ منهم ثمن بطاقة الترامواي! بالمناسبة، أنا لا أزال شماساً، ولن أصبح كاهناً إلا بعد سنة، إن شاء الله! وأدعوك منذ الآن إلى سيامتي!". تلك الجارة الطيبة، لا تزال جارة أهلي إلى اليوم، بعد أكثر من خمسين سنة!

إلا أنّ هذا الصيف بالذات، فاجأنا، أنا وجميع أهلي، بكارثة حلّت ببيت خالي نقولا، مساء 14 تموز، وكنا لا نزال وإياهم في منزل واحد، في حارة الصليب الثانية. ذلك بأن أحد أبناء خالي الأربعة الشبّان، واسمه جورج، وكان يومها في الرابعة والعشرين، وقد كان تزوج منذ أشهر قليلة، قد أقدم على الانتحار، بإطلاق الرصاص على رأسه. كان يقطن مع عروسه، في الحارة نفسها، عند قريب لنا يدعى "غطاس كويتر". وقد وُجِدَت بالقرب من جثته، بطاقة صغيرة كَتَب عليها بخط يده: "إني أنتحر من ضيقة خلقي!". بالطبع، بدأنا الاتصالات بالبطريركية من أجل إجراءات الدفن، ففوجئنا بأنّ القانون الكنسي يمنع الصلاة في الكنيسة على المنتحرين. فثارت ثائرتي، إذ كنت أرى أنّ المنتحرين هم الذين يحتاجون إلى الصلاة أكثر من سواهم! وكان خالي من الحزن والوهن، بحيث ترك لي أمر الاتصال بالبطريركيّة. وكان نائب البطريرك يومها المطران "أنطونيوس فرج"، وكان حينذاك في مصيفه في "تل منين"، بالقرب من دمشق. وكان مرهوب الجانب. فتولّيت أمر مراجعته، مع بعض الرجال من

العائلة، أملاً منّي في انتزاع موافقته للصلاة على جثمان جورج في الكنيسة. وعبثاً حاولت، وقد راجعته مراراً. وكانت حجّتي هي هي: إن لم يشفق القانون الكنسي على المنتحر، فإنّه يتوجب على المسؤولين الكنسيين أن يشفقوا على الأهل، ويتنازلوا لهم بدفن ابنهم على نحو لائق، في الصلاة في الكنيسة، وليس كجيفة حيوان، وهو محروم من أي صلاة. أخيراً، وافق المطران على مضض، ولكنه كان قد أبدى امتعاضه مني، خلال زياراتي المتكررة له، وأذن لكاهن الرعية بالصلاة على الجثمان في الكنيسة، على ألا يُسمَح له بإقامة قداس الأربعين على روحه. وهكذا كان، ولا يفوتني بالطبع أن أذكر بأنّ هذا الحدث العائلي المؤلم، كان قد تزامن في اليوم نفسه، مع الثورة الدامية التي قامت في العراق ضد عبد الكريم قاسم.

وعدت إلى القدس لسنة دراسية جديدة، 1958-1959، وقد مضت في هدوء، مع أنّ كل ما كان يجري يومها في لبنان، من ثورة تواصلت ستّة أشهر، وكثيراً ما نحت منحىً طائفيّاً، قد أثار لدينا جميعاً، ولا سيما لدى زملائنا اللبنانيين، مخاوف من تفاقم المدّ الإسلامي المتطرّف. وكان من شأن هذه الأحداث، أن زادتني نهماً في قراءاتي التاريخية والإسلامية والأدبية، كما أنها حثّت من كانت بذور "البرادو" قد رسخت فيه، على البحث عن صيغة لكهنوت يعي الأحداث في العالم العربي، ويريد أن يكون له فيها دور مميّز، يستلهم الإنجيل، وما يدعو إليه من محبّة لكل إنسان، تفضي إلى سلام ينعم به كل إنسان.

أمّا عن الحياة داخل الدير، طوال هذا العام، فثمة أمران يطيب لي أن أشير إليهما. وكان الأول منهما القرار ببدء دروس الإسلاميات، بُعيد عيد الميلاد، كما كنّا قد طلبنا قبل ذلك بسنة. وكُلّف بهذه الدروس، الأب البولسي "حبيب باشا". وقد كان حريصاً على وضع نصوص مكتوبة بين أيدينا، وكانت كلّها من نتاج فكره وأبحاثه وقلمه، وكانت تنضح، كما هي شخصيّته، بالمودّة والانفتاح.

أمّا الأمر الثاني، فإنما هو جزء من حديث، سمعناه في أواخر العام، من أحد أقدم الخدم في الدير، وكان يدعى "أبو لورنس". يومها قمت مع بعض زملائي في الدير، بزيارة شكر ووداع له، إلى بيته في بلدة "العيزرية" بالقرب من القدس. والحق يقال أننا، طوال السنوات الكثيرة، التي قضيناها في الدير في القدس، لم نلمس في هذا الإنسان إلا منتهى الأمانة والمودة، والتضحية. وكان قد تجاوز الخامسة والستين، بعد أن أمضى عمره في خدمة الدير. فكنا نكنّ له احتراماً ومحبّةً، عظيمين. وقد دار بيننا وبينه في منزله، حوار طويل وصريح، حول خبرته الطويلة في الدير، وخارج الدير مع كهنة

وأساقفة كثيرين. وبدا لنا واضحاً أنه يتكلّم بدافع من الأسى، بعيداً عن أيّة شماتة. وفجأة بادرَنا بقولٍ كان من الجرأة والحرقة، بحيث انغرس لحظتها، وحتى هذه اللحظة في أعماقي، إذ أستعيده، وكأني "بأبو لورنس" ماثل الآن أمامي، ويعيده لي اليوم، كما بالأمس، لأربع وخمسين سنة خلت. قال بالعامية، ما حرفيّته بالفصحى: "لا تزعلوا! أنا أعرفكم من سنوات، وأعرف أنكم كلّكم صادقون، ولولا ذلك ما تحمّلتم في الدير ما تحمّلتم. وأنا واثق أنكم كلكم تريدون أن تكونوا في حياتكم كهنة نظيفين. رأيت الكثيرين قبلكم، وكلكم مثل أولادي. ولكن الواقع أقوى منكم كلّكم، ولن تستطيعوا المقاومة. ستنجرّون مثل غيركم... وستكونون كلّكم، لا تؤاخذوني، مثل المصابين بالسل، وستعدون بعضكم بعضاً. وأنا، على كل حال، سأصلّي من أجلكم. الله يوفّقكم!".

ترى، لِمَ أذكر الآن هذه الحادثة القاسية؟ لغاية واحدة: كي أشكر للرب أنه كان دائماً، بين حين وآخر، يضع على دروبنا، أناساً بلغوا من الإيمان والصدق والمحبة، ما كان قد بلغه هذا الخادم الأمين "أبو لورنس"!

ثم كانت سيامتي الكهنوتية في دمشق، يوم الأحد 1959/7/5، في كنيسة القدّيس كيرللس بالقصاع. وكنت قد سألت البطريرك، السماح لي باختيار نص من الإنجيل، يختلف عن النص الذي كان يقتضيه الترتيب الطقسي يومذاك. فأذن لي، وكان فيه ما يرويه الإنجيلي مرقس، في الفصل العاشر، من صعود يسوع مع التلاميذ إلى القدس، إذ فيما كان هو يحدّثهم عن آلامه الوشيكة، كان اثنان من تلاميذه الثلاثة المقرّبين، يبحثان عن المراكز الأولى، في ما كانا يظنّانها مملكة زمنية. وفي ذلك إشارة واضحة إلى ما يريد يسوع منّا نحن كهنته، وما قد نريده نحن منه!

وفي القدّاس، بعد تلاوة الإنجيل، تحدّث البطريرك عن الكهنوت، كما يريده الرب ممّن اختارهم خدّاماً وشهوداً له، والكهنوت كما يريده أحياناً بعض الناس. وكان أن روى حادثةً مؤلمةً، حدثت له يوم كان مطراناً على صور، قبل أكثر من أربعين عاماً، إذ كان بين الكهنة التابعين له، كاهن شاب نشيط وناجح جداً، فناوأه بعض الوجهاء العداء، وظلّوا يحيكون ضده الأقاويل، حتى اتهموه بعلاقة زنى، وكان أن أقنعوا المطران يومها بصحة هذه التهمة، فاضطرّ لمعاقبته ولنقله، بعد فترة وجيزة، إلى رعية صغيرة نائية. وإذ بهذا الكاهن يموت بالسكتة القلبية، بعد فترة وجيزة... فقدم المطران لصلاة الجناز، والألم يعضّ قلبه على رحيل الكاهن الشاب على هذا النحو. إلاّ أنّ المفاجأة الكبرى كانت عندما قَدِم، قبل الجناز بدقائق، الوجهاء إيّاهم الذين كانوا قد اتهموه بالزنى، واعترفوا للبطريرك باختلاقهم لتلك التهمة، ليتخلّصوا من ذلك الخوري

بأهون السبل! روى البطريرك هذه الحادثة، وكان يومها في غاية الانفعال. وعندما بلغ هذه النقطة من الحادثة، قال للناس في كنيسة القدّيس كيرللس: "أتدرون ماذا فعلت، عندما سمعت هؤلاء الوجهاء، يعترفون لي بذنبهم واختلاقهم تهمة الزنى على الكاهن؟... لقد جمعت كل قواي، وبصقت في وجوههم، وقلت لهم: تفوه عليكم! تفوه! أنتم قتلة، وطردتهم من أمامي"... ثم حاول أن يتمالك نفسه، وتابع ليحرّض الحاضرين على محبّة الكاهن، وعلى مساعدته في خدمته الصعبة! هذا فقط كل ما أذكره من عظة البطريرك. وكان البطريرك يومها في الثانية والثمانين من العمر. إلا أنه كان واقفاً كالسنديانة، وصوته يدوّي كالرعد!

بعد القدّاس، دخل المهنّئون إلى صالة الكنيسة، حيث ألقيتُ كلمتي، ومن ثم تقبّلت التهاني. وفي هذه الأثناء، وُزّعت الصورة التذكارية لسيامتي، وكانت، كما ذكرت سابقاً، تمثل السيّد المسيح، وقد رسم بالحبر الصيني، وهو ينحني من صليبه، لينهض الإنسان المنهار. وما هي إلا لحظات، حتى علا صوت البطريرك صاخباً، فيما هو نهض من مقعده، وقال ما يستنكر فيه هذا الرسم الشنيع، كما وصفه، لأنه لا يليق بيسوع، مقارنةً بما جاء في الأيقونات البيزنطية... بالطبع آلمني مثل هذا التصرف، وبدوري وقفت والناس يحدّقون بي، وقلت بهدوء لا يخلو من حدّة: "سيدنا، الصورة وُزِّعت، والكثيرون حملوها وراحوا!..."

وفي المساء ذاته، وطوال أيام متتالية، كنت في بيت أهلي الجديد، أي القبو، أستقبل المهنئين، وعلى رأسهم أهل الحارة، ومنهم بعض الجيران المسلمين، مثل أم وحيد وأبو محمد الطيان النبكي وعائلته. وكان منهم عدد من الشبّان الذين كنت أرافق بعض نشاطاتهم في الكنيسة. وأخصّ بالذكر منهم شاب، أصبح فيما بعد كاهناً، هو جورج عكّة، وقد أبدى لي رغبة أحد أصدقائه، وهو شاب من عمره ويدعى جورج مثله، في تهنئتي. وكان أن قَدِما معاً. ولَكَم يطيب لي اليوم، وبعد مرور أربع وخمسين سنة، أن أعلن أن لقائي بهذا الشاب بالذات، جورج حورانيّة، كان له من التأثير اللاحق، ما لم يكن لأحد أن يدرك مداه وعمقه، سوى الذي خطّطه في حكمته ومحبّته لنا.

وكنت طبعاً، أقيم القداس كل يوم في كنيسة الرعية، وكذلك الحال يوم الأحد. وكنت "أرتاح" في إقامة القداس، ولا أسمح لأي شيء أو إنسان، أن يستعجلني فيه. وكان أن التقيت بعد أسبوعين أو ثلاثة، سيّدة معروفة في المجتمع. فاستوقفتني في الطريق، وقالت لي عبارة، رسخت هي أيضاً في أعماق ذاكرتي: "أبونا، اسمح لي هنّيك على رسامتك!. قداسك شو حلو، بس بكره بتصير مثل غيرك!". وابتسمَت ومضت!..." بكره بتصير مثل غيرك!"!...

وكان هذا باقتضاب، ما قاله لي، على نحو مطوّل ومبطّن، عبر مجلة المسرّة، في العدد الذي صدر في شهر رسامتي الكهنوتية، رفيق الطفولة، الدكتور فرنسوا دياب، تحت عنوان مثير هو: "ما يريده الناس من كاهن اليوم". ولم يكن شيء من كل ذلك بخافٍ علي. وقد شئت أن أقابل مقالة صديقي المبطّنة، برسالة مفتوحة أقول له فيها، وللكثيرين عبره، كيف أفهم الكهنوت، وماذا يتوقّع الكاهن، بدوره، من المسؤولين والعلمانيّين. وكان أن كتبتها، وكانت بتاريخ 1960/1/1، وسلّمتها يومها بكلّ ثقة لمن كان - ولا يزال بعد رحيله المبكر - أحد أعظم الكهنة في نظري، الأب "جورج فاخوري" البولسي، لينشرها في المسرة. إلا أنه لم يجرؤ يوماً على نشرها. ولكن نشرها كان ذات يوم بعيد من عام 1997، من نصيب صديقه وتلميذه، أديب مصلح، الذي أقدم من تلقاء ذاته، على اختيار بعض ما كنت كتبت، وقليل مما كان نُشِر، في كتاب تكفّل هو بنشره، وقد طبعه في مطبعة الآباء البولسيّين، في جونيه، تحت عنوان "ومن الكلمات بعضها...".

وهنا بالذات ، لا يسعني إلا أن أورد بعض ما وافتني به أختي الراهبة لوسي، من كلمات كانت أشبه بنهجٍ كهنوتي، تطالبني به، في محبّةٍ وجرأة اخترقتا قلبي. وقد كتبت هذه الكلمات بخط يدها، في لغة فرنسية مقتضبة، على ورقتين صغيرتين.

جاء في الأولى، وهي بتاريخ 1959/8/2، ما ترجمته الحرفية:

« أخي العزيز،

إن الروح القدس دفعني لأن أقدّم لك النصائح التالية:

- تجنّب العلاقات المتكرّرة والطويلة مع الراهبات، لأنّهنّ قادراتٌ على اختلاق ألف قصّة على حسابك.
- كن مسيحاً حقيقيّاً حيال المعذبين والخطأة.
- كن أباً للفقراء، أنت يا من ذقت قليلاً مرارات الفقر والحرمانات التي يفرضها.
- كن واسع الصدر مع من يسألك الإرشاد.
- لا تفقد صبرك في كرسي الاعتراف، وحاول أن تستخدم كلمات ودودة، من شأنها أن تدفع التائب إلى مصارحتك بكل شيء.
- تحاشَ دائماً الاستعجال مع من هم في ضيقٍ أو بحاجةٍ إلى حضورك.
- كن خادم الآخرين، لا سيّدهم.
- لا تصدّق بسرعة ما يُروى لك، وخصوصاً في ما يتعلّق بسمعة هذه أو تلك.
- كن متحفّظاً وشهماً مع الجنس الآخر.
- كن بئراً عميقاً للأسرار التي تؤتمن عليها. »

وأقتطف من الورقة الثانية، وهي تحمل تاريخ 1959/8/9، الأسطر التالية بحرفيتها:

« إن نذر الفقر لرهيب، فهو يقيّد من يبرزونه على نحو صادم وخانق.

أبلّغك هاجسي هذا وأضعه بين يديك ككاهن، أب للفقراء والبؤساء، وليس للأغنياء والسادة.

آثرت أن أنقل إليك هذه النصائح بخط يدي، كي تنحفر في قلبك.

ولتوحّدنا الصلاة.

لوسي »

ثمّة حدث ارتبط في ذهني وقلبي، بصورة ثابتة، وقد جرى لي بعد أيام قليلة من سيامتي. فذات يوم، أقمتُ القدّاس بعد الظهر في كنيسة الرعيّة كالعادة، ثم جلست على أحد المقاعد أصلّي شاكراً. وإذا بمجموعة صغيرة من الأطفال، يسألوني في صمت مرافقتهم خارج الكنيسة. وقادوني إلى أرض خلف الكنيسة، كثيراً ما كانت تُستَخدم للعب كرة السلة. وإذ فيها خيمة كشفية صغيرة منتصبة، وبالقرب منها دراجة هوائية عادية جدّاً. وما إن تقدّمت قليلاً، حتى خرج منها فتى أسود قصير القامة، وبادرني بالتحية باللغة الفرنسية، وهو يدعوني، مبتسماً "أبونا" (Père)، وكنت بالطبع بثوبي الأسود وملتحياً. فردّيت على التحية بأحلى منها، وتبادلنا الحديث. فعرفت أنه من جزيرة "مدغشقر"، وأنه يدرس في مدينة "تولوز" في فرنسا، وقد نذر السفر إلى القدس. ولمّا لم يكن له من المال ما هو ضروري لمثل هذه الرحلة، اقتنى درّاجة هوائيّة بما كان يعادل يومها عشرين فرنكاً فرنسيّاً فقط، من سوق الخرداوات، وها هو الآن في دمشق، وقد غادر حلب منذ يومين. وعرفت أنه كان يكتفي بشراء الخبز ليس إلا. كان اسمه "جان راندرياماMونجي" (Jean RANDRIAMAMONJY)، وكان يودّ زيارة دمشق، ثم المضي إلى القدس. فقرّرت على الفور استضافته في بيت أهلي، دون استشارتهم. وسألته إقفال خيمته، بعد أن ترك فيها دراجته، ومشينا معاً إلى البيت. كانت والدتي، على عادتها، جالسةً في الحديقة مع أختي الصغرى "رينيه"، والطقس لطيفاً. وعند باب الحديقة، قلت له: "هذه أمي وأختي"، وفتحت الباب، فأسرع إلى أمي، وارتمى عليها يقبّلها، فاحتضنته بلهفة وقبّلته، فيما أختي قالت متجهّمة: "منين جايب هالقرد؟" فقلت لها: اخجلي، رينيه، وكوني لطيفة معه"! ولَكَم كان هذا الشاب إنساناً في تعامله مع أمي وأخي وأختيّ، نور ورينيه. وفي دمشق، كنت أجول معه أحياناً

على دراجتي أيضاً، فكان مغموراً بالدهشة والحب. أما في البيت، فكان أشبه بالطفل، غير مصدّق ما يحدث له. وإنه ليطيب لي قبل أن أطوي هذه الحادثة، أن أذكر شيئين: الأول أنه، عندما ودّعنا، بعد أربعة أيام فقط، كنّا كلّنا نبكي، هو على دراجته يلوّح طويلاً بيديه، وكأني به لا يريد الانطلاق، ونحن الخمسة، أمي وأخي وأنا وأختاي نور ورينيه، واقفون عند الباب الخارجي، نبكي وكأني بنا نودّع فرداً من أفراد العائلة. والشيء الثاني، هو أننا، منذ لقائنا بهذا الشاب الإفريقي، بتنا نشعر بتعاطف تلقائي، مع كل ما يتعلّق بالأفارقة والزنوج، أيّاً كانوا.

وهنا لكم يطيب لي أن أستعيد ذكرى صديق غالٍ، يُدعى غسان شلهوب، إذ كان أول من طلب منّي أن يعترف عندي، بُعيد سيامتي الكهنوتية، في الوقت الذي كان معظم الشبّان والرجال يحاولون التهرّب من الاعتراف. والطريف بالأمر أنّ هذا الاعتراف جرى في بيت أهله، في قاعة الاستقبال، حيث كنّا نحن الاثنين راكعين، وقد دُهشَت والدتُه لهذا المشهد، إذ كانت تحمل لنا القهوة! وقد كنتُ التقيتُه شابّاً واعداً، خلال اللقاءات الروحيّة، التي كنت أنظّمها في فترات الصيف المتعاقبة، لبعض من شبيبة كنيسة القدّيس كيرللس، في بلدته الرائعة معلولا. وكان أن توطّدت العلاقة بيننا، إذ أخذتُ أزوره في بيت أهله، في حي القصبة بدمشق. فعرفت أهله، ولا سيما والده، النائب الدكتور جورج شلهوب، ووالدته السيّدة ماريا مسرّة. وقد أُعجبتُ بشخصيّتهما. وكان البيت أبداً عامراً بحضور شعبيّ، وانفتاح إنسانيّ، وزخم سياسيّ. وأما صديقي الجديد غسان، فقد كنتُ أتوسّم فيه خيراً كثيراً في المستقبل، على الصعيدين، الوطني والمسيحي على السواء!...

الفصل السابع

في المدرسة البطريركية في بيروت

في بداية العام الدراسي 59-60 أخبرني البطريرك في دمشق أنه اختار لي أن أكون في المدرسة البطريركيّة في بيروت. لم أُبدِ أي تمنّع، مع أنه لم يأخذ برأيي، لا سيما وأني علمت منه أنّ رئيس المدرسة سيكون الأب "أنطون المعلم"، الذي لم أكن أعرف عنه سوى اسمه وشكله، ولم تربطني به أي علاقة. أخبرت أهلي، وكانت كلمة أمي هي هي: "العدرا تمشي معك!".

مضيت إلى بيروت، تماماً كما يمضي الجندي حيث يؤمر، وكنت سعيداً ببدء خدمتي الكهنوتية في مدرسة، بوصفها مركزاً تربويّاً. وكانت المدرسة البطريركية في بيروت، من الشهرة والعراقة على قدر كبير، لأنها خرّجت الكثيرين من المثقفين والأدباء والشعراء، وعلى رأسهم خليل مطران. وقد سرّني أن يكون موقعها في قلب "حي البسطة" الإسلامي.

كانت للأب "أنطون المعلم"، خبرة تربوية طويلة في المدرسة البطريركيّة بدمشق. فشغل في مدرسة بيروت مركز الرئيس، فيما كان المسؤول عن الدروس فيها، هو كاهن آخر معروف في الأوساط التربوية والثقافية، يدعى أنطون شكري. فسُلِّمتُ إدارة النظام فيها، وهو أمر لم أكن أرتاح له، إلا أني قبلتُه ليكتمل توزيع المسؤوليات الثلاث الكبرى. وكُلِّفت أيضاً تدريس اللغة الفرنسية في بعض الصفوف الإعدادية، كما كُلِّفت رعاية الطلاب الداخليين، وكانوا كلّهم كباراً، وبعضهم كان من مرجعيون وبشرّي وزغرتا، وكانوا قرابة العشرين طالباً. ولم أستهول مثل هذه المسؤوليات، إذ كنت في عمر وفي استعداد، يؤهلاني لأية تضحية دون رفّة عين.

وبدأت السنة الدراسية، وكان لبنان خارجاً حديثاً من أزمة دامية، استطالت ستة أشهر، وكادت أن تودي به، وتركت آثاراً عميقة وسلبيّة، في الكبار والصغار من أبنائه. وكانت مدرستنا تضم قرابة ألف ومائتي طالب، بين اطفال الحضانة وطلاب السنة الثانية من الشهادة الثانوية، المسمّاة بكالوريا الجزء الثاني. فلاحظت منذ اليوم الأول، بوادر فوضى في انتظام طلاب الصفوف العليا، قبل دخولهم إلى صفوفهم. فتمالكت نفسي بضعة أيام،

إلى أن فقدت ذات يوم أعصابي، وصفعت أحدهم على خدّه أمام جموع الطلاب المصطفّين. وللحظتي أحسست بالخطأ الفادح الذي ارتكبته، إلا أني ظللت متماسكاً ومحدّقاً في صفوف الطلاب، وقد أحسست بما يشبه موجة من الغضب والخشية في آن واحد، تسري فيهم. إلا أنّ الأمور استتبّت بعد ذلك، وإن كنت ساءلت نفسي: ترى، ما الذي منع هذا الطالب، وكان طويل القامة، قوي البنية، وغير مسيحي، أن يردّ لي الصفعة؟ وماذا تُراني كنت فعلت، لو كان أقدم على صفعي؟ وبعد لحظات من التفكير، قصدت مكتب الأب "أنطون المعلم"، وأخبرته مستشيراً إيّاه في ما جرى... وكان، بالطبع، قد أُخبر بما حدث، وكان منه أن حذّرني من تكرار مثل هذا التصرف، لا سيما وأنّ الشبّان جميعاً في حالة غليان داخلي، من جراء الأحداث التي اجتاحت لبنان. وإني لأذكر جيداً أنه قال لي: "في رأيي أن ما أنقذ الموقف، هو أن الطالب لم يكن مسيحيّاً... وعلى كل حال، يجب علينا نحن الكهنة أوّلاً أن نحترم أنفسنا، كي يحترمونا، وإلا أخرجناهم عن طورهم، وهذا ليس في صالح الطلاب، ولا في صالحنا... إنّ الصبر والمحبّة هما مفتاح كل تربية!". وكان كلامه بلسماً لما كنت فيه، ومرجعاً حرصت على العودة إليه باستمرار...

إلا أنّ الأجواء في المدرسة لم تكن مريحة، على ما كان بيني وبين الأب الرئيس من مودّة كبيرة، ومصارحة في مختلف الشؤون المتعلّقة بالمدرسة. وقد ألفت أن أقوم بزيارة لمكتبه، مساء كل يوم تقريباً، فنتبادل الرأي في شتى الأمور، ثم أعود إلى مكتبي، ومن ثمّ إلى مراقبة دروس الطلاب الداخليّين، حتى موعد العشاء. وكان أحياناً، عندما يلحظ لديّ فرطاً من تعب، يدعوني لمرافقته في جولة في سيارته، عبر بيروت، أو أحياناً في الجبل. بل كان يدعوني أحياناً أخرى، لمشاهدة أحد الأفلام برفقته، في إحدى قاعات السينما الكثيرة في بيروت. وكنت، كلّما أبديتُ له الرغبة في السفر إلى دمشق، لا يتردّد في تشجيعي على ذلك. وكان دائم الترحيب بحرارة بعودتي. ولَكَم من مرة سمعت من الأساتذة، بل من بعض الموظفين، مثل المحاسب "أبو مأمون"، كلاماً حول ارتياحهم إلى العلاقة الطيبة والمتعاونة، التي كانت قائمة بيني وبين الأب الرئيس.

وكنت دائم التساؤل بشأن غياب الاجتماعات الدورية والنظامية، الضرورية في مؤسسة تربوية كهذه، بين المسؤولين الثلاثة، أقلّه، الأب "المعلم" والأب "شكري" وأنا؟ وكثيراً ما وجدتني أطرح السؤال على نفسي، بحثاً عن جواب. بل دفعني ذلك إلى ما بدا لي جواباً مؤسفاً، وهو احتمال انزعاج الأب "شكري" من عدم تعيينه رئيساً، في مدرسة أمضى فيها، قبل وصول الأب "المعلم" إليها، سنوات طويلة، وله فيها ما له من صيت وحضور! وكان هذا الجواب الافتراضي، يفسّر لي، ولو قليلاً، اعتكاف الأب

"شكري" الدائم في مكتبه، وتعامله النادر جداً مع الأب "المعلم". إلا أنه لم يكن يفسّر لي الجفاء الذي كنت ألمسه لديه، في تعامله الدائم معي، وأنا بعد كاهن جديد وشاب، ولم تكن قد قامت بيننا، في السابق، أية معرفة أو علاقة... وعندما كنت أطرح السؤال، إبان بعض الأزمات الطارئة، على الأب "أنطون المعلم"، حول ضرورة عقد اجتماعات دورية على مستوى الإدارة، كان جوابه لطيفاً، وهادئاً: "هيك أَروَق!".

من ناحية أخرى، اجتهدت أن تكون علاقاتي مع جميع المدرّسين، لطيفة وودودة. والحقيقة تضطرني للاعتراف، بأن هيئة المدرّسين كانت تضم نخبة، على درجة عالية من الجدية والانضباط والكفاءة. وكانوا على العموم أول الحاضرين في الصف، وقلّما كنّا نلاحظ ما يمكن اعتباره ثرثرةً مفرطة. وإني لأذكر اليوم بسرور، العلاقة الطيبة التي نشأت بيني وبين الأديب المعروف، رئيف الخوري، الذي كان يدرّس الأدب العربي في الصفوف العليا، حتى إني كنت أسرّ كثيراً بحضور بعض الشروحات الأدبية له، وأنا جالس بين الطلاب. أما المدرّسات، فكنت دائماً أحرص على الإبقاء على مسافة واضحة بيني وبينهنّ، حتى عندما كانت إحداهن تراجعني في أمر ما في مكتبي.

أما الطلاب، وكان معظمهم من غير المسيحيّين، فقد وفّقني الله، والتشاور الكتوم مع الأب "المعلم" وبعض المدرّسين، إلى إنشاء علاقة معهم، تتّسم بالاحترام والمحبّة. ولَكَم كنت أُسرّ عندما كان بعضهم يقصدني في أمر شخصي أو عائلي، وأجده مرتاحاً إلى ما كنت أوليه من إصغاء تام، كثيراً ما كان يشجّعه على العودة بثقة متزايدة. وأما الدهشة لديهم، فكانت تتفاقم وتزيدهم ثقة، عندما كنت، بعد أسابيع، أو حتى أشهر، أذكّرهم بحادثة رووها لي منذ فترة طويلة، وكان لها، على غير إدراك منهم، تأثير، طارئ أو دائم، على سلوكهم، مع أهلهم، أو رفاقهم، أو صديقاتهم. وكان بعضهم يشجّعني أحياناً على زيارة أهلهم، والتعرّف إليهم. ولَكَم يطيب لي أن أتذكّر هذه الزيارات، وما تركت في ذاكرتي وقلبي، من فرح باكتشاف الحضور الإنساني، وأصالة الطيبة في كل مَن زرت وعرفت.

وكانت علاقتي بالطلاب الداخليين، تكاد تّتسم بنمط من الجو العائلي، إذ كانوا دائمي الإقامة في المدرسة، لا يُسمح لهم بمغادرتها إلا أيّام العطلة الأسبوعية، أو يوم الأحد، أو في أيام العيد. وكان معظمهم ينتهزون فرصة الأحد والعيد والأعياد الكبرى، ليمضوا بضع ساعات، أو بضعة أيام عند أهلهم. إلا أنّ الأمور كانت تأخذ أحياناً منحىً مشاغباً، إذ كان بعضهم يحاول القفز، مساء، فوق سور المدرسة في الأيام الدراسية، ليُنجِز موعداً ما، يعود بعده في ساعة متأخّرة إلى المهجع، وفي غفلة مني، وبالتنسيق مع بعض رفاقه! وكان الأب

"أنطون المعلم" يرى في ذلك أمراً طبيعياً، لا يستدعي معالجة قاسية، بقدر ما كان يستدعي حواراً هادئاً ومنطقيّاً. ولم يكن دائماً مخطئاً، إذ كان الطلاب سريعي التجاوب. وإني لأذكر ليلة مرض فيها أحدهم، وكان من مرجعيون ووحيداً لأهله، واسمه جميل. وساء وضعه فجأة، فحملناه في سيارة إسعاف إلى مشفى قريب من المدرسة، كان يملكها طبيب من آل الخوري. وأخبرَنا الطبيب المختص أنّ القلب عرضة لاضطراب كبير، لا يُعرف سببه بعد، وأن نبضاته في ارتفاع مضطرد. وارتأى الأب "المعلم" ألا نخبر أهله، قبل مضي أربع وعشرين ساعة، وكان على علاقة طيبة مع صاحب المستشفى. يومها انتزعت من صدري ذخيرة عود الصليب، التي كان أبي قد قدّمها لي يوم سيامتي الكهنوتية، ووضعتها في عنق "جميل"، ثم صلّينا معه وعدنا إلى المدرسة ليلاً. وصباح اليوم التالي، كان وضعه على حاله، واستمر اضطراب القلب، بين تصاعد النبضات وانخفاضها على نحو متواتر. وآثرنا ليلتها أيضاً ألا نخبر الأهل. وفي صباح اليوم التالي، كانت الأمور تميل إلى الهدوء، واستمرّت الحال في تحسّن، حتى خرج "جميل" من المستشفى، إلا أنني لم أرَ بدّاً من ترك ذخيرة عود الصليب في عنقه!

وهنا يطيب لي أن أذكر فيلماً فرنسيّاً شاهدته في إحدى صالات السينما، ذات يوم، مع بعض الطلاب الداخليّين، وكان عنوانه "خطيبة القرصان"، وكان موضوعه يدور حول "مُدرِّسة" فتيّة، قَدِمت إلى إحدى القرى في فرنسا، والمنافسة الشنيعة التي حلّت بين رجال القرية، للظفر ببعض الحب من الصبية، وإذ بالقرية كلّها تتحول إلى ما يشبه حديقة للحيوانات. ولم يكن في الموضوع جديد يُذكر. إلا أنّ الجديد حقّاً كان الفيلم الوثائقي الطويل، الذي عرضته الصالة نفسها، قبل عرضها الفيلم المعلن، وكانت مدته نصف ساعة. وأما موضوعه فكان حقّاً حديقة حقيقية لأخطر الحيوانات، من أفاعٍ وأسود ونمور ودببة وسواها، وقد جمعها كلّها معاً، فريق من العلماء الأميركيين، ودأبوا على التعامل معها جميعاً تعاملاً محبّاً، يبدأ بالنظر إليها طويلاً بمودّة، وبالتفكير فيها بمودّة، وبملامستها بمودّة، بحيث باتت الحيوانات، كما كان هؤلاء العلماء يشرحون، تلتقط ما كان فكرهم ونظرهم يحملان لهم من مودة حقيقية، خالية من أي خوف وأية عدوانية، وتنقلها لهم ملامساتهم اللطيفة براحات أيديهم! والأدهى من كل ذلك، أنّ هؤلاء العلماء نجحوا في نقل هذا التعامل الودود إلى الحيوانات أنفسهم فيما بينهم!... وقد ظلّت بعض مشاهد هذا الفيلم الوثائقي محفورة في ذاكرتي حتى اليوم!

وإلى ذلك، كانت بيروت تتيح لي فرصةً غنية، لاقتناء كتب باللغة الفرنسية للعديد من الكتاب الأجانب، مثل دوستويفسكي وتولستوي وغوغول، كما كنت أحياناً أقتني

بعضاً من الكتب التي كان بعض الشبّان يقرأونها، فتسبّب لهم بعض التساؤلات أو الصدمات، فأقرأها بدوري عساني أزداد قدرةً على فهمهم ومساعدتهم. وكان كل ذلك، يبتلع الكثير من ساعات نومي. وكنت أجد كل ذلك أمراً طبيعيّاً. وما كنت لأتردّد بين حين وآخر، من السهر حتى الصباح، عندما كانت تتراكم لديّ أوراق الامتحانات، كي أنجز منها في الوقت المطلوب، ما يجب إنجازه. وبعد ذلك، كنت أمضي إلى الحمام، وأعود إلى غرفتي لأرتدي ثيابي، ثم أصلي، ريثما يحين موعد إيقاظ الطلاب الداخليّين. وبعد ذلك، كنت أهبط إلى الملعب الكبير، أرقب مجيء الطلاب، ومن ثمّ، بعد قرع الجرس، أنظّم الصفوف. وإذ بي أدخل في وتيرة يوم جديد، وكأنّ شيئاً لم يكن...

ولكأن كل ذلك لم يكن ليرويني، أو ليروي نهمي إلى العطاء، فكنت، كلّما أُتيحت لي فرصة عيد، يغيب فيه الطلاب الداخليّون عن المدرسة، أسارع إلى الذهاب إلى رياق، أستعيد في الدير بعض الذكريات، وأدرّب العديد من الطلاب، الكبار والصغار على السواء، على الترنيم البيزنطي. بل جاء يوم التزمت فيه مع إدارة الدير، بالحضور مرتين كلّ شهر إلى رياق، بعد الظهر، على أن أعود في المساء نفسه إلى بيروت! كان كل ذلك مصدر فرح لي، إلا أنّه كان أيضاً مصدر إرهاق، لم ألحظه بادئ الأمر.

كما أني كنت أهوى العودة إلى دمشق، ولو ليوم واحد. وما كنت أتورّع عن السفر ليلاً، خصوصاً مساء السبت، حتى في قلب الشتاء، كي أنعم بجو البيت، ولو لساعات قليلة، وكأني بذلك كنت أعوّض عمّا كنت حُرِمته طوال السنوات السابقة، من دفء عائلي. وكان والدي في ذلك الوقت، طريح الفراش في البيت منذ قرابة سنة، بفعل سقطة حدثت له على عتبة الكنيسة، لا سيما وأنه كان يشكو من ضعف في عينيه. إلا أنّ خبر وفاته فاجأني مساء 7 آذار من عام 1960، فسارعت إلى دمشق، ولكن بالطبع على غير لهفتي! كلّ ذلك كان له ثمن. فقُبيل نهاية العام الدراسي 1960–1961، بدأت أشعر بوطأة شديدة من الإعياء، لم أكن لأرتاح منها، لا ليلاً ولا نهاراً. بالطبع، لم أُخفِ الأمر على الأب "المعلم"، وكان هو، من جهته، قد لاحظ شيئاً من ذلك، فاستعجلني لمراجعة أحد الأطباء. فوصف لي فترة من الراحة، وشدّد على ضرورة الالتزام بها، مع بعض المهدّئات. وكانت العطلة الصيفية قد باتت قريبة!...

وربّ سائل يسأل: وأين "البرادو" من كل ذلك؟ هل تراه تبخّر في خضم هذا النشاط، الكثيف والمبعثر؟ والصحيح أن العكس هو الذي حصل، ولم يكن البتة من تدبير أحد منّا، من "هواة البرادو" السابقين في القدس. ذلك بأنّ طالب لاهوت فرنسي، يدعى "بيير هومبلو" (Pierre HUMBLOT)، كان قد أُرسل من قِبَل "جمعيّة البرادو" إلى بيروت، في مطلع عام 1960–1961 الدراسية، كي يدرس اللاهوت في كلية الآباء اليسوعيين في بيروت،

ويحسّن لغته العربية. وكان يزورني في المدرسة بين حين وآخر. وعلمت منه أنه استطاع أن يثير اهتمام بعض طلاب اللاهوت لدى اليسوعيين، من الموارنة. وكنت كثيراً ما أتبادل الرأي معه، بشأن ربط هؤلاء الطلاب الموارنة، بالحلقة التي أخذت تتكوّن من طلابنا في القدس. وبمرور الوقت، برزت لدينا فكرة دعوة أحد المسؤولين في "برادو" فرنسا، كي يأتي إلينا ويحيي لنا أسبوعين أو ثلاثة من الأحاديث، حول روحانية الأب "شفرييه". وكانت التساؤلات لدى المسؤولين في كنيسة الروم الكاثوليك، أخذت تنتشر شيئاً فشيئاً، بين مُعارِض، مثل المطران "غريغوار حداد"، أسقف بيروت، ومؤيّد مثل المطران "مدوّر" مستشار البطريرك. وقد حاولت مرتين أو ثلاث، أن أفتح حواراً بهذا الشأن مع المطران "غريغوار"، إلا أنه كان سرعان ما يقطعه برفضه الصريح لأي فكر يأتينا من الغرب، مخافة أن نزداد غربةً فوق غربة. وقد استعنت بالمطران "مدوّر"، لكي يمهّد لي لقاء مع البطريرك، أملاً منّا بموافقته على دعوة مسؤول من "البرادو". وكان لي لقاء مع البطريرك، وبيّنتُ له ما قد تقدّمه لنا روحانية البرادو، من تجرّد وروح جماعية وتوجّه إنجيلي، ما لا يسعنا أن نرفضه مسبقاً، لمجرّد كونه نابعاً من الغرب، ولتغاضينا عن مصدره الأساسي، الذي هو يسوع، وفقط يسوع! وإذ بالبطريرك يتجاوز كلّ توقّعاتي، فيقدّم لي اقتراحاً ما كنت لأحلم به: أراد أن يقام لقاؤنا الأول مع "الكاهن البرادوزي"، في مركزه الصيفي في عين تراز، في الوقت الذي يناسب ضيفنا ويناسبنا، كي يتسنّى له أن يحضر ما أمكنه من اجتماعاتنا، وفي ختامها يتّخذ قراره! وكان اقتراحه أكثر من رائع، فحسم بذلك كل نقاش، مؤيد أو معارض، وملأ أشرعتنا بروح قوية!

وتمّت الاتصالات مع "جمعيّة البرادو"، بعد أن أخبرت "بيير هومبلو" بقرار البطريرك. وقد شئنا معاً أن يكون هذا اللقاء الحاسم وقفاً على شمامسة الروم الكاثوليك القادمين من القدس، على أن نفكّر في فترة لاحقة، بلقاء آخر يجمعنا مع الأب "آنسل"، وجميع الراغبين في تبنّي هذه الروحانيّة، من شمامسة الروم الكاثوليك والشمامسة الموارنة. وجاءنا الخبر من "جمعية البرادو" بتكليف الأب الفرنسي "روبير بوفري" (ROBERT BEAUVERY)، بإحياء هذا اللقاء الأول في عين تراز، في صيف عام 1961. وقد اشترك فيه عدد من الكهنة والشمامسة، لا يقلّ عن العشرة. وكان البطريرك يومها في الثالثة والثمانين من العمر. وعلى الرغم ممّا كان لديه من مسؤوليات ومهام كثيرة، كان يحرص على حضور أكثر الجلسات، ولا يغادر القاعة إلا في نهاية الجلسة. وكان في الغالب، هو يفتتح ويختتم الجلسات بالصلاة. وجاءت الجلسة الأخيرة، وكنّا كلّنا حاضرين بكامل عددنا، وكان البطريرك على رأس الطاولة. وكنا بالطبع نرقب بقلق ما عسى أن يكون

قراره. ولَكَم فاجأنا في ختام هذه الجلسة، عندما قال بنبرته الصريحة والجازمة: "يا أولادي، أباركم وأبارك مشروعكم الجديد. عساه يحمل الخير الكثير للكنيسة في الشرق!. في بادئ الأمر، كنت أتخوّف من هذا الجديد القادم من الغرب، ولكني الآن مطمئن، لأنه ينبع من الإنجيل، ولا يمكنه إلا أن يخدم الإنجيل!". قالها بالعربية، ثم توجه بكلمة شكر باللغة الفرنسية، خصّ بها الأب "بوفري" و"جمعية البرادو"...

وهل تُراني أذكر كاهناً آخر، تقدّمت به السن، وكان مشهوراً بعظاته، هو الأب "تيوفانوس شار"؟ كان في إجازة طويلة في المركز البطريركي في عين تراز. وقد أحبّ مشاركتنا هذه اللقاءات كلّها مع الأب "بوفري"، ليرى ما الذي يفكّر فيه هؤلاء الكهنة الشبان؟ وإني لأذكر متردّداً ما قاله لي على حدة، إثر انتهاء البطريرك من كلمته. قال: "أبونا الياس، عندما سمعتك تنشد بصوتك الجميل، خشيت عليك، لأن الصوت الجميل عادة يذهب بعقل صاحبه. ولكني، عندما سمعتك خلال هذه اللقاءات، تُبدي آراءك، اطمئنّ قلبي!". ثم قبّلني ومضى. وكان هذا آخر لقاء لي معه!...

ولا إخالني أبالغ إن قلت أن لقاءنا هذا بالأب "بوفري"، في المركز البطريركي في عين تراز، وبحضور دائم للبطريرك، كان المنطلق الحاسم والداعم، لجماعة "البرادو" في الشرق.

ومضيت إلى دمشق، حيث عاودت قليلاً من النشاط، وسعيت إلى شيء من الراحة. إلا أن الأجواء العامة في دمشق خاصة، وفي سورية عامة، لم تكن مريحة. وكانت الأقاويل تتفاقم حول بروز نوع من الطائفية، يبثّها بعض المسؤولين المصريين، حتى في قلب دواوين وزارة الداخلية. وأخذت الألسن تحكي أموراً مقلقة، حول إجراءات التأميم، والإصلاح الزراعي، المرتجلة، وحول ضغط أجهزة المخابرات، وخصوصاً حول احتمال استيطان عشرات الألوف من الفلاحين المصريين، في مناطق الجزيرة السورية... وأخذت صورة عبد الناصر تهتزّ في ذهني، وفي أذهان الكثيرين. وجاء يوم وجدتني فيه أنتقد عبد الناصر علناً، في أحد البيوت، وبحضور شاب يدعى محمود، كان أهله أصدقاء أهلي، وكان هو وأخوه هلال، صديقين لي... وإذا بالأصدقاء، الذين كنت في زيارتهم، يتّصلون بي بعد يوم واحد، ليسألوني الامتناع عن انتقاد عبد الناصر، وذلك باسم صديقي محمود، وإلا اضطر لكتابة تقرير بحقي!

تلك كانت الأحوال، عندما فوجئ الناس بانقلاب الثامن والعشرين من أيلول عام 1961!

وبعد أيام قليلة، مضيت إلى بيروت. وبدأت السنة الدراسية الجديدة، دون أن يتغير شيء يذكر، في نمط العلاقات على صعيد الإدارة، ولا في وتيرة العمل اليومية. وكان تعبي في تفاقم. والذي زاده ثقلاً، أني لم أجد مبرّراً لوجودي ككاهن، في مؤسسة لا

مكان فيها يُذكر ليسوع، الذي وقفت له حياتي، لا في الصلوات السريعة، المقامة نادراً في كنيسة المدرسة، ولا في دروس التربية المسمّاة مسيحيّة. وكان شعوري بالغربة يرهقني، فضلاً عن شعوري بالعجز عن تغيير أي شيء في هذه الآلة الكبيرة، المسمّاة مدرسة. والأمر الوحيد الذي كان يعطيني بعضاً من التبرير لوجودي في هذه " الآلة"، هو الصداقات التي وفّقت إليها في علاقاتي مع العديد من المدّرسين، وجميع الخدم، وعدد كبير من الطلاب. ولَكَم كنت أرتاح عندما كان هذا أو ذاك، يأتيني ليحمّلني، بكل ثقة ومحبة، همومه الشخصية، من عاطفية أو دراسية، وأحياناً هموم أهله. وإلى ذلك، كنت أجد بعض الراحة كلّ مساء، في اللقاء مع الأب "المعلم" في مكتبه...

وفي هذه الأجواء غير المريحة، كنت أرتاح إلى اللقاء بالشماس "بيير هومبلو"، الذي كان يزورني بين حين وآخر، ليطلعني على أحوال بعض الشمامسة الموارنة، الذين أُخذوا بفكرة "البرادو". ونتبادل الرأي بشأن احتمالات المستقبل، داخل هذه المجموعة في ذاتها، ومن حيث علاقتها بالمجموعة التي عقدت اجتماعها في "عين تراز" مع الأب "بوفري"، في الصيف السابق. وكان يلحّ على دعوتي لزيارته في دير الآباء اليسوعيين، أملاً منه في نشوء تعارف بيني وبينهم، أو بين بعضهم، لا يمكنه إلا أن يُفضي إلى ما هو إيجابي. وبعد إلحاح منه، استجبت لرغبته، فوجدتني أمام مجموعة من الشبان، حقّاً واعدة وواعية.

وقد كان للشماس "بيير همبلو"، فضل كبير في جذب عدد لا بأس به من طلاب اللاهوت الموارنة، إلى روحانيّة "البرادو". ولقد كان منه بعد سيامته الكهنوتية في فرنسا عام 1962، أن عاد إلى لبنان، بتشجيع من مسؤولي "البرادو"، ليمضي فترة زمنية فيه، فاختار أن يقيم في حي "الكرنتينا" الشهير، كما أنه عمل عتّالاً في مرفأ بيروت، وكان له من جسمه العملاق ما يمكنه من العمل في هذا المجال القاسي. وقد تحوّل كوخه المتواضع في الكرنتينا إلى ملتقى صلاة وفكر للكثيرين من أصدقائه من أبناء هذا الحي، ومن طلاب اللاهوت الموارنة. وقد نعم بتأثير واسع على جميع من عرفه، لا سيما من المسؤولين الكنسيين، وكان على رأسهم مطران بيروت للموارنة، "اغناطيوس زيادة". وجاء يوم طلب فيه المطران "زيادة" من الأب "همبلو"، أن ينظّم لكهنته وشمامسته، دورة تثقيفية وتعريفية بروحانية "البرادو". وقد عُقدت هاتان الدورتان في اليرزة، في صيف عامي 1963 و1964، وقد أحياهما كاهنان قَدِما من فرنسا، هما "روبير بوفري" و"جان ديفورج". ويطيب لي أن أذكر بين المشاركين في هاتين الدورتين، الشمامسة آنذاك: أنيس أبي عاد، انطوان مقصود، جورج اسكندر، حليم ريشا، مكرم قزاح، نبيل الحاج. وقد شارك في الدورة الثانية، من كنيسة الروم الكاثوليك، الآباء يوحنا جاموس وسليمان سمور وإيلي كترا.

وفي تتمّة للحديث عن نشأة "البرادو" في الشرق، يسعدني أن أضيف أن أهم ما حدث بهذا الشأن، كان دون شك مجيء الرئيس العام آنذاك، الأب "الفريد آنسل". وقد خصّ هذه الزيارة بشهر كامل تقريباً، ما بين 27 حزيران و24 تموز من عام 1965، قام خلالها بلقاء الكثيرين من المسؤولين الكنسيين، في لبنان وسورية، كما أحيا بنفسه دورة روحية، شارك فيها اثنا عشر كاهناً، وخمسة عشر طالب لاهوت، من مختلف الكنائس، وقامت في دير القدّيسة حنّة في رياق، ما بين (5) و(10) تموز.

وفي عودة إلى ما كنتُ عليه في المدرسة في بيروت، وجدتني عام 1961–1962، مضطرّاً على مضض، للامتناع عن الذهاب إلى رياق، وللتخفيف من الذهاب في رحلات سريعة إلى دمشق... كما أني امتنعت عن الاستجابة للكثير من الدعوات التي كانت توجّه إليّ من بعض المدارس في بيروت. وأخذت أشعر، بدءاً من منتصف العام، بما بدا لي حالة من الحزن الشديد، نتيجة إحساسي بأن كل هذا الذي أعيشه وأحبه وأضحّي من أجله، سأتخلّى عنه قريباً، دون أن أكون قدّمت له شيئاً يذكر، ودون أن أرى في الأفق ما من شأنه أن يبدّله نحو "الأفضل"! وكنت بين حين وآخر، كلّما اشتدّ بي الضيق أمضي إلى بكفيّا، لألتقي مرشدي السابق، الأب "بوديه"، إذ كان يومها يَدرُس اللغة العربية في معهد الآباء اليسوعيين هناك. وكنت، كالعادة، أفاتحه بجميع الأمور التي كنت أواجهها. ولَكَم كنت أرتاح كلّما كنت ألتقيه. ولقد شدّد عليّ كي لا أتراجع عن استقالتي في آخر العام.

وقبل أن أغادر بيروت بأيام قليلة، شعرت بالحاجة للكتابة، ففعلت. ثم حملت المقال، وكان بعنوان "أجمود أم تجميد؟"، لصديقي الأب "جورج فاخوري"، وكان آنذاك مديراً لمجلة المسرّة، وكنت دائماً أُكبِر فيه جرأته وتجرّده. فقرأه دفعة واحدة. ثم حدّق فيّ طويلاً، وقال: "قوي جداً. كل ما جاء فيه صحيح. أهنئك للمضمون واللغة... ولكني لا أستطيع نشره!". صدمني باعترافه، على ما كان معروفاً عنه من جرأة خارقة. وبعد أخذ وردّ، قلت له: "أتركه لك! وقد يأتي يوم تنشره فيه!". وخرجت حزيناً جداً. ولم يخطر ببالي يومها، أن أحمل نسخة من هذا المقال... وكان أن نشره في عدد مجلة "المسرّة" إيّاها، في كانون الأول من عام 1966.

وفي السادس من تموز عام 1962، قابلت البطريرك في دمشق. وصارحته برغبتي في الاستقالة من المدرسة البطريركية ببيروت. ولكنه رفضها بإصرار. فأوضحت له دون مواربة، ما يدفعني لهذه الاستقالة، بعد ثلاث سنوات، لم أبخل خلالها بشيء. واتّضح لي أنّه يجهل الكثير ممّا كان يجري داخل المدرسة. وأكّدت له قدرتي على تبيان الأسباب الموجبة لهذه الاستقالة، في وقت قريب. وفي الليلة ذاتها، كتبت له رسالة شئتها

باللغة الفرنسية، لسبب يخفى عليّ اليوم. وقد أوضحت فيها بالوقائع، ما يُضطرّني للانسحاب من المدرسة. وحرصت على ألا أجرح أحداً فيها، لعلمي بأنّ هذه المؤسسات الكبيرة، كثيراً ما تنوء بمشاكل تتراكم عبر السنوات، فلا يعود إصلاحها ممكناً، حتى على أكثر الناس إخلاصاً للرسالة التربوية. وقد افتتحتُها بالعبارات التالية:

« صاحب الغبطة،

إليك النقاط التي أثرناها بالأمس. مرة أخرى، أودّ أن أكرّر قولي لك بأنّ منطلقي يظلّ هذا: إنّ المدرسة رسالة، لا بيت للتجارة.

ما من فكرة مبيّتة تحرّكني. وحدَه حبّي لزميليّ الكاهنين ولطلاب المدرسة، يبرّر عملي هذا... »

وكانت الرسالة تشتمل على خمس نقاط، فكنت أطرح المبدأ المتعلّق بكل نقطة ثم أبدي مآخذي.

وكانت النقاط الخمس: 1) الناحية الروحية - 2) الناحية الدراسية - 3) الناحية الإدارية - 4) الناحية النفسية - 5) الناحية المادية...

وقد تحاشيت عمداً موضوع الرواتب، إذ ختمت رسالتي بهذه العبارة:

"أما موضوع الرواتب، فإني أسقطه".

وليُسمح لي بأن أذكر أني كنت يومها أتقاضى، إن لم تخنّي ذاكرتي، ثلاثمائة ليرة لبنانية.

هذه الرسالة، حملتها للبطريرك، في اليوم التالي الموافق 7 تموز، وإني لأحتفظ بنسخة منها كتبتها بخط يدي. ولسوف أضمّها إلى ملحق هذا الكتاب، في ترجمة عربية أمينة.

وهنا لا بد لي من أن أعترف بأنّ البطريرك بذل محاولة أخرى لثنيي عن قراري. فوجدتني أقول له وأنا أحدّق في عينيه: "سيّدنا، هل تتحمّل مسؤوليّة ضياعي؟". طرحتُ السؤال تلقائيّاً، وأنا نفسي متفاجئ بسؤالي. إلا أنّ هذا السؤال كان يعبّر في الحقيقة، عمّا كنت أتوجّس منه بكل صدق. وأذكر أنّ البطريرك عاد فنظر إليّ طويلاً. ثم قال: "لا! يا ابني!".

وبعد بضعة أيام، سألني البطريرك عن رغبتي في تعييني القادم. فما تردّدت لحظة في إبداء رغبتي الصريحة في المضي إلى دير الآباء البيض في رياق، "كي أرمّم، كما قلت أيضاً للبطريرك، روحي وجسدي"، وكذلك بقصد أن أردّ للدير بعض ما كان قد قدّم لي.

وأخبرت أمي وإخوتي بذلك. فكانت كلمة أمي لي، على عادتها:

"العدرا تمشي معك!".

الفصل الثامن

في دمشق: إنهم يقولون!

ماذا يقولون؟... دعهم يقولون!...

أعرف أنّ أحداً لن يصدّق ما سأرويه الآن. إلا أنّه قد حدث.

يوم (15) آب من عام 1962، أقام البطريرك مكسيموس الرابع الصائغ قداساً احتفالياً في الكاتدرائية، تكريماً للأب "إيلاريون كبوجي"، إذ كان يومها سيغادر دمشق، بعد سنوات خدمته الطويلة فيها وفي ريفها، ليعود إلى ديره في لبنان. فاجتمع لوداعه، بعد القداس، في إحدى القاعات الكبرى، جميع الكهنة تقريباً، وعلى رأسهم البطريرك والمطرانان، "بطرس مدوّر"، و"يوسف طويل"، وكان آنذاك نائباً للبطريرك. ولما خرج الجميع، استدعاني البطريرك، وقد ظلّ وحيداً في القاعة. وقال لي على الفور، دون مقدمات: "يا ابني، بذلت كل جهدي لأعيّنك عند الآباء البيض في رياق، حسب رغبتك. ولكن تبيّن لي أننا بحاجة إليك في دمشق، من أجل "خورس" (جوقة) الكاتدرائية، وتدريس الديانة المسيحية في بعض المدارس". فشكرته وأبديت استعدادي التام لأية خدمة. وإذ كنت أهمّ بالخروج، قال لي البطريرك: "أرسل لي الأب فرنسوا". فخرجت وأوعزت إلى الأب "فرانسوا أبو مخ" بمراجعة البطريرك. فما هي إلا دقائق، حتى خرج الأب "فرانسوا" يدعوني لمراجعة البطريرك. فدخلت مجدّداً لمراجعة البطريرك، وما إن وصلت إليه، حتى فاجأني بقوله: "يا ابني، راح نبعتك إلى رياق، حسب رغبتك!". فاستولى عليّ الغضب، وقلت بصوت عالٍ بالحرف الواحد: "سيدنا، أنا باقٍ في دمشق! نعم، أنا باقٍ في دمشق، خلافاً لرغبتي! أنا لست كرة قدم تتقاذفني أنت والأب فرانسوا! من لحظات قلتَ لي حاجتكم إليّ في دمشق. وفي دقائق قلب الأب "فرانسوا" رأيك! أنا باقٍ في دمشق". فصمت البطريرك، ثم قال: "أرسل لي الأب "فرانسوا"، وتعال معه!". فخرجت واستدعيت الأب "فرانسوا"، ودخلنا معاً حيث البطريرك. فقال البطريرك موجّهاً كلامه للأب "فرانسوا": "الأب الياس باقٍ في دمشق، وسيكون عندكم في المدرسة". فقاطعت البطريرك فوراً: "أنا هربت من المدرسة البطريركية في بيروت، ولست راغباً

بالعمل في المدرسة البطريركية في دمشق". فقال الأب "فرانسوا" بحدّة: "ولا أنا أقبلك عندي!". قلت: "ومن قال أني سأقيم عندك أو أعمل معك؟ أنا ابن البطريركية، والابن أولى ببيت أهله! بيتي هو البطريركية!". فنظر البطريرك إلى كلينا، وقال: "حيّرتوني!". فقلت جازماً: "أنتم من حيّرتموني! سيّدنا، ما الذي غيّر رأيك بين لحظة وأخرى؟". وخرجت...

هل مَن يصدّق؟ يؤلمني جداً أن أورد مثل هذا الموقف الشخصي، يبدر من بطريرك كان بكل المقاييس، كبيراً!...

كان عملي الرسمي ينحصر في الاهتمام بجوقة الكاتدرائية، وتدريس الديانة المسيحية في مدرستين للبنات: مدرسة المعونة الدائمة، ومدرسة راهبات البيزنسون، وهي تابعة للبطريركية.

إلا أني كنتُ مصمّماً على تخصيص معظم وقتي للشبيبة، دون تصوّر مسبق لهذه المسؤولية.

في نطاق الجوقة، التقيتُ أوّلاً الراهبة المسؤولة، وكانت من راهبات مدرسة البيزنسون، وتدعى "آن" (Anne). وكانت لبنانية، فتية وجميلة، وصاحبة صوت رخيم. تحدّثنا في شؤون الجوقة. وتبيّن لي ضرورة الإمساك بمقاليدها بيديّ الاثنتين، على أن أتّفق مع المطران "يوسف الطويل"، بحضور الراهبة، على الشروط الزمنية والمادية لعمل الجوقة، كي نلتزم ببرنامج واضح، بعيد عن أية ارتجالات عانت منها الجوقة في السابق، ونحدّد مكافأة سنوية للجوقة، صريحة وواضحة، لا لَبس فيها، كي لا يتكرّر ما كان يحدث في الماضي. وبعد ذلك، التقيت المطران طويل بحضور الراهبة نفسها. وكان الحديث في غاية الصراحة، ووضعنا معاً النقاط على الحروف. وعندما غادرنا مكتب المطران، التفتت إليّ الراهبة بارتياح واضح، وقالت: "خَي، انت بتعرف حقوقك وحدود غيرك!". واتفقت معها على موعد التدريبات، بُعيد بدء السنة الدراسية. كما أني أجريت الاتصالات مع فوج المرتلين، الذين كانوا يتدرّبون في السابق مع طالبات المدرسة، ويشتركون معهنّ في الخدمات الكنسية في الكاتدرائية.

ثم التفتّ إلى موضوع التدريس في مدرستَي المعونة والبيزنسون. فالتقيت الراهبتين المسؤولتين فيهما، وعرفت منهما ما تتوقّعان مني، في كلتا المدرستين، على ثلاثة أصعدة: أولاً، ساعات وصفوف التدريس، ثانياً، المواد المطلوبة، ثالثاً، التوجيه الروحي، من صلاة جماعية وترنيم ولقاءات شخصية. وعندما استوضحت كل شيء، قررتُ

السفر إلى القدس، لأمضي هناك أسبوعاً في الدير، أنصرف فيه إلى تحضير برنامج تعليم ديني جديد، للصفوف العليا، أحاول فيه فتح العقول والقلوب على جميع الديانات والتيارات الإلحادية، كما أعالج فيه قضايا كبرى، مثل التقارب بين الأديان، والعلاقة بين العلم والدين، وظاهرة تطور الإنسان...! الخ... وفي الواقع مضيت إلى القدس، حيث قضيت أسبوعاً، عدت بعده بالخطوط الكبرى، لما أصبح بعد ذلك برنامجاً متكاملاً ومكتوباً، طبعته بيدي على الآلة الكاتبة، ووضعته في متناول كل طالبة من الصفوف العليا، في كلتا المدرستين.

إلا أني قبل أن أذهب إلى القدس، شئتُ أن أضمن قاعدة وشروط العمل، الذي أردت أن أخصّ به الشبيبة في دمشق، أيّاً كان انتماؤها الديني أو الاجتماعي أو الثقافي... فقابلت البطريرك، وشرحت له ضرورة وضع مكتب خاص تحت تصرّفي... فاستغرب الأمر، وبعد أخذٍ وردّ، وافق على وضع مكتب في تصرّفي، يشاركني فيه أحد الكهنة المتنفّذين في البطريركية!... وأخيراً وافق على منحي مكتباً لا يكون فيه سواي، وأنعم فيه بخط هاتفي خاص، يتيح لي التواصل مع من يقصدني من شبّان وشابّات، أو سواهم. وكان هذا المكتب يُطِل على الباحة الكبرى، والمدخل الرئيسي في الدار البطريركية، وله باب خشبي قديم، قرّرت أن أبقيه مفتوحاً طالما أنا فيه، كي أغلق الأفواه الكثيرة... وعلّقت فيه صورة جميلة لغاندي. وفيما كنت أبحث عن شعار أعلّقه في مكتبي، سمعتُ برنامجاً من إذاعة دمشق، ذُكِرت فيه جملة للكاتب البريطاني "جورج برنار شو"، استرعت انتباهي، واتخذتُها على الفور شعاراً لي، وقد جاء فيها: "إنهم يقولون! ماذا يقولون؟... دعهم يقولون!..." وسرعان ما استدعيت أحد منشدي الجوقة، وهو خطاط يدعى سهيل ميدع، فخطّ لي هذه الكلمات بأحرف جميلة. وعلّقت هذه اللوحة في المكتب، حيث ظلّت حتى رحيلي منه بعد سنوات!

وكنت أقيم في البطريركية، وأتدبّر أمور الطعام، إمّا في بيت أهلي، وإما في البطريركية، أو أكتفي بسندويشة فلافل مسائية عند الضرورة. وكانت الأيام تطوي بعضها في وتيرة لا تهدأ. وكثيراً ما كنت في المساء، أكتب يومياتي، وأسرق من ساعات النوم، مدى للقراءة. أما قراءاتي، فكانت تتّسع باتساع مكتبتي العربية والفرنسية، التي كنت أغنيتُها خلال إقامتي في بيروت، بالكتب الفرنسية، وأغنيها في دمشق، بما أراه ضرورياً من كتب عربية، تنطلق من التاريخ العربي، مثل كتب "فيليب حتي" و"أحمد أمين"، و"جرجي زيدان"، وتنتهي ببعض أحدث نتاجات وزارة الثقافة والمطابع العربية. ويومها كانت الكتب رخيصة للغاية!

وكان لي، في كلٍّ من المدرستين، غرفة صغيرة أستقبل فيها، على حدة، أية فتاة، صغيرة كانت أم كبيرة، تودّ أن تطرح سؤالاً شخصيّاً ما. وما كانت، في بادئ الأمر، مثل هذه اللقاءات واردة. إلا أنّ العديد من الأسئلة بات يطرح، بمرور الوقت، وبفعل النقاشات التي كانت تدور داخل دروس الديانة. وأخذت العدوى مجراها إلى الكثيرات. وكنت في كل ذلك، حريصاً على عدم إغلاق الباب، وعلى الإبقاء على "المسافة" التي تعلّمتُ أن أقيمها في القدس، بيني وبين كل من كان يقصدني. كما أنه تبين لي بسرعة، ومن ثمّ على مدى السنوات اللاحقة، أن مثل هذه "المسافة" ضرورية أيضاً بالنسبة إلى جميع الراهبات، عربيّات كنّ أم أجنبيات.

وتشكّلت في كل من المدرستين، مجموعتان هنا وهناك، من طالبات الصفوف العليا، بتنَ يعقدنَ اجتماعاً أسبوعياً، يتداولنَ فيه مناقشة بعض القضايا، الدينية والأخلاقية والاجتماعية. وقد كُلّفتُ برعاية هاتين المجموعتين. وما أن بدأت السنة الدراسية الجامعية، حتى بادر بعض من الطلاب والطالبات الجامعيّين، ينتمون إلى حركة "الشبيبة الطالبة المسيحية"، ليسألوني أيضاً رعاية اجتماعاتهم الأسبوعية المختلطة. وكنت دائم الترحيب بمثل هذه المبادرات، وأحرص كلّ الحرص، لا على عدم التغيّب عنها وحسب، بل على تحضير المواضيع المطروحة بعناية. ولَكَم كنت أُنبّه في جميع هذه الاجتماعات، إلى أهمية الإصغاء، بعيداً عن أي لغط، وأشجّع الكثيرين على الكلام، وأحثّهم كلّهم على المطالعة الجادّة، بل على الكتابة، لا سيما وأنّ هؤلاء الجامعيّين كانت لهم مجلة صغيرة، يصدرونها دونما انتظام، تحمل اسماً واعداً هو "الرابطة الدمشقية". وكان أن ساهمت معهم في مقالين لي صدرا في عددين مستقلين من هذه المجلة، عام 1962، أولهما بعنوان "ما بين الحرية والتحرر"، والثاني بعنوان "دانيلو دولتشي، غاندي صقلية".

أما تدريبات الجوقة، فكانت تُقام مرتين في الأسبوع، في مدرسة راهبات "البيزنسون"، بعد انتهاء الدوام الرسمي، بحضور البنات من مختلف الأعمار، والشبّان معاً. وكان كلّ تدريب يتواصل ساعة واحدة، دونما توقّف. وكنت دائماً ألحّ على وجود الراهبة المسؤولة، لغرضين، أولهما المشاركة التربوية في رعاية الجوقة، ثانيهما تعلّم الألحان التي كنت ألقّنها للجوقة، كي تستطيع قيادتها في حال تغيّبي. وكنت، كما كنت أهوى وأفعل في القدس، أمنح الأولوية للألحان العربية، وأسعى جاهداً للحصول على المزيد من الألحان العربية، كي تحلّ محلّ ما كانت الجوقة، في ما مضى، تهوى ترنيمه من ألحان يونانية. وكنت كلّما لاحظت تفضيلاً صريحاً منهم للألحان اليونانية، أذكّرهم بأمر

بديهي، وهو أننا كلّنا عرب وسوريّون - وإن كان بين الصبايا ثلاث عشرة أرمنيّة أرثوذكسيّة، وكنّ متميّزات حقّاً بأصواتهنّ وأخلاقهنّ! - وأنّ جمهورنا جمهور عربي وسوري، وأنّ أحداً منهم جميعاً لم يكن يفقه ولا كلمة واحدة يونانية. وكنت أعترف لهم بأنّ الألحان اليونانية تفوق الألحان العربيّة، جمالاً وسبكاً، تفوّق الأصيل على البديل، وذلك بسبب عراقتها من جهة، وتطابق مخارج الصوت فيها مع النغم من جهة ثانية. وكنت أعترف لهم بأنّ الإنسان يهوى بطبيعته، ما ألف سماعه منذ طفولته، حتى لو لم يكن جميلاً، بل حتى لو لم يفهمه، ذلك بأن في ألحان الماضي شحناتٍ من ماضي الإنسان، ليس من السهل عليه اكتشافها، ولا التخلي عنها. وما كنت أتردّد لأؤكد لهم، أنّ تلك هي حالنا في جميع الكنائس البيزنطية، سواء كانت أرثوذكسية أو كاثوليكية. وما كنت أريد لهم، وأنا أحاول تلقينهم الألحان العربية، أن يخفى عليهم مثل هذا الأمر، بل كنت أريد لهم أن يدركوا أنني وإيّاهم في معركة واحدة، وأنّ عملية التعريب هذه صعبة للغاية، وتحتاج إلى بُعد نظر، وإلى إيمان وصبر كثير، وإلى ألحان جديدة وأصيلة. كلّ ذلك، ما كان طي الكتمان، وكنت أصارح به، أوّل من أصارح، بعد أفراد الجوقة، الكهنة والمؤمنين في الكنيسة، والسلطة الكنسية. وهنا تحضرني حادثة لا بد لي من أن أذكرها، لما فيها من دلالة، جرت يوم الجمعة العظيمة في الكاتدرائية بدمشق، حيث كانت الجوقة تنشد ترانيم "جناز المسيح" الرائعة. وإذ بأحد الكهنة المحتفلين يتقدّم مني، فيما كنت أقود الجوقة، ويهمس في أذني: "البطريرك يريد الترنيمة (الفلانية) باليونانية"، وعاد من حيث أتى... غير أن الجوقة، عندما بلغت الترنيمة المطلوبة باليونانية، رتّلتها بالعربية... وبعد الصلاة، سألني البطريرك على حدة: "ألَم يخبرك الأب (فلان) أني أريد الترنيمة باليونانية؟". فقلت: "بلى، سيدنا! ولكن عندما يكون عندي جمهور يوناني، لا عربي، سأرتّل لك جميع الترانيم باليونانية!"...

لم يكن هذا ميدان صدامي الوحيد مع البطريرك. فقد سبقه صدام، اتّخذ من حيث لا أريد، بُعداً شمل المؤسسة الكنسية كلّها. وقد حدث ذلك يوم مأتم أحد كبار أثرياء دمشق، المرحوم جورج صحناوي. كان ذلك في 1963/1/25. يومها كان الطقس عاصفاً والطرقات مغطاة بالثلوج، لا سيما طريق بيروت. ومع ذلك فقد أتى البطريرك إلى دمشق، ومعه العشرات من الأساقفة، وشاركوا كلّهم، مع عشرات الكهنة، في الجناز. أما أنا، فرفضت المشاركة، وبقيت في مكتبي بالبطريركية. إلا أني كنت حاضراً على المائدة في موعد العشاء، مع مَن حضر من المطارنة والكهنة، وعلى رأسهم البطريرك. وكان بين الحضور، الأب "بولس أشقر"، رئيس الجمعية البولسية. وإذ به، في

لحظة صمت، يتوجه إليّ بكلام لا يسعني أن أنساه، فيقول لي معاتباً بصوت مرتفع: "أبونا الياس، ظننتُك أطيب من هيك! ليش قاطعت الجناز؟". فقلت لتوي: "وأنا، ظننت انو راح تكونوا كلكم أكبر من هيك!". ولم يعلّق أحد بكلمة. وإني لأروي تلك الحادثة الآن، وكأنها تجري في هذه اللحظة...

كانت الجوقة تعدّ قرابة سبعين منشداً ومنشدة. وكانت تقوم بالخدمات الكنسية الكبرى، في كاتدرائية حارة الزيتون، وعلى رأسها أسبوع الآلام وعيد الفصح، وعيد الميلاد وبعض المناسبات الدينية. وكنا اتفقنا مع المطران "طويل" على مكافأة سنوية، وقدرها (400) ل.س، كانت آنذاك تغطّي نفقات رحلة يوم كامل داخل سورية. وفي ختام العام الدراسي 1962-1963، سألت المطران الإيفاء بوعده، كي نقوم بالرحلة التي كنتُ قد وعدت بها أفراد الجوقة. وإذ بالمطران يتمنّع عن الدفع، ويدعوني لتعويد أفراد الجوقة على الخدمة المجانية. وبعد أخذ وردّ، وجدتني أقول له: "سيّدنا، أمرك غريب. تعدنا في أول السنة بأربعمائة ليرة. والآن تريد مني أن أعوّد الجوقة على الخدمة المجانيّة. ولكنك أنت لا تتمنّع عن قبض ثلاثمائة ليرة، حسنة قدّاس واحد، تخدمه لك الجوقة. أي منطق هو هذا؟".

وكان أن علم المطران بطرس مدوّر بما كان بيني وبين المطران يوسف طويل، فتدخّل على الفور واستدعاني إلى مكتبه المتواضع، وألحّ عليّ من أجل قبول المبلغ إياه، ولكن منه، تلافياً لمزيد من التوتّر، وتحقيقاً لرحلة الجوقة، قبل أن يتسرّب أي شيء لأفرادها من الصدام الذي قام بيني وبين المطران طويل. وكان في محبة هذا المطران ووداعته ما يرغمني دائماً على الاستكانة أمامه. وقامت الرحلة، وكانت إلى طرطوس، وقد عدت منها يومها بفرح عظيم غمر جميع أفراد الجوقة، وغمرني أنا لسنوات طويلة حتى اليوم، بصداقة غالية مع شاب يدعى صلاح بربارة، بات فيما بعد محامياً معروفاً، وقد كان لي وللكثيرين ممّن كانوا يلجأون إليّ، عوناً عظيماً في العديد من الملمّات!

إلا أنّ الأسوأ حدث عندما علمت أن الأب "إيلاريون كبوجي"، الذي كان مسؤولاً قبلي عن الجوقة، كان قد وعدها برحلة إلى القدس، مكافأة لجميع منشديها على خدماتهم. وعبثاً حاولت حمل المطران على تنفيذ مثل هذا الوعد. غير أني صمّمت على تنفيذ وعد سلفي. واستدنت من الأب "الياس صارجي"، مبلغاً كان كافياً لقضاء أربعة أيام في القدس، مع خمسين منشداً ومنشدة رغبوا في القيام بها. ولقد كانت هذه الرحلة إلى القدس، الرحلة الأولى والأخيرة لجميع من شارك فيها من المنشدين والمنشدات. وكان ذلك عام 1965.

وإلى ذلك، كنت، في البطريركية، أستقبل في مكتبي، كل من كان يقصدني، وفق مواعيد محدّدة مسبقاً. إلاّ أنّ التقيّد بموعد، وهو أمر طبيعي، لم يكن مألوفاً في المجتمع الدمشقي. وقد وجدتني أحياناً، مضطرّاً للاعتذار من بعض أقرب الناس إلي، لأنهم كانوا يظنّون أنّ ما بيني وبينهم من مودّة، يجيز لهم أن يحضروا دون موعد. وكنت أدع الوقت مشرعاً أمام من يجلس معي في المكتب، سواء كان فرداً أو مجموعة. وفي حال وجود فتاة أو امرأة، كنت دائماً أترك الباب الخشبي مفتوحاً، حتى لو كان الوقت في قلب الشتاء، علماً بأني كنت أستخدم مدفأة عتيقة على الحطب، قلّما كنت أستعملها. وكنت أجلس وراء طاولتي الصغيرة، والشخص مقابلي. وقد بات جميع من يقصدوني، يعرفون ذلك جيداً. وكثيراً ما كانت الجلسات تطول، ساعة، وساعتين وثلاثاً، وتتّخذ أحياناً مناورات واستعادات، تحتاج إلى صبر لا حدّ له، وإلى تركيز عالٍ. وقد كنت ألمس بسرعة، حاجة الآخر إلى التحرّر ممّا ينوء به، ولم يكن بعضهم يخفي عليّ ارتياحه، إما لطريقة إصغائي إليه، وإما لطريقة نظري إليه، في احترام وفي غير إدانة، وإما لمجرد نبرة صوتي في التحدّث إليه. أجل، بمثل هذه البساطة كانت تجري الأمور، على ما كان ينوء به بعض محدّثيّ من أثقال طاحنة. وكان ذلك الجو يمدّني بقدرة عجيبة، على الصبر والمتابعة والتذكّر في تكتّم مطلق، حتى لو استغرق الأمر أشهراً طويلة. وقد انتهيت منذ الشهور الأولى، إلى أنّ مجتمعنا الشرقي والعربي كله، يضجّ وراء واجهة اجتماعية هادئة، بمشاكل لا حصر لها... ولذا لم أكن أبخل بوقتي، ولا بتفكيري، ولا خصوصاً بصلاتي، حتى خلال هذه اللقاءات الشخصية، بحيث كان تركيزي ينصبّ دائماً على مَن كان يجلس عندي، وأنا في إصغاء تام، وكأني بالدنيا كلّها، بجميع ما فيها من قضايا ومشاكل، قد تلاشت، فلم يبقَ ثمّة سواه أو سواها!...

وكان هذا الذي يندلق أمامي، في حرج، في خجل، في بكاء مرير، كثيراً ما يفاجئني، يؤلمني، وأحياناً يصدمني، بحيث كنت أشعر في لحظة ما، وكأني قد تحوّلت إلى مكبّ للنفايات الاجتماعية والأخلاقية. إلا أني كنت أحاول جاهداً، ألا أُشعِر محدّثي بما يجول في نفسي من انفعالات، أياً كان نوعها أو حجمها. كما أني كنت أحاول بكل قوة استحضار يسوع، ليمدّني بما يريد لي أن يسكنني من قوة واحترام ورجاء، حيال "محدّثي". ولشدّ ما كان يؤلمني، على ندرته، اعتراف هذه أو تلك، بعد طول تهرب، بأن إعراضها المزمن عن الله والكنيسة والصلاة، إنما كان بسبب سوء تصرف شخصي من "أحدهم". وأكثر ما أدهشني ذات يوم، إقرار طفلة لي، في إحدى المدارس، وهي في الصف السابع - أجل، في الصف السابع! - بأنها تراقبني منذ سنتين، لأنها فقدت كل

ثقة بالرجال، وأخيراً قررت التحدّث إليّ... ويومها، ومن ثم، طوال فترة لاحقة، كان ما حدّثتني عنه، أموراً لا يتمنّى أي إنسان سوي على الإطلاق، حدوثها في أي بيت!...

وكان من الفتيات من لا تجرؤ على مفاتحتي بما تعاني، فكانت "تختبئ" وراء صديقة مزعومة، تُسقِط عليها مشاكلها، حتى يأتي يوم تشعر فيه حقّاً باستحالة الاستمرار في الاختباء وراء الكذب، وخصوصاً الكذب على ذاتها. وكان أيضاً منهنّ، من لا تجرؤ على مواجهتي بمشكلتها، فيما هي تشعر شعوراً قاهراً بضرورة الانعتاق ممّا بها، فتحمل لي رسالة خطّتها بيدها، وتسلّمني إيّاها يداً بيد، وتمضي... وكان منهنّ من بلغت، على صغر سنّها، أسفل القاع من المهانة، ولم تعد بها قدرة على التكتّم والتحمّل، وتأخذ تحكي ما مرّت به، وهي ترفض دعوتي لها إلى الصمت، حتى كدت أحياناً ألمس لديها، ترسبات من تلك المتع التي كانت تريد حقّاً التخلّص النهائي منها. وإني لأذكر من هؤلاء خصوصاً، فتاة في الصف التاسع فقط، وكانت من طالباتي، جاءني بها والدها ذات يوم، وقد أعياه حديثها الدائم عن زواجها المحتمل والقريب، من دبلوماسي أجنبي، ما كانت تريد أن تفصح عن هويته، فيما كانت تلتقيه، في غفلة من أهلها، متى يشاء وأنّى يشاء، بعد أن جمعتها به، "سيدة محترمة"، كانت صديقة لأهلها، وقد دعتها لمنزلها، وسقتها مُخدّراً... وقد تبيّن لي، فيما بعد، أن تلك الصبية الفتية، لم تكن "الطريدة" الوحيدة التي سقطت في شباك هذه "السيّدة"!

وما كانت مثل هذه الاعترافات، وقفاً على الفتيات، بل كان الكثير من الشبّان يقصدونني. إلا أنّ عددهم كان لا يقارن بعدد الفتيات، لسبب بسيط وهام في آن واحد، وهو أني كنت أدرّس في ثلاث مدارس للبنات - وكانت ثالثتها مدرسة الراهبات الفرنسيسكانيّات، وبطلب منهنّ، بدءاً من عام 1963-1964، فيما كانت تُطلَب مني أيضاً، خدمات تربوية ودينية في مدرسة رابعة للبنات، وهي مدرسة راهبات القلبين الأقدسين في باب توما... ولكأني بالشبيبة في دمشق، كانت تنتظر في لحظة ما، من يأتيها، لا لشيء إلا ليصغي إليها. أجل، ليصغي إليها أوّلاً، ثم ليساعدها، ولو قليلاً، على استكشاف واستخراج ما فيها، أو على انتزاع ما زُرع ويُزرع فيها. ولذا وجدتني شيئاً فشيئاً، محاصراً بأعداد متزايدة من شبيبة، من مختلف الأعمار، تبيّن لي على نحو قاطع، أنها كانت، قبل كل شيء، بحاجة إلى من يصغي إليها، في احترام وثقة، فكيف به إذا كان يتعامل معها أيضاً باحترام وثقة؟ ولم تكن الطالبات المسلمات - في كل من هذه المدارس الأربعة - ليتردّدن في مراجعتي، ومفاتحتي ببعض قضاياهنّ. وكان من أطرف وألطف ما سمعت، أن جاءتني إحداهنّ، ذات يوم، وكانت طالبة بكالوريا في

مدرسة الراهبات الفرنسيسكانيّات، تقول لي إنها ما كانت يوماً تعير أمور الدين ولا الصلاة أي اهتمام، على كون أهلها مؤمنين يُصلّون. إلا أنّها، بسبب إلحاح أهلها المتواصل، قرّرت أخيراً أن تقرأ القرآن بكامله. وإذ بها تكتشف المكانة الواسعة التي يمتلكها السيّد المسيح فيه. فجاءت تسألني المزيد عنه!...

وما كنت يوماً لأنسى "المسافة"، التي تعلّمت ذات يوم في القدس، أن أقيمها بيني وبين الآخر! ولقد كانت هذه "المسافة الضرورية"، هي التي أملت عليّ أيضاً، أن أحرص حرصاً مطلقاً على عدم استقبال أي إنسان، حتى لو كان كاهناً، في غرفة نومي في البطريركية. وإني لأذكر جازماً أني لم أخلّ بهذه القاعدة، إلا ثلاث مرات فقط، طوال السنوات الستّ التي كنت أقيم فيها في البطريركية. وكانت أولاها، إذ كنت مريضاً، فجاءني هاتف من بواب البطريركية "القدّيس"، واسمه "غطاس"، يقول لي: "إن (فلاناً) - وكان طالباً جامعياً أعرفه جيداً، ويواجه منذ فترة طويلة، أزمة نفسية خانقة - يلحّ عليّ لأقول لك إنه يشعر بأنه "يجنّ". فاستدعيته على الفور، وأمضيت معه وقتاً طويلاً جداً، ولم أدعه يذهب، حتى شعرت حقّاً أن شيئاً من الطمأنينة سكن قلبه... وكان ذلك عام 1964. وكانت الثانية، يوم جاءني شاب صيدلاني من نازحي القنيطرة، كنت أعرفه جيداً، وكنت يومها أيضاً مريضاً، وكان هو في حالة ليس لي أن أرجو لأحد، أن يصير إلى مثلها، وكان ذلك عام 1967. وأما الثالثة، فكانت يوم زارتني أختي الصغرى "رينيه" مع طفلها الأشقر الصغير، وهو في عامه الأول، وكنتُ متعباً ومعتكفاً في الغرفة. فاستقبلتهما، وأطعمته معها قطعة من برتقالة. وفيما كان هو "يتغربل" و"يكاغي"، كنت أبكي، إذ كنت أرى من خلاله أطفال الدنيا المعذّبين كلّهم... وما أن حملَته ومضت، حتى جلست وكتبت دفعة واحدة، قصيدة نثرية، بعنوان "الطفل الكابوس"، وقد نُشرت، أول ما نُشرت، في "الثقافة الأسبوعية"، بتاريخ 1970/12/19، ويطيب لي أن أدرجها للتوّ بحرفيتها:

« **الطفل الكابوس**

أخيراً ذهب.
فرغت الغرفة من كلّ شيء إذ غادرها.
حمل معه كلّ أطفال الدنيا.
فأراحني... إلى حين.
حملهم في عينيه الزرقاوين

وفي شعره الأشقر

وفي راحتيه الصغيرتين، الصّغيرتين،

أطفال باكستان

وأطفال فييتنام

وأطفال كمبوديا

وأطفال غينيا

وأطفال أرتيريا

وأطفال أنغولا

وأطفال البرازيل

وأطفال الزنوج الأميريكيين...

وحمل أيضاً

حمل أطفال فلسطين

وأطفال لبنان...

حضروا كلّهم معه إذ حضر،

واجتاحوا قلبي وكوني...

جلست إليه أُطعمه

وإذا سيولُ دموعِهم تندفع من عينيه الضاحكتين

وصراخُ جوعِهم ينبعث من حنجرته الملائكية

وأمسكتُ بيده تعتصر برتقالة في فمه الصغير

فأمسَكَت بي ملايين الأيدي مستغيثةً

الأيدي البيضاء

والأيدي الصفراء

والأيدي السوداء

والأيدي السمراء

أيـــدٍ نازفة

وأيدٍ مبتورة

وأيدٍ محترقة

وأيدٍ مشلولةٌ جوعاً

كلّها في راحتيه، تطوّقني، تخنقني...

ولكنه ذهب أخيراً...

ذهب وأراحني... إلى حين.

غاب رأسه الأشقر الصغير عن عيني

ووقفت أصلّي...

أصلّي من أجل الرؤوس الصغيرة الحلوة

الرؤوس الشقراء

والسمراء

والصفراء

والسوداء

التي نثرتها في أرجاء الدنيا أيدي الجلادين

ومن أجل رؤوسٍ أخرى حلوة لأطفال وافدين

ستدحرجها أيدٍ أخرى

إلى مسالخ المدنيّة الحديثة...

وحضرتني كلمةٌ لأحد كبار الواهمين:

"لو وُهِبتُ أن أُعيد تكوين الكون بأسره، وما كان ذلك ليكلّفني إلا دمعة واحدة من عين طفلٍ صغير، لرفضت".

مسكينٌ هو دوستويفسكي: ما أعظم حبَّه!

التاريخ يقول إنّه عاش منذ مائة عامٍ ونيف فقط.

ولكن حبَّه للإنسان يؤكّد أنّه سبق ركبنا الحضاري "الرائع"

بمائة ألف عام. » (انتهى)

بالطبع، ليس في نيتي البتة، إذ أذكر كلّ ذلك وأغفل الكثير، أن أُغيّب أو أتجاهل ما كان قائماً آنذاك في دمشق، في جميع كنائسها دون استثناء، من نشاطات شبيبية وسواها الكثير. إلا أنّ أحداً لم يكن يجهل أنّ جميع هذه النشاطات المتعدّدة، كانت فعاليتها الميدانية، لأسباب كثيرة، دون تسمياتها الطنّانة. وكان أن تداعى ذات يوم، عدد من الكهنة الكاثوليك، ليتبادلوا الرأي بشأنها، وكنتُ واحداً منهم، وكنت

أصغرهم. وقد اتضح لنا، شيئاً فشيئاً، أنّ الواقع الكنسي العام، يستدعي في الحقيقة، إعادة نظر في طبيعة العلاقة القائمة، أولاً داخل كل كنيسة بين البطريرك أو الأسقف والكهنة من جهة أولى، ثم بين مسؤولي الكنيسة ومختلف الحركات والمنظمات المسيحية، من جهة ثانية. ورأينا من الضروري القيام بزيارات منتظمة لإطلاع الأساقفة على صورة المساعي القائمة. وسألناهم دراستها، لكي يُصار، بعد موافقتهم، على وضع برنامج عمل مشترك، يتولّون هم الإشراف عليه وتوجيهه، ومن ثم تفعيله. وهكذا كان... وكان كل شيء على ما يرام، أو هكذا بدا لنا... وقد لاحظنا بارتياح أنّ الانتقال إلى مرحلة عقد اجتماعات مشتركة، تضم الأساقفة والكهنة الكاثوليك، قد تمّ على نحو تلقائي وطبيعي. وفيما كانت هذه الاجتماعات تُعقد دورياً في مختلف المراكز الأسقفية، وطالما كانت الأمور المطروحة تتعلق بالعلمانيّين، من شبيبة ورجال وسيّدات، كانت المناقشات دائماً مفتوحة على جميع الاحتمالات، وتتّسم بالكثير من المودة والتفاؤل... غير أنها أخذت تتعقّد، عندما انتقلنا إلى ضرورة التنسيق بين مختلف الحركات، بحيث يصار إلى إلغاء بعضها، من أجل دمجه بالبعض الآخر، كي ننتهي إلى بناء عمل مشترك ومتشابك في آن واحد، من شأنه أن يُلغي الهدر والترهل، ويحدّد الأهداف بوضوح، ويبني عملاً مسيحيّاً، يكون الانتماء الحقيقي فيه للمسيح، وليس للطائفة. وعندها، كان أنّ ما بدا للكهنة مشروعاً ضرورياً، كان للأساقفة مساساً خطيراً بصلاحياتهم ومراكزهم. وبُذِلت محاولات كثيرة ومضنية لتحاشي التأزّم والانهيار... وأخذ بعض الأساقفة، وبعض الكهنة، "تضامناً" منهم مع أساقفتهم، يقاطعون الاجتماعات. وكبرت الشقة بين وجهات النظر، حتى انتقلت إلى العديد من الكهنة... وجاء يوم وقف فيه الأب "يوسف معلولي" اللعازري، وكان أجرأ الحاضرين، في آخر اجتماع لنا عُقد في بطريركية الروم الكاثوليك، وبيّن مطولاً استحالة الاستمرار بالنسبة إليه، في هذا النمط من التعامل، ثم صرخ بأعلى صوته: "أنتم تدعون وتقولون تحيَ الطائفة. أما أنا، فأقول يحيَ المسيح. بخاطركم!". وخرج، وكان خروجه إيذاناً بانتهاء ذلك المسعى الإصلاحي الشامل، في نطاق العمل المسيحي بدمشق. وبالطبع، لم يتغيّر شيء في ما كان قائماً، وقد تابعت كل طائفة "نشاطها" السابق، مع حركاتها وجمعياتها الخاصة بها.

غير أنّ من الحركات الشبيبية في دمشق، ما كان مستقلاً نسبياً عن الانتماءات الطائفية. من ذلك مثلاً، الحركات التي كانت تابعة لبعض المدارس، ومنها تلك التي

كنت أدرّس فيها. ومنها أيضاً حركة واسعة، يُطلق عليها اسم "الشبيبة الطالبة المسيحية"، وكانت حديثة العهد في دمشق، وتضمّ طلاباً وطالباتٍ جامعيّين من جميع الطوائف المسيحية، مع أنّ منشأها كان كاثوليكياً. وكان جورج حورانية أحد أبرز مؤسّسيها، فجاءني مع بعضهم، وسألوني تولّي إرشادها. فاستشرت رئيسي المباشر، المطران "يوسف طويل"، فبارك الخطوة، وانصرفت للخدمة. وكان لها برنامج حافل. فهناك اجتماع أسبوعي للمسؤولين فيها، من شبّان وشابّات، وكان التعامل معهم صريحاً ومريحاً. وثمة مجموعات فيها، محدودة العدد، تعالج في اجتماعاتها الأسبوعية أيضاً، قضايا اجتماعية ودينية ووطنية. وكانت تُقام صلوات جماعية، أو قداديس في هذه الكنيسة أو تلك. وكنّا كثيراً ما نستخدم كنيسة الآباء اللعازريين. كما كنّا نعقد أحياناً، لقاءات روحية، لبعض المسؤولين، تستدعي وقفة صريحة مع الذات. وكنّا نجريها في هذا الدير أو ذاك، وحينها كنت أترك بين أيديهم نصاً مكتوباً، كنت أتلوه عليهم، ثم ننتقل إلى مناقشته. من هذه الأحاديث المكتوبة، نص بعنوان "من أنتم؟ وماذا تريدون؟"، يعود إلى عام 1962. ومنها نص يدعو إلى الانتفاض على الذات، وعلى كل ما يكبّل هذه الذات، بعنوان: "نريد أن نرفض"، ويعود إلى شهر آب عام 1964. ومنها أيضاً نص يكاد يكون اعترافاً، وهو يحمل حقّاً عنوان "اعتراف"، ويعود إلى شهر نيسان عام 1965. ثم كانت لهم، كما ذكرت، مجلة غير دورية، تحمل اسماً واعداً، هو "الرابطة الدمشقية"، وتنشر فيها مقالات يحرّرها الشبّان أو الشابّات.

وكان لهذه الحركة الشبيبيّة أيضاً نشاطان هامان، اجتماعي وثقافي.

أما الاجتماعي، فكان يقوم على تنظيم رحلات، قصيرة أو طويلة، داخل القطر أو خارجه. وكنت كثيراً ما أحرّض المسؤولين، على الإكثار من هذه الرحلات، لا لشيء إلا بقصد توفير بعض الفرح في قلوب الجميع، في مواجهة ما كنت ألمس لدى الشبيبة كلّ يوم من نتائج مدمّرة لحالة الاختناق المتفاقم، الذي كان يستبدّ بالجميع. ثم إن هذه الرحلات داخل القطر، أية كانت مدّتها، كانت ترمي، ككل الرحلات، إلى استكشاف البلد، ولا سيما معالمها الأثرية الرائعة... والمجهولة... فكانوا بذلك يزدادون فرحاً من جهة، ومعرفةً لبعضهم البعض من جهة ثانية، كما كانوا أحياناً يكسبون طلاباً وطالباتٍ من أعمارهم، كانوا يفتقرون إلى مثل هذه الأجواء النظيفة والهادفة. وأما الرحلات خارج القطر، فلم يتسنّ لنا في تلك الفترة، أن ننظّم إلا واحدة لمدة أربعة أيام! إلا أنها كانت إلى... القدس، وكانت عام 1965، فكانت بذلك رحلة الحب والوداع لجميع من شارك فيها، باستثنائي، لأنه أُتيح لي أن أعود إليها مرة أخرى عام 1966. فكانت حقّاً لنا فيها أيام لا

تنسى. وقد عدنا منها، في ما عدنا به، بمشروع ثقافي واجتماعي، أفضى عام 1966، إلى إنشاء ما يُعرف اليوم "بنادي الوفاء الدمشقي"، القائم في منتصف شارع حلب بدمشق.

وأما النشاط الثقافي، فكان يتركّز على تنظيم محاضرات دورية، تمليها حاجات الساعة أو مطالعات بعض الشبان والشابات. ولشد ما لفت نظري إمعان الكثيرين منهم في تلك الفترة، في قراءة كتاب للفيلسوف الألماني، "نيتشه"، بعنوان "هكذا تكلّم زرادشت". فكان أن قدّمت لهم، بناء على طلبهم، محاضرتين طويلتين حول هذا الكتاب، وقد حرصت يومها على كتابة نصهما كاملاً، نظراً لدقة الموضوع. وفي تلك الفترة كان الحضور يتراوح بين خمسين وستين مستمعاً. كان ذلك عام 1962. وتواصل برنامج المحاضرات، وكنت كثيراً ما أستشير بشأنه الأستاذ "أنطون المقدسي"، وأصطحب معي في كل لقاء معه، عدداً من المسؤولين في الحركة، أملاً مني بنشوء صداقة بينهم وبين هذا المفكر المسيحي الكبير، علّ بعضهم يصاب ببعض العدوى، مما كان يختزنه من إيمان وفكر وصدق وانتماء. ثم كان أن اتسع نطاق المحاضرات، من حيث الموضوعات والمحاضرين، إذ كان اسم "المقدسي" وحضوره، يزيل كل تردّد محتمل عند مَن كنا ندعوهم من محاضرين. وبتنا نقيم جميع هذه المحاضرات، في مسرح مدرسة راهبات المحبة في باب توما، بدمشق، إذ باتت، خلال عام 1965، تجلب أعداداً متزايدة، كانت أحياناً تتجاوز المئات، من الشبيبة الجامعية، لا فرق بين مسيحي ومسلم.

إزاء هذا الاتساع من الحضور في جمهور هذه المحاضرات، بُلّغ المسؤولون في "حركة الشبيبة الطالبة المسيحية"، ضرورة الحصول على ترخيص رسمي من المراجع المختصة، شرطاً لازماً لمتابعة هذا النشاط. وإلا فالتوقف واجب، بموجب قانون الجمعيات المعمول به في سورية. فرأينا أن نتوقّف على الفور عن كل نشاط يمتّ إلى المحاضرات بصلة، وراجعنا بهذا الشأن المطران "يوسف طويل"، الذي تولّى بدوره دراسة هذه القضية مع البطريرك وسائر الأساقفة الكاثوليك بدمشق... وبعد مدة لا بأس بها، علمنا أنّ اجتماعاً سيُعقد في دمشق، يضم البطريرك "الصايغ" والسفير البابوي، مع سائر الأساقفة الكاثوليك في سورية، لدراسة هذه القضية، واتخاذ القرار الملائم بشأنها. ودُعي كل من الأب "يوسف معلولي" وأنا، للاشتراك في هذا الاجتماع. وقد عُقد في مكتب البطريرك بالذات، واحتدم الجدال. وكان البطريرك من المؤيدين لضرورة طلب الترخيص، وكان يتمسّك بحجة قانونية ومنطقية في آن واحد: وهي أننا، بوصفنا مواطنين سوريين، يتوجّب علينا أن نخضع لجميع قوانين هذا البلد، ومنها قانون الجمعيات. وإذا رُفِض هذا الطلب، فعندها يكون لكل حادث حديث. إلا أن

كتلة الرافضين كانت كبيرة، وكان معظمها من خارج دمشق. أما السفير البابوي، فوقف على الحياد. وعندما سئلنا، أنا والأب معلولي، عن رأينا، أجبنا بالإيجاب، لا لشيء إلا لأننا مواطنان. أخيراً حسم البطريرك الموقف، وسألني مع الأب معلولي، المسارعة في صياغة الطلب، والعودة إليه ليوقّعه، ومن ثم يُصار إلى إرساله للمراجع المختصة. فوقفت مع الأب معلولي، وأخذنا نودّع الحاضرين، بدءاً من البطريرك والسفير البابوي فرداً فرداً، ولما وصلت إلى مطران الأرمن الكاثوليك في حلب، المدعو (جورج لايق)، استوقفني، وقال لي بلهجة صارمة: "أبونا الياس، أنا أمنعك من استقبال الشباب الأرمن في الحركة". فأجبته على الفور: "سيّدنا، لا صلاحية لك عليّ. أما إذا كنت تستطيع أن تمنع الشباب الأرمن، فلا تقصّر!".

واجتمعنا على الفور مع بعض الشبّان الحقوقيين من الحركة، نصوغ طلب الترخيص، مستعجلين العودة به إلى البطريرك. وما هي إلا فترة وجيزة، حتى استدعانا البطريرك بسرعة. ولما قابلناه، وجدناه في حالة من الوجوم، لم نألفها يوماً في هذا الرجل القوي. وكان جالساً متجهّماً. فقال لنا: "توقّفوا عن كل شيء!". فحاولت أن أرجوه معرفة السبب، فاكتفى بالقول: "يا ابني، لا تسألني! لا تسألني!"...

وكان بعد ذلك، أن أوقفنا على الفور، جميع محاضراتنا العامة. إلا أننا تابعنا النشاطات الأخرى، التي كانت تجري على نطاق الحلقات الصغيرة، أو اللقاءات الروحية الواسعة، في يوم الجمعة العظيمة من أسبوع الآلام، التي كنا نقيمها في مدرسة راهبات البيزنسون، حيث كان يُقدَّم حديث روحي من وحي هذا الأسبوع العظيم، نعقبه بالقداس الإلهي الذي كنا نقيمه في كنيسة دير الآباء اللعازريين، القائم مقابل المدرسة، والذي كانت تتخلله اعترافات، كان يشارك فيها عدد من الكهنة، بينهم الأب "يوسف معلولي". والمعروف أنّ الكنائس البيزنطية، أرثوذكسية وكاثوليكية، تحظّر إقامة القداس الإلهي، يوم الجمعة العظيمة، فيما الكنائس اللاتينية والكنائس الشرقية الكاثوليكية التابعة لها، من مارونية وكلدانية وسريانية وأرمنية، تقيم القداس في هذا النهار.

وحدث في هذا اليوم من عام 1965، إذ كنت ألقي حديثي في حشد من الشبيبة، لم يكن ليقلّ عن مائة شاب وفتاة، أن جاءني من يهمس في أذني من قِبَل المطران "يوسف طويل"، أنّ القداس ممنوع في هذا النهار. فتابعت حديثي، وكأنّ شيئاً لم يكن. وفي ختامه، دعوت جميع الحضور للاجتماع فوراً في كنيسة الآباء اللعازريين، للاشتراك في القدّاس الإلهي، والاعترافات. وكان أن أقمنا القدّاس، وجرت الاعترافات، وكان كل شيء على أحسن

ما يرام. وإني لأذكر يومها أنه جاءني مَن يعترف بعد انقطاع سبعة عشر عاماً! ثم استبقنا التهاني بعيد الفصح، وعدت أدراجي إلى البطريركية. كان الوقت الساعة الواحدة والنصف ظهراً. فوجدت البواب "غطّاس" ينتظرني قلقاً، وقال لي: "المطران في انتظارك في المكتب". وكانت تلك، في الأيام العادية، ساعة نومه. وما أن دخلت، حتى استقبلني قائلاً: "ما صار ما أقمت القدّاس!". فقلت له دون تردّد: "سيّدنا، في العام القادم، سأقيم القدّاس أيضاً. أنت تتصرّف مثل الفريسيّين مع يسوع! الإنسان أم السبت؟ يسوع اختار الإنسان! بكفّي!". وغادرت مكتب المطران، وهو جامد من الدهشة!

وإلى ذلك، فقد تواصلت اللقاءات الشخصية، بيني وبين الكثيرين من الشبان والشابات، في مكتبي في البطريركية. وكانت الدوافع لا تحصى، بين ثقافية وعاطفية، ودينية، ونفسية، واجتماعية. وكان بعضها عادياً، بل عادياً جداً، فيما بعضها الآخر كان يتّسم بالمأساوية. ولَكَم يؤلمني وضع من وُلد في أسرة مختلطة، من أم مسيحية وأب مسلم، دون أن يكون استقر حقّاً في اختيار دين ثابت له... فكان أبداً مشطوراً. وكانت معاناته هذه تتفاقم، عندما كان يدخل في علاقة عاطفية مع طرف يدين بغير دين أبيه...

ثمّة مشكلة هامّة كانت أيضاً تُطرَح بقوة، على من كان يبحث عن الحقيقة خارج الرب. فالقانون هو القانون... والأعراف القائمة هي هي، شئنا أم أبينا، بوطأتها الاجتماعية أو النفسية، الظاهرة أو القابعة في الأعماق. وقد تبيّن لي بكل وضوح، أن الأُطر التقليدية الصلبة، لم تعد قادرة على الحؤول دون تسرب أفكار جديدة، قد تكون مغايرة كليّاً لما كان الناس يتوارثونه دون سؤال. ولذا لم أكن أُفاجَأ بطالب جامعي مسيحي، يجد في مطالعاته لنيتشه أو كارل ماركس وسواهما، ما يهدّد باقتلاعه من جذوره. كما أني لم أكن أفاجَأ بطالب جامعي مسلم، يشعر بضرورة البحث عمّا قد يكون أبعد من إيمانه... إلا أنّ الطالب المسلم، كما فهمت من بعضهم، إذ يواجه مثل هذه المعاناة القاسية، كان يصعب عليه أن يجد من ينفتح له دونما حرج. وإني لأذكر من هؤلاء شابّاً كان يدرس في قسم الفلسفة في جامعة دمشق، وكان يدعى ممدوحاً... ولَكَم كان يهوى النقاش في أمور الدين... والمقارنة بين الأديان. وأُخِذ فترة طويلة بقراءة كتب مترجمة إلى العربية، لبعض الفلاسفة المسيحيين الغربيين، من أمثال هنري برغسون وغبرييل مارسيل. وقد جاءني بعد فترة ليسألني كتاباً لفيلسوف مسيحي روسي، يدعى "نيقولا برديائيف"، كان أشبه بسيرة ذاتية. ثم أولع بكاتب سعودي جديد، يدعى "عبدالله القصيمي"، كنت أنا أرى فيه نمطاً من التفكير الجديد عند العرب، يقرّبه بعض الشيء من الفيلسوف الألماني "نيتشه". وقد كنت - ولا زلت!

- في جميع لقاءاتي مع المسلمين والمسلمات، أرفض بإصرار فكرة تبشيرهم وجرّهم إلى المسيحية، أو إغوائهم بها، بقدر ما كنت - ولا زلت! - أحثّهم على ضرورة معرفتهم بدينهم الكريم. إلا أني لم أكن يوماً أرفض فكرة مساعدتهم على اكتشاف المسيحية، والتعرّف إلى مؤسّسها وكبار مفكّريها، من قدامى ومعاصرين، من خلال مطالعة الإنجيل، وما يتوفّر من كتب أو ترجمات عربية. ولذلك، فأنا لم أمتنع يوماً عن تسليم نسخة من الإنجيل، لمن كان يرغب في ذلك. وكان ذات يوم، أن سألني ممدوح هذا، نسخة من الإنجيل، فقدّمتها له. ثم غاب شهراً أو أكثر. وإني لأذكر حتى اليوم، كيف جاءني بعد ذلك، ودخل محيّياً، على غير عادته، في ما يشبه الخفر. ثم جلس على زاوية "الكنبة"، وحدّق في الأرض طويلاً، دون أن ينبس بكلمة. ونظرت إليه، وإذ به أشبه بالغائب. فصابرت نفسي. ثم حدّقت فيه من جديد، وقلت: "ما بك، يا ممدوح، أنت على غير عادتك!"... وعندها رفع نظره نحوي، ثم قال في بطء، في ما يشبه الاعتراف: "أبونا الياس، منذ أن قرأت الإنجيل، اتّضح لي أنّ البشرية كلّها، أجل كلّها، تحتاج إلى مليون سنة من التطهّر، كي تستحقّ أن تبلغ مستوى الأرض، التي يطأها المسيح بأسفل قدميه! هذا ما أحببت أن أقوله لك اليوم". ثم نهض وقبّلني ومضى... ومن يومها، لم أعد أراه، أو أسمع عنه شيئاً!

وفي إطار الخدمات الاجتماعية والإنسانية، التي كنت أبادر إلى تقديمها، أو التي كانت تُطلب مني، أودّ أن أذكر على نحو خاص، زياراتي المنتظمة لسجناء قلعة دمشق، كل يوم جمعة قبل الظهر. وكنت سعيداً عندما كان يطلب مني إقامة القداس بمناسبة عيدَي الفصح والميلاد، للسجناء، على أن يقام قدّاس خاص بالرجال، وقدّاس خاص بالنساء. وقد رأيت، أول الأمر، أن أصحطب معي عدداً قليلاً من شبان وشابات جوقة الكنيسة الكاتدرائية كي يضفوا على هذا القداس نكهة خاصة. إلا أنّ إدارة السجن، أشارت عليّ، إثر القداس الأول، في ميلاد 1963، بعدم اصحطاب الصبايا، خشية حدوث منغّصات، الكل بغنى عنها. ثم أقمت القداس للسجينات المسيحيّات، فلاحظت أنّ عددهنّ قليل جداً، وقد كان بينهنّ سجينة عرّفتني بنفسها، وهي السيّدة جولييت المير، زوجة أنطون سعادة، مؤسس الحزب القومي السوري. وأُتيح لي أن أتحدّث معها على انفراد بعض الوقت، فأدهشتني بما لمست لديها من صفاء وسلام وإيمان، بل ونبل، كان كلّه يتجلّى على وجهها السمح. وكانت يومها تشكو من ورم ضخم في عنقها. فاستأذنتها في كتابة رسالة استرحام باسمها إلى رئيس الجمهورية آنذاك، اللواء أمين الحافظ، بسبب وضعها الصحي الخطير. وكان أن حملتها لها بنفسي بعد أيام قليلة. والطريف في الأمر، أنّ تلك الرسالة

كانت الوحيدة التي خصصت بها أحد المسؤولين، دون أن أكون احتفظت بنسخة منها، ربما لسبب لم أعد أذكره. ولكم سرّني أن أعرف بعد فترة وجيزة أنه أُطلق سبيلها. واستفسرت عن مكان إقامتها، وإذ تيقّنت من وجودها في بيتها في ضهور الشوير بلبنان، قمت بزيارتها، لتهنئتها بالعودة إلى أسرتها، الصغيرة والكبيرة. وإنّه ليسرني أن أذكر حول هذا الأمر، ما جاء تحت قلمها، في كتاب يحمل عنوان "مذكرات الأمينة الأولى، جولييت المير سعادة"، الصادر في بيروت عام 2004، صفحة (235)، بالحرف الواحد:

« كان ممثّلو المؤسسات الدينية الكاثوليكية والمارونية يزورون سجن النساء في مناسبات الأعياد، ويحملون معهم الهدايا لتقدّمها تلميذات مدارس الراهبات إلى كل السجينات. وكانت التلميذات يقدّمن مقطوعات غنائية راقصة ليدخلن البهجة والفرحة إلى السجن في هذه المناسبة. كما كان الرهبان يأتون لتهنئتي بالأعياد، ومن بينهم الارشمندريت سرج ***(هو الأب الياس صارجي)***، رئيس مدرسة البيزنسون بدمشق، حيث تعلّمت ابنتي صفية لفترة. وكذلك الارشمندريت إيلي زحلاوي ***(لم أكن يوماً سوى كاهن!)***، الذي أقام قدّاس يوم الميلاد في غرفتي بالسجن، وحضرته كل السجينات. وكان لمنظره وهو يقدّس وعيناه تدمعان أعمق الأثر في نفسي. بعد القدّاس أهداني كتاب الصلاة الذي حفظته معي، واستمرّت المراسلات بيننا بعد خروجي من السجن. »

لم يكن هذا النشاط من الأمور المألوفة في البطريركية. وكانت جِدّته كثيراً ما تفاجئ القيّمين عليها، وخصوصاً القائمين فيها. وكان أكبر المسؤولين سناً، أكثرهم ارتياحاً، وهو مستشار البطريرك، المطران "بطرس مدوّر"، مع مرشدي الطيب، الأب "الياس صارجي"، الذي كان يعود كل يوم من مدرسة راهبات البيزنسون، ويعتكف في غرفته، منصرفاً للصلاة والقراءة. وأما البطريرك، فكانت مهامّه الكثيرة واتساع مسؤولياته، تدعوه للتغيّب كثيراً عن دمشق. إلا أنّ تأثّره السريع والمعتاد، بما كان بعض "الغيارى" ينقلون إليه، بطرقهم الخاصة، كان ينعكس سلباً على الجو العام في البطريركية. وكنت أنا أصغر الكهنة سنّاً، بفارق كبير بيني وبين سائر الكهنة، فما كنت أطيق السكوت عن مثل هذه التصرفات. وحدث، عام 1964، إذ كان البطريرك في روما، في إطار المجمع الفاتيكاني الثاني، حيث كان واحداً من أقطابه القلة، أن كتبت له باسمي الشخصي، ودون إعلام أحد بذلك. وكنت آخذ عليه تسرّعه المفرط، في تصديق كل ما كان يَنقل إليه "بعضهم"، من دمشق، دون التريّث حتى عودته، للتثبّت من صحته. وقد أخبرني مستشاره المطران "ناوفيطس إدلبي" - الذي كانت تربطني به، منذ أن كان أستاذي في

القدس، صداقة عميقة - بعد عودتهما من المجمع المسكوني إلى دمشق، أنّ البطريرك أمره، في رد فعل أوّلي على رسالتي، بالكتابة لي كي أغادر دمشق إلى القاهرة على الفور. وقد عانى المطران "إدلبي" الأمرّين، طوال أسبوعين، وهو يستمهل البطريرك، بل يتحايل عليه، كي يوافق على إرجاء كتابة الرسالة، ريثما تصلهما معلومات دقيقة حول شكواي... وفي دمشق، التقيت البطريرك، ولكن بحضور مستشاره المطران "بطرس مدوّر". وعلى عادتي، لم أُخفِ عليه، بادئ ذي بدء، عتبي عليه بتأثره المفرط بكلام بعض المقرّبين منه، ولم أتردّد في ذكر بعض الأسماء... بالطبع استهول البطريرك مثل هذا الكلام يوجّه له، هو العائد من مجمع مسكوني، من قبل كاهن شاب في مثل عمري... وفي هذا اللقاء، كان الفضل الأكبر لمستشاره القدّيس، في ترطيب الجو طوال ساعة من الزمن... إلا أنّ الأمر بدأ يسوء، في آخر هذا اللقاء، إذ إني، بعد أن قبّلت يده، احتفظت بها وسألته، كما يسأل الابن أباه، ما عمره، فرد عليّ بسؤال: "وما شأن عمري الآن؟". فقلت: "سيّدنا، إن كنت أنت في ما يقارب الست والثمانين، تتصرّف بمثل هذا العنف، فلِمَ العتب عليّ وأنا في الثانية والثلاثين إن كنت أتصرف بعنف؟". فكان جوابه بالحرف الواحد: "أنا عنفي للخير، وأنت عنفك للشر!". وما كان في جوابه ما يمكن أن يشتمّ منه أي مزاح! فأسقطت يده من يدي، وقلت له بالحرف الواحد أيضاً: "الحكي معك عبث!". وخرجت. أجل، هكذا كانت علاقتي بأعلى سلطة في كنيستي. ومنذ ذلك الحين، بتّ أتمنّع عن مراجعته، حتى عندما كان يستدعيني، إلى أن كان يوم جاءني فيه الأب "الياس صارجي"، يدعوني لمرافقة البطريرك معه، في زيارته المقرّرة للرئيس أمين الحافظ. أدهشني الطلب، ولكني استجبت. وتمّت الزيارة، وكانت مدهشة من الجانبين، جانب الرئيس أمين الحافظ، بما يتحلّى به من لطف واحترام وإصغاء في ابتسامة دائمة، وجانب البطريرك بما كان عليه من صدق وجرأة ومحبّة، جعلته يُسمِع الرئيس حقائق لا أعتقد أنّه كان بوسع إنسان أن ينقلها له، حتى إني، إذ كنت أستمع للبطريرك وهو يتكلّم، وأراقب الرئيس وهو يصغي مبتسماً، كنت أتساءل في حيرة، لِمَ لا يصغي البطريرك بدوره، لمن يُسمعه كلاماً غير مريح؟

أذكر أن هذه المقابلة جرت قبيل عيد الميلاد عام 1965.

وفي تلك الأثناء، لم تكن الأمور في سورية، لتهدأ منذ سنوات طويلة! إلا أن أخطر ما حدث، قد يكون ذاك الانقلاب، الذي فاجأ الجميع فجر 23 شباط عام 1966، والذي أطاح بأمين الحافظ، ووصف ميشيل عفلق بعينه، "بالرأس العفن"! وكنت طوال هذه الأحداث أتساءل: ما دور الكنيسة؟ هل لها ما تقوله للناس جميعاً، مسيحيّين

ومسلمين، أم يكتفي أحد مسؤوليها بالتحدّث إلى الرئيس، عندما يُتاح له ذلك فقط؟ ثم إنّ الكثيرين ممّن عرفت من طلاب الجامعة من مسيحيين ومسلمين، بات حلمهم الوحيد الخروج من سورية! ولَكَم من مرة وجدتني أودّع بين يوم وآخر، هذا وتلك، فيما كان كل منهم يسمعني كلاماً طيّباً، فيه وعود جازمة بالعودة إلى البلد، مع أنّ الوقائع كانت تثبت استحالة عودة معظم من رحل!

وبعد أيام قليلة، عاد الطلاب إلى مدارسهم. فشئت لدرس الديانة في مدرسة راهبات "البيزنسون"، أن يكون أشبه بتأمل، في مخاطر الحقبة التي مرت منذ أيام بسورية، والتي كانت بالنسبة إليّ، واحدة من حقبات توالت على سورية منذ عام 1949. إلا أني لم أواجه الموضوع على نحو مباشر، فأخذت لذلك نصاً مشهوراً للكاتب الأميركي الساخر، "مارك توين"، كان قد نشره، قبل فترة وجيزة، الكاتب السوري المعروف، "فؤاد الشايب"، في مجلة "المعرفة"، التي كانت - وما زالت - وزارة الثقافة تصدرها. كان هذا النص يحكي محاولة بذلها أحدهم، للتوفيق بين فئات من البشر من جهة، هم في الأصل متعادون، مثل ما كان معروفاً عن الأتراك واليونانيين، والألمان والفرنسيين، والروس والبولونيين، الخ... وفئات من الحيوانات من جهة ثانية، هم أبداً متحاربون، مثل القطط والفئران، والذئاب والنعاج، والكلاب والقطط الخ... واختار من كل صنف من الفئتين، زوجين. ووضع المجموعة البشرية في بناء، ومجموعة الحيوانات في بناء آخر، وترك في كل بناء مؤونة من الطعام والشراب، تضمن حاجات الجميع بوفرة، لفترة زمنية محدّدة. وعاد بعدها، ففتح باب البناء الذي وضع فيه الحيوانات، فوجدهم كلّهم على أحسن حال، متعايشين، متآخين في سلام... ثم فتح باب البناء الذي وضع فيه أزواج البشر، ففوجئ بمشاهد مرعبة، إذ واجهته هنا وهناك، أشلاء بشرية، ونتف من الثياب، تقطر دماً... ولكنه لم يعثر على آدمي واحد، حي وسالم، في البناء كله!

إلا أنّ الأحداث آنذاك، وما سبقها من إضرابات حاشدة وعنيفة، كانت تنذر أبسط الناس، وأكثرهم تفكّراً، بما قد يكون تغييرات جذرية، وحتمية، قادمة، سياسية واجتماعية، في سورية والمنطقة على السواء. وكان كل ذلك يطرح الكثير من الأسئلة على الشبيبة عموماً، والشبيبة المسيحية خصوصاً، ولا سيما الجامعية منها. وكان الكثيرون منهم يبوحون لي بما كان يعتمل في أعماقهم من حالة مضنية، تتأرجح بين التساؤل والضياع والحيرة، بل والهروب، إن على صعيد الإيمان الشخصي، أو على صعيد المصير والمستقبل. ولَكَم من مرة كان يتّضح لي، أنّ معظم الطلاب الجامعيين المسيحيين، الذين كانوا يراجعوني، كانوا، على ما كانوا ينطوون عليه من صدق وذكاء، يفتقرون إلى

أسس قوية، يُرسون عليها إيمانهم الشخصي أولاً، وإيمانهم الكنسي ثانياً، وإيمانهم الوطني والقومي ثالثاً. كما اتضح لي آنذاك أنّ المهم ليس توزيع مسؤولية هذا النقص، سواء كان ذلك يعود إلى البيت، أو إلى المدرسة، أو إلى الكنيسة، أو إلى المجتمع برمّته. فالمشكلة قائمة، وهي تحتاج إلى علاج، مهما كان طفيفاً. وكنت على يقين أنّ هذا الذي أراه وأسمعه، وأقرأه أحياناً في هذه الصحيفة أو تلك المجلة، إنما هو يعكس حالة عامة، لا يجوز تجاهلها أو الاستهانة بها. فأخذت على نفسي أن أتلمس، في صلاتي، ومطالعاتي وتأملاتي، بعض الإجابات المعقولة، على هذه التساؤلات المصيرية. وشيئاً فشيئاً تبلور لديّ نص، تصوّرت فيه ما قد يكون بداية للإجابات المنتظرة. هذا النص، كان عنوانه "عرب مسيحيّون أو مولد إيمان". وألقيته في لقاء روحي، على كثافته واستطالته، أمام حشد كبير من الطلبة الجامعيين. وسررت إذ طلب النص بعضهم. وقد تبين لي أنهم أُخذوا بما كان قد ورد فيه. فرأيت أن أطلع عليه صديقي الأستاذ "أنطون المقدسي". فاحتفظ به لفترة، ثم قال لي ذات يوم، هذه الكلمات فقط: "المحاولة هامة وجيدة. تابع". وخلال عام 1969، رأيت أن أطبعه في كتيّب مستقل. ففعلت، بعد أن نلت الموافقة عليه من وزارة الإعلام. وفي عام 1990، قال لي أحد الأساقفة اللبنانيين، وقد كنت أهديته نسخة منه: "لو كان اللبنانيون قرأوا هذا الكتيّب الصغير، لما كانوا اقتتلوا طوال سنوات". وفي عام 1997، وقع اختيار صديقي "أديب مصلح"، على هذا النص أيضاً، وقد نُشر مع نصوص أخرى كما ذكرت سابقاً، في كتاب لي، طبعه هو أيضاً، وإنما في لبنان، على نفقته، تحت عنوان "ومن الكلمات بعضها...".

في هذه الأثناء كان وضعي الصحي، كما في كل شتاء سابق، يتدهور، إذ كنت أصاب بالتهابات في الرئتين، تسبّب لي سعالاً حاداً، كثيراً ما كان يتواصل في الليل والنهار. وإلى ذلك، كنت مصرّاً على متابعة أعمالي كلّها، من تدريس، إلى إلقاء المحاضرات، إلى تدريب جوقة الكاتدرائية، إلى تدريب طالبات مدرسة الفرنسيسكانيّات على الترنيم الكنسي، إلى عقد اجتماعات مع الشبيبة، إلى استقبال الكثيرين في مكتبي، في لقاءات شخصية، إلى المشاركة في اجتماعات "برادو الشرق"، في حلب أو حمص أو طرطوس أو دمشق أو الأردن، إلى كتابة الرسائل إلى هنا وهناك. وكنت أشعر يوماً بعد يوم، بتدهور صحتي، وبتأثير كل ذلك على قدرتي الصوتية، إذ بتّ ألمس فيها، بين حين وآخر، شيئاً من الوهن. وقد صارحت بذلك المطران "يوسف طويل"، فلم يكن منه إلا أن طمأنني بكلام جميل، ثم قال: "على كلٍّ، ما في غيرك!". وفي الحقيقة، كنت أفتى الكهنة في كنيستنا في دمشق.

إلا أني كنت أشعر بالإعياء يتفاقم. وهنا تحضرني حادثة كان يفترض فيها أن تكون بمثابة إنذار لي.

فذات يوم، دُعيت لمشاهدة فيلم هلّل له الكثيرون. فاستجبت للدعوة، خلافاً لميلي المألوف في معارضة ما يُجمع الناس عليه، رغبةً مني في اكتشافه بنفسي. كان فيلم "صوت الموسيقى" (Sound of Music). وفي الحقيقة انتزع إعجابي، حتى بتّ أشجّع من حولي على مشاهدته مع أولادهم. إلا أني كنت كلما شاهدته، أتساءل بحيرة: أي جبال من التعب كانت تثقلني في بيروت، يوم دعاني الأب جوزيف مصري لمشاهدته، فنمت؟! ويومها لم أستيقظ إلا في ختام العرض، بعد ثلاث ساعات تماماً، فيما كان الأب جوزيف يهزّني من كتفي، وهو يقول لي: "ضيعان العزيمة فيك! معقول تنام بهيك فيلم؟!" والحقيقة أني يومها، لم أحاول في ما بعد أن أعرف ما هو "هذا الفيلم"، حتى كان لي معه في دمشق، ما كان!...

بالطبع، راجعت العديد من الأطباء، حتى بات عدد منهم صديقاً لي. ولكن السعال الحاد كان أعند من جميع الأدوية. ووُجِد من نصحني بمعالجة عربية، حاسمة طبعاً، ومجرّبة! كانت تقوم على وضع قطع من البصل النيء في كأس من حليب، ويُغلى الكل فوق نار هادئة، حتى لا يتبقّى في أسفل الكأس المغلي، سوى خلاصة البصل والحليب، المترسبة في أسفل الكأس. وكان عليّ أن أشرب هذه الخلاصة، دونما سكر، كل صباح باكراً. وكانت أمي بالطبع هي التي تولّت إعداد هذه الوصفة الغريبة، خلال أشهر طويلة. ولما لم تُجدِ نفعاً، جاءنا أيضاً من يحمل، هذه المرة، وصفة عربية، "ولكن ناجعة بصورة قاطعة"، وكانت تقوم على أكل قطع من البصل النيء والحاد، صباحاً على الريق، في قطعة من "الخبز الحاف"، وكأنها سندويشة بصل. ودون استشارة أي طبيب، التزمت بهذه الوصفة أشهراً أخرى، ولكن دون أي تحسن. إلا أن الذي حدث بعد كل ذلك، هو أني أفقت صباح (26) آذار من عام 1966 - أجل في ذاك الصباح عينه، إذ كيف لي أن أنساه؟! - وأنا عاجز كلياً عن التلفظ بأي كلمة، لا حديثاً ولا ترتيلاً! وكانت أيام أسبوع الآلام وعيد الفصح، على الأبواب، ولم يكن، لا من طبعي، ولا من عادتي، أن أهمل مسؤولياتي، لا سيما بالنسبة إلى مناسبة استثنائية كهذه. فأكرهت نفسي على تدريب جوقة الكاتدرائية، "بالتي هي أحسن"، في الوقت الذي امتنعت فيه عن أي مجهود تدريسي، لاستحالته المادية. ولكن، يبدو أن الجهد الذي بذلته، من باب المكابرة، مع الجوقة، كان مدمراً بالنسبة إلى الحبلين الصوتيين. ونُصِحت في دمشق، بمراجعة طبّية عاجلة في بيروت. وكان أن شخّص الطبيب ارتخاء بالحبلين الصوتيين، وأمرني بالصمت

المطبق طوال ستة أشهر، فضلاً عمّا كان عليّ أن أتناوله من أدوية. ولَكَم كان ذلك قاسياً عليّ وعلى أهلي... وكانت قسوته تتفاقم بمرور الوقت، حتى بتّ أشعر وكأني أُصبت بما يشبه العجز المطلق، فيما أنا بعدُ في المنطلق من عمري الكهنوتي! وكانت خشيتي المتزايدة من استحالة استعادتي سلامة صوتي، تغمرني بالحزن كلما سمعت صوتاً جميلاً، وبالخوف على صاحب هذا الصوت، فأدعو له! وكنت، بقدر تظاهري أمام أهلي والناس، بالهدوء ورباطة الجأش، كنت، على الرغم من صلاتي الدائمة، أجدني مساء في غرفتي، أو في فراشي، غارقاً في البكاء. وأما في البطريركية، حيث كنت، في غرفتي، أو في غرفة الأب "الياس صارجي"، أو في مكتبي، أجلس صامتاً، مصلّياً لساعات طويلة، فقد فوجئت - ولَكَم يؤلمني أن أعترف بذلك! - بلامبالاة، كادت أحياناً تشعرني بما يشبه الشماتة! وفي ذاك الوقت الصعب، الذي استطال أشهراً، كانت أحياناً الدقيقة فيه تبدو لي كالأبدية... وحده كان يحتويني في إيمان وصبر مدهشين، شاب من دمشق، يدعى "روجيه كحيل"، مع أنه كان يصغرني بعشر سنوات، وكان قد جمعني به، بُعيد سيامتي الكهنوتية، صديقه وصديقي، "جورج حورانية"، الذي كان آنذاك في باريس، يسابق الزمن في الحصول على دكتوراه دولة في الاقتصاد. والحقيقة أن صداقة هذين الشابين كانت - ولا زالت! - نعمة إلهية في حياتي الكهنوتية، أشتهي مثلها لكل كاهن على وجه الأرض. إلا أنها لم تكن - والشكر للرب! - يتيمة!

ثمّة نشاط هام، لا بد لي من الاستفاضة بشأنه، قبل متابعة الحديث عمّا آلت إليه أحوالي الصحية، عنيت به "جمعية برادو الشرق".

طوال هذا الوقت، كانت جذور "البرادو" تنغرس على نحو واعد، في كل من أرض سورية والأردن، ولبنان. وكان ذلك شيئاً مفصلياً في حياتي. إلا أن شيئاً لم يكن ليحرّرني من الشعور الخانق بأن حياتي الكهنوتية انتهت إلى فشل، أو هي في طريقها بسرعة إلى فشل. وكان هذا الشعور القاتل يتفاقم، كلّما كنت أفكّر في ما كنت حمّلت أهلي، وعلى الأخصّ أمي، من تضحيات وقلق وخوف، تواصلت سنوات طويلة منذ طفولتي، وأراها بأمّ عيني، تتجسّد كل يوم في سكناهم في قبو، كان أشبه بقبر. وما كان بوسعي أن أحدّث إنساناً واحداً بكل ذلك، حتى ولا مرشدي الطيب، الأب "الياس صارجي"، إذ كان ديدنه أن يحاول دائماً تهوين الحال عليّ، بدعوتي للاتكال على الله وعلى أمّنا العذراء. فكنت أحياناً أتحامل على نفسي، وأقوم بزيارة للأستاذ "أنطون المقدسي"، علّني أستمدّ من إيمانه وتواضعه وسلامه، رجاءً جديداً، ولو كان طفيفاً، دون أن أحمّله مزيداً من أعباء،

فوق تلك الأعباء الباهظة التي كان قد حدّثني عنها طويلاً في ما سبق، يوم استمرّ طريح الفراش قرابة سنة كاملة، إذ كان كل ما يستطيع فعله، التحديق الصامت في المصلوب، مردّداً في قلبه هذه العبارة فقط: "لتكن مشيئتك!".

وطوال تلك الفترة، كنت كل يوم تقريباً، أجدني مدفوعاً لزيارة صديقي الشاب، "روجيه كحيل"، في بيت أهله. وكنت أقضي وإياه، معظم الوقت في صمت، أو نتبادل كلمات قليلة، فيما كان يُسمعني بعضاً من الموسيقى الكلاسيكية، ثم يرافقني في صمت إلى البطريركية.

وشيئاً فشيئاً، بدأ ينتابني إحساس غريب بفراغ عاطفي، ما كنت في ما سبق، سمحت لأدنى بوادره أن تذرّ قرنها، على الرغم ممّا كان يحيط بي، في مختلف ميادين نشاطي، من وجوه فتية، جميلة، جذابة، وخصوصاً على الرغم ممّا كان يأتيني من رسائل الإعجاب، أو من دعوات صريحة من هذه أو تلك، وأحياناً خلال تواجد إحداهنّ في مكتبي في البطريركية! وبدا لي، بمرور الوقت، أنّ "تلك المسافة"، التي كنت دائماً، حريصاً كل الحرص على الإبقاء عليها قائمة بيني وبين "الأنثى"، أخذت تتآكل على الرغم مني... واستبدّ بي الشعور بضرورة الاستنجاد بالأب "بوديه"، إذ كان الأقرب إليّ، مكاناً وروحاً، فلم أحظَ به، إذ تبيّن لي أنه كان غائباً عن الدير في رياق، منذ فترة طويلة. وما كان بوسعي أن أحدّث أحداً في مثل هذا الأمر، أو هكذا بدت لي الأمور، بسبب ما بلغته من وهن. وكان آنذاك وجه نسائي محدّد قد أخذ يفرض حضوره الخفي عليّ، من داخل ذاتي، ودون أن يكون للصبية الجامعية، علم بأي شيء من كل هذا الصراع الداخلي. وطوال تلك الفترة الصعبة، كان كل همّي يرتكز على صلاة وحيدة، كنت أردّدها ليل نهار: "ربي يسوع، أرجوك، لا تسمح لي بالإساءة إليك!".

وأخذت وطأة هذا الصراع تشتد وتتفاقم، يوماً بعد يوم، مع حلول الظلام، وأنا في حيرة من أمري، أبذل جهوداً خفية جبارة، كي لا أدع لأحد أن يكتشف بعضاً ممّا بي. ثم جاء يوم، بتّ فيه لا أطيق الجلوس وحيداً في مكتبي، في البطريركية، في حين أني كنت، في ما سبق، أحسد نفسي على المكوث وحيداً فيه لبعض الوقت، أصلي، أو أقرأ، أو أكتب... وجاء يوم آخر، صرت لا أطيق فيه النوم وحيداً في غرفتي، لشدة ما كان ينتابني من هواجس ومخاوف، لا سيما وأنّ قراءاتي السابقة الكثيرة، التي كانت تملأ عليّ لياليّ وتطلّعاتي وصلواتي، لم يعد لي فيها جاذب ولا مبرر. فأخبرت أمي - وكذلك مرشدي الأب "الياس صارجي" - برغبتي المزاجية في النوم لفترة ما، في بيت أهلي. فوجدتني كلّ مساء مغموراً بحنان رائع، كان، للأسف، يُذكّرني، على الرغم مني،

بالغربة القاسية التي كنت أواجهها في البطريركية. وبذلك وجدتني في الليل والنهار على السواء، في دوّامة، لا تهدأ ولا ترحم، من اضطرابات صاخبة ومتنوعة، قادتني أحياناً - أأقولها؟ أجل سأقولها، في اندفاعة صدق حيال ذاتي وربّي ليس إلا! - إلى اشتهاء الموت!...

ولدى مراجعتي أحد الأطباء، نصحني بالمهدئات والإكثار من النوم، بعد أن شخّص "اضطراباً عصبياً"!

وإلى ذلك، فقد كانت الأمور في البطريركية تشكو من افتقارها الكبير إلى الحضور الإنساني، بل حدث لي فيها ذات ليلة، ما لم يكن ليخطر لي ببال!

فقد كنت أصلي المسبحة، وأنا أتمشى في الممر المفضي إلى غرفتي، وكانت الساعة تقارب الحادية عشرة. فجأة سمعت ما بدا لي بكاءً متشنّجاً، ومتتابعاً. فأصغيت في قلق. وتبيّن لي أنّ الصوت ينبعث من غرفة المطران بطرس الشامي، الملاصقة لغرفتي، والمقابلة لغرفة الأب الياس صارجي. فلم يكن مني إلا أن قرعت على غرفة الأب صارجي، وحدّثته في الأمر، فأصغى بدوره إلى الصوت المنبعث من غرفة المطران الشامي. ثم قرّرنا أن نقرع الباب... وكان هو نفسه من فتح الباب، إلا أنه كان يحاول لجم انفعالاته... وكان يعرف مدى ما كنّا نكنّ له من محبة واحترام. فبادرناه بكلمة واحدة، لم نجد سواها نقولها له: "خير سيّدنا؟"... وكنّا نعرف أنه كان عائداً من روما منذ أيام قليلة، حيث استدعي للدفاع عن نفسه، في تهمة رفعت ضدّه، وتبنّاها البطريرك! فحدّثنا بكلام متقطّع عمّا عانى هناك، إلا أنه لم يكن يستطيع دائماً لجم بكائه... وإني لأذكر من كل هذه الجلسة المؤلمة، التي قد لا يصدّق حدوثها الكثيرون، جملة واحدة، كان يردّدها بمرارة، باللغة الفرنسية، كما قيلت له من قبل أحد المراجع الكنسيّة الكبرى في روما، وهي (Nous ne pouvons pas ne pas croire le Patriarche)! وكان يكرّرها، وهو يتساءل باكياً: "أإليّ أنا يقال مثل هذا الكلام؟!..."

أما هذه العبارة، فهي تعني بالحرف الواحد:

"لا يسعنا إلا أن نصدّق البطريرك!"...

في هذه الأثناء، قدِم من تشيكوسلوفاكيا، لقضاء العطلة الصيفية في دمشق، قريب لي يدعى "إدوار"، كان يدرس الهندسة هناك. فعلم بما حلّ بي من إصابة في حنجرتي، فزارني ودعاني لمرافقته مع أخيه الأكبر "جورج"، إبان عودته إلى تشيكوسلوفاكيا، في مطلع شهر آب، وأكّد لي وجود أطبّاء مشهورين هناك. فوجدت في دعوته فرصة للابتعاد عن دمشق، وربما لمعالجة مُجدية. وطلبت السماح لي من البطريرك بالسفر

للمعالجة، وأخبرت أهلي بذلك. وحملت معي كل الأوراق الضرورية، والأدوية الكثيرة التي كنت أتناولها، ولا سيما المهدئات العصبية. وانطلقنا نحن الثلاثة في سيارة "إدوار". كان الطريق متعباً ومرهقاً للغاية. ولم تكن السيارة من الجودة والمتانة، كما قيل لصاحبها. فخذلتنا مراراً. ووصلنا بشق النفس إلى "صوفيا"، عاصمة بلغاريا، حيث أُتيح لي أن أحضر قدّاساً احتفالياً، في كنيسة "ألكسندر نفسكي" الرائعة، لم أحضر ما يشبهه في حياتي، أبّهة وترنيماً. وقد اشترك فيه وفد كنسي روسي، بالاحتفال بعيد هذه الكاتدرائية، يوم 15 آب.

وهنا لا يسعني إلا أن أروي ما حدث لي، لحظة دخلت الكنيسة، إذ كانت مذهلة بسعتها وأيقوناتها. وكانت لا تزال شبه فارغة، فبحثت عن كاهن. وإذ بي أجده عند هيكل صغير، خلف الإيقونوسطاس. فتوجهت نحوه، فكان عندها يعِدّ القربان للقدّاس، وكنت أرتدي ثياباً مدنية. فحيّيته وعرّفته بنفسي، باللغة الفرنسية. وكان، لحسن الحظ، يعرفها. فرحب بي بلطف، وعرّفني باسمه: "الأب بلاغوي تشيفلييانوف" (Blagoy TCHIFLIANOF). فعايدته بعيد العذراء، وسألته إن كان يجوز لي الاشتراك في القداس. فاستمهلني بكل لطف، ريثما يأتي الأسقف، ليسأله. وإذ بالأسقف يدخل بعد دقائق، مع الوفد الكنسي الروسي، وجمهور ملأ الكنيسة الضخمة في لحظات. وقدّمني الأب "بلاغوي" للأسقف، وتحدث معه، ثم التفت نحوي وقال: "المطران يأسف لاستحالة مشاركتك معنا في القداس، لأنك كاهن كاثوليكي. ولكنه سمح لك بالبقاء بالقرب من الهيكل، لتشترك معنا في القدّاس، على هذا النحو". فشكرته بتأثّر واضح. وما عشته في ذاك اليوم، كان حقّاً قدّاساً إلهيّاً عشته بكل جوارحي. وقبيل المناولة، تقدّم مني الأب "بلاغوي" وقال: "أعتذر، لأنك لا تستطيع أن تأخذ القربان". فأجبته على الفور: "اطمئن، أبت. أنت الأب "بلاغوي" تتناول جسد الرب، فهذا يعني أني أنا الأب "الياس"، أتناول أيضاً جسد الرب!". فتقدّم مني وعانقني بحرارة. ثم عاد إلى الهيكل وتناول جسد الرب. وفي ختام القداس، عاد إليّ، وتحادثنا قليلاً، ثم تبادلنا عنوانينا. وإني لأذكر حتى الآن عنوانه، (rue Yavorets, Sofia10)، لشدة تأثري بطريقة تعامله معي، أولاً، ولكثرة ما كتبت له من دمشق، داعياً إياه لزيارة سورية، ثانياً. ولكن رسائله إليّ كانت أقلّ من نادرة. ثم جاء يوم انقطعت فيه أخباره عني... إلا أن صورته وصوته ماثلان في ذاكرتي وصلاتي حتى اليوم. وإن أنا رويت هذا الذي حدث لي مع هذا الكاهن الغريب، ذات يوم من عام 1966، في إحدى كنائس صوفيا ببلغاريا، فإنما لأقول فقط لكل من سيقرأني ذات يوم، هذه الحقيقة الإنسانية العظيمة، وهي أن لكل إنسان، لو شاء، القدرة على أن

يكون إنساناً عظيماً وقريباً من كل إنسان، مثلما كان بالنسبة إليّ، في لحظة عابرة، هذا الكاهن البلغاري، "بلاغوي تشيفليييانوف"!

وفي "براغ"، وهي مدينة مذهلة بحدائقها ونهرها "الفولتافا"، وكاتدرائيتها، أقمت قرابة ثلاثة أسابيع، تلقّيت خلالها نوعين من العلاج، دون فائدة. فكنت أقضي معظم وقتي في زيارات استكشاف لمعالم المدينة الكثيرة، أو في بكاء في مقرنا الجامعي، بسبب ما آلت إليه حالي من الوهن واليأس. وما أظهره لي آنذاك "إدوار" وشقيقه "جورج"، من صبر ومودة، كان يفوق كل وصف. وأخيراً قرّرت السفر إلى فرنسا، أملاً مني بلقاء "الأب آنسل"، رئيس "جمعية البرادو"، وقد بات في نظري، آخر مرجع تسعني مصارحته بكل شيء. وسافرت بالقطار ليلاً، ودون موعد مسبق معه. فوصلت باريس صباحاً، وكنت في غاية الإنهاك. فحملت حقيبتي الصغيرة، وانتقلت "بالمترو" إلى حيث يقطن الأب "بيير بوز"، في شارع "بروفير" (Rue des PROUVAIRES). وشاءت العناية الإلهية أن ألقاه وهو خارج من بيته! فأدخلني بيته، وقدّم لي شراباً ساخناً، مع وجبة صباحية سريعة. فتماسكت قليلاً، وشرحت له بعض المصاعب التي مررت بها، منذ إصابتي بالحبال الصوتية. وبيّنت له، بكل بساطة، حاجتي إلى مبلغ يغطّي سفري إلى مدينة "ليون"، للقاء "الأب آنسل"، ومن ثم عودتي إلى باريس، وسفري المباشر إلى دمشق، بالطائرة، مروراً ببيروت. فابتسم وقال: "لا تقلق! الشكر للرب لأنه جمعني بك هذا الصباح. لا تقلق. هيا بنا". وجرت الأمور وفق المرام. ولم يدعني إلا بعد أن سلمني بطاقة القطار ذهاباً وإياباً، وبطاقة الطائرة بين باريس وبيروت، ومبلغاً احتياطياً. ثم اقتادني إلى محطة القطار، وبحث لي بنفسه عن مكاني، وأجلسني فيه، وهو يردّد بالعربية: "الحمد لله، الحمد لله!". ثم قال لي بالفرنسية، وهو يودعني: "أبونا، أنا أعرفك قوياً! فكن قوياً الآن! وإياك أن تنسى أن الله معك. وإلا، فمن جمعنا اليوم؟". ثم عانقني بحرارة ومضى.

وصلت مدينة "ليون" بعد الظهر. وقصدت على الفور دير "جمعية البرادو" فوجئت عندما علمت أنّ "الأب آنسل" في مدينة "كليرمون فرّان" (Clermont-Ferrand)، التي تبعد قرابة مائتي كيلو متر إلى الجنوب الغربي من "ليون". فاتصلت هاتفياً به، فنصحني بالمجيء في القطار الليلي، كي يتسنى له أن يلتقيني في الصباح، بين فترات المحاضرات، التي كان يلقيها على مجموعة من كهنة المنطقة. فأمضيت ذاك المساء كله في قلق، وأنا أتساءل من لي بمن يقودني في منتصف الليل إلى محطة القطار، وكان الطقس ماطراً. وصدف، إذ كنت خارجاً من دورة المياه، وأنا بكامل ملابسي، في العاشرة

ليلاً، أن رآني أحد الكهنة، وهو خارج من غرفته، فحيّاني وبادرني بالسؤال عمّا إذا كنت بحاجة لشيء، فاستغربت سؤاله، فبرّره بملامح وجهي القلقة. فقلت له حاجتي. فما كان منه إلا أن بدّد قلقي، ودعاني للنوم حتى موعد القطار، على أن يقتادني هو في سيارته إلى المحطة، لا سيما وأن الأمطار كانت تنهال بغزارة. وهكذا كان. وفي المحطة، أصرّ على تزويدي بسندويشة كبيرة للطريق، واقتادني إلى مكاني في القاطرة، ثم غادرني بكلمة طيبة، دون أن يكون خطر ببالي أن أسأله اسمه!

وفي مدينة "كليرمون فران" الصغيرة، التقيت أخيراً "الأب آنسل"، وكأني به مخلّصي الأوحد، من الكابوس الذي كان يلازمني ليل نهار، منذ أشهر. وقد استقبلني في كامل الوقت، المتاح له بين محاضراته هذا اليوم. فحدّثته عن كل ما بي، ولم أدع ركناً من أركان حياتي، إلا وكشفتها له بصراحة مطلقة. وكان على عادته، محني الرأس قليلاً، يحدّق بي بعينه الوحيدة، فيما ملامح وجهه الطيب السمح تنضح حبّاً. وكان يكتفي بين حين وآخر، بالتلفظ بكلمة "نعم" (Oui) بهدوء، وهي تخرج من شفتيه كما لو كانت "voui"، وكأني بها تنهيدة من عمق ما اكتنز عقله من فهم، وقلبه من حب... وبعد الغداء، وقد تناوله معي في غرفة صغيرة، اتصل بالأب "بوز"، هاتفياً، ورتّب معه مواعيد عودتي في الغد إلى باريس، في القطار الليلي، واقتيادي بنفسه إلى المطار. ثم جلس يحدّثني من وحي كل ما سمع مني في الصباح. ولَكَم اتضح لي، إذ كنت أستمع إلى تحليلاته وملاحظاته، صحة الحدس القوي الذي جعلني أترك "براغ" على عجل، وأسارع للقاء به، كما لو كنت أملك قوة خارقة، فيما كنت في الحقيقة، أحاول تجميع ذاتي الممزقة، وأنا أردّد كل لحظة، صلاتي المعتادة: "ربي يسوع، لا تسمح لي بالإساءة إليك!".

وعندما غادرت "الأب آنسل"، كان بعض السلام قد استقر في أعماقي، على ما كنت عليه من وهن جسدي، ليقيني بخروجي، عاجلاً أو آجلاً، من معاناتي النفسية والعاطفية، تاركاً جانباً، ما أمكنني، أمر استعادة سلامة صوتي. وقد كان أهم ما حملت من أقوال "الأب آنسل" لي، هذه العبارة الغريبة: "يا ولدي، أعتقد أن يسوع يطحنك، ليجعل منك خبزاً طيباً!".

وفي بيروت، قصدت على الفور، مكتب صديق الطفولة، جورج حمصي، ذاك الذي كان والده الضابط السوري، قد غادر دمشق مع عائلته عام 1945، في ركب الجيش الفرنسي المنسحب، ثم استقر في لبنان. فحدّثته عن بعض ما بي، وسألته تسديد الدين المترتّب عليّ لصديقي "الأب بوز" في باريس. فلَم يتردّد لحظة واحدة، وفعل ذلك فيما أنا أجلس في مكتبه. وإذ كنا نتبادل الأخبار، رنّ جرس الهاتف، وما إن أمسك بالسماعة، حتى

تجهّم وجهه، وأصغى طويلاً، ثم أغلق السماعة، وهو يحدّق فيّ، ثم قال: "تصوّر، أبلغوني الآن أن صديقي (فلان) قد انتحر، نتيجة إصابته بانهيار عصبي!"...

وفي دمشق، كان جميع أهلي على أحرّ من الجمر. وفي البطريركية فوجئت بالبطريرك يخصّني باستقبال ودود للغاية. وكان أسعد الناس بعودتي، مرشدي الطيب، الأب "الياس صارجي"، وصديقي الشاب "روجيه كحيل". إلا أني لم أدع أجواء دمشق، كما كانت في السابق، تبتلع وقتي واهتماماتي. والتزمت بتوجيهات طبيبي في دمشق. وقلّصت عدد المواعيد الشخصية لي في البطريركية. وانصرفت إلى مزيد من الصلاة والمطالعة.

وشيئاً فشيئاً، عدت أتابع عن كثب، بعض الأحداث والتطورات السياسية. وكانت سورية آنذاك تبدو أشبه بدائرة مفصلية، فيها كل ما يجري في الشرق، من أحداث خفية أو ظاهرة. وكان يبدو لي أنّ نظام الحكم فيها آنذاك، يتخبّط في حركات تمرّد لا تهدأ، وفي إجراءات أمنية واقتصادية، فيها من الارتجال والتعسف والتخبّط، ما لم يكن من الممكن لأشرس أعدائها، لو تسلّموا الحكم فيها، أن يقوموا بمثلها. وكانت الأحزاب فيها على اختلاف تسمياتها، من وطنية، وشيوعية، واشتراكية، وإخوانجيّة، وبعثية، تتنافس، وكأني بكلّ منها يمتلك وحده الحلول السحرية لجميع مشاكل سورية والمنطقة، فيما كان معظم زعمائها يتمسّح، إما بأعتاب العسكريين في الداخل، وإما بالقوى الأجنبية في الخارج. وكنت بين حين وآخر، أقصد بيت صديقي "أنطون المقدسي"، بموعد أو بدون موعد. وكثيراً ما كنت أجد لديه ضيوفاً من عرب وأجانب، يتبادل وإياهم الآراء والتحليلات، في صفاء وصدق، قلّما وجدتهما في سواه. وكان حراً، بكل ما في كلمة حرية من أسس وشروط وأبعاد. وكان عربيّاً حتى العظم، وسوريّاً حتى العظم، ومسيحيّاً حتى العظم. ولذلك كان حقّاً كلاً للكل. وكان بحكم علاقاته الوثيقة بمؤسسي حزب البعث، لا سيما بصديقه الأقرب، المفكر "زكي الأرسوزي"، لا يتورّع عن ذكر انسحابه من الحزب، إثر تسلّم الجيش مقاليد الحكم باسم البعث. كما أنّه كان، بوصفه مدرّساً للفلسفة في الجامعة، وحتى في معهد العلوم السياسية، يسعى، جهد المستطاع، إلى تلقين الطلاب طريقة التفكير السليم، وذلك في وجه نهج تعليمي كارثي، درج عليه الجميع، منذ الطفولة، يقوم على الحفظ الببغائي، بقصد النجاح ليس إلا! وكانت نظرته إلى الأحداث تتّسم دائماً، بالواقعيّة والتحليل الفكري والتاريخي، الموضوعي. فهو، إذ كان ينطلق من الوقائع الراهنة، أية كانت، يحاول أن يعود بها إلى جذورها الحقيقية، إن في التاريخ، أو في تطور المجتمعات، ولا سيما في شرائحها الواسعة، الفلاحية أولاً، ثم العمالية. وكان لا يني يستمدّ رجاءه العنيد

والقادم، من عمق مستقبل، مفتاحه بيد الشعوب والله، أولاً وأخيراً. ولَكَم كان يشجّعني على متابعة خدمتي الإنسانية والثقافية والروحية، لجميع مَن كان يقصدني من شبّان وشابّات، على ما في تلك الخدمة من دقّة، وغموض أحياناً كثيرة، ودون الالتفات إلى العقبات، أيّاً كان مصدرها وحجمها!...

وعدت في الوقت نفسه إلى ما كان استرعى اهتمامي، لسنوات خلت، من حركة ثقافية نشطة، تجلّت على نحو خاص في نطاق المسرح، هذا النطاق الذي كان يستهويني، مطالعةً وتمثيلاً، حتى في اللغة اليونانية القديمة، أيام الدراسة، في رياق وفي القدس على السواء. ويومها لم يكن في دمشق، كما أذكر، سوى مسرحين، هما "صالة الحمراء"، و"قاعة أبو خليل القباني". وكان المسرح يعتمد نصوصاً مترجمة في الغالب، أبرزها كان "لبرتولد بريخت"، مثل "الاستثناء والقاعدة". وكانت النصوص العربية الموضوعة نادرة، إلا أنّ هذه العروض كانت تجتذب جمهوراً فتياً، لم يكن بخاف على المتابع اليقظ، أنه يتّسع ويزداد، أسبوعاً بعد آخر، إقبالاً وتفاعلاً. والجميل في هذا التفاعل المتبادل، أنه لم يكن لينتهي عند باب المسرح، أياً كان الممثل أو المخرج، إذ كانت التحية تقابل بأحلى منها، وكان الانتقاد حتى داخل الكواليس، لمخرج مثل رفيق الصبان، أو لممثل بحجم هاني الروماني، يُقابَل، بصدر رحب وحوار مستفيض، كما حدث لي ذات يوم معهما، إثر عرض مثير لمسرحية "موليير" الشهيرة، "ترتوف"، في قاعة "القباني"، عام 1966.

وهنا يطيب لي أن أروي قصة مفاجأتين: جرت أولاهما، في مطلع عام 1967، يوم اتصل بي هاتفياً محامٍ مشهور يدعى إبراهيم البطل، ويعاتبني عتاباً شديداً على مقال لي قرأه في عدد الميلاد من مجلة "المسرّة". ولم يكن في ما سبق، قد اتصل بي ولا مرة واحدة، هاتفياً. نبرته وكلماته فاجأتني. إلا أن ردّي عليه فاجأه أكثر، لأني أكّدت له أني لم أنشر أي مقال في المسرّة. ولما كان يصرّ، ويأخذ عليّ ما اعتبره انتقاداً للكنيسة في غير محلّه، نظراً للمجتمع العربي والإسلامي الذي نعيش فيه، انتهى بي الأمر إلى سؤاله عن عنوان هذا المقال، فقال: "أجمود أم تجميد؟". وإذ ذاك صرخت تلقائياً في وجهه: "خَيِّ! نشره أخيراً الأب "فاخوري"!". وعندها انتقلنا معاً إلى تبادل الآراء في مضمون هذا المقال... وفي ظرفية نشره... وكانت تلك هدية ثمينة حملها لي الأب "جورج فاخوري"، من حيث لا يدري، في مطلع السنة الجديدة، وفي الظروف الصعبة التي كنت أواجهها... فأوقد بذلك شعلة أمل جديدة في أعماقي!

وأما المفاجأة الثانية، فقد حدثت مساء 27 شباط عام 1967. ذلك بأني كنت قد

كتبت قبل هذا التاريخ بما يقارب ثلاثة أشهر، رسالة إلى "الأب أنسل" (Père ANCEL) رئيس "جمعية البرادو"، أطلعه فيها على ما كان يستبدّ بي من قلق ووهن، ومرض وضياع! وكان قد جاءني جوابه من... اليابان، في رسالة يخبرني فيها أنه يحيي في طوكيو، لقاء روحياً، لعدد كبير من الكهنة اليابانيين، وأنه قرّر أن يتوقّف في طريق عودته إلى فرنسا، في بيروت، صباح 1967/2/27، كي يزورني في دمشق، مساء اليوم نفسه! وكنت أرقب هذا اليوم بتلهّف شديد. إلا أن الطقس كان، في ذاك اليوم بالذات، سيئاً للغاية، وقد أُعلن أنّ طريق بيروت غير سالك، بسبب تراكم الثلوج.

وفي ذاك المساء، كنت جالساً في مكتبي أصغي إلى أحدهم، وعيناي إلى النافذة، راجياً حدوث المستحيل. وفجأة، قرابة الساعة السابعة، سمعت نقراً خفيفاً على الزجاج، مع أن باب مكتبي كان، على عادته، مفتوحاً. فحدّقت، فرأيت الأب أنسل من خلف الزجاج يقف باسماً! فصرخت: "مستحيل!" (Pas Possible)، وأسرعت إليه. أجل كان هو! وقد أخبرني أنه قدم في سيارة تكسي عادية، عن طريق مرجعيون، وكان فيها سبعة ركاب! يومها، كان "الأب أنسل" في السابعة والستين، وهو ذو عين واحدة! وليلتها، ظل معي يحدّثني ويصغي إليّ، حتى الواحدة ليلاً! أأقول إن روحي رُدّت إليّ؟! ولو لساعات، ولو لأيام؟! بلى، أقولها دونما خجل، وفي شكر عارم للرب، الذي يرسل إلى كنيسته، مثل هؤلاء المسؤولين، المحبّين، الصادقين، المتفانين! وكان أن أمضى اليوم التالي، بعد لقائه المطران يوسف طويل، في ثلاث زيارات، اثنتان قبل الظهر، لانطون المقدسي، وصديقه المفكر بديع الكسم، والثالثة بعد الظهر، لدير سيدة صيدنايا. وفي اليوم الثالث، غادر باكراً إلى بيروت، فباريس!

هذا العام كان، كما يعرف الجميع، حافلاً بأحداث سياسية واجتماعية، خطيرة داخل سورية وخارجها. وليس من يجهل أنها انتهت إلى الكارثة التي حلّت بجميع العرب، ولا سيما في مصر وسورية، في الخامس من حزيران عام 1967.

قبل وبعد هذه الكارثة، حدثت أمور تستحقّ الوقفة والتأمل.

أولها، كان أن البطريرك مكسيموس الرابع الصائغ، قد كلّف الفنان التشكيلي "الياس زيات"، رسم أيقونة القيامة على جدار كنيسة صغيرة، تقع تحت الكاتدرائية في حارة الزيتون، كي تكون مدفنه، إذ بات يستشعر دنو الأجل، وهو يقارب التسعين. وأُعطي "الياس زيات" مفتاح باب البطريركية، كي يأتي متى يشاء، دون أن يحتاج لقرع

الباب. وفرحت فرحاً عظيماً لهذا التكليف، أولاً لأنّ "الياس زيات" فنان تشكيلي ليس كمثله في شرقنا العربي، من يرسم الأيقونة البيزنطية. ثم هو أكثر من صديق بالنسبة إليّ، وأنا كلّما كنت أتحدّث عنه، أصفه بالأيقونة الحية. فصرت ألازمه فترات طويلة، وأنا في ما أنا فيه من وضع صحي متقلّب، ومن ألم في الحنجرة لا يهدأ، فكنت أشعر براحة عظيمة كلّما جلست أراقبه في صمت و... صلاة. وكانت الأيقونة تتشكّل تحت عينيّ، بخطوطها وألوانها وتدرجاتها وأشكالها، وكأني أشهد دقيقة بدقيقة، ولادة القيامة في ما سيصبح ضريح البطريرك بعد فترة. وكنت في مختلف مراحل هذه الولادة، أعيش مع الياس، ما يمكن أن يكون فرح المشاركة، ولو بالعين والفكر والمشاعر والصلاة، في هذا الخلق لعمل فني وديني استثنائي، لم يسبق لي أن حظيت بمثله، وقد لا يكون الكثيرون حظوا بما يشبهه. واكتملت الأيقونة كلّها، باستثناء... وجه يسوع. وكان أن ظلّ الياس يحاول، ويكرّر المحاولة بضعة أيام، ثم يقف إزاء اللوحة ويصمت طويلاً... وأخيراً يسألني: "شو، أبونا؟". وكنت غير مرتاح، فكنت أجيب بالنفي. وكان الياس يعقّب جازماً: "ولا أنا مرتاح!". ومساء الرابع من حزيران، أغلق الياس باب الكنيسة الصغيرة، وخرجنا معاً، على أمل اللقاء في الغد. وصباح الخامس من حزيران، هبطت إلى مكتبي في تمام الساعة الخامسة والنصف صباحاً، وجلست أصلّي، وقد تركت باب المكتب مفتوحاً. وقرابة الساعة السادسة، سمعت صرير باب البطريركية، وهو يفتح. فوقفت في باب مكتبي، المطل على مدخل البطريركية. وإذ بالياس الزيات يدخل. وما أن لمحني، حتى صرخ باعلى صوته: "شفتو! شفتو!". وتقدّمت منه، فكرّر القول ووجهه مغمور بغبطة لا توصف: "أبونا، شفتو! شفتو! الحقني!". وأسرع الخُطى في اتجاه القبو، وفتح الباب، وانصرف إلى أدواته بسرعة لا تُصدّق. وما هي إلا دقائق، أجل دقائق لا أكثر، حتى اكتملت قامة يسوع بوجه لا أروع، ولا أبهى!... ثم ابتعد الياس عن اللوحة، وأطال النظر فيها، ووجهه مشرق، ثم مال نحوي وهو يرسم إشارة الصليب على صدره، ويقول: "الحمد لله! الحمد لله!". وعاد يطيل النظر في وجه الناهض من الموت!

وفي تمام الساعة السابعة والنصف، كنت في مدرسة المعونة مع العديد من المدرّسين، منهم حسام الدين الخطيب ورياض ديب، ندردش في أمور الساعة، ريثما يحين موعد بدء الامتحانات المدرسية. وقبيل الثامنة بدقائق، أعلمنا الأستاذ رياض ديب أنه بلّغ قيادة الجيش خلال الليل، إذ كان هو رئيس مرصد الأحوال الجوية يومها، أن نوع الغيوم المنتشرة فوق هضبة الجولان، بحكم كثافتها وانخفاضها، قد

تسهّل على الإسرائيليين شنّ الهجوم المرتقب على سورية، هذه الليلة بالذات! ثم بدأت الامتحانات في تمام الثامنة. وكان كلّ شيء هادئاً وعادياً. إلا أنّ خبراً سرى في تمام الساعة التاسعة والنصف، ببدء الحرب!...

أجل، في ذلك الصباح، شُنّت حرب الخامس من حزيران!

هذه الأيام والليالي كانت صعبة للغاية. بدا كل شيء في انهيار تام. ليس بيد أي إنسان أن يفعل أي شيء، سوى ترقب الأخبار والصلاة! وكان صديقي الجديد سمير سلمون، يأتيني كل مساء إلى بيت أهلي، فنمضي الليل، بين صلاة وتسقّط الأخبار على الراديو، وتبادل بعض الكلمات، وصمت ثقيل لا ينتهي. إلا أني أمام ما تسرّب إلينا، من أخبار جنود وضباط عادوا من الجبهة في حالة يرثى لها، ومضت في ذهني فكرة المضي إلى خطوط الجبهة، مع بعض الأصدقاء المتطوّعين، في سياراتهم، عسانا نجد بعضاً منهم في حاجة إلى وسيلة نقل، لنعود بهم. ولبّى ندائي خمسة أصدقاء، فانطلقنا صباح 6/11، بخمس سيارات صغيرة، حتى وصلنا إلى بلدة "نوى"، حيث بُلّغنا استحالة التوغّل أبعد من ذلك. وفي طريقنا وجدنا من الجنود والضباط ما ملأ السيارات الخمس، وعُدنا بهم، دون أن يكون أيّ منا فطن لتسجيل اسم أي واحد منهم. والحقيقة أننا كنّا كلّنا واجمين!

وانصبّت على دمشق موجات النازحين. واستُقبِل عدد كبير منهم في المدرسة البطريركية، فيما توزّع الكثيرون هنا وهناك... وأُنشئت مراكز كثيرة لتنظيم الخدمة لهم. وتداعت جميع كنائس دمشق، من أجل دراسة أوضاعهم وتلبية حاجاتهم. وكانت الاجتماعات تُعقد برئاسة الأساقفة المتواجدين، تارةً في المريمية، وطوراً في حارة الزيتون. ثم كان أن أُنشئت هيئة واحدة، باسم جميع كنائس دمشق، وكُلِّفت أنا تنظيم حملة التبرعات باسم هذه الهيئة. ولبّى ندائي العاجل، مائة وأربعون رجلاً وسيدة، وشاباً وفتاة. فوُزِّعوا في لجان صغيرة، وكلّفوا الجباية في الأحياء الخاصة بكل لجنة. وقد سلّمت كل لجنة دفتراً خاصاً، يُسجّل فيه اسم المتبرّع، وطبيعة تبرّعه مع توقيعه، وتاريخ التبرّع. أذكر كل ذلك لأمور كثيرة أخصّ بالذكر منها، أولاً أنه اتّضح لجميع اللجان، أنّ الأحياء الفقيرة كانت على ما بها من ضيق، أسخى من سواها، من حيث نسبة التبرع، ومنها ثانياً أن قلّةً من عائلات الأحياء الثرية، كانت من النبل والسخاء، بحيث كانت تفتح خزائن الثياب، وتسأل الشبان والشابات إفراغها مما فيها، وترتيبها في حقائب كانت مُعدّة لهذا الغرض. ومنها ثالثاً أنّ ذلك الجهد الموحّد بين جميع الكنائس المسيحيّة، كان على مدى تاريخها الطويل، أوّل عمل مشترك بينها!...

ثمّة موقف اتّخذته قبل حدوث ما حدث منذ الخامس من حزيران، ولا بدّ لي من التوقّف عنده. ذلك بأنّ الأحداث السياسية كانت تتسارع وتتفاقم منذ أشهر. وكنت في ما يخصّني، أحاول قراءتها في ضوء ما يُملي عليّ ضميري، وفي ضوء ما كنت أرى فيه واجباً مفروضاً على الكنيسة. وكنت أتوقّع، إزاء التطور السريع للأحداث، أن يتداعى المسؤولون الكنسيون، على اختلاف انتماءاتهم، لتدارس هذه الأمور كلّها، مع بعض المراجع المختصة. ولكن شيئاً من ذلك لم يحدث. فقرّرت أن أقول كلمة مكتوبة في هذا الشأن، وأسلّمها باليد لرئيسي الأعلى، الذي هو البطريرك. كانت هذه الرسالة بتاريخ 1967/6/2، وقد سلّمتها باليد للبطريرك، واحتفظت لي بنسخة منها، كتبتها بيدي، كي لا تقع صورتها بأيدي الناس. بالطبع، فوجئ البطريرك بمحتواها، دون أن يكون ترك لي الوقت لتلاوتها أمامه، لا سيما وأنه كان منذ فترة قد استعاد الكثير من جفائه نحوي، لسبب كنت أجهله...

هذه الرسالة، سأوردها كاملة بحرفيتها، في ملحق هذا الكتاب. إلا أنني أرى الآن أن أذكر مطلعها، كي يتسنّى للقارئ أن يتابع تطوّر العلاقة بيني وبين كنيستي. قلت بالحرف الواحد:

« مولاي صاحب الغبطة،

ما كنت أسمح لنفسي بإرهاقكم بمشاغل جديدة، لولا إيماني بأهمية ما من أجله أكتب إليكم شخصياً. ولقد تردّدت طويلاً قبل أن أفعل. ولكن محبتي للكنيسة وللبلاد ولشخصكم، دفعتني إلى الاستجابة لنداءٍ داخلي طالما أرهقني...

ولسوف أكون صريحاً. فإن كنت مخطئاً، أرجو مساعدتي على تصحيح نظرتي. وإن كنت مصيباً...

أما لماذا آثرت الكتابة على المكالمة الشفهية، فلأني لا أريد للقضية التي سأثيرها، أن تُنسى أو تُهمل، لا لشيء إلاّ لأنها لم تدوّن، ولأنها إذ ذاك ستضيع في غمرة الأعمال اليومية، وفي غمرة الأحداث السياسية الحاضرة، التي تظلّ، على خطورتها، استثنائية بالنسبة إلى القضية التي سأتعرّض لها.

صاحب الغبطة،

موضوع رسالتي هو علاقة الكنيسة في سورية بقضايا الناس، كل الناس في سورية. وإني لأطرح القضية من خلال السؤال التالي:

هل من دور تؤديه الكنيسة في هذه البلاد أم لا؟

وبشكل آخر أقول: هل الكنيسة في سورية مؤسّسة حيّة تتفاعل مع أحياء أم لا؟ » (انتهى)

إذن سلّمت الرسالة يداً بيد إلى البطريرك في مكتبه بدمشق. ولم يكن سواي معه. وكان أن حدث بعد ذلك كل ما حدث. ولم يأتني أي ردّ عليها، لا خطّي، ولا شفهي. وكان في ما يحدث في سورية وحولها، ما من شأنه أن يطغى على كل ما عداه. إلا أني كنت أتوقّع أن تبدر من البطريرك بادرة ما، باتجاهي، سلبية كانت أم إيجابية. وأخذَتْ، طوال هذه الفترة، فكرة قضاء بضعة أيام، بعيداً عن دمشق، تراودني بإلحاح. وكنت حقّاً بحاجة إلى ما يريحني، ولو قليلاً، ممّا كان يعصف بي في داخلي، وممّا كان يحيط بالجميع من أحداث مفجعة، لم يكن لأحد يد، لا فيها، ولا في ردّها...

وفجأةً استدعاني البطريرك. وكدت، لسبب ما كان بي من توتر وغضب، أن أرفض المقابلة. إلا أن الوسيط ألحّ، وكان في إلحاحه رجاء جديد أثارني. فمضيت وحدي، دون أن أخبر مستشاره، المطران "بطرس مدور"، بدعوته لي. وعندما قرعت، وفتحت باب مكتب البطريرك، فوجئت به يقف، ويغادر مكتبه ويتوجّه نحوي، فاتحاً ذراعيه وهو يبتسم، ثم ضمّني دون أن يقول شيئاً، ثم أبعدني قليلاً، ونظر إليّ طويلاً وهو يقول: "يا ابني، أنت طيّب! أنت طيّب!". وضمّني من جديد، وهو يكرّر هذه العبارة. بالطبع تأثّرت كثيراً. إلا أني لم أتمالك نفسي من أن أقول له: "سيّدنا، صح النوم! صح النوم!". وظل يبتسم حتى بعد أن تلفّظت بهذا العتاب النافل. ثم أجلسني بجانبه، وهو يحدّق بي في مودّة كبيرة، وأخذ يحدّثني. ولم يخطر ببالي يومها أن أسأله ما الذي غيّره. وأنا حتى اليوم، لست أدري لما لم أفعل. كان حسبي أنه غيّر رأيه وموقفه. وقد سارعت إلى إخبار أمي وإخوتي والأب صارجي وصديقي روجيه، بهذا الموقف الجديد، يبدر عن البطريرك.

إلا أن ما كان بي من إعصار داخلي، ظل يستحثّني للابتعاد عن دمشق. وأخيراً قرّرت المضي إلى بلدة صافيتا، إذ كانت بالنسبة إليّ، ومنذ زمان طويل، الملاذ الأمين والوحيد. وكانت تقع على بعد (220) كلم إلى الشمال الغربي من دمشق. ولماذا صافيتا؟ وكنت في ما سبق أظنّها قرية صغيرة، مهجورة، كغيرها من القرى السورية الكثيرة. وكان أن اجتمعت ذات يوم في دمشق، بكاهن يدعى يوسف صقر، وكان قريباً لسيدة تدعى نبيهة صقر، كانت لها منزلة كبيرة عند أمي. أهي عدوى المحبة؟ كل ما هنالك أني ارتحت لهذا الكاهن العملاق بجسمه، والنقي بقلبه، يوم كنت أبحث عن أمان نفسي وروحي، يسكنه الصدق، ولا شيء سوى الصدق. واستجبت لدعوته. وإذ بي أكتشف في صافيتا عالماً جديداً على كل صعيد. "فالقرية المهجورة" تقبع على تلال مكسوة بالزيتون، وتُطل على الآفاق الأربعة، إطلالة في غاية الجمال. وفي قمتها برج حجري هائل، تسكن في

أسفله كنيسة بيزنطية رائعة. وصافيتا أشبه بمدينة صغيرة، تدخلها وتنطلق منها، كل يوم آلاف السيارات، الصغيرة والكبيرة، فيما السكان فيها أشبه بخلايا النحل الناشطة ليل نهار. وكان الأب "يوسف صقر" فيها، إذ يمرّ بسيارته أو سيراً على الأقدام، بسوقها الكبير أو بأسواقها الصغيرة، المتفرّعة في كل اتجاه، يتبادل التحية، في مودّة، مع الكبير والصغير. وأما الدير في صافيتا، فكان يمثّل بيت الإيمان والمحبة والخدمة، للجميع دون استثناء. وما كانت أحلى الجلسات فيه مع بعض وجهاء البلدة أو في بيوتهم، من أمثال نقولا شحود ونديم الخوري والياس يعقوب.

إلى هذا الإنسان، وإلى هذا الدير، وإلى هذه البلدة، لجأت يومها. إلا أني رجوت الأب "يوسف صقر"، وخادم الدير الأمين، طنوس دبورة، ألا يخبرا أحداً بوجودي، لأني كنت مصمّماً على قضاء أسبوع كامل مع ربي ومع ذاتي، في ما أردته اعترافاً مكتوباً وكاملاً، لأحد أصدقائي. وأمضيت الأيام السبعة من أوائل أيلول عام 1967، في الصلاة و... الكتابة. كان عنوان اعترافي هذا "رسالة صافيتا". ووقعته بتاريخ 9/8. وكنت أريد تسليمه على الفور، لمن كان ولا يزال، أقرب الناس إليّ، روحاً وفكراً ومشاركة إنسانية. ولكني، ما إن عدت إلى دمشق، حتى تراجعت عن قراري، مخافة أن أخسر صداقته، وتُشوَّه صورتي لديه بوصفي كاهناً... إلا أني عدت فسلّمته هذه الرسالة بحرفيتها، وبخط يدي، كما كنت كتبتها، بعد سنة من ذلك. وقد دفعني إلى اتخاذ هذا القرار الجديد، أمر واحد، وهو دوماً صدقي مع ربي وذاتي وأصدقائي. فما كان منه، بعد أن قرأها، إلا أن اتصل بي هاتفياً، وكنت يومها في لبنان، في نطاق مؤتمر للشبيبة، وقال لي بالحرف الواحد: "كنت أحبك طاق، والآن أربع وعشرين!". ولَكَم أراحني موقفه وكلامه!

وفي عودة إلى شهر أيلول من عام 1967، أذكّر بأنّ كنيسة سورية كلّها، دخلت في التاسع من أيلول في مواجهة مع الدولة، بسبب قرار صدر عن وزارة التربية والتعليم، يقضي بوجوب وجود مسؤول عن الوزارة بصفة مراقب، في جميع المدارس الخاصة في سورية. وقامت الدنيا ولم تقعد لدى الكنائس جميعها أولاً. ثم ارتأت الكنائس الأرثوذكسية والبروتستانتية، أنّ هذا القرار مشروع ولا غبار عليه. وأما الكنائس الكاثوليكية كلّها، فقد رأت فيه مساساً بكرامتها، ورفضته جملة وتفصيلاً. وكانت هذه الكنائس تملك مائة وخمسين مدرسة في سورية! وتصلّبت مواقف المسؤولين الكنسيين الكاثوليك، بقدر ما كانت مواقف المسؤولين في الدولة، بدءاً من وزير التربية والتعليم آنذاك، المرحوم سليمان الخش، ليّنة ومرنة. وقد أتيح لي خلال تلك الفترة، أن أحضر جلستين، الأولى كانت في مكتب البطريرك مكسيموس الرابع الصايغ، وقد ضمّت

البطريرك مع من كان عُيّن مديراً جديداً للمدرسة البطريركية، واسمه غسان العيسى وبعض الكهنة، والثانية ضمّت البطريرك الجديد، مكسيموس الخامس حكيم، مع الوزير سليمان الخش، في بيت "أنطون المقدسي". وفي كلا الجلستين، كان كل من الوزير والمدير، يرفض فكرة هيمنة الدولة على المدرسة، وإقصاء الإدارة السابقة منها، كما كان البطريركان يتصوّران... وكانا كلاهما يبديان منتهى الاحترام. كما أنّ الوزير ألحّ على البطريرك، كي توافق الكنائس على وجود مراقب حكومي في كل مدرسة، لتعود الأمور إلى نصابها. ويؤسفني أن أقول إن ما كنت آخذه على البطريرك الصايغ، من حيث تأثّره برأي أحد الكهنة لديه على جميع من سواه، رجّح كفة الكنيسة في تصلّبها، وبرّر إجراء الاستيلاء، الذي صدر فيما بعد بحق جميع المدارس الكاثوليكية، باستثناء مدرسة واحدة كان مديرها في الحسكة الأب "أفرام شهرستان"، لأنه كان قد أبدى موافقته على القرار الحكومي، فاحتفظ بذلك بالمدرسة، وظلّ هو مديراً لها حتى وفاته.

بالطبع كل ذلك سبب اضطراباً كبيراً، في المؤسسات التربوية الكاثوليكية في سورية كلّها، وخللاً فادحاً في العلاقة بين الكنيسة الكاثوليكية وقطاع واسع جداً من الطفولة والشبيبة. وتداعى المسؤولون الكنسيون إلى اجتماعات متلاحقة هنا وهناك، إلا أنهم كانوا ثابتين في موقفهم الرافض لأي مراقب حكومي في مدارسهم. وأخيراً تداعوا لعقد اجتماع عام في بطريركية الروم الكاثوليك في دمشق، في أواخر أيلول أو أوائل تشرين الأول من عام 1967. وعقد الاجتماع وكان حاشداً، وقد ضمّ العديد من الأساقفة والكهنة والراهبات، المعنيين بقضية المدارس، وكان على رأسهم البطريرك مكسيموس الرابع الصايغ. وكان الجدال على أشده، ولم يكن أحد يملك رأياً يرجّح الكفة. فرأيت أن أقترح تأليف لجنة تمثّل جميع الكنائس الكاثوليكية، وتُكلّف بالتحضير لمؤتمر كنسي عام، تحت عنوان: "مَن نحن؟ وما دورنا في سورية؟"، أملاً مني بأن تكون الأزمة الحالية، منطلقاً لحضور جديد وفاعل على نطاق سورية. ولما طرح البطريرك هذا المشروع على الحاضرين، أخذوا كلّهم يعتذرون، بحجة انعدام الوقت لديهم لعقد مثل هذا المؤتمر. فثارت ثائرتي وصرخت في الجميع بقحة فجّة: "طيّرنا المدارس والطفولة والشبيبة من إيدينا، ونقول لا وقت لدينا لنتدارس أمور المستقبل! المؤسف أنّ الأحزاب كلّها في سورية، لها الوقت لعقد مؤتمراتها، من حزب البعث إلى الحزب الشيوعي إلى الأخوان المسلمين إلى القوميين السوريين. أما الكنيسة الكاثوليكية، فلا وقت لديها. ما الذي نعمله إذن؟". وخرجت من قاعة البطريركية الكبرى، صافقاً الباب خلفي... وأخذت أدور

في حنق في الباحة... حتى جاءني بعد دقائق الأب "الياس صارجي"، ودعاني باسم البطريرك للعودة إلى القاعة، وشرح فكرتي من جديد. فعدت محتدّاً، وشرحت الغاية من عقد مثل هذا المؤتمر، وبيّنت ضرورته الحيوية. فعاد البطريرك وسأل الجمهور، فكانت الموافقة بالإجماع... وكان أن شُكّلت اللجنة التحضيرية للمؤتمر، من جميع ممثّلي الكنائس الكاثوليكية في سورية، وطُلِب إلينا أن نخرج على الفور، لتحديد موعد اجتماعنا القادم، ونُعلِم به الحاضرين. واجتمعت على الفور مع جميع أعضاء هذه اللجنة في مكتبي، وكان منهم، فيما أذكر، الأب "بيير سارة" اليسوعي من حمص، والأب "ميشيل يتيم" من حلب، والأب "موفق العيد"، من حوران. وعدنا بسرعة إلى القاعة، وأخبرنا الحاضرين بتاريخ اجتماعنا القادم، على أن نوافيهم جميعاً، بنتائج أبحاثنا، كي يُصار إلى تحضير المؤتمر العام على أتمّ وجه، وفي أقرب وقت ممكن. وافترق الجميع بعد الصلاة، على هذا الرجاء.

ولكن ما هي إلاّ أسبوعان، حتى كان جميع الأعضاء من خارج دمشق، قد أبدوا اعتذارهم عن متابعة ما تعهّدوا به، واقتصر الأمر بذلك على كنيسة دمشق. وأصررت على الإعداد لهذا المؤتمر، وسألت الأب "أنطون موصللي"، من مدرسة الآباء اللعازريين، وزميله الأب "يوسف معلولي"، أن يقبلا التعاون معي، لتحضير المؤتمر على نطاق دمشق وحدها.

أطوي هذا الفصل، بأربعة أحداث، اثنان منها يتّصلان بي، واثنان يتصلان بالكنيسة في سورية والشرق.

ما يتصل بي، كان أولها بادرة من صديقي الشاب "روجيه كحيل"، إذ شاء أن يقدّم لي مبلغاً من المال، كان تماماً ثلاثمائة ليرة سورية، في مغلف صغير، وضع فيه ورقة كتب عليها هذه العبارة: "أرجوك أن تقبل مني هذا المبلغ، لأني لا أريد لك أن يركّعوك! وهذه طريقتي في مشاركتك كهنوتك". والحقيقة أنّ انقطاعي عن التدريس في المدارس الثلاث، دفعةً واحدةً حبس عني كلّ رواتبي، فعوّضت عليّ البطريركية براتب شهري قدره مئتا ليرة سورية فقط. والكل كان يعلم أني كنت أرفض ما يُسمّى حسنات القداديس، التي كانت تدعم الكهنة في معيشتهم. وبذلك بتّ فارغ الجيب. وكنت آنذاك آكل وأنام عند أهلي، وما كانوا يوماً ليطالبوني بشيء، إلا أنّ أمي كانت تحذّرني من إصراري على انتهاج الفقر في حياتي الكهنوتية، خوفاً منها عليّ فقط، وليس لأيّ دافع آخر. ويومها قبلت من روجيه هذا المبلغ، وما كنت أتوقّع مدى ما سيغمرني به هذا الشاب في نظرته البعيدة، وصدقه الرائع، من حب وقوة وأموال، حتى لحظتي هذه!

وكان الحدث الثاني، ما حدث معي إثر العملية الجراحية التي أُجريت لي في المشفى الفرنسي، في أواخر هذا العام، من أجل استئصال اللوزات. يومها كان الطبيب يرى أن استئصالها قد يساعد في تطهير الحنجرة، وعودة الحبال الصوتية إلى طبيعتها. وكنت كالغريق، أتعلّق بكل أمل من أجل استعادة صوتي. إلا أني كنت أخاف لحظة التخدير، لئلا أبوح ببعض الأسرار، التي كان الكثيرون يسارّوني بها. وأخيراً وافقت، وطلبت من روجيه أن يظلّ وحده بالقرب مني، بعد العمل الجراحي، ريثما أستعيد وعيي. وهكذا كان. ولَكَم ارتحت عندما فتحت عينيّ، وكان أول سؤال طرحته عليه، هو: حكيت شي؟ فأجابني: "كنت تقول فقط: يا عدرا!"

أما الحدث الثالث فكان ينطوي على رمزية رائعة، رافقت المسلمين والمسيحيين في سورية، منذ لقائهما الأول إبان الفتح العربي. فالمعروف أنّ الدولة في سورية تخصّص في المناطق السكنية الجديدة، قطعتي أرض لبناء مسجد وكنيسة حيث يقتضي. ويبقى على المسيحيّين أن يتّفقوا في ما بينهم لبناء هذه الكنيسة. وإلا، فتستعيد الدولة هذه الأرض، ويترتّب على المسيحيين أن يشتروا أرضاً أخرى، لبناء الكنيسة التي يرغبون. وشُكّلت لجنة من كنيسة الروم الكاثوليك، من أجل هذا الغرض، في منطقة حي القصور الجديد، المطلّ على ساحة العباسيين. وكان أن وقع اختيار اللجنة على ڤيلا كبيرة معروضة للبيع، وهي تخصّ رجلاً مسلماً يُدعى "أكرم الميداني". وعندما بدأت المفاوضات من أجل الشراء، وعلم أنّ الغاية من اقتناء هذه الڤيلا الكبيرة، إنما هو من أجل بناء كنيسة تخدم مسيحيّي الحي، تنازل عن ربع الثمن، ورجا أن يُذكر في الصلاة!

وكان الحدث الرابع وفاة البطريرك مكسيموس الرابع الصائغ في الخامس من تشرين الثاني في بيروت، عن تسع وثمانين سنة. وقد تمّ دفنه في دمشق، تحت الكاتدرائية، حيث أيقونة القيامة التي كان الفنان "الياس زيات" قد رسمها خصيصاً له.

الفَصْلُ التّاسِعُ

آفـاق جديـدة

كان عام 1968 حافلاً بشتّى الأحداث، منها ما كان يخصّ الكنيسة في سورية عامة، ومنها ما كان يخصّ كنيسة الروم الكاثوليك خصوصاً، ومنها أيضاً ما كان يخصّ عامة الناس، ولا سيما النازحين.

أودّ أولاً أن أشير إلى ما يخصّ الكنيسة ككل. ذلك بأنّ مجلس البطاركة والأساقفة الكاثوليك كان، خلال مؤتمره السنوي السابق، قد كلّف المطران يوسف طويل، بتشكيل لجنة من العلمانيّين، مهمتها تقديم مقترحات تُجدِّد نمط التعاون بين الإدارة الكنسية والعلمانيين. ووقع اختيار المطران طويل عليّ شخصيّاً، كي أختار هذه اللجنة. وفعلت ما طُلب مني، وعقدنا ثلاثة اجتماعات في الدار البطريركية بالذات، ثم رفعنا ما انتهينا إليه، في رسالة كلّفوني كتابتها باسمي واسمهم، وقدّمناها للمطران طويل، بعد موافقة اللجنة عليها، وسلّمته إياها باليد، وهي بتاريخ 1968/1/12. وكان على مجلس أساقفة سورية الكاثوليك، أن يتدارسوها قبل انعقاد مؤتمرهم السنوي هذا العام في 15 شباط، من أجل اتخاذ القرارات المناسبة بصددها. وكان من أهم ما ورد في هذه الرسالة الفقرة التالية، أنقلها بحرفيتها:

« كان من البديهي أن نبدأ أعمالنا باستعراض، سريع ومركّز، لواقع الكنيسة، في تكوينها وأعمالها ومواقفها. فبرزت لنا المشاكل، عديدة ومتشابكة ومعقّدة، بحيث يصعب تعدادها بشكل مجدٍ، ضمن إطار المهمّة الموكلة إلينا. واتضح لنا أن هذه المشاكل كلّها، يمكن إرجاعها إلى سببين رئيسيّين:

أولهما، الهوّة التي نلمسها يوماً بعد يوم، والتي أقامتها الأحداث والعقليات، بين السلطة الكنسيّة من جهة، والعلمانيّين من جهة أخرى، فشعرت السلطة معها بالعزلة، التي نتمنّى لها جميعاً الخروج منها.

وثانيهما، الهوّة التي يتزايد عمقها واتساعها، والقائمة بين الكنيسة من جهة، والعالم من جهة أخرى. »

إلا أنّ مؤتمر الأساقفة انعقد في حينه، ولم نبلّغ شيئاً، ولم يصدر عنه شيء يتعلّق بعمل لجنتنا... وإنّه ليؤسفني أن أضيف أني أضمّ إلى ملحق هذا الكتاب - الشهادة، نسخة من الرسالة التي كتبتها إلى المطران يوسف طويل، باسمي وباسم لجنة العلمانيين.

وأتوقّف الآن عند ما يخصّ كنيسة الروم الكاثوليك.

في الثاني والعشرين من تشرين الثاني عام 1967، انتُخب خلف البطريرك الراحل. فكان المطران جاورجيوس حكيم، القادم من فلسطين المحتلة. واتّخذ له اسماً هو مكسيموس الخامس حكيم. وقد قيل الكثير حول دوافع انتخابه، كما يحدث عادةً، كلّما أتى مسؤول جديد. وكان أن تأخر وصوله إلى دمشق، إلا أنه وصل...

فكان علينا، أنا والأب انطون موصللي وكان آنذاك رئيساً لمدرسة الآباء اللعازريين بدمشق، أن نحيط البطريرك الجديد، علماً بما كنّا نعدّ من أجل عقد مؤتمر الكنائس الكاثوليكية في دمشق، إذ كان تاريخه قد حدّد في 23-24 شباط 1968، في مدرسة راهبات البيزنسون بدمشق، تحت رعاية كلّ من السفير البابوي والبطريرك.

وعقد المؤتمر خلال اليومين المذكورين، في جوٍّ مشحون بالرجاء والتفاؤل، تحت عنوان "كنيسة دمشق، مَن أنت؟ وإلى أين؟". وكان جميع المسؤولين حاضرين في الجلسة الافتتاحية. أما الجمهور فكان كثيفاً، وكنا قد اخترنا له، من يمثّل جميع أطياف الكنيسة الكاثوليكية في دمشق، من أساقفة وكهنة وراهبات وأساتذة جامعة، على رأسهم انطون المقدسي، ومفكّرين، منهم سهيل شباط، وشبّان وشابّات. وكان أول المحاضرين المطران يوسف طويل. وكنّا، كلّنا، نستخدم في المحاضرات، اللغة الفرنسية بصورة عامة، وأحياناً اللغة العربية. وأما حلقات البحث، فكانت معظمها باللغة العربية. وكان ثمّة وقت مستفيض للصلاة، الجماعية والفردية، في كنيسة المدرسة الرائعة.

طُرحت أفكار كثيرة، وكأني بالجميع كانوا ينتظرون هذه الفرصة، ليفرغوا ما في عقولهم وقلوبهم من قضايا وخبرات وتساؤلات، تجمّعت عبر سنوات، لم يُتَح لهم فيها الحديث بشأنها، على نحو هادئ ومسؤول. وقُدّمت مقترحات كثيرة أيضاً، وجيّدة، هلّل لها الكثيرون، ثم طويت ونسيت.

وإني لأسمح لنفسي بالإشارة قليلاً إلى مقترحين، انتهيت إليهما من حديثي. أوّلهما كان يطاول تشكيل البنية الرعوية في دمشق، بحيث يُصار إلى التخلّي عن البنية الطائفية لكل كنيسة، لتحلّ محلّها بنية جديدة تضمّ عدداً محدّداً، من الكهنة من مختلف الطوائف، ليعيشوا معاً، ويصلّوا معاً، ويتدارسوا شؤون الرعية معاً،

ويخـدموا معـاً جميـع المسـيحيّين المتواجـدين في مسـاحة رعايتـهم، علـى اخـتلاف طوائفهم! أجل، إلى مثل هذا المدى ذهبتُ في اقتراحي، بل ذهبت فيه إلى ما هو أبعد وأعمق، إذ طالبت بمجانية مطلقة في جميع الخدمات دون استثناء، على أن يُوفَّر بالمقابل لجميع الكهنة، ما يضمن ضروراتهم وحاجاتهم، العادية منها والطارئة، مثل المرض والحوادث والشيخوخة، من قبل الكنيسة الأم، أي البطريركية، أو المطرانية التي ينتمي إليها كل كاهن. وكل ذلك، كي يتحرّر الكاهن من تبعية للمال، باتت تُفقد الكاهن روحه وحريّته، في تعامله مع الله والكنيسة والناس.

وكان مقترحي الثاني يؤكّد على ضرورة الاهتمام بالقطاع الجامعي من الطلاب، دونما تأخير، ووفق تكليف كنسي رسمي.

واتُّخذت في ختام هذين اليومين، قرارات كثيرة، منها تكليفي شخصياً بالقطاع الجامعي من الطلاب، على اختلاف انتماءاتهم الطائفية الكاثوليكية. إلا أنّ الجميع كانوا يعرفون أني لن أستبعد من هذه الخدمة أياً كانت، أي طالب جامعي، أيّاً كان انتماؤه الديني أو الفكري.

ودعوت على الفور عدداً من الطلاب والطالبات الجامعيين، الذين كانت لي بهم صلة دائمة. كانوا ثمانية، وينتمون إلى العديد من الكليات. وما بخلوا يوماً بحضور الاجتماعات في البطريركية. وقد سعيت معهم إلى اكتشاف صادق وواقعي، لأهم ما بدا لنا من دوافع وتطلّعات لدى الطلبة الجامعيين. ولم نوفّر وسيلة في مسعانا، كي لا نخطئ الخطوة الأولى في اختيار الطريق. إلا أنّه تبيّن لنا جميعاً، بعد سبعة عشر اجتماعاً مستفيضاً، أنّ الشبيبة الجامعية، بصورة عامة، تعاني من لامبالاة فاضحة. فرأينا عندها، بالإجماع، أن ليس أمامنا سوى البدء بالصلاة، تاركين للرب وحده أن يفتح لنا طريقاً...

وأقمت أوّل قداس في كنيسة السيّدة عذراء فاطمة، التابعة لكنيسة السريان الكاثوليك، والواقعة في منتصف شارع حلب، بحضور عشرة شبّان وشابّات. كان ذلك بُعيد عيد الفصح من عام 1968. وأعلنت يومها عن استقبال الراغبين في مراجعتي، في غرفة صغيرة، كانت تقع ضمن بناء كنيسة الروم الكاثوليك، التي كانت تشغل الطابق الأرضي، من بناء سكني في حي القصور. تلك كانت بداية ما أطلقنا عليه يومها اسم "الرعية الجامعية"، وما يسمّى حتى اليوم من عام 2013، "أسرة الرعية الجامعية". وقد عمدنا إلى اختيار هذا الاسم لغاية واضحة، وهي أنّ العمل الرعوي، لأنه عمل ينبع من وجود الكنيسة ورسالتها، لا يحتاج إلى أي ترخيص رسمي من أي مرجع حكومي، وهو يجري دائماً تحت سقف الكنيسة...

وتواصل القدّاس يوم الجمعة بعد الظهر، من كل أسبوع. وكنّا، بعد القدّاس، كثيراً ما ننصرف إلى تبادل الآراء في مختلف شؤون الطلبة، الروحية والاجتماعية والأخلاقية... وإذ بنا نكتشف، شيئاً فشيئاً، أنّ هذا اللقاء الأسبوعي من أجل الصلاة، بات ما يشبه الحاجة إلى مجرّد اللقاء بأصدقاء وبأخوة وأخوات، خارج نطاق الجامعة، في مودّة وصفاء. وكان في ذلك فرح حقيقي للجميع. ثم جاء يوم بدأ فيه اكتشاف الآخر، بوصفه آخر، في بساطة لا تخلو من مفاجآت سارة في الغالب، أو أقلها غير متوقعة، وبعضها مؤلم، فأُحاط علماً بذلك. وكان الحوار ينتقل بنا إلى مواضيع دينية واجتماعية وتاريخية، رأينا بمرور الوقت، حاجة ملحّة إلى بحثها وتعميقها. وقد تبلور كل ذلك، شيئاً فشيئاً، في أحاديث ومحاضرات دينية، شارك في بعضها الأب صالح نعمة، والأستاذ انطون المقدسي، وصديقه سهيل شباط، والمفكر أديب اللجمي، والدكتور مطانيوس حبيب، وكنت أحياناً أشارك في بعضها... وكان لأسماء المحاضرين وعناوين الموضوعات، تأثير كبير في جلب حضور متزايد من الشبيبة الجامعية، لم تكن كلّها مسيحية... وبات القدّاس الأسبوعي يجلب أيضاً، تلقائيّاً، أعداداً متزايدة من الطلبة الجامعيين. ونجم عن كل ذلك ما أجيز لنفسي اليوم، أن أسمّيه بداية لحركة اجتماعية وإنسانية، أتاحت للكثيرين أن ينفتحوا على بعضهم البعض، وأحياناً أن يكتشفوا حاجات بعضهم البعض، بحيث كان بعضهم يسعى لتلبية بعضها، ومنها خصوصاً الحاجة إلى سكن، وأحياناً إلى دعم مالي في تكتّم تام... ولما طالب بعضهم، بعد مضي فترة من الزمن، بين صلاة ومحاضرات، ولقاءات وأحاديث، بتنظيم رحلات إلى مختلف المناطق في سورية، بدا الأمر طبيعياً ومنطقياً... وقامت رحلات عديدة، وثّقت العلاقة بين المشتركين فيها، كما أنها وثّقت ارتباطهم بأرضهم ووطنهم! وأخيراً جاء يوم شعر فيه الكثيرون، بالحاجة إلى قضاء بضعة أيام مع بعضهم البعض، خلال عطلة الصيف، بعيداً عن دمشق، في هدوء، في فرح، في حوار، في صلاة وفي نزهات جميلة... فكان ذلك تتويجاً طبيعياً لعمل هادئ ودؤوب، انطلق من صلاة في كنيسة، فإلى شعورهم بحاجاتهم الفكرية والروحية والإنسانية، قادهم بدوره إلى لقاءات فكرية وثقافية وتاريخية، مع الفكر والإنسان والمجتمع والتاريخ والله... وانتهى إلى ما لا بد منه من علاقات عاطفية، تكلّل معظمها بزواجات أشهد اليوم، وبعد سنوات طويلة، أنها كانت حقّاً ناجحة على كل صعيد، حبّاً ووفاء، وتربية وإيماناً وشهادةً، حتى في مجتمع غربي، يكاد يهدّد كل أسرة بالتفكك والانحلال!

أرى لزاماً عليّ الآن، أن أتحدّث عن أهم جوانب الحياة في "أسرة الرعية الجامعية"،

علـى ألا أعـود إليهـا في مـا بعـد. سـأتحدّث عـن مرشـديها، مقرّهـا، بيانهـا، تمويلـها، نشاطاتها، لقاءاتها السنوية، مشاركاتها الدولية، تقريرها السنوي.

كنت أوّل مرشد لها، ثـم انضـم إليّ، بطلـب مني، الأب صالح نعمـة اليسـوعي، وبعـد سنوات طويلة من تعاون دؤوب بيننا، غـادر دمشـق إلى لبنـان، فحلّ محلّه الأب يوسـف بربـي اليسـوعي أيضاً. ويطيـب لي أن أذكـر راهبـتين، همـا الأخـت تيريـز بسـيليس، مـن الراهبات الفرنسيسكانيّات، والأخت دنيز من راهبـات القلبين الأقدسـين، وقـد شـاركتانا طويلاً في خدمات أسرة الرعية الجامعيـة. وظللتُ أواصـل رعايـة الأسـرة سنوات أخـرى بمفردي، على الرغم مما اعترى صحتي من وعكات، كـان بعضها لا يخلـو مـن خطـورة. وفي عـام 2011، اتفقـت مـع المجموعـة المسؤولة فيهـا، علـى اختيـار الأب إيهـاب الرشـيد، مرشداً رئيساً لها، دون تغيّبي التام عنها.

كـان أول مقـر لهـا كنيسـة عـذراء فاطمـة للسـريان الكاثوليـك، عـام 1968، للصـلاة، وغرفة صغيرة في كنيسة الروم الكاثوليك، للاجتماعات. واستمر ذلك حتـى منتصـف عـام 1969، حيث اتخذت مقراً لها، للصلاة أولاً، ثـم للاجتماعـات، الصـالة القديمـة في كنيسـة القدّيس كيرللس، في حي القصاع. ثم عادت في أواخر عـام 1970 إلى قاعـة كنيسـة عـذراء فاطمة. كان القدّاس الإلهي يقام بحسب الطقس البيزنطي، ثم تلقى المحاضرات. وأخيراً انتقلـت إلى غـرفتين صـغيرتين، أُلحقتـا عـام 1974، بكنيسـة سـيدة دمشـق، يـوم لم يكـن بناؤها قد اكتمل بعد. وهي ما تزال إلى اليوم في كنيسة سيدة دمشق.

صبرنا قرابة أربع سنوات، حتى نصوغ بياناً باسم الرعية الجامعية. وأصدرناه خلال شهر أيار عام 1972، وكان يحمل توقيـع الأب صـالح نعمـة وتـوقيعي. وقـد شـئناه جامعـاً لمختلـف جوانـب الحيـاة، التـي انفتحـت لنـا نحـن الكهنـة، ومـن خلالنـا لكنـائس دمشـق كلّهـا، وللشـبيبة التـي أتـيح لهـا أن تحيـا هـذه الخـبرة الجديـدة معنـا. وأوضـحنا في هـذا البيان، أننا ما نزال نحبو علـى طريـق جديـدة، إلا أنهـا كانـت واعـدة، بحكـم مـا أتاحـت لنا نحن الكهنة، وللشبيبة، مـن خـبرات جديـدة اتّخـذنا لهـا، منـذ القـدّاس الأول الـذي أقمناه، رمز حبّـة القمـح، التـي قـال عنهـا يسـوع في الإنجيـل، "إنهـا تبقـى وحـدها إن لم تمت، وإن هي ماتت، أتت بثمر كثير". وقد صغنا هذا البيان عبر جلسات طويلة، ضمّت المرشـدَين والـراهبتين وعـدداً منتخبـاً مـن مسـؤولي الرعيـة الجامعيـة. كمـا أنّنـا نلنـا الموافقـة عليـه، بعـد تلاوتـه أمـام مجمـوع أفـراد الأسـرة في جلسـة عامـة، أبـدى خلالهـا بعضهم آراءهم على نحو نهائي. وإنه لمن البديهي أن يحتوي ملحق كتابي هـذا، نسـخة من هذا البيان.

وقد برز في هذا البيان، محوران رئيسيان، يدور حولهما كل فكر أسرة الرعية ونشاطها وصلاتها. والمحوران هما الإيمان بالمسيح الواحد، بعيداً عن أي توجّه طائفي، ولكن دون اقتلاع أفرادها من انتماءاتهم الكنسية، والإيمان بالأرض الواحدة، ونعني به التأكيد على انتمائنا العربي، بعيداً عن أي توجّه حزبي أو إقليمي. وأحب أن أشير الآن إلى أن بعض أفراد أسرة الرعية، شاؤوا أن يعيدوا صياغة هذا البيان، بعد سنوات، وبذلوا محاولات كثيرة، إلا أنهم عادوا فاعتمدوا البيان الأول، ولكن هذه المرّة مدعوماً بتوقيعين إضافيّين، جاءا تأكيداً على كون أسرة الرعية تمثّل جميع الكنائس المسيحيّة.

كان من البديهي أن الكنائس التي كلّفتني رعاية الشبيبة الجامعية، لن تبخل بما سيحتاج إليه هذا المشروع الجديد والهام، من نفقات. وهنا أحبّ أن أشير إلى أنّ أحداً من مسؤولي المقرات التي استخدمناها، منذ اللحظة الأولى حتى الآن، لم يطالبنا بأي أجر. وحتى عندما كنّا نقصّر في تنظيف هذه المقرّات، لم يطالبونا بأي تعويض. كما أني أؤكّد أنّ أحداً من المرشدَين، لم يطالب طوال هذه السنوات كلّها، بأي مكافأة، إذ كانت الخدمة في أسرة الرعية، مجانية بالكلية. إلا أن هناك نفقات لا مفر منها، مثل اقتناء مسجلة للتراتيل، وبعض الكاسيتات والتسجيلات، وطباعة الأوراق، وشراء مكبرات للصوت، وتقديم بعض الهدايا للمحاضرين، وشراء نسخ من الإنجيل، توضع في تصرف الجميع، وتستخدم في القداديس والصلوات، وشراء بعض الكتب الضرورية، لتأسيس مكتبة خاصة بالرعية الجامعية. وثمّة نفقات طارئة لم يكن أحد يتوقعها، منها مثلاً تقديم بعض المساعدات الكتومة والضرورية، لهذا أو تلك من أفراد الرعية. كل ذلك كان يشكل الحد الأدنى ممّا هو ضروري في مثل هذا العمل. وما كنت، على حرجي، أدع فرصة أذكّر فيها الأساقفة بهذا الأمر. إلا أنهم كانوا جميعاً يتذرّعون بشتى الأعذار. وبعد مضي أربع سنوات على انطلاق الرعية الجامعية، كنّا قد تسلمنا مائة ليرة سورية فقط، عدّاً ونقداً. فرأيت أن نكتب للرؤساء، من بطريرك وسفير بابوي وأساقفة في دمشق، تقريراً سنوياً، سألت الأب صالح أن يكتبه، على أن نوافق عليه معاً، بينما أكتب رسالة لهم بالفرنسية، أتحدّث فيها عن الشأن المالي. وهكذا كان. وبعد أن وافقت على تقرير الأب صالح نعمة السنوي، أطلعته على الرسالة التي تولّيت كتابتها. فوجدها مفرطة في القسوة، وتمنّع عن التوقيع عليها. وعندها، على كل ما كان بيننا من مودّة ومحبّة واحترام، اضطررت لأن أقول له ما حرفيته: "أبونا صالح، أنا المرشد الأساسي في الرعية. إن لم توقّع على هذه الرسالة، أنذرك أربعاً وعشرين ساعة. فإن وقّعت، نقدّمها معاً، وإن أصررت على عدم التوقيع، أسألك أن تتخلّى عن عملك في الرعية الجامعية".

وكنت جاداً في قولي إلى أبعد الحدود. وغادرته. وإذ به بعد ساعات قليلة، يتّصل بي هاتفيّاً ليبدي موافقته. وكان أن قابلنا، أول ما قابلنا السفير البابوي، المدعو "اشيل غلوريو" (Achille Glorieux)، وكان فرنسياً. وبيّنت له غاية لقائنا به، ثم سلّمته الرسالة، وتركت له كامل الوقت لقراءتها. وكان الأب صالح في هذه الأثناء، جالساً على طرف المقعد، بادي الترقّب. وإذ بالسفير البابوي يقول، بعد أن انتهى من قراءة الرسالة: "أنتما على حق". وبيّن انزعاجه واستغرابه من مثل هذا الموقف. وعندها ارتاح الأب صالح، وأسند ظهره إلى مسند المقعد! وكان أن تابعنا مقابلاتنا كلّها، فلم نظفر إلاّ من البطريرك مكسيموس حكيم بألف ليرة سورية فقط!

وكان هناك أسقفان فقط، يصرّان على إمدادنا بما كان يتيسّر لهما، دون أن يعلم أحد، إذ كانا يريدان التكتّم. فاتفقت معهما على تسميتين، أذكرهما في التقرير السنوي. وكان اسم أحدهما "أسقف عربي من سورية"، وهو المطران المرحوم نيقولاوس نعمان، مطران حوران، والمطران بطرس مدور، مستشار البطريرك.

على كل حال، يطيب لي أن أذكر أخيراً، أن "ماليّة الرعية" كانت دائماً وحتى اليوم، بيد أحد الشبّان أو بعضهم ممّن يختارونهم، ولم تكن يوماً بيدَي أي كاهن من المرشدَين، مع أن النشاطات، كما سنرى، تنوّعت وتعدّدت، وقد ترتّبت عليها مداخيل ومصاريف، لم تكن بادئ الأمر بالحسبان.

وأصل الآن إلى شأن النشاطات. أولها كان القداس، وقد اعتمدناه، كما قلت، لأننا اكتشفنا عجزنا التام، بسبب ما كان يصيب الشبيبة الجامعية من لامبالاة شاملة، أو لنقل، ما بدا لنا لامبالاة. وقد لجأنا إلى الصلاة، ليقيننا بأنّ للربّ طرقاً لا ندركها، وأنّ الصلاة وحدها، إذ تضعنا في حالة من الاستسلام لله، والاستنجاد به، سوف تفتح لنا هذه الطرقات، أو تساعدنا على شقّها... وكنّا بادئ ذي بدء، نتقيّد بحرفية ما جاء في كتاب القدّاس البيزنطي، الذي تعتمده كنيسة الروم الكاثوليك. إلا أننا، بمرور الوقت، ونظراً لاهتمامنا الدائم بأمور الطلبة الجامعيين، أخذنا نستشعر ضرورة إدخال هذه الأمور في قلب القداس. وبدأنا نضيف بعض الكلمات، ونلغي كلمات، ونستبدلها بأخرى. وكان أن اكتشفنا أن بنية القداس البيزنطي، من القوة والمرونة في آن واحد، بحيث تتيح لنا أن نغنيها بأبعاد روحية وإنسانية جديدة، دون أن نمس جوهره. وقد طاولت هذه التغييرات الطلبات العلنية كلّها، من بدء القداس إلى ختامه. كما أنها طاولت الصلوات المسماة "سرية"، التي كان الكاهن يتلوها في سره. وتساءلنا: لِمَ لا تُتلى هذه الصلوات "السرية"، من قبل الكاهن والمصلين معاً، وفي آن واحد؟ ففيها غنى للجميع، لا يجوز أن

يظل وقفاً على الكاهن، فيسترخصها ويتلوها بسرعة، لا تتيح حتى له أن يتعامل معها، بما تقتضيه من إيمان واحترام وتمعّن. كما أنه لا يجوز أن يُحرَم المؤمن، أياً كان، طفلاً أم طالباً أم كهلاً، من المشاركة في نورها وغناها... وهكذا بات الجميع يشارك في القداس كله تقريباً، باستثناء تلاوة الإنجيل وكلمات التقديس. وجاء يوم تساءلنا فيه، ما إذا كان يجوز للكاهن وحده أن يشرح الإنجيل، بعد تلاوته، وكأنه وحده يفهم ما جاء فيه، ويحق له وحده أن يشرحه للناس. وانتهينا إلى الطلب من أحد الحضور، شاباً كان أم فتاة، أن يقوم بالتأمل في نص الإنجيل، قبل إقامة القداس كي يقدّم للحضور، بعد تلاوته، بدل الكاهن، ما انتهى إليه من توجيه روحي وأخلاقي. وهنا تحضرني حادثتان، لهما دلالة كبيرة بهذا الشأن. ففي لقاءات يوم الجمعة العظيمة، أقمنا القداس، وتلونا إنجيل الابن الشاطر، وقام ليشرحه طالب طب يدعى جورج سمان. وقدّم شرحه في ابتسامة، بواقعية وصراحة. ثم قمت لأستمع إلى الاعترافات، بينما كان الأب الياس صارجي يقيم القداس. فجاءني شاب يعترف، وقال بلهجة من الصدق مسّت شغاف قلبي: "أبونا، أنا إلي سنوات بعيد عن بيت أبي، واليوم حابب أرجع لهالبيت مثل ما قال جورج!"... والحادثة الثانية جرت أيضاً مع طالب طب في قداس يوم الجمعة، الأسبوعي. وكنت قد سألته قراءة نص من الإنجيل، يدور حول المحبة كي يشرحه بدوره، بعد قراءتي هذا الإنجيل. وبينما كنت أهيئ القربان، فجأة قام لغط شديد، فالتفت وإذا بالشاب المكلف بشرح الإنجيل في القداس، يثور في وجه أحدهم. وكنت أعرفه كتلة عفوية من الحب والغضب في آن واحد. وكان اسمه رياض حنا. وإذ به يتقدم مني ليعتذر عن شرح الإنجيل، فأصررت، فرضخ. إلا أنه، بعد أن انتهيت من قراءة الإنجيل، تقدّم ووقف أمام طاولة القداس، يحدّق في الأرض، فيما كان وجهه مصبوغاً بالاحمرار، ثم قال: "مطلوب مني احكي عن المحبة، وأنا آخر من يستحق أن يتحدث عن المحبة، لأني قبل القداس مباشرة، صرخت في وجه فلان". ثم توقف برهة ورفع عينيه باتجاه الشاب الذي كان قد صرخ في وجهه، وقال له في صدق صارخ: "سامحني"، ثم عاد خجلاً إلى مكانه. تلك كانت إحدى أروع العظات التي أتيح لي في حياتي كلّها، أن أستمع إليها.

إلا أن تعامل الرعية الجامعية مع القداس، لم يتوقّف عند هذا الحد. ذلك بأنه أعادنا بصورة طبيعية، إلى بدايات كل قدّاس، أي إلى محوريه الأساسيّين، وهما أولاً كلمة الرب في "الإنجيل"، وثانياً، كلمات التقديس... والتناول. هذان المحوران، هما الأساس في كل قدّاس، ولا يقوم قدّاس من دونهما. وأما ما يسبقهما ويعقبهما من صلوات، فهي، على جمالها وغناها وعراقتها، من وضع البشر، وقد اختيرت من بين

مئات الصلوات، التي كانت تطفر من قلوب المؤمنين، وعلى رأسهم الأساقفة والكهنة، ولكن دون استبعاد سواهم من المصلين، حتى وَصَلنا ما وَصَلنا منهم، من قداديس رائعة، تعود إلى كنيسة القدس وأنطاكية، والرها، والاسكندرية، والقسطنطينية، وأرمينيا... وبهذا الإيمان وهذا اليقين، قادتنا خبرتنا الروحية المتواضعة في أسرة الرعية، إلى إقامة القدّاس أيضاً في حلقات ضيّقة، متراصّة، من الشبّان والشابّات، وقد تجمعنا غرفة صغيرة، حول طاولة صغيرة، وضع عليها بجوار شمعة مضاءة، كتاب الإنجيل، مع كأس عادي فيه خمر، وصحن عادي فيه قطع من الخبز. ثم كنا نفتتح هذا القدّاس، بترنيمة من أحد الحضور، وتتوالى الصلوات المرتجلة النابعة من قلوب الحضور، بلغة بسيطة، في صدق واتّضاع مذهلين، لا يخلوان أحياناً من دموع... ثم كان يُقرأ الإنجيل، دون أن تكون قراءته وقفاً على الكاهن، وتليه المشاركات الإنجيلية، كما بتنا نسمّيها. وهنا كانت تتوالى المفاجآت، إذ كان يطلع علينا بها أحياناً، شبّان وشابّات كانوا في الأحوال العادية، يتلعثمون إذ يريدون أن يتكلّموا، حتى إنّ بعضهم كان يبلغ في المشاركة عمقاً وصدقاً، يجعلاني أناديهم في قلبي - أجل، أناديهم في قلبي - إذ يتأخرون في الكلام، كي يتكلّموا!... وهكذا كنّا نقيم هذا النمط من القدّاس، بين حين وآخر في دمشق، بل كنت أحياناً أقيمه لفرد واحد، كان، كالابن الشاطر، بعيداً جداً، ثم عاد وفرح هو بعودته إلى بيت أبيه، فيأتيني ليطلب مثل هذا القداس، وكأني به وليمة الشكر والفرح، التي أقامها والد الابن الشاطر لابنه، بعد عودته... كما كنّا نقيمه أحياناً كثيرة خلال مخيماتنا، ولا سيما في صافيتا، دون أن نستبعد القدّاس التقليدي. وكنّا، إذ نعيش هذه الخبرة الجديدة والفاعلة، نشدّد دائماً على الحاضرين، كي لا ينسلخوا عن كنائسهم، علماً بأنّ معظمهم كان في حقيقة الأمر، في ما سبق، منسلخاً، لا عن كنيسته وحسب، بل عن المسيح نفسه... حسبي، شهادة على هذا الواقع، ما كتبته يومها، طالبة جامعية تُدعى بشرى بشور، أنقله بحرفيته:

« أسرتي...؟!

من الذي سألني عمّا تكونه أسرتي بالنسبة لي...؟!

لمن سألني أقول...

على غرفتي القاتمة فتحت نافذةً صغيرةً... صغيرة جداً

أطلّيت منها وبنهم رحت ألتهم ما أراه بعيني...

ضحكاتٍ صافية... وقلوباً نقيةً... وخيطاً قويّاً يلفّ الكلّ...

أمسكت بطرف الخيط ورحت أسير وراءَه... ورفعت عـــيني لأرى رسمـــاً مضـــيئاً جميلاً...

أحسست به قبل أن أراه... لمسته في كلّ كلمة طيبة قيلت لي وقلتها لسواي...

لمسته... في أعمال متواضعة كنّا نقوم بها سويّاً...

لمسته في كل الصفاء الذي وجدته... كان هو المحبّة التي كنت أنشدها...

ولازالت تلك النافذة منذ ذلك اليوم تتّسع... ولازال الضـــياء يومـــاً فيـــوم يغمـــر غرفتي...

ستصبح تلك النافذة يوماً ما أفقاً واسعاً مضيئاً...

وستظلّ وجوه أحبتي شموساً ضاحكة ألقاها أينما سرت... وأحملها معي أنّى حللت...

وستبقى ابتساماتهم الطيبة مؤونتي في طريقي الشائك...

وبعد... هل هنالك من يسألني عن أسرتي...؟! » (انتهى)

هذه الأجواء الروحية، كنّا نحياها بكل جوارحنا، دون أن نقيم أحياناً كثيرة قيمة، لا للوقت، ولا لما يمكن أن يُوجَّه إلينا من انتقادات. فتمضي ساعة، بل ساعتان، والكل مأخوذ بما لم يكن يتصوره يوماً في حياته! وكنت على معرفة ثابتة، بأنّ من الكهنة التقليديّين، في كنيسة سيدة دمشق وسواها، مَن يعرفون ذلك تماماً، ومن نقلوا حقيقته وصورته، للسلطات الكنسية. إلا أنّ أحداً من المسؤولين لم يفاتحني يوماً بهذا الأمر. لماذا؟ لست أدري حتى الآن! وما كان في الأمر ما يقلقني! وكان من تأثرنا بهذه الصلاة، أن اندفعت مجموعة من الشبّان والشابّات، إبان حرب تشرين عام 1973، إلى المطالبة بإقامة قدّاس إضافي، خصّيصاً من أجل الحرب، فوق ما كان عليه برنامج الرعية الجامعية آنذاك، من زخم وكثافة. فرأيت أن أستجيب لهم على الفور، على أن أقيم القدّاس معهم، في بيت الراهبات الفرنسيسكانيات، في "كورنيش التجارة" بدمشق، كي يتوفّر لنا جوّ آمن من الهدوء التام... وكنا نختار نصوصاً معيّنة من الإنجيل، تدور حول المحبة والتضحية والقيامة، ونسترسل في الصلاة والتأمل، كما لو كنّا في ساحة الحرب. ويومها، ما كانت الراهبات ليزعجنَنا، مهما استطالت صلاتنا. ثم كنا نصوغ التأملات في صلوات صغيرة، مكثّفة، لنطبعها على ورقة تحتوي أساس القدّاس العام، الذي كنّا نقيمه يوم الأحد مساء، في قاعة كنيسة سيدة دمشق، يوم كانت الكنيسة بعدُ قيد البناء. وأذكر أنّ بعض المقاتلين كانوا يأتون خصّيصاً، ليشاركونا الصلاة مساء الأحد أحياناً، وكان منهم جندي مسلم يدعى بسام... وجندي مسيحي يدعى طوني

غربي... وقد تواصلت هذه الأجواء من الصلاة الخاصة بالحرب، في بيت الراهبات من جهة، وفي قاعة الكنيسة من جهة ثانية، طوال حرب تشرين، وحرب الاستنزاف التي عقبتها. ثم رأيت أن أجمع هذه الصلوات في مقال، نُشر في عدد تشرين الثاني من مجلة "المسرة" عام 1974، تحت عنوان: "على درب المشاركة: القدّاس والحرب". في هذا المقال تأكيد صارخ على أنّ الحياة، ولا سيما الحياة المسيحيّة، إنمّا هي محبّة في تضحية، وإلا فليست هي بحياة، وليست بمسيحية. فكيف بحياة العربي المسيحي، ألا تكون قائمة على التضحية حتى بالحياة، حبّاً ودفاعاً عن الإنسان، كلّ إنسان، إذا كان عرضة لظلم يهدّد وجوده بالذات، ووجود من حوله؟ بالطبع، سأضمّ إلى الملحق، مقالي: "على درب المشاركة: القداس والحرب"!

أخيراً، قبل أن أطوي موضوع تداعيات الصلاة في الرعية الجامعية، لا بدّ لي من أن أشير إلى حدثين آخرين لا يُستهان بهما.

الأول كان ما شئته قدّاساً عامّاً أعيشه مع المصلّين، الذين كانوا يملأون كنيسة سيّدة دمشق، كل أحد مساءً، منذ أن عُيّنت كاهناً فيها، عام 1977. وقد تمّ ذلك، في الحقيقة، على مرحلتين. كانت أولاهما اعتمادي التغييرات الشفهيّة الكثيرة، التي كنت تعلّمت إحداثها في قدّاس الرعية الجامعية، بحيث كان القداس يبدو للناس - كما كان الكثيرون يصارحوني به - قطعة من الحياة اليومية والعامة، أو الحياة جزءاً لا يتجزأ من القدّاس... وكان كلّ ذلك يشجّعني على متابعة صلواتي وتأمّلاتي في الإنجيل، وخصوصاً مواعظي المرتجلة دائماً، التي كنت أغنيها بالإنجيل ووقائع الحياة معاً. وقد بلغ عدد هذه التغييرات في "قدّاسي"، الثابتة منها والطارئة، كما قال لي أحد الكهنة ذات يوم، إذ كان كثيراً ما يحضر "قدّاسي" يوم الأحد، بل يشارك فيه أحياناً أخرى، بلغ "الأربعين"! وقد قالها في شيء من الاستنكار! فوجدتُني أقول له: "أجئت لتراقب أم لتصلي؟"...

وكانت المرحلة الثانية يوم أقنعت البطريرك مكسيموس الخامس، بضرورة إحداث تطوير في القدّاس، في نطاق بعض الصلوات، على أن أخضعه له أوّلاً، ثم نطبعه، إذا نال موافقته، ويوضع بين أيدي المصلين في كنيسة سيدة دمشق، أقلّه مساء الأحد. ووضعت بين يدي البطريرك نموذجاً من هذا القدّاس المطوّر، فدرسه، ثم تدارسه معي، كلمة كلمة. وكان أن نال موافقته، وطبع وأخضعت النسخة المطبوعة لموافقته مجدّداً، ووافق عليها. وكان أن وضعتها بين أيدي المصلّين يوم الأحد مساء.

وقد اتفّقت مع البطريرك على أن أقيم هذا القدّاس بعينه، فيما أنا واقف في

"البـاب الملـوكي" وجهـاً لوجـه مـع الشـعب، خلافـاً لكـل مـا هـو مـألوف لـدى الكنـائس البيزنطيـة! وكنـت أدرك أنّ هـذا القـدّاس كـان يشـكل بالنسـبة إلى الحضـور الكثيـف، محطة روحية، قوية ومرغوبة. وكان أن جاء مساء السادس عشر مـن نيسـان عـام 1986، الذي شهد تفجيرات في دمشق، وفي مختلف الأنحاء في سورية، سبّبت استشهاد (400) مواطن سوري، دفعة واحدة، كما جاء على لسان الرئيس حافظ الأسد نفسه. وعندها رأيت أن أوقف القدّاس، لئلا يُستغَلّ التجمع الحاشد الذي كان يسبّبه القداس، داخل الكنيسة وخارجها، أجل! لإحداث مجزرة أخرى. واستشرت في ذلك رئيسي المطران فرنسوا، وزميليّ الأبوين جبرائيل معلوف، الذي أبدى تأييده بحذر على عادته، والأب ميشيل حلاق، الذي قال لي عندها بكل صراحة: "هدا هللي بدنا ياه!". وكنت على سفر في اليوم التالي إلى فرنسا، بقصد متابعة العلاج لحنجرتي. إلا أني بعد عودتي، عرفت أنّ القدّاس المسائي يوم الأحد، أُلغي كليّاً. وعندما راجعت المطران فرنسوا، علمت أنّ قراراً بإلغاء القدّاس اتّخذ بين البطريرك والمطران والكاهنين ووكلاء الكنيسة جميعاً! وظلّ منعي من إقامة القدّاس المسائي في كنيسة سيدة دمشق، ساري المفعول، حتى بعد أن أعيد القدّاس خلال العام 2000. وعرفت أنّ الكثيرين من الرجال والنساء والشبّان والشابّات، راجعوا البطريرك والمطران في الأمر، فلم يلقوا سوى الصدّ القاطع. وكنت طوال هذه المدة أشعر بحزن قاتل، حتى إني كنت أمتنع كلّما أقمت القدّاس في مواعيد أخرى، بوصفي كاهن رعية، أمتنع عن الوعظ. وأخيراً، سُمِح لي بإقامة القداس مساء الأحد في كنيسة سيدة دمشق، ولكن ضمن توزيع للقداديس، كان يتيح لي مرة واحدة إقامة القداس المسائي، كلّ ثلاثة أسابيع!

ذلك كان الحدث الأول.

أما الحدث الثاني، فكان رغبتي في نشر الصلوات الجميلة، التي صاغها الشبّان والشابّات في أسرة الرعية، خلال هذه الخبرات واللقاءات الروحية، الغنية. وكنت قد احتفظت بكل ما كانوا قد كتبوا وتسلّمته منهم، على ما بينها من تنوّع في اختلاف الطريقة التي ارتأى كل منهم ومنهنّ، أن يكتب بها. وأضفت إليها تأملاً، كان الأستاذ انطون المقدسي قد كتبه في إحدى المناسبات، التي كانت تجمع أفراد الرعية الجامعية. إلا أنه لم يشأ أن يذكر اسمه، أسوة بسائر المشاركين في هذا الكتاب. وسألت أحدهم أن يكتب مقدمة له. واكتفيت أنا بكتابة كلمات قليلة، طبعت على الصفحة الرابعة من الغلاف، أروي فيها كيفية ولادة هذا الكتاب... ثم سألت صديقي الفنان يوسف عبدلكي، أن يرسم غلافاً للكتاب، فتردّد ثم قال لي: "أنسيت يا أبونا أنني...؟" ولم أدعه يكمل،

فقلت له: "أيّاً كنت، أريد منك غلافاً لهذا الكتاب". فأجابني: "طيب. سأقرأ الكتاب. إن أعجبني، أرسم الغلاف. وإلا، فاعذرني". وكان أن رسم غلافاً مدهشاً، جمع فيه نصفي وجه إنسان: النصف الأول يسكنه السلام، والنصف الآخر يسكنه العذاب، فيما الشمس تشرق من اجتماع هذين النصفين. وكل ذلك على خلفية زرقاء. وطبع الكتاب بفضل استكتاب جمعنا به كلفة الطبع. ووزّع مجاناً... أما عنوانه فكان: "مجد الله هو الإنسان الحي". وهي عبارة قالها ذات يوم إنسان من سورية، وكان أسقفاً على مدينة "ليون" في "فرنسا"، في منتصف القرن الثاني، وكان اسمه "ايريناوس"، أي رجل السلام، وهو قدّيس.

ثمّة كلمة أخيرة ومؤلمة جداً، قيلت لي ذات يوم، في هؤلاء الشبان والشابات الرائعين، الذين تعلّمت وإياهم الصلاة في أسرة الرعية. ومن قالها، كان أحد وكلاء كنيسة سيدة دمشق، الذين يُفترَض فيهم أن يكونوا أعواناً للكهنة في خدمة المؤمنين. إلا أنه جاء مع حشد من زملائه الوكلاء ذات يوم، ودون موعد سابق، علماً بأنهم ما كانوا في ما سبق، ليزوروني، لا في الأعياد الكبرى، مثل عيد الفصح والميلاد، ولا حتى في عيدي الشخصي. ويومها توقّعت منهم هجوماً ما... وكنت أترقّبه... إلا أني ما كنت أتوقّع، لا منه ولا من سواه، أن يقول ما قال. وأخيراً قالها: "إن الشبان والشابات الذين تجتمع معهم، هم أوسخ الناس!". وهنا تحضرني الكلمة الطيبة التي كان الأستاذ انطون المقدسي، قد قالها لي، يوم أطلعته على مشروع الرعية الجامعية، وكان هو أدرى الناس بما في الجامعة، وبما يهدّد الأسس الروحية فيها. قال: "يا أبونا، إذا استطعت أن تحمل الطالب الجامعي على رسم إشارة صليب واحدة على صدره، طوال عام واحد، تكون قد حقّقت إنجازاً".

حسبي هذا من نشاط الصلاة في أسرة الرعية الجامعية.

ثمّة نشاطات أخرى عاشتها الرعية الجامعية، لا بد لي من استعراضها بسرعة، لأعرّف من يريدون أن يعرفوا، حقيقة شبيبتنا الجامعية.

يستوقفني أولاً النشاط الثقافي، من وجوه عدة. أولها وجه المحاضرات، التي لم تتوقّف طوال سنوات، في إيقاع بدأ شهرياً، ثم صار أسبوعياً تقريباً. وكان البرنامج يتبع خطّاً منسّقاً ومتتابعاً، ويضمّ موضوعات متنوعة، فيها ما هو علمي صرف، وما هو نفسي أو اجتماعي، وفيها ما هو ديني عام، أو ديني مسيحي، وفيها ما هو تاريخي، وفيها ما هو سياسي... وفيها ما هو أدبي أو شعري أو مسرحي. وما كان لمحاضر، إذ نحدّثه عن أسرة الرعية، أن يرفض، باستثناء محاضر واحد كان قادماً من العراق، وكانت له أسبابه... وكان بعض هذه المحاضرات يبدو أشبه بتظاهرة ثقافية، كما كان

لقاؤنا الأول مع الشاعر أدونيس وانطون المقدسي، إذ كنّا يومها اخترنا معه قصيدته الشهيرة، "قصيدة لملوك الطوائف"، وطبعناها على مئات النسخ، وقضينا بضعة لقاءات، ضمّت عشرات الحلقات، في محاولات استجلاء لأبعاد هذه القصيدة، ثم كان لقاؤنا مع أدونيس وانطون المقدسي، بحضور ما لا يقل عن ثلاثمائة طالب جامعي، لم نكن ندري من هو المسيحي، ومن هو المسلم، بينهم، وقد استطال ثلاث ساعات!

ثمّة محاضرات أخرى، كان يقوم بها الطلاب الجامعيّون أنفسهم، على أن تعقبها فترة من النقاش بين المحاضر والحضور. فكان هذا النشاط أشبه بمدرسة في البحث والحوار، وفّرتها الرعية الجامعية للعديد من أفرادها، ودرّبتهم فيها على مواجهة الجمهور. وهنا، تحضرني كلمة كثيراً ما سمعتها، كلّما كنّا نعقد اجتماعاً في آخر العام، لتقويمه، وكانت بكل بساطة: "أنا تعلّمت في الرعية، أن أحكي أمام الناس!".

ولكم أتاحت لي مشاريع المحاضرات، فرصاً للقاء الكثيرين من المثقّفين في بيوتهم، في دوائرهم، أو في مكاتبهم الخاصة. وكان يسعدني جداً أن أصطحب أحياناً بعضاً من أفراد الرعية، في جولاتي على المحاضرين. والمحاضر الوحيد الذي تركت لأفراد الرعية أن يزوروه، ليسألوه حديثاً عن مار أفرام السرياني، كان بطريرك السريان الأرثوذكس الجديد، زكا الأول عيواص. وقد استجاب لرغبة زوّاره. إلا أني عرفت، قبل المحاضرة بيومين فقط، أنّ طبيبه الخاص، وهو الدكتور جوزيف سيوفي، قد أخبره أني عميل للمخابرات السورية والفلسطينية، وقد نصحه بالامتناع عن تقديم المحاضرة. وكان من أخبرني بذلك، ابنة الدكتور نفسه، المهندسة منى، وكانت من العناصر النشيطة في الرعية. فاتصلت على الفور بالدكتور جوزيف سيوفي، وقابلته في اليوم نفسه في منزله، بحضور زوجته، وواجهته بحقيقة ما عرفت من ابنته. فاعترف بما قال للبطريرك، وأسّس قناعته على النشاط الواسع الذي كنت أقوم به ليس إلا. فعاتبته وأكّدت له أنه مخطئ خطأً فادحاً، وأني لن أدوس بيته بعد اليوم. ثم اتّصلت بالبطريرك، وطلبت موعداً عاجلاً، وكان أن قصدته في صباح اليوم التالي. وقلت له إنّ غايتي من مقابلته تهدف فقط إلى تعريفه بي، وشرحت له كيف أفهم الكهنوت وكيف أعيشه، تاركاً له بعد ذلك أن يقرّر إلقاء المحاضرة أو إلغاءها، إذا ارتأى عدم "التورّط" معي. أصغى إليّ قرابة نصف ساعة بهدوء عجيب، ودون أن يطرح عليّ أي سؤال. ولما فرغت من كلامي، سألته: "سيدنا، ما قررت؟" فأجابني: "غداً ألقي المحاضرة في الرعية الجامعية في موعدها". وكانت تلك اللحظة بداية لما هو أكثر من صداقة وأبوة روحيّة بين البطريرك وبيني حتى اليوم. كانت ثقته بي ومحبّته لي، نعمة عظيمة في حياتي حتى اللحظة الحاضرة.

كـان الوجـه الثـاني للنشـاط الثقـافي في أسـرة الرعيـة، التعامـل مـع المسـرح، علـى أصعدة كثيرة. أولها كان حضور ما يُعرض من مسرحيات في دمشق. وكانت الحركة المسرحية ناشطة في أواخر الستينيات وأوائل السبعينيات. وكان من أجمل العروض مسرحية "الأشجار تموت واقفة"، للكاتب الإسباني "ألخاندرو كاسّونا"، وقد أخرجها علي عقلة عرسان. ولشدة إعجابي بها، دعوت أفراد الرعية لمرافقتي لحضورها مجدّداً، فرافقني ثلاث مرات، ثلاثة أفواج، كان يتراوح أعدادها بين 45 و73 شاباً وفتاة. ثم دعونا الأستاذ علي عقلة عرسان، لحوار طويل أجريناه معه في قاعة الكنيسة.

وكان الصعيد الثاني في النشاط المسرحي، يشمل ثلاث مراحل، أولاها كانت اشتراك بعض من أفراد الرعية الجامعية، في تقديم العروض المسرحية، التي كانت تقدّمها فرقة "هواة المسرح العشرون"، تلك الفرقة التي كنت قد أسّستها مع صديقي المخرج سمير سلمون، بدءاً من عام 1968. وكانت المرحلة الثانية تشمل الفترة، التي حاول فيها أفراد أسرة الرعية تقديم عروض، من تأليفهم وتمثيلهم وإخراجهم، وكانت عروضاً متفاوتة جداً، رجحت فيها كفة الإخفاق. وكانت المرحلة الثالثة، تشمل الفترة التي استعان فيها أفراد أسرة الرعية، ببعض المخرجين القدامى أو المحدثين، وقدّموا فيها عروضاً حالفها التوفيق، مثل مسرحية "سيّدة الفجر"، التي أخرجها لهم الدكتور عجاج سليم، أو مسرحية (الانتظار)، المستمدة من مسرحيّة "الأخوات الثلاث" لأنطون تشيخوف، التي أخرجها لهم الفنان (جمال سلوم)، فنالت الجائزة الأولى في مسابقة مسرح الهواة في سورية. وحظيت بتمثيل المسرح السوري في مهرجان المسرح العربي، الذي أقيم في عمّان، من 4/29 إلى 5/4 عام 2006، وقد نالت فيه جائزة أفضل ممثل للدور الثاني، وقد نالها منذر العيد، وجائزة أفضل سينوغرافيا.

ولكم يطيب لي أن أشير، في حديثي عن الشأن الثقافي، إلى الأمسيتين السينمائيّتين، اللتين أحيتهما أسرة الرعيّة الجامعيّة، مع صديقي المخرج السينمائي الشاب، عمر أميرالاي، وقد شاهدنا وناقشنا خلال إحداهما، فيلمه الجريء "سد الفرات". كان ذلك عام 1971.

ثمّة نشاط آخر اتّخذ بعداً رمزياً، وكان يقام مرة واحدة كل عام، وقد حدّد في يوم عيد القدّيسة بربارة، في الرابع من شهر كانون الأول. فمن المعروف أنّ عيد هذه القدّيسة، يترافق في العائلات المسيحية، بأكل القمح المسلوق، الذي كان أصلاً يؤكل في أعياد شهداء المسيحية. والقمح، كما هو معروف، يرمز للحب الذي يفنى، ليهب الحياة مضاعفة للآخرين. فاتخذت أسرة الرعية من هذا العيد، فرصةً لتقدّم حفلاً سنوياً،

تُحيـي فيـه بالكلمـات والأغـاني، وبعـض التمثيليـات القصـيرة، هـذا الرمـز العظـيم والخالد، رمز الحب الذي يموت ليهب الحياة للآخرين... وقد دأبت في هذه المناسبة، على دعوة عدد من المسؤولين، وما كان، ضمن حدود علمي، أحد ليعتذر. وكان أن دعوت في إحدى السنوات، رمزين وطنيّين كبيرين، هما العميد الطيار عدنان الحاج خضر، والعقيد الطيار غازي أديب. وكان كلاهما من أبطال حرب تشرين، وهما طياران حربيان. كما أنّ الاحتفال بعيد البربارة عام 1977، كان الشرارة التي أشعلت مشروع حفر قاعة الكنيسة، بعد أن اكتشف يومها نائب البطريرك، المطران الياس نجمة، الخطأ الهندسي الفادح، الذي ارتُكِب في تصميم وتنفيذ هذه القاعة، بالرغم من احتجاجاتي المتكررة السابقة. ولسوف أعود إلى هذا الموضوع الهام في وقته.

بقي أن أشير إلى نشاط اجتماعي، لعب دوراً إنسانياً عظيماً، في حياة الكثيرين من أسرة الرعية الجامعية، والكثيرين أيضاً من الرجال والنساء، الذين قست عليهم الحياة والظروف. وقد بدأ كل شيء يوم طلب بعض الرجال الناشطين، من جمعية مار منصور الخيرية، مساعدتهم بعناصر فتية في تقديم العون، لبعض من النساء، اللواتي يعانين من أوضاع زرية للغاية. فعلى عادتي، وجّهت نداء خلال القداس، وتواعدت مع المتطوعين، من أجل زيارة هؤلاء النساء، بعد القدّاس مباشرة. ويومها انطلق معي قرابة سبعة عشر شاباً وفتاة. وكان من تأثّرنا بما رأينا وسمعنا، أن تابعنا العمل، وأبينا إلا أن نوسّعه. وبتنا، بعد فترة قليلة، نزور العشرات من البيوت الفقيرة، في الحي المسمّى حي اليهود، وغيره من الأحياء الفقيرة، حتى نشأت بين هؤلاء المسنّين والمسنّات، وشبيبة الرعية الجامعية، علاقات إنسانية، تجاوزت الحاجات المادية، إلى ما يشبه الحاجة الروحية، يستشعرها المسنّون عندما يتأخر زوّارهم من شبّان وشابّات، كما يستشعرها الشبّان والشابّات، عندما كانت بعض الأمور تحول دون تنفيذ زيارتهم في موعدها المحدد. وقد بلغ اهتمام هؤلاء الشبان والشابات بهذه العائلات العاثرة، من العمق والصدق، ما جعلنا ذات يوم نقف أمام تحدٍّ كبير، عندما شاهدنا بيتاً انهارت غرفتاه تحت الأمطار، ولم ينجُ أفراد العائلة الخمسة من الموت إلا بمعجزة. وقد حدث ذلك في "حي اليهود" أيضاً. فاستنجدت بمهندس صديق، يدعى فريد عوض، وصمّمنا معه ومع أفراد الرعية الجامعية على إعادة بناء غرفتين، ولكن في صحن الدار الواسع. وقد تمّ كل ذلك بالاتفاق مع سائر المستأجرين الفقراء، فيما كانت عائلة فقيرة من الحارة نفسها أيضاً، قد احتوت العائلة المنكوبة حتى الانتهاء من بناء الغرفتين... ولا يسعني، وأنا أتحدث عن هذا النشاط الاجتماعي الرائع، إلا أن أذكر صبيّة تدعى

"عبير أَسَوات"، وكانت من أنشط الناشطين في هذا الميدان، وقد دهستها سيارة ذات يوم، وهي واقفة على الرصيف، تنتظر زملاءها وزميلاتها، لتمضي معهم لزيارة المسنّين الفقراء... فارتأى الشبان والشابات الناشطين معها، أن يطلقوا اسمها على مجموعتهم، فصارت تعرف باسم "مجموعة عبير"!

وكانت أسرة الرعية الجامعية تتوّج جميع هذه النشاطات، بلقاء صيفي تقيمه بعيداً عن دمشق، طيلة أسبوع. وقد اعتدنا أن نقيم هذا اللقاء في صافيتا، لدى الأب يوسف صقر، طيلة سنوات متتابعة. وكان عدد المشاركين في كل لقاء، يتراوح بين ثلاثين وأربعين شاباً وفتاة. وهذا اللقاء، كنا نُعدّ له إعداداً نجتهد في أن يكون دائماً جيداً، لأنه كان بمثابة تتويج للعام المنصرم، وتحضير للعام القادم. وكنّا نجتهد أن نتخلّى فيه عن كل ما يمتّ إلى دمشق بصلة، ولا سيما الموسيقى الصاخبة والسباحة، لنستفيد من كل ما كان مفرحاً للنظر، من آفاق حلوة فسيحة، مريحاً للقلب من صباحات يملأها صوت فيروز بحضوره الدافئ والإنساني، ثمّ لقاء صلاة يترافق بتأمل في الإنجيل وبمشاركة الحاضرين القادمين من كل مكان، مبهجاً للجميع بلقمة طيبة، يقدّمها المشتركون لبعضهم البعض، في خدمة يتداول الجميع فيها دورهم، ومن ثم في اجتماع عام يُلقى فيه حديث موجَّه، وتعقبه اجتماعات في حلقات، قد تتواصل بعد الظهر، بعد فترة استراحة كنّا نسميها قيلولة، وما كانت القيلولة فيها دائماً محترمة، ثم ينطلق الجميع في نزهة عبر الجبال الرائعة المكسوة بالأشجار، والمحيطة بصافيتا. وقد تكون النزهة أحياناً في سيارة. وفي المساء، بعد العشاء، نعود إلى اجتماع عام، تعقبه أمسية حلوة، تملأها بعض الأصوات الجميلة، إذا وُجدت.

وكنا أحياناً نستبدل السهرة، بأمسية صلاة نُقيم فيها القدّاس الإلهي، على الطريقة التي ألفناها وأحببناها في أسرة الرعية الجامعية. وعندها ما كنّا نقيم للوقت وزناً! كما أننا ما كنا لنغادر صافيتا، أو الدير الذي كنا نقيم فيه، إلا بعد أن نكون قوّمنا العام المنصرم، تقويماً وافياً وشاملاً، وأعددنا برنامج العام القادم. وكانت سوية هذه اللقاءات السنوية، وأهميتها بالنسبة إلى خطة العمل السنوية، كثيراً ما تستنهض بعضاً من كبار المثقفين، وعلى رأسهم انطون المقدسي، حتى إنه لم يكن ليمانع في مشاركتنا جميع نشاطات هذا الأسبوع. وقد فعل ذلك مرتين، ودونما تردّد، مرة في الزبداني، ومرة في صافيتا، وذلك على الرغم من مشاغله الرسمية والشخصية، الكثيرة والهامة.

وكان هذا النمط الجديد، من العمل الكنسي مع الشبيبة الجامعية في سورية، قد

استرعى انتباه الكثيرين، ومنهم بعض المسؤولين من كنسيّين وعلمانيّين، هنا وهناك، في سورية وخارجها. أما في سورية، فقد كانت كنيسة السريان الأرثوذكس في دمشق، هي السبّاقة إلى استلهام فكرة أسرة الرعية الجامعية، وبدأت عملها خلال عام 1981. ومن ثم بُذلت محاولتان، الأولى في نطاق كنيسة حلب، والثانية في نطاق كنيسة اللاذقية. وقد تركّز التعاون مع حلب، على عقد اجتماع في حمص، يضم شبيبة جامعية من حلب، ومن أسرة الرعية الجامعية في دمشق. وقد شئنا لهذا الاجتماع المشترك، أن يهدف إلى تبادل الخبرات العملية والصلاة المشتركة، في ما يتجاوز الانتماء الطائفي الضيّق، ومن ثمّ في ما يريد رسم خط مسيحي جديد، يكون موحّد الرؤيا والالتزام، في نطاق الكنيسة والوطن. إلا أنّ هذه المحاولة الجادة، توقّفت بعد الاجتماع الثاني فقط، بصورة تلقائية ونهائية، بموقف بدر من حلب!

وأما اللاذقية، فقد تبنّت محاولة تنطوي على قدر أكبر من الواقعية والتواضع، إذ جاءنا منها ذات يوم، علمانيّان ملتزمان، يسألانا تنظيم مخيّم صيفي مشترك، بين بعض من شبيبتها الجامعية، وأسرة الرعية الجامعية. وكان لهما ما أرادا، إلا أنهما لم يشاركا في المخيم. وكان مخيماً حقيقياً، نُصِبت خيامه في بلدة "العديدة" الجميلة، القريبة من صافيتا، بمشاركة عشرة شبّان وشابّات من اللاذقية، وخمسة من أسرة الرعية الجامعية. واستطال عشرة أيام كاملة، كنت فيها الكاهن الوحيد. وقد جرى كله وفق ما كنّا ألفناه في لقاءاتنا الصيفية السابقة، من محاضرات إلى حلقات، فنزهات، وإلى سهرات، فقداديس تقودنا بعيداً في أغوارنا الذاتية وفي أغوار الرب! وإن كان لي أن أذكر هذا المخيم، فإني أذكره لكلمة واحدة، قالتها صبية من اللاذقية، في آخر مساء، خلال لقاء التقويم، إذ قالت ما حرفيته تقريباً، لشدة ما كان تأثّري بما قالت: "قبل هذا المخيّم، كنت قد كفرت بكلّ شيء له علاقة بالحب. أما في هذا المخيم، فقد اكتشفت كيف أن عصام ونهى (من أسرة الرعية) وطوني وبشرى (أيضاً من أسرة الرعية)، يعيشون الحب بينهم، حرية في فرح العطاء للآخرين، دون أي انطواء، فتمنّيت أن يأتي يوم أعيش فيه الحب، كما رأيت عصام ونهى وطوني وبشرى، يعيشونه!" تلك الفتاة كان اسمها كلاديس، وإني لأشكر للرب اكتشافها ذاك... ونعمة تحقيقه فيما بعد! وأما الجامعي الخامس من أسرة الرعية، فكان شابّاً أصبح في ما بعد، كاهناً، وهو الأب عزيز حلاق اليسوعي!

وهنا يطيب لي أن أروي ذكرى تتعلّق بهذا الشاب عزيز حلاق، ولها دلالتها. فقد جاءني يوماً يسألني مرافقته في زيارة للمطران الياس نجمة، يوم كان نائباً لبطريرك

الروم الكاثوليك في دمشق. فاستفسرت منه عن السبب، فأخبرني أنه زار المطران منذ أيام، مبدياً له رغبته في أن يصبح كاهناً، ولكن كاهناً يسوعياً. فاستنكر المطران رغبته تلك، وأعرب له عن حاجة كنيسة الروم الكاثوليك إلى كهنة، وعزيز منها!... وجرت المقابلة، فكرّر المطران نجمة أمامي اعتراضه ذلك. فتصدّيت له، وطالبته باحترام رغبة عزيز، المستندة إلى واقع في كنيستنا، ليس فيه ما يشجّع أي شاب على اختيار الكهنوت. ثم إنّ المسيح، أولاً وأخيراً، هو هو في جميع الكنائس. وأما الرهبانية اليسوعية، فليس منا من ينكر أنها توفّر لجميع كهنتها، تنشئة قوية، مدروسة، وإطاراً حياتياً، متجدّداً وثابتاً، لا يتوفر شيء منه في كنيستنا، حيث يترك الكاهن وحيداً يصارع الله والناس!... وكانت هذه الزيارة حاسمة!

وأما خارج سورية، فكان لعمل أسرة الرعية، أصداء تفوق بما لا يقاس ما كان له داخلها. ولكم فوجئنا عندما أخذت تأتينا دعوات من مجلس كنائس الشرق الأوسط، التابع لمجلس الكنائس العالمي، للمشاركة في بعض المؤتمرات، التي كان هذا المجلس ينظّمها في نطاق حركات الشبيبة المسيحية، الناشطة في الوطن العربي. وقد دُعينا، أول ما دعينا، إلى مؤتمر شبيبي عقد في برمّانا عام (1971). فانتدبنا له يومها شاب أرمني يُدعى جاك توماجيان. وقد فاجأهم، هذا الأرمني، عندما نقل لهم ما نطرحه في أسرة الرعية، من دعوة أساسية إلى الانغراس في المسيح الواحد، وإلى تجسيد هذا الإيمان في الأرض العربية. وكان أن فاجأوه عندما سألوه عن طائفة مرشدهم في أسرة الرعية في دمشق، فلم يكن له ما يجيبهم به. وكان أول سؤال طرحه عليّ في مكتبي، في بطريركية حارة الزيتون، فور عودته من المؤتمر، هو: "أبونا، شو طايفتك؟". أجل، هكذا كنّا في أسرة الرعية الجامعية. أتذكر يا جاك؟

ثم توالت الدعوات إلى لبنان 1972، ثم إلى القاهرة مرتين، في عام 1973 وعام 1974، ثم إلى فرنسا بدعوة من رهبان "تيزيه" (TAIZÉ)، وإلى الحبشة، وجنيف فواشنطن. وقد شاركنا في جميع هذه المؤتمرات. وكنا، إذ نتلقى أوراق الدعوة للمؤتمر، نتدارس محتواها مع جميع أفراد الرعية، ثم نسألهم اختيار من يرونه الأجدر بتمثيلهم، في اقتراع مكتوب وسرّي، يفتح للتو أمام الجميع، ثم نسأله - إن كان واحداً، أو نسألهم إن كانوا كثراً - أن يستعدّوا بالصلاة والبحث، ليؤدّوا الأمانة على أكمل وجه. وكنا نسعى، أنا والأب صالح نعمة أو الأب يوسف بربي، إلى تزويدهم ببعض ما قد يحتاجون إليه. من ذلك مثلاً أنّ الذي مثّل أسرة الرعية في مؤتمر للشباب العالمي عُقد في أديس أبابا بالحبشة عام (1973)، وضمّ ثمانين منظمة عالمية،

كان طالب طبّ من حلب، يدعى رياض حنّا. وقد وُفِّقنا إلى تزويده بفيلم مشهور للمخرج العراقي السوري، فيصل الياسري، وهو فيلم "نحن بخير، طمّنونا عنكم!". وقد حدّثنا رياض عند عودته في محاضرة عامة، حضرها عضو القيادة القومية عطيّة الجودي، عما تعرّض له مع منظّمي المؤتمر، وعلى رأسهم السيّد كابي حبيب، الذي كان يرأس مكتب الشرق الأوسط لمجلس الكنائس العالمي، من مضايقات كثيرة، بدأت بمحاولة سرقة فيلم فيصل الياسري، واستمرت في تعطيل جهاز الإسقاط، فاستعانوا بجهاز استعاروه من المركز الثقافي السوفييتي، وانتهت بما كان تهديداً لحياتهما! كل ذلك لأن هذا الفيلم كان يطرح قضية الصراع العربي الإسرائيلي، من زاوية الكذب الإعلامي، الذي تمارسه إسرائيل، ويمارسه الغرب كله.

وجاء يوم، قرّرت فيه أسرة الرعية، عدم الاشتراك في أي مؤتمر عالمي، يُعقد خارج سورية، نظراً للتطورات السياسية والأمنية، الداخلية والخارجية، التي كانت آخذة في التفاقم!

كل ذلك النشاط، كنّا نورده موجزاً، في تقرير سنوي، أخذنا على أنفسنا أن نكتبه ونسلّمه باليد، للمسؤولين الكنسيين، وللراغبين من أفراد أسرة الرعية وسواهم. كما كنّا نرسله بالبريد للكثيرين. وما كنّا لنتلقّى أي تعليق مكتوب من أي مسؤول كنسي داخل سورية، مع أنّ كل تقرير كان يثير لغطاً كثيراً، لا يبلغنا إلا بعض من صداه. وإلى ذلك، لم يكن أيّ من مرشدَي أسرة الرعية، ليُدعى لأي من اللقاءات التي كانت تُعقَد بشأن الشبيبة، داخل سورية، حتى لو كان الاجتماع يضمّ جميع السلطات الكاثوليكية في سورية. وكان آخر تقرير سنوي كتبناه يعود إلى عام 1976. وإنه ليطيب لي أن أذكر في ختام حديثي عن "أسرة الرعية الجامعية"، مبادرة بالغة الدلالة، جاءتني من مسؤول كنسي في لبنان، هو الأب البولسي بطرس المعلم، وهي تُبرز مدى اهتمام بعض مَن هم خارج كنيسة سورية، مقارنة بلامبالاة مسؤولي الكنيسة في سورية. ذلك بأنه طالع في العدد الثامن من مجلة "النشرة العائلية"، التي أسسها الأب يوسف صقر في صافيتا، نص "تقرير أسرة الرعية الجامعية السنوي"، حول لقائها في صافيتا، من 3 آب إلى 8 منه، سنة 1973". فكتب لي بتاريخ 1973/11/23، رسالة من حريصا، يقول فيها، في ما يقول:

« قرأت في "النشرة العائلية" (العدد 8)، تقرير أسرة الرعية الجامعية السنوي، عن لقائها في صافيتا الصيف الماضي، فأعجبت بمضمونه أيّما إعجاب، وتدارسته مع عدد من الشبان

الملتزمين مسيحيّاً في بيروت، من جامعيين وموظفين وسواهم، فنال إعجابهم كذلك، لما فيه من عمق الرؤية وشمولها، في مختلف نواحي الحياة الروحية والفكرية والاجتماعية، لا على صعيد النظريات والمبادئ فحسب، بل على صعيد التطبيقات العملية الملتصقة بالحياة اليومية.

فهنيئاً لك يا أخي أن تصل الرعية اليوم إلى ما وصلت إليه، بفضل جهودك الكثيرة، وجهود الذين قدّروا عملك وساهموا في مؤازرته، وبفضل تجاوب هذه القلوب الفتية السخية، التائقة إلى النور والحق والحياة. وأرجو أن تكون نقطة الوصول التي بلغتموها، هي نفسها نقطة الانطلاق على دروب التأنسن اللامحدود، في خطى من هو وحده "ابن الإنسان" ». (انتهى)

وإنه ليسرني أن أضيف إلى ملحق هذا الكتاب، صورة لرسالة الأب بطرس المعلم، مرفقة بنسخة كاملة من هذا التقرير الذي يحمل تاريخ 1973/8/18، وتوقيعاً هو "أسرة الرعية الجامعية".

والآن أتوقف عند حدث ثالث في هذا العام، ما كان ليخطر ببال أحد.

كان شتاء عام 1968، قاسياً جداً. فجاءني ذات يوم، الأب بولس سليمان اللعازري، الذي يُعرف حتى اليوم بمؤسس "أسرة الإخاء السورية"، يخبرني أنّ عدداً من الأطفال تُوفّوا من الصقيع، في "مخيم الوافدين"، الذي أقيم لنازحي القنيطرة، إلى الشمال بالقرب من دمشق. فنويت أن أقابل سماحة مفتي الجمهورية، لأقترح عليه توجيه نداء في صلاة يوم الجمعة، كي يُصار إلى تبنّي أطفال المخيمات، لفترة وجيزة، ريثما تنحسر موجة البرد. فقصدت إدارة مدرسة المعونة الدائمة، حيث درّست لسنوات، وطلبت مقابلة الشيخ الذي كُلّف تدريس الديانة الإسلامية فيها. وإذ به شاب لطيف، بشوش، يرتدي لباساً مدنياً صرفاً، فيما كنت أنا في ثوبي الأسود الطويل، وملتحياً. فبيّنت له الغرض من اجتماعي به، وعرفت للتو أنه من مريدي سماحة المفتي أحمد كفتارو، وأنه صديق ابنه الأكبر، زاهر. وكان أن جمعني سريعاً بصديقه زاهر في مكتبي، في دار البطريركية. فحدّد لي موعداً مع والده المفتي، بيّنت له فيه الغاية من مسعاي. فجمعني سماحته للتو بوزير الأوقاف آنذاك الأستاذ محمد غالب عابدون، الذي استقبلني بكل مودة واحترام...

وكان ذلك المسعى بداية لصداقة ترسّخت حتى اللحظة، بيني وبين الشيخ محمد دقّوري، صداقة أشتهي مثلها لجميع الكهنة والشيوخ في سورية. ولكم يسعدني الآن أن أرسم خطوطها الكبرى.

بـدأ بزيـارتي بمفـرده، في دار البطريركيـة. وكـرّر زياراتـه لي مـراراً، دون أن أقابلـه بمثلها. وكان الحوار بيننا عادياً ووديّاً، خالياً بالكلية من أية عدوانية. أخبرني، بادئ ذي بـدء، أنـه كـان متـأثّراً بالطريقـة الـتي كنـت تعاملـت فيهـا، يـوم كنـت أدرّس الديانـة المسيحية في المدرسة، مع بعض الطالبات المسلمات، اللواتي كنّ يحدّثنني أحياناً عن بعض مشاكلهنّ. وما كنت ألحظ لديه أي تصنّع في الحوار. ثم حمل لي ذات يوم كتاباً عن الحديث الشريف، لأنه عرف أنني أمتلك نسخة من القرآن الكريم. فقدّمت له بدوري نسخة من الإنجيل المقدس. وأخذت أزوره في بيته، في آخر حي ركن الدين بدمشق، حيث كان يؤمّ المصلين ويعظهم في المسجد. وجاء يوم، صار يطلب فيه المزيد من نسخ الإنجيل، حتى بلغت أربعاً وعشرين نسخة. وما كنت لأطرح عليه أي سؤال بشأنها، حتى كان يوم قال لي فيه ضاحكاً: "ألا تسألني لِمَا أطلب نسخ الإنجيل؟" فقلت له: "ولِمَ أسألك؟ أنا أثق بك!". فضحك وقال: "سأخبرك. زملائي في تدريس الديانة الإسلامية، عرفوا الصداقة التي بيننا. فصاروا يسألونني عن المسيحية، فصرت، كلّما سألني أحدهم، أقول له: "اقرأ الإنجيل أولاً، ثم سلني، حتى أصبحوا يسمّونني "دقّوريوس"، تيمّناً بالأسماء المسيحية القديمة...". أجل، تلك كانت طبيعة هذه الصداقة، التي جمعتني منذ شتاء عام 1968، بهذا الإنسان، الطيب والصادق.

وشاء ذات يوم أن يدعوني لعشاء في بيت أهله. لبّيت بكل سرور. وإذ به قد دعا ثلاثة من زملائه الشيوخ الشبان، وكانوا كلّهم يرتدون لباساً مدنياً. فتناولنا العشاء معاً في جو مفعم بالأنس والبساطة. وقرابة الساعة الحادية عشرة، نهضت لأعود، على أن أستأجر سيارة تكسي. فأصرّوا كلهم على اصطحابي في سيارة تكسي، حتى باب البطريركية، ولم يفارقوني إلا عندما فتحت الباب الخشبيّ الكبير، ولوّحت لهم بيدي، مودّعاً وشاكراً.

وتواصلت الزيارات فيما بيننا. وكنت أسرّ كثيراً بتقديم التهاني له في بيت أهله، في حي ركن الدين، في عيدَي الفطر والأضحى. وكنت ألاحظ، كلما كنت أزوره في هاتين المناسبتين، وجود عدد من الشيوخ الشبان، لا يقلّ عن خمسة عشر شيخاً، وقد ملأوا مقاعد الغرفة. وكانوا كلهم بلباس مدني، فيما كنت أنا ملتحياً، وبلباسي الأسود الطويل. وكان الجو دائماً ودّياً وصافياً باستثناء مرة واحدة، أراد فيها أحدهم أن يناقشني في موضوع "إنجيل برنابا"، فاضطررت لحسم الموضوع، بما يُثبت تعارض ما يُسمّى "إنجيل برنابا"، مع الإنجيل والقرآن معاً.

ويطيب لي، إذ أتحدث عن زياراتي له في فترة الأعياد، أن أذكر أنه دعاني ذات مرة، في ختام زيارتي له، إلى تقديم التهاني للأستاذ علاء الدين الأيوبي في بيته. فرحّبت طبعاً،

وكان هو مَن سَبَق وجمعني به. فاستأذنني، ثم غاب دقائق، ليعود بعدها وقد ارتدى ثوباً طويلاً أبيض، ووضع على رأسه قبعة صغيرة، وخرجنا معاً. ويومها كان الطقس رائعاً، وكنت وإيّاه نسير جنباً إلى جنب، وسط الشارع المزدحم بالكبار والصغار، ونتحدّث على عادتنا، دون أن أنتبه لما كنا فيه. وفجأة لاحظت أن حركة الشارع توقّفت، ولاحظت أنّ العيون منصبّة علينا. وعندها فقط أدركت ما حدث. فتوقّفت بدوري وحدّقت في الشيخ محمد، وهو في ما يُشبه الغبطة، وقلت له: "أستاذ محمد، شو عملت؟" فكان جوابه بالحرف الواحد، كما لو كنت أسمعه الآن: "أب الياس، خلّي أهل الحي يشوفوا، ولو مرة واحدة في حياتهم، شيخ وخوري ماشيين مع بعض!". يا لها من لحظة رائعة! ويا لها من لفتة ذكية وإنسانية! ولا بدّ لي هنا من الإشارة إلى الجواب الذي صدر عنه أيضاً، يوم سألته تفسيراً للعدد الكبير والمتنوع، من الشيوخ الشبّان الذين كانوا يجتمعون في بيته، في كل زياراتي له في عيد - وأرجو أن يعذرني إن أصررت على ذكر ما قال لي يومها، ما قد لا يريد له أن يعلن! - قال: "علّمونا أن رجال الدين المسيحيّين كلهم، عملاء للصهيونية والاستعمار، وأنا اكتشفت من خلالك، أنّ ذلك غير صحيح، وأنت وطني وقومي أكثر مني. فأحببت أن يعرفك أكبر عدد من زملائي الشيوخ!".

وذات يوم، صارحني برغبته في تسجيل أطروحته، في المعهد الشرقي التابع للآباء اليسوعيّين في بيروت، ذلك بأنّ موضوع أطروحته رُفِض في كلية الشريعة بجامعة دمشق. فتحدّثت في بيروت مع أمين سر المعهد آنذاك، السيّد (فرنسوا تراك)، وكنت صديقاً لأخويه في دمشق. ورجوته تخفيف قسط الجامعة، فاستجاب دون تردّد. وأخبرت صديقي الشيخ محمد بذلك، فقصد بيروت فرحاً. إلا أنه أُعيد عند الحدود اللبنانية إلى سورية. فأخذت ذات يوم هويته، وإذ كنت قاصداً بيروت، توقّفت عند المسؤول الأمني في مركز المصنع اللبناني، وحدّثته عن أمر الشيخ ومنعه من دخول لبنان. فاستعلم عن أسباب المنع، وأنا جالس في مكتبه، فكان الجواب: "لأنه متهم بتهريب الحشيش إلى لبنان". فأكدت له أنّ الشيخ لا يعرف لبنان حتى اليوم، وأن ما أعرفه عنه، يضعه فوق كل الشبهات. ثم رجوته أن يتحقّقوا من تاريخ الميلاد، ومن اسم الوالدين. فاتضح أن المتهم يتجاوز الخمسين، فيما صديقي لمّا يبلغ الثلاثين، واسم والدته غير اسم والدة المتهم... وعندها، أعاد لي المسؤول الأمني هويته، ثم قال لي: "أبونا، قل لصديقك الشيخ: أهلاً وسهلاً فيه بلبنان متى يشاء". ثم سألني وهو يبتسم: "أبونا، أنت خوري..." فقاطعته وقلت له: "ما تريد أن تقوله قد ينطبق على لبنان، ولكنه لا ينطبق على سورية!".

وبدأ الشيخ محمد يتردّد إلى المعهد الشرقي في لبنـان... ثـم كـان أن تـزوّج، فـأراد أن يمضي شهر العسل في لبنان... ثم انتقل مع زوجته إلى بيت جديد، في أول شـارع ركـن الدين بدمشق. فأحببت أن أهنّئه بزواجهما. وقصدت بيتهما الجديد في الموعد المحـدد. وإذ بالزوجة تفتح الباب دون أن يظهر هو، فحيّيتها وأنا أنسحب على عـادتي، عنـدما لا يكون الرجل في البيت. وإذ بها تصرّ على دخولي البيت، وأنا أمانع، حتى قالت لي: "أب الياس، هو طلب مني أن أدخلك البيت، حتى يخرج من الحمام". فوجئت بهـذا الكلام. إلا أنها أصرّت، وعندها لم يعد لي من مبرّر للانسحاب، ففعلت ما لم أفعلـه يوماً، لا قبل ذلك، ولا بعد ذلك، في حياتي: دخلت في غياب الرجل، والرجل مسلم وشيخ، وجلسنا بكل هدوء نتبادل الحديث، وإذ به بعد دقائق يدخل فيقبّلني بكل ارتياح، ويجلس معنا، ثم طلب من زوجته أن تجلب القهوة، وعندها فقط انسحبت، لتعود بالقهوة وتجلس معنا.

ومضت الأيام والأشهر، ووضعت زوجته طفلتهما الأولى. فكان سعيداً بنقل البشرى إليّ. وبعد مضي شهر أو شهرين، اتصل بي هاتفياً، ليُبدي رغبته مع زوجته في زيارة أهلي. فسرّتني جداً مبادرتهما. وكان أول ما فعله، عندما دخل البيت، وحيى أمي وإخوتي، أنه قال: "هذه أول زيارة نقوم بها مع طفلتنا، خارج بيتنا الزوجي. وقد أردنا أن تكون هذه الزيارة للأب الياس وأهله، لأن ما جمعني به هو المودّة، التي يتحدّث عنها القرآن الكريم، إذ يقول: "ولتجدنّ أقربهم مودّةً للذين آمنوا، الذين قالوا إنّا نصارى"، ولذلك سمّينا ابنتنا "مودّة"...

وما زالت تلك المودّة قائمة بيننا، ومازلت، إذ أسمع صوته المحبّب على الهاتف، أناديه بأبو مودّة!

ثمّة أفق آخر فُتح أمامي، مع اقتراب عيد الفصح هذا العام 1968. فقد طرح عليّ صديق جديد، يدعى سمير سلمون، وكان مخرجاً في التلفزيون، مشروع عرض مسرحي يتحدّث عن القيامة. فوضع بين يدي نصّاً مسرحيّاً بعنوان "مَن الأقوى؟"، كان الأب أنطون هبي قد كتبه. وسألني سمير إعداده مسرحيّاً من جديد. ففعلت. وقُدِّم العرض المسرحي بمناسبة عيد الفصح، ولاقى نجاحاً. فشجّعني سمير على الكتابة المسرحيّة. ولما كنت منذ سنوات، أتابع الحركة المسرحيّة في دمشق، وأحب المسرح، وقد استهواني قراءةً وتمثيلاً، عبر سنوات طويلة في رياق والقدس، فكّرت مليّاً في اقتراح سمير سلمون، لا سيما وأنّ شهوة الاغتراب كانت منذ ذلك الحين، متحكّمة في الشبيبة الجامعية. فركزت تفكيري حول هذا الموضوع فترة من الزمن، ثم مضيت إلى

صافيتا، حيث الهدوء والصفاء، وكتبت النص في بضعة أيام، وحملته لسمير، وكان بعنوان: "ليتكَ كنتَ هنا". وبعد أيام قليلة، دعاني سمير إلى غرفته الصغيرة... الكبيرة، في بيت أهله، الكائن في حارة القدّيس حنانيا. وأبدى ارتياحه للمسرحية، موضوعاً ونصاً. وتركت له بالطبع أن يختار الإخراج والممثّلين. وقد اتضح لي منذ مسرحيّة "مَن الأقوى؟"، أنه مُعلّم كبير في صناعة الممثّلين، نَفَساً ودوراً وحركة وحضوراً ونطقاً... وما كان يبخل، في سبيل العمل المسرحي، لا بوقته، ولا بفكره، ولا بصبره، ولا بمحبته، ولا بخبرته في نتيجة المطاف، عندما كان يقف الممثلون فوق خشبة المسرح، بكل ما وهبهم الله، وأعطاهم سمير أن يهَبوا ذواتهم، ليبلّغوا رسالة المسرح العظيمة، في زمن كان كل ما فيه ومَن فيه، بأمسّ الحاجة إلى رسالة. ونجحت المسرحيّة، وقد عُرضت أسبوعاً كاملاً، على مسرح مدرسة راهبات المحبّة في باب توما. وكان على رأس من حضرها، البطريرك الجديد، مكسيموس الخامس حكيم.

وكانت تلك، عام 1968، بداية لتجمّع فنّي ومسرحي جديد، انتهى بعد سنة أو سنتين، إلى تأسيس فرقة مسرحية جديدة، اتخذت لها اسماً هو "هواة المسرح العشرون".

إلا أنّ هذه المسرحية، لم يخطر ببال أحد، بدءاً مني، أن أطبعها، إذ كان همّي وهمّ سمير، الوحيد، أن نُسمِع صوتاً يحمل رسالةً، عبر المسرح. وكان أن وصل الصوت إلى من لم يحضرها، ومن لم يكن ليخطر ببالنا أن ندعوه لحضورها، وهو السفير البابوي، لا سيما وأنها باللغة العربية، وهو كان يومها إيطالياً. ولكن الصوت الذي بلَغه، كان يحمل غير الحقيقة التي كنت دعوت إليها، في إعمال العقل والتمسك بأرض الوطن. وكان من يحمل هذه الدعوة كاهناً، كان العمل المسرحي يدور حوله. وفيما كان هو يدعو الشبان والشابات إلى التعقل، في وجه موجة التغريب، التي بدأت تعصف بالمجتمع، كان بعض الأهل، يؤخذون بها ويخطئون في تفكيرهم وتوجيههم لأبنائهم. فجاء من ينقل إلى السفير البابوي "رافائيل فورني" (Raphael FORNI)، تصوّراً عن المسرحية، يوحي بأن الكاهن البطل فيها، يحرّض الشبان والشابات على التمرّد على أهلهم. وفوجئت أيما مفاجأة، بما قال لي السفير يومها. إلا أني عرفت من كلامه، مَن كان هذا الناقل المغرض، ووعدته بترجمة النص الكامل للمسرحية إلى الفرنسية، كي يتسنّى له أن يعرفها على حقيقتها... ويعرف بالتالي حقيقة مَن نقل إليه هذه الصورة المشوهة. وكان أن سلّمته الترجمة بعد أيام قليلة، وقد قمت بترجمتها بنفسي، وحملتها له مكتوبة بخط يدي، لأني يومها لم أكن بعد قد تعلّمت الطباعة على الآلة الكاتبة. واستدعاني بعد أيام، ليهنئني ويعيد إليّ الترجمة، مرفقة بكلمة تهنئة حارة، كتبها بالفرنسية، بخط

يده، وهي بتاريخ 1968/6/15. وإني لأحتفظ بكل ذلك حتى اليوم... وقد جاء فيها: « إن منسنيور "رافائيل فورني" يهنّئك من كل القلب، ويسألك بحرارة أن تذكره بمحبة في صلواتك ». وهذه البطاقة الصغيرة، لها بالطبع مكانها في الملحق!

وفي سياق هذه المسرحية، وما أثارته لديّ ولدى الكثيرين، ولا سيما لدى الشبيبة الجامعية، من تساؤلات حول انتماء المسيحيين إلى مجتمعاتهم العربية، رأيت أن أكتب مقالاً حول أسس هذا الانتماء وأبعاده المستقبلية، تحت عنوان محرّض، هو "الشباب العربي السوري المسيحي أمام مسؤولياته". وقد سألت صديقي الأب جورج فاخوري، نشره في مجلة "المسرة". ولكم يطيب لي هنا، أن أورد منه الفقرة قبل الأخيرة فقط، بحرفيّتها، لما ألمس فيها ما كان توقّعاً خانقاً لديّ منذ ذلك الحين، لما تعاني منه سورية اليوم، في خضم الجحيم المجنونة التي تعصف بها منذ سنتين ونصف. جاء فيها:

« قد نُتّهم، نحن المسيحيّين العرب، في أمانتنا، وفي أصالتنا، وفي جرأتنا، بل حتى في استشهادنا، ولكنّنا نعلم، والكلّ يعلم علمَ اليقين، أننا لا نَدين لكائنٍ من كان بوجودنا وبرسالتنا، إلا لاثنين فقط: بلادِنا والمسيح. لذلك سنبقى على العهد أوفياء؛ أوفياء لبلادنا بسبب وفائنا للمسيح، وأوفياء للمسيح بسبب وفائنا لبلادنا. نعيش معهما، ونشقى معهما، ونحاول معهما، ونتقدّم معهما، ونُشتم معهما، ونتحرّر معهما، وننمو معهما... معهما نُصلب، ومعهما نموت، لنقوم معهما » (انتهى)

وفي مطلع صيف هذا العام 1968، فُتح أفق جديد أمام كنيسة الروم الكاثوليك. فقد أفضى الغليان الفكري، الذي كان يحرّك العديد من الكهنة فيها، في مختلف بلدان الشرق، إلى عقد مؤتمر ضمّ ممثّلين منتخَبين عن جميع الكهنة، في دير يسوع الملك بلبنان، برئاسة البطريرك مكسيموس الخامس حكيم، ومشاركة عدد كبير من الأساقفة. وقد دام المؤتمر ثلاثة أيام، وكان، في الحقيقة، الأول من نوعه. وفُتح الباب فيه أمام كل ما كان يعتمل في نفوس الكهنة منذ سنوات، دونما جدوى. فكانت تُلقى المحاضرات، ثم تُعقد حلقات البحث بمشاركة الأساقفة. وفي المساء، كانت تُعقد ندوة عامة، ينقل خلالها كل مقرِّر، ما جاء في كلّ حلقة، مُختصَراً مكتوباً نال موافقة جميع أعضاء حلقته، من أساقفة وكهنة. وإني لأحتفظ من هذا المؤتمر، بحدثين أودّ ذكرهما الآن.

كان الأوّل يتعلّق بالحلقة التي كنت مقرّرها، وكان فيها عدد من الكهنة لا يقلّ عن اثني عشر، بينهم كهنة لهم ثقلهم، مثل الأب انطون هبي، كما كان فيها أسقفان، هما

غريغوار حداد والياس زغبي، كانا، بإجماع العارفين، أبرز أساقفة كنيستنا، مع المطران ناوفيطس إدلبي، والمطران بطرس مدور. وتُليت الصلاة. ثم طُلب من حلقتنا أن تكون الأولى في تقديم ما انتهت إليه. فتقدّمتُ من المنصة، وكان البطريرك وحدَه جالساً فيها. وكان الأسقفان حداد وزغبي جالسين في الصف الأول مقابل البطريرك. وما إن أخذت أتلو الأسطر الأولى من التقرير، حتى قرع البطريرك الجرس وقاطعني، محتجّاً على ما جاء فيها. فقلت له بأنه التقرير، وقد وُوفق عليه من جميع مَن كان في الحلقة، وأنه ليس كلامي الشخصي، وأن الأعراف تفترض تلاوة التقرير بكامله، كي يُصار إلى مناقشته مع من كتبوه. فقال: "تابع". إلا أني أعدت قراءة التقرير من بدايته، كي لا يفوت على أحد من الحاضرين، مجمل ما جاء فيه. وإذ بالبطريرك يقاطعني بقرع الجرس مرة ثانية، وما كنت بعد قد تجاوزت الأسطر الأولى منه، ويحتجّ مرة أخرى على ما جاء فيه. وعندها توجّهت على الفور إلى أعضاء الحلقة من أساقفة وكهنة، وقلت لهم: "هذا التقرير، ليس بتقريري وحدي. إنه تقريرنا جميعاً. فلِمَ لا تقولون رأيكم في ما يحدث؟..." فصمت الجميع. وصبرت قليلاً، وأنا أحدّق في الجمهور، وخصوصاً في الأسقفين الجالسين أمامي، غريغوار حداد والياس زغبي. ثم سألتهم بصوت قوي. "أوَليس لكم ما تقولون؟" وعقب سؤالي صمت آخر. فلم أتمالك نفسي عندها، وقلت بالفم الملآن، وأنا أتوجّه للجمهور ثم للبطريرك: "كما تكونون، يولّى عليكم"، ومزّقت التقرير، وغادرت القاعة.

وكان الحدث الثاني يتعلّق بانتخابي وانتخاب الأب "اسبيريدون مطر"، الذي كان آنذاك، نائباً للمطران غريغوار حدّاد على كنيسة بيروت، مُمثِّلين للمؤتمر في ما يُسمّى السينودس المقدّس، الذي كان سيُعقَد في منتصف شهر آب، في مركز البطريرك في عين تراز بلبنان، والذي يضمّ مع البطريرك جميع أساقفة كنيستنا في العالم كلّه. وكان انتخابنا مُحدّداً بغاية واحدة، وهي حضور جلستين من جلسات السينودس، الذي يستمرّ أسبوعاً كاملاً، وهما الجلستان اللتان كان السينودس يريد أن يَبحَث خلالهما، موضوعين محدّدين، كانا أُثيرا في المؤتمر السابق، وأقرّ بحثهما في السينودس. وكان الأمر الأول يتعلّق بالسماح للكهنة بالتخفيف من ألبستهما الرسمية، في بعض المناسبات غير الرسمية. وكان الأمر الثاني يتعلّق بقرار الأخذ بمبدأ تطوير الطقوس البيزنطية، أو رفضه. وعقدت الجلستان بحضورنا نحن الاثنين. فانتهت الجلسة الأولى إلى ضرورة التمسك باللباس الرسمي في المناسبات الرسمية، على أن يُترَك لفطنة الكاهن، أن يتصرّف بحيث لا يُفرّط بكرامته، وباحترام الناس له. وأما

الجلسة الثانية، فقد جرت بحيث يُلغى كلياً كلّ تفكير بإدخال أي تعديل إلى الطقوس البيزنطية، مهما كان طفيفاً. وقد بدأ البطريرك بإبداء موقفه هذا بكل وضوح وصراحة، وهو يؤكد في كلامه، أنّ الروح القدس هو الذي أوحى لآبائنا في الإيمان والجهاد، أن يصلّوا ما صلّوا، وأن يكتبوا ما كتبوا. ثم شرع يأخذ برأي الأساقفة، أسقفاً بعد آخر. فأجمعوا كلّهم، بطريقة أو بأخرى، على ما سبق وقاله البطريرك. وكنت بين حين وآخر، ألتفت إلى الأب اسبيريدون، وأقول له: "لوين رايحين؟" وكان الأب اسبيريدون أكبر مني سنّاً ومركزاً. وأُخذ برأيه، وفوجئت به يُثنّي بطريقة ملتوية، على إجماع الآراء. أخيراً قال البطريرك: نسمع الآن رأي الأب زحلاوي. والحقيقة أني كنت طوال هذه الجلسة، أقلّب الكلمات والأفكار في ذهني، لتكون صريحة دون أن تكون صادمة. وظننت أني وجدت ما يتوجّب عليّ قوله. فقلت بصوت هادئ:

« استمعت جيّداً إلى كلّ ما قيل. وأنا أوافق تماماً على قولكم وتأكيدكم بأنّ الروح القدس هو الذي أوحى لأجدادنا في الإيمان، هذه الصلوات الرائعة. وهي حقّاً رائعة. إلا أني أريد أن أتساءل معكم: هل الروح القدس مات، أم هو لا يزال حيّاً؟. فإن كان قد مات، نطوي الموضوع، أما إن كان لا يزال حيّاً، فلِمَ لا نؤمن بأنه قد يوحي إلينا، بعض ما أوحى إلى أجدادنا، لنُدخِل على هذه الصلوات، ما قد تحتاج إليه من تعديلات؟ »

هذا كان بالحرف الواحد تقريباً، ما قلته. فما كان من البطريرك إلا أن قال: انتهت الجلسة. فخرجت غاضباً من الجميع، وخصوصاً من زميلي الأب اسبيريدون مطر. وما إن وصلت إلى غرفتي، حتى فاجأني المطران جورج حداد، وكان مطران صور، ومعروفاً بلطفه، وقد جاءني ليقول لي بحدّة: "أبونا الياس، كلامك كان قاسياً جداً، وكان كالمطارق تتساقط على رؤوسنا". فقلت له: "مع أني حاولت أن أختار ألطف الكلمات، ربما كان عليّ أن أختار أقسى منها!..." وخرج!...

وجاء، إثر المؤتمر والسينودس، سفري إلى فرنسا، بتكليف من السلطات الكاثوليكية بدمشق، من أجل البحث عمّا يُمكن أن يكون صيغة تعيشها كنيسة فرنسا، في خدمة الشبيبة الجامعية، ويسعنا الاستفادة منها في أسرة الرعية الجامعية في دمشق. فأمضيت في باريس ثلاثة أسابيع، كانت كلّها بصحبة مجموعة من الشبّان الجامعيين السوريين، أخصّ بالذكر منهم جورج حورانيّة وطوني جنّاوي، ونبيل سلامة. وإنه ليصعب عليّ أن أذكر جميع من قابلت من طلبة عرب، ومن كهنة ينشطون في خدمة الطلبة الجامعيين المسيحيين في باريس. ولكم تبادلت الرأي مع الطلبة السوريين

المقيمين في باريس، بشأن العمل الجامعي في دمشق. ولكم راجعت واستشرت من باحثين وأساتذة جامعيين فرنسيين بهذا الشأن. وكنت أبدأ أنتهي إلى نتيجة، كانت تفرض نفسها عليّ فرضاً: علينا في دمشق، أن نعيش خبرتنا الذاتية، وليس لنا قطعاً أن نستلهم آخرين.

تلك كانت المحطات الكبرى في عام 1968. ولعلّني لا أخطئ إن أضفت أنها كانت، على صعيد حالة الحنجرة لديّ، تسجّل تفاوتاً مؤلماً، ما كان ليساعدني على استرداد الأمل بالشفاء العاجل. إلا أنّ ذلك كلّه ما كان ليمنعني من متابعة الأحداث السياسية والثقافية. بل كان بعضها يدفعني للكتابة دفعاً، كما حدث لي مع المفكّرَين اللبنانيّين "كمال يوسف الحاج" و"سبع بولس حميدان"، إبان الحوار الذي دار بينهما، على صفحات مجلة "الأسبوع العربي" اللبنانية، في عددها الصادر في 15 نيسان من ذاك العام، والتي دعت المثقّفين إلى إغنائه بمداخلاتهم. وكان أني أرسلت مشاركتي، عن طريق الأب جورج فاخوري، إلى المجلة نفسها تحت عنوان: "المصير بين كمال الحاج وسبع بولس حميدان". فاعتذرت المجلة عن نشره دونما تبرير، فنشرته مجلة "المسرّة" في عدد شهر تموز من العام نفسه. ولكم سرّني أن أعلم من صديقي المحامي طانيوس عبيد، أن عدداً لا يستهان به من أعضاء الحزب القومي السوري في دمشق، قد قرأوا المقال في حلقاتهم وناقشوه. إلا أنه لم يردني، بعد ذلك أي ردّ، لا من الأستاذ "كمال يوسف الحاج"، ولا من "سبع بولس حميدان".

كان عام 1969، قاسياً جداً في ما يخصّ حالة حنجرتي، حتى أني بتّ أقيم القدّاس بصوت رتيب وخفيض. وكان ذلك يسبّب لي حزناً قاتلاً، ويشعرني بعجز مطلق، بالنسبة إلى حياتي كلّها، فأنكفئ على نفسي، حائراً متسائلاً دون جدوى. وكان شعوري هذا يتفاقم، بقدر ما كنت ألمس لامبالاة مَن حولي في البطريركية، أو هكذا كانت الأمور تبدو لي! وكنت أحاول التمسك بالصلاة، مكرّراً الصلاة إيّاها التي ألفت أن أردّدها في سري: "ربي يسوع، لا تسمح لي بالإساءة إليك!". إلا أنّ الصلاة نفسها، ما كانت لتهبني من السلام والقوة، ما كنت بحاجة إليه. فكنت أجد بعض العزاء في محبّة الأب الطيب الياس صارجي، ومزيداً من العزاء والقوة في صداقة روجيه كحيل، والنسيان والرجاء في زيارتي اليومية لبيت أختي الصغرى رينيه، لأرى طفلها الرائع، طوني... إذ كنت أشعر، كلّما حدّقت فيه، أن الحياة أقوى من أي شيء!

وكنت إلى ذلك أحاول ما استطعت، أن أكون حاضراً بعض الشيء مع أخي الأب صالح نعمة، في بعض نشاطات أسرة الرعية الجامعية...

كما أني كنت أحاول التخفيف ما استطعت، من عدد الشبّان والشابّات، الذين كانوا يراجعوني في أمورهم الشخصية.

ثمّة جديد في أمر الحنجرة، وهو أني نُصحت بمراجعة طبيبة، لم أعد أذكر اسمها، في مشفى البربير في بيروت. فرافقني الأب الطيب الياس صارجي في أول مراجعة لها. وقبل أن تباشر أي فحص سريري، أمطرتني بوابل من الأسئلة، حول مختلف جوانب حياتي، فتولّى الأب صارجي الإجابة عني. وكان أن ركّز على إهمالي الدائم لشؤوني الشخصية، بما فيها الصحية، واهتمامي المفرط بالشبيبة، ولا سيما طريقة تعاملي مع كل فرد، وكأنه ابني أو ابنتي، الأمر الذي يحمّلني المزيد من الأعباء النفسية. فحذّرتني من هذه الطريقة بكلمات صريحة، إذ قالت إنّ تلك هي الطريق الأسرع إلى الموت! ثم وصفت لي ما رأته مناسباً من علاج دوائي، بعد فحص سريري دقيق، والاطلاع على ملفي الطبي. وما كان بيدي في دمشق، أن أغيّر شيئاً من طبيعتي، وطبيعة عملي مع مَن يطرق بابي. ولكني حرصت على التقيّد بالعلاج الدوائي، طوال سنتين تقريباً، انتهت منهما الطبيبة إلى ضرورة مراجعتي لطبيب في باريس، يدعى البروفسور "برنار هالبرن" (Bernard HALPERN).

وطوال مراجعتي لهذه الطبيبة في بيروت، كنت أقيم في المدرسة البطريركية، حيث كان الأب انطون المعلم يستقبلني بكل مودة. وقد حدث لي ذات مساء، إذ كنت أتمشى فوق سطح المدرسة، وهو يطلّ على آفاق بيروت كلّها تقريباً، أن رأيت الأب انطون شكري يتقدّم مني، ويستأذنني في التحدّث إليّ... فوجئت بخطوته، وقد كان طوال ثلاث سنوات، قضيتها في المدرسة في بيروت، يتجاهلني كلّياً. رحّبت به، فأخذ يصارحني بأسفه لتجاهلي السابق. وقد أقرّ لي ليلتها بأنه كان قد تأثّر بحكم قاسٍ، أصدره بحقي، أسقف كان هو قد استشاره بشأني. كما أنه صارحني بدهشته بي، وهو يراني مستمرّاً في كهنوتي، ملتزماً به كل الالتزام، على الرغم ممّا صادفني ويصادفني من مصاعب... وفي ذلك الحديث الصادق، تكشّفت لي ملامح من شخصية الأب انطون شكري، تستحقّ الكثير من الاحترام والمودّة، وأخشى ألا يكون الكثيرون عرفوها، بسبب ما كان يُحيط به نفسه، من انحجاب وحيطة.

وأخيراً، رأيت أن أفاتح البطريرك في وضعي الصحي كلّه، فسألني الالتحاق بأمانة سرّه، لا سيما وأنه لم يكن لديه، حتى ذلك الحين، أمين سر. وقد أكّد لي أنّ العمل لديه يقتضي الإجابة على الهاتف، وطباعة الرسائل والتقارير، التي تصدر عن ديوانه، وأرشفة الوثائق التي تصله، ومرافقته في بعض الزيارات، الرسمية وغير الرسمية.

وترك لي القرار. وكنت في ذلك الوقت قد بدأت أتعلم الضرب على الآلة الكاتبة، في اللغتين، العربية والفرنسية. فرأيت أن الفرصة قد تساعدني على ترميم حنجرتي، في الوقت الذي ستتيح لي فيه أن أبتعد عن دمشق. وأخبرت الأب صالح نعمة، كي يتّخذ تدابيره في أمور الرعية الجامعية. وشيئاً فشيئاً، أخذ الخبر ينتشر بالتحاقي بأمانة سرّ البطريرك. وعندها سمعت من الأساقفة من يقول لي: "أبونا الياس، واحدة من اثنتين: إما أن تتغيّر، وإما أن يتغيّر البطريرك!" وبالطبع، وُجِد أيضاً من يقول لي: "دبّر حالك. دارِه، حتى تضمن مستقبلك!".

في هذه الأثناء، طُلِب إليّ أن ألقي مواعظ رياضة روحية لراهبات في لبنان. وكانت رئيستهنّ العامة تُصرّ عليّ، كي أوافق على إحياء هذه الرياضة. وكانت في ما يقارب الثمانين من العمر، وقد ذكّرتني شخصيّتها وروحانيتها بشخصيّة وروحانية البطريرك المرحوم مكسيموس الصايغ. فوافقت. وكنت كل يوم ألقي لهنّ ثلاث مواعظ، فضلاً عن التأمل الصباحي قبل القدّاس. وكانت معظم الراهبات يراجعنَني في ما تبقّى من ساعات النهار، في أمور حياتهنّ الروحية. وبلغ بهنّ وبرئيستهنّ الحماس، أن أضفن إلى الأيام الثمانية، التي تستغرقها الرياضة النظامية، يوماً تاسعاً... غير أني كنت قد بلغت عتبة من الإعياء، شديدة، لم تخفَ على الأب صارجي، عندما أتى في اليوم التالي، ليصطحبني معه إلى منزل أخته السيّدة نور، في برمّانا. إلا أنه قبل ذلك، اصطحبني معه عند طبيب من أصدقائه، أجرى له فحص قلب، ثم طلب منه أن "يفحص قلب هالخوري الشاب". فقام الطبيب، فخطّط القلب، ثم أجرى الفحص السريري، وأبدى قلقاً صريحاً، وأصرّ عليّ لمراجعته بعد حين. إلا أني كنت في حقيقة الأمر، أعاني من حزن هائل على ما آلت إليه الأوضاع في هذا الدير، من تدهور وتمزّق وفراغ روحي، نتيجة ما بدا لي بكل وضوح، غياب الرب. فأمضيت في بيت أخت الأب الياس صارجي، في برمّانا، بضعة أيام من الهدوء والراحة والصلاة برفقة الأب الياس، وسط محبّة رائعة تعيشها عائلات بنات أخت الأب الياس. ثم عدت معه إلى دمشق، حيث راجعت طبيبي الدكتور إيلي طويل، وهو صديق من أيام الدراسة في المدرسة البطريركية، فأكّد لي سلامة وضع القلب.

وهنا، لا بدّ لي من الاعتراف الصريح بأني، في ختام هذه الرياضة الروحية، التي أقمتها للراهبات في لبنان، عاهدت نفسي، بسبب ما انتابني من حزن آنذاك وإحباط، على رفض أي طلب لاحق، من أجل إحياء أية رياضة روحية، سواء كانت لراهبات أو

لكهنة، قد تُطلب مني في المستقبل. والتزمت بهذا التعهد حتى صيف عام 1992. حيث اضطررت لخرقه مرة أولى، ثم صيف عام 1999، حيث اضطررت لخرقه مرة ثانية. وإنه ليطيب لي أن أروي بعض تفاصيل هذين الخرقين.

ففي عام 1992، جاءني كاهن أرمني، هو الأب جورج اغيايان، وكان غالياً جداً عليّ، بسبب ما يحمل في أعماقه من صدق وجرأة، ودأب على العمل، وترفّع عن المادة، جاءني يطلب مني إحياء رياضة روحية للأساقفة الأرمن الكاثوليك وكهنتهم. والجدير بالذكر أن الأب جورج كان آنذاك أمين سر البطريرك، بطرس كسباريان. وعبثاً حاولت الاعتذار. وأخيراً انصعت لرغبة صديقي الأب جورج. وأقيمت الرياضة طوال أربعة أيام، في المركز البطريركي في بزمّار. فكنت ألقي خلالها، كل يوم، ثلاثة أحاديث روحية، حول موضوع عام هو "الكهنوت اليوم"، وقد طلب إليّ أن أتكلم باللغة الفرنسية. إلا أني اتخذت من هذا الموضوع الخطير منطلقاً، قديماً... جديداً، فطرحت فيه، في حرية تامّة، وصراحة لا تخلو من فجاجة أحياناً، ما أراه اليوم مطلوباً من الكاهن، أكثر من أي وقت مضى: المعرفة المتجدّدة أبداً، والصدق، والمحبة الشاملة، والحرية، والترفّع عن جميع عبوديّات هذه الأرض، ولا سيما العبودية للمال! وكنت أحياناً أشعرني قد تجاوزت خطوطاً حمراء، قد لا يجوز لي، أنا الغريب عن كنيستهم، أن أتجاوزها. إلا أني كنت مدفوعاً كما بقوة داخلية، فأتابع ما كنت أريد أن أقوله في شيء من التحدّي. وقد استبدّ بي هذا الشعور ثلاث مرات، كما أذكر، والغريب في الأمر أنّ البطريرك نفسه كان في ختام هذه الأحاديث الثلاثة، يتقدّم مني مبتسماً، بقامته المديدة، ويمسك بيدي، ويقتادني خارج الكنيسة، ثم كان ينتحي بي جانباً، ليقول لي: "أبونا الياس، شكراً لك لأنك تحدّثنا على هذا النحو. نحن حقّاً بحاجة إلى سماع مثل هذا الصوت! تابع، ولا تتوقّف". وكنت أصارحه بما كان يستبدّ بي أحياناً من شعور بالتمادي على الحضور، فكان يرطّب خاطري على نحو انتزع إعجابي وثقتي.

وكان أني شعرتني في أيام قليلة أظفر بأب روحي جديد، يتقن التوفيق بصورة طبيعية بين التواضع والمحبة الصادقة وبُعد النظر. وكان من دواعي فرحي، فيما بعد، كلما أتيح لي أن أذهب إلى لبنان، أن أحاول زيارة البطريرك كسباريان، ولو لفترة وجيزة، واللقاء بأخي الأب جورج.

وأجدني الآن أتذكّر لقائي الأخير بهذا البطريرك الفذّ، قبيل وفاته. كان ذلك في شهر تموز من عام 2003، إبان مؤتمر كنسي عُقد في دير مار توما بصيدنايا، بالقرب من دمشق، بتدبير من أمانة سر العلاقات المسكونية، في الڤاتيكان. كان يرئس هذا

المؤتمر المطران فيتزغيرارلد، أمين سرّ هذه الهيئة العليا، ويشارك فيه مع السفير البابوي بدمشق، المطران دييغو كاوزيرو، عدد من المسؤولين في الفاتيكان وبطاركة وأساقفة الشرق الكاثوليك. وقد افتتح بكلمات لكل من البطاركة الحاضرين، وكان البطريرك كسباريان بينهم. ويومها، كان عليّ أن ألقي كلمة، بعد الاستراحة الوجيزة التي أعقبت كلمات البطاركة. فانتهزتها فرصة لأقول لممثّلي الفاتيكان، بحضور البطاركة، أنّ الخدمة المثلى التي يستطيعون أن يقدّموها لهذه الكنائس كلّها، تتّخذ، في نظري، وجهين رئيسيّين. الأول هو ضرورة رفع الصوت عالياً في وجه جميع الدول الغربية، التي تهدّد بسياساتها المدمّرة، لا الكنائس الشرقية وحسب، بل جميع مكونات المجتمعات العربية والإسلامية. والثاني هو الامتناع الكلّي والفوري، عن تغطية تقصيرهم على هذا الصعيد، بتقديم بعض المساعدات المالية، التي تحول، في نهاية المطاف، دون أن يحتجّ مسؤولو هذه الكنائس، على صمت الكنيسة الغربية المريب! ويومها التقيت بفرح كبير البطريرك كسباريان، في حين أنّ بطريركي كان قد انسحب خلال الاستراحة التي سبقت كلمتي!...

أما الخرق الثاني، فقد حدث يوم سألتني راهبات يسوع الصغيرات أن أحيي لهنّ رياضة روحيّة عامّة، في بلدة "بعتوتة" بلبنان، في صيف عام (1999). ويومها لم أجد بدّاً من الاستجابة بفرح لهنّ، لسبب بسيط ورائع في آن، وهو أني كنت - وما زلت! - أجد لديهنّ دائماً، منذ عشرات السنين، الصيغة الرهبانية المثلى، في الصدق والتجرّد والانفتاح الإنساني والحضور الباسم والفعال... في اتّضاع وفرح لا حدود لهما... فكيف كان لي أن أرفض، وأنا على يقين من أني سأكون أوّل مستفيد من مثل هذه الخلوة الروحية، التي تواصلت في الواقع ثمانية أيام، عدت بعدها مشحوناً حقّاً بفرح لا يوصف، ورجاء ثابت كالجبال!

وأعود الآن إلى عملي الجديد في الدائرة البطريركية، في صيف عام 1969، في عين تراز. وهنا انفتحت أمامي آفاق جديدة كلّ الجدّة، داخل لبنان وخارجه. وكان ذلك قبل ظهر الأوّل من تموز 1969.

فور وصولي، حيّيت البطريرك والمطران مدوّر في مكتبهما، والمطران نقولاوس الحاج، وهو الوكيل البطريركي العام، وقد قادني إلى مكتبي. وبعد قليل، استدعاني البطريرك، فوجدته واقفاً في الصالون المجاور لمكتبه، مع رجل عرّفني باسمه، وكان مهندساً من آل الزنانيري، وأمامهما مجسّم كبير (ماكيت)، لتلّة تعلوها كتلة من البناء الضخم. وعرفت أنها تصميم البطريركية الجديدة، التي كان البطريرك ينوي

بناءها بالقرب من أنطلياس. وكنت أصغي إلى الحوار بينهما. ثم كان أن دخل البطريرك للحظات إلى مكتبه، فسألت المهندس: "ما قيمة نفقات البناء"؟ فقال: "مليونين!" فقلت: "لبناني؟" فقال: "شو لبناني؟ دولار! دولار!" ثم عاد البطريرك، وتواصل الحوار بينهما فترة طويلة، ثم غادر المهندس. فأعطاني البطريرك ملفّاً كبيراً، وقال لي: "هذا ملف البطريركية الجديدة. ادرسه وأعطني رأيك فيه هذا المساء". فحملته معي إلى مكتبي، وأخذت أتصفّحه، متوقّفاً طويلاً عند أرقام التكلفة. إلا أن الرقم الذي قاله لي المهندس، كان عالقاً في ذهني. ولم أرتح بالمرة لهذا المشروع، لأسباب كثيرة، أولها مجرد بناء مركز بطريركي في لبنان، وكأني بالبطريرك يرمي إلى نقل الكرسي البطريركي إلى لبنان. فهل ثمّة "مشروع ما"... يختبئ وراء هذه المبادرة؟ ثانيها، وجود مركز بطريركي جميل وواسع في عين تراز، فما حاجة الكنيسة لمثل هذا الهدر من الأموال؟ ثالثها، التركيز الدائم على لبنان، مع الإهمال الكلي لسورية، وهي أرض الكنيسة الأم، دمشق وأنطاكية!... وفي المساء، سألني البطريرك رأيي في المشروع، فقلت له رأيي بصراحة كلية. فلم يعد منذ ذلك اليوم يحدّثني عنه.

وفي عين تراز، كان بعض أصدقائي من اللبنانيين القلائل، يزورونني. ويطيب لي أن أذكر منهم من "تَخَاوَيتُ" وإياه على قبر السيّد المسيح في القدس، إبان رحلة سابقة مع أربعين جامعياً من دمشق عام 1965. إنه منذر قزيلي، الذي كان آنذاك مدير مشفى الجامعة الأميركية في بيروت، والذي عرف كيف يستقبل ويرعى العديد من المرضى المدنفين في هذا المشفى العريق، في نبل واتضاع مثاليّين! وثمة صديق آخر، يدعى عدنان سليم الحلبي، وقد جاءني من أيام تواجدي في المدرسة البطريركية في بيروت، في محبّة وأمانة خارقتين. وكان له الفضل بتعريفي بنسيب له يُدعى وليد فطايري منذ أن كان طالباً يافعاً، وقد بات صديقاً غالياً، منذ ذلك الحين، حتى اللحظة، والذي كان لا يتورّع عن قطع خمسمائة كيلومتر، يوم كان يتخصّص في الطب في مدينة ليون بفرنسا، ليزورني لساعات قليلة كلّما كنت أقوم بزيارة عمل أو علاج إلى باريس! وهو هو الدكتور وليد، الذي أرجو، أن يغفر لي إن ذكرت ما كان بعض مَن كنت أرسلهم إليه من المرضى السوريين المعوزين، يوم كان في ليون، يقولون لي عنه، من شدة اهتمامه بهم: "هذا ليس طبيباً، إنه ملاك!"!

وفي عين تراز، كان حبل المراجعين، من رجال كنيسة وعلمانيين، لا ينقطع. وكان بعضهم، قبل مقابلة البطريرك، أو بعدها، يجلس في مكتبي قليلاً، يفرّج عن بعض همومه لي، لظنّه بتأثيري على البطريرك، بوصفي أمين سرّه. وكانت تتكشّف لي أمور

لم تكن تريحني، لا سيما في ما يتعلق بالأوضاع المادية. وكان منها ما يخصّ الإدارة البطريركية، ومنها ما يخصّ بعض الأسقفيّات في مختلف البلدان العربية. ولما حان وقت السينودس، أي اجتماع البطريرك مع جميع أساقفة كنيستنا في المشرق العربي وفي المغتربات، انكشفت أمامي أيضاً أمور أخرى، كان فيها للمال دور كبير. وكان موعد السينودس، كل سنة، في الأسبوع الذي يسبق عيد انتقال السيّدة العذراء، وهو يقع دائماً في 15 آب. وعلى الرغم من كل ذلك، كانت الحياة في عين تراز، حافلة بأوقات الصلاة، وبفسحة واسعة من الهدوء. وكان حسبي الجلوس على شرفة مكتبي، المطلة على وادي "عميّق"، لأغسل كل ما بي من هموم شخصية أو كنسية أو إدارية. أما المساء، فكثيراً ما كان النعاس يستولي باكراً عليّ، ويومها لم يكن في مكتبي، ولا في الدير، لا إذاعة ولا تلفزيون، فبتّ أنام باكراً، وكأني بذلك أستعيض عن الليالي الطويلة، التي كنت أمضيها في دمشق، في مطالعة أم في كتابة.

وكنت إلى ذلك أحاول متابعة الأحداث السياسية. وكنت أرتاح لمطالعة الصحف اللبنانية بهذا الشأن، لما كانت تتمتّع به من هامش حرية وجرأة في النقاش، كنّا نفتقر إليهما في الصحف السورية. وكان أن حاولت التعليق على هذا الحدث أو ذاك، مثل محاولة إحراق المسجد الأقصى. فكتبت مقالاً صغيراً بهذا الشأن، تحت عنوان "نار أم نور"، نشر في صحيفة "لسان الحال" بتاريخ 1969/8/24. كما أني نشرت في الجريدة إياها، بتاريخ 1969/9/7، تعليقاً على مقال للسيدة علياء الصلح، نشر في جريدة "النهار"، بتاريخ 1969/8/29، تحت عنوان "عرب الإسلام، لا عرب الاستسلام".

وكان البطريرك قد أعلن عن قيامه بجولة في القارة الأميركية، بدءاً من مطلع تشرين الثاني، من عام 1969، حتى أواخر شهر كانون الثاني من عام 1970. وكان من المعروف أنّ من سيرافقه، هو المطران بطرس راعي، الذي كان يشغل آنذاك مركز المستشار له. وسألني مرتين إن كنت أريد مرافقته، فأجبته بالإيجاب، إن كان يدفع لي بطاقة السفر، لأني لا أملك فلساً، وإلا فأنا باقٍ حيث أنا. أخيراً وافق. فصارحته بأني أريد محطة في باريس، في الذهاب والإياب، تكون مدّة كلّ منهما أسبوعاً كاملاً، كي يتاح لي الوقت الكافي، لتصحيح اللغة الفرنسية، في نص الأطروحة التي كان يُعِدّها جورج حورانيّة، للحصول على دكتوراه دولة في الاقتصاد. كما أني طلبت محطّة إضافية على جولتنا في الولايات المتحدة، كانت مدينة ديترويت، لأزور هناك الأهل والأصدقاء الكثيرين، وعلى رأسهم بشارة كويتر، شقيق المطران الياس كويتر، خال والدتي. ففوجئ البطريرك من مطالبي وإصراري. فقلت له إني أتوقّع لجورج مستقبلاً

باهراً في سورية، وهو بمثابة أخ وابن لي، وإني أعتبر ما سأقوم به من خدمة، هو في الحقيقة خدمة لبلدي سورية. وكان أن وافق البطريرك، وسافرنا معاً، وتوقّفت في باريس، أسبوعاً كاملاً في الذهاب، بينما كان هو في روما، وفي الإياب، وأنا مكبّ على أطروحة جورج، ولا فضل لي في ذلك البتة لا على جورج، ولا على وطني. وما فعلته كان محض خدمة لوطني سورية.

أما الرحلة إلى القارة الأميركية، فماذا عساني أقول فيها؟ كان عالم جديد ينفتح أمام عيني وعقلي وقلبي. وكنت قد تزوّدت في باريس، بكتابين يرويان تاريخ دول أميركا الجنوبية، بلداً بلداً. وكان برنامجنا يشمل الأرجنتين، والبرازيل وفنزويلا والمكسيك، ثم الولايات المتحدة الأميركية. ولقد أُتيح لي أن أكتب عن هذه الرحلة مقالين طويلين، نشر أولهما في مجلة "المسرة"، في عددها الصادر في شهر حزيران عام 1970، تحت عنوان: "مع مكسيموس الخامس في القارة الأميركية"، ونشر ثانيهما في صحيفة "البعث" الدمشقيّة، بتاريخ (1976/6/4)، تحت عنوان: "يارا تُوبينامبا: صرخة من قارة الثراء والجوع". ولا أرى حرجاً في ضم هذين المقالين إلى ملحق هذا الكتاب.

حسبي الآن أن أذكر باختصار كثيف، بعض الملامح، من مختلف محطات هذه الرحلة، التي استغرقت ثلاثة أشهر كاملة.

1- في الأرجنتين:

1) في مطار بوينس آيريس... جمهور عربي يستقبل البطريرك، جمهور أشبه بقطيع، ليس له من هَمّ سوى الالتفاف حول "الزعيم"، لا فرق أكان زعيماً دينياً أم دنيوياً. وقد أمضوا في إحدى القاعات، ساعة من الزمن يكيلون له فيها المدائح... وعندما هَمّ بالخروج، تبعوه كالقطيع أيضاً، دون أن يلتفتوا حتى إلى مَن كان يحمل "تاجه"، فأسندت ظهري إلى الحائط، وأنا أراقب بألم هذا القطيع... وخرجوا جميعاً من القاعة الفسيحة، وأنا واقف مسنداً ظهري إلى الحائط... حتى بقي إنسان واحد، أجل واحد، وكان كاهناً عرفته في يبرود، يوم كنت أمضي فيها أسابيع من عطلة الصيف مع أطفال فقراء... إنه الأب نقولا دهبر... وفجأة أبصرني، فتقدّم مني وعانقني بحرارة، وهو يقول لي، عبارة مسّت شغاف قلبي الكهنوتي: "شكراً لك يا أبونا، لأنك حكيت قصتي في مقالك "أجمود أم تجميد؟". ثم سألني بدهشة: "شو نسيوك؟" قلت له: "مثل ما شفت!"... وخرجنا معاً...

2) تكرر هذا النسيان عينه، بعد القدّاس الاحتفالي، الذي أقيم بعد أيام قليلة، في

الكاتدرائية الكبرى في "بوينس آيريس"، يوم الأحد، بحضور كبار المسؤولين في الدولة والكنيسة. وخرج الجميع خلف "الزعيم"، كما يخرج القطيع، وأنا أحدّق في الناس وأتساءل: أتراني في الأرجنتين أم في الشرق العربي؟ وخرجت خلف الجميع، دون أن يخطر ببالي كيف سأتدبّر أمر عودتي إلى الفندق... وما إن وصلت إلى الباب الخارجي، حتى شعرت بيد تربت برفق على كتفي، فالتفتّ، وإذا بي أمام صديق قديم من صيدنايا، يدعى "جورج سرحان"، وكان قد غادر سورية منذ سنوات! تعانقنا، وقال "شو نسيوك؟". فقلت له: "مثل ما نسيوني بالمطار"... وعدنا سيراً على الأقدام إلى الفندق، حيث كان الجميع على مائدة الطعام!...

3) تنقلاتنا في قلب العاصمة كانت مسبوقة دائماً، بدراجتين يقودهما شرطيان بلباسهما الرسمي.

4) إقامتنا كانت في فندق فخم... إلا أنّ ما أُتيح لنا أن نرى ونسمع، كان يشعرني بالخجل من تواجدنا في مثل هذا الفندق...

5) روى لنا بعض التجار العرب، أنهم اضطروا لدفع دعم مضاعف لإسرائيل، إبان حرب 1967، لأنهم رفضوا بادئ الأمر، أن يدفعوا ما طُلب منهم، فقاطعتهم الأسواق التجارية كلّها!...

6) سمعت بفرح عظيم ما يُحكى عن "أبي الفقراء" في مدينة "بوينس آيريس"، وهو كاهن، فسألت الرب في قلبي أن يمنّ عليّ ببعض ما منّ به عليه...

7) ذات يوم التقيت صديقي، الكاهن الإيرلندي، "دنيز فيتزباتريك"، الذي دَرَس اللاهوت معنا في القدس، وقد استقرّ في الأرجنتين، في بقعة فقيرة جداً، تدعى "غوجا"... وهو، كما عرفناه في القدس، باسم ومتفائل دائماً... وقد اختار صف الفقراء والمحرومين، مما عرّضه ذات يوم لمواجهة بينه وبين بعض كبار المزارعين، وقد رواها لي، فقرّرت على الفور أن أحوّلها ذات يوم إلى مسرحيّة، تحكي قصة الفقراء في مواجهة ظالميهم...

8) تبيّن لي أنّ نظرة الناس هنا، من عرب وأرجنتينيين، إلى رجال الدين، ولا سيما رجال الدين القادمين من المشرق، اعتادت من زمان أن تكون نظرة مادية... فقرّرت أن أرفض أيّ تبرع يُقدّم لي، تحت أي مسمّى! وقد تبيّن لي أنّ رفضي لم يكن مستساغاً. وكان أكثر المندهشين به، مَن كان ذات يوم رئيساً في المدرسة البطريركية بدمشق، يوم كنت طالباً طفلاً فيها، الأب أثناسيوس فرح، صاحب الصوت الملائكي، وكان يومها كاهن كنيستنا في مدينة "روزاريو"! إلا أني تمسكت بقراري!

9) راجعت طبيباً مختصّاً بالحنجرة في بوينس آيريس...

2- في البرازيل

1) ما يشاهد من غنى وفقر في البرازيل، يفوق بما لا يقاس، ما شاهدناه في الأرجنتين... علماً بأنه لم يُتَح لنا زيارة الأحياء الفقيرة في ضواحي المدن الكبرى، المسمّاة "فافيلات".

2) منذ اليوم الثاني لوصولنا، علمت من السفير البرازيلي لدى الفاتيكان، أثناء الغداء في السفارة البابوية، أنّ اليهود يهيمنون على كل شيء، علماً بأنهم قَدِموا، كما قال، عام 1945، في "ثياب رثة"!

3) العرب أبداً منقسمون، حتى إنّ بعضهم يعود في تعصّبه، إلى حدود البلدة الصغيرة التي كان ينتمي إليها، قبل اغترابه.

4) سرّني جداً واقع المحبّة والاحترام، الذي لمسته بعمق في العلاقة بين المطران الياس كويتر، مطران الروم الكاثوليك، ومطران الروم الأرثوذكس، اغناطيوس فرزلي... وقد روى لي المطران كويتر، وهو خال أمي، أنّ المطران فرزلي قدّم له، إبان سيامته الأسقفية، الأيقونة التي كان يحملها على صدره!

5) لاحظ المطران كويتر إعراضي الدائم عن كل الزيارات الترفيهية و"البَرْوَزات"، كي يتاح لي الوقت الكافي، لأكتب الرسائل والتقارير التي كان البطريرك يطلبها مني، إذ كان في أغلب الأوقات، يكتفي بالتوقيع عليها، بعد قراءتها... فشجّعني المطران على متابعة هذا النهج، دون الانبهار بالمظاهر!

6) أفرحني ما كنت أسمع من الناس عن المطران كويتر، حول ترفّعه عن المادة واستقامته ونظافته. وما كانوا يعرفون أنه خال أمي.

7) أذهلني المطران كويتر يوم روى لي على حدة، ما تعرّض له من مصاعب في دمشق، وهنا في البرازيل... وما كابد من شوق لأهله، وخصوصاً لأخته جميلة وهي جدّتي لأمي، التي ظلّت تحتضر أياماً متواصلة، كما كانت أمّي قد روت لي، حتى حمل لها أحدهم صورة أخيها الأب الياس، فتنشّقت الصورة وأسلمت الروح... ثم ما تحمّل من مضائق مادية وسواها، كي يبقى مستقيماً، نظيف القلب والكف... وكنت أستشعر في كلامه توجيهاً لي...

8) لكم سألني عن أهلي، وخصوصاً عن أمي التي كان يحبّها كثيراً... وقد أصرّ أن يقدّم لي مبلغ (2000) دولار أميركي، مساهمة منه في ما قد يمكّن أهلي من شراء بيت، ينقلهم من القبو الذي كانوا يسكنونه آنذاك، وكان المبلغ الوحيد الذي قبلته على مضض، خلال رحلتي كلّها... إلا أنه لم يستطع بالطبع إخراج أهلي من قبوهم!

9) أسعدني أن أتعرف بين كهنتنا، كاهناً ولد في سان باولو، وهو في الأصل، من صيدنايا، يدعى موريس خوري، وكان فتيّاً، تقيّاً، مثقّفاً، ودوداً، يحكي العربية بلكنة محبّبة، وكان يحظى بثقة المطران ومحبة الناس. وإلى ذلك، كانت أخته قد ماتت شهيدة الطهارة، إذ ألقت بنفسها من شرفة بيت أهلها إلى الشارع، هرباً من شاب أراد الاعتداء عليها!

10) في البرازيل، عرّفني أصدقاء لبنانيون من آل المعكرون، بالفنانة التشكيلية البرازيلية يارا توبينامبا (Yara Tupinamba)... التي رأيت في فنّها توهّجاً بركانيّاً، يجسّد ثورة الشعوب المقهورة جميعاً!

11) في الوقت الذي كان البطريرك يضع حجر الأساس، لكنيسة جديدة في مدينة "بللو أوريزونتيه"، (الأفق الجميل)، كنت أحضر مباراة لكرة القدم، في ملعبها البلدي الكبير، وكانت المباراة كلّها، أشبه بحفلة باليه خيالية، شارك فيها مع اللاعبين، أكثر من (25000) عازف وراقص، هم الجمهور!

3- في فنزويلا:

1) كنا ضيوفاً عند شقيق المطران بطرس راعي، وهو أحد زعماء الجالية العربية هناك.

2) أمضيت أسبوعين هنا، لأنه لم يسمح لي بالسفر مع البطريرك إلى المكسيك، لأسباب أجهلها...

3) الجالية العربية هنا، في غالبيتها الساحقة، حلبيّة. إلا أنها منقسمة أيضاً على ذاتها!

4- في الولايات المتحدة:

1) الشعب الأميركي ساذج، ودود، لا يرى أبعد من حدوده...

2) اعترف نيكسون في خطاب له آنذاك، في الكونغرس، أنّ المشكلة الأولى في الولايات المتحدة، هي غياب الأمان...

3) رائحة الدولار في كل مكان...

4) كتب أحد القساوسة الأميركيين، مقالاً في إحدى الصحف الأميركية، عن جولة بطريركنا، أكّد فيه أنّ رصيده في المصارف الأميركية، يبلغ خمسين مليون دولار. وقد علمت من البطريرك أنه سأل صديقه المحامي بل (وليم) بارودي، أن يرفع دعوى ضد هذا القسيس. وقد وُضع المقال تحت عيني. إلا أني بسبب جهلي للغة الانكليزية، لم أحتفظ به في أرشيفي الخاص. وعرفت بعد ذلك أنّ البطريرك قرّر التخلي عن ملاحقة القسّيس.

5) ﴿ نيويورك عدت فالتقيت صديقي الأميركي "هارولد روسيني"، وقد زرته ﴿ بيته، ﴿ حي "برونكس" الشهير، حيث كان والده ﴿ الفراش، والبيت عبارة عن غرفة واحدة، واسعة، أتقن تقسيمها، ومتواضعة الأثاث. وكان "هارولد"، وهو يتجوّل بي ﴿ بعض شوارع نيويورك، يأبى إلا أن يمسك بيدي، خوفاً عليّ. وقد نجح ﴿ إقناع كاهن رعيّته، باستقبالي لليلتين ﴿ داره. وكان الكاهن، ككل الأميركيين، ودوداً، ساذجاً، ولكنه كان يجهل كل ما ومَن هو خارج أميركا!

6) ﴿ ديترويت، أمضيت بضعة أيام، أنستني "الغربة" التي كنت فيها طوال هذه الرحلة. واستعدت دفء العائلة، كما أعرفها ﴿ دمشق، ولكن هنا ﴿ بيت خالي بشارة، وهو شقيق المطران الياس كويتر. وكان حقّاً إنساناً فريداً ومتميّزاً، بلهجته العربية الشامية، وبدفء استقباله، وبحديثه الطلي والشيّق، وبعلاقاته الودودة جداً مع الأهل والأصدقاء الكثيرين هناك. وقد فاجأني إذ حدّثني عن اضطراره لأسباب صحية، لتغيير عمله كمعلِّم عمار، إلى اختراع الحلوى الشامية، والتي انتشرت فيما بعد من ديترويت إلى بقاع أميركا كلّها... وقد تذوّقت بعضها وهي من صنعه، فوجدتها طيبة للغاية. وكان أطيب ما قدّم لي هو خدمته القدّاس لي، ﴿ بيته، بصوته الشجي!

7) ﴿ ديترويت أيضاً راجعت طبيباً مختصّاً ﴿ الحنجرة...

ثم كانت العودة إلى دمشق. أخيراً! و﴿ المطار كانت أمي، وقد بدت لي وكأنها كبرت عشر سنوات!

و﴿ دمشق، التزمت عملي ﴿ البطريركية، بحزم ودقة. إلا أني ما انقطعت كلياً عن الشبيبة، وقد باتت خدمتها جزءاً أساسياً من حياتي، كما أني أحياناً، كنت أتحيّن لقاءات أسرة الرعيّة، لأشارك فيها، ﴿ صلاة، ﴿ حوار، أو ﴿ تأمل إنجيلي.

ونُصِحت بمراجعة طبيب ﴿ حلب، مختصّ بالحنجرة، وكان عائداً من فرنسا حديثاً، وهو من عائلة بُراق، فلم أتردّد. و﴿ حلب، اصطحبت معي كاهناً شاباً، هو اليوم مطران حلب للروم الكاثوليك، يوحنا جانبرت. أذكر تماماً أنّ الطبيب، بعد أن اطّلع على ملفّي الطبّي، وفحصني فحصاً دقيقاً، قال لي بصريح العبارة: "أبونا، أنت بعدك شاب. ولكن حبالك الصوتية مهترئة. وأنا مضطر حذّرك، بعد خمس سنين، لن تستطيع أن تتلفّظ بكلمة واحدة... على كل حال، جرّب هالدوا..." وهكذا انتهت المراجعة الطبية... بعد خمس سنين فقط! وطلبت من الأب جانبرت ألا يُخبِر أحداً بما قال الطبيب. ولكنّي ﴿ دمشق، كتمت الأمر عن الجميع، إلا عن البطريرك... وروجيه! إلا أن وطأتها كانت هائلة.

وقَرُب أسبوع الآلام وعيد الفصح، فسافرت مع البطريرك إلى مصر. وكانت تلك المرة الأولى التي أسافر فيها إلى مصر. عبد الناصر! الأهرام! النيل!... وكانت البطريركية تقع لحسن الحظ في حي شعبي، يدعى الفجّالة. أدهشني وآلمني الوصول إلى البطريركية، لشدة ازدحام الناس في فوضى عارمة في الشوارع. وما كنت ألحظه وأسمعه ممّن حولي من كلمات، أقلّ ما فيها يأس مطلق من قدرة هذا الشعب على النهوض، كان يؤلمني إلى عمق ذاتي! وفي رفضي لهذا المنطق، كنت أقول لنفسي، هوذا عبد الناصر قد نبع من قلب هذا الشعب! ودرجت كل يوم على إنهاء عملي على أكمل وجه، ثم أهبط السلم وأخبر البوّاب، أني ماضٍ في نزهة... وكنت أسير الهوينا بمفردي، عبر الشوارع المزدحمة حتى النيل، وأقف أتأمل هذا الذي يسميه الشعب هنا، "بحر النيل"... في طريقي إليه كنت أرى فقراً لم تقع عيني يوماً على ما يشبهه، إلا أني كنت ألمس مودة ولطفاً قلّما يصادف الإنسان ما يشبههما، وأنا قادم من قارة شاسعة، يتجاور فيها الغنى والفقر في تحدٍّ مرعب! وكان أحياناً يصحبني من كان يوماً مدير نظام في المدرسة البطريركية بدمشق، عندما كنت طفلاً، وقد طردته إسرائيل، بعد احتلالها القدس، لأنه كان يهاجمها في عظاته في كنيسة البطريركية في القدس. إنه الأب نقولاوس نصرالله، وكان يرتدي لباساً مدنياً بإذن من البطريرك. وكنت أحب سماع حديثه، لأن نبرته تعيد إليّ أيام الطفولة في المدرسة. وأما كلامه عن الاحتلال، فكان يصبّ في غضبي الدائم على إسرائيل، وعلى الغرب الذي أنشأها ودعمها، وما يزال يدعمها بجميع الطرق... وكان في البطريركية عدد من الخدم الرجال، وكان ما يتحلّون به كلهم من لطف واتضاع، في النظرة والكلمة والحركة باليد والجذع، يذكّرني بكل ما عانى هذا الشعب عبر تاريخه الطويل، منذ آلاف السنين، من ظلم وذل وخنوع، فأجدني أزداد حبّاً له، وأملاً بنهوضه أخيراً... وما كنت لأنسى ما ترك الحكم المصري لسورية، من آثار وذكريات سلبية، أنست معظم الناس أملهم المشروع، بالنهوض أخيراً في وجه مَن لا يريد لهم سوى الإذلال والقهر والموت. من هؤلاء الخدم، كان واحد، قصير القامة، ودود إلى أبعد حدود المودّة، والكلمة الطيبة أبداً في عينيه قبل شفتيه، وكان اسمه سيّد. فأحببت ذات يوم أن أسأله على حدة، رأيه في عبد الناصر... فشعّت عيناه السوداوان، وقال على الفور، في اندفاعة بدت لي مكبوتة من زمان سحيق... "عبد الناصر، يا أبونا، هو كل شيء بالنسبة إليّ، بعد الله طبعاً... بص يا أبونا... أنا من النوبة... قبل عبد الناصر، كنا في كل النوبة، لا نعرف الكهرباء، ولا الماء في البيوت، ولا الطرقات، وما كانش عندنا مدارس ولا مستشفيات... وكنا بحاجة

لأيـام طويلـة ومتعبـة مـن السـفر، حتـى نصـل إلى دسـاكرنا... أمـا اليـوم، فالطرقـات والقطارات سهّلت كل شيء... وصار عنا كل شيء!"... فقلت لـه: "كلامـك طيّـب، يـا سـيد. بس إذا بتقول الله ثم عبد الناصر، أين محل النبي محمد؟" فقال مبتسماً: "صح. بص يا أبونا، محمد على راسي، بس أنا ما شفت محمد. أما عبد الناصر، فأنا بصّو وين ما كان! أُمّال!" ذلك كان جواب هذا المصري الطيب، سيّد!...

أما تُراك، يا سيّد حتى اليوم، في البطريركية بالقاهرة؟...

وفي تلك الفترة كلّها، كان البطريرك يُدعى لزيارات كثيرة، لا تنتهي، وكان معظمها في بيوت الأغوات، حيث أفاجأ ببذخ قلّ أن رأيت مثيلاً لـه، حتى في أميركا الجنوبية، فبتّ أحاول تجنّب مصاحبة البطريرك، تاركاً لغيري من الكهنة المصريين، أن ينعم بمثل هذه "الفرصة". غير أني رافقته ذات يوم، في زيارة كان فيها عدد من المثقّفين، بينهم شاعر مصري معروف، يدعى "عادل غضبان"، كنّا نقرأ لـه بعض القصائد، في مجلة كانت تصلنا إلى الدير في القدس... وسنحت لي فرصة انفردت فيها معه، فسألته، خلال حوار اتسم بمنتهى الصراحة: "ما رأيك بعبد الناصر؟" فجاءني جواب صاعق: "عبد الناصر علّمنا الكذب!"...

وهنا يحضرني أيضاً لقاء هام، جرى لي مع أحد المثّقفين، وهو مصري مسيحي، يدعى روجيه بحري، وكان قد انتهى من وضع كتاب بالفرنسية عن ابراهيم باشا. فسألته رأيه بعبد الناصر، فكان جوابه ذكيّاً جداً، إذ قال لي: "أبونا، رأيي في إنسان بحجم عبد الناصر، لا يقدّم ولا يؤخّر. وأنا أريد أن أنقل لك رأي الشعب المصري، العفوي والكلي، وقد أعرب عنه لحظة كان عبد الناصر يقدّم استقالته أمام مجلس الشعب المصري، من شاشة التلفزيون، وهو يعلن عن تحمّله مسؤولية كل ما حدث في حرب 1967. لحظتها، وكنت في البيت مع زوجتي، أستمع لهذا الخطاب. فجأة سمعنا ما يشبه الهدير، يعمّ كل الشوارع من حولنا. والذي حدث فعلاً، هو أنّ الشعب كلّه نزل إلى الشوارع في مصر كلّها، ليطالب ببقاء عبد الناصر. وهذا حدث تلقائياً وكان عاماً. أنا أشهد بذلك!..."

في هذه الأثناء، عُقد في لبنان (7–10 أيار 1970)، ما سُمّي "الندوة العالمية للمسيحيّين من أجل فلسطين"، بمبادرة من مجلس كنائس الشرق الأوسط، الذي كان يديره السيّد كابي حبيب، والتابع لمجلس الكنائس العالمي. وكان البطريرك مكسيموس الخامس حكيم، مدعواً إليه مع سائر البطاركة الشرقيين. وقد كُلّف كتابة كلمة للمؤتمر. فكلّفني كتابتها، ووافق عليها بحرفيّتها، دون أن يُدخِل عليها أي تعديل أو إضافة. وإني لأذكر جيداً، أنه، إذ قرأها بتمعّن، على عادته، التفت إليّ وقال، وهو يربّت

على رأسه بأصابعه: "لكأنك داخل رأسي!". وكانت تلك هي المرة الثانية، التي كان يقول لي فيها هذه العبارة بالذات.

كنت أرقب هذا المؤتمر بفارغ الصبر، بل كنت أستعجله في فكري منذ سنوات، وأنا آخذ على الكنيسة عامة، والكنيسة الغربية خاصة، تأخّرها في التصدّي الحازم والصادق، لما كنت، وما زلت أرى فيه الخطر الأكبر على الوجود، لا المسيحي وحسب، بل الوجود العربي كلّه، وأعني به الصهيونية وما جرّت إليه كلّ الغرب معها. ولكن، لم يُكتَب لي حضور هذا المؤتمر، إذ كنّا يومها في القاهرة.

وذات يوم، قمت بزيارة لكاهن من كنيستنا، كان مسؤولاً عن رعية مصر الجديدة، واسمه الأب "غريغوار عجمي"... كان، على تقدّمه بالسن، نشطاً جداً، ويرعى نادياً للشبيبة، يشترك فيه المسيحيّون والمسلمون على السواء. وصدف، إذ كنت عنده، أن دخل شاب طويل القامة، وسيم، وحيّى الأب غريغوار بقبلة، ثم حدّثه قليلاً ومضى... وعندها قال لي الأب غريغوار: "أبونا، تعرف مين هالشب؟" قلت: "كيف لي أن أعرفه؟" فأجابني: "إنه ابن عبد الناصر، وهو من أعضاء نادينا، وهو شاب جَدَع!".

بالطبع، لم أكن أجهل ما يجري وما يقال. وكنت أحاول أن أكون منصفاً في أحكامي. إلا أنّ السؤال الكبير الذي كان يستبدّ بي، هو: لِمَ حاولت بريطانيا وفرنسا وإسرائيل، تدمير عبد الناصر، لو لم يكن كبيراً؟ كبيراً بما يحمله، وبما يعنيه بالنسبة إلى مصر أولاً، وبالنسبة إلى العرب ثانياً؟ وكنت أعرف تماماً أنّ ما من عربي كان يظلّ لامبالياً، إزاء أي خطاب كان يلقيه عبد الناصر، حتى لو تمادى خطابه ساعتين أو ثلاثاً.

وجاء يوم حُدِّد فيه للبطريرك موعد لزيارة عبد الناصر. كان ذلك في الثامن من شهر أيار، وكنت أرقب الموعد بفارغ الصبر. وجاءنا في اليوم السابع من شهر أيار، هاتف يرجو نقل الموعد إلى العاشر من الشهر نفسه، على أن يكون اللقاء في بيت عبد الناصر بالذات. وأردت أن أجتمع بالبطريرك قبل الموعد، للتباحث معه في ما عسانا نقوله، ونحن عائدان من جولة طويلة وحافلة في القارة الأميركية. ويؤسفني أن أقول إنه تبيّن لي أنّ البطريرك لم يكن قد أعدّ شيئاً لهذا اللقاء، ما لم يكن يريد إخفاءه عليّ... أقول ذلك بكل أسف وصدق. فعرضت عليه أن نثير أقلّه، موضوع السفراء المصريين، كي يُصار من قِبله إلى تعيين مسيحيّين بينهم، طالما أنّ المسيحيين يشكّلون غالبيّة المغتربين، في أميركا الجنوبية، من مصريّين وعرب... ورفض طرح المشكلة... ومضينا إلى بيت الرئيس عبد الناصر، في الموعد المحدّد. وكنّا البطريرك، والمطران سابا يواكيم، والأرشمندريت أغناطيوس رعد، وأنا. أُدخلنا إلى الصالون، حيث انتظرنا بضع

دقائق، وقد لاحظت أنّ أثاثه عادي. ودخل جمال عبد الناصر، بمفرده، وكان يرتدي قميصاً عادياً، قصير الكمين. كان يصافح كلاً منا بهدوء، وهو يحتفظ طويلاً باليد التي بيده، فيما هو يحدّق باسماً في الوجه، وهو يردّد الاسم بصوت هادئ، وهو يقول: أهلاً... أهلاً... في وجهه وداعة لم أتوقّعها. حول عينيه دائرتان سوداوان كثيفتان... أتراه الإرهاق أم هي طبيعته؟ بدأ بتبرير اعتذاره عن تأخير الموعد السابق، وإذ به يقول لنا إنه يطيل السهر كل يوم حتى الثانية أو الثالثة صباحاً، كي يُحاط علماً بجميع أسماء الشهداء والجرحى في حرب الاستنزاف، التي كانت تدور آنذاك مع إسرائيل، كي ينقل المقاتلين من إخوة الشهداء والجرحى، إلى مواقع آمنة... وحدّثه البطريرك عن جولتنا في أميركا، وذكر عموميات لا تبرّر في نظري، مثل هذه الزيارة، فرأيت أن أتدخّل، وسمحت لنفسي بأن أثير موضوع السفراء والمغتربين، الذي كان البطريرك قد شدّد على عدم إثارته. وإذ بعبد الناصر يُبدي اهتماماً كبيراً بالموضوع، ويضيف: "أشكرك، أب الياس، لأنك أثرت موضوعاً لم يحدّثني عنه أحد قبل الآن". ثم التفت إلى البطريرك، وسأله إن كان لديه رغبة، فالرئيس جاهز ليلبّيها له. ففوجئت بالبطريرك يتقدّم بطلب، ما كان من الممكن أن يخطر ببال أحد، وهو غير جدير حتى بالإشارة إليه... أأقولها؟ أجل سأقولها، وليصدّق من يصدّق... طلب البطريرك في زيارته الأولى... والأخيرة، من جمال عبد الناصر، أن يعفي رجال كنيسته من أجرة القطار بين القاهرة والإسكندرية... وكانت يومها جنيهين فقط!!! فابتسم عبد الناصر، وقال: "أرجو أن تطلب أمراً أهمّ من ذلك!"... ثم انتهت المقابلة بكلمات مجاملة ودعاء... ودخل المصوّر لالتقاط الصور التذكارية. فانتهزت فرصة تعيين المصور للبطريرك ومن معه أمكنتهم للتصوير، واقتربت من عبد الناصر، وقلت له: "سيدي الرئيس، هل تسمح لي بسؤال يودّ أن يطرحه عليك كل عربي؟". فقال مبتسماً: "تفضل، أب الياس". قلت: "من أين تستمدّ قوتك، وأنت تواجه الدنيا كلّها، واقفاً بقوة وإباء، ولم نسمع أنك ارتحت ولا يوماً واحداً؟". فابتسم، ودون أن ينبس بكلمة، رفع إصبعه إلى الأعلى!... والتقطت لنا بضع صور، ثم لم أتمالك نفسي، وهو يودّعنا، أن قلت له: "سيادة الرئيس، بتسمح لي بوّسك؟" فقال في ابتسامة: "طبعاً". وقبّلته وخرجنا... وبعد أيام قليلة، وصل لكل منّا، في مغلف خاص، يحمل خاتم القصر الجمهوري، مجموعة من الصور التذكارية!

وبعد أيام قليلة، غادرنا مصر إلى دمشق، وحملت معي أسطوانات أم كلثوم، لصديقي وابني جورج حورانية. وفي دمشق، كان كل من يسألني عمّا في مصر، أجيبه:

النيل، والأهرامات وعبد الناصر! وكان غيابه في 28 أيلول من ذاك العام، بالنسبة إليّ، سبب حزن عميق، بوصفي سورياً وعربياً.

عدت إلى دمشق مع البطريرك، فعاد الشباب بكثافة إليّ... حتى استدعاني البطريرك ذات يوم، وقال لي: "أنا قلق عليك... أنت لا تهتم بالمرة بصحتك، وأرى الشبيبة تستنزفك!" فقلت له: "كيف تقيّم عملي عندك؟" فقال: "ممتاز. ليس لي عليك أي مأخذ". فقلت له: "إذن، دعني في عملي مع الشبيبة، ولا تقلق عليّ..."

وفي دمشق، كانت بعض الأمور الكنسية تُطرح أحياناً على المائدة، فأضطر للتدخل، حتى لو كنت أعارض الجميع فيها. من هذه الأمور، ما كان يُراد له أن يُقرَّر في السينودس القادم بشأن إجبار كل أسقف على كتابة وصيته الأخيرة. وكان البطريرك والأساقفة الموجودون، يؤيّدون هذا المقترح. فقلت مقاطعاً: "أنا لن أثق بأية وصية، حتى لو كانت الوصية الأخيرة، لأنها لا تتّفق مع حياة الأساقفة العملية... وستكون وصية كاذبة". قلتها بحدّة وخرجت من المائدة، إزاء احتجاج الأساقفة الحاضرين. وصعدت مباشرة إلى مكتبي، وأنا أفكّر جدياً بكتابة استقالتي، لأني لم أعد أطيق هذه الازدواجية في الكلام والحياة. وإذ بالأسقفين، سابا يواكيم وبطرس راعي، يطرقان الباب ويدخلان، ثم يجلسان صامتين. فصبرت قليلاً، ثم قلت لهما: "خير؟". فقال المطران راعي: "جئنا نطلب منك ألا تستقيل، لأنا شعرنا بأنك لم تعد تطيق الصبر والصمت... فخشينا أن تستقيل!" فقلت لهما: "ولم تريدان لي ألا أستقيل؟". فقال المطران راعي: "لأنك وحدك تجرؤ على قول ما لا يقوله أحد". فحدّقت فيهما بغضب، وقلت لهما بالحرف الواحد: "ولك أنتو مطارنة، مو طراطير! وجايين تطلبو مني أنو ما استقيل؟ أنتو مطارنة!"...

إلى هذا الدرك وصلت الأمور... ومع ذلك صابرت نفسي... واستمرّيت في عملي في أمانة سر البطريرك، دون أن أغفل الشبيبة. وإلى ذلك، كان الهمّ الوطني والقومي أبداً يستبدّ بي. وأخذت أنشر في صحيفة "الثقافة الأسبوعية"، لصاحبها مدحت عكاش، مقالات صغيرة، بين حين وآخر، لا لشيء إلا لأرفع الصوت، فوق بعض ما كان يبدو لي لغطاً مستشرياً ونافلاً. فظهرت لي فيها، تباعاً، خمس مقالات، كانت كل منها صرخة تشير إلى نقطة وطنية حساسة. فكانت مقالة "أمام غاندي وهوشي منه"، بتاريخ 1970/7/11، وهي تدعو العرب إلى الإيمان. وكانت مقالة "امرأة من بلادي"، بتاريخ 1970/7/18، وهي تدعوهم إلى إعلاء شأن المرأة. وكانت مقالة "تهنئة على نبأ" بتاريخ 1970/8/18، وهي تنبّه إلى خطورة غياب الإعلام العربي. وكانت مقالة "في

ذكرى الوعد"، بتاريخ 1970/11/2، وهي تذكّر العرب بالقيامة المحتومة. وكانت أخيراً مقالة "تشويه"، بتاريخ 1970/11/21، وهي تحذّر العرب من التشويه، الذي أصاب فينا الفكر قبل الجسم.

وفي مطلع صيف عام 1970، غادرنا دمشق إلى مقر البطريرك الصيفي في عين تراز. وكانت الأيام فيها مليئة بمختلف المفاجآت، بحكم ما كان يأتيها من شخصيات لبنانية خصوصاً، وأناس عاديين، وكهنة وأساقفة... حتى باتت المفاجأة جزءاً من واقعي اليومي فيها. إلا أنّ هناك أمراً كان دائماً يثير تساؤلاتي واستهجاني، وهو هوس البطريرك بارتدائه ثوباً خمريّاً، طالبه بعض الأساقفة مازحين، بالتخلّي عنه، لأنه ليس من تقاليد الكنيسة الشرقية. فكان جوابه الضاحك دائماً: "عندما سيهترئ!"... وما كان لهذا الثوب أن يهترئ، بقدر ما كان يتجدّد دائماً!... أما أن ينتعل البطريرك حذاء خمريّاً، وذا نعل خمري، فذلك ما سبّب لي قمّة التقزّز، إذ كنت ذات يوم صاعداً الدرج، وهو يتقدّمني بدرجات! ولقد بلغت صدمتي من هذا المنظر، حدّاً لم أستطع معه إلا أن أذكره في مقال ناري، كتبته بعد أشهر من تخلّيَّ عن عملي في أمانة سر البطريرك، وكان بعنوان: "الإنسان الكاهن أم الإله المال؟". وقد تردّد صديقي الأب جورج فاخوري، بادئ الأمر، في نشره، خشية عليّ، ثم أمام إلحاحي، عاد فنشره في مجلة "المسرة"، في عدد تموز من عام 1971.

وقد حدث لي، قبل أن أغادر عملي هذا، بُعيد عيد السيّدة في منتصف شهر آب من عام 1970، أن حظيت، خلال أيام قليلة، بلقاءين متناقضين كل التناقض، إذ كان أولهما مشحوناً بقدر عظيم من الإيمان والصدق والأمل، فيما سبّب لي الثاني، خيبة أمل مريرة للغاية.

كان اللقاء الأول الزيارة التي قامت بها إلى عين تراز، آنذاك، سيدة مصرية، تدعى ماري كحيل، كثيراً ما حُكي عن إيمانها ووطنيتها وسخائها، أمامي، يوم كنت في القاهرة، ولكنه لم يتح لي الاجتماع بها. بدت لي تقارب السبعين، إلا أنها كانت منتصبة كالرمح، في وجه صبوح ومنفتح. وكانت تتكلم العربية والفرنسية بطلاقة. وقد سُئلت رأيها في عبد الناصر. وكان السائل أسقفاً، وتعمّد الإشارة إلى ما سمّاها المظالم الفادحة التي حلّت بها هي شخصيّاً، نتيجة الإجراءات المختلفة التي اتخذتها ثورته. فجاء جوابها قويّاً، وقمّة في الإيمان والواقعيّة، إذ أيّدت إجراءات الثورة المصرية، وبرّرتها بالتفاوت الهائل، الذي كان قائماً في مصر قبل الثورة، بين القلّة من الباشوات والأثرياء وهي منهم، والكثرة الساحقة من الشعب. وقد أقرّت دون أي تردّد، بما اتُّخذ

مـن إجـراءات، بحقّهـا وبحـقّ الكـثيرين. وأضـافت أنهـا تتوقّـع وتتمنّـى المزيـد مـن هـذه الإجراءات، كي يتحقق الحدّ الأدنى من المساواة بين الناس في مصر، كما يريد الله.

لم أكن لأصدّق ما كنت أسمع، من شدّة فرحي ورجائي... ولم يطل المقام بالسيّدة ماري كحيل في عين تراز، ولكأني بها قد أتت فقط لتُسمِع بعض الجالسين على الكراسي باسم يسوع، ما سمعوه!

أما اللقاء الثاني، فقد كان يتعلّق بالسينودس المسمى المقدس، الذي كان يُعقد كل عام في عين تراز، في الأسبوع الأول أو الثاني من شهر آب، وكان يضم، فضلاً عن البطريرك، جميع أساقفة كنيستنا في الوطن العربي والمغتربات، وجميع الرؤساء العامين الأربعة. وقد كنت في السينودس السابق، خبرت ما كان يملأ بعض الأساقفة من حماس واندفاع، قبل الجلسات، وما كانوا عليه من ركود وصمت، في نهاية الجلسات ذاتها، مع أنّ الموضوعات المطروحة كانت في غاية الأهمية، لا سيما تلك المتعلقة بشؤون المال، وسلامة العلاقة بين الأساقفة والكهنة... ولذلك كنت أرقب ما ستكون عليه الحال هذا العام، في السينودس الآتي. وكان أن شهدتُ ما كنت شاهدت من احتقانات إبان السينودس السابق. وبدا لي واضحاً، من خلال الحديث مع بعض الأساقفة، أنّ معظم الأساقفة يفتقرون إلى الشجاعة الضرورية، لمواجهة مثل هذه القضايا، وأنّ أكثرهم شجاعة، مثل المطران غريغوار حداد والمطران الياس زغبي، كان، إبّان المواجهات الحسّاسة داخل جلسات السينودس، لا يجد من يقف إلى جانبه، على ما لدى الكثيرين من قناعة بصحة موقفه... أهي النفسية الشرقية والعربية، إيّاها، التي لا تعرف أن تمضي بالقضايا، إلى نهاياتها؟... ترى، ألأن هذه النهايات قد تحمل في طيّاتها نهاية صاحبها؟

... وقبل أن أغادر عين تراز، دعاني البطريرك إلى مكتبه، وسدّد لي ما تبقّى لي من رواتب لديه... وكان قد مضى عليّ سبعة أشهر لم أطالب خلالها براتبي. فسألني وهو ينقدني مجموع رواتب الأشهر السبعة: "هل تعيش أنت بلا مال؟" فأجبته: "ها أنذا أمامك، وأنا حي، دون أن أتقاضى رواتب سبعة أشهر... نعم أستطيع أن أعيش بلا مال... على كل حال، هل المائة وخمسون ليرة لبنانية، التي تدفعها لي كلّ شهر، تشكّل راتباً حقيقياً؟". ويؤسفني أن أضيف أنه كان قد حجب عني رواتب الأشهر الثلاثة، التي أمضيتها معه في الرحلة إلى القارة الأميركية. إلا أنه قال لي كلمة، وهو يشكرني ويودعني، أرى من باب الأمانة له ولي، أن أوردها بحرفيّتها، بعيداً عن أي ادّعاء أو غرور... قال: "أنت، كنت تنجز في ساعة، ما كان غيرك يحتاج إلى أربع ساعات لإنجازه".

ولقـد ذكّـرتني هـذه الكلمـة، بالكلمـة الـتي كـان الأب انطـون المعلـم، قـد قالهـا لـي وهـو يشـكرني ويـودعني، لحظـة غـادرت المدرسـة البطـريركيـة: "أبونـا اليـاس، أنـا أشـهد بأنـك اشتغلت قد عشرة!".

وصـدف بعـد أيـام قليلـة، أن التقـاني أحـد الأسـاقفة في البطـريركيـة، فقـال لـي، في جملة ما قال: "لا أنت تغيّرت، ولا البطريرك تغيّر!".

الفصل العاشر

من جديد في قلب دمشق

كان رجوعي إلى دمشق حلواً، على ما تركت فترة التحاقي بالدائرة البطريركية، من خيبة أمل ومرارة. فكنت أشعر بالحرية، وقد غشيتني من جديد، بعيداً عن كل زيف، كنت ألمس آثاره في معظم مَن حولي، أو كان يُنسَب إليّ ظلماً... وعدت إلى شبيبة دمشق، وإلى ما يمسّ تساؤلاتها المصيرية وتطلّعاتها العنيدة، في وطن بات يضيّق على جميع أبنائه، ولا سيما الشبيبة، بطرق يغلب عليها التعسّف الأهوج. وعدت إلى المتابعة شبه اليوميّة، لوجوه الصراع العربي الإسرائيلي، ومفاجآته المفجعة... وعدت إلى استقبال مَن كان يقصدني من شبّان وشابّات، قلّما يجدون مَن يبوحون له بما يثقل قلوبهم وعقولهم... وعدت كذلك إلى مَن كنت أرتاح لهم ومعهم: أهلي، الأب الياس صارجي، روجيه كحيل، جورج حورانية، وقد عاد من فرنسا، وبيده دكتوراه دولة في الاقتصاد، انطون المقدسي، المفكر المتصوّف والملتزم، وأخيراً بيت أختي الصغرى رينيه، وقد بات لها طفلان رائعان، طوني وفادي، أحسّني أعيد خلق الدنيا، كلّما حدّقت في وجهيهما الجميلين.

وكان عليّ أن أسافر إلى باريس، لأراجع البروفسور "برنار هالبرن". وكنت أرجو استعادة شيء من صوتي، ظنّاً مني بأنّ في ذلك استعادة كاملة لتوازني النفسي، وقد فاتني يومها، ألا شيء يمكنه تحقيق التوازن النفسي، خارج الملء الروحي. وسافرت خلال شهر أيلول من عام 1970، وجرت المقابلة مع البروفسور هالبرن، في موعدها. وقد دقّق كثيراً في الأسئلة التي طرحها عليّ، حتى إنه أعادني إلى مرحلة الطفولة أوّلاً، يوم كانت تنتابني التهابات متلاحقة، ومؤلمة للغاية، في الأذنين، تترافق بسيلان قيحي، ثمّ إلى مرحلة المراهقة في رياق، في شتاءات قاسية كانت كثيراً ما تسبّب لي سعالاً حاداً ومزمناً، يمنعني من الترنيم على نحو سليم، وانتهى بي إلى الأزمات الصدرية والحادة الأخيرة، التي سبقها سيلان قيحي من الأذنين، دام شهرين كاملين، دون أن يسبّب لي أيّ ألم، أو يضعف كثيراً قدرة السمع لديّ. فكان كل ما قاله لي يومها بشأن وضعي الصحي: "أرجو أن أكون توصّلت إلى ما يبدو لي تشخيصاً سليماً

لوضعك". ثم حوّلني إلى الفحص المخبري، لدى الدكتور "بيير سامارك" (Pierre SAMARQ)، وقد حدّد لي عنوانه. ثم جلس يحدّثني بشغف عن المسيحيّة في الشرق العربي، وأعرب لي عن رغبته في الحصول على مرجع علمي، باللغة الفرنسية، يفي بالموضوع. فخطر ببالي على الفور كتاب الأب "اغناطيوس ديك" الحلبي، وعنوانه: "الشرق المسيحي" (L'Orient Chrétien). وكان أن أرسلته له بالبريد الجوي، فور عودتي إلى دمشق. وأما الدكتور "بيير سامارك"، فقد كان استقباله لي، مع زوجته الدكتورة، يفوق كل توقّع. وما إن انتهيا من كلّ ما يتعلق بفحوصي المخبرية، حتى جلسا يحدّثاني، وكأن لا عمل لهما سوى التحدّث معي، مع أن مَخبرهما يُعدّ من أهم مخابر باريس. وتبيّن لي أنّ الإيمان لديهما يشمل جميع جنبات الحياة، وأنهما يلاحظان تدهور هذا الإيمان المسيحي في الغرب عامة، وفي فرنسا خاصة، بقلق كبير. وقد سألاني بإلحاح وثقة، الصلاة من أجل ولديهما، وهما شابّان، كي "يكونا بحقّ مسيحيَّين بكل معنى الكلمة".

وبعد أسبوعين وبضعة أيام، إذ كنت ما أزال في باريس، وصلتني بالبريد نسخة شخصية من نتائج الفحوص المخبرية. فعدت أشكر للدكتور سامارك وزوجته، محبّتهما وخدمتهما، ولأؤكّد لهما وعدي بالصلاة من أجلهم جميعاً، ومن أجل الغرب كلّه. ولدى مراجعتي البروفسور "هالبرن"، وجدته مرتاحاً لنتائج الفحوص المخبريّة، وقد أصرّ عليّ كي يشرح لي ما انتهى إليه من تشخيص لحالتي، وقد رأى فيها هجمة قوية من جرثومة تسمى "الستافيلوكوك الذهبي"، كانت مستقرّة في الرئتين، لسنوات طويلة، وهي تتنقل كما يحلو لها، ولذا كانت تسبّب لي التهابات رئويّة حادّة، عصيّة على أي علاج دوائي، ولا سيما المضادات الحيوية، كما أنها كانت تسبّب أحياناً التهابات في الأذنين، ينجم عنها سيلان قيحي منهما، قد يتواصل أسابيع طويلة أو أشهراً. وهذا بالفعل ما حصل لي، قبل أن تستقرّ هذه الجراثيم في الحنجرة، وتضرب الحبال الصوتية. وأما العلاج، فهو من ابتكاره، وقد بات معروفاً على نطاق العالم. وهو يعتمد مصلاً خاصّاً، كان هو من ابتكره، ويحتاج إلى فترة زمنية لإعداده. وقد وعدني بإرساله إليّ بالبريد الجوي، مع ملفّي الطبي الكامل، كي أطلع طبيبي في دمشق عليه. إلا أنّه اشترط عليّ ألا أدع أحداً في دمشق، يحقنني المصل تحت الجلد، وقد أضاف: "لا أحد يحقنك الإبر تحت الجلد، سوى الدكتورة في مشفى البربير ببيروت، لأني لا أثق بأطبائكم" (Je m'en méfie!). وقد آلمني جداً ما أضافه بعد ذلك، إذ قال: "ما جعلوك تتجرّع طوال هذه السنوات، من المضادات الحيوية، كان من شأنه أن يدمّرك!" وقد

أردف بقوله: "أرجو، إن التزمت بالعلاج، كما سأبيّنه في تقريري، أن تستعيد على الأقل سبعين بالمائة، من قدرة صوتك".

وعدت إلى دمشق. وأخبرت طبيبي بالأمر. ثم عندما وصلني الملف الطبي الكامل، مع المصل والدواء، حملته له. فلم يُخفِ عليّ تشكّكه من صحة التشخيص وصحة العلاج. وقد يعود ذلك إلى أنّه يحمل شهادته من الولايات المتحدة الأميركيّة. وصرت أتردّد إلى مشفى البربير في بيروت... ومضت أشهر... ولمّا لاحظت تحسّناً في حنجرتي، دعوت طبيبي في دمشق، لحضور قدّاس كنت سأقيمه في كنيسة القدّيس كيرللس، وكنت أريد أن أقيمه من أجل راحة نفس والده، الذي كان قد توفّاه الله قبل فترة وجيزة. وأقمت ذلك القدّاس. فما كان من الطبيب إلا أن هنأني للتحسّن الذي طرأ على حنجرتي، وطلب مني من جديد، كامل تقرير الطبيب الفرنسي، كي يعيد دراسته!...

وفي دمشق، وجدت جورج حورانية يتخبّط في ظروف بالغة الصعوبة، في البحث عن عمل، على الرغم من الشهادة الهامّة التي عاد بها من فرنسا، منذ أشهر طويلة. وكان يرفض بعناد أن يطلب واسطة من أحد، كما كان يرفض التسليم بوصول الأمر في سورية، إلى ضرورة استجداء واسطة فلان أو فلانة من الناس، من أجل الحصول على عمل. وكان يوم انتهى فيه إلى التفكير بالعودة إلى فرنسا، والاستقرار فيها، لا حبّاً بفرنسا، بل قرفاً ممّا آلت إليه الأحوال في سورية. وعندها خطر ببالي أن نقوم معاً بزيارة لانطون المقدسي، وكان جورج شديد الإعجاب به، كما أنّ انطون المقدسي كان يحب جورج، ويتوسّم فيه خيراً. فاتصلت به هاتفيّاً على الفور، ومضينا معاً لزيارته في بيته المتواضع في حي الشعلان. وكان ما دار بيننا في ذلك اليوم، من حديث، في غاية الصراحة والوضوح. إلا أن جورج لم يصرّح لانطون المقدسي برغبته في مغادرة البلد. وبعد مضي ساعة ونصف تقريباً، بين تحليل وتساؤل، وصمت طويل، حدّثنا انطون المقدسي عمّا كان يشعر به، يوم كان في فرنسا، وما كان يُعرض عليه من عمل هناك، بما يرافقه من امتيازات كثيرة. وقد أكّد لنا أنّ فكرة واحدة كانت آنذاك تسيطر عليه، وهي التي جعلته يرفض البقاء، ويقرّر العودة إلى سورية. وهذه الفكرة كانت التالية: لو أُعطيتُ أن أعبّد ألف كيلومتر من الطرقات في فرنسا، أو لو أعطيت أن أنجز فيها ما يطيب لي أن أنجز، فأنا أعرف أن في فرنسا، مئات من أمثالي يستطيعون أن ينجزوا ما أكون قد أنجزت وأكثر. وأما إن عبّدت في سورية ملمتراً واحداً، لا يوجد من يعبّده، أكون قد قدّمت لبلدي عملاً ليس فيه من ينجزه... وأذكر أنّ الجلسة انتهت عند هذا الحد. وخرجت مع جورج. وما إن وصلنا إلى أسفل الدرج، حتى التفت وقال لي: "هل

قلت للأستاذ انطون أني كنت أفكر بالسفر؟" فقلت له: "ولو، يا جورج، أنت تعرف أن هذه الطريقة، ليست طريقتي. ثم تذكّر أني اتصلت به هاتفياً أمامك، ومضينا معاً لزيارته، فكيف تريد لي أن "أطبخه"؟"... وفي الحقيقة، كان ما رواه انطون المقدسي عن خبرته في فرنسا، هو الجواب الحاسم على تساؤلات جورج المضنية بشأن عودته إليها، وقرار البقاء في سورية.

وهنا، يطيب لي أن أرسم عن جورج هذا، ملامح كثيرة، بوصفه نموذجاً سوريّاً متميّزاً. إلا أني سأقصر كلامي على خمسة منها فقط من هذه الملامح.

أوّلها، كان ما كتب لي بعد مغادرته دمشق إلى باريس عام 1966. فلقد كتب يقول لي إنه كان كلّ مساء، ولفترة طويلة، يقبّل نعل الحذاء الذي كان ينتعله يوم غادر دمشق، وهو يبكي، ليشتمّ منه رائحة تراب الوطن!

ثانيها، كان ما كتب لي بعد أشهر، عندما علم بمقدمي إلى باريس، ليسألني أن أحمل له فقط: قطعة صغيرة من الخبز الشامي، وحفنة من تراب، لتذكّراه بلقمة الوطن وترابه.

ثالثها، وهو أني أملك مجموع الرسائل التي كان جورج يخطّها لي، طوال إقامته في فرنسا، في إيقاع وصدق مدهشين، وذلك من حزيران عام 1966، إلى حزيران عام 1970. وإني لأرجو أن يُتاح لي نشرها ذات يوم، لأنها تشكّل نموذجاً استثنائيّاً، يجسّد حب شاب سوري لوطنه، وانصرافه الكلي إلى التحصيل العلمي الرفيع، بعيداً عن أي لهو رخيص في مدينة مثل باريس، ليعود بأقصى سرعة إلى وطنه، ويكون واحداً ممّن يريدون أن ينهضوا به، فكراً وعلماً وعمراناً. والحقيقة أنّ جورج هذا قد عاد إلى سورية، بعد غياب أربع سنوات فقط، وهو يحمل شهادة دكتوراه دولة في الاقتصاد، برتبة جيد جداً!

ورابعها، أنّ جورج هذا كان الوحيد من الآلاف المؤلفة من الشبان الذين عرفتهم في دمشق وسورية، على مدى أكثر من خمسين عاماً، الذي لبّى دعوتي الدائمة والصريحة والمعلنة، إلى الشبيبة المسيحية في دمشق وسورية، كي يُقدم أحدهم على تحدّي تقاليد الزواج، الفضفاضة والمكلفة والفارغة، ليبدأوا نمطاً جديداً من الزواج، يملأه الحب والبساطة والصلاة، بعيداً عن كلّ ما أجمع الناس عليه، من دعوة للمئات من العائلات، ومن إصرار على حشد ما أمكن من أساقفة وكهنة، ومن توزيع لأفخم البطاقات وأغلى علب العرس بالمئات، ومن تزيين للكنيسة بتلال من الورود، ومن تواجد لأفضل المصورين، وخصوصاً من انتقاء "لأرقى" الأثواب للعروس، ومن ثم

لإحياء سهرة لا تكتمل إلا بوجود مطرب مشهور! ولقد أُقيمت صلاة عرسه في كنيسة القدّيس بولس الأثرية، في حميمية رائعة، بحضور الآباء ميشل حكيم والياس صارجي وأنا، وبمشاركة عدد محدود من الأهل والأصدقاء، وقد شاركوا كلّهم في تلاوة صلوات صيغت من وحي علاقة جورج بعروسه آمال سكاف، التي كانت ترتدي ثوباً أنيقاً جداً، ولكنه لا يمتّ بأي صلة إلى أثواب العرس التقليدية. ويومها تلا الرسالة صديق جورج، الدكتور عبود السراج، وهو مسلم! كما أنّنا استبدلنا الإكليلين "الذهبيّين" اللذين يتوّج بهما العروسان خلال مراسم الزواج، بإكليلين من سنابل القمح!

وخامسها، كان عشقه لفن الرحابنة. وكان حريصاً كل الحرص على حضور حفلاتهم، كما كان شديد الإلحاح على معارفه كي لا يغيبوا عن مثل هذه الأماسي. وقد لاحظ أني كنت أغيب عن هذه الحفلات، فجلب لي بطاقة لحضور "ناطورة المفاتيح"، ولم يكن يصدق أني كنت أستهول تكاليف هذه الأمسيات، علماً بأنها كانت زهيدة. وكان أني طوال هذه الأمسية، كنت أعيش حدساً قاتلاً، انفجر بكاءً عندما أخذت فيروز تغني "وينون". لأني إذ ذاك كنت أقول في نفسي: "هذا بالذات ما أخشى أن يحدث لنا نحن العرب، كما حدث لفلسطين!"

وفي دمشق، سمعت لغطاً كثيراً حول ما يسمى "إنجيل برنابا". وما كان لديّ إلمام به. فاقتنيت على الفور نسخة منه، من ترجمة "خليل سعادة"، الصادرة في القاهرة عام 1907. وجمعت كل ما توفّر لي من معلومات عنه، وانصرفت إلى إعداد دراسة بشأنه. وقد شئتها موجزة، شاملة وواضحة. وأطلعت عليها الأب جورج هافوري، فشجّعني على نشرها، على أن أضيف إليها دراسة موجزة، ولكن وافية، عن الإنجيل. فانصرفت إلى هذه الدراسة أيضاً، فجاءت بحجم الدراسة حول "إنجيل برنابا". وأطلعت عليها من جديد الأب جورج هافوري، فشجّعني على نشرهما معاً في كتيّب واحد. ثم تقدّمت إلى وزارة الإعلام بطلب الترخيص للطباعة. وتأخّر الجواب أشهراً. أخيراً علمت بأنّ المخطوطة أحيلت إلى وزارة الأوقاف، لأنها تتعلّق بمسائل فيها للإسلام رأي وموقف. فراجعت المكتب المختص بهذه الأمور، في وزارة الأوقاف. فإذا به مكتب مدير الإفتاء، وكان يومها السيّد "محمد عزيز عابدين"، وهو ابن المفتي الأسبق، الدكتور "أبو اليسر عابدين". فقصدته. فكان استقباله مدهشاً بالمودّة واللطف. وكان رجلاً بدا لي في مثل عمري. وكان أن كشف لي أمراً، أكّد لي أنه لا يجوز له أن يكشفه لي، إلا أنه يفعل، لأنه كان يريد لهذا المخطوط أن يجد طريقه إلى المطابع. فقرأ لي نص التقرير الذي أوصى بمنع طباعته، لأنه يتعارض مع الإسلام في نقطتين هامتين: الصلب

وتهمة تحريف الكتاب. وقال لي إنّ من وضع التقرير هو والده بالذات. ثم تقدّم إليّ باقتراح شاءه مخرجاً للمنع المفروض على المخطوط. وكان الاقتراح يقوم على اجتماعي مع أحد شيوخ كليّة الشريعة بجامعة دمشق، ومناقشة المخطوط معه، عسانا نصل إلى ما يرضي الطرفين، وعندها يسعه أن يطلب من والده، إعادة دراسة المخطوط. فرحّبت على الفور، وكان اسم المرجع المقترح الشيخ "كريّم راجح". فرحّبت دون تردّد. فاتصل به هاتفيّاً، ودعاه للمجيء إلى الوزارة، لأخذ المخطوط. فشكرت للسيد محمد عزيز عابدين، وانطلقت وأنا في دهشة عارمة، من صدق هذا الإنسان ورقّته، ولباقته وفعّاليته.

وبعد أيام قليلة، دُعيت إلى مكتب السيّد عزيز عابدين. فكان الشيخ كريّم راجح عنده، وكان لقاؤنا وديّاً صريحاً. وأقفل السيّد عابدين مكتبه، وطلب من حاجبه الاعتذار عن استقبال أي مُراجع، طالما باب مكتبه مقفل. ودار الحوار والجدال بين الشيخ كريّم وبيني، وقد دام ساعتين تماماً، فيما كان السيّد عابدين يصغي إلينا، وأحياناً يتدخّل ليقول: أنا سعيد جداً بهذا الحوار بينكما. واتفقنا بعد مضي ساعتين، على عقد اجتماع آخر في الغد. وهكذا كان. وكان الحوار في اليوم التالي، صريحاً وودّياً. وعندما بدا لي أننا وصلنا إلى نقاط الاتفاق، قلت بكل صدق للشيخ كريّم راجح: "أقترح عليك، طالما أننا اتفقنا حول ما يرضي الطرفين، أن نطبع الكتيّب، ممهوراً باسمك وباسمي معاً". فرفض بقوّة، قائلاً: "هذا ليس من حقّي". ثم افترقنا على أمل الاجتماع، فور انتهائي من مراجعة المخطوط وصياغته من جديد.

وفي المساء نفسه، جلست إلى مكتبي، وأحييت الليل كلّه فيه، وأنا أقلّب الأفكار والعبارات، حتى انتهيت إلى ما بدا لي نصاً يتوافق مع ما أريد قوله، دون المساس بما يقول الإسلام. ثم أقمت القدّاس شاكراً، واتصلت هاتفيّاً بالسيد عابدين، ورجوته تبليغ الشيخ كريّم راجح، عن استعدادي للاجتماع به في الصباح نفسه، في مكتبه، في الوقت الذي يناسبهما. فجاءني الجواب بعد قليل بالإيجاب، وتمّ اللقاء في ذاك الصباح، في مكتب السيّد عابدين. ودار الحوار، والباب مقفل، في غاية المودّة... وإني لأكتب كل ذلك، وكأني به ماثل تحت عيني الآن من العام 2013... وبُلِّغت بعد أيام قليلة، موافقة الوزارة على المخطوط الجديد، وكان عنوانه: "حول الإنجيل وإنجيل برنابا". وكانت تلك بداية لصداقة أكثر من رائعة، جمعتني بإنسان أكثر من رائع، يدعى محمد عزيز عابدين. وإني، إذ أكتب ما أكتب، أجد نفسي اليوم، في الظرف الذي كنت أحلم به، منذ سنوات طويلة - وسورية في ما هي فيه اليوم، من إرهاب دولي وعربي، ومن تمزيق وتقتيل

وتدمير وتشريد وتشرذم وضياع وحيرة - لأقول على الملأ، من كان محمد عزيز عابدين ووالده وأسرته، بالنسبة إليّ، وإلى أهلي وإلى المسيحيّة، ومن كنت أنا وأهلي والمسيحية، بالنسبة إليه وإلى والده وأسرته. وفي كلّ هذا، لن أكتب إنشاءً، ولن أسرد أوصافاً، إنما سأروي وقائع حدثت، وليس كالواقع شاهد، لئلاّ أُتّهم بما ليس منّي، ولئلا يتّهم هو بما ليس منه. هذه الوقائع، سأذكرها، كما اختزنتها في قلبي وذاكرتي، بتفاصيلها الرئيسيّة.

1- يطيب لي أن أذكر أنّ محمد عزيز عابدين كان دائماً يرتدي لباساً مدنياً أنيقاً، يلقي فوقه أحياناً في منزله، عباءة مذهّبة بيضاء...

2- كنت كثيراً ما أحبّ زيارته في مكتبه في وزارة الأوقاف، حيث بات الجميع يعرفوني، لا لشيء إلا لفرح اللقاء بيننا.

3- أسعدني أن أتعرف لديه على العديد من شيوخ دمشق وريفها، الذين كانوا يزورونه بحكم مركزه في وزارة الأوقاف.

4- كنت أزوره، في عيدي الفطر والأضحى المباركين، في بيت أهله الكبير، في سوق ساروجة، حيث كان والده الكريم، المفتي الأسبق، أبو اليسر عابدين، يستقبلني بوجهه المشرق، وهو يضمّني إلى صدره، قائلاً: "أب الياس، أنت غالي!"

5- كانت ابنته الكبرى ماريا طالبة في قسم اللغة الفرنسية، في جامعة دمشق، إذ كنت أدرّس في هذا القسم، بدءاً من عام (1972) اللغة اللاتينية والترجمة. فكانت، بطلب من والديها، تسعى دائماً لإيصالي بسيارتها إلى الجامعة، وإعادتي منها، ولكن دائماً برفقة اثنتين من زميلاتها في ذاك القسم، من آل الكلاس والكنج.

6- عندما احتاجت ماريا إلى بعض الدروس في الأدب الفرنسي، طلب مني والدها أن أعطيها هذه الدروس، فوافقت بشرط أن أعطيها هذه الدروس في بيت أهلي، حيث كانت تأتي مع والدتها، فكان ذلك تعميقاً للمودّة التي كانت تربط والدتها بأمي.

7- كان ذلك أيضاً سبباً لمتابعة الزيارات الودّية، بين ماريا ووالدتها وأختها سيرين، ووالدتي وأختي نور في بيت أهلي. وصار الهاتف بينهنّ وسيلة طيبة "لفشّة القلب"!

8- خلال دراسة ماريا في الجامعة، سألني عزيز أن أبحث لها عن عائلة في باريس، تقيم لديها مع أمّها، وفق أجر متكافئ، من أجل اتّباع دورة تقوية في اللغة الفرنسية. فاستنجدت بصديقي الأب "بيير بوز"، وتمّ كل شيء على أحسن ما يرام. وقد نقل لي الأب بوز بفرح، أنّ السيّدة الفرنسية التي استقبلتهما، ما كانت لتصدّق أنهما مسلمتان، لشدّة ما لمست لديهما من رقي في الأخلاق والتعامل.

9- خـلال الحـرب اللبنانيـة، أصـيبت السـيّدة عابـدين بوعكـة صـحية، اضـطرّتها لمراجعة أحد الأطبـاء في لبنـان. وكـان الوضـع في لبنـان مـن الخطـورة بحيـث استحال على عزيز تأمين هذا السفر إلى لبنان. وسألني المساعدة. فرويت الأمر للسـفير البـابوي بدمشق، وكان يومها المطران "نيقـولا روتونـو" (Nicola ROTUNNO). وقد وصـفت لـه ما بيني وبين عزيز وأسرته، من مودّة وثقة، فاستمهلني، ثم أبدى استعداده لاصطحاب السيّدة عابـدين وحـدها، معـه في سيارة السـفارة، وكـان يقودهـا سـائقه. وسـافروا إلى لبنـان، وكـان مـن السـفير أن أوصـل السـيّدة عابـدين بسـيارته إلى المشـفى، وأوصـى بهـا الراهبـة المسؤولة عـن المشـفى حتـى الغـد، ريثمـا تـتمّ جميـع الفحوصـات المطلوبـة. وفي اليوم التالي، عاد بها بسيارته إلى دمشق!

10- علـم عزيـز عابـدين، ذات يـوم، بسـفري إلى فرنسـا مـع أخـتي نـور، لفـترة لا تتجاوز الأسبوعين: وكنت في مكتبه، فسألني على الفور أن أصطحب ابنته ماريا معنـا. فأدهشني ذلـك. إلا أنـه قـال لي، أمـام حشـد مـن زواره: "ماريـا، لا يمكـن أن تسـافر مـع حدا غيرك!". ثـم اتصـل بهـا هاتفيّـاً، وشـرح لهـا الأمـر، فأبـدت اسـتعدادها التـام للقيـام بهذه الرحلة، إلا أنّ ظروفاً لاحقة حالت دون قيام هذه الرحلة.

11- طلـب مـني ذات يـوم، بكـل بسـاطة، أن أدعـوه مـع صـديقنا المشـترك، الشـيخ كـريّم راجح، إلى غداء كبة في بيت أهلي، لأن الشيخ كريّم يحب "الكبّة المسيحيّة!". وهكذا كان!

12- أردت ذات يوم أن أعدّ تقويماً سنوياً (روزنامة)، خاصّاً بأسـرة الرعيـة الجامعيـة. فوجـدتني في مـآزق كـثيرة، لجهلـي بعـالم المطـابع. فاسـتنجدت بـه. وكـان التقـويم مليئـاً بالأيقونات البيزنطية، والعبارات المسيحيّة الصريحة. فلـم يـتردّد لحظـة، وكانـت درايتـه بالتعامـل مـع المطـابع، بفعـل مركـزه في الـوزارة، مدهشـة. وبعـد فـترة، سـلّمني التقـويم، وكان موفّقاً جداً، كما وُفّق كثيراً في تخفيف النفقات.

13- كنّا كثيراً ما نتبادل الـرأي في أمـور كـثيرة، ومنـها جهـل النـاس الكـبير بحقيقـة الأديان، وصحة وخطورة القول المأثور: "الإنسـان عـدوّ مـا يجهـل". وقـرّرنـا معـاً أن نقـوم بمحاولة أولى مـن أجـل التعريـف بالـدين الإسـلامي. وتدارسـنا مطـوّلاً الطريقـة المثلـى إلى ذلـك. وانتهينا إلى صياغة نـص مقتضـب يعـرّف بالإسـلام، وقـد نلنـا موافقـة كليّـة الشـريعة عليـه. وكنـا نريـد لـه أن يُنشَـر بالعربيـة والفرنسـية والإنكليزيـة، مطبوعـاً ومسجلاً بإتقان، ومترافقاً بموسيقى دينيّة ملائمة، كنّا دقيقين في اختيارها. وقد قمت بترجمـة هـذا الـنص إلى اللغـة الفرنسـية بكـل أمانـة. وقمنـا بتسـجيله في دار الإذاعـة والتلفزيون، بصوت المذيعة المعروفة، منى كردي. وكنّا نخطّط، بعد إنجاز العمل على

أتمّ وجه، لوضعه في مدخل مسجد بني أمية، كي يُوزّع بانتظام على الزوار العرب والأجانب، على أن تكون وزارة الأوقاف، هي المسؤول الأول والأخير، عن كل ذلك... إلا أنّ الموت عاجل عزيز عابدين. أما النص العربي وترجمته الفرنسية، فإني أحتفظ بهما حتى اليوم، كما أني أحتفظ بتسجيله باللغة الفرنسية، بصوت منى كردي.

14- حدّثني عزيز عابدين، ذات يوم، عن مشروع كبير تقوم به وزارة الأوقاف، بتكليف من الرئيس حافظ الأسد، من أجل طباعة مصحف جديد للقرآن الكريم. وكان هو في نطاق الوزارة، المسؤول عن هذا المشروع. وقد حدّثني عن تخطيط صفحاته، بما أثار فضولي، لا سيما وأني كنت دائماً شديد الإعجاب بمستوى الطباعة والأناقة في نسخ القرآن الكريم. فاصطحبني معه مرتين، كما أذكر، لاستطلاع مراحل التخطيط فيه. وكان الخطاط يومذاك هو السيّد "عثمان حسين". ولكم أفرحتني العناية الفائقة التي كان هذا المشروع يلقى من المسؤولين عنه، ولا سيما من عزيز. وكان جمال الخط المعتمد، فوق كل وصف. وقد بدت لي كلّ صفحة أشبه بلوحة فنية قائمة بذاتها. وفي طريق العودة، إذ كنت أبدي إعجابي الشديد بهذا العمل، فاجأني عزيز بسؤال كان يحزّ بنفسي من زمان بعيد، وما كنت أتجرّأ على البوح به، ليقيني باستحالة إنجازه. وكان سؤاله بالحرف الواحد: "أب الياس، لماذا لا تطبعون الإنجيل الكريم بنفس الطريقة؟". فقلت له: "هذا حلمي من زمان. ولكن..." فقاطعني: "ولكن ماذا؟". فقلت له: "بصراحة، الكلفة باهظة جداً!..." وسكتّ. فجاءني جوابه بعد لحظات، وكان مفاجئاً لي بقدر سؤاله الأول لي: "أب الياس، دع هذا الأمر لي!". فاندهشت أشدّ الاندهاش. وإذ بعزيز يتابع: "أب الياس، أرى أنا، أنكم أنتم المسيحيّين، تدفعون الضرائب مثل المسلمين... وهذا المصحف يطبع على حساب وزارة الأوقاف. ووزارة الأوقاف، مثل أي وزارة في سورية، تخصّ جميع السوريين. فلِمَ لا يُصار إلى طباعة الإنجيل بالطريقة نفسها؟". كان كلامه يرتكز على منطق سليم، ولكن كيف السبيل إلى ترجمته إلى واقع؟... كنت عند هذا الحدّ من تساؤلاتي، عندما فاجأني مرة أخرى بقوله: "أب الياس، أنا كمسلم، يحزّ في نفسي ألا يكون الإنجيل جميلاً وزاهياً في طباعته، كما هو القرآن عندنا... على كل حال. هذا الأمر اتركه لي!". تُرى، هل مَن كان يعرف عزيز عابدين، يُفاجَأ الآن بما أذكره عنه؟

15- كان عزيز... سريع التلبية للخدمات التي اعتدت أن أطلبها منه، بحكم مودّته ونبله ومركزه. إلا أني لا أريد أن أذكر منها هنا إلا واحدة، وفيها ما فيها من كشف للكنوز القابعة في أعماق الإنسان السوري، تلك التي يجهلها الكثيرون حتى في سورية،

وبالطبع خارجها. وإني لأسرد هذه الحادثة كما جرت، ولكن باقتضاب. مساء اليوم، الذي تمّ فيه زواج الأميرة "ديانا" في بريطانيا، حدث لشاب عرفته طفلاً، وكان ذا نشاط واسع في الكنيسة، أن صدم بسيارته شابين شقيقين، كانا يركبان دراجة هوائية (بيسكليت)، فقتل الأكبر على الفور، وكسر ساق الأصغر. وأوقف الشاب، ثم زُجّ به في السجن... كان ذلك عشية عيد الفطر... وبلغني الخبر في المساء نفسه من والده. فسألته، وهو صديق غالٍ، ألا يوفّرني إن احتاج إلى خدمة ما. ومرّت أربعة أيام، زرت خلالها الشاب في السجن... وبعد أربعة أو خمسة أيام، اتصل بي والد الشاب، يسألني المساعدة، لأنهم فشلوا في معرفة أهل الضحيتين، إذ كان يريد الاجتماع بهم والتفاوض معهم. فاتصلت على الفور بصديقي عزيز عابدين، فاستمهلني أربعاً وعشرين ساعة. وفي اليوم التالي، اتصل بي هاتفياً، ليدعوني مع والد "الجاني"، ووفد من الوجهاء، إلى لقاء في حي البرامكة بدمشق، وقد حدّد لي المكان والساعة... وقَدمنا وفداً مع والد "الجاني"، وجرت المقابلة مع وفد يخصّ والد الضحيّتين... وكان فلاّحاً بسيطاً، بحضور صديقي عزيز عابدين وشيخين، بينهما شيخ يدعى "أبو النور". ودامت الجلسة ساعة ونيفاً. ولكم تمنّيت يومها، وأنا أراقب وأسمع، أن تكون عيون جميع الناس، في عينيّ، وآذان جميع الناس في أذنيّ، كي يروا ويسمعوا ما رأيت وسمعت. فكان الجو مفعماً بسوية من الإيمان والتسليم لمشيئة الله، خارقة حقّاً... وما رُوِي حينئذٍ من أحداث، تغلّب فيها النبل والغفران، على كلّ اعتبار آخر، كان مذهلاً. وإني لأذكر منها واحدة، ذُكِرَت فيها أسماء، لشاب دهس بسيارته صديقه، وقد خرج ليودّعه، فانخلع قلبه من الحزن ومن الرعب معاً، وهرب بسيارته... ولما خرج والد الضحية من البيت، وعرف حقيقة ما حدث، أرسل من يقول للهارب، إنه بمثابة ابن ثانٍ له، وإنه يريد له أن يعود، لأنّ وجوده بالقرب منه، في هذا الظرف الصعب، إنما هو تعزية كبيرة له... وكان أن عاد الشاب. وعندما رآه والد صديقه المتوفّى، تقدّم هو منه، وضمّه إلى صدره، وهو يقبّله ويقول له: "أنت من ريحة ابني!". أجل، تلك كانت الأجواء التي سادت هذه الجلسة الخارقة. وأخيراً سئل والد الضحيتين أمام الجميع، ما قراره بشأن الشاب الذي صدم ولديه، فقال دون تردّد: "حسبي الله، ونعم الوكيل!" ثم صمت. وكنت أتساءل: أأنا في حلم أم في صميم الواقع؟ وعندها كان معظم الحضور يبكون، وأنا منهم. ولكم تمنّيت لحظتها أن أجمع الكرة الأرضية بيديّ الاثنتين، لأقول لجميع الناس: "أتصدّقون، هذا هو إسلام بلادي!"

16- مساء الأحد الثاني عشر من شهر تشرين الثاني، عام 1979، كان أخي ميشل

يحتفل بعيد شفيعه الملاك ميخائيل. وكان آخر المهنئين قد غادروا دار أهلي الساعة العاشرة والنصف. وعندها قالت لي أمي: "جاية عبالي تلفن لأم يسار، شو رأيك؟". قلت لها: "تلفني. لسّا بكّير، وبتعرفيها بتحبّك. راح تنبسط تسمع صوتك". واتصلت أمّي هاتفيّاً بأم يسار، وتحدّثتا طويلاً، وضحكتا كثيراً. ثم قالت لنا: "تصبحوا على خير"، ومضت إلى غرفة نومها... وكانت تلك آخر محادثة لها على الأرض، إذ كانت في الليل قد فارقت الحياة... استدعينا باكراً الدكتور إيلي كرعوبة، فتوقّع لها أن تكون رحلت بُعيد الثانية والنصف صباحاً... فرأيت أن أخبر صديقي عزيز عابدين، ثمّ أخبرت أختي الكبرى روز، والصغرى رينيه... وما هي إلا دقائق حتى كان عزيز بيننا، فقبّلني وانتحى بي جانباً، وقال لي بتأثر بالغ: "أب الياس، أنا أعرف من الوالدة المرحومة، أنك لا تملك شيئاً، والظرف هللي انوضعت فيه، يحتاج لمال كثير. أنا أخوك. أنا قدّامك من القرش للمائة ألف! لا توفّرني"... أجل، هذا بالحرف الواحد ما قاله لي عزيز عابدين. ولكم من مرّة ذكرت موقفه هذا، الذي لم ألمس ما يقاربه لا من البطريرك، ولا من المطران، ولا من أي خوري، ولا من أي صديق مسيحي! وأضيف أن عزيز عابدين ظلّ طوال ثلاثة أيام يتردّد على البيت، ويجلس صامتاً بالقرب مني، إذ كنت حينذاك، وظللت لفترة طويلة، في حالة يُرثى لها، وقد أثقلني سؤال قاتل هو: لماذا حمّلت أمي كل ما حمّلتها، ومن أجل ماذا؟ وكان عزائي الوحيد يقوم على يقيني بأنها باتت الآن، حيث هي، تعرف حقّاً لماذا حمّلتها كل ما حمّلتها... إلا أنّ المودّة استمرّت بين أم يسار وأختي نور حتى وفاة نور عام 2007.

17- ذات يوم تواعدت مع عزيز عابدين، على السفر معاً إلى فرنسا. إلا أنه كان مضطراً للسفر إلى السعودية لفترة أسبوع. فأرجأنا السفر حتى عودته. وفوجئت بعد يومين أو ثلاثة من سفره، بهاتف من ابن أخته المهندس ممتاز المط، يعلمني فيه أن عزيزاً أدخل المستشفى في السعودية، وأنّ وضعه مقلق، وسألني الدعاء من أجله. صُعقت، وصرت أرجو الله في كلّ لحظة، شفاءه وعودته سالماً إلى دمشق. وكان أن عاد بعد أيام، وقد ازداد وضعه سوءاً، إذ تبيّن أنه مصاب بسرطان صاعق في الصدر. وأدخل مشفى "دار الشفاء" أياماً كثيرة. ثم أعيد إلى البيت... فكنت دائم الاتصال هاتفيّاً بالبيت، للاطمئنان عليه، كما كنت أعوده في البيت بين حين وآخر... وذات مساء، وهو عشية عيد الفطر، فوجئت بابنه المهندس يسار، يأتي إلى بيت أهلي، حاملاً صحناً كبيراً من الحلوى العربية، ليقدّم لنا التهاني بعيد الفطر، باسم والده وأهله واسمه! لكم كانت لفتة رائعة! وكان أن حلّ عيد الفصح بعد فترة، فحملت بدوري صحناً كبيراً من الحلوى العربية،

ومضيت لزيارته والاطمئنان عليه وأهنّئه بعيد الفصح! فقبّلته وأنا أقول له: "أنا جاية لعندك حتى تعايدني بعيد الفصح!" أجل، كذا كنّا، وكذا كانت المحبّة بيننا.

وجاء يوم، ساء فيه وضع عزيز عابدين من جديد، فنقل إلى مشفى دار الشفاء، وتدهورت حالته بسرعة، حتى بات لا يُسمع له صوت، ولا يستطيع أن يفتح عينيه أو يرفع رأسه! وكنت، في ما سبق، قد أطلعته مراراً على ما كان يحدث في "بيت العذراء"، في حي الصوفانية، وكان يتابع أحداثها بلهفة وفرح. فأحببت، لدى زيارتي له في "دار الشفاء"، أن أسأله إن كان يمانع في زيارة السيّدة "ميرنا" له، وإذ به يرفع يده ويضعها على رأسه، في حركة انحناءة طفيفة، ليفهمني موافقته. وكانت أم يسار حاضرة وحدها آنذاك. فعدت بعد ظهر اليوم نفسه، بصحبة السيّدة ميرنا، فوجدت لديه أم يسار ويسار وصديق عزيز، السيّد أديب عكام... كان عزيز إذ ذاك جالساً في سريره، محني الظهر والرأس. فأخبرته أم يسار بوصولنا، فرفع يده على رأسه محيّياً. فوضعتُ صورة السيّدة العذراء تحت عينيه، وقلتُ له: "أبو يسار، حاول أن تنظر إلى صورة السيّدة العذراء". فحاول أن يفتح إحدى عينيه بإصبعيه... ثم أخذت ميرنا تصلّي، وهي تمسك صورة السيّدة العذراء بيديها... وفجأةً انهمر الزيت بغزارة من صورة السيّدة العذراء، وقد غطاها كلّها تقريباً. لكم فرحت عندئذ، ولكم رجوت لعزيز شفاءً معجزاً! ووجدتني أقول له: "أبو يسار، الزيت يغطي صورة السيّدة العذراء، حاول أن تفتح عينيك...". ثم سألتُه: هل تسمح أن ندهن لك صدرك بهذا الزيت؟" فرفع يده ووضعها على رأسه، وقد حناه قليلاً. فطلبتُ من أم يسار أن تدهن صدره بهذا الزيت. ففعلت... وكان رجاءٌ عظيمٌ يملأ قلبي. وبعد قليل، ودّعناه وخرجنا...

18- في الأحد التالي، أقمت القداس المسائي في كنيسة سيدة دمشق، على عادتي، وكانت مكتظة بالمصلين. وكان هاجس شفاء عزيز يلاحقني في كل لحظة. وإبان تقديم القرابين، رفعتها خصيصاً من أجل شفائه، وقد وصفته يومها "بأخي وصديقي الشيخ محمد عزيز عابدين". ولم أذكر سواه، خلافاً لما ألفتُ دائماً من ذكري لمرضى ومتوفّين كثيرين.

وكان أن قمت بعد يومين أو ثلاثة، بزيارة عمل للمطران فرنسوا أبو مخ. وقد سألني ما إذا كنت حقّاً ذكرت خلال تقدمة القرابين، الشيخ عزيز عابدين. فاستبدّ بي الغضب وصرخت في وجهه، بالحرف الواحد، كما لو كنت أحدّثه الآن: "عزيز عابدين مسلم... وحافظ الأسد مسيحي؟! لمَ تذكرون كلكم حافظ الأسد في القدّاس، ولا تريدون أن أذكر عزيز عابدين؟... سيّدنا، إن كانت الصلاة تقوم حائلاً بيني وبين أي إنسان، فأنا أرفضها... وأرجو ألا تعود إلى هذا الحديث معي مرة أخرى..." وخرجت.

إلا أني في قدّاس الأحد التالي، عاتبت الناس عتاباً شديداً، خلال العظة التي ألقيتها من وحي الإنجيل، لأنه وُجد بينهم من لا يزال بعيداً عن الإنجيل، ويستاء لمجرد ذكر اسم رجل مسلم في الصلاة، ويحملها وشاية تعيسة لمسؤول كنسي!

19- إلا أن إرادة الله كانت فوق كل إرادة ورجاء. وتوفى الله عزيز عابدين في 1985/6/4. ومضت أيام العزاء. أجل، "كل من عليها فان، ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام"!... ومضت فترة أخرى، وإذ بأم يسار تتصل بي هاتفياً، لتُعرب لي عن رغبتها في زيارتي وزيارة أهلي. وأتت مع يسار. وكان حديث الجميع، بالطبع، يدور حول المرحوم عزيز. وقبل أن تغادرنا مع يسار، وقفت وقالت، وبيدها شيء لم أتبيّنه: "أب الياس، حبّيت أترك لك ذكر من عزيز، ما لقيت حدا أقرب منك الو، أترك له اياه!". وقدّمت لي ساعته الشخصية، الذهبية. فبكيت، أجل بكيت، وأخذتها وأنا في غاية التأثّر. وقد وضعتها في يدي منذ ذلك الحين. ولكم حدّثت أصدقائي في سورية ولبنان، وأوروبا وأميركا وكندا واستراليا، عما كان بيني وبين عزيز عابدين، انطلاقاً من هذه الساعة... ومرّت سنوات طويلة، إلى أن جاء يوم توقّفت فيه نهائياً، فلم يستطع أحد من ساعاتيّي دمشق أن يُعيد إليها الحركة. فلجأت ذات يوم إلى يسار، كي يحاول إصلاحها، لأعيدها إلى يدي... وبذل يسار كل ممكن، وعاد بها وهي هامدة لا تتحرك. فوضعتها في علبة بلاستيكية صغيرة وشفافة، أمام صورة عزيز في مكتبي.

20- وكان أن جاءتني ذات يوم من عام 2011، المخرجة التلفزيونية، السيّدة إلهام سلطان، لتجري معي مقابلة ضمن برنامجها "إبداع". وكان البرنامج يدور حول صور الأمكنة والشخصيات، التي علّقتُها أو صمدتُها في مكتبي، مثل القدس والمطران كبوجي، وانطون المقدسي، وجورج حبش، والأب الياس يعقوب، والمرحوم الشيخ حمزة شكور، وعزيز عابدين... وقد لمحت أمام صورة عزيز العلبة البلاستيكية التي تحتوي ساعته. فسألتني عن الساعة، فرويت لها علاقتي بعزيز، باقتضاب كبير، حتى توقُّف ساعته عن الحركة، وأسفي لذلك، لأني لم أعد أحمل ساعة عزيز في يدي... وبُثّ البرنامج "إبداع" بعد فترة... وإذ بهاتف يأتيني في اليوم التالي، من ساعاتيٍ دمشقيٍ، أعطاني اسمه، وهو مصباح مظلوم، ليحدّثني بإعجاب عن البرنامج "إبداع"، ويؤكّد لي استعداده لتصليح الساعة، ويوضح لي موقع محله، وإذ به قريب من كنيسة سيدة دمشق، حيث أقيم. فقصدته. فوجدته يكنّ لي محبة قديمة وعميقة، تجدّدت إثر هذا البرنامج، وامتدّت إلى علاقة فعلية بيننا. وتركت له ساعة "عزيز". وبعد أيام، أعاد إليّ الساعة، وقد استعادت حركتها على أكمل وجه. وهي الآن في يدي، وقد أكسبتني صداقة جديدة غالية!...

21- بعد أكثر من عامين، على وفاة عزيز، زارني في دمشق كاهنان فرنسيّان، يعيشان ضمن كنيسة موريتانيا، هما الأب "بيير ڤو" (Pierre VEAU) والأب "بول غوتييه" (Paul GRASSER). وكان الأب "بيير ڤو" قد أمضى عام 1986، في دمشق، وهو يتبع دورة تقوية باللغة العربيّة. وقد أُتيح لي وقتها أن أعرفه من خلال "ظاهرة الصوفانية"، فعرف أيضاً شيئاً من علاقاتي مع المسلمين. فرغبا إليّ بزيارة عائلة مسلمة. فقمنا معاً بزيارة عائلة المرحوم عزيز عابدين. وفوجئنا بحرارة استقبال العائلة لي، ولهما بسببي. وقد دار حديث طويل حول العلاقات الإسلامية المسيحيّة في سورية. ويومها خطر ببالي أن أطلب صورة للمرحوم، أضعها في مكتبي. وعندما قدّمت لي أم يسار صورة عزيز، لم أتمالك نفسي من البكاء... وقد وضعتُ الصورة أمامي على مكتبي... إلا أني فقدتها إثر غيابي الطويل عن دمشق، لأسباب صحية عام 2005. فما كان مني إلا أن طلبت من يسار صورة أخرى، حلّت محلّ أختها...

22- ذات يوم، كنت على سفر، قبل عيد الأضحى بيومين أو ثلاثة. فأحببت أن أستبق العيد لأقدم التهاني لعائلة عزيز. فاستُقبلتُ كالعادة بمودّة كبيرة. إلا أني لا أنسى الكلمة التي قالتها أم يسار، عندما رأتني: "يا أهلين، أب الياس، يا أهلين، هلق صارت عندي فرحة العيد!"

23- ثمّة كلمة أسمعها أحياناً، على الهاتف، من ابنته الصغرى سيرين، وهي أمّ سعيدة لشابّين وصبيّة، يطيب لي أن أذكرها. تقول بصورة تلقائيّة: "يا أهلين، أب الياس، كل ما بسمعك، كأني عمبسمع صوت الوالد!".

24- وأما يسار، فإني أكنّ له محبّةً وتقديراً كبيرين. وهو يتحلّى بخلقية نادرة وتواضع جمّ، على ما معه من شهادة دكتوراه في الهندسة من جامعة القاهرة. وهنا يطيب لي أن أذكر أنه، عندما أراد السفر إلى مصر، طلب مني توصية للدكتور المصري الذي كان سيشرف على أطروحته. وكان قبطيّاً. فكتبت له رسالة حمّلتها بأحلى ما لديّ ممّا أعرفه عن يسار، وكنت على ثقة من أنّ الأستاذ المصري سيكون سعيداً، بل فخوراً بتلميذه الجديد، القادم من دمشق.

بعد كلّ هذا، أوَليس من حقّي، بل من واجبي أن أشكر لـ "إنجيل برنابا"، ما فتح أمامي من آفاق رائعة، أشتهي مثلها لكلّ كاهن ولكلّ شيخ في سورية، بل في الوطن العربي، وخصوصاً في مثل هذا الزمن العربي والعالمي، الرديء إلى أحطّ دركات الرداءة؟

ويطيب لي، قبل أن أطوي موضوع "إنجيل برنابا"، أن أذكر بهذا الشأن، تفصيلين لهما بُعدهما. كان أوّلهما سؤال البطريرك لي عندما قدّمت له النسخة المطبوعة، عن

الترخيص الكنسي من أجل طبعه، فقلت له: "هذه قصة قديمة لم يعد مقبولاً الرجوع إليها". وكان ثانيها كتابتي في صدر الكتاب هذه العبارة: "حقوق الطبع غير محفوظة"!

إلا أنّ هذا العام 1971، كان من شأنه أن يفتح أمامي آفاقاً جديدةً، رحبةً، منها أفق المسرح. وكان الفضل الأكبر في ذلك، لصديقي المخرج التلفزيوني والمسرحي، سمير سلمون. فقد كنّا منذ عام 1968، بدأنا معاً نشاطاً مسرحيّاً، أفضى بنا إلى ضرورة إنشاء فرقة مسرحيّة خاصة بنا، وأسميناها "هواة المسرح العشرون"، وكانت في الحقيقة تضمّ، بين كاتب ومخرج، ومساعد مخرج، وفنان تشكيلي وممثّلين، عشرين شخصاً. وكان مساعد المخرج من حي الشاغور، وموظفاً في التلفزيون، يدعى محمد سعيد الحمصي. ودون أن نكون حصلنا على ترخيص رسمي للفرقة، بدأنا نقدّم عروضاً لاقت ترحيباً جيّداً. ولما كانت القضية الفلسطينية تستحوذ، منذ سنوات طويلة، على فكري واهتمامي وصلاتي، أحسست ذات يوم باختمار عمل مسرحي متكامل. فمضيت إلى صافيتا، وانصرفت إلى كتابة نص مسرحي، خلال ثلاثة أيام فقط، سمّيته "المدينة المصلوبة". إلا أني ما كنت أعني بالمدينة، القدس، بقدر ما كنت أعني الشعب الفلسطيني كلّه والأمة العربية كلّها. وقرأ سمير سلمون النص، فتحمّس له، وبدأ يعدّه بأناة وحب وصبر، كما كان دائماً يفعل مع كلّ ما كان يؤمن به. وكان مبدعاً حقّاً في انتقاء الممثّلين والممثّلات، وإعدادهم. من ذلك أنه طلب من الشاب سمير جبارة، الذي اختاره لدور الكاهن الشاب والثائر، أن يُكثِر من زياراته لي، كي يراقبني في جميع تحركاتي وحركاتي وأقوالي، فيتقن تقمّص شخصيتي على المنصة. وعُرضت المسرحية على مسرح الأرمن الكاثوليك، طوال أسبوع، ولاقت نجاحاً ملحوظاً. وقد خصها الصحفي الفلسطيني "كميل حوا" - الذي استغرب يومها تركيزي على نار الطائفية الكامنة تحت الرماد - بصفحة كاملة في جريدة "المحرّر" البيروتيّة، بتاريخ 1972/7/19. وحضرها كثيرون، كان على رأسهم البطريرك مكسيموس حكيم، إلا أنه خرج من منتصف المسرحيّة، دون أن أحاول البتّة معرفة سبب خروجه. كما أنّ السفير البابوي في دمشق آنذاك، المطران الفرنسي "اشيل غلوريو" (Achille GLORIEUX)، حضرها كلّها، فيما كنت أساعده بترجمات وجيزة شفهية، على متابعة العمل المسرحي، وقد أعرب لي عن سروره بها.

كان من الممكن أن يتوقّف هنا تأثير "المدينة المصلوبة"، كما انتهى تأثير "ليتك كنت هنا" قبل سنتين. إلا أنّ ما حدث فيما بعد، أطلقها وأطلق فرقتنا معها في مسار

جديد. ذلك بأنّ وزارة الثقافة أعلنت عن تنظيم مهرجان مسرحي للهواة، في دمشق، على مسرح القبّاني، في مطلع عام 1973. ولما لم يكن في دمشق أي فرقة مسرحيّة من هواة سوانا، طلبت من فرقتنا أن تمثّل دمشق في هذا المهرجان. وأقيم المهرجان، وقُدّمت العروض، وكان العرض يقدّم مساءً، وفي صباح الغد، كانت جلسة النقاش والتقويم تجري علناً، وما كان أحد يُمنع من حضورها. وكان على رأس اللجنة التحكيمية علي عقلة عرسان وغيره من الكتاب المسرحيّين والمخرجين والنقّاد. وعند افتتاح الحوار حول "المدينة المصلوبة"، كان أوّل المتحدثين "ممدوح عدوان"، وكنت أقرأ له بشغف، إلا أني ما كنت أعرفه شخصيّاً. ولقد علقت في ذاكرتي كلماته الأولى بحرفيتها. قال: "كلكم تعرفون أن الدين بالنسبة إلي، هو "out" (أجل هكذا قال!). إلا أنّ الدين، كما يطرحه الأب الياس في هذه المسرحية، أنا أتقبّله"... وتابع طويلاً يمدح النص والإخراج والتمثيل... وختم بقوله: "مأخذي الوحيد على الأب الياس، أنه سيرغمني بهذا النص، على التوقّف عن كتابة مسرحيّة بدأت بها، لئلاّ يُقال إني سرقت موضوعها منه". فنهضت وتقدّمت من ممدوح وعانقته بشكر وحرارة... وقد بتنا منذ ذلك اللقاء صديقين متحابّين، متساندين حتى وفاته المبكّرة... حتى إنّ السيّدة زوجته، عندما شاءت عام 2011 أن تقوم بمبادرة أدبيّة جديدة، في عملية إعادة طباعة بعض النصوص المسرحية، شاءت أن تختار من جديد مسرحية "المدينة المصلوبة".

وفي عودة إلى المهرجان، يطيب لي أن أقول إنّ مسرحية "المدينة المصلوبة" نالت الجوائز الأربعة الأولى، وهي جوائز أفضل نص، وأفضل إخراج، وأفضل ممثّل، وأفضل ممثّلة، بالتساوي مع نص لمن بات صديقاً آخر لي، هو فرحان بلبل. ونالت أيضاً مكافأة مزدوجة من وزارة الثقافة. أولاهما كانت مكافأة مالية ضُمّت إلى صندوق الفرقة الهزيل، والثانية كانت طباعتها من قبل وزارة الثقافة. ويسرّني أن أضيف أن طباعة هذا النص خوّلني الحصول على عضوية في اتحاد الكتاب العرب منذ عام 1973، وبالتالي على الانخراط في مختلف فعالياته الثقافية والأدبيّة حتى اليوم، ولا سيما في جمعية المسرح أوّلاً، ثمّ في لجنة القراءة، وجمعية الترجمة. وقد أتاح لي كلّ ذلك، التعرف على العديد من الكتّاب والباحثين، وعلى نشوء علاقات مودّة وصداقة مع الكثيرين منهم، بل على نشوء تعاون مع بعضهم. وإني لأذكر منهم الصديق علي عقلة عرسان، الذي كلّفني عام 1979، إذ كان أميناً عاماً لشؤون المسرح في وزارة الثقافة، ترجمة تاريخ المسرح بأجزائه الخمسة، لمؤلّفه "فيتو باندولفي"، وقد بات هذا الكتاب المترجم، مرجعاً أساسياً، بعد أن أنهت وزارة الثقافة السورية، طباعة آخر جزء

منه عام 1989. كما أذكر منهم الصديق المرحوم صميم الشريف، الذي قدّم لنا في جوقة الفرح على مدى سنوات، دعماً ونصحاً ثمينين جداً، في محبّة وأريحية لا مثيل لهما. وأذكر أيضاً الصديق سعدالله ونوس، المبدع المسرحي الكبير، الذي عرفته طويلاً، حتى إبان إقامته في باريس، والذي تعاونت معه يوم كان مديراً لمجلة "الحياة المسرحية"، والصديق الصدوق، الكاتب والباحث المسرحي، د. رياض عصمت.

وتتمّةً للمسار المسرحي، أذكر أنّ فرقة "هواة المسرح العشرون"، قدّمت قُبيل حرب تشرين بأيام، عام 1973، مسرحية "السؤال" لهارون هاشم الرشيد، على مسرح صالة الحمراء. وفي مطلع عام 1974، قدّمت مسرحية "المسيح يصلب من جديد"، المستمدة من رواية "نيكوس كزانتزاكي". والتي أعدّها مسرحيّاً، أحد الكتاب الفرنسيين، وقد ترجمها إلى العربية الكاتب المصري (شوقي جلال عثمان)، وقد تألّق فيها بدور الكاهنين "موفق فرح"، و"سمير جبارة". وفي صيف عام 1974، قامت الفرقة بجولة إلى حلب وصافيتا، حيث قدّمت "المدينة المصلوبة".

وفوجئت إبان عودتنا إلى دمشق، بهاتف من أحد الفلاحين المسلمين، المجاورين لحارتنا القديمة، واسمه "وحيد"، يدعوني فيه لزيارته في البستان لأمر هام. فسررت بالعودة إلى بساتين الطفولة، التي كنت هجرتها من زمان. وكان استقبال "وحيد" حارّاً للغاية. واستعدنا معاً بعض الذكريات القديمة. ثم اقتادني إلى إحدى زوايا حقله الواسع، وأدخلني كوخاً صغيراً ومعتماً، رأيت فيه إنساناً مُمدّداً على حصيرة رقيقة، وقد تكوّم على نفسه، فانحنيت وحدّقت فيه، فأرعبني وجهه من شدّة احتقانه وازرقاقه، وكان يبدو في ما يقارب الستين. فحاولت أن أكلّمه، فما كان ينطق بكلمة، وهو يختلج... وعلمت من وحيد أنه مسيحي يدعى جوزيف، وقد أشفق عليه إذ رآه منذ أيام مرميّاً عند حدود بستانه، فساعده على الوصول حيث هو. وكان خلال الأيام السابقة، يقدّم له ما كان يحتاج إليه من طعام قليل وماء. إلا أنه عندما تدهورت حاله، رأى أن يخبرني. فشكرت "لوحيد" صنيعه... وأسرعت إلى المشفى الفرنسي القريب، ورجوت الرئيسة الراهبة قبول مريض مدنف وفقير، ليس له مكان يموت فيه ميتةً لائقة. فرحّبت على الفور. وقدّمت له كل العناية الضرورية، فاستعاد بعد يومين قدرته على الكلام البطيء، وعلمت مَن هو ومَن أقرباؤه، وإذ بهم عائلة ثرية من دمشق، تهوى القمار. ولمّا كان غير متزوج، وأدمن المسكرات، طردوه من أشهر، وبات يتنقّل من مكان لمكان، حتى أشفق عليه "وحيد"، وآواه في الكوخ الذي وجدته فيه. وكان يعلّق في عنقه أيقونة صغيرة جداً للسيدة العذراء، وقد أصرّ على تقديمها لي، وهو

يقول ويردّد: "ما عدت بحاجة إليها. لأني رايح لعندها!". وأخبرت ابن أخته، وكان معروفاً في دمشق، و... صديقاً لي! ولكن لما وصل ابن أخته إلى المشفى، كان خاله قد فارق الحياة... فسعينا لدفنه دفناً لائقاً. ولكنّا كنّا في مأتمه، بالإضافة إلى الرجال الأربعة، الذين يمثّلون جمعية دفن الموتى، والذين حملوا نعشه، كنّا ثلاثة رجال فقط: أنا وابن أخته، وبواب المشفى، ذاك العملاق الحنون، الذي كنّا نناديه، يوم كنا أطفالاً نسرح ونمرح في حدائق المشفى، "عمّو انطون".

هذه الحادثة جثمت على فكري وقلبي وصلاتي، فترة طويلة، حتى جاء يوم شعرت فيه، كما في أعمالي المسرحيّة السابقة، أنها اختمرت عملاً مسرحيّاً متكاملاً. فمضيت إلى صافيتا، وكتبتها في أيام قليلة، وسمّيتها "الأدغال". فأخذها صديقي سمير سلمون، وبدأ بالعمل على إعدادها على طريقته، وجاءت ظروف اضطرتني للتغيب عن دمشق... وغابت بذلك مسرحية "الأدغال"، وظلت نصّاً مكتوباً حتى اليوم.

وفي صيف عام 1975، شدّني الحنين من جديد إلى صافيتا، وفي أعماقي موضوع الصراع الطبقي، الذي كنت حملته من حياة صديقي الكاهن الإيرلندي، الذي اختار أن يعيش مع الفقراء في الأرجنتين، يوم التقيته فيها، إبان جولتنا مع البطريرك، والذي كان قد حدّثني عمّا كان حدث له يوم كان كاهناً في بلدة تُدعى "كوجا". وفي صافيتا، عدت فكتبت نصّاً جديداً، أطلقت عليه عنواناً غريباً، هو "الطريق إلى كوجو"، وقد رأيت في هذا الاسم، رمزاً لكلّ مكان يقوم فيه صراع بين الأقوياء والمستضعفين. وكان لهذه المسرحية أن لاقت نجاحاً مرموقاً، يوم قدّمتها أيضاً فرقة "هواة المسرح العشرون". وقد تبنى اتحاد الكتاب العرب هذه المسرحية، وطبعها عام 1976.

ثمّة حادثة تتشبّث بذاكرتي كلّما تذكرت الفترة التي أمضيتها مع أخي وصديقي سمير سلمون، في الإعداد لهذه المسرحية. فقد أربَكَته فيها، على شجاعته الأصيلة، عبارةٌ يقول فيها بطلُها، الأب "ديوني"، في لحظة غضب: "تفوه على بلاد لم تعد تُحكَم إلا من وراء الأقبية!" وكان سمير كثيراً ما يريد لي أن أستبدلها أو ألغيها كليّاً، خشيةً منه على منعها من "المراجع المختصة!". إلا أني كنت أصرّ على الاحتفاظ بحرفيّتها وفي موقعها... وأخيراً راهنّا معاً على الإبقاء عليها، وهكذا كان في جميع العروض، وفي النص المطبوع!...

في هذه الأثناء، أنشأت وزارة الثقافة "المعهد العالي للفنون المسرحية"، في دمّر البلد عام 1977 - 1978. وفي مطلع عام 1978 - 1979، كلّفني الأستاذ أديب اللجمي، إذ كان أميناً عاماً لهذه الوزارة، تدريس تاريخ المسرح فيه، إلى جانب اللغة الفرنسية.

فاستعنت بمكتبتي المسرحيّة الغنيّة، لأبيّن للطلاب حقيقةً تاريخيّةً لا يجوز الاستهانة بها، وقد رافقت مختلف مراحل التطور المسرحي، بدءاً من بداياته الكبرى مع المسرح الإغريقي، وهي أنّ المسرح كان دائماً فسحةً لمعركة الحرية، التي خاضها الإنسان ضد طغيان السماء أولاً، ثم ضد طغيان المتجبّرين في الأرض. وقد اخترت للطلاب يومذاك نموذجاً خارقاً، هو مسرحية "انتيغونا" للمسرحي الإغريقي "سوفوكليس". إلا أني، ما إن بدأت أطالع ترجمتها العربية، في سلسلة "المسرح العالمي"، الصادرة عام 1973، عن وزارة الثقافة بالكويت، وكانت من ترجمة وتقديم الدكتور علي الحافظ. حتى فوجئت بحقيقة أخرى، لا يكاد مثقّف أن يصدّقها: وهي أنّ الترجمة العربية لا علاقة لها، لا من قريب، ولا من بعيد، بنص "سوفوكليس"، كما ورد في ترجمة فرنسيّة مشهورة، وكما تبيّن لي في عودتي إلى نصّها اليوناني الأصلي. ويومها، وجدتني مضطرّاً لأبيّن لطلاب المعهد، مدى ما يمكنه أن يُرتكب من خيانات، بحقّ الحقيقة التاريخية والأدب عموماً، والأدب المسرحي خصوصاً... باسم المال وبسبب المال! ولكم كنت مرتاحاً مع الطلاب، الذين بات بعضهم نجوماً بعد سنوات قليلة، مثل جمال سليمان وفايز قزق وأيمن زيدان وزياد سعد، وهشام كفارنة، وعجاج سليم، وعبد الحكيم قطيفان، وجيانا عيد ووفاء موصللي، وانجي اليوسف، وفيما بعد مع الممثلين جهاد سعد ونضال سيجري وعباس النوري... وقد عاد عليّ تدريسي في المعهد بصداقات غالية مع العديد من أساتذته، مثل المرحوم فواز الساجر ورياض عصمت وهيثم حقّي... إلا أنّ وضعي الصحي اضطرّني على مضض، لتقديم استقالتي، في منتصف العام الدراسي، في رسالة كتبتها للأستاذ أديب اللجمي، وأرفقها بملحق هذا الكتاب، وهي بتاريخ 1979/1/9.

وفي متابعة لهذا المسار الثقافي، يطيب لي أن أذكر أيضاً مرحلتين أخيرتين، كانت أولاهما نصّاً تاريخيّاً قرأته في باريس في صيف عام 1984، في مجلّة علميّة، هي (HISTORIA)، وهو يتحدث عن أواخر عهد الإمبراطور الروماني كومموديوس. فلم أصدّق وقائعه لشدّة تطابقها مع بعض من تاريخنا العربي المعاصر. وكان ما أثار الشك لديّ في صحة هذه الوقائع، أنّ كاتب المقال، كان "آرثر لورنتس" (Arthur Laurents)، وهو صاحب الفلم الأميركي الشهير "West Side Story" (قصة الحي الغربي). فأحببت التثبّت من دقّة معلوماته، واشتريت على الفور أحدث ما صدر باللغة الفرنسية، حول تاريخ روما. وإذا بالأحداث تتطابق على نحو مدهش، وحتى في بعض تواريخ هذه الوقائع. فاستقرّ الموضوع في عقلي منذ ذلك الحين. وأخذ يختمر

كالعادة، حتى شعرتني ذات يوم من صيف عام 1985، جاهزاً للكتابة. فقصدت على الفور صافيتا، وهناك كتبت النص في أيام قليلة، واخترت له عنواناً هو "وجبة الأباطرة"، تاركاً القارئ في حيرة من أمره، ليعرف ما إذا كانت الوجبة تعني الأباطرة بالذات، أم هي تعني ما يلتهمه الأباطرة من شعوب... أما موضوع المسرحيّة، فكان قيام الحرس الإمبراطوري، أيام الإمبراطور الروماني كوموديوس (180/192)، بمحاولة جذرية لإنقاذ الإمبراطورية ممّا ضربها من فساد عام ومستشرٍ، بات يهدّد وجودها، فقضوا على كومودیوس، وسلّموا مقاليد الحكم لمحافظ روما السابق، واسمه "برتيناكس"، وكان عسكريّاً مشهوراً بنزاهته الخارقة. إلا أنّ الفساد كان الأقوى. فقام قادة الحرس الإمبراطوري إيّاهم، أولئك الذين كانوا قد رجوه اعتلاء العرش، بقطع رأسه، والإعلان عن مزاد علني جرى في معسكر الحرس الإمبراطوري بالذات، وبيعت فيه الإمبراطورية لمن كان الإمبراطور كومودیوس نفسه، قد نفاه من روما، لما كان يُعرَف عنه من فساد فاحش ووقح!

هذه كانت مسرحيتي الجديدة. وقد أعجبت كثيراً صديقي سمير سلمون. إلا أنه استبعد الموافقة عليها من المراجع المختصة. فحملتُ ثلاث نسخ مخطوطة منها، لكل من انطون المقدسي وأديب اللجمي، يوم كانا في وزارة الثقافة، ولعلي عقلة عرسان، يوم كان رئيس اتحاد الكتاب العرب. فنصحني الثلاثة، بعد مدّة، بإخفائها. ثم كان أن اتصل بي، بعد فترة، علي عقلة عرسان، وطلب نسخة منها من جديد. وإذ به يُعلمني بعد فترة أخرى، أنه قرّر طباعتها. فلم أسأله من هم الذين اتّخذوا القرار، لئلا أعقّد عليه الأمور. وكان جلّ مبتغاي أن تُطبع المسرحية، وتُرمى في الأسواق. إلا أنه عاد بعد مدة واتصل بي، فالتقينا، وكان يريد مني أن ألغي المشهد الأخير من المسرحية، وهو مشهد بَيْع الإمبراطورية في المزاد العلني. وهنا كان رفضي قاطعاً، وقلت: "إما أن تطبع المسرحية بنصها الكامل، وإما أن تلغى طباعتها". فعاد وقرّر الاستمرار في طباعتها. وعندما نزلت إلى الأسواق عام 1985، حملت نسخة منها إلى كل من أنطون المقدسي وأديب اللجمي، ففوجئا وسُرّا في آن واحد. إلا أنها لم تعرض حتى اليوم، لا في دمشق، ولا خارج دمشق. ويسرني أن أضيف أنها حتى اليوم، لم تحظَ بإذن السماح بعرضها، على الرغم من الجهود التي بذلها، في فترات متباعدة، كل من المخرجين سمير سلمون وسهيل شلهوب وعجاج سليم. والصحيح أنّ مسرحياتي السابقة الثلاث قد وجدت من خصّها بدراسات جادّة، مثل نصر الدين البحرة، ورياض عصمت، ونديم محمد، وخالد محي الدين البرادعي، ورياض نعسان آغا، ووليد فاضل، وعبد الإله الرحيل... إلا أنّ

أجمل ما سمعت من الصديق الكاتب علي كنعان، قوله لي على الهاتف: "أب الياس، ألست متشائماً بإفراط في وجبة الأباطرة؟". فسألته بدوري: "وهل تعتقد أنّ الواقع العربي يختلف كثيراً عمّا انتهيت إليه؟". وإنّ لفي ما يحدث منذ سنتين، على نطاق العالم العربي عامة، وسورية خاصة، ليؤكّد لي على نحو مفجع، ما كنت حذّرت منه في "وجبة الأباطرة".

وأما المرحلة الثانية والأخيرة في مسيرتي المسرحية، فكانت متابعتي لترجمة الأجزاء الخمسة من تاريخ المسرح العالمي، التي كانت وزارة الثقافة كلفتني القيام بها منذ عام 1979. وقد أنجزت هذا التكليف عام 1989، بطباعة الجزء الخامس منه. وقد غمرني يومها شعور عارم بالسعادة الأدبية، لأني كنت بذلك أساهم في سدّ ثغرة في نطاق الثقافة المسرحية في العالم العربي عامة، وأعوّض من ناحية أخرى، عمّا منعتني حالتي الصحية، من القيام به من واجبي التعليمي والتثقيفي، حيال طلابي في المعهد العالي للفنون المسرحية.

وهنا لا بدّ لي من أن أجيب على العديد من التساؤلات التي طرحها عليّ أصدقاء كثيرون، حول توقّفي عن كتابة نصوص مسرحيّة جديدة. والحقيقة أنّ "المادة المسرحية" متوفّرة في جميع جنبات الحياة في سورية. وكثيراً ما كان بعضها يضجّ ويتزاحم في أعماقي، غير أني كنت قد اتخذت قراري بهذا الشأن. فأنا لست ممّن يقولون نصف الحقائق، وكنت أستشعر تفاقم التضييق على الإبداع الأدبي والفني. وكنت أرى من جانب آخر، تزايد الهجرة عند حملة الشهادات والمواهب. وما كنت أريد لدربي العام أن يُبتر بإجراء تعسّفي، يحول دون مضيّي فيه حتى النهاية التي يحدّدها لي الله وحده، لا البشر. وكان من أقسى ما سمعته بهذا الشأن، في تلك الفترة عينها، كلمة قالها لي أحد المثقّفين الشبّان، وقد أتى ليودّعني بدوره. وقد قالها لي ردّاً على سؤالي له حول ما يدفعه إلى الهجرة. قال:

"يا أبونا، يؤلمني أن أقول إنّ حذاء أصغر جندي في وطننا، في حلق أكبر مثقّف!"...

في العاشرة من عمري... أمّي "ماري زينيّة"

صورة لوالديّ مع أخي ميشل وأختي جوزيفين (لوسي) وولدَي خالي نقولا، ميشل وميمي

الراهبة لوسي (جوزفين)

أخواتي الأربع: نور – روز – رينيه (واقفة).

أخي ميشيل وزوجته سميرة

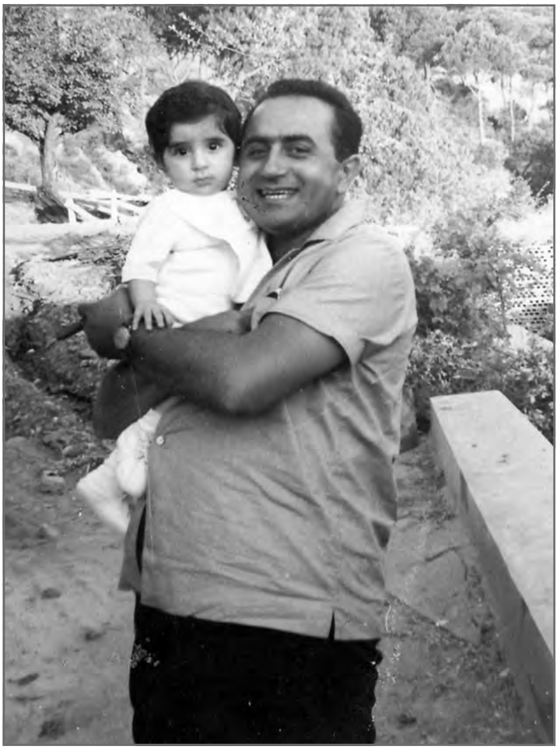

صديق الطفولة جورج حمصي وطفلته ميريه

كنيسة سيدة دمشق التي دُشِّنت عام 1975

مع صديقي الدكتور فايز حوش، في حديقة فيلا السيد أكرم الميداني، قبل أن تحل محلها كنيسة سيدة دمشق

الفتى جان رانديامامونجي

مع مجموعة من الطلاب في رياق، خلال رحلة يتوسطنا الأب ميشل بدين.

مع مجموعة من الطلاب في رياق، في إحدى الرحلات.

القداس الإلهي في كنيسة الصلاحية، يحتفل به المطران ميخائيل عساف، وفي عمق الصورة الأب بيير دوبريه والأب موريس بلونديل، رئيس الدير

صورة من داخل كنيسة دير القديسة حنة (الصلاحية) بالقدس.

صورة في دير الصلاحية للآباء البيض وطلاب الفلسفة واللاهوت، ويتوسط الصورة مرشدي الأب بول ترنان.

مع بعض من شبيبة دمشق يتوسطهم الأب الياس صارجي، في رحلة إلى القدس عام 1965، أمام كنيسة القديسة حنة (الصلاحية)

في مغارة كنيسة المهد في بيت لحم، خلال الرحلة نفسها.

القداس الإلهي يترأسه البطريرك مكسيموس الخامس الحكيم، خلال مؤتمر إكليروس الروم الكاثوليك في دير يسوع الملك عام 1968.

في مدينة روزاريو مع البطريرك الحكيم، خلال رحلتنا إلى الأرجنتين – تشرين الثاني عام 1969

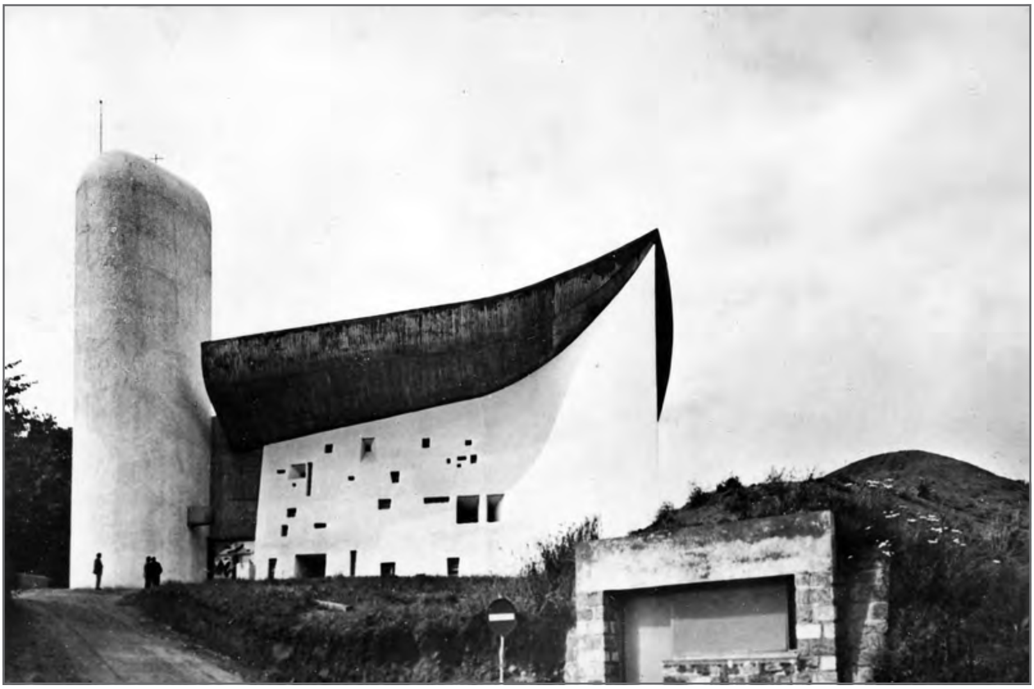
الكنيسة الشهيرة في بلدة رونشان (RONCHAMP) بفرنسا من تصميم المهندس "لوكوربوزييه"

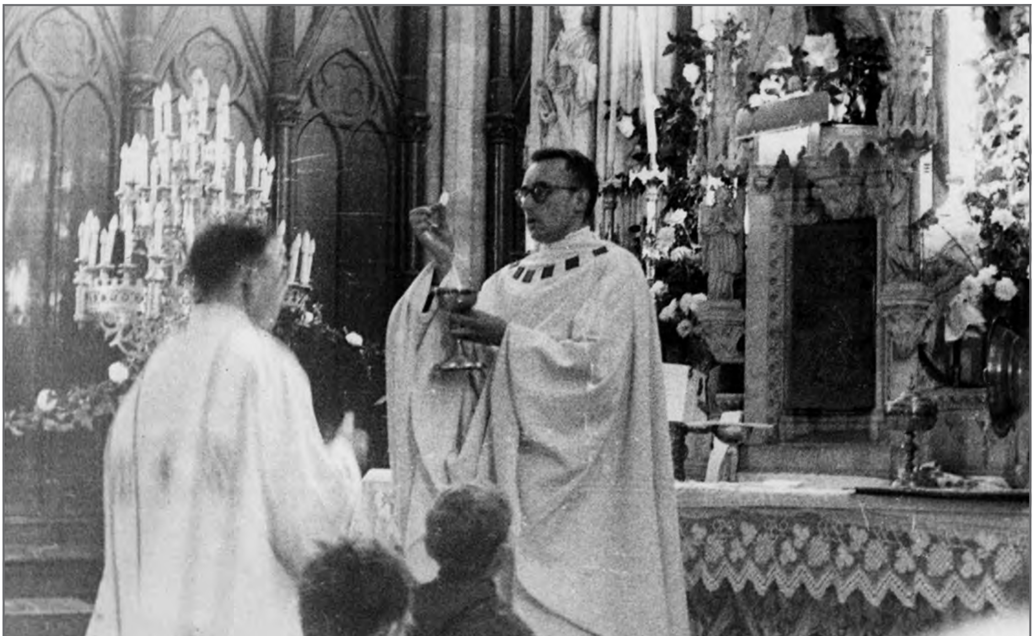
صديقي الأب الفرنسي موريس اجرمان، يحتفل بالقداس الإلهي في كنيسة بلدته رونشان.

مع الأبوين يوسف صقر وجورج جبلي في دير صافيتا، في صيف عام 1966

مع جلال فاروق الشريف، واسماعيل عامود، وسامي شلهوب، في مدينة "درسدن" في ألمانيا الشرقية، عام 1979

"هواة المسرح العشرون" في مسرحية "السؤال" للكاتب الفلسطيني هارون هاشم الرشيد، على مسرح سينما الحمراء بدمشق قبيل حرب عام 1973

صديقي المخرج سمير سلمون مع بعض المسرحيين، بعد عرض مسرحية "السؤال"

"هواة المسرح العشرون" في مسرحية "المدينة المصلوبة"، على مسرح أبي خليل القباني عام 1972

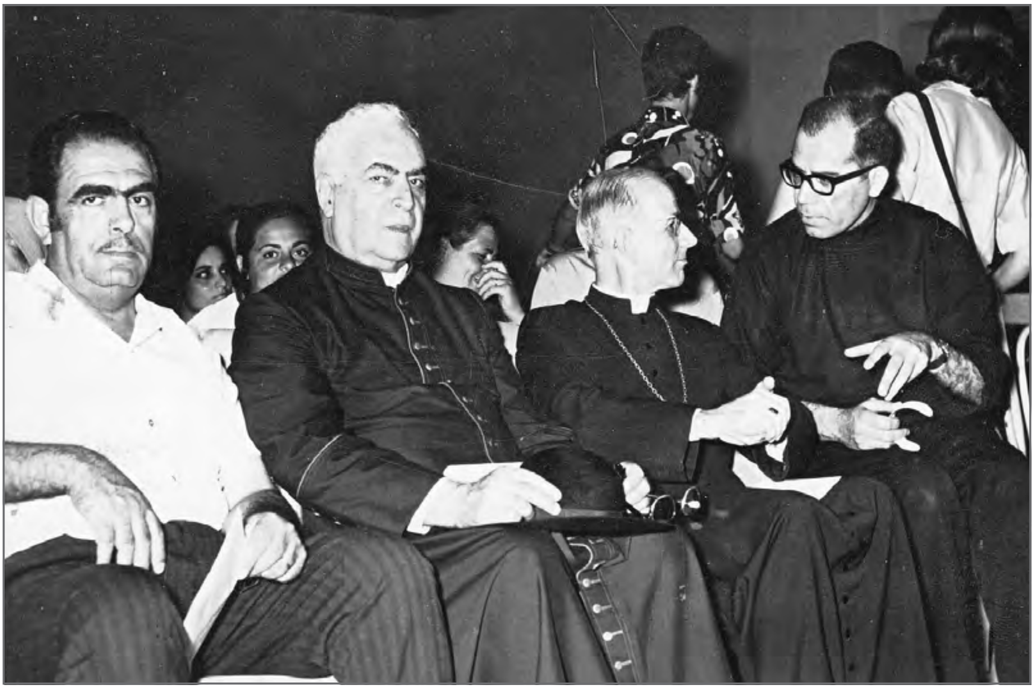

السفير البابوي المنسنيور اشيل غلوريو (Achille GLORIEUX)، والمطران الياس كويتر خلال عرض مسرحية "المدينة المصلوبة"

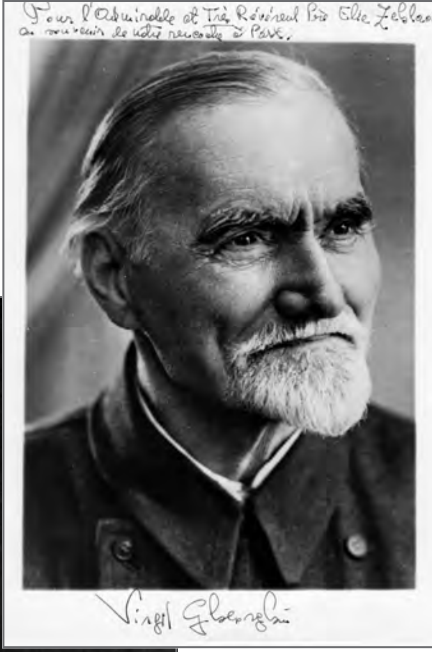

الكاتب الروماني الأب فيرجيل جيورجيو
ووالده، في صورتين أهداني إياهما.

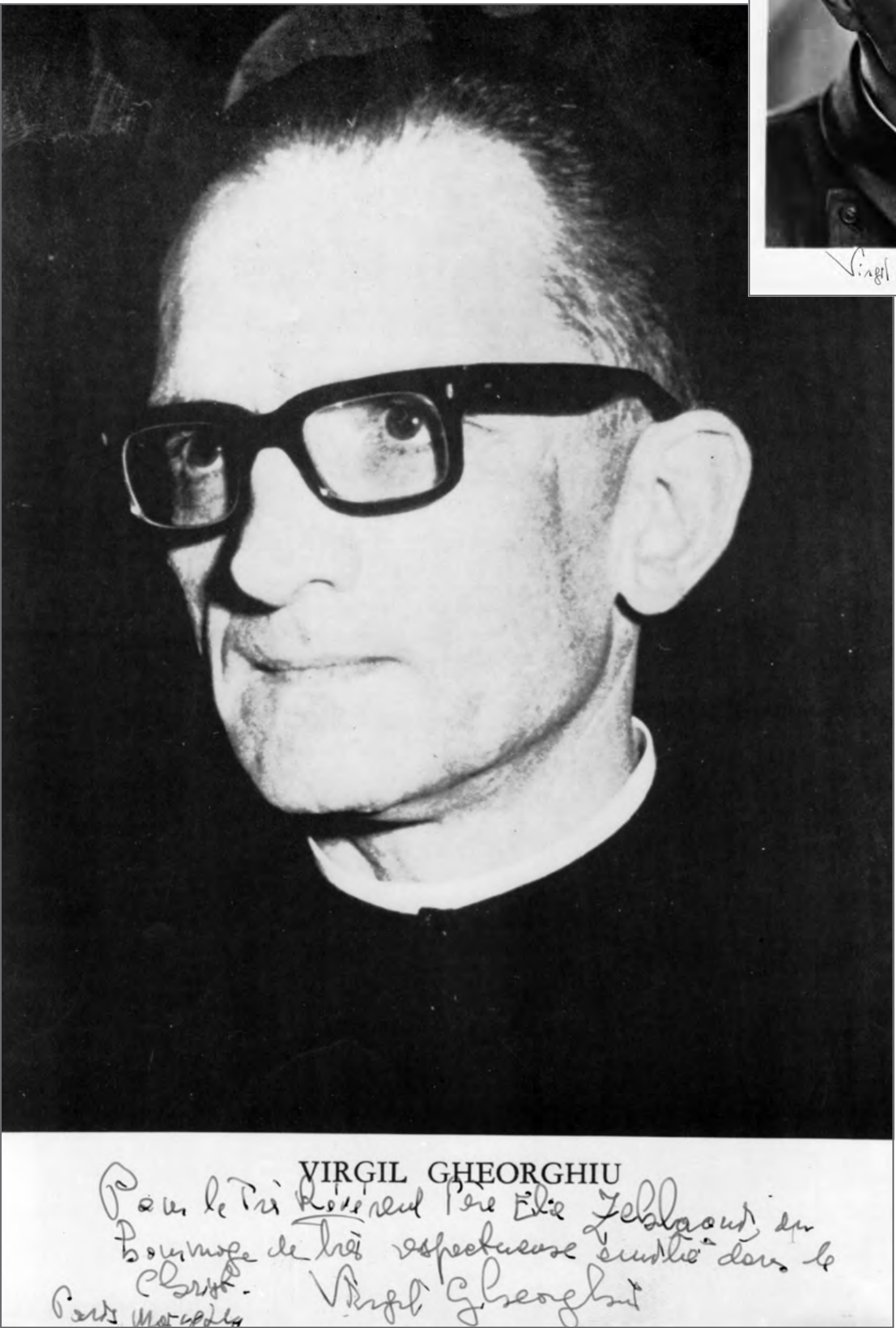

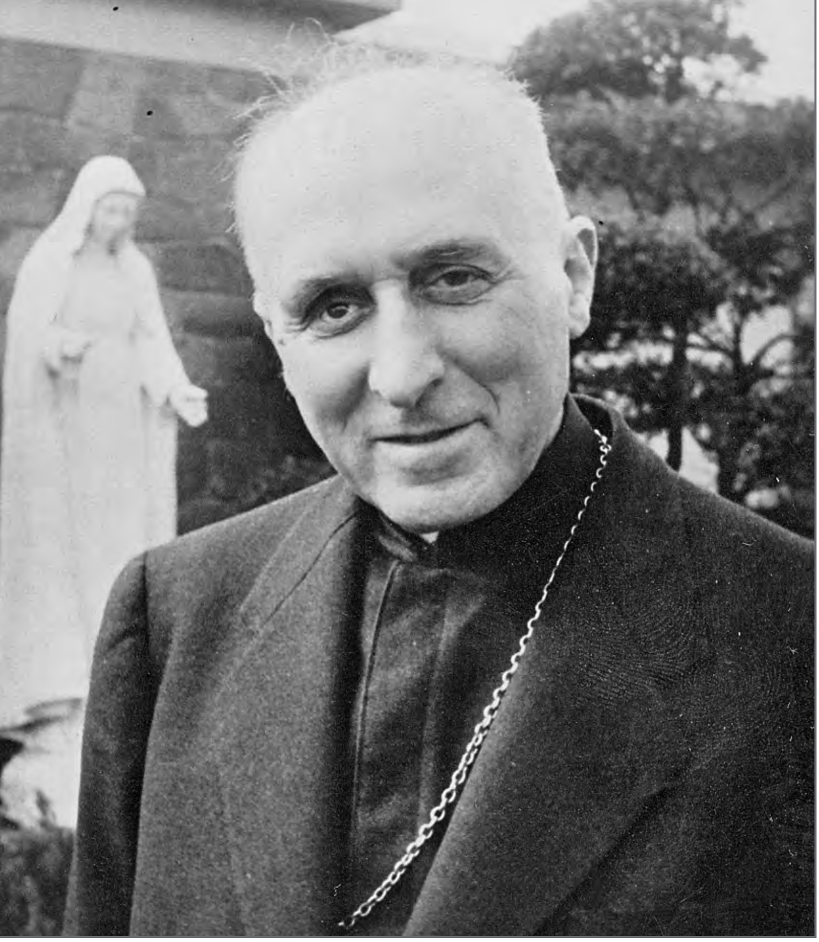

المطران "ألفريد أنسل"
(Alfred ANCEL)

الأب "جاك بوديــه"
(Jacques BODET)

مع الرئيس جمال عبد الناصر
بتاريخ 10 أيار 1970

مؤتمر مرشدي الشبيبة المسيحية في البلاد العربية والافريقية في القاهرة، خلال زيارتنا لمنطقة العبور في قناة السويس، عام 1974

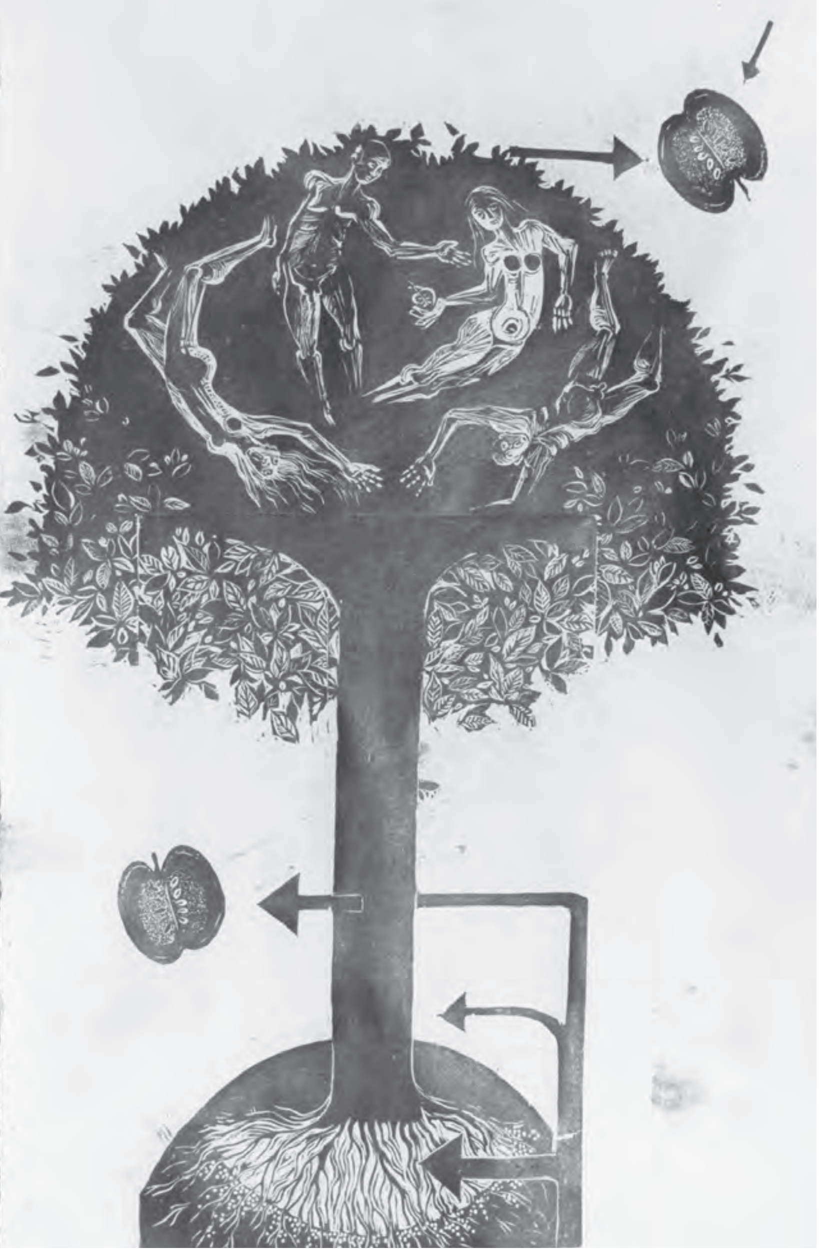

الفنانة التشكيلية البرازيلية يارا توبينامبا...   وإحدى لوحاتها من مجموعة "الخلق"

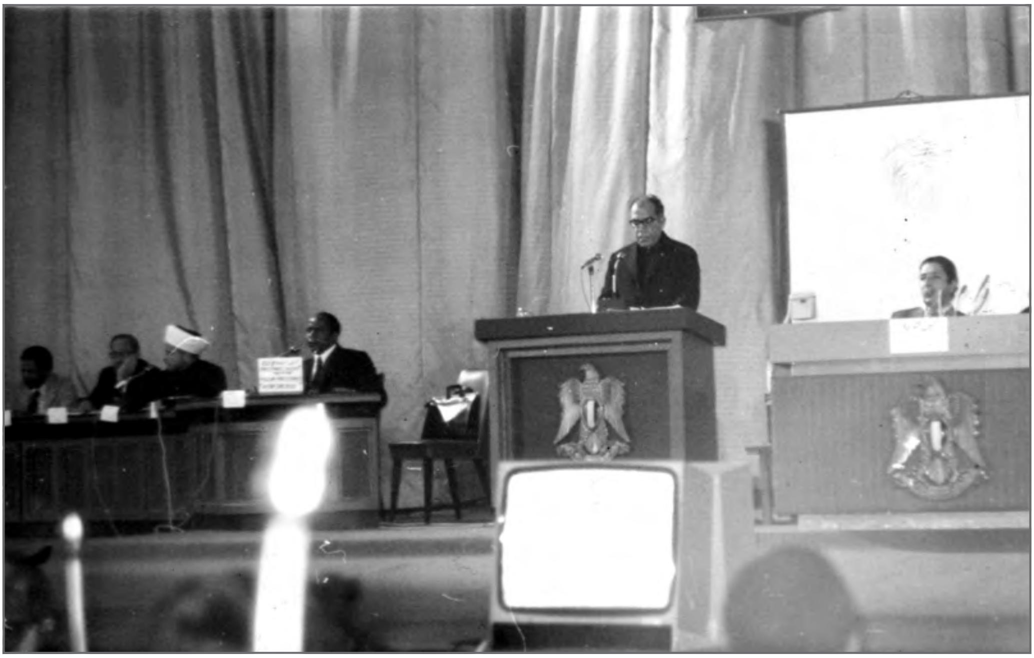

خلال تلاوتي المرتلة للإنجيل في ختام مؤتمر الحوار الإسلامي المسيحي، الذي عقد في طرابلس الغرب عام 1977

مع مفتي يوغسلافيا إثر ترنيمي الإنجيل المقدس في ختام المؤتمر

الصبية سميرة العيد، تقدم الحلويات محمولة بيديها الاصطناعيتين في "قاعة السواعد"، مطلع عام 1982

السيد هنري كبريتة وزوجته انطوانيت سويد في كندا

صديقي عزيز عابدين، مدير الإفتاء في وزارة الأوقاف، في سبعينيات وثمانينيات القرن الماضي

احتفال في أسرة الرعية الجامعية، خلال عام 1974، بتحرير العقيد الطيار عدنان حاج خضر والمقدم الطيار غازي أديب. ويبدو إلى يمين الصورة المطران همام جحاوي وإلى يسارها المطرانان الياس نجمة وبولس كوسا

طاقم مسرحية "سيدة الفجر" من أسرة الرعية الجامعية، مع مخرجها الدكتور عجاج سليم بعد العرض

مشهد من قداس لأسرة الرعية الجامعية في قاعة السواعد

في أحد لقاءات أسرة الرعية الجامعية، ويبدو الدكتور جاك توماجيان يوم كان شاباً... ملتحياً

مع جورج حورانية وأسرته، وروجيه كحيل في دير سيدة صيدنايا

مع أمين عام وزارة الثقافة السويسرية، "أوجين ايجر" والسيدة زوجته "توليا"، وابنتهما الدكتورة "دومينيك"، في منزلهما الجبلي في بلدة لونجيرو، بالقرب من جنيف، عام 1984

مع مراسل التلفزيون البلجيكي السيد جوزيف مارتان

الدكتور سمير أزرق ووالدته وزوجته السيدة جيسي وأولادهما

المدينة العظيمة كما بدت لي لأول مرة، من منعطف قرية "أبو ديس" عام 1945

مع المنشد الشيخ حمزة شكور في مكتبي السابق

قاعة السواعد 1977 – 1978

أثناء العمل في القاعة وبجانبي سمير زهر
ابن أختي روز

المهندس ادكار زكرت مشرفاً... وعاملاً في الورشة

همة الشبيبة تتضاعف، كلما علت أكوام الحجارة والأتربة

بعض شبان وشابات أسرة الرعية الجامعية في استراحة قصيرة خلال العمل

فرسان المحبّة

مؤسس "فرسان المحبة" ناجي سابا، وشقيقه رامي مع عائلتهما

فرسان المحبة، في جلسة تأمل وصلاة، خلال أحد المخيمات

بعض من فرسان المحبة في أحد المخيمات

المطران الياس كويتر مع أخيه بشارة، يتوسطهما ابن أخيهما الأكـــبر، جورج في ديترويت

مع الصديق الأميركي هارولد روسيني، وكاهن رعيته الفرح بوضع تاج البطريرك على رأسه.

مع الأب عادل تيودور خوري وميرنا وصديقي سعيد خوري، وأبو سركيس حارس دير سيدة الفرح في كسب، عام 1991.

بعض المشاركين في مؤتمر سيدة الجبل حول الوجود المسيحي في الشرق العربي بين 13–16 نيسان 1999 في دير سيدة الجبل.

مع الأب "بيير فو" في زيارة لمطرانية خبب – 1990

الأب الإيرلندي الصديق دنيز فيتزباتريك

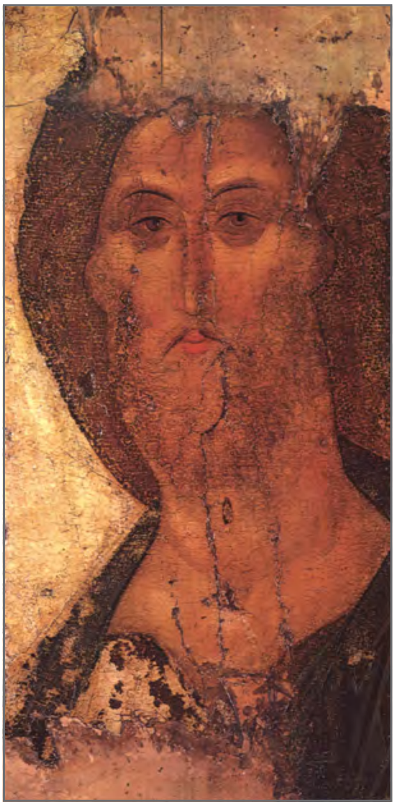

منحوتة الفنان فؤاد أبو عساف
وأيقونة أندريه روبلوف

صديقي الضاحك دائماً، الدكتور رولان غانم مع زوجته ميشلين إلى يمينه، وشقيقتها ريتا.

الدكتور رياض حنا وزوجته كلوديا، في عمادة ابنتهما الصغرى كريستين، مع بعض الأهل، بتاريخ 1991/9/18

عائلة صديقي أحمد الخطيب في سورية والمهجر

عبدالله القائد وسعيد طحان وباسل سيوفي

الأديب والمفكر العربي انطون المقدسي...
يصلي أمام الأيقونة العجائبية في الصوفانية

حديث للمفكر العربي أنطون المقدسي في أسرة الرعية الجامعية

مع "الأب بيير" وصديقي الكاتب المبدع أديب مصلح

مع الشاعر أدونيس في منزله الكائن في بلدة القصابين

مع ماري خوري في باريس والسيدة شارلوت أمورو

من كهنة البرادو، الآباء: مسعود مسعود وميشل سونييه (فرنسي) ويوحنا جاموس وحكمت بيلونة

الفنان الياس زيات في مرسمه، لحظة الانتهاء من رسم غلاف هذا الكتاب.

أطفال جوقة الفرح في ضيافة الأب الياس يعقوب في بلدة الخراب

مع المطران إيلاريون كبوجي في مكتبي السابق، تعلونا قبة الصخرة وخريطة فلسطين.

"الواقع والمصير"... محاضرة اشتركت فيها مع الدكتور أحمد بدر الدين حسون، يوم كان مفتي حلب، في المركز الثقافي بحلب، بتاريخ 2003/3/24، وقد أدار الندوة الدكتور عبد الهادي نصري.

ما أجملك... يا سورية!

أطفال جوقة الفرح يفتتحون مهرجان العالم العربي في مركز جون كينيدي – واشنطن 2009/2/24

احتفال جوقة الفرح بعيد الميلاد، في دار الأوبرا بدمشق، عام 2009 بعنوان « تتلج حب »

مع بعض أفراد جوقة الفرح، احتفالاً بنجاح العملية الجراحية في عيني، في أحد المطاعم.

من حفل تكريم جوقة الفرح للكبير وديع الصافي، في دار الأوبرا بدمشق، بتاريخ 2010/10/27

جوقة الفرح تخدم القداس الإلهي في كنيسة "سان برنار" في مدينة "ديجون" بفرنسا، بمشاركة الأب جان بول دوڤودو إلى اليمين والأب ريمون جاكار إلى أقصى اليسار، أثناء جولة أوروبية لها عام 1995.

مع الأب جون ستيفنسكي – ميامي 1996

الدكتور جان كلود أنطكلي وزوجته جنفييف، وابنهما الأوسط فابيان.

مع قداسة البابا يوحنا بولس الثاني عام 1989

مع الأم تيريزا في الولايات المتحدة في مركزها في حي "برونكس" في نيويورك، عام 1996

السفير البابوي "بيير جاكومو دي نيقولو"، والمطران "بهنام ججاوي" مطران القدس وعمان للسريان الأرثوذكس، في بيت العذراء في الصوفانية.

مع الأخت "سوزان ألار" وميرنا، في كندا عام 1992

قداسة البطريرك المثلث الرحمات زكا الأول عواص، في زيارته الأخيرة لبيت العذراء في الصوفانية، بتاريخ 1 أيلول 2011.

"سلاماً أترك لكم، سلامي أعطيكم"　　　　الشهيدة "إيمان حجو"

حتّامَ سيظلّ الربّ يسوع يقرعُ أبوابَ الأمم المتحدة،

ليعيدَ السلامَ إلى الأرض...

ولا سيّما في فلسطين... وطنِه؟!

الفصل الحادي عشر

مواجهاتٌ مختلفة في عالمٍ فقَدَ كلّ قيمة

في مطلع شهر كانون الثاني من عام 1972، حدث طوفان هائل في باكستان، قضى على مليون إنسان دفعة واحدة، وهدّد بالفناء مليونين آخرين خلال أيام قليلة، والعالم غافٍ، في شرقه وغربه. فتركت لقلبي وعقلي أن يقولا ما يعتمل فيهما من غضب وحزن، في مقال لم تشأ حتى صحيفة "الثقافة الأسبوعيّة" أن تنشره يومها، وهو بعنوان "طائرة يتيمة فوق طوفان". وإني لأسمح لنفسي بأن أفتتح به هذا الفصل من الكتاب، وقد ورد في كتابي "ومن الكلمات بعضها..."، في الصفحات 441-443. جاء فيه:

« **طائرة يتيمة فوق طوفان**

إعصار باكستان الشرقية.

أرهب كارثةٍ طبيعيّةٍ عرفها التاريخ البشري.

رقم الضحايا ظلّ يتأرجح، يوماً بعد يوم، حتى قارب المليون.

وأما المشرّدون... "فليسوا إلا مليونين!"...

مليون قتيل، ومليونا مشرّد في ساعات...

في ذلك ما يزلزل الإنسانيّة حتى الجذور.

توقّعتُ هبوب إعصار وجداني يوقظ خمسة مليارات آدمي، ليشدّهم بكلّيتهم، شعوراً ومالاً ومساعدات، إلى باكستان المنكوبة.

ولكنّ العالم غرق في طوفانٍ من الحزن ليس إلا.

لأنه كان غارقاً في طوفانٍ من حقارة.

وتوقّعتُ هبوب إعصارٍ إنساني يوقظ مائة وخمسين مليون عربي، ليشدّهم، على الرغم من تخلّفهم وفقرهم، إلى مَن دونهم فقراً وتخلّفاً في باكستان.

ولكني لم أسمع أنّ بلادي العربية أعلنت عن استعدادها لنجدة الإنسان في باكستان، إلا بعد خمسة أيام من حدوث الكارثة...

وقد ورد اسمها في الإذاعات مقروناً باسم إسرائيل...

وتوقعت هبّةً إسلامية شهمة تعرّي رؤساء وملوكاً وأمراء، من بعض ملايينهم، يغرقونها في طوفان شقاءٍ يهدّد الملايين من إخوةٍ لهم في العقيدة.

ولكني لم أسمع لهم ذِكراً إلاّ في اليوم الخامس إيّاه...

وفي اليوم السادس،

أجل في اليوم السادس، كانت الإذاعات ما تزال تسرد بهدوءٍ وبرود، أنباء طائرة هيلكوبتر وحيدة، تنقل المساعدات لمليوني آدميّ يتهدّدهم الجوع والعطش والوباء بفناء سريع.

الله! هذا الكون، أين قلبه؟. وما عقله؟.

طائرة هيلكوبتر يتيمة تحوم طوال ستّة أيام فوق بحرٍ من وحلٍ وجثثٍ ويأس!.

لكم ذكّرتني هذه الطائرة اليتيمة، تطير إليها بقايا آمال مليوني آدميّ،

لكم ذكّرتني بأساطيل بحريّة وجوية تُنقَل في ساعات، من أقصى الدنيا إلى أقصاها، لتطوّق بها سواحل مصر، مرّةً، ولبنان مرّةً أخرى، كوبا تارةً، وتارةً فيتنام وكوريا، بالأمس الدومينيك وتشيكوسلوفاكيا، واليوم أنغولا والتشاد... وغداً؟.

طائرة هليكوبتر يتيمة،

في الوقت الذي عادت فيه رفوف طائرات دولة يُقال إنها كبيرة، لتحجب سماء دولة يقال إنها صغيرة، وتمطر أدغالها وقراها ومدنها ناراً وموتاً ودماراً...

مليون إنسان يغرقون في الماء والوحل،

ومليونان آخران يتهدّدهما الفناء في أيام،

والدنيا العاهرة تتابع دورانها بغنجٍ وسفه.

وكانت بالأمس قد علّقت كل أنفاسها، أيام علّق بين أرضٍ وسماءٍ، ثلاثة رجال ليس إلا، ذهبوا في رحلةٍ إلى القمر...

حتى متى ستبقى الدنيا حصّة الغني وحدَه، والمتسلّط وحده؟

ولماذا تتفجّر قلةٌ، تخمةً وحقارةً، فيما الكثرة تدبّ وتنفق كالحيوانات؟.

هل تكثّف شعور بعض الناس – ومثلهم بعض الدول – حتى باتوا كالتماسيح لا تفيق إلا لتفترس؟

وبعد،

فأسبوع آخر، وينسى الجميع ما حدث...

أسبوعٌ آخر وتنطوي باكستان على نفسها، كالأُم الثكلى، تدفن أبناءهـا، وتُصلح أراضيها، وترمّم أكواخها، بانتظار طوفانٍ وحْليٍّ آخر يريح ملايين أخرى من أبنائها، من شقاء فرضه عليهم وجود "دول كبيرة"، ما أرادت من "الكبر" إلا مالاً وسلاحاً مدمّراً...

وكان عليها أن تريده مشاركةً حضاريةً نظيفةً، وتعاوناً إنسانياً شريفاً.

وحتى تستيقظ الدنيا على غضبة "الصعاليك" المحرومين، أو على طوفانٍ ذري أحمق...

هنيئاً لابن الناصرة بالمؤمنين، من بعده، بالله المحبة!.

وهنيئاً لنبي الجزيرة بالمؤمنين، من بعده، بالدين المعاملة!.

وهنيئاً لسيد الكرملين بالمؤمنين، من بعده، بالإنسان!.

وليترقّب العرب، بعد ذلك، يقظةً ما لضمير العالم!. » (انتهى)

في هذه الأثناء، ما كنت أرى في كنيستنا، بالرغم من المؤتمرات السنوية الصاخبة، التي كانت تُعقد كل صيف، منذ عام 1968، أي بوادر إيجابية، لا في طبيعة العلاقات بين السلطة الكنسية والكهنة، ولا في نطاق المعاملة المادية والرواتب، ولا في نطاق ما كنّا نطالب به، من تطورّات طقسيّة وصلوات. فكتبت مقالاً بعنوان "وفي الكنيسة فتشوا عن المال". ورحّب به الأب جورج فاخوري، مدير مجلة "المسرّة"، إلا أنه أصرّ على نشره باسمه، تلافياً لأي إجراء تعسّفي، يمكن أن يُتّخذ بحقّي. ولّما كنت أرفض اقتراحه بإصرار، على يقيني بحرصه عليّ ومحبّته لي، سألني فجأة: "هل تريد أن يُسمَع صوتُك، أم الصوت؟". فقلت: "بل الصوت!". فقال: "إذن دعني أتحمّل مسؤوليّة هذا المقال هذه المرة، يكفيك ما تحمّلت حتى الآن". ونشر المقال بتوقيع "ج. ف." في عدد آذار 1972، من مجلة "المسرة". وكان أن جاء إلى دمشق، بعد فترة، رئيس الجمعية البولسية، التي ينتمي إليها الأب جورج فاخوري، وكان يومها الأب حبيب باشا، ليراجع البطريرك في أمر يخصّ جمعيّته... فسأله البطريرك عن المقال المذكور، وعمّن يكون كاتبه. فجاءه الجواب يستند إلى التوقيع، وقال للبطريرك: "أنت تعرف أنّ الإثنين لا يهابان أحداً. فإذا كان التوقيع "ج. ف."، فهذا يعني أنه الأب جورج فاخوري". فقال البطريرك: "صحيح أنّ التوقيع لجورج فاخوري. ولكن الرائحة، رائحة الزحلاوي". ولما نقل ذلك للأب فاخوري، انفجر من الضحك، وقد أخبرني بذلك في ما بعد. إلا أنّ أحداً، كالعادة، لم يقل لي أي كلمة بشأن هذا المقال أيضاً...

وبعد أشهر، بلغني من السيّد كابي حبيب، الذي كان آنذاك مدير مكتب "مجلس كنائس الشرق الأوسط"، في بيروت، أن المجلس سينظّم مؤتمراً في لندن، في صيف عام

1972، تحت عنوان "الندوة العالمية الثانية للمسيحيين من أجل فلسطين"، وذلك في متابعةٍ للندوة السابقة، التي كانت عُقدت في بيروت عام 1970. وقد سُررتُ أيّما سرورٍ بهذا النبأ، وتوقّعت أن تُعقَد الحلقات تلو الحلقات في بيروت، أو في دمشق، أو في القاهرة، استعداداً لهذه الندوة. إلا أنّ شيئاً من هذا لم يحدث، كما أنني لم أعرف أسماء المشتركين في هذه الندوة من سورية، إلا قُبيل أيّام من انعقادها. وفي مطار دمشق فقط، أُتيح للمدعوّين أن يعرف بعضهم بعضاً. وقد كانوا: المطران اغناطيوس هزيم، مطران الروم الأرثوذكس في اللاذقية، والأب جوزيف حجار، والأستاذ انطون المقدسي، والدكتور جورج جبور، والمهندس سهيل شباط، وأنا. وسافرنا دون أن يكون بين أيدينا ما يُسمّى ملفّ المؤتمرات... وفي الطائرة، استأذنت المطران اغناطيوس هزيم، كي أجلس بجواره. وبذلك أُتيح لنا الحوار طوال أربع ساعات ونيف، حتى مطار "هيثرو" في لندن. وكان من المطران هزيم أن صارحني بادئ ذي بدء، بأنه نُقِل له عني، أني أنشئ طائفة جديدة في سورية. وأدركتُ أنه كان يعني بذلك عملي في أسرة الرعية الجامعية. فحاولت أن أبيّن له ما هو وضع جامعة دمشق، وما هو وضع الشبيبة المسيحيّة فيها، وبُعد الغالبية منهم عن الكنيسة، لا بفعل موقف مبدئي أو فلسفي أو حزبي، بل بحكم الأجواء العامة، وتأثّر الكثيرين منهم بالنزعات الغربية، وبفعل جمود في الكنيسة، يشمل علاقاتها بالناس عامة، كما يشمل طرائق طقوسنا وصلواتنا... في جميع الكنائس دون استثناء... كما أني حدّثته عن بعض الملامح الإيجابية في هذا العمل، وعمّا اكتشفته من كنوز في شبيبتنا كلّها، تحتاج إلى من يؤمن بها، ويساعدها على اكتشافها واستثمارها، في محبّة واحترام وفرح، بعيداً عن أي نزعة طائفية. وأبدى لي المطران هزيم ارتياحه، وتواعدنا على متابعة اللقاءات، بعد عودتنا إلى سورية.

وجرى المؤتمر دون أن يكون الفريق السوري قد استعدّ له بأي وثيقة. وقد تبيّن لي أنّ جميع المشاركين فيه، كانوا في مثل وضعنا نحن السوريين. ولست الآن بصدد الحديث عن نتائج الندوة، لا سيما وأنها كانت آخر ندوة مسيحية، تُعقَد على نطاق عالمي، من أجل فلسطين. وهنا أتذكّر الكلمة المفجعة التي قالها لي أحد أعظم المدافعين عن القضية الفلسطينية، وهو الصحفي الفرنسي الشهير، "جورج مونتارون" (Georges Montaron)، في جلسة هادئة جمعتني به وحدَنا، بعد جلسة عامة صاخبة... قال بحرقة قلب: "أنتم العرب، أسوأ مدافعين عن أقدس قضية"... ولكم كان محقّاً يومها، وفي ما بعده من أيام وسنوات! أما اليوم، فماذا تراه كان يقول، ونحن في شهر شباط من عام 2013؟!...

بالطبع، قد يقول الكثيرون، أنّ عملية مطار "ميونيخ"، التي أقدم عليها المقاومون الفلسطينيون في تلك الفترة بالذات، قد ضربت أجواء المؤتمر كلّها... وكذلك أجواء الغرب كلّه... قد يكون!... إلا أنّ الارتجال الذي تميّز به هذا المؤتمر، هو هو الذي يلازمنا نحن العرب حتى اليوم، في جميع ما نعمل، حتى في ما يخصّ مصيرنا... وإلى ذلك فإنّ عملية "مطار ميونيخ" لم تكن مرتجلة... ما لم تكن مدبّرة بعقل صهيوني، ومنفّذة بيد عربيّة صادقة كلّ الصدق!

وعدنا من كانتربري، وحرصت على تنفيذ ما وعدتُ به المطران هزيم. فصرت أقصد صافيتا، وأمضي مع الأب يوسف صقر، لزيارة المطران هزيم في مركزه في اللاذقية، وأنا أحمل له وثائق عن عملنا في أسرة الرعية، وأستشيره في أمور كثيرة، حتى توطّدت العلاقة بيننا. وإني لأذكر يوماً، استقبلني فيه مع الأب يوسف صقر في مكتبه، فيما كان يجري مكالمةً هاتفيّة. وما إن وضع السماعة، حتى قال لي، وهو يضع قبضته على صدره: "يا أبونا الياس، طبّقتللي صدري بتقريرك هذا"! ورفع أوراقاً بيده كانت أمامه، وإذا بها تقرير أسرة الرعية السنوي، الذي كنت أرسلته له منذ فترة...

عندي كثير أقوله بشأن علاقاتي مع المطران هزيم. إلا أني أكتفي الآن بالإشارة إلى إحدى زياراتي له، مع الأب يوسف صقر، كي أستشيره بشأن كلمة كنت سألقيها في مؤتمر كنيسة الروم الكاثوليك السنوي، الذي كان سيعقد في 10 تموز 1973، في دير الآباء اليسوعيين في تعنايل (لبنان). وكان الموضوع حسّاساً جدّاً، وهو يُستشف من عنوانه: "مواجهة الجيل الجديد لمشكلة الإيمان في الكنيسة". ولم أكن بعد قد كتبته، إلا أني كنت أقلّب الأفكار بشأنه. فطرحت عليه ما كنت أنوي قوله على قسوته وحدّته، فشجّعني، وطالبني بنسخة من النص، بعد أن أكتبه.

وعُقِد المؤتمر المذكور في تعنايل في العاشر من تموز، عام 1973، حول موضوع الشهادة المسيحية في الشرق العربي وفي العالم. وقد شارك فيه البطريرك مكسيموس الخامس حكيم، وسبعة أساقفة، على رأسهم المطارنة غريغوار حداد، وناوفيطس إدلبي، والياس زغبي، وعدد كبير من الكهنة، من الشرق العربي والمَهاجر، وكذلك من العلمانيّين الملتزمين والمختصين، ومن أهمهم المفكر أنطون المقدسي. وكان من المقرّر أن يعقب محاضرتي، في اليوم الثالث والأخير، حوار طويل ينتهي إلى اتّخاذ المقرّرات والمقترحات الجديدة، الصادرة عن المؤتمر... وكان الكثيرون طوال الأيام الثلاثة، يحاولون معرفة ما أنوي قوله. وما كنت أطلعت أحداً على النص المكتوب، إلا صديقي أنطون المقدسي، وقد سألني أن أسمح له بتلطيف بعض الكلمات. فاستجبت طبعاً، إلا

أني كنت حتى آخر لحظة أتساءل: هل من جدوى في قول ما أريد قوله؟ وقد استشرته في ذلك، فأصرّ عليّ بعدم التردّد في "إلقاء البحصة"! وصدف أن كان توقيت انتخاب أمين عام جديد للمؤتمر، يقع قبل محاضرتي. فتأخّرت عمداً عن الوصول إلى القاعة، وفوجئتُ بُعيد وصولي بقليل، بالبطريرك يعلن من المنصة، عن انتخابي أميناً عامّاً جديداً للمؤتمر خلفاً للأب جوزيف حجّار، ويدعوني لتقديم حديثي، وقد ترك المنصة وجلس على كرسيه مقابلي تماماً. وقد علمت بعد ذلك أنّ من كان منافسي، هو الأب افتيموس سكاف، وأنا أعرف معرفة اليقين أنه يفوقني بما لا يقاس، في جميع مستويات المعرفة القانونية والفلسفية واللاهوتية. فافتتحت كلامي بما يلي حرفيّاً: "سمعت من يقول يمين ويسار. وأنا أقول: الإنجيل. شكراً لثقتكم. إنما أرجو ألا تندموا على انتخابي، بعد سماعكم حديثي". وهنا أرى لزاماً عليّ أن أورد بحرفيته، مطلع حديثي. قلت:

« أبدأ حديثي بملاحظة منهجية صريحة لا بدّ منها.

عنوان الموضوع الذي طُلِب إليّ معالجته، هو: مواجهة الجيل الجديد لمشكلة الإيمان. إلا أنّ رؤيتي الشخصية للمشكلة، وتحسّسي لقضية الكهنوت، جعلاني أطرحها على النحو التالي:

مواجهة الجيل الجديد لمشكلة الإلحاد في الكنائس.

لماذا هذا العنوان الجديد؟

لا استفزازاً ولا مزايدة، وكلاهما رخيص وسهل. بل لأسباب ثلاثة هي:

أولاً، أنّ المشكلة المطروحة متعدّدة الجوانب، تكمن معالجتها بطرق مختلفة، اجتماعيّة ونفسيّة وثقافيّة الخ... وقد أُشيرَ إلى العديد منها، بشكل أو بآخر، في أحاديث اليومين السابقين. فلا أريد أن أتطرّق إليها، لأنها قد تسهّل إلى حدٍّ بعيد، اللجوء، وأكاد أقول الهروب، إلى تحليلات عامة، قد لا تقدّم ولا تؤخر، لا في المشكلة ذاتها، ولا خصوصاً في الذين يطرحونها، أي فينا نحن. وإني لأنكر على نفسي، سواء في نطاق لقاءاتنا هذه أو خارجها، أن أتصدّى لمثل هذا الموضوع، إلا على نحوٍ يضعنا، جميعاً، في موضع تساؤل مع ذواتنا، لعلّه يعقب هذا التساؤل، تغيير ما...

ثانياً، إني أعتقد، جازماً، بأنّ الإيمان، إذ هو شهادة، يرتكز بصورة أساسية، وفي نهاية المطاف، على قيمة الشاهد بالذات، أية كانت العوامل النفسية أو الفكرية أو الروحية أو العلمية، التي تحرّك الإنسان في سعيه نحو الإيمان، ودون الانتقاص من هذه العوامل وتأثيرها.

وهذا الشاهد هو اليوم، نحن، نحن كنائس وجهازاً كنسيّاً...

ثالثاً، إني أعتبر أنّ الشهادة التي تؤدّيها اليوم المؤسسة الكنسية، ولا سيما أمام الجيل الجديد، جيل الرفض والحب والتضحية، شهادة إلحاد، لا شهادة إيمان.

لذلك كلّه، طرحت المشكلة بالصيغة التي اقترحت، لا رغبة مني في المفارقة، بل لأنّ المؤسسة الكنسية، إذ أصبحت إطاراً اجتماعياً وحسب، فقدت الوظيفة التي كانت لها في السابق، وكادت أن تتفرّغ من محتواها.

وإني لأريد لحديثي أن يكون شهادةً شخصيّةً وتشخيصاً لواقع، دون الغوص في أسبابه. وأرجو أن يُفهَم على أنه شهادة ليس إلا... بمحدوديّتها وهِناتها.

ولأني أردت لحديثي أن يكون شهادةً، أطمئنكم بأني لن أطيل. » (انتهى)

ولاحظت، وأنا أقرأ النص، تململاً واضحاً من بعض الحضور، ولا سيما من المطران إدلبي، حتى إني، عندما بلغت منتصف حديثي، رأيته قد وقف ورفع يديه إلى أعلى رأسه، ولكن دون أن يقول أي كلمة. فتوقّفت وقلت بهدوء: "يبدو أنّ البعض يتململ. أسأل الجمهور: هل تريدون أن أتابع أم لا؟ "فجاء الجواب قوياً: "تابع". فتابعت حتى النهاية. وعندها وقف المطران إدلبي وقال كلمته. وكانت بمعظمها تعبيراً عن معرفته ومحبّته لي، وهو يعتبر أنّ كلامي يعبّر عن أزمة روحية ونفسية أمرّ بها... فقلت بكل هدوء أيضاً: "أصارحكم بأنّ الأزمة التي تحدّث عنها المطران إدلبي، وهو يعرف مدى محبتي واحترامي له، قد مررت بها منذ سنوات، ولم يساعدني أحد على الخروج منها، إلا الأب الياس صارجي، وصديقي أنطون المقدسي. أما أن تنسبوا لها كلّ ما أقوله اليوم، فهذا في نظري تهرّب مَعيب، من واقع يعاني منه معظم الكهنة، ولا يجرؤون على التصريح به، كما تعاني منه غالبية العلمانيّين"... ثم سألني البطريرك: "ما معنى كلمة المؤسسة الكنسية؟". فقلت: "المؤسسة الكنسية، هي دون لفلفة ولا دوران: البطريرك والأساقفة والكهنة..." وعندها وقف البطريرك، وانسحب، فانسحب وراءه معظم الأساقفة، وإذ بالكهنة أيضاً ينسحبون... فجمعت أوراقي وصعدت إلى غرفتي غاضباً، حيث جاءني المطران غريغوار حداد، ليطيّب خاطري. فقلت له: "حتى أنت تصمت؟ شو خلّيت لغيرك؟". وأعربت له عن تصميمي على تقديم استقالتي من الأمانة العامة. فرجاني ألا أفعل، وظلّ يلحّ حتى سلّمت بالأمر. ولكني عندما خرجت من غرفتي، علمت أنّ البطريرك ومعظم الأساقفة قد غادروا الدير ورحلوا، وهكذا فعل معظم الكهنة... وانتهى المؤتمر!

بالطبع، سأضيف هذه المحاضرة، بنصها الكامل، إلى الوثائق التي يضمّها ملحق هذا الكتاب - الشهادة. غير أني أرى لزاماً عليّ أن أورد هنا الرسالة، الصغيرة بحجمها، الكبيرة بمضمونها، التي وافاني بها بعد شهرين من انعقاد هذا المؤتمر، رئيس "جمعية برادو الشرق" آنذاك، الأب الماروني "حليم ريشا"، وكان حاضراً آنذاك، وقد كتب يقول:

« أخي إيلي،

إنّ شهادتك عن مواجهة الجيل الجديد لمشكلة الإلحاد في الكنائس، فيها نبرة يوحنا المعمدان. لوحاتٌ متسارعةٌ قاتمة، منعطفاتٌ عنيفةٌ ثائرة، لكنها في العمق صرخةٌ واقعيّة تعبّر عن ألم الشاهد الصادق.

إني لا أجد فيها أية غرابة. وقد ركّزتَ على عنف الألفاظ والمفردات، لتُظهِر عنف المواجهة والصدمة. كشفتَ صدمةً، فأحدثتَ صدمة.

كشفتَ صدمةَ الجيل الجديد أمام كذب الشهادة.

وأحدثتَ صدمةً في ضمير الشاهد المزيّف.

إنّ صوت المعمدان ما زال يدوّي في الصحراء...

لا تخف، فإن تعبتَ من الصراخ، لك منّا حناجر...

أخوك حليم

دمشق في 1973/9/6 »

وقبل أن أتابع الحديث عن مسؤوليتي الجديدة، بوصفي أميناً عاماً لمؤتمر كنيسة الروم الكاثوليك، يستوقفني حدثٌ فاجأ العالم بأسره، لا سيما وأنّ أحداً، بدءاً من العرب، لم يكن ليتوقّعه، عنيتُ به حرب تشرين الأول عام 1973.

كانت تلك الحرب المفاجأةَ التي كان يرجوها كلّ عربي، على ما يستبدّ به من إحباط متراكم قاتل. وبقدر ما كان الوجوم يخيم على كل إنسان، إثر نكبة عام 1967 وبعدها، كان الاطمئنان يسكن قلوب الناس جميعاً في دمشق، ويسعني أن أقول في سورية، إذ ينسحب على كلّ إنسان فيها، ما كان يعيشه أبناء العاصمة. انضباط... اعتزاز... رجاء عظيم!

وما كان للكنيسة في دمشق، إلاّ أن تشارك فيها بطريقتها. فسارع المطران الياس نجمة، وكان يومها نائباً للبطريرك مكسيموس حكيم، إلى التباحث بهذا الشأن مع الأستاذ أنطون المقدسي، فصدر عن البطريركية نداء قوي يدعو لإحقاق الحق في فلسطين.

وتمّ تبادل البرقيّات بين البطريركية والعديد من المراجع الكنسية في العالم، ولا سيما مع أساقفة شمال أفريقيا، في كلّ من تونس والجزائر وليبيا والمغرب. ثم شاءت البطريركيّة أنّ تخصّ بحرب تشرين، عدداً من مجلّتها الدورية، وكلّفتني به، وقد صدر في أوائل شهر كانون الثاني (يناير) من عام 1974، وفيه مساهمات قيّمة من المطران الياس نجمة، والأستاذ انطون المقدسي، والدكتورة نجاح العطار، والأديب حنّا مينة، والشاعر محمود درويش، والباحثة الفرنسية: "آن ماري غواشون"، وغبطة بطريرك الروم الأرثوذكس، الياس الرابع، وكثيرين آخرين... إلا أنّ الحدث الذي حدث بعد ذلك، كان توقّف هذه المجلة عن الصدور لأسباب مجهولة!...

وكان عليّ أيضاً أن أبدأ العمل بوصفي أميناً عاماً للمؤتمر... وكانت اجتماعاتنا كلّها تتمّ في مطرانية بيروت، عند المطران غريغوار حداد. وكنت أحياناً كثيرة أول الواصلين إلى الاجتماعات، مع أني كنت دائماً قادماً من دمشق. وقد سعينا في أول اجتماع لنا، إلى نشر المحاضرات تباعاً، التي أُلقيت في المؤتمر. إلا أنّ محاضرتي لاقت تمنّعاً، بل تخوّفاً من بعض أعضاء اللجنة المركزية. واتفقنا على تكليف الأب حبيب باشا مراجعتها، كي تصبح "صالحة" للنشر. وعندما التقينا في الاجتماع التالي، وقرأ الأب حبيب باشا النص، كما يراه هو ملائماً، قلت للجميع: "هذا النص تعرّض لعملية "خصي"، فأنا لا أقبل بنشره"، وطوي الموضوع... واستمرّت اجتماعاتنا بإيقاع منتظم، حتى عُقد المؤتمر اللاحق، في دير الآباء البولسيين بحريصا (لبنان)، في صيف عام 1974. وافتتحتُه، بحضور البطريرك الحكيم، وعدد كبير من الأساقفة والكهنة، بكلمة قدّمتُ فيها استقالتي واستقالة الهيئتين، الثقافية والإدارية، بعد أن استعرضت أعمال العام كلّها، وما تعرّضنا له من شتّى المضايقات. وإني لأجد لزاماً عليّ، هنا، أن ألحق بهذا الكتاب، كلاً من نص المحاضرة، التي فجّرت مؤتمر تعنايل، وذاك الذي افتتحتُ به المؤتمر الذي عُقد في حريصا في دير الآباء البولسيين، مطلع شهر أيلول من عام 1974.

وهنا لا بدّ لي من أن أشير إلى أني، خلال كتابتي اعترافاتي هذه، اكتشفتُ بأسف شديد، أنّ مجلة "المسرّة"، لم تذكر شيئاً عن أعمال مؤتمرات الروم الكاثوليك، من عام 1968 إلى عام 1972، فيما هي خصّت مؤتمر تعنايل، المنعقد عام 1973، بصفحة واحدة لا تفي البتّة بالغرض المرجوّ، ثم عادت فأغفلت أعمال مؤتمر عام 1974، الذي انعقد في حريصا بالذات... وقد يكون ذلك بتوجيه من البطريرك نفسه، بصفته المسؤول الأعلى عن المجلة! وأضيف أني لم أعد أشارك بأي مشروع كنسي، يرمي إلى ما كان يسمى "إصلاحاً كنسيّاً"، حتى إني رفضت التعاون مع المطران غريغوار حداد،

وقد جاء خصّيصاً إلى مرمريتا، والتقاني فيها ليدعوني إلى مشاركته في المهمة الإصلاحية الشاملة، التي كلّفه بها السينودس، وقد رجوته يومها ألا يؤخذ بهذا الفخّ الذي دُبّر له، كي لا يواصل عمله الإصلاحي الكبير!...

ومنذ ذلك اليوم، لم يعد يتاح لي أن ألتقي المطران غريغوار، ولم أسعَ إلى الاجتماع به، على ما أكنّ له من محبّة وتقدير. وجاء يوم كان الأول من تشرين الثاني عام 2012، إذ قمت فيه بزيارة لصديقي الكبير وديع الصافي، في مشفى راهبات القلبين الأقدسين في بعبدا بلبنان، لأهنّئه بعيده الواحد والتسعين، فعلمت أنّ المطران غريغوار متواجد فيه أيضاً، فزرته، فما إن رآني حتى قال كلمة، انغرست في قلبي، وساماً تشرّفت به من إنسان كبيرٍ كبير. قال، ولا أخجل من ذكر ما قال. قال: "أهلين بالمناضل الكبير"!، وتعانقنا بحرارة بعد طول فراق!

ولأعد إلى أحداث عام 1973...

كنت على موعد مع طبيبي في باريس، البروفسور "هالبرن"، فسافرت حاملاً معي نسخةً من أطروحة أسقف دمشق الجديد، المطران بطرس راعي، للاّهوتي الفرنسي، الأب "ايف كونغار" (Yves Congar)، الذي كان قد طلبها منه. وكنت سعيداً جدّاً بحملي هذه النسخة إليه، لكثرة ما كنّا قرأنا له وسمعنا عنه، في القدس، أثناء دراستنا اللاهوت. وما إن وصلت إلى باريس، حتى اتصلت به لأحدّد موعداً معه. وقد حدّده لي في اليوم التالي. فذهبت وبي نشوةٌ للقائه. فاستقبلني وهو على كرسي متحرك. إلا أنه كان لطيفاً، بشوشاً، فقدّمت له الكتاب، وأعربت له عن سعادتي بالتعرف عليه شخصيّاً. فبادرني بسؤال فاجأني: "أب الياس، أأنت سوري حقّاً؟". قلت: "طبعاً". فقال على الفور: "وأنت إذن عربي؟". فقلت سائلاً: "نعم. ولِمَ تسألني هذه الأسئلة؟". فقال وكأنه ينطق بأمر بديهي: "إذن دعوا اليهود مرتاحين"... بالفرنسية: (Laissez donc les juifs tranquilles!). فسألته أيضاً بهدوء: "هل لك أن توضّح لي ما تعني بكلامك؟" فقال: "طبعاً. انظر. اليهود شعب تعذّب كثيراً. ثم هم شُرِّدوا مدّة ألفي سنة. ولا تنسوا أنّ لهم الوعد الإلهي بالأرض!". هذا ما قاله اللاهوتي الفرنسي، الذي كان اسمه يملأ الشرق والغرب. فأجبته بهدوء أيضاً: "أن يكون هذا الشعب قد تعذّب، فهذه حقيقة تاريخيّة، ولكن الذين عذّبوه هم الغربيّون، وليسوا العرب ولا المسلمين. وأن يكون قد تشرّد، فهذا أمر يعود لما مارسه الغرب بحقّه من لاسامية بغيضة، لم يعرفها العرب والمسلمون طوال تاريخهم الطويل. وأما أن يكون له وعد الله بالأرض في فلسطين، فعندها اسمح لي أن أسألك أنت اللاهوتي الكبير: "ماذا تفعل

عندها بيسوع المسيح؟" ثم قلت له بغضب: "أب كونغار، هذا المنطق، أقبله من رجل الشارع في باريس، ولكني لا أقبله من رجل بحجم علمك. يؤسفني أن أقول لك، وأنا أغادرك: قبل أن ألتقيك، كنت سعيداً بالتعرف عليك. أما الآن، فإني آسف جداً لذلك". وانسحبتُ دون أن أحيّيه مودّعاً. وخرجت وأنا أقول في نفسي: "إن كان اللاهوتي "ايف كونغار" (Yves CONGAR)، في مثل هذا المستوى من الجهل بقضيّتنا، وفي هذا المستوى من تسخير اللاهوت المسيحي كلّه، لدعم إسرائيل وسياساتها، فماذا عساه يكون الإنسان العادي في فرنسا؟". وخرجت حقّاً محبطاً!

وهنا، أرى من الضروري التذكير بالموقف الجديد والمحيّر، الذي كان مجلس أساقفة فرنسا قد اتخذه من "اليهودية"، يوم أصدر بيانه التاريخي في 1973/4/6. وقد يكون للأب "ايف كونغار" سهم واسع في وضعه! وإنه ليسجّل منعطفاً خطيراً جدّاً، في موقف الكنائس الغربية كلّها، متمثّلاً بكنيسة فرنسا، من اليهودية أوّلاً، ومن ثمّ من الصراع العربي الإسرائيلي، ثانياً وخصوصاً. ولقد كان أوّل من تصدّى لهذا البيان، ممثّل كنيسة الروم الكاثوليك في باريس، الأب "جوزيف نصرالله". فوضع دراسةً مطوّلة، نشرها باللغة الفرنسية، ثم تُرجمت إلى العربية، ونشرت في مجلة "المسرّة"، في أعدادها الأربعة الأخيرة من عام 1973، تحت عنوان مثير، هو "إلى أين تمضي بنا وثيقة الأساقفة الفرنسيين؟".

حسبي أن أشير إلى هذه الدراسة الهامّة، وأحثّ على مطالعتها بتأنٍّ. وإني، هنا، لأقصر كلامي عنها، بما جاء في الصفحتين الأوليين فيها، إذ هما تكشفان بكل وضوح، كلّ ما يتخلّل هذه الوثيقة، من تورّط وتخبّط وتنصّل، في آن واحد، مارستها جميعاً يومها كنيسة فرنسا، حيال الصراع العربي الإسرائيلي، وتمارسها جميعاً، منذ ذلك الحين حتى اليوم، وإلى ما شاء الله، جميع كنائس الغرب دون استثناء، وعلى رأسها الفاتيكان.

وقد جاء في هاتين الصفحتين من مجلة "المسرّة"، ما حرفيته: (ص 654-657)

« **إلى أين تمضي بنا وثيقة الأساقفة الفرنسيين؟**

"لقد أجمع المعلّقون السياسيّون والمخبرون الدينيّون على إبراز أهمية المذكّرة العقيدية التي أذاعتها، في 1973/4/6، اللجنة الأسقفية الفرنسية للعلاقات باليهودية، بشأن "توجيهات راعوية حول موقف المسيحيين من اليهودية".

"وليس ذلك عبثاً. فلو جاءت مثل هذه الوثيقة عن أساقفة أميركا، لما أثارت دهشة

أحد. ولو وقّعها أساقفة بلجيكا أو هولندا، لما استرعت الانتباه. أمّا وقع مذكّرة صادرة عن الأساقفة الفرنسيين، فهو أبعد أثراً. أوَلم يقل يوماً واحد من البابوات المعاصرين، إنّ فرنسا هي الفرن الذي ينضج فيه خبز البحث اللاهوتي؟

"فهل تكون فيها نهاية ما لفرنسا من نصيب كبير في الثقافة والتنشئة اللاهوتية في الشرق الأدنى؟ فالمدارس الإكليريكيّة والجمعيّات الرهبانية تستعمل الكتب اللاهوتية والتفسيريّة والأخلاقية، المؤلفة والمطبوعة في فرنسا! ينبغي ألا نتمنّى ذلك...

"دين أم سياسة؟

"مذكّرة عقيديّة محض؟ ولكن هل يصحّ القول أنها كذلك؟ أليس لها انعكاسات سياسيّة؟ ألم توجِد مواقف متحيّزة لإسرائيل؟ إنّ سيادة المطران "بيزريل" قد أكّد طابعها الديني الخالص (لوفيغارو، 18 نيسان 1973 - لاكروا، 19 نيسان 1973). والأمانة الوطنية للرأي العام أذاعت إعلاناً مشابهاً عند تقديم الوثيقة: "إنّ النصّ الذي ننشره... ينحصر في المجال الدينيّ ويتوجّه إلى المؤمنين".

"ولكن مَن علينا أن نصدّق؟ المطران "بيزريل" أم المطران "إلشنجه" رئيس اللجنة الأسقفية المسؤولة عن الوثيقة، الذي أجاب عن سؤال صحافي في الإذاعة الفرنسية (فرانس- انتير) بقوله: "هذه التوجيهات تنطوي على اعتراف ضمنيّ بدولة إسرائيل... ولكن اعتراف المسيحيين الواقعي بدولة إسرائيل كأرض استيعاب لليهود، لا يستجرّ إطلاقاً الموافقة على السياسة الإسرائيلية" (لوموند، 19 نيسان 1973 - لاكروا، في ذات التاريخ). أجل لقد خفّف سيادته من أثر ذلك التصريح، في توضيح ثانٍ ظهر في لوموند، بتاريخ 25 نيسان 1973، فقال: "سيكون ممّا يحمل على الأسف، أن يُؤوّل هذا النص تأويلاً سياسيّاً، في حين أنّ غايته راعوية محض". ولكن التوفّر على تكذيب اصطباغ النص باللون السياسي، قد أدّى إلى إثباته.

"أجل لم يَرِد اسم دولة إسرائيل مرّة واحدة في الوثيقة، وذلك ما أحدث الالتباس. إلا أنّ جميع المراقبين، وعلى الخصوص اليهود والصهاينة، قد رأوا فيها اعترافاً بالواقع الإسرائيلي، إن لم يكن الأمر تسويغاً له. وهذا أوّلاً تصريح حاخام فرنسا الأكبر، يعقوب كابلان: "يبرز هنا تأكيدان خطيران... والثاني، على الصعيد السياسي، أنّ الضمير العام لا يمكنه أن يرفض للشعب اليهودي الحقّ في وجود سياسي خاصّ بين الأمم والوسائل لذلك". (لاكروا، 18 نيسان 1973 - لوموند نفس التاريخ).

"ويرى السيّد "آلان روتشيلد" رئيس المحفل المركزي الإسرائيلي في فرنسا، والسيد "جان بول إلكان"، رئيس المحفل الإسرائيلي في باريس، أنّ الوثيقة "ستعدّ حدثاً هامّاً، وسيكون لها قيمة تاريخية". ويغتبطان أن يُعترف للشعب اليهودي "بالحقّ في وجود سياسي خاص بين الأمم والوسائل لذلك". (لاكروا، 19 نيسان 1973 - لوفيغارو، 18 نيسان 1973).

"ويقول الحاخام "ج. جرونوالد": "ستبدي الجماعة اليهودية موافقتها أيضاً، على وجهة نظر الأساقفة، الذين يذكّرون "بأمنية اليهود المتقادمة العهد، في وجود وطنيّ على تلك الأرض التي وهبها الله قديما للشعب الإسرائيلي"، ويطلبون من المسيحيّين أن "يأخذوا بعين الاعتبار التأويل الذي يضفيه اليهود على تجمّعهم حول أورشليم" (لوموند، 18 نيسان 1973).

"وبلغ الأمر بصحيفة الـ "أنفورمسيون" الإسرائيلية إلى حدّ المقارنة بين المذكّرة الأسقفيّة وتصريح بلفور. فالنص في رأيه "يساوي في خطورته، بالنسبة إلى إسرائيل والصهيونية، من الوجهة الروحية، تصريح بلفور من الوجهة السياسية" (لوموند، 21 نيسان 1973 - لوفيغارو، نفس التاريخ).

"وحسبنا، من الجانب الكاثوليكي، أن نذكّر بكلمة الأب "رينيه لورنتان" في لوفيغارو (18 نيسان 1973) وخصوصاً بتصريح الأب "ب. م. ريكه" المذهل، الذي ظهر في اليوم السابق في نفس الصحيفة: إنّ مذكرة اللجنة الأسقفية "تدعو المسيحيين دعوة قاطعة إلى اعتبار وجود إسرائيل الحالي، كشعب له ما لغيره من الحقوق، في حياة وطنية خاصة على أرض آبائه، ليس فقط من معطيات التاريخ وإنما من معطيات الوحي والإيمان أيضاً". كأنما في وسع لجنة أسقفية في كنيسة محليّة - وإن تكوّنت من لاهوتيّين كبار - أن تفرض عقيدة على الضمير المسيحيّ!

"وهل من جميل المكافأة للأساقفة الفرنسيين على "عملهم الشجاع"، إبراز ما بينهم وبين المجمع الفاتيكاني الثاني، بل وبين الفاتيكان نفسه، من تعارض؟ يقول الحاخام "جرونوالد": "إنّ مشروع (الفاتيكاني الثاني) لم يكن ليعني سوى الكنيسة. وإن كان النصّ تنقصه الجرأة فذلك شأنها، إذ القضية من نطاق الكنيسة الداخلي، ولا تتعلّق باليهود" (لوموند، 18 نيسان 1973). ويضيف قائلاً: "إنّ أساقفة فرنسا، وخصوصاً أعضاء اللجنة الأسقفية قد تغلّبوا على تحفّظات كثيرة لينشروا وثيقة عَجزَ الفاتيكان عن وضعها".

والحاخامون "لن يألوا جهداً طالما لم تنفذ تصريحات اللجنة الأسقفية، إلى الذهنية المسيحية، وطالما الفاتيكان خصوصاً (وهم غير واثقين من أنّ تحفّظاته ليست لاهوتية وسياسيّة بالقدر ذاته) لم يعلن بالوقائع والأعمال تفهّماً لليهودية يماثل تفهّم الأساقفة الفرنسيين" (نفس الصحيفة).

ومن لم يُصب بالذهول لدى سماعه، في إحدى إذاعات يوم الإثنين 23 نيسان الماضي، الحاخام "ايزنبرغ"، يعلن: "كلّ شيء يكون على أحسن ما يرام، لو لم يوجد الفاتيكان". أما تصريح حاخام فرنسا الأكبر للوكالة اليهودية البرقية فلا يحتاج إلى تعقيب: "الفاتيكان أسير السياسة. إنه واقع تحت ضغوط شديدة من الدول العربية، ولا عجب أن تكون ردّة فعله على هذا الوجه... وثيقة الأساقفة الفرنسيين نصّ ممتاز وعظيم الجرأة. إنه وحده الذي آخذه بعين الاعتبار" (لوموند، 27 نيسان 1973). » (انتهى)

وقد اتّضح عبر السنوات اللاحقة، أنّ كل ذلك لم يكن سوى بداية الغيث، الذي انتهى بكنيسة فرنسا، وفي ركابها جميع كنائس الغرب دون استثناء، إلى طوفان من صمت مريع، بل مريب، حيال جميع ما تمارس دول الغرب، وعلى رأسها الولايات المتحدة، من سياسات ترمي إلى فرض المزيد من هيمنتها على العالم، على حساب شعوب برمّتها، ولا سيما الشعوب العربية والإسلامية...

وهنا لكم يؤلمني أن أذكر حادثة جرت في البطريركية بدمشق، أريد أن أختم بها هذا الفصل الأسود، وقد ارتبطت باغتيال المناضلين الفلسطينيين، كمال عدوان، وكمال ناصر، وأبو يوسف النجار، ليلة العاشر من نيسان من هذا العام 1973، في شارع "فردان" ببيروت، على أيدي رجال الموساد الإسرائيلي. فقد زار البطريركية بعد يومين أو ثلاثة، مطران زحلة، حنا بسّول. وإذ كنّا على المائدة ظهراً، بحضور البطريرك حكيم وعدد من الأساقفة والكهنة، استنكر المطران بسّول هذا العمل الإجرامي، ودلف منه فوراً إلى الفساد الذي ينخر المجتمع العربي كلّه، والمؤسّسات السياسيّة والعسكريّة فيه! فلم أرَ بدّاً من مقاطعته بقولي: "السياسة مفسدة لا ينجو منها أحد!... ولكن ما الذي يبرّر الفساد الذي يضرب الكنيسة كلّها من رأسها إلى جذورها؟" صحيح أنّ هذه الحادثة تعود إلى عام 1973، إلا أني أستحضرها الآن وكأنها تجري للتو!

الفصل الثاني عشر

عام استثنائي: 1974

كان عام 1974 استثنائيّاً حقّاً على جميع الأصعدة. ففيه اعتُقل المطران إيلاريون كبوجي، مطران القدس، وفيه تحرك المطران غريغوار حداد في بيروت تحرّكاً ألهب كنيسة لبنان، وفيه أطلّ المطران البرازيلي الشهير "هيلدر كامارا" (Helder CAMARA) إطلالة منقوصة، وفيه قمت برحلتين هامّتين إلى باريس والقاهرة. فدعوني أحكي قليلاً ما كان من أمر هذه المحطات كلّها.

عندما أُعلن اعتقال المطران كبوجي، علت لهجة الكثيرين في الشرق، ممّن يريدون لرجل الدين المسيحي، أن يكون مجرد آلة لتلاوة الصلوات. أما في الغرب، فتُرك الأمر لروما، وتجاهله رجالات الكنيسة هناك. ونسوا أنّ الكثيرين من الكهنة والأساقفة في فرنسا، تعاطفوا، معظمهم في السر، وواحد فقط في العلن، مع المقاومة، إبان الاحتلال النازي. وكلّهم يعلمون أنّ إسرائيل قوّة محتلّة، أدانت احتلالها للأراضي العربية، بدءاً من القدس، هيئة الأمم المتحدة والمحافل الدولية. ومع ذلك فقد بلعوا ألسنتهم. وتجاهلوا أخاً لهم في الأسقفية، هو أسقف القدس بالذات، وقد بات قابعاً في سجون الاحتلال الإسرائيلي. أما أنا، فكنت أتوقّع ذلك من زمان، إذ عرفت زماناً طويلاً من هو الكبوجي، وقد كنت في مسرحية "المدينة المصلوبة"، دعوت صريحاً إلى المقاومة، وجسّدت ذلك في الحوار الذي كان يحتدم بين حين وآخر، بين الكاهن الثائر، عيسى، والكاهن المستسلم، إبراهيم، وما انتهى إليه الأب عيسى. ولكم أحزنني، بعد مضي أشهر على اعتقال الكبوجي، أن أسمع بعض المراجع الكنسية العربية، وبعض المسؤولين الفلسطينيين، يدعون معاً للإفراج عنه، ويتوسّطون البابا في روما، كي يسعى إلى إطلاق سبيله... وعندها وجدتني أكتب مقالات ثلاثة، نُشرت تباعاً حول هذا الأمر في "الثقافة الأسبوعية"، أوّلها بعنوان "عيدُك بالأمس سيّدي، لا غداً"، وهو بتاريخ 1974/11/1، وثانيها بعنوان "عندما يصبح إنسانٌ سؤالاً"، وهو بتاريخ 1974/12/22، وثالثها بتاريخ 1975/2/1. وهو بعنوان "واخجلتاه من كبوجي". وإني لأرى من المفيد أن أدرج في هذا الكتاب، ما جاء في مقالي الأخير، لأبيّن "الفنّ العظيم" الذي نتعاطاه

دائماً، نحن العرب، في تفويت أثمن الفرص علينا.وقد جاء فيه بالصفحات (494-496)، من كتابي "ومن الكلمات بعضها":

« **واخجلتاه من كبوجي**

أيكون دخل السجن ليطالب العرب بإطلاق سراحه!؟

أم تراه دخله، لنقيم له المهرجانات، ونكرّس بطولته على الملصقات وصفحات الجرائد؟!

ما أكثر ما نتعاطى من أفيون!

حتى الثورة لدى من يُفترَض فيهم أن تكون حياهم اليومية ثورةً، أصبحت أفيوناً نتعاطاه صلواتٍ واحتجاجاتٍ وقصائد، بل وتعاويذ نستعيد بها شهادة النضال.

في هذه الأثناء، يهدر العرب، هيئاتٍ وحكوماتٍ وكنائسَ، فرصةً، لو تسنّى لإسرائيل أن يحدث لها معنا ما يُشبهها، لما كانت تورّعت عن "شرائها" بالملايين...

أسقفٌ عربي يُعتقل، في فلسطين بالذات، وأسقف القدس بالذات، هذا أمر كان يكون من نسج الخيال، لو لم يقع.

فكانت الصدمة - الدهشة، تستولي علينا نحن العرب، وتُقعدنا عن العمل الحقّ، تَفتَح أفقه هذه الفرصة بالذات، في وقت باتت فيه الثورة الفلسطينية تستثير اهتمام العالم بها، وباتت الشخصية العربية تنتزع شيئاً فشيئاً احترام عالم لا يحترم إلا القوي!

وكان أن ترجمنا... الصدمة تلك... كلماتٍ، وليتنا اكتفينا...

بل ترجمناها... مطالبةً ملحّة بالإفراج عن الكبوجي...

واخجلتاه من الكبوجي!

واخجلتاه من آلاف المعتقلين، من نساء ورجال، في سجون إسرائيل!

واخجلتاه، خصوصاً، من الفدائيين يُستشهدون داخل الأرض المحتلة، يطالبون به زميل نضال!

ترى، لو كان اعتُقل، في بلد عربي، أصغر حاخام، في أصغر قرية عربية، أما كانت إسرائيل أقامت الدنيا في ساعات قليلة؟

والكبوجي في السجن منذ خمسة أشهر!!!

وكان علينا أن نطرح السؤال على الكنيسة في الغرب، بشأن اعتقال أسقف عربي.

ولسوف يأتي يوم تَطرح فيه هي علينا السؤال حول صمتنا هذا!

فالرأي العام المسيحي في الغرب، كما في الكنائس الأميركية والآسيوية والإفريقية، التي كان للغرب يدٌ في إنشائها، لم يُحرّك ساكناً، ولم يَصدر عن مسؤوليه الكنسيين، أي تصريح حول اعتقال الأسقف العربي.

وقد يكون صدر تصريح ما بإدانته!

وللكنيسة، في هذه القارات، شئنا أم أبينا، رأي وتأثير!

وقد تقول أحياناً بشأننا نحن العرب - إلا في ما ندر - ما يُستشَفّ منه تأثير يهودي، بل صهيوني!

والخطأ في ذلك ليس خطأها، ولا خطأ إسرائيل.

بل خطأنا نحن العرب، نتعاطى أفيون الكلمة، نخدّر بها أنفسنا، في حين تحقن إسرائيل دماغ الغرب، المكبّل بعقدة الذنب حيال اليهود، بإعلام مدروس، مكثّف ومنتظم.

وكانت قضية الكبوجي فرصة القرن.

فرصة للقضية الفلسطينية، يتوهّج بها وجهها القومي والإنساني، على مرأى من أقطاب المسيحية في العالم.

وفرصة للكنيسة العربية تتصالح بها مع نفسها.

وفرصة للحكومات العربية تتصالح بها مع الكنيسة العربية.

وفرصة للكنيسة الغربية تتصالح بها مع الحقيقة والعدالة، وتُسهم في مصالحة الغرب مع الحقّ العربي.

لا، لست بصدد استبدال أفيون الكلمة بأفيون الوهم.

تلك هي لغة الواقع، كما أقرأها وأسمعها.

فقد كان علينا أن ننظّم حملةً شخصيةً وعالمية، تتّصل بجميع أساقفة العالم أو، أقله، بأبرزهم نفوذاً، وبأهم الهيئات الكنسية في الغرب، لبسط حقائق الصراع العربي الإسرائيلي.

كما كان علينا أن نوجّه دعوات لأبرز هذه الوجوه والهيئات، لزيارة العالم العربي، والالتقاء بأبنائه كلّهم، سواء في المؤسسة الرسمية، أو في الشارع والدكّان والمخيّم والحارة.

وبعدها، كان علينا أن نظلّ على اتصال منظّم ومنتظِم بجميع هؤلاء.

وعندها، وعندها فقط، كانت ولدت المفاجآت.

ولكن قبل هذا وهذا وذاك، ولنقلها صريحةً:

كان على المسؤولين في الكنيسة العربية، والثورة الفلسطينية، والحكومات العربية، أن يتنادوا ويجلسوا، لأيام، بل لساعات، حول طاولة واحدة، وتحت سقف واحد، للتباحث معاً، وعلى هذا الصعيد بالذات، بشأن الحقّ الواحد، والإنسان الواحد، والأرض الواحدة، والمصير الواحد.

وعندها، كنّا نكون على درب المفاجأة الكبرى: المصالحة مع الذات...

وتلك هي المشكلة.

لغيري أن يقول أني أحلم... أو أهذي!

ما لم تكن الفرصة قد فاتت...

بانتظار كبوجي آخر! » (انتهى).

ومن بيروت نهض المطران غريغوار حداد، في حركة فكرية واجتماعية، لم تدع أحداً على حياد. وكان مُحقّاً في كثير من طروحاته الجديدة والجريئة. إلا أنّه كان مُحقّاً خصوصاً في نمط الحياة، الذي كان قد انتهجه منذ أن أصبح كاهناً، في تجاهل لكلّ ترف، وفي محبة شاملة تحنو على المحتاج والمهمش، وتتجرّأ بالحقيقة والموقف، على الغني والمتجبّر. إلا أنّ ذلك أثار بكل وضوح، تخوّف معظم رجالات الكنيسة، من أساقفة وبطاركة، فتحرّكوا وحرّكوا مَن حولهم، خوفاً على "التقاليد المقدّسة" أن تنهار، وعلى المكاسب المادية والاجتماعية أن تفقد مبرّراتها. وما كان المطران غريغوار من النوع المشاكس ولا العنيف. إلا أنّ الطروحات التي كان قد طلع بها، وجمع حوله من يحملها، فكراً حرّاً وجذّاباً في مجلة "آفاق"، والتي مضى بعضهم فيها إلى أبعاد لاهوتية أو شبه لاهوتية، ربما ما كانت لتحظى بتأييد المطران غريغوار، كانت قد وَضعت سلاحاً قويّاً بيد خصومه، وجنّدوا معهم كنيسة الروم الكاثوليك كلّها في الشرق العربي، لتحول ضدّ ما يمكن أن يكون مدّاً فكريّاً وشعبيّاً، يتخطّاهم ويرغمهم على تنازلات لا يريدونها. وقد يكون كل ذلك أتعب المطران غريغوار، فأبدى استعداده للاستقالة من أسقفية بيروت، إمّا للتخلص الصادق من هذه الضوضاء الفارغة، والتفرّغ للعمل الاجتماعي الذي كان قد انتهجه وابتدعه من سنوات، وإما لمجرّد الانعتاق من هذا الإطار الكنسي والتقليدي الضيّق، وقد بات لا يُطاق.

وكان في دمشق، من المثقّفين المسيحيين والمسلمين على السواء، من يتابع بقلق كبير وصادق، هذا اللغط الكبير والمصطنع حول المطران غريغوار. وكان أكثر هؤلاء اهتماماً بقضية المطران غريغوار، المفكر العربي المسيحي، أنطون المقدسي. وكنت

أشاطره هذا الاهتمام. وكثيراً ما كنّا نتبادل الرأي حوله. حتى كان يوم قرّرنا فيه معاً القيام بزيارة للمطران غريغوار في بيروت. وكان لقاء بيننا نحن الثلاثة، يتّسم بمودّة عظيمة، وهدوء وصفاء، وصراحة كبيرة، ولا يخلو من قلق، إذ تبيّن لنا أن المطران غريغوار يؤمن بجوارحه أنّ الفئات الشعبية، بل الحزبية التي تحرّكت معه في شوارع بيروت كلّها، مؤيدة له، أيّاً كان موقف السلطات الكنسية، في الداخل والخارج. وعبثاً حاول الأستاذ المقدسي وأنا، أن نحمله على الشك في سلامة موقف بعض الأحزاب منه، بل على التسليم بإمكانية استغلالهم له ولأفكاره، لكي يضربوا مشروعه الإصلاحي، وينفذوا من ذلك إلى ضرب الكنيسة كلّها. وفضلاً عن ذلك، حاول المقدسي وأنا، أن نقنع المطران غريغوار بضرورة التمسك الصريح ببعض الثوابت العقائدية، منها قدسيّة الكهنوت، وبتولية مريم العذراء، كي لا يضع في يد خصومه في الكنيسة، سلاحاً يعجّل في القضاء عليه... وذكّرناه معاً بضرورة بقائه على كرسي بيروت، حرصاً منا على النهج الجديد الذي انتهجه في الكنيسة، والذي يرى فيه الكثيرون من الكهنة والعلمانيّين، خطّ الخلاص للمسيحية في هذا الشرق العربي. إلا أنّنا افترقنا يومها، دون أن ننتزع منه وعداً ما بهذا الشأن.

ثم كان أن اضطررت للعودة بمفردي لمراجعته من جديد، بشأن وضعه المتقلقل في الكنيسة، وما كان يُسمع عنه من رغبته الصريحة في الاستقالة. ويومها شئت أن يكون اجتماعي به، بحضور كل من الأب سبيريدون مطر، وكان نائبه، والأب إيلي كترا، وكان أمين سرّه. وتحدّثت إليه بحضورهما مدة ساعة كاملة. وهو يعرف ما أكنّ له من محبّة وتقدير، كما يعرف أني أرى فيه رائداً لنهجٍ تحرّري جديد، على نطاق الكنيسة كلّها في الشرق العربي... وقد شدّدت على ضرورة بقائه أسقفاً في بيروت، لسببين رئيسيين: أوّلهما كي يحتفظ بحجمه الكبير في المعركة التي يخوضها، ثانيهما، كي يوفّر للنهج الجديد الذي ابتكره، فرصة الاستمرار والتأثير والنجاح، لا على نطاق بيروت ولبنان فحسب، بل على نطاق الشرق العربي كلّه أيضاً. وأذكر أني وجدتني مضطرّاً لمصارحته يومها بحقيقة قاسية، وهي أنه إن استقال، لن يفقد حجمه ودوره وحسب، وهو اليوم حجمُ ودورُ نَسر قوي وكبير، بل سيتحوّل إلى عصفور دوري، لا أكثر ولا أقل، بالرغم من كل ما يُقال له اليوم، ممّن يريدون، عن عمد أو عن غباء، أن يوهموه بعكس ذلك. وأذكر أني خرجت من هذا اللقاء غير مرتاح، وانفردت بعده بالأبوين مطر وكترا، اللذين أمطراني التهاني لشجاعتي في التحدّث إليه كما فعلت. فقلت لهما: "وأنتما ماذا تفعلان؟ أفلا تحدّثانه أيضاً، كما فعلت أنا؟". وتبيّن لي مرة بعد الألف، أنّ الكهنة

يكادون، في كل مكان، يتشابهون في كتم الأمور في صدورهم، كي يأتي من يتكلّم "بالنيابة عنهم"... بعد فوات الأوان!...

أما الأسقف الثالث، "هلدر كامارا"، فهو أسقف برازيلي، اشتُهر على نطاق العالم بدعوته الشاملة لتحرير الإنسان، كلّ إنسان، باسم المسيح والمبادئ المسيحية، بعد أن اعتُبِر لفترة طويلة في وطنه وفي كنيسته، أسقفاً شيوعيّاً وأحمر، وبعد أن هُدِّد مراراً بالقتل، وقد قتل بالفعل أمين سرّه، مُسمّراً على شجرة، الأب البرازيلي الشاب "بيريرا نيتو" (Pereira Neto). وكان هذا الأسقف دائم التجوال، يحمل كلمته الحرّة أينما حلّ. وقد ألقى محاضرة في "مانشستر" ببريطانيا في شهر حزيران من عام 1974، تحت عنوان "خطايا العالم السبع". وقد جاءتني ترجمتها الفرنسية الكاملة، بعد فترة وجيزة. وقد أشار فيها إلى وجوه الظلم الكثيرة في العالم، منها العنصرية والاحتلال و... و... ولم يدع بؤرة من بؤر الظلم والتوتر في العالم، إلا وذكرها... باستثناء فلسطين... حتى إنه لم يأت على ذكر زميله، إيلاريون كبوجي، مطران القدس الكاثوليكي، الذي كانت وسائل الإعلام الغربية، المهيمنة كلّها، تتحدّث عنه وعن "إرهابه"! وتوقّعت من هذا الأسقف "الحرّ والمتحرّر"، أن يشير، بشكل أو بآخر، إلى ما سبّب اعتقال زميل له في الكنيسة الكاثوليكية، وبالتالي إلى مأساة الشعب الفلسطيني... فآلمني هذا الموقف، يبدر منه هو بالذات. فرأيت أن أوجه له رسالةً شخصيةً، أرسلتها بالبريد، بعد أن حصلت على عنوانه الكامل. وكالعادة لم يأتني ردّ، ولم تعد الرسالة. إلا أنني أريد لقارئي اليوم أن يطّلع عليها، ليدرك فداحة ما وصلنا إليه نحن العرب، من تقصير بحقّ أنفسنا، وهول السيطرة الصهيونية على من يُفترَض فيهم أن يقفوا معنا.

« **صاحب السيادة المنسنيور هلدر كامارا**

ريسيفيه – البرازيل دمشق في 1975/1/4

صاحب السيادة،

من يكتب لك هو كاهنٌ عربي من سورية، يعيش الصراع العربي- الإسرائيلي، ويتابع، في فرح ورجاء، نضالك الطويل والشجاع من أجل العدالة.

لقد واجهتَ معارضةً في البرازيل بالذات، بلدِك، إلا أنك استطعت، في نهاية المطاف، أن تجعل كنيسة البرازيل تتبنّى موقفك. وامتدّ تأثيرك، بهدوء، حتى شمل أميركا اللاتينية، ثم الكنيسة جمعاء. واليوم، فالجميع يجمعون على اعتبارك رائد نضال الكنيسة من أجل العدالة في العالم.

وهذا هو بالذات ما يدفعني للكتابة لك. ولقد قرّرت ذلك، بعد أن قرأت المحاضرة التي

ألقيتَها في حشد من الشبان في مانشستر، ببريطانيا، والتي نشرتها مجلة "معــاً" (Ensemble)، الصادرة عن مطرانية الرباط في المغرب، بتاريخ 10 حزيران (يونيو)، عام 1974.

إنك تعدّد في هذه المحاضرة، ما أسميته "خطايا عصرنا السبع الرئيسية"، وأنت تعني بها، "العنصرية، والاستعمار، والحرب، والهيمنة، والفريسيّة، والهروب والخوف".

أسلوبك فيها هو هو: مباشر، باتر، قاطع. وأنت تشـير فيهــا إلى بعــض أشــكال العنصرية، فتقول: "هي ليست اضطهاد اليهود وحسب، ولكنّها أيضاً احتقار الهنود الحمر والباكستانيين". وتذكر أيضاً "زنوج أفريقيا، والولايات المتحدة، والبرازيــل، وهــاييتي، وأميركا اللاتينية، والهنود الحمر في أميركا الشمالية".

إنه لأمر يحمل على الرجاء أن نسمع أسقفاً، مثل هلدر كامارا، يشير إلى النقاط الحامية في الصراع من أجل العدالة في العالم. وكنت أتوقّع منك، خلال محاضرتك، أن تُفضــي، بصورة أو بأخرى، إلى الصراع العربي الإسرائيلي، طالما أنك تبدي اهتمامــاً بــاليهود، وتتحمّل عبء ذكرهم قبل سواهم، في هذه المحاضرة.

لقد خيّبت أملي، الذي لم يكن يبرّره حتى الآن، سوى شمولية نضــالك مــن أجــل العدالة. مع أنك، يومها، كنت في قلب البلد الذي كان في أصل صراع، بات يمسّ كــل إنسان، باستثناء أساقفة الكنيسة الغربية كلّها، أو الأساقفة ذوي الثقافة الغربيــة، الــذين يتمترسون وراء صمتٍ، لا يمكن أن يجد له أيّ تبرير على الإطلاق.

صاحب السيادة،

إنّ موقفك هذا ذكّرني بموقف محزن جداً، لرئيس أساقفة باريس، المطــران فرانســوا مارتي. فهو يذكر في كتابه "الله عنيد" (صفحة 81) أنه كان في القدس، في فصــح عــام 1971، وأنه رأى "في ما وراء القدس، إيرلندا وبنغلادش وتشيكوســلوفاكيا و... قتلــى الطرقات"!.

فهو لم يرَ البتة في فلسطين، المسيح في الإنسان العربي المطرود من بلده، المعتقل تعسّفياً، والذي يُعذّب ويُقتل على هوى جلاّده، كلّ يوم، تحت سمع العالم وبصره.

قد يكون للمطران مارتي، كما كتبتُ له، عذرٌ في عقدة الذنب الرهيبة، التي ركبــت الغرب حيال اليهود، أما أنت، يا صاحب السيادة، أنت البرازيلي من الشمال الشــرقي، المسحوق والجائع، ما الذي يمكن أن يُبرّر صمتَك؟.

ذلك بأني أجد في موقفك العام صمتاً كلياً، جذريّاً ودائماً، حــتى في قلــب أفــدح

الأزمات التي أحدثها هذا الصراع، كما حدث خلال حرب تشرين الأول عام 1973. وإنّ مثل هذا الصمت، يمارسه إنسانٌ مثلك، ليثير القلق.

إلى ذلك، فإنّ بعض المجلات، مثل "المعلومات الكاثوليكية العالمية"، أو "الشهادة المسيحية"، تترصّد باستمرار أعمالك وأقوالك، فأنت لم تنطق يوماً بكلمة حول القضية الفلسطينية. لماذا؟.

صاحب السيادة،

هل العدالة قابلة للتجزئة؟ هل هي تخضع للنسبية والتعسّف؟ أو لم يحدث لك أن سمعت يوماً بالقضية الفلسطينية؟ هل إعلامنا بلغ حدّاً من السوء، وإعلام اليهود بلغ حدّاً من النجاح، حتى حالا دون أن يخطر لك ببال، أنه قد يكمن، وراء هذا الكم الهائل من أعمال العنف في الشرق الأوسط، ومن أعمال اليأس يُقدم عليها أخوتي من العرب الفلسطينيين، ظلم ما، ارتكبه بحقّهم شعب يهودي ما... على أرض فلسطين ما...؟.

أم تراك اطلعت على هذه الأعمال، التي بات العالم كلّه يعرفها، على نحو حال دون اطّلاعك على مئات القرارات، التي اتّخذتها الأمم المتحدة ضدّ إسرائيل، مثلما حال دون اطلاعك على الظلم الهائل الذي ارتكبته إسرائيل، والذي تبدو ملامحه الواضحة من خلال هذه القرارات؟.

صاحب السيادة،

لا يسعني أن أخفي عليك، أنا الكاهن، خيبة أملي أمام صمتك هذا. إن صمت معظم الأساقفة الغربيين، لا أتردّد في وصفه بجبانة لا تُغتفر. أما صمتك أنت، فإنه يُوقعني في حيرة، ويجرحني حتى الصميم.

وإنّ شعوري هذا ليتفاقم، لأنّ زميلاً لك هو، الآن، ومنذ خمسة أشهر، مُعتقل في سجون إسرائيل. وزميلك هذا ليس سوى أسقف القدس، أجل أسقف القدس.

كان من حقّنا أن نتوقّع منك، أو من أحد الأساقفة في أوروبا، وأميركا أو إفريقيا، تساؤلاً ما حول واقع اتهام الأسقف بالتواطؤ مع المقاومة الفلسطينية. لا شيء، لا شيء على الإطلاق. صمت مطبق. هل يتوجّب علينا أن ننتظر استيقاظ البرازيل والعالم، على غد عنيف ومفاجئ، كما في صبيحة 6 تشرين الأول عام 1973، ولكن ربما على هدير حرب عالمية، كي تُقدِّموا احتجاجكم لدى محكمة بيلاطس؟.

ذلك، يا سيدي، أن القضية المطروحة في فلسطين، إنما هي قضية عدالة فقط!.

فأنت تقاتل في البرازيل ضد حُكمٍ جلّاد وقمعي، ولكنه برازيلي، وقد رأيت العديد

من الكهنة عذّبوا واعتقلوا، بل قُتلوا، كما حدث لأمين سرّك الخاص، الأب بيريرا نيتـــو، ليلة 26–27 أيار عام 1969. وقد تلقّيتَ أنت أيضاً تهديداتٍ شخصيةً بالقتل، مـــن قبـــل "فرقة اقتناص الشيوعيين". وحملت نضالك إلى ما هو أبعد من البرازيل، من أجل مجتمـــع أوفر عدالة وإنسانية. وها قد بلغتَ السبعين عاماً، وتواصل النضال من أجل تقدّم هـــذا المجتمع العادل والإنساني. فكيف يسعك أن تبرّر صمتَك، إزاء نضال شعب يدفع ثمن ألفي عام من اللاسامية الغربيّة، ويجد نفسه مطروداً من بلده، وقد "بيع قانونيـــاً" في الســـوق العالمية، التي تسيطر عليها الصهيونية العالمية، اقتصادياً وسياسياً؟.

أعلم أنه "من الصعب، كما يقول مونتارون، أن نجعل العـــالم الغـــارق في المجتمـــع الاستهلاكي، يفهم ما هو نضال الفقراء من أجل كرامتهم".

ولكني لا أفهم ذلك، طالما أنّ الأمر يعني شخصيات من نمطك، يُفتـــرَض فـــيهم أن يكونوا في طليعة النضال من أجل العدالة في العالم.

أفهم إلى حدٍّ ما، أن يتذرّع بعضهم بتهمة الإرهاب، ويتجاهل شعباً صمّم على إنقاذ روحه وتراثه مع كرامته.

أما أن يُقابَل بتجاهل منتظم، وطوال خمسة أشهر، أسقفٌ أعلن عن تضامنه مع هـــذا الشعب، مع شعبه، وهو يقبع لهذا السبب، في سجون المحتلّ، فهذا، في حقيقة الأمر، شئنا أم أبينا، تواطؤ.

ومع ذلك، فإنّ نضال هذا الأسقف، يا صاحب السيادة، يُفضي، بصورة أو بأخرى، حيث ينتهي نضالك، ونضال الكثيرين من أساقفة أميركا اللاتينية وكهنتها. بل هو يمضي إلى ما هـــو أبعد من ذلك، لأنه لا يتعلّق فقط بالعدالة، في توزيع أفضل للثروات والرواتب داخـــل البلـــد الواحد، بل بالعدالة من أجل شعب حُرِم من أرضه، ويتمّ العمل على حرمانه حتى من وجوده.

صاحب السيادة،

أقرّ معي بأنّ الإنجيل معني بالأمر في فلسطين، أكثر منه في أي مكان آخر. فإنّ المسيح لا يزال مصلوباً على الجلجلة، ولكنه، في هذه المرة، اتخذ له جسداً من امرأة عربيـــة. وإني لأحب، أنا الكاهن العربي، أن يقوم بين اليهود و"الرومانيين" الذين يصلبونه، "قائد مئـــة" واحد على الأقل، ليعلن الحقيقة على وجه الدنيا.

فإن كنت أنت هذا "القائد"، يا صاحب السيادة، فسيجد "قادة" آخرون من الكنيسة العامة، شجاعة الاقتداء بك.

وعندها ستشقّ الحقيقة طريقها إلى الجميع، لتحرّر الكنيسة من صمتها، واليهود من صهيونيّتهم، وإخوتي العرب من الحقد الذي يغمرهم.

وعندها تكون تضحية زميلك العربي، أسقف القدس، المطران إيلاريون كبوجي، قد أثمرت، كما تكون أثمرت أيضاً التضحية البالغة البطولية، للعديد من الشبان العرب الذين قدّموا حياتهم، منذ أكثر من ثلاثين عاماً، في سبيل خلق دولة ديمقراطية وعلمانية في فلسطين، يجد فيها الجميع، من يهود ومسيحيين ومسلمين، وطناً مشتركاً ينونه في السلام والعدالة.

وإني، إذ أرجو أن أراك تتّخذ موقفاً من الصراع العربي الإسرائيلي، أقدّم لك، يا سيدي، ما أكنّ من احترام لجميع عشاق العدالة. » (انتهى)

دعوني أقدّم الآن بأسطر قليلة، للفقرة الرابعة، التي ستكون طويلة، ولكن غنية.

إنها تشمل رحلتين لي، الأولى إلى باريس، وهي تمتد من 5/11 إلى 1974/6/7، والثانية إلى القاهرة، وهي تمتد من 6/17 إلى 1974/6/23.

لماذا الحديث عن هاتين الرحلتين؟ ألأنهما تقعان في عام 1974؟ قد يبدو ذلك، للوهلة الأولى، منسجماً مع مخطط هذه "الشهادة - الكتاب". إلا أني، في الحقيقة، أبغي شيئاً آخر. ذلك بأني سافرت عشرات المرات، للعلاج، وللمشاركة في مؤتمرات، ولتفقّد أولادي، من شبّان وشابّات أسرة الرعية الجامعية، وللتبشير بسيدة الصوفانية، ولعيادة الفنان العظيم وديع الصافي، إذ كان مريضاً في باريس، ولمرافقة المنشدين والموسيقيين في جوقة الفرح، من أطفال وشبّان وشابّات، مسيحيّين ومسلمين، وذلك في مختلف بلاد العالم، وما زلت أسافر دون كلل أو ملل، حتى اليوم، وقد تجاوزت الثمانين. أجل سافرت كثيراً، ولكن السفر لم يكن يعني لي، ولا يوماً واحداً، فرصة للاستجمام أو الراحة، بقدر ما كان في نظري، دائماً وحتماً، مجالاً أوسع لحمل الرسالة. وكان ذلك أكثر من جلي، بالنسبة لمن يعرفوني، وأخص بالذكر منهم الآباء البيض، الذين ألفوا أن يستقبلوني كواحد منهم، في أحد أديرتهم في باريس، في شارع فريان (Friant)، حتى إنّ أحدهم صارحني ذات يوم بقوله: "نحن هنا قرابة ثلاثين كاهناً، ولكن التحرّك الذي تُحدِثه في ديرنا هذا مدة أسبوعين، يعادل ما نحدثه كلّنا فيه طوال سنة". وثمة آخر سألني عشية عودتي إلى دمشق: "ماذا تُراك ستفعل في دمشق؟" فأجبته: "سأعود إلى عملي" فحدّق فيّ مبتسماً وقال: "إنك تنتحر!".

بالطبع، لكل رحلة مسار ورسالة. ولما لم يكن ممكناً بأي حال، وليس في نيتي البتة،

التحدّث عن جميع هذه الرحلات أو حتى عن بعضها، رأيت أن أقدّم بكل بساطة، نموذجاً لإحدى رحلاتي، واخترت له بعض ما دوّنت، يوماً بيوم تقريباً، إبان رحلتي إلى باريس، في شهر أيار من عام 1974. وتتمّة لهذه اليوميات، سأورد النص الرسمي، الذي كتبته إثر عودتي من مؤتمر القاهرة، في العام نفسه، والذي رأيت من واجبي، ككاهن عربي من سورية، أن أسلّمه باليد إلى بطريركي آنذاك مكسيموس حكيم، وأن أرسله إلى هيئة منظمة التحرير الفلسطينية في دمشق، وإلى وزارة الخارجية السورية. وإنّ في هذا النص الثاني ما يكمّل الأول.

بعض من يومياتي في باريس - أيار عام 1974

السبت 5/11:

للمرة الأولى أسافر دون أن يرافقني أحد إلى المطار. أشعر بارتياح كبير. السيّد موسى بيطار، ومن مصرف المطار، يدعوني لمكالمة هاتفية. هو كابي ظابيطا يعتذر لعدم وداعي في المطار. شكرته وسألته أن يشكر زوجه مارييت. معرفتي بهما لا تعود إلى أبعد من حرب تشرين. أكّدت لي الأخت تيريز أنهما مترعجان جدّاً مما أصابني في الحنجرة، حتى إن مارييت بكت عندما عرفت بسفري. وهما يرغبان في تقديم كل ما قد أحتاج إليه... سألته إن كان يرغب في شيء من باريس. "هدية عظيمة جداً، قالها بلهجة غاية في الصدق، أن يعود لنا أبونا الياس بالسلامة ومعافى..."

سفري هذه المرة يختلف عن جميع أسفاري السابقة. أعطيت هذا العام فوق طاقتي. أرى ثمرة هذا العمل، خصوصاً في نطاق أسرة الرعية، تنضج شيئاً فشيئاً... قلقي على أوضاع البلد كبير، وقلقي على بعض الأوضاع العائلية أكبر... سلّمت كل هذا للرب. قدّاس أول أمس مساء، كان تتويجاً لا أستحقّه لعملي. يا رب في يديك أستودع كل شيء!

في الطائرة قرأت وصليت ونمت. قرأت خصوصاً مجلة شؤون فلسطينية... حملت فلسطين معي... في قلبي، في عيوني... في فكري... ومعها كل الوجود، ففيها يتجسّد العدل اليوم... العدل مطلوباً في ظلم لم تستحقّه... وفي هذا العدل المطلوب المحك الأكبر.

أذكر أني قلت يوماً في أسرة الرعية: من فلسطين انطلقت عبر العالم الرؤية المسيحية، فكان بها إنسان جديد... ومن فلسطين سينطلق الإنسان العربي الجديد... وإلا، فسلام على العرب!

وصلنا باريس والدنيا ماطرة...

في التكسي من محطة (Invalides) إلى مكان إقامتي، أنشأت حواراً مع السائق، غاية في المرح والعفوية، حول السياسة والحياة في فرنسا. السائق يقر بأنه لا يفهم أموراً كثيرة،

وبأن ما يجري فوق معرفته... ومع ذلك فهو يقرّر ويقيّم كما لو كان مطلعاً على خفايا الأمور كلّها!... ما عاد يستطيع السكوت... عرفني كاهناً من شارة الصليب الصغيرة، الموضوعة على صدري... وأخذ راحته كاملة... أما عن المرشحين لرئاسة الجمهورية، فقد قال لي ببداهة، ما أقر به الكثيرون بعد تحليل وتدقيق... من أن "جسكار ديستانغ" يَفضُل "ميتران" من حيث قيمته الشخصية، إلا أن "ميتران" يمثل أحزاباً وأفكاراً لها قيمتها ووزنها... وهذا هو المأزق الذي تتخبط فيه فرنسا اليوم...أتنتخب "جسكار" لقيمته الذاتية، أم تنتخب "ميتران" بسبب ما ومَن يمثل؟!

... في الدير استقبلني الأب "دوسّيني" (Dusseigne)، ببشاشة وطيبة... أول وجه قابلني جديد... ذكرت له اسمي، وذكر لي اسمه، وتصافحنا. ما إن سمع اسم سورية، حتى قال بدهشة فيها إعجاب لفت انتباهي: آه! سورية! دمشق! وكيف الأحوال هناك؟ – على أحسن ما يرام!... هذه ملاحظة أولى، سجّلتها بفرح ودهشة، وقد تبيّن لي بعد ذلك، أن النظرة إلى سورية وإلى العالم العربي، اختلفت كثيراً عما كانت عليه في السابق...

لم يعد يبقى في الدير من المقيمين السابقين فيه، إلا واحد أو اثنان. فكان علي أن أقدّم نفسي ككاهن عربي من سورية. وقد سعدت كثيراً، إذ لاحظت أنّ الدهشة نفسها، الممتزجة بالإعجاب، تستولي على الآباء، الواحد تلو الآخر...

وعلى العشاء، دار حوار حول العالم العربي والقضية الفلسطينية، تميّز، بخلاف الماضي، بالانفتاح والإصغاء والتقبّل. وقد شعرتني للمرة الأولى في هذه الدار، وكأني في بيتي، علماً بأني تردّدت إليها وأقمت فيها، عشر مرات على الأقل، منذ سنة 1955! الوجوه تغيّرت... والعقليات تغيّرت... والعنصرية تلاشت! غيمة حزن خيّمت على هذا الاستقبال، وهذه الليلة الأولى: عرفت ساعة وصولي، أن الأب "هنري انكلار" مصاب بسرطان عام، وهو في المستشفى، وأيامه أصبحت معدودة. أبديت الرغبة في زيارته، فعرض عليّ الأب "آبل باكييه" مرافقته في الغد، لإقامة الذبيحة مع الأب هنري. رحّبت بالفكرة.

الأحد 12:

القداس والفطور. حديث طويل بعد الفطور عن القضية العربية. لكم تغيّرت الأمور في هذا الدير! لم يُشعرني أحد بأني غريب عنهم، بل شعرتهم كلهم قريبين جداً مني. حاولت أن أعرف سبب هذا التغيير... إنها حرب تشرين أولاً... وتخاذل مصر ثانياً... وحرب الجولان وجبل الشيخ ثالثاً...

الشعب العربي شعب يقاتل... يعرف أن يقاتل... تغيّرت صورته في أذهان الناس... خصوصاً صورة السوري... حدّثوني عن عرضين قدّمهما التلفزيون الفرنسي، عن جبل الشيخ، والثالث والأخير سيقدّم غداً... ما كان أحد يتوقّع أن يصدر مثل هذا العمل من عرب... أسهم سورية عالية جداً.

مجرّد تجرّؤ العرب على مهاجمة إسرائيل، سلخ عنا كثيراً من العار الذي تلطّخ به اسمنا حتى اليوم! الغرب لا يفقه إلا لغة القوة!

بعد الفطور، كان لي جلسة طويلة مع الأب "بومان" (Baumann)، وهو صحفي في حوالي الخمسين من عمره، وله أصدقاء كثيرون في الوسط الصحافي. تحدّثنا أيضاً عن الشرق العربي، وعن التكوين العنصري والتوسعي للدولة الصهيونية... تحدّثنا أيضاً عن قضية الساعة في فرنسا: الانتخابات الرئاسية!... في رأيه وفي رأي بعض الأوساط المطلعة، أن الغرب والشرق يريد مرشح اليمين Giscard d'Estaing... توقيت الكشف عن الجاسوس الألماني في حاشية "ويلي براندت"... الخوف في روسيا وأوروبا الشرقية، من ظهور حكم اشتراكي- شيوعي في فرنسا، يشقّ الطريق أمام اشتراكية جديدة...يتصدّع بتأثيرها المعسكر الشرقي... والمصالح الاقتصادية الكبرى في فرنسا... كلّها عوامل هامة تتضافر لحمل "جيسكار" إلى الرئاسة. سوف لن يكون نجاحه نجاحاً كبيراً، وقد لا يفوز إلا بنسبة بضع مئة ألف صوت... ولكنه سوف ينجح... المشكلة الرئيسية ليست في نجاحه، بل في إدارته لدفة الحكم!... هنا المشكلة... عرض عليّ الأب الاتصال ببعض الصحفيين الفرنسيين. أبديت له الرغبة في الاتصال "بالفيكارو" خصوصاً، لأن إذاعة لندن نسبت إليها منذ أسبوع، مقالاً تحدّثت فيه عن اكتشاف حفرة كبيرة في ضواحي دمشق دفن فيها 70 يهودياً!... وقد سمعت هذا النبأ بنفسي من لندن وإسرائيل باللغة الفرنسية! أكد لي أنه سوف يتّصل ببعض الصحفيين لهذا الغرض!...

انطلقتُ إلى المدينة الجامعية. أيقظت طوني جناوي. تحدثنا فترة. ثم انطلقت معه إلى الجناح الأرمني، فلم أجد أبناء عمي. وبعدها ذهبنا لزيارة جوزيف مساميري. التقيته في غرفته مع جورج موصللي، شقيق إميل، بصحبة شاب حمصي يدعى عامر. جلسة لطيفة جداً. الحديث يدور حول أمرين: المعارك الحالية الدائرة في الجولان وجبل الشيخ، المتممة لمعارك تشرين... وما أعقب ذلك من تبدل في نظرة الفرنسيين إلى العرب، خصوصاً إلى السوريين... وضرورة الإسهام في بناء البلد... ثم التقيت ادمون بريمو وصديقه جوزيف معتوق ابن انطون...

لم أجد بطرس حلاق في بيته. نسيت أن أسأل عن جمال شحيّد...

الغداء في الدير... الحديث نفسه: القضية العربية...

بعد الغداء... ذهبت مع الأب "اندريه" إلى المستشفى. أذهلني منظر الأب هنري. بعد فترة جاء الأب "آبل". أقمنا الذبيحة. الرسالة المطلوبة كانت في غاية الملاءمة: بطرس يتحدث عن تحمّل المسيحي لألمه. والإنجيل كان عن الراعي الصالح، الذي يبذل نفسه عن الخراف... تعليق الأب هنري كان: أتساءل وأنا في هذه الحال، إن كنت قدتُ الناس إلى يسوع... أم أوقفتهم عند العتبة!... لا أفهم... هل باستطاعتكما أن تساعداني؟... أجابه آبل: ماذا أقول؟ أنت تتألم، ونحن على ما نحن عليه من عافية... كل ما أستطيع أن أقول هو أننا في يسوع وفي الذبيحة متّحِدون... وأؤثر الصمت! أما أنا فقلت: إن تكلمت، لا أرى ما أشبّه به اجتماعنا، سوى اجتماع أيوب مع أصدقائه، وهم يقرّعونه ويلقون عليه الدروس! أؤثر الصمت!

في طريق العودة، تبادلنا الرأي طويلاً أنا و"آبل"، حول الكنيسة وأوضاع الكهنة فيها، والأصالة التي تتجلى اليوم أكثر وأكثر في موقف الكهنة... في حين أن البنى الكنسية التقليدية، ما تزال هي هي، تخنق وتضيّق الأنفاس في خوف!

وقد سألني عن عملي... فحدّثته بمنتهى البساطة... وسألته عن عمله... فحدّثني بالبساطة نفسها... نتحدّث كما لو كان كل منا يعرف الآخر منذ سنوات! عمله يتركز الآن حول إنشاء مركز بحث، أو مجموعة بحث في مدينة "ابيدجان"... وهو يهيئ الآن دراسة حول بنية اللغة السوداء في ساحل العاج...

مساءً زارني بطرس حلاق وشاب جزائري يدعى كريم. وقفنا في الدهليز نتحدث، بينما كان الآباء يتناولون العشاء. الحديث نفسه: سورية والقضية العربية، وموقف الناس في فرنسا من العرب، والتبدّل الذي طرأ على هذا الموقف. بعد فترة، خرج الأب الوكيل وسائر الآباء، وإذا به يدعونا لتناول العشاء في الدير! أمر لم يحدث ولا مرة واحدة في السابق! تردّدت. فقال الأب الوكيل: تتردّد؟ قلت: أتعجب وأقارن. قال بابتسامة: أوَتشكّ في قدرتنا على الترحيب بالضيف؟ قلت: لا أشكّ، وإنما أتعجّب مما أرى... وأقارن!... وأراد أن يجلب لنا بنفسه الصحون!... أثناء العشاء أسرع الأب "ميشل لوباج" (LEPAGE) يقول لنا: هلموا شاهدوا الفيلم عن جبل الشيخ! وشاهدناه باعتزاز... الطريق يصل إلى القمة، الضابط السوري يتكلم الفرنسية بطلاقة. الجنود يقاتلون... في الصباح الباكر يستريحون... بعضهم يحلق ذقنه... بعضه يصور لوحة... والمجموع يرقص بفرح! وكان الضابط قد شرح للمراسل الفرنسي، المواقع السورية والإسرائيلية على قمم جبل الشيخ، راسماً المواقع على صفحة الدبابة! موجة اعتزاز غمرتني وغمرت الشابين... أكد لي أحد

الآباء بعد ذلك، أن الفرنسيين ما كانوا يصدّقون أن السوريين استطاعوا أن يشقّوا الطريق إلى القمة. وقد أكّدت لهم الصحافة الفرنسية أن السوريين فشلوا تماماً في شق هذا الطريق، بينما الإسرائيليون شقوا الطريق وتحصّنوا على القمة الرئيسية!

... أثناء العشاء سألني بطرس عن الرعية وعن "القداس والحرب".

... في التاسعة والنصف ليلاً جاءني طوني وجوزيف ومارتين. قمنا بجولة في المدينة، ثم عدنا إلى الدير.

الإثنين 13:

كتبت عدة رسائل.

في التاسعة جاءني جان ابن عمي. تحدّثنا طويلاً عن أوضاعه. أذكر أنه لم يسألني ولا مرة واحدة عن صحتي. كان غارقاً في الحديث عن أوضاعه... وقد لاحظت أنه كان يقول لي باستمرار: أتذكر القضية الفلانية، التي كنتُ حدّثتك عنها العام الماضي، أو منذ سنتين... ثم يتابع كلامه... كل إنسان يظن أن لا مشكلة في الكون إلا مشكلته!... أوضاعه في تحسن. أبدى الاستعداد للعودة إلى البلد، برغم إغراء بعض المراكز المعروضة عليه الآن. في النتيجة بيت الإنسان، بلده... يخشى من عدم تمكّنه من متابعة أبحاثه، ومن تحوّله إلى مجرد جراح يجمع مالاً... هذا جيد!... أشرت معه إلى الإرهاق الذي أعاني منه... وإلى التشنّج الذي أشعر به في أعلى الصدر، فلم يُبدِ أي اهتمام يُذكر. كل ما قاله أنه سوف يأتيني يوم الأربعاء بمهدئ جيد. مرّ على ذلك أسبوع كامل، ولم أره بعد ذلك. أخوه غسان لم يأت حتى الآن.

ذهبنا معاً إلى السفارة السورية. قابلنا بشارة خاروف، والعقيد محمد أبو الوفا المصري، ونبيه يقطيني، وهشام حداد. لا جديد بالنسبة إلى كتاب اللواء مصطفى طلاس، سوى أن المطبعة تنتظر وصول المخطوط كاملاً للمباشرة بالطباعة.

السفارة ما زالت في فوضى، ويبدو هذا واضحاً عند المدخل.

جواز سفر جان لم ينتهِ بعد... إرجع بعد غد!

شيء واحد تغيّر: في مكتب بشارة شيء من الترتيب، بخلاف الماضي، ووجود آلة Telex.

ملاحظة أخيرة: الملحق العسكري لا يتكلم الفرنسية. ولكنه لطيف.

بعد الظهر، شاهدت بمفردي فيلم "التانجو الأخير في باريس" (Le dernier tango à Paris). عجيب أمر السينما: من الذي يؤثّر أكثر في الآخر: الحياة أم هي؟ في رأيي أنه يصعب جداً على من يشاهد هذا الفيلم، أن يميّز بين الممثّلة وأي مومس أخرى... وإلى ذلك فهو يوحي بأن المرأة شيطان يسيّره الجنس، ويتلوّن بسهولة مذهلة، وينتقل بسرعة

غريبة من المضاجعة الأكثر عهراً إلى السير في الشارع متجلببة بالوقـــار، أو إلى مواجهـــة رجل آخر، في موقف حب عاطفي يبدو غاية في الصدق.

... مساء جاء جوزيف جناوي وشاهدنا معاً فيلماً آخر هو "بوّاب منتصف الليـــل". أثناء العرض خرج بعض المشاهدين وهم يصرخون: "هو فيلم لمرضى الأعصاب" (C'est un film pour névrosés). وفي الواقع هو مزيج من السادية والخوف، والماسوشية والجنس... يشد المشاهد طوال ساعتين إليه. بالمناسبة من الملاحظ أن بروز النازيـــة في الســـينما الفرنسية وغيرها، ومعه بروز التنكيل الذي حل باليهود، قد يكون مظهراً جديـــداً مـــن مظاهر الصهيونية... هذا البروز يتّخذ شكل موجة لا يُستهان بها، مـــن الأفـــلام الـــتي تتصدّى للموضوع نفسه، إما تصريحاً وإما تلميحاً...

أذكر كلمة قالتها بصوت عالٍ إحـــدى المشـــاهدات، أثنـــاء فـــيلم كرتـــون يحتـــلّ "بـــــاپـــــاي" فيه مركز القيادةً في جماعة سوداء: "لتسقط العنصرية! لن نسمح للأبـــيض بالتفوّق!" "A bas le racisme! Le blanc ne passera pas!"

الصالة كانت مكتظة بالحضور.

الثلاثاء 14:

كتبت عدداً من الرسائل. واتصلت بعدد آخر من الأصدقاء هاتفياً. زارني نزيه فريجات وأنطوان أودو. نقلت لنزيه أخبار أهله. وهنّأته بعيده في 13 الجاري. بالطبع تحدّثنا أيضـــاً عن البلد، وعن موقف الفرنسيين من القضية العربية، وعن التغيّر الذي طرأ علـــى هـــذا الموقف، بعد حرب تشرين، وبسبب حرب الجولان وجبل الشيخ، لا سيما بعد عـــرض الأفلام الثلاثة على شاشة التلفزيون.

... الأب "كريف" (Creef) جاء بعد الظهر. لم نستطع أن نتحدث طويلاً، لأنه كان قادماً في عمل. ترافقنا في الميترو، ولدى الصعود، لم يستطع أن يصعد معي، فرفع يديـــه بإشارة لم أفهم مغزاها... أسفت لأننا افترقنا على هذا النحو. ووعدت نفسي بالاتصال به هاتفياً... ولما وصلت في الوقت المحدد أمام البناء الذي يقطن فيه المنسنيور "مـــارولّو"، وجدته قادماً من بعيد، وابتسامة عريضة على شفتيه!... جاء خصيصاً ليودّعني... لأنه ما كان يريد لنا أن نفترق على هذا النحو! ثم ألحّ بالدعوة لزيارته في مقره الآخر، والقيـــام بزيارة لمنزل شقيقه Alain. مبادرة مؤثّرة جداً. هؤلاء الغربيون، عندما يحبّون، يُخلصـــون ويتفنّنون في الإخلاص! ولكن المحبّين بينهم قلّة! طبيعة الحياة لديهم تفرض عليهم نمطاً من العلاقات، يكاد يكون فارغاً من الشحنة الإنسانية.

مساء جاءني الأب بوز... تعشينا معاً في الدير. ثم جلسنا قليلاً نتحدث مع بعض الآباء... ثم خرجت وإياه... شربنا كأساً في مقهى، وظللنا نتمشى في الشارع حتى العاشرة والنصف ليلاً.

يعيش وحيداً. وضعه مع الأب نصرالله هو هو. لا أجر! لا وعظ في الكنيسة! حرية كبيرة حيال كل شيء! السينما تأخذ كثيراً من وقته... تحدّثنا طويلاً عن التيارات الفكرية الحديثة في الكنيسة، عن أزمة الكهنوت...عن تحجّر البنى الكنسية... عن وضع كنيستنا العربية... عن المؤتمر القادم للإكليروس... عن عملي... عن أسرة الرعية... عن الحرب وتأثيرها في سورية خاصة، والعالم العربي عامة، وفي فرنسا بالذات! أبدى إعجاباً كبيراً بالتبدلات التي طرأت على الإنسان في سورية، أثناء الحرب وبعدها. وطلب إلي أن أكتب وصفاً واقعياً لهذه التبدلات، سوف يوافي به الكثيرين من أصحابه، ومن المهتمين بقضية الشرق الأوسط، وبالوجود المسيحي العربي هناك. وعدته بذلك.

تنشّقت هواء جديداً في لقائي معه. وأكد لي أنه كان يشعر بضيق كبير في الصباح، عندما جاءه هاتف مني. وكان منذ أيام يفكر في الكتابة لي...

في هذه الأثناء، جرى الاستفتاء في إيطاليا على رفض قانون الإجهاض، أو الإبقاء عليه. النتيجة: يبقى القانون! صدمة كبيرة للتقليديين، وللقوى اليمينية في إيطاليا، وللكنيسة الرسمية. هل سيحمل هذا "المسؤولين" على إعادة النظر في بعض المفاهيم والبنى؟!

الأربعاء 15:

مراجعة الدكتور Halpern. المراجعة في الساعة 9. لم أقابله إلا في الساعة 12 تماماً.

لاحظ احتقاناً في الحنجرة.

يعتقد أن الجرثومة المسبّبة قد تكون تغيّرت.

أشار علي بالغرغرة بـــ (pérubore) يومياً إلى ما لا نهاية...

بالطبع ينتظر نتيجة الفحوص المخبرية.

بعد الظهر مقابلة "جورج مونتارون" (Montaron)، صاحب جريدة "الشهادة المسيحية". (T. C.). كان يشكو من ألم في ساقه. تحدثنا مدة ساعة تقريباً عن:

الانتخابات الفرنسية: لماذا يؤيد (Mitterand)؟

أبدى وجهة نظر معقولة:

من الناحية الفرنسية الداخلية:

فرنسا حُكِمت طويلاً من قبل اليمين...

G. D'Estaing يمثّل مصالح اليمين والرأسماليين

التيار اليساري يدعو لتجديد يدفع بالمجتمع الفرنسي إلى أفضل...

من الناحية العربية – الإسرائيلية:

"ميتران" معروف بموالاته لإسرائيل...

ولكن المعطيات الاقتصادية والايديولوجية والحزبية في فرنسا، لن تسمح له بأن ينفرد بعلاقاته مع إسرائيل...

القضية العربية والرأي العام الفرنسي...

حرب تشرين في سورية...   حرب تشرين في فرنسا...

القضية العربية بصورة عامة اليوم، والرأي الفرنسي: ثمّة تطوّر بطيء وواضح... ولكن المجال ما يزال واسعاً جداً لعمل أكثر انتظاماً واستمراراً...

السفارات التي تلبي هذه الحاجة بالتعاون مع صحيفة "الشهادة المسيحية" .T.C:

سفارات سورية والجزائر والعراق!

أما عن .T.C فقد أكّد لي أن عشرة اشتراكات جاءته من وزارة الإعلام في دمشق.

حدّثته عن عمل أسرة الرعية الجامعية... وبلّغته تحية أنطون المقدسي

وفاجأني بعملية الفدائيين في "معلوط"!... "كمال ناصر"...

مساء على التلفزيون عرفنا تفاصيل – أو بعض تفاصيل – عملية كمال ناصر... وكانت ثورة الرأي العام الفرنسي والغربي لا تطاق: "مجزرة، مذبحة، اغتيال". (Massacre, tuerie, assassinat!) الخ... تلك كانت الكلمات التي تتردّد غالباً في التلفزيون!...

الخميس 16:

الفحوص المخبرية في مخبر الدكتور سامارك. لم أجده...

الصحافة منذ الصباح الباكر، تصبّ نقمتها على الوحوش العرب...

على صفحاتها الأولى وبالأحرف الضخمة! ما من صحيفة أو مجلة إلا وخصصت لهذه العملية أعمدتها الأولى، وافتتاحياتها، والعديد من التعليقات والصور.

- تأييد رسمي وشعبي لإسرائيل!
- ردود أفعال عالمية... نقلت يوماً بعد يوم على الصفحات وفي التلفزيون.
- أما بالنسبة إلى الحادثة نفسها، فقد أعطيت صيغتين مختلفتين، تعكسان اضطراب إسرائيل... وقد تثيران الشكوك في سلامة موقف إسرائيل، في نظر من له شيء من الاطّلاع على الأمور، أو رغبة في تقصّي الحقائق، على غير ما تقدّمه الأوساط

الرسمية. أما الباقون!...

- المرشحان لم يتورعا عن ذكر أسفهما وتقديم تعزياتهما رسمياً لحكومة إسرائيل... ناعتين الفدائيين بالقتلة (!assassins)
- قيل لي إن .G. D أضاف إلى ذلك أسفه لقصف إسرائيل الانتقامي للبنان... لم أسمع ذلك.
- وقيل لي في السفارة اللبنانية من أحد المسؤولين إن "ألان باور" (A. Power) طلب صراحة من ميتران أن يبرق معزياً إلى حكومة لبنان، فرفض!
- أما الفاتيكان فقد أبرق لإسرائيل معزياً... وذكر البابا بأسف الحادثة منددّاً... ولما قصفت إسرائيل لبنان، أبرق إلى سفيره في بيروت معزّياً، ويسأله تقديم التعازي باسمه!
- ولكن أجمل ما قيل في نظري، الكلمة التي ذكرها أديب حتحوت أمس، والتي جاءت في مجلة "صحيفة الأحد": "إن قتل بضعة أطفال جريمة. أما صب النابالم على مخيمات اللاجئين، فهو انتصار!".
- وتعليقات الصحافة وسائر وسائل الإعلام، استمرّت تستعرض ردود الأفعال العالمية والداخلية على "مجزرة معلوط"، حتى بعد القصف الإسرائيلي المتكرر للبنان...
- وللحظتي (5/24) طالعت في مجلة "الحياة المسيحية"، أحد هذه الردود: صورة ضخمة مع تعليق عنيف... لا يذكر فيه بأي شكل القصف المتكرر للبنان... علماً بأن المجلة ظهرت في 22 الجاري!
- تجدر الإشارة إلى أن جريدة "الصليب" (La Croix) ذكرت أن موشي دايان استُقبِل بغضب في معلوط، وأن الصحافة هناك كانت ساخطة:
    - على قوات الأمن التي أهملت واجبها في حماية أطفال المدرسة
    - على رجال الجيش المكلّفين بذلك، والذين كانوا أول من هرب ساعة وقوع الواقعة.
    - وعلى بعض المدرّسين الذين كانوا يرافقون الطلاب، والذين هربوا تاركين الطلاب دون سند معنوي!
    - سوف أكتب أو اتصل مباشرة بمجلة "الحياة المسيحية"، (La Vie Catholique)، وكذلك مجلة (.i. c. i) "معلومات كاثوليكية دولية".

قابلت مساء سعدالله ونوس. تعشّينا معاً في أحد المطاعم. تحدّثنا طويلاً عن أعماله الفنية... عن مسرحيته "مغامرة رأس المملوك جابر" في ألمانيا... عن الغرب الغارق في الدعاية الصهيونية... عن العالم العربي المفكّك والمبعثر... عن بعض الأعمال المسرحية في

فرنسا... وخصوصاً عمّا يجمعنا على اختلاف معتقداتنا المذهبية... الإنسان عامة والإنسان العربي خاصة... وما يقتضي النهوض به من كل عربي، من عطاء وتضحية!...

أعرض عن حضور الندوة الشعرية، التي يُحييها محمود درويش وشاعران عربيان آخران... وافترقنا على أمل اللقاء غداً.

ذهبت إلى البيت اللبناني. الصالة ملأى بالصور والخرائط عن فلسطين. عدد قليل جداً من الفتيان والفتيات. لا ذوق على الإطلاق في هذا المعرض الفلسطيني! لا في الصور... ولا في طريقة عرضها، ولا خصوصاً في الموسيقى الحماسية التي تمزق الأذن! أما لجنة الاستقبال، فلم أعثر لها على أثر... وقفت لحظة وحيداً، ثم التقيت "ادمون بريمو" وزوجته مني... ثم سيمون كويتر... ثم جاكلين شقيقة مني. وقد لاحظت أنها رأتني وتظاهرت أولاً بالعكس، ثم تقدّمت منها وحيّيتها فحيّتني... "بلهفة!"... تحدّثنا قليلاً عن المعرض... عن الموسيقى... عن التنظيم... عن التوقيت في الثامنة والنصف، تبدأ الندوة... ولما خرجت، كانت التاسعة إلا ربعاً، وما كان في الصالة أكثر من 30 إلى أربعين شخصاً!... لمحت، وأنا ذاهب، محمود درويش يتحدث إلى شابين! قيل لي بعد ذلك إن الندوة بدأت في التاسعة والنصف، وإنها ضمت ما لا يقل عن (500) شخص. التاسعة والنصف، طبعاً، مواعيدنا لا تتغير!... أو بالأحرى عاداتنا في التقيد بالمواعيد... وعرفنا بعد ذلك أنها كانت ندوة عادية جداً... وهناك من قال إنها كانت معقولة!

أخشى على محمود درويش أن يفرغ بنشوة التعظيم والإكبار!

عدت إلى الدير، فوجدت ما لا يقل عن سبعة كهنة جالسين في غرفة الطعام يتحدّثون. جلست إليهم. وللحال تحوّل الحديث كله إلى القضية العربية... سُئلت عن رأيي في قضية معلوط... بهدوء كبير أبديت تحفّظي حيال العملية في ذاتها... وحيال ما يشبهها من أعمال العنف... بل استنكرتها في أساسها.

ولكني رغبت إليهم أن يطرحوا السؤال، حول الدوافع الرئيسية والعميقة، لمثل هذه الأعمال اليائسة؟... وأوضحت هذا السؤال...

ثم رغبت إليهم في استعادة مواقف إسرائيل السابقة، في مثل هذه الحالات؟... فإسرائيل لم تخضع ولا مرة واحدة، لتهديدات الفدائيين... منذ "مونيخ" (Munich)... إلى كريت شمونه (الخالصة) إلى معلوط... وهناك مواقف عديدة كثيرة ومماثلة...

لذا أنا شخصياً، لا أتردّد في الأخذ بوجهة النظر القائلة، بأن إسرائيل هي المسؤولة، قبل كل شيء، عن حدوث المجزرة... وأنه كان بإمكانها تجنّبها...

يدعم هذه النظرة التضارب الواضح في البيانات الرسمية الإسرائيلية، وتصريح سفير فرنسا...

وهل كان يضير إسرائيل لو خضعت... وأطلقت سراح 23 فدائياً معتقلاً، من بين آلاف المعتقلين في سجونها؟...

من الواضح عند هذا التحليل، أن إسرائيل لا تتردّد أبداً من الإقدام على عمل يكلّفها بعضاً من أبنائها، على أن تستثير غضب العالم كله ضد "وحشية" الفلسطينيين والعرب... وأن تستثير عطف العالم عليها...

ثم هناك ظاهرة واضحة، كان على إسرائيل أن تأخذها بعين الاعتبار، لو كانت صادقة في رغبتها في إنقاذ أبنائها:

- في السابق كان الفدائيون يعاندون ثم يستسلمون... ويقول الجميع عندها: إنهم جبناء...
- منذ مدة وجيزة، عمليات الفدائيين اتخذت طابعاً انتحارياً رهيباً، لا يلين ولا يتراجع... فلماذا قامت القيامة، ولماذا ننعتهم بالمتوحشين والقتلة؟...
- وتابعت الحديث بناء على بعض الأسئلة... عن علاقات المسيحيين العرب بالمسلمين العرب... وعن أصالة الإنسان العربي عامة، والمسلم خاصة، عن طيبته... عن معاملته للأقليات، برغم كل ما يقال ضد ذلك... عن تاريخ تعامله الطويل والطيب مع اليهود... في حين كان الغرب يضطهد اليهود ويطاردهم من بلد لآخر...

وتحدّثت عن جهل أو تعامي بعض كبار المثقّفين الغربيين لهذه القضية... وعن افتقار المسيحيين الغربيين، وخصوصاً اللاهوتيين بينهم، إلى الإحساس الوجداني، ليس فقط بعمق المأساة وضخامتها، بل حتى بوجودها ليس إلا!...

وذكرت مثالاً على ذلك:

الأب كونغار ومقابلتي له في العام الماضي...

والكردينال مارتي ورسالتي له في العام الماضي!...

كنت أتكلم بهدوء كبير، وبأسلوب يعتمد طرح الأسئلة...

طالت الجلسة حتى العاشرة والنصف ليلاً...

الجمعة 5/17

قضيت الصباح أكتب عدداً من الرسائل...

يومها عادت رسالتي للأب "آنسل" (Ancel)، وقد شُطِب على اسمه. استغربت هذا واستهجنته. لم يحدث قبل الآن. أفكار كثيرة راودتني حول هذا الأمر. فكّرت في الكتابة للرئيس الحالي. آثرت أن أعيد الرسالة في ظرف آخر إلى عنوان آخر، وأترقب. أرجو فقط

ألا يكون الأب Ancel قد أصبح "عالة"، على بعض الذين أعطاهم حياته وقلبه وصَلاته مدة ثلاثين سنة وأكثر! أرجو أن يكون ما حدث خطأ، يُسأل عنه البواب ليس إلا...

تفجير أول قنبلة نووية هندية! التعليقات كثيرة، تتراوح بين المؤيد والصاخب والساخط

هللتُ لهذه الخطوة تحقّقها الهند

مساء تحدثت إلى الأب "آبل" في مكتبه... قلت له إني شعرت منذ اللحظة الأولى بارتياح كبير نحوه، كما لو كنت أعرفه منذ سنوات. وقد أكّد لي ذلك بدوره بالنسبة إليّ...

قطع علينا الحديث هالة وطوني. شدّد عليّ طوني الدعوة لزيارته مساء في غرفته... جوزيف ومارتين ومها ومناضلة فرنسية قضت سنة في غينيا بيساو، يقضون السهرة عنده. رحّبت بالفكرة... بعد العشاء قال لي الأب ميشل: "ما زلت أفكر بما قلت لنا مساء أمس. وقد ذكّرني كلامك براهبة فرنسيسكانية أقامت مدة في سورية، وقد حدّثتنا هي أيضاً الكلام نفسه". سألته عنها... لم أذكرها. سألته أن يجمعني بها. سرّ بذلك. قال: سأدعوها لتناول الطعام معنا يوم الإثنين...

التقيت عند طوني، مها وجاكلين، وحدّثتنا هذه عن السنة التي قضتها في غينيا بيساو، بصفتها طبيبة متطوّعة، مع 69 طبيباً آخر، تطوّعوا للخدمة في بيساو مع الثوار. كلّهم شيوعيون جاؤوا من مختلف أنحاء العالم. كانت المرأة الوحيدة بينهم. عاشت السنة بكاملها في المناطق المحررة.

عن وضعها:

- خصّصوا لها ثمانية مقاتلين لحمايتها... ليلاً نهاراً...
- لم يصدّقوا أنها غير متزوجة...
- يقدّمون لها أفضل ما عندهم من مأكل ومشرب، على فقرهم!...
- كانت تتنقّل من منطقة لأخرى ليلاً... وأحياناً تعبر الأنهر على جذع شجرة بصفة جسر... وقد سقطت مرة في النهر، وعرفت بعد ذلك أن النهر مليء بالتماسيح
- يوما جمدت من خوفها من العبور فحملوها!...
- مرضت في بادئ الأمر... ثم نشطت جيداً...
- معجبة كثيراً بالشعب وبقوته على الاحتمال والتضحية.
- تحتقر زملاءها الطلاب في الجامعة، لأنهم يكتفون من النضال بالكلام، ويعيشون في ترف وتفاهة يبعثان على القرف.

عن السكان: بدأوا النضال منذ 1961

يقاتلون بثقة كبيرة ويخضعون لقيادة واحدة.

لا يعرفون التعامل بالمال...

يمارسون قضاء شعبياً...

القيادات تعيش وسط الشعب، في مودّة وبساطة مذهلتين

يحتفظون حتى وسط أعنف الغارات، بهدوء وفرح كبيرين.

- عنيدون جداً: لا يملّون من إعادة بناء ما دمّره القصف البرتغالي... منهم امرأة أمّيّة، عضو في مجلس الشعب، أعادت بناء كوخها (17) مرة في المكان نفسه... وسألتها الطبيبة لِمَ لا تغيّر مكانه؟... أجابت: لن يقصفوا إلى الأبد! ولسوف يملّون!...
- قدرتهم على احتمال الألم لا حد لها...
- تعاطفهم وتعاونهم، دُنيا قائمة بذاتها...
- تحبّهم كثيراً وتتمنّى أن تعود إليهم...
- وقد دُعِيت لزيارة غينيا بيساو في الصيف القادم!
- أما المناطق المحررة، فتكاد تكون المنطقة برمتها، باستثناء العاصمة وبعض المدن الصغيرة...
- المفاوضات تبدأ غداً 25 الجاري... والاستقلال بات قريباً...
- لقاء رائع... وأروع من كل ذلك طريقة حديثها: لا تصنّع، لا منفخة!...
- سألتها بضع أسئلة، منها إن كان عملها مأجوراً أم مجانياً، وقد اعتذرت إليها مسبقاً عن ذلك، قالت: مجاناً!

في هذه الأثناء شنّت مجموعة من عشرات الشبان والفتيات، المسلّحين بقضبان من الحديد، هجوماً على "البيت اللبناني"، دمّروا ما استطاعوا، ضربوا من طالوا، فجُرِح سبعة، منهم واحد بحالة خطرة، وأشعلوا النار فيه ثم ذهبوا كما أتوا، دون أن يعترض سبيلهم أحد، ويبدو أن رجال الإطفاء وصلوا بعد إضرام النار بنصف ساعة!

عرفت هذا في اليوم التالي.

السبت 5/18:

لقاء مع سمير طعمة. سلمته رسالة سامية. شاب مهذب، لطيف، هادئ، ذكي.

قضينا ساعة ونيفاً... تحدّثنا عن وضع الطلاب العرب... عن إمكانية الدراسة هنا... عن إمكانيات البعثرة... عن جدية القلّة... عن صعوبات الحياة في هذا المجتمع... عن الوحدة التي يعاني منها الطالب... عن وضعه الشخصي... عن شعوره بالوحدة والغربة،

برغم وجوده في بيت أخيه، وبرغم المعاملة الجيدة التي يلقاها من زوج أخيه... عن قلقه بالنسبة إلى العام القادم، لأن أخاه سينتقل إلى الكويت مع أسرته، مُنتدَباً من قبل إحدى الشركات الفرنسية!

أشار إلى ميشل شار... عرفته، ابن جورج. سألته أن يحمل له تحيتي.

سألني عن سامية وعن دروسها، ومدى رغبتها في السفر إلى خارج سورية، وعن مدى استعداد أهلها للسماح لها بالسفر الخ... فأحلته على الرسالة التي حملتها له... وأخبرني عن الاتصالات التي يجريها من أجلها. وافترقنا على أمل اللقاء قريباً.

ثم جاء بيير سارة بصحبة ابنه شارل وابنته ميرنا.

عرفت منه أنه يزمع شراء بيت – فيلا في إحدى ضواحي باريس، بمساعدة أخيه جورج، بكلفة قرابة (220) ألف فرنك... (ليرة)...

عمله الجديد أفضل من الأول. وضعه مع سلام جيد للغاية. الحمد لله!

منطقة بيته الحالي، هادئة وجميلة ونظيفة. مع أنها منطقة شعبية. المدرسة الصغيرة المحاذية لبيته، ذات طابق أرضي، وحديقة واسعة جداً، ذكّرتني بمدارس بلادنا وبأطفال بلادنا... وبكيت في سري. خنقت العبرات في حلقي.

قضيت معه ومع سلام في بيته وقتاً ممتعاً... ولكن هذا لم يُنسِني أطفال بلادي. عبثاً حاولت أن أنساهم. كانوا يلاحقوني، في الحديث، في الشرود، أثناء الطعام...

تبادلنا الرأي طبعاً حول حوادث معلوط وقصف لبنان... حدّثتني سلام عن موقف جارتها الإيطالية منها، التي ظنّتها إيطالية... فقالت لزوجها: أريد أن أعرفك على جيران هم مثلنا!... ولما دخلوا بيتهم، قالت المرأة بعفوية: عجيب! تلبسون مثلنا... وتأكلون مثلنا وبيتكم مرتب مثلنا!... ووجهك غير مرقش!...

ما زلنا في نظر الكثيرين بدواً رحّلاً!...

قضينا فترة طيبة معاً... كنت في غاية الإرهاق والحزن، ما بيني وبين نفسي... ولكني كنت سعيداً بالنسبة إلى بيير وأسرته...

قمنا بجولة بعد ذلك في المنطقة، وأعادوني إلى الدير في الرابعة والنصف تقريباً وكنت منهكاً.

استطعت أن أوجه الحديث طوال الوقت، بحيث أنهما حدّثاني عن حياتهما وعملهما ومشاريعهما... وما أفسحتُ لهما لحظة واحدة يسألاني فيها عن صحتي وعملي وأحوالي...

أهذه أنانية، أم كبرياء أم محبة؟... لست أدري... شارلو رغب إليّ أن أقدّم له أسطوانة لفيروز... زجره والداه، ولكني لن أنسى ذلك، وسأفاجئهم بها.

في المساء التقيت سعدالله ونوس، تناولنا العشاء معاً في المطعم، وشاهدنا معاً مسرحية "المعجزات" (Les Miracles) لــ "انطوان فيتيز" (Antoine VITEZ).

في المطعم، سألني سعدالله عن صحتي باهتمام بالغ. فاجأني بلهجته! سألته عن أعماله الجديدة... يهيئ ثلاثية يتعرض فيها لمحمد بأسلوب يريد به أن يقلب المفاهيم كلّها والمسلّمات الدينية والسياسية والتاريخية العربية والإسلامية كلّها... بدأ العمل.

تحدّثنا عن تأثير الفكر الغربي بالفكر العربي... عن ضياع الثقافة العربية، عن الاختناق الذي تعاني منه... عن الدراسة التي يهيئها حول هذا الموضوع، هي مزيج من يوميات ودراسات وتحليل لمسرحيات ومطالعات!...

... عن الوسط الفني السوري... عن الصفاء الذي امتازت به المجموعة التي كانت تعمل معه... سمير سلمون، محمد الشليان... علاء الدين كوكش... أصرّ على دفع ثمن العشاء...

... عن حرب تشرين... عن المعطيات المعروفة والمجهولة للحرب. وعن توقّعاته المتشائمة للمستقبل القريب...

... عن ضرورة العودة والبقاء والعطاء، ضمن الحيّز الضيّق المتوفّر... أملاً في توسيعه وتبديل الواقع...

... عن ضرورة العمل مع أديب اللحمي وأنطون المقدسي... على إدخال تغيير ما على اتحاد الكتاب العرب، من حيث تأليفه، وتشكيل اللجان المسؤولة فيه... وتوفير الكتب والمجلات الضرورية له، وعن توفّر مكتبة جيدة للمطالعة! "الفنانون والراقصات يَنتخِبون مكتبهم التنفيذي انتخاباً، والمفكّرون أو المفروض فيهم أن يكونوا صفوة المفكرين والأدباء، يُفرَض هذا المكتب عليهم فرضاً!"...

... وعن ضرورة تنظيم عمل ما، مع مجموعات معينة من الشبان، مثل الرعية الجامعية، للقيام بحملة ما أو حملات... على نطاق التنظيف مثلاً، على نطاق التوعية الخ...

... ثم شاهدنا المسرحية. ساعتان وربع. لا ديكور على الإطلاق، سوى السقالة الحديدية الموجودة على منصة المسرح النصف دائرية.

... الإخراج ارتكز على تنسيق مدهش بين الصمت والإشارات، والحركات وبعض الأصوات (صراخ... أو إنشاد أو استغاثات) ترافق كلمات الإنجيل بحسب يوحنا خصوصاً.

هي معجزات المسيح!

الواقع أن العمل، كما قلت لسعدالله، مدهش فنياً، يفاجئ في كل لحظة. المُشاهِد مشدود على الدوام، يتساءل في كل ثانية ماذا تخبئ له الثانية التالية.

ونَقْد العمل فنياً، يقتضي، في تقديري، حضوره مرتين أو ثلاث مرات على الأقل. على كل حال قدرة المخرج الإبداعية مذهلة...

وقد عقّب سعدالله على ذلك:

هنا تتبدّى لي هذه القدرة الإبداعية واسعة التأثير، من حيث هي أداة توعية. وأنا لا أشك لحظة من أن المخرج يستطيع بمثل هذه القدرة، أن يخرج مسرحياً مثلاً... كارل ماركس وغيره من قادة الفكر الحديث!

ملاحظة عميقة وواقعية تماماً.

أما دينياً... فالعمل في تقديري مسخ وتمسيخ ليس فقط للمسيح، بل للدين كله...

وقد لاحظ سعدالله أن هذا العمل بالذات قد ينطوي على رغبة لا واعية لدى المخرج، في العودة بصورة ما إلى الدين... وبالتالي قد يكون اعترافاً ضمنياً ولاواعياً بحاجته إلى الدين...

كما أنه، فيما يبدو من الإخراج، قد يكون محاولة لتقليص حجم الدين ومعجزات المسيح بالذات، إلى حاجة باطنية ذاتية لدى الإنسان ليس إلا... وإذن لاعتبارها قوة متفجرة من أعماق الإنسان، استجاب هو لها، ولا علاقة لها على الإطلاق بأي عالم من المطلق، خارج عنه!...

من هنا، كان في رأي سعدالله، تمثيل كل بطل معجزة لواقعة المعجزة نفسها، وكأنه هو أوجدها... وأبدعها... وروّج لها!...

ثم زرت سعدالله في غرفته، حيث فاجأتني صورة ذكية جداً لفرويد **Freud**، لم أنتبه لها بادئ الأمر، يحتلّ فيها وجهَ فرويد، وفي قسمه الأعلى من الأنف حتى النظارات والعينين والجبين... امرأة عارية. الصورة بحجم متر ونيف طولاً، وستين سم عرضاً.

الغرفة متواضعة جداً... في ما يقارب نصف مساحتها فراش على الأرض عريض... قال سعدالله بكل بساطة: إنه فراشي... جلست ربع ساعة تقريباً. وافترقنا على أمل اللقاء من جديد في اليوم التالي!...

ولم أتصل به حتى اليوم 26 أيار!...

الأحد 5/19:

اليوم تاريخ هام في فرنسا. انتخابات رئاسة الجمهورية.

منذ فترة والأصوات تتأرجح مناصفة بين جسكار وميتران.

وسائل الإعلام أيضاً تحاول أن تكون منصفة بين الإثنين.

الملصقات تملأ منذ أيام شوارع باريس.

جسكار يتحدّث عن التغيير في سلام وبحبوحة...

متران يتحدّث عن التغيير في الحرية والعدالة...

بعض الملصقات ألصقت فوقها لافتات "صغيرة" كالتالي:

صورة متران: متران... مارشيه (رئيس الحزب الشيوعي)... موسكو... إلى الجحيم!

صورة جسكار مع ابنته: أنا والماما، إذ نعرف البابا، سنصوّت لميتران.

صورة جسكار: جيسكار يَصلُح للدولار!... صورة متران: متران... لا يُؤتمَن!...

باريس هادئة للغاية... التلفزيون يغطي من وقت لآخر، عملية الاقتراع. الكهنة حيث أسكن، ينقسمون في الرأي، دون صدام...

بعضهم، كسائر الفرنسيين، لا يثق بجسكار، بسبب انتماءاته الطبقية. وبعضهم، كسائر الفرنسيين، لا يثق بمتران، بسبب حجمه الشخصي! ولكن الجميع مُجمعون على ضرورة إحداث تغيير في فرنسا، يأخذ بعين الاعتبار متطلبات العدالة... وحاجة المجتمع إلى الخروج من مستنقع العفن، الذي يعاني منه المجتمع الفرنسي... دون أن يعرفوا تماماً بما يستبدلونه. وقد أغدق كل من المرشحين، وخصوصاً جسكار، الوعود!

موجة اليسار تتعالى دون شك...

وموجة الخوف من الشيوعية، تمتد أيضاً دون شك...

الجميع يتوقعون فوز "جسكار"، ولكن بأغلبية لا تتجاوز 200,000 صوت!...

وبعضهم يرجو مع ذلك فوز "متران" دون أمل كبير!

قداس الصباح، حضَرتُه كالعادة في الدير. الإنجيل كان حول السلام الذي حدّث يسوع تلاميذه عنه في العشاء الأخير، والرسالة من رؤيا يوحنا تتحدّث عن أورشليم السماوية...

في المشاركة الإنجيلية، أشرت إلى السلام الذي حمله الرب يسوع، وإلى أورشليم السماوية... قلت إنها لا تنسيني أورشليم الحقيقية الأرضية... حيث أقدَس ما على الأرض يُداس كل يوم... الإنسان، الإنسان الذي أحبه الرب ومات من أجله... حقد وحرب وكراهية... لا سلام هناك... ونتساءل إلى متى؟...

صلاة إلى الرب كي نصبح كلنا منفردين ومجتمعين، بناة سلام حقيقي، يقوم على العدل واحترام الإنسان، لا على الكلام والعاطفة.

بعد الظهر شاهدت فيلم "راقصات الفالس". قال سعدالله إنه يود أحياناً أن يكون مثل أبطال هذا الفيلم. أبطاله... زعران يبحثون عن متعة تتجسد في جسد امرأة ليس إلا، أساليب دنيئة حقيرة وقذرة وعنيفة... وينتهي الفيلم دون أن ينالوا أي عقاب، أو يبدو

أنهم سينالون عقاباً ما... والصالة تضحك لهم مؤيدة، وأحياناً معجبة!

مرة أخرى أتساءل عن مدى تأثير السينما على الحياة أو العكس...

ومرة أخرى أتساءل ما الفرق بين بعض الممثلات، والنساء اللواتي اتخذن من العهر مهنة!

بعد الفيلم، عدت إلى الدير، فوجدت الأب "آبل" حزيناً كالح الوجه. سألته: ما الخبر؟ قال: يبدو أن متران قد خسر!...

من كان يظن منذ أربع أو خمس سنوات فقط، أن اليسار سينشط إلى هذا الحد؟ ظاهرة جديدة يجب أخذها بعين الاعتبار.

أثناء العشاء، النقاش دار عن الانتخابات طبعاً. الآراء منقسمة، ولكن الجو هادئ.

بعد العشاء، أسرع الجميع إلى التلفزيون. كان البرنامج موزعاً كالتالي: إطلاع المشاهدين على النتائج أولاً بأول... في الوقت الذي عقدت فيه ندوة أولى، ثم ثانية، بين رؤساء الأحزاب وممثليهم... استمر الأمر على هذه الحال حتى العاشرة والنصف، حيث اعتذرت ومضيت...

كانت النتائج قد أظهرت فوز جسكار بفارق بسيط جداً...

أما المناقشات، فقد اتسمت بطابع من الصراحة والهجومية أذهلني. الاشتراكيون والشيوعيون بدوا منتصرين، على شيء من الامتعاض، بعد إذ خسروا الجولة بفارق لا يكاد يذكر!... أما اليمين والوسط والديغوليون، فبدوا مرتاحين بعض الشيء، وإن كانوا على جانب كبير من الانزعاج، بسبب النجاح الكبير الذي حققه اليسار.

المناقشة كانت في الغالب حادة... ولكن لم يَقطع أي منهم الحبل مع محدّثه... برغم الطعنات القاسية التي وجّهها كل للآخر.

كانت جلسة محاسبة وتصفية حسابات، يتبعها الآباء بتجاوب وانفعال، تارة يضحكون، وطوراً يزمجرون مستنكرين!...

جلسة فريدة من نوعها بالنسبة إليّ... أعتقد أن الفرنسيين قد لا يتمتّعون بها كثيراً أو بمثلها في المستقبل، إذا ما أمسك اليسار، ومعه الشيوعيون، بزمام الحكم في فرنسا. أعتقد دون أن أجزم.

في هذا اليوم، وجّهت رسالة لزوجة الرئيس الراحل "جورج بومبيدو"، الذي بدا في هذا الجو، غائباً ومنسياً على نحو تام.

الإثنين 5/20

زيارة عبدالله نعمان، ابن شقيق المطران نعمان. شاب في السادسة والعشرين: ملحق ثقافي للبنان في باريس. وسيم ولطيف.

حدّثته عن قضية عمّه والمطران "مارولّو"... أبدى ارتياحه الشخصي وارتياح العرب لانتخاب جسكار. السفارة اللبنانية في حراسة بوليسية مشددة.

... زيارة راوول فولّرو.

لقاء جد لطيف. كان غادر المستشفى منذ أسبوع. يشكو من التهاب الزائدة.

سألته عن عمله... بعد أن أبديت له سعادتي بالتعرف إليه... وقد عرفته من الكتب والمقالات... وخصوصاً من خلال كتيّب الأب صقر... الأب صقر بالنسبة إليه: رجل الله.

عمله بدأه منذ أكثر من خمسين سنة... منفرداً...

أما اليوم فهو يرحل، متى يشاء الرب، مطمئناً، لأن المؤسسة التي أنشأها ضاربة الجذور في بلدان كثيرة، ولها مؤيدون ومعاونون كثيرون...

لم يُمنَح ولداً... فكان البُرص في العالم أولاده. وهو سعيد بهم. سرّه؟

1) وجود زوجته إلى جانبه كل يوم... لم يفترقا يوماً واحداً منذ بدأ العمل... رافقته في جميع أسفاره، وكانت تقبّل البرص، كما يقبّلهم هو... هناك خمسة ملايين أبرص يعتبرونها أمهم... ينادونها بـ "ماما مادلين"! وفي عيد الأم، تأتيها مئات الرسائل منهم!

جمعني بها قبل أن أودّعه. وجهها كوجهه: نور وإشراق وبسمة، وصفاء عينين مذهل!

2) ونعمة الرب!

ذاك هو سرّه!

سيحتفلان في 22 حزيران 1975، بمرور خمسين سنة على زواجهما، يرجوان للمناسبة أن يقوما بجولة للشرق والأراضي المقدسة.

سألني عن صافيتا... عن الأب صقر... عن سورية...

قدّم لي مجموعة مؤلفاته مع أسطوانتين، رجوته أن يهديها للرعية الجامعية، وقد حدثته عنها قليلاً. (إحدى سكرتيراته تعمل في المؤسسة من 39 سنة، وقد رفضت أن تتقاضى أي أجر، لأنها في الوقت نفسه تعمل موظفة في إحدى المؤسسات...)

الأخت تيريز في انتظاري ظهراً، مع الأب "ميشل أوبريه".

ذكّرتني بنفسها. سألتني بشغف عن دمشق أيام الحرب.

تبادلنا الرأي حول موقف الغربيين من القضية العربية.

أساء العرب في السابق التصرف إعلامياً. بعد حرب تشرين وأثناءها، تبدّل الموقف قليلاً من جهتنا أولاً نحن العرب، ومن جهة الغربيين ثانياً. إلا أن الدعاية الصهيونية لا تزال قوية وعميقة الجذور...

على مائدة الطعام، أثيرت الأسئلة نفسها مع بعض الآباء...

الأب ميشل أكّد لي أني أثرته كثيراً بحديثي الهادئ عن قضية مصيرية، كان من الواضح أنها تؤلمني كثيراً.. وكان قد لاحظ أن الأخت تيريز تتألم كثيراً، عندما كانت تتحدث، بشكل أو بآخر، عن القضية العربية...

أعطيتها نص "القداس والحرب"... بعد أن حدّثتهما عن تجربة الرعية أثناء الحرب... رجوتها أن تقرأها وتعطي ملاحظاتها بصراحة حولها.

تسافر قريباً للأردن، مع ثلاث راهبات للعمل هناك. لا تدري شيئاً عن العمل!

في غرفة الطعام حديث مع الأب "لوم" (Lhomme) والأب "كوربينو". الكردينال "دانييلو" توفّي فجأة عند أصدقاء أثناء زيارة. ردود أفعال البعض: مسكين! ميتة مبكرة!... قال بعضهم في المعهد الكاثوليكي: "وأخيراً، لكم هو نبأ سار: لقد تخلّصنا منه!"

... مرة أخرى أُسأَل عن المشكلة الفلسطينية...

أَما من حلّ ممكن، قريب، بعيد؟

ما الأسباب الحقيقية؟

الشعب اليهودي نشيط يطوّر المنطقة وذكي، أما من سبيل للتفاهم معه... والتعايش معه؟

وضع الفلسطينيين الحالي... ما مخططاتهم؟

موقف الشعب في سورية من حرب الجولان وجبل الشيخ؟

والمسيحيون هناك... موقفهم... انتماؤهم القومي... الأسئلة تنهال الآن، كما بالأمس، كما في كل يوم... إجابتي دوماً هادئة، ضمن حدود معرفتي وتجربتي وتوقعاتي...

العشاء والسهرة عند هنري جاك وماري أوديل.

تساءلت منذ زيارتهما لي في دمشق عن طبيعة علاقتهما...

التقيت بهما وبرجلين آخرين: René، جامد... متشنج، أقله في الأربعين من عمره... ولويس يبدو عليه بعض الذكاء والهدوء... ولكنّ سؤالاً خامرني عندما رأيته... وسؤال كبير استبد بي ونحن على العشاء مع المجموعة... يحدّثوني عن "الجماعة"، دون توضيح أي شيء، وبدت لي المجموعة عجيبة بتفاوتها وتنوّعها.. أذكاهم وأكثرهم سيطرة ونفوذاً بالأحرى، هنري جاك.

الحديث دار طوال الوقت عن القضية العربية، ومضاعفاتها وأسبابها، ونتائجها على العرب وعلى اليهود... وعن موقف الغرب ومسؤوليته عنها.

جاء "برنار" في هذه الأثناء.. قدّموه لي: كاهن مسؤول عن كنيسة "برج

مونبارناس"... رائدة في نواح كثيرة... برنـــار يقودهـــا... صـــلاة... محاضـــرات... ندوات... كاد أن يتعرض لعملية تحطيم من قبل الكردينال مارتي، وانتهت الأمور بالتي هي أحسن... ولكنه سوف يحاول إعادة الكرة... بأسلوب جديد...

"برنار" أبدى اهتماماً بالقضية العربية... بدا له أن الغرب منح العـــرب اهتمامـــه، وأن القضية على وشك أن تجد الحل المناسب...

الغرب منح اهتماماً يبدو لك مُرضِياً، ربما لأنك لم تكن تتوقع أكثر من ذلك... نظـــراً لمركّبات الذنب المتأصلة فيك وفي كل إنسان غربي، ونظراً أيضاً للدعاية الصـــهيونية الـــتي أُخضِعتم لها وما تزالون...

الحديث معه أيضاً هادئ، وهو صريح يقبل الملاحظات، مهما كانت في وقعها قاسية... شغوف بمعرفة أعمق للأوضاع في الشرق...

شدّدت على الجميع لزيارة الشرق العربي... خصوصاً "برنار"... أبـــدى رغبتـــه... أخذت عنوانه ووعدته بزيارته... عنصر جيد.

ثم ودّعنا. لم يُقم معنا طويلاً... كانت زيارته للمجموعة خاطفة. قال لهم: "كنت مـــاراً من هنا، فأحببت أن ألتقيكم ولو للحظات"... هذا التصرف بدا لي إنســـانياً... وذكّـــرني بالأسلوب الذي أنتهِجه منذ سنوات... والذي تَحول صحتي أكثر وأكثر دون الالتزام به...

طالت السهرة مع المجموعة حتى العاشرة والنصف... قدّمت لهم علبة موزاييـــك صـــغيرة هدية، ذكرى لقائنا في باريس. وانطلقت سعيداً بالاجتماع بهم، وحائراً بعض الشيء في أمرهم.

البساطة التي سيطرت على اللقاء مثالية: ندعو بعضنا بعضاً بأسمائنا دون أي تكلّف...

ذكرت ملاحظة قالها هنري جاك:

بعد أن اجتمعنا بك في دمشق، تساءلنا، ونحن خارجون من البطريركية: ما سر هـــذا التناقض بين مدى التقدمية التي توسّمناها في كلماتك وواقع عملك مع شـــباب أســـرة الرعية... وبين القِدَم الذي يتجلى في بناء البطريركية، وفي لباس الأسقف؟...

ويومها أذكر أنهم قالوا لي:

كلامك يذكّرنا تماماً بكلام المطران غريغوار في بيروت... نفس المنطلقات... ونكاد نقول نفس المعاناة...

التقيت صباح هذا اليوم الأب "جرار"، وهو حامل آلة الغسيل الصغيرة... ضـــحكت وقلت له:

ما أحوجنا إلى آلة لتغسيل الكهنة!

الكهنة، ما من شيء يمكنه غسلهم!

نكتة!... ولكن لها بُعد ما...

بعد عودتي في الحادية عشرة ليلاً، وجدت بعض الآباء جالسين في غرفة الطعام. بينهم كاهن ما يزال بلباسه الأبيض المشهور والسبحة. يبدو في 65 من عمره (عرفت منه بعد ذلك أنه في 73!). قامة معتدلة ولكن مليئة. وجه ضخم... مشرق السمات، وعينان زرقاوان صافيتان، تقطران ذكاء وحناناً... حيّيتهم... وقلت: الأب فلان من سورية... فأشرق وجهه وسألني بالعربية: مِن سورية؟... أهلا بالأخ! وطال حديثنا... له في الجزائر 41 سنة... يحب الجزائريين محبة عجيبة. محبة أُمّ. يتكلم عنهم، من رئيسهم بومدين إلى أي منهم، بحنان مذهل، وكأني به أم تتحدث عن أطفال لها فارقتهم! اسمه الأب "شينيفربيه" (Chennevrier). روحانيته متأثرة تأثراً عميقاً بالروحانية الإسلامية، وخصوصاً بفكرة حضور الله... الاستسلام له... العطف على الفقير... نموذج كهنوتي وإنساني مذهل! وعرفت منه في ما بعد، أنه كثيراً ما يكتشف "آباء الكنيسة" في صحراء الجزائر. أراني الساعة بيده... ليس هذا بسحر... إنه طاقة وهبني إياها الله واستخدمها في سبيل هذا الشعب الطيب، الذي كان من حظي أن أخدمه منذ 41 سنة!

... هذا البيت ملتقى نماذج مختلفة ومذهلة...

والرائع فيه أنه تبدّل تبدلاً عميقاً جداً، عما ألفته منذ سنوات!

نحو كثير من الانفتاح والأخوّة، والمرح والمحبة، والرغبة في الخدمة!

الثلاثاء 5/21:

لقاء مع الأب بوز في التاسعة. حديث ممتع عن الكنيسة، وما تمرّ به من أزمة... عن موقعه منها وفيها... عن خطيئة كنيستنا، التي تفوّت عليها فرصة تَجدُّد، سوف تدفع ثمنها غالياً...

سألني عن وضعي في الكنيسة. حدّثته عن أسرة الرعية... عن مؤتمر الإكليروس... عن البرادو... عن كتاباتي... عن الحرية التي أتوخّاها في حياتي... على حساب أحب الناس إلي... أمي وأخوتي... وعلى حساب صحتي... عاتبني مشدِّداً على ضرورة التفكير بالأسقفية...

عاتبته بدوري، ورجوته ألا يعود إلى مثل هذا الموضوع... فآخر ما قد أفكر به يوماً هو طموحٌ ما في الأسقفية... وهنا أحد منابع حريتي... زرت معه مكتبة "البروكور" (La PROCURE) في ساحة "سان سُلبيس..."

الإنتاج غزير ومذهل بتنوّعه وتفاوته... أما الثمن فباهظ جداً! لم أشتر شيئاً يومها...

وقد لفتت نظري كثرة الكتابات، التي تتحدّث عن الكتاب المقدس وعن "الشعب المختار"!

بعد الظهر قمت بزيارة الدكتور سامرك. حملت له الهدية: حاملة علب السجائر من نحاس. استقباله واستقبال زوجته لي، في غاية المودة. شكرتني زوجته على الصليب والسلسلة الفضية، وقد علقته في صدرها... جلست إليهما ساعة ونيفاً، نتحدّث عن صحتي وعملي، وعن الأوضاع في البلاد العربية... عن قضيّة معلوط... وعن قصف إسرائيل للبنان... عندما ذكَرت ضحايا القصف الإسرائيلي بكى... وأكد أنه بكى عندما شاهد القصف على التلفزيون...

حدّثته عن علاقتي الشخصية بهما... عن الذكرى التي أحفظها له في قلبي... عن حديثي للناس في دمشق عنه...

حول اندفاعي في العمل... قال: القضية قضية طبع وإيمان... لا أوافقك إذ تقول أنك متكبر... وأن ما من إنسان ضروري... صحيح ليس هناك من هو ضروري... ولكن ألم يضعنا الرب الآن في هذا المكان أو ذاك؟ وما يسعنا أن نقوم به، وهل هناك – الآن وفي محلنا – من يقوم به، إذا توقفنا نحن عن القيام به؟ فكرة أخذها من والده، وعلى اقتناعه التام بعبور كل إنسان، هو مقتنع أيضاً بأنه لا بد من العطاء قدر المستطاع حيث وضعنا الله!...

حدّثني وزوجته عن قلقهما على مستقبل الجيل الجديد... ابنه الأكبر يجتاز امتحان البكالوريا هذاالعام...

كان يود لو أستطيع أن أزورهما في البيت، لعلّني أستطيع أن أحدّث ولديهما – عابراً – عن أمور قد تغيّرهما!

كرّرا الدعوة مرتين لتناول العشاء في مترلهما... قبلت... (ولكني في آخر الأسبوع يوم السبت، اعتذرت، لأني كنت في غاية الإعياء...)

أما عن أسرة الرعيّة، وعمّا عشناه أيام الحرب، فقد أبديا لحديثي اهتماماً بالغاً! تجربة القداس خصوصاً لفتت انتباههما... أبديا الرغبة في قراءة النص...

إحساسهما بالظلم الذي حلّ بالبلاد العربية، عميق جداً...

يصلّيان ليطلبا الحلّ المناسب في الوقت المناسب...

قابلت الكردينال مارتي في السادسة تماماً.

ظننتُني مخطئاً بالبناء... أهو فندق فخم؟ بل هو الأسقفية!

صعدت إلى الطابق السابع. البناء من الفخامة والصمت بحيث يُدهَش الداخل إليه. استقبلتني راهبة بلباس مدني. قادتني إلى غرفة، وقالت: سوف يأتي سيادته بنفسه!

وبعد لحظات، فتح الباب ودخل الكردينال بلباس "الكليرجمان" (Clergyman). استقباله بارد... قادني إلى مكتبه وجلس وراءه. كنت أتساءل إن كان هو الكردينال أم إنساناً آخر... يبدو كأنه لا يعرفني. لم يكلّف نفسه عناء استكشاف هوية زائره!... ذكّرته بنفسي، وقلت له مدى تألّمي لدى مطالعتي كتابه: "الله عنيد"... وكنت قررت يومها أن أكتب له... وأنا اليوم أرغب في التعرّف إليه شخصياً... تألّمت لأنه بدا جاهلاً تماماً، بالواقع المرير الذي نعيشه، بنتيجة خطيئة غرب قتلته اللاسامية. وقلت له: أحدّثك بصراحة وألم، حديث الابن مع أبيه... كان يبدو غائباً... أعدتُه إلى الواقع بإصرار. سألته إن كان زار الشرق العربي. قال: لا. قلت: إذن فقط فلسطين المحتلة – وترقبت جوابه، فجاء كما كنت أتمنى: نعم فلسطين المحتلة! وعرضت عليه ضرورة زيارته للشرق العربي... نظراً لمسؤوليته، ونظراً لمسؤولية الغرب في ما يحدث هناك... ونظراً لخطورة القضية نفسها!... هرّب: الحياة في سورية ليست هيّنة!... تُشاركنا هذه الحياة بضعة أيام!... ولكن من كان في مثل مركزه، قد يسبّب تنقّله إزعاجاً كبيراً للمسؤولين هناك... – قلت: ليس من أمر يحول دون مجيئك في غفل تام... – احتجّ بضيق الوقت... – أجبته المسافة بين دمشق وباريس تُقطع بأربع ساعات!... وهناك المشكلة تبدو على حقيقتها، وأنا ككاهن أرى من الضروري أن يكتشفها في أرضها... ثم ما من شك أن المسؤولين من كنسيين ومدنيين، وحتى عسكريين، سوف يُسرّون بزيارته كثيراً... أكّدت له أني أقترح ذلك من تلقائي، ولكني سأعمل على تحقيق ذلك مع المسؤولين هناك، إن أذن بذلك... ثلاث مرات أبدى الموافقة... ولما ودّعته قلت له: آمل أن يكون لي الحظ باستقبالك في دمشق... وقد سألني عن الغارات الجوية الإسرائيلية على دمشق: هل كانت مقصودة؟ وعدد الضحايا؟... وسألني ثلاث مرات عن عملي، ومكان تلقّي الدروس اللاهوتية...

محاولات ربما مقصودة لتحويل الموضوع عن هدفه الأساسي... كنت أعيده بسرعة وفوراً إلى الموضوع الرئيسي...

دامت المقابلة تماماً 12 دقيقة!

كان أكثر من غائب، ولكني أخذت منه ما كنت أريد. وسأسعى جهدي لتحقيق ذلك.

بعد ذلك قصدت الكاتب والكاهن فيرجيل جيورجيو، في المكان الذي حدّده لي.

بناء فخم في شارع "سان دومينيك". فتيات بائعات بلباس محتشم جداً، مؤلف من

قميص أبيض وتنورة زرقاء تسقط إلى الركبة، في استقبال الوافدين عند الباب وفي الدهليز وفي الصالة الكبيرة...

الصالة ضخمة تعجّ بالناس: معرض الكتّاب المحارِبين القدماء!

في الصالة، أكثر من ثلاثين كاتباً وكاتبة، جلس كل منهم وراء طاولة صغيرة، صفّت عليها مجموعات كتبهم... وإلى جانب كل منهم يميناً ويساراً... سيدتان أو ثلاث، وفوقهم لافتة كتب عليها اسم كل منهم...

بعضهم جلس شبه وحيد، وقلّما يقصده أحد...

بعضهم لا يدري كيف يحدّث كلّ من يلتفّون حوله...

هذه القاعة، في نظري، أشبه شيء بمحكمة، يصدر فيها الحكم تلقائياً بالموت أو بالحياة على الكتّاب... وفق إقبال الناس عليهم وشراء كتبهم وطلب توقيعاتهم... أو إعراضهم عنهم!

وكان بعضهم ينظر في الصالة، وكأني به يرجو الناس أن يُقبلوا عليه إنقاذاً... لنظرته إلى نفسه على الأقل!

أشفقت على هؤلاء، وما جرؤت على التوقف أمامهم!

بحثت عن مؤلف "الساعة الخامسة والعشرون"... وجدته كما تصوّرته... وجه وسيم بعض الشيء، لا بقسماته بل بشفافيته... ونظرته الحادة التي تخترق الغشاوات... مررت أمامه دون أن أحيّيه أولاً، لأراقب بعض حركاته، وطريقة تحدّثه إلى الناس من حوله، والواقفين أمام طاولته. الابتسامة لا تفارقه، وفي نبرة صوته تواضع بدا لي، لأول وهلة، لا يخلو من التصنّع...

مررت أمامه مرة واثنتين وثلاثاً... لم ينتبه لي...

ثم تقدّمت إليه من خلفه، ووضعت يدي برفق على كتفه، وهمست في أذنه: "أبت، نهارك سعيد!"

التفت ناحيتي والابتسامة نفسها على شفتيه: "نهارك سعيد، يا صديقي!"

قلت: "أنا الكاهن العربي من سورية".

فوقف بقامته المديدة، وغمرني بيديه، وقال بلهجة اخترقت أعماقي:

آه، يا أبت. قلبي معكم! قل لي، كيف هي الحال في دمشق؟"

لم ينتظر الجواب، بل أجلسني بالقرب منه، بعد أن سأل إحدى السيدات الجالسات بقربه أن تخلي لي مكانها.

لباسه الكهنوتي والصليب على صدره، يضفيان عليه مسحة من المهابة والغرابة معاً في هذا الجو...

عاد إلى السؤال نفسه. وكان ممسكاً بيدي بكلتا يديه، يحدّق بي كأب يحدّق بابن له ضائع استعاده. لهفته هذه أذهلتني!

حدّثته عن دمشق بسرعة، وانتقلت إلى تأثّري بمؤلفاته، لا سيما بأوسعهم شهرة "الساعة الخامسة والعشرون"... وأقلهم انتشاراً في العالم العربي: "من الساعة الخامسة والعشرين إلى الساعة الأبدية".

لاحظت اهتماماً منه بي كبيراً... ولكني لاحظت أيضاً حرجاً من بعض قاصديه كبيراً... يطلبون توقيعه على هذا الكتاب... يسأل عن الاسم وعن صفة الشاري والمقصود بالهدية... ثم يكتب الإهداء بخط واضح كبير لا يشبهه إلا... قامته المديدة المستقيمة!

لاحظت هذا، فما أردت إحراجه... سألته موعداً آخر للتحدث إليه بهدوء، قال: "حدّد أنت الوقت الذي يناسبك... فأنا مقيم هنا، أما أنت فعابر... ويجب أن أوفّق وقتي بحسب وقتك..."

حدّدت له الموعد... صافحته بحرارة ردّها لي... وخرجت حائراً بين الكردينال مارتي من جهة، والأب "جيورجيو" من جهة ثانية!...

مساء، زيارة طويلة لبطرس حلاق في غرفته 432، في بناء "ألمانيا". التقيت عنده شاعراً مصرياً اسمه أحمد... وطالباً فلسطينياً اسمه عمر المصالحة.

جلسة تعارف بين الخمر و... الفستق والبزر!

لم أشرب خمراً... لأني كنت أشكو من الحنجرة، وكنت في شبه دوامة مما أرى وألاحظ.

الشاعر المصري يناهز الخامسة والثلاثين...يبدو أنه معروف، وقد طُبع له ثلاثة دواوين في بيروت... هو في فرنسا منذ شهرين، أجرى خلالها اتصالات مع بعض المثقّفين الفرنسيين، وقد اختيرت له مجموعة قصائد يبدو أنها ستحظى بالترجمة الفرنسية وبالنشر... هذا عن الأدب... »

حسبي هذا القسم من يومياتي في باريس، خلال شهر أيار من عام 1974...

وأما الآن، فيطيب لي أن أورد التقرير الذي كتبته إثر عودتي من القاهرة عام 1974، حيث شاركت في مؤتمر ضم مرشدي حركات الشبيبة المسيحية في العالم العربي وفي البلدان الإفريقية، وكان المؤتمر برئاسة البطريرك شنودة.

« **حول رحلتي إلى باريس والقاهرة** دمشق في 1974/7/11

قصدت باريس أولاً بقصد العلاج... كان ذلك من 1974/5/11 إلى 1974/6/3.

وقصدت القاهرة ثانياً بدعوة من مكتب الكنائس العالمي، للاشتراك في مؤتمر يضم ممثلين عن كنائس إفريقيا والعالم العربي... كان ذلك من 1974/6/17 إلى 1974/6/23.

أولاً- في باريس:

ماذا كنت أريد فعله، خارج نطاق المعالجة؟

1- إجراء بعض الاتصالات مع بعض المسؤولين هناك، ممّن كنت أعرف، أو أودّ التعرّف إليهم، على صعيد قومي بحت، استمراراً للقاءات سابقة تمّت أو لم يتسنّ لي أن أقوم بها... وكنت أنوي القيام بها، لأتبيّن آثار حرب تشرين بالذات على قوم، كثيراً ما كنت أراهم منحازين لإسرائيل انحيازاً تاماً وصادقاً.

2- وكنت أبغي شيئاً من الراحة، بعد سنة عمل تجاوزت كلّ حدود الإرهاق.

ماذا حدث في الواقع؟

1- بدأت منذ اليوم الأول اتصالاتي العادية مع العديد من الطلاب العرب... وأسعدني أن أكتشف أنّ حرب تشرين حرّرتهم من عقدة الخجل من عروبتهم، وأنّ سورية احتلّت في تفكيرهم ونظرتهم مكانة خاصة...

2- وبدأت كذلك بعض اللقاءات مع البعض من رجال الدين والصحفيين الفرنسيين... وأسعدني أن أكتشف أيضاً وخصوصاً أنّ حرب تشرين أعادت للعرب والعروبة في تفكيرهم واعتبارهم مكانة مرموقة... وأنّ سورية بالذات احتلّت في هذه النظرة الجديدة منزلة فريدة حقّاً...

3- وكانت قضية معلوط، وما أعقبها من قصف وحشي للمخيمات في لبنان. فقررت أن أدع راحتي جانباً، وبدأت حملة مركزة من الاتصالات، نظمتها بحيث جمعتني بالعديد من الشخصيات الفرنسية أو المقيمة في فرنسا، اخترتها من مختلف الأوساط الكنسية والصحفية والجامعية والاجتماعية، ممّن كنت أعرف موالاتهم للعرب، أو تأييدهم المطلق لإسرائيل، أو ممّن كانوا يحتلّون مركزاً مرموقاً جداً، ويبدون في شبه لامبالاة، مع تأييد

حذر لإسرائيل، أخصّ بالذكر منهم الكردينال مارتي، رئيس أساقفة باريس ورئيس مجمع الأساقفة الفرنسيين.

ماذا اكتشفت في هذه اللقاءات؟

1- إن حرب تشرين زحزحت الجميع من مواقعهم: فكأني بمن كان يؤيّدنا وجد فيها تبريراً لتأييدنا، وبمَن كان يعادينا بدأ يشعر باحترامٍ لنا ولقضايانا، وبمَن كان محايداً – وهم الغالبية الساحقة – أخذ يطرح على نفسه السؤال بصدق حول النزاع العربي الإسرائيلي...

2- إن الكثيرين، ومن أكثرهم مكانة ونفوذاً، يجهلوننا جهلاً كلّياً أو جزئياً، مؤلماً، بسبب انعدام الدعاية العربية من جهة، وضخامة الدعاية الصهيونية من جهة ثانية، التي تعرف كيف تستغل حقد الغرب ضد العرب، وعقدة ذنب الغرب تجاه اليهود... من أمثال هذا الجهل:

- إن العروبة تعني الإسلام، والإسلام فقط.
- إن سورية خاضعة لاحتلال سوفييتي خفي!!!

3- إن الصهيونية تستغلّ عقدة الذنب هذه إلى أبعد الحدود، لتكسب أكبر قدر من التأييد والمؤيدين. من هذا مثلاً:

- إنها تدعو العديد من أصحاب النفوذ في فرنسا لزيارة إسرائيل، حيث تنظّم لهم اللقاءات مع المسؤولين وغيرهم، يعودون بعدها محمّلين بالهدايا ومشحونين بالإعجاب "لرواد الحضارة في شرق عربي ما زال يعيش في طور الخيم والغزو والبداوة"!!!
- إنها تندسّ في صفوف اللاهوتيين وكبار المفكرين المسيحيين، وتقيم معهم الندوات، بل وتنظّم معهم الجمعيات المشتركة، بقصد إقامة ما يسمى بالحوار المسيحي اليهودي الذي ترمي من ورائه إلى تسخير الكتاب المقدس واللاهوت الغربي لأغراض الدولة الإسرائيلية.

4- إن الإنسان الفرنسي، أياً كان، يتأثر بالحوار الموضوعي الهادئ، لا سيما إذا كان محاوره إنساناً عربياً، وإن إنساناً يتوقّع منه حماساً عاطفياً وغوغائياً لا يستسيغه الإنسان الغربي على الإطلاق... وتبلغ الدهشة أقصى مداها، عندما يقابل إنساناً عربياً يقول عن نفسه أنه مسيحي وكاهن عربي في الوقت نفسه وبنفس القدر!!!

5- إن الإنسان الغربي يتوق إلى التعرف إلى العالم العربي، ولكنّ بعضهم، إما بسبب افتقارهم إلى المال، وإما بسبب الدعاية الصهيونية، وإما بسبب موقفهم المؤيد إلى الآن لإسرائيل، وإما بسبب انهماكهم في العمل، لا يستجيبون لهذه الرغبة.

6- إنّ من الفرنسيين مَن يؤيّدنا بأفضل ما نستطيع أن نفعل، لأنهم يعرفون خفايا النفس الغربية، ويتقنون الأسلوب واللغة اللتين يصلون بهما إليها، ويؤثرون بهما فيها. وهم يفعلون ذلك في تحدٍّ دائم قد يعرّض حياتهم لما هو أكثر من التهديد العابر!

ماذا عساني أقترح؟

1- توجيه الدعوة، بواسطة الكنيسة في سورية، إلى بعض رجالات الكنيسة في فرنسا، لزيارة القطر العربي السوري، سواء بصفة رسمية أو فردية خاصة، وفق ما يتمنّون هم، إذ إني لمست تحفّظاً لدى البعض بشأن القيام بزيارة رسمية لسورية، مع الرغبة الأكيدة في ذلك، أذكر من هؤلاء بصورة خاصة الكردينال مارتي نفسه، والكاتب الروماني العالمي فيرجيل جيورجيو، مؤلف "الساعة الخامسة والعشرون".

2- توجيه الدعوة عن طريق المراجع المختصة، لبعض الوجوه البارزة في الأوساط الجامعية أو الفكرية أو الاجتماعية، لزيارة القطر، وكذلك الأمر بالنسبة إلى بعض الصحفيين البارزين...

3- تنسيق العمل مع بعض الهيئات الكنسية في دمشق للإفادة من الجماعات الغربية التي ترغب أن تنظّم لها لقاءات مع بعض المفكرين أو المسؤولين، لدى مرورها بالقطر.

ولئلا يبدو كلّ هذا معقّداً، أودّ أن أقترح بكل بساطة أن تُوجَّه الدعوة لبعض من التقيتُ بهم في فرنسا، وكنت ألححت عليهم لزيارة القطر العربي السوري، لا سيما وأن رجالات الدين منهم سيحلّون ضيوفاً على البطريركية بدمشق وعلى المراكز الكنسية الأخرى خارج دمشق. وقد حدّثت بذلك المسؤولين الكنسيين بدمشق، وأبدوا كل الرغبة والاستعداد لذلك. وسأرفق قائمة بهم في نهاية هذا التقرير.

ثانياً- في القاهرة:

لقاء القاهرة تركّز حول شؤون العدالة والسلم والتنمية في إفريقيا والعالم العربي.

وقد بدا لي، في ما بدا:

1- أنّ الإفريقيين يجهلوننا، أقلّه بقدر جهلنا لهم...

2- أنهم يودّون التعرّف إلينا، بقدر ما نودّ التعرّف إليهم...

3- أنّ تاريخنا المشترك لا يخدمنا في هذا المجال، إذ إنهم ما زالوا متأثّرين إلى حدّ مدهش

بتجارة الرقيق التي مارسها العرب قديماً على حسابهم، وإنهم كثيراً ما يـــرون مشـــكلات العالم العربي من خلال هذا المنظار!!!

4- أنّ الصهيونية تستغلّ هذا الجانب فيهم، كما تستغلّ تطورهـــا الـــتقني، ونفـــوذ الحركات المسيحية البروتستانتية هناك - والمتأثّرة كثيراً بالعهد القديم - لتنفذ إلى أعمـــاق النفس الإفريقية وإلى مؤسسات الإفريقيين.

هذه الوقائع أكدت لي ضرورة الأخذ بالنتائج التي توصلت إليها في إقامتي في باريس. لا سيما وأن من الإفريقيين من يحتلّ مكانة مرموقة إما في نطاق بلده - نيجيريا أو زامبيـــا مثلاً - وإما في نطاق القارة الإفريقية كلّها.

قائمة بأسماء وألقاب بعض الشخصيات التي التقيت بها:

1- في باريس:

1. الكردينال فرنسوا مارتي، رئيس أساقفة باريس، ورئيس مجمع الأساقفة الفرنسيين.
2. الأب "ريكه" المشهور بتأييده المطلق لإسرائيل وله نشاط اجتماعي وفكري واسع.
3. الأب "بومان" المدير السابق لمجلة "شعوب العالم".
4. الأب "ماندرون" المدير الحالي لمجلة "شعوب العالم".
5. الأبوان "برنار فييه" و"تيو كليمان" كاهنا إحدى أكثر الكنائس طليعيةً في باريس.
6. الأب "أورلندو ليتاو" وهو برتغالي طليعي يشغل منصب المرشد العام للشبيبة العالمية المسيحية.
7. الآباء: "آبل باكييه" و"جان كريف" و"جان لوم" من أصحاب النفوذ في الوســـط الكنسي هناك.
8. الكاتب الروماني العالمي - وهو كاهن منذ عام 1963 - مؤلف "الساعة الخامســـة والعشرون": "فيرجيل جيورجيو" (Virgil GEORGIU)
9. الأستاذ الجامعي "هنري جاك ستيكر" وخطيبته مدرسة فلســـفة "مـــاري أوديـــل مترال".
10. الصحفي المعروف "جورج مونتارون" مؤســـس وصـــاحب صـــحيفة "الشـــهادة المسيحية".
11. الصحفي "بيير لوك سيغيون"، المختص بقضايا الشرق الأوســـط في الصـــحيفة نفسها.

12. الأستاذة في السوربون الدكتورة "آن ماري غواشون" الاختصاصية بشؤون القدس والشرق الأوسط.

13. الأستاذ الجامعي الدكتور "بيير سامرك" وزوجته الدكتورة، صاحبا مخبر كـبير في باريس.

14. المساعدة في جامعة السوربون الآنسة "نيقول بيريو"، اختصاصية في التاريخ.

15. السيّد "بيير فيلان" مدير مجلة "الحياة الكاثوليكية" المصورة الأسبوعية، الواسعة الانتشار.

16. الضابط الرائد "آلان كريف" شقيق الأب "جان كريف"، وهو يدرس في المعهد العسكري العالي.

17. السيّد "جان شودويه" وقرينته "تيريز"، وهو مسؤول سابق في إحدى الحركات المسيحية الطليعية، يشغل حالياً منصباً هاماً في وزارة الخارجية الفرنسية.

18. السيّد "راوول فولرو" وقرينته، وكلاهما معروفان في العالم بمكافحتهما للبَرَص، ونفوذهما عالمي.

__2- في القاهرة:__

1- الزعيم القبلي "اقومولافة اديبوجو" - نيجيريا.

2- القسيس "برجس كار" أمين عام منظمة وحدة الكنائس الإفريقية، الحائز على وسام النيلين بالسودان.

3- القسيس "ايدرو بولاجي" الأستاذ في جامعة لاغوس بنيجيريا.

4- الأسقف "عمانوئيل ميلينغو"، أسقف لوساكا بزامبيا. » (انتهى)

أودّ أن أضيف إلى ملامح عام 1974، الكثيرة، ملمحاً ذا دلالة مفرحة. فقد جاءتني، خلال شهر تشرين الأول، سيّدة سويسرية تدعى "هلغا زندل" (Helga Zundel). ولما كان من أوصاها بلقائي، هو صديقي المطران غريغوار حداد، استقبلتها بأريحية تامة، على تحفّظي الدائم مع زوّاري الغربيين. فحدّثتني عن مشروع اجتماعي رائد، يخصّ مَن تعارَفَ الناس على تسميتهم بالأطفال اليتامى. وكانت تحمل نمطاً جديداً من التعامل مع هذه الفئة من الأطفال، ابتكره، منذ عام 1945، شاب نمساوي يدعى "هرمان غماينر"، (Hermann GMEINER)، يوم كان بعد طالب طب، وكان ما يحركه هو ابتكار جوّ عائلي، يحل محل المؤسسات المعروفة باسم دار الأيتام. وكان ما يرمي

إليه إنشاء مجمعات صغيرة، تتألف من عدد من البيوت، على أن يضمّ كلّ بيت لا أكثر من عشرة أطفال من كلا الجنسين، ترعاهم سيدة تكون بمثابة الأم لهم. وكان يطلق على كل من هذه المجمعات الصغيرة، اسم "قرية أطفال SOS". وقد عرفت هذه الصيغة الرائدة في نطاق التعامل مع الأطفال "اليتامى"، ترحيباً وانتشاراً واسعين في أوروبا. وكان أن وصلت إلى لبنان، حيث أُنشئت أول "قرية SOS" في بلدة "بحرصاف"، في شهر شباط عام 1970. ولما كانت السيّدة "هلغا زندل" تحمل قلباً كبيراً، وتحتل في "الاتحاد العالمي لقرى أطفال SOS"، مركزاً فعالاً، شاءت أن "تجرّب حظّها في سورية". فسهّلتُ لها اللقاء مع إحدى السيدات المتنفّذات في دمشق. ولكم سرّني أن أعرف فيما بعد، أنّ المشروع لاقى ترحيباً كبيراً، وقد خصّصت له مساحة أرض في قدسيا، تبلغ (41000)م^2. كما وأن تدشين أول قرية نموذجية (SOS) في سورية، تمّ عام 1981، بحضور الدكتور "هرمان غماينر" نفسه. وقدّمتُ لأول مسؤول في هذه القرية، واسمه فايز خوري، فرصة اللقاء مراراً، في "قاعة السواعد"، مع جمهور المهتمّين. وأضيف أن الكثيرين من شبّان وشابّات أسرة الرعية الجامعية، وجدوا في هذه القرية مجالاً واسعاً لتقديم مساعدات مختلفة لأطفالها ولمسؤوليها، سواء في نطاق مشاهدة ومناقشة بعض الأفلام المسلية والتربوية، أو في نطاق بعض الفحوصات الطبية والألعاب الرياضية، أو حتى في نطاق تنظيف الأرض من الأشواك الجبلية الكثيرة. ويطيب لي أن أخصّ بالذكر من هؤلاء الشبان، الدكتور جورج كردي والمهندس سعادة يازجي.

الفصل الثالث عشر

مع البرادو في فرنسا، جمعية ورئيساً

عام 1975-2012

كان "برادو الشرق" يواصل مساعيه بهدوء ورويّة، من أجل بلورة وجوده، في مختلف بلدان الشرق، من سورية إلى لبنان فالأردن فالعراق، وكانت الجهود الفرديّة، لا سيما في سورية والأردن، تلقى بعض الدعم من الزيارات التي كنّا نتبادلها، أنا والأب حكمت حدادين، بين حين وآخر، ولو لفترة يومين أو ثلاثة. وكنّا أحياناً نعقد اجتماعات دورية، مرة في دمشق، وأخرى في حلب، تارة في حمص وطوراً في الخراب عند الأب الياس يعقوب. وما كنّا لنتردّد في المضي من حلب ودمشق إلى بلدة الفحيص في الأردن، لنلتقي لأيام قليلة أخانا الأب حكمت حدادين، يوم كانت والدته تُعدّ لنا المنسف، وكأني بها تستقبل أبناء جدداً لها. ثم كانت لنا اجتماعات سنوية لأسبوع كامل، كثيراً ما كنّا نعقدها في أحد الأديرة الكثيرة في لبنان، ولا سيما في دير الآباء اليسوعيّين في تعنايل. وعندها كانت هذه الاجتماعات تضمّ جميع أفراد عائلة برادو الشرق، حتى جاء يوم ضمّت فيه أيضاً كهنة من كنيسة مصر القبطية.

كانت هذه الاجتماعات تأتينا دائماً بدفء الأخوّة الصافية، وتمدّنا شيئاً فشيئاً، بجديد الخبرات المختلفة أو المحاولات الجديدة، التي كنّا كلّنا، نحاول استلهامها من الإنجيل أوّلاً، في صدق وتواضع، ومن صميم الواقع الاجتماعي ثانياً، في حذر شديد، وأحياناً في جرأة كبيرة. وكان في ذلك التوجّه، ما يخالف، كثيراً أو قليلاً، العادات الاجتماعية، والتقاليد الكنسية، المغروسة عميقاً، منذ مئات السنوات، في العقليّات والمؤسّسات، سواء في رجال الكنيسة على اختلاف مراتبهم، أو في العلمانيّين على اختلاف مستوياتهم الاجتماعية والثقافية. وكان أحياناً كثيرة مجرّد الحديث عن مثل هذه الأمور، وحتى التلميح إليها، يبدو أشبه بثورة، فكيف بالدعوة لها أو تبنّيها في الواقع العملي؟ من ذلك مثلاً ما كان يتعلّق بلباس الكاهن، من جبّة إلزامية وقلنسوة لا يجوز الخروج بدونهما. ومن ذلك أيضاً التمادي في قص الذقن أو حلقها كلياً. ومن

ذلك أيضاً وخصوصاً المجانية في حياة الكاهن، وأعني بذلك رفضه تقاضي أي أجر مالي أو مادي، لقاء جميع الخدمات الروحية، التي تطلب منه، أو التي يبتكرها في غيرته ومحبته. ودعوني، للمزيد من الوضوح، أذكر بعض الأمثلة. وأبدأها بما يسمى "حسنة القداس"، وهي تعني تقديم مبلغ من المال للكاهن، كي يُقيم القدّاس من أجل نيّة واحدة أو شخص واحد لا غير. وقد بلغ انتشار هذه الممارسة عند الكاثوليك، حدّاً، حمل العلمانيين على الاعتقاد بأنّ القداس صار خاصّاً بهم وحدَهم، إذا ما قدّم أحدهم "حسنة القداس"، وأنه لا يجوز أن يُذكر فيه سواهم. وبلغ هذا الأمر من التمادي، بحيث انتشرت عادة تخصيص القداس في مناسبة سنوية ثابتة، طوال عقود، لأسرة واحدة أو لشخص واحد. وبذلك بدا القدّاس وكأنّه بات ملكاً لفرد أو لعائلة، مقابل قدر من المال، أو خدمة جليلة قُدّمت للكنيسة. ولا إخالني أغالي إن قلت إن ارتباط القدسيّات بالمال بلغ في نظر البعض، إن لم أقل الكثيرين، حدّاً جعلهم يعتقدون أنّ الله لا يتقبّل الدعاء، إذا صدف لكاهن أنّ رفض "الحسنة". وهذا الأمر، على غرابته، حدث معي شخصيّاً عشرات المرات... وقد يخطر ببال المتبرِّع، إن لم يكن يعرف الكاهن، أنّ المبلغ المقدَّم هو دون ما من شأنه أن يُرضي الكاهن! وتلك هي الطامة الكبرى. وإن لفي هذا التشوش والالتباس، ما يوحي بأنّ الكاهن والمؤمنين، على السواء، قد نسوا أنّ القداس الإلهي، في جوهره، ليس سوى ذبيحة الرب يسوع على الصليب، فداء عن البشر أجمعين! وأنه بالتالي، يتخطّى من حيث القيمة، أثمن ما في هذا الوجود الأرضي. وهنا تحضرني حادثة جدّ مؤلمة، ولكني أصر على ذكرها. فلقد صدف ذات يوم لرئيسي الكنسي، المطران فرنسوا أبو مخ، أن سألني، إثر نقاش طويل دار بيني وبينه حول التعامل مع المال في الكنيسة، لمَ لا أتقاضى حسنات القدّاس؟ فقلت: لأني أرى فيها "سيمونية" (وهي مصطلح يعني المتاجرة بالأقداس). فقال: ولكن البابا في روما يفعل ذلك. فكان جوابي: إن كان البابا في روما يفعل كما تفعلون هنا، فهو أيضاً يمارس السيمونية!

ثمّة أمور كثيرة تتعلّق بالمال في الكنيسة، ولها شؤونها وشجونها. إلا أني أودّ التوقف عند أمر آخر يمارس على نطاق واسع في معظم الكنائس، إن لم يكن في كلّها. وأعني به "لمة الصينية" في القدّاس، وفي العديد من الاحتفالات الدينية. وهي، باختصار، عبارة عن جباية - بالصينية أو بسلة من قماش - تجمع فيها تبرعات المؤمنين، مساهمة منهم في تغطية النفقات الكثيرة المترتّبة على الكنيسة، من تنظيف وتدفئة وتبريد وإنارة، والمترتبة كذلك على ملحقات الكنيسة، من قاعة وغرف وممرّات

وأحواض نبات. ولقد باتت هذه الجباية عادة مألوفة في معظم الكنائس، إن لم يكن في كلّها. وهي تتّسم في نظر البعض من رجال كنيسة وعلمانيّين، بضرورة قصوى، بحيث بات مجرد التفكير بتغييرها أو تطويرها، بمثابة تطاول على تقاليد عريقة، إن لم أقل مقدّسة! والحقيقة العملية، تؤكد أنّ الاستعاضة عنها بطرق أكثر تطوراً ونبلاً وفعالية، ليست بالأمر المستحيل.

وفي سياق هذا الموضوع الدقيق، تجب الإشارة إلى أنّ ما كان كلّ كاهن، لبضع سنوات خلت، يتقاضاه من راتب شهري مقطوع، كان زهيداً، بل مخجلاً. وكان عليه أن يتدبّر أموره كلّها، "بالتي هي أحسن"! وأعني بذلك ما كان يُعطاه من "حسنات قدّاس" معدودة من البطريركية أو الأسقفية، ومن "حسنات قدّاس" أخرى، يقدّمها له بعض المؤمنين، أو من تبرّعات أخرى، صغيرة أو كبيرة، تقدّم له في عيد ما، أو في لقاء ما، أو مقابل خدمة ما، من عرس أو جناز أو زيارة لمريض، أو لقاء تقديس البيت بالماء المبارك في يوم عيد الغطاس، والأيام التي تليه. وإنّ لفي جميع هذه الممارسات، ما يشير بكلّ وضوح إلى حالة من التبعية القاهرة، التي تُفرض على الكاهن، شاء أم أبى، عبر حياته كلّها، وفي جميع علاقاته، سواء مع المسؤولين في الكنيسة، أو مع زملائه الكهنة، أو مع العلمانيّين، ولا سيما الأثرياء منهم. وما كان لأحد أن يشكّك في أنّ مثل هذه التبعية، لا يمكنها أن تترك للكاهن فسحة، ولو ضيّقة، من الحرية الروحيّة، من شأنها أن تنعكس إيجاباً على شبكة علاقاته كلّها، بدءاً من ربّه، ومروراً بذاته، ثم بالسُلطة الكنسية وزملائه الكهنة، وانتهاء بجميع المؤمنين وسائر الناس!...

وإلى ذلك، كان على الكاهن، حتى سنوات قليلة خلت، أن يتدبّر أيضاً شؤونه الشخصية كلّها تقريباً، من مأكل وملبس وسفر، ومرض طارئ أو مزمن، أو شيخوخة. وكان لا بدّ له من مراعاة علاقاته بذويه، بالدرجة الأولى، كي يكونوا سنداً له في جميع هذه الظروف والأحوال. وكان ذلك يفرض عليه، على نحو بديهي، نمطاً من التعامل مع أهله، وغير أهله، يُضطرّ معه لتغليب الحاجات المادية على الواجبات الروحيّة، سواء منها الخاصة به، وتلك الخاصة بغيره. وإذا كان ذووه من ذوي الدخل المحدود، كما هي حال معظم الكهنة الذين عرفتهم في دمشق، فكيف يكون له عندها أن يحتفظ بقيمه الروحية ثابتة، قوية، في وجه هذه الضغوط الشخصية والعائلية والاجتماعية؟ وكيف له، عندها، ألاّ يسعى لإزاحة زميل له من رعية ميسورة، للحلول محله؟ وكيف له ألا يحاول التودّد إلى رؤساء، قد لا يكنّ لهم أو له، احتراماً، من أجل كسب الرضى، والحصول بالتالي على مركز مرموق في كنيسة، أو في محكمة كنسية، أو

في مدرسة، يعود عليه بربح دسم؟ وكيف له، وحالته النفسية هذه، تتردّى وتتهاوى، يوماً بعد يوم، وأسبوعاً بعد أسبوع، وشهراً بعد آخر، أن يبقى وفيّاً، ولو بالحدود الدنيا، لأمانة الكهنوت الجسيمة، التي تطالبه حقّاً بالمستحيل، تجرّداً وصدقاً ونقاء وتضحية وخدمة؟ وكيف له، في نهاية المطاف، ألاّ يفعل كما فعل ويفعل غيره من الكهنة، بل من الأساقفة، فيرضى بما هو قائم، بل يبرّره، حتى يأتي يوم ينبري فيه للدفاع عنه، باسم "التقاليد المقدسة" و"العادات المتوارثة"، التي لا يجوز لأحد التطاول عليها بكلمة أو بمبادرة. وفي يقيني أنّ كلّ ذلك كان يحدث للكاهن، وفي أعماقه صوت يذكّره أبداً بخطئه، فيما الناس، جميع الناس دون استثناء، حتى ذووه، يلوكونه بألسنتهم ويلوكون معه، دون هوادة ودون رحمة، كهنتهم وأساقفتهم!

ذلك كان الوضع في الكنيسة في دمشق، كما سمعته طفلاً، وعرفته شابّاً، واكتشفته وعشته كاهناً. وقد رفضته، وصمّمت على رفضه حتى قبل تصميمي النهائي على اختيار الكهنوت، وخصوصاً منذ أن عرفت الأب "انطوان شفرييه"، والنهج الجديد الذي اتّبعه، وسارت "جمعية البرادو" من بعده عليه. ولكم من إنسان، بل من كاهن، بل من أسقف حذّرني من اتّباع هذا النهج. إلا أنّ أحداً لم يكن كلامه ليؤثّر فيّ، كما كان كلام مَن كانت أحنّ الناس عليّ، وأحبّهم إلي: أمّي! وما كانت لتفلسف الأمور، بل كانت تنطلق من حقيقة الواقع الصعب، فتختصر كلّ حججها بعبارة واحدة - تُسمعني إياها بين فترة وأخرى. وإني لأكاد أسمعها الآن تقولها لي - من أنّ الجميع كانوا يفعلون ذلك دائماً، ولم يحاول أحد أن يغيّر هذا الأمر الواقع، وأنت اليوم تريد أن تغيّره؟ ولم يكن لي ما أجيبها به، فأصمت، وأنسحب إلى غرفتي في الكنيسة، دون أن أكون أنهيت غدائي أو عشائي، وأنقطع عن الدنيا كلّها، صامتاً، مصلّياً، باكياً... وكنت واثقاً كلّ الثقة أنها لم تكن لتقول لي هذا القول، بدافع أي كسب مادي على الإطلاق، وحياتها كلّها، منذ أن وعيتُ الدنيا، تشهد على ترفّعها العظيم والنبيل، عن أي مكسب، وإنما خوفها علي فقط هو الذي كان يملي عليها هذا الكلام، بين حين وآخر. ولم أكن بحاجة إلى بذل أي جهد لأكتشف أني بتّ لها هاجساً قائماً ومقلقاً، على ما كان قلبها الكبير يحمل من هواجس كثيرة تخصّ أخي وأخواتي الأربع، بل تخصّ أيضاً العديد من أقربائنا الذين كان بعضهم يجد فيها بديلاً حقيقياً عن أمهم الشرسة. وقد تثبّتُ من ذلك، في موقف بدر منها وفاجأتني به، إذ دخلتُ بيت أختي "رينيه" ذات يوم، وكانت جالسة مع أحفادها الأطفال الأربعة الرائعين (طوني وفادي وكوثر وديمة)، تُتابع مسلسلاً سورياً مشهوراً، بعنوان "عروة بن الورد". وكان هذا المسلسل

يحظى باهتمام واسع، حتى إنّ الأطفال أنفسهم كانوا مشدودين إليه. وما هي إلا لحظات، حتى التفتَت إليّ، وقالت لي: "هذا مثلك!" وكأني بها كانت ترمي سلاحها أمام تصميمي. وإني لأتذكّر في هذه اللحظة بالذات، في ما يشبه التداعي الخفي، الكلمة الجامعة، التي قالتها لي عفو الخاطر، في اليوم الأخير من حياتها على هذه الأرض، والتي اختزنتُها في أعماقي، زاداً روحيّاً أقتات به، بين حين وآخر، منذ ذلك الحين حتى اللحظة. كان ذلك اليوم صباح الأحد، الثاني عشر من تشرين الثاني عام 1979. وقد حملت لها القربان المقدّس، كما كنت أفعل كلّ أحد وكلّ عيد، فتناوَلَت القربانة، وصلّينا صلاة شكر. وإذ كنت أهم بالعودة إلى الكنيسة، قلت لها: "ماما، ادعي لي!". فأجابتني للتو: "أنا أدعي لك؟... السما بتدعي لك!". ولحظتها فقط أدركت بيقين نفسي وروحي مطلق، أنها كانت تبارك لي خياراتي الكهنوتية كلّها، على ما كلّفتها هي بالذات، من قلق وألم وخوف، طوال سنوات، وعلى ما كلّفتها أيضاً من حرمانات قاسية، لها ولوالدي ولإخوتي جميعاً. وكان ذلك الصباح، صباحها الأخير على هذه الأرض!

وهنا تحضرني أيضاً كلمة قالتها أمي ذات يوم، إذ كنّا عقدنا، نحن كهنة "البرادو"، اجتماعاً طويلاً في دمشق، ختمناه بلقاء مساء في بيت أهلي. وحينها سألت أمي الكهنة الحاضرين، وكانوا حشداً كبيراً من سورية ولبنان والأردن، عمّا تباحثنا فيه اليوم. فقيل لها: حاولنا قبل كل شيء أن نبتكر تسمية عربية لجمعيّتنا، بدل اسم "البرادو"... فقالت: وماذا وجدتم؟ كان الجواب: لم نجد أفضل من اسم "البرادو"... فجاء جوابها الفوري: ولو! لم يخطر ببالكم أن تتّخذوا اسم "المنتوفين"؟ ومضت هذه العبارة في كهنة "برادو الشرق"، مضرب المثل!

ثمّة وجه آخر من وجوه التزامي بجمعية "برادو الشرق"، كان يشكّل عندي هاجساً حقيقياً، لا يجوز الاستهانة به، ولا التغاضي عنه، وأعني به الصراع العربي الإسرائيلي. وكان جزءاً لا يتجزأ من فكري وصلاتي، وتصوّري للمستقبل القريب والبعيد. وقد رأيت من واجبي، بوصفي المسؤول الأول عن نقل بذرة "البرادو" إلى الشرق العربي، أن أذكّر الجميع، في اجتماعاتنا كلّها، بضرورة الانتباه إلى هذه القضية المصيرية، وإلى الأبعاد المتعددة التي تفرضها، على تفكيرنا وحواراتنا، وأبحاثنا وصلواتنا والتزاماتنا العملية، أينما كنا. وما كنت دائماً ألقى آذاناً صاغية. وكان بعضهم يتّهمني بالمبالغة، على ما كنت أذكر لهم من وقائع وأبحاث لا يطالها أي شك. وكان أن قامت الحرب الأهلية في لبنان عام 1973، وكان فيها للفلسطينيين ما كان لهم من أدوار، تنوّعت وتشابكت مع أدوار أخرى كثيرة، حتى بدت

الأمور مستعصية على كل تحليل. وفي هذه الأثناء، بُلِّغنا في "برادو الشرق" أن اجتماعاً هاماً سيعقد في مركز الجمعية الرئيسي، في بلدة "ليمونيه" (LIMONEST)، بالقرب من مدينة ليون، وأن علينا أن نرسل أربعة مندوبين منا، ليشاركوا في أعمال هذا المؤتمر، خلال صيف 1975. وكان الأربعة المندوبون، ثلاثة من لبنان، أتذكّر منهم الأبوين حليم ريشا وأنطوان مقصود، وأنا من سورية. وقام المؤتمر، وكان المشاركون فيه قرابة أربعين كاهناً، قدموا من قارات الأرض الخمس. وقد طُلِب إلينا أن نطرح موضوعاً نختاره، فاتفقنا على التحدث عن الصراع العربي الإسرائيلي، وكلفت أنا طرح الموضوع، على أني أشركت إخوتي اللبنانيين في بعض أقسام الموضوع. وقد خُصّص له يوم كامل. ومع أننا نحن الأربعة، بذلنا كل ما بوسعنا، وبمنتهى الهدوء، لنثير لديهم شيئاً من الاهتمام، فقد بدا لنا واضحاً، أنهم كلهم غريبون غربة كاملة عنه، في حين أنهم كانوا يولون الأمور، التي تتعلق بأفريقيا وأميركا الجنوبية، وأستراليا، وأوروبا، اهتماماً شديداً، والتي كانت تبدو لنا دون خطورة قضيتنا بما لا يقاس، وتنال من صلواتهم حصة لا بأس بها. وقد تبيّن لي بكل وضوح مرة أخرى، بعد عشرات المرات، أن كل طرح عربي يتعلّق باليهود، مرفوض مسبقاً. تلك هي مشكلة الغرب: عقدة ذنب هائلة حيال اليهود، لا يعرفون كيف يتخلصون منها، ولها من العمر فيهم، ألف وستمائة عام ونيف، وقد أتقن اليهود استغلالها على كل صعيد، بما فيه الصعيد اللاهوتي، فبات الغرب كله أسيراً لهم، بل سعيداً بالمسارعة إلى خدمتهم، حتى لو كانت هذه الخدمة تتعارض مع أبسط مبادئ الإنجيل، وأبسط القيم الإنسانية. ويومها أنهيت مشاركتي في المؤتمر بعد أسبوع واحد، وأنا مُحبَط من موقف المسؤولين في "جمعية البرادو"، وإني لأذكر منهم الأبوين "بيير برتولان" (P. BERTHELON) و"جورج أرنو" (G. ARNO). وصارحتهم بذلك في الجلسة الأخيرة التي كانت لي معهم، والتي قال لي في ختامها المسؤول الإيطالي: "كان كلامك ينزل على رأسي كالمطارق. أنا أريد أن أفهم كل شيء". وليلتها ظللتُ وإياه حتى الصباح، أحدّثه عن الصراع العربي الإسرائيلي، إذ كان يجهل في حقيقة الأمر، كل شيء. وما كان لديه من معلومات، كانت كلّها مغلوطة. إلا أن كل ما استطاع فعله بعد ذلك، كان أن ينشر المقال الطويل، الذي كتبته بعد عودتي إلى سورية، باللغة الفرنسية، وقد ترجمه إلى الإيطالية، ونشره في مجلة إيطالية. إلا أنه لم يرسل لي المجلة، ثم غاب كلياً ولم يعد يراسلني. وكان المقال بعنوان: "وجهاً لوجه مع الغرب المريض بعقدة الذنب!".

إلا أني لم أغادر فرنسا، إلا بعد أن قابلت "الأب أنسل"، الرئيس العام والفعلي "لجمعية البرادو"، لأحيطه علماً بما جرى في المؤتمر، وبخطورة هذا التوجّه اللاإنجيلي واللاإنساني... حيال قضية تمسّ وجود الشرق العربي كلّه... وكان على

عادته في غاية التفهّم. وإني لأذكر يومها جواباً كنت أنتظره منه من زمان. ذلك بأنه سألني ذات يوم، إذ كان مسافراً إلى روما، إن كانت لديّ رغبة ما، أودّ تبليغها قداسة البابا بالذات، فقلت له: "اهمس في أذنه أن يرسل إلى سورية، سفيراً من خارج أوروبا، وإن أمكن من العالم الثالث". فوعدني خيراً. وفي لقائي به بعد مغادرتي المؤتمر، قال لي: "يبدو لي أنّ رغبتك بحاجة إلى مائتي سنة، كي تتحقق!"...

هذه الغربة المتأصلة في الغرب، حيال الصراع العربي الإسرائيلي، حاولت جاهداً أن أقلّص تأثيرها على اجتماعات "برادو الشرق" السنوية، التي كانت تضمّ قرابة ثلاثين إلى أربعين كاهناً من لبنان وسورية والأردن وإيران ومصر. وكنت أسعى إلى حمل الجميع على استصدار بيان يحدّد موقفنا، بوصفنا كهنة من الشرق العربي، حيال هذا الصراع، على مثال البيان الذي كان "برادو لبنان" قد أصدره في أتون الحرب الأهليّة، والذي رأى فيه بعض الأساقفة، مثل المطران ميشل حكيم، موقفاً إنجيليّاً حقيقيّاً، تفرّد "البرادو" يومها باتخاذه، دون جميع المراجع الكنسية، والمؤسسات المسيحيّة، والرهبانيّات التي يعجّ بها لبنان. إلا أني لم أستطع يوماً أن أحملهم على الإيمان بضرورة إصدار مثل هذا البيان. وكنت أعزو هذا التمنّع إلى تأثير الرئيس العام الجديد "لجمعية البرادو"، الأب "روبير دافيو" (Robert DAVIAUD)، الذي ألف أن يحضر كل عام تقريباً اجتماعنا السنوي. وبدأت أتغيّب عن هذه الاجتماعات السنوية، حتى إني أَلِفتُ ألا أحضر الاجتماعات الدورية الضيقة، التي كانت تُعقَد هنا وهناك، لشعوري المتزايد بإغراق "برادو الشرق" في توجّهه الروحاني، بعيداً عن الواقع الجحيمي، الذي بات هو الواقع اليومي لمعظم الناس في الشرق العربي، بدءاً من العراق، وانتهاء بسورية، ناهيكم عن فلسطين التي تجسّد وحدَها، منذ سبعين عاماً، جحيماً فظيعة وصارخة، لا يجوز لأحد على وجه الأرض أن يتجاهلها، حتى إنّ أكثر من بات يندّد بها هم بعض اليهود المرموقين من إسرائيل نفسها، مثل إسرائيل شاحاق، وسوزان ناثن، وأفرهام بورغ، وجيلاد آتزمون، ومن الولايات المتحدة مثل نعوم تشومسكي، ومن فرنسا مثل ميشل فارشافسكي، وجاكوب كوهين وستيفان هسّل!...

ولشدّ ما كان يدهشني أنّ هؤلاء الكهنة، في غالبيّتهم العظمى، كانوا وما زالوا، يشكّلون في التزاماتهم الكهنوتية الشخصية، نماذج متميّزة وجريئة، وأحياناً مُبدعة، حيثما وُجدوا، ولا سيما في لبنان وحلب وطهران. وكان الكثيرون منهم قد أتيح لهم أن يُمضوا فترات متفاوته، في دير "البرادو" الرئيسي، في بلدة "ليمونيه". فهل تُراهم أُخِذوا هم أيضاً، من حيث لا يدرون، بما فرضته على الغربيين، عقدة الذنب حيال اليهود، من

روحانية جرّدتهم من كلّ واقعية وإنسانية، إزاء ما يجري في الشرق العربي، ممّا هو من فعل الصهيونية، والحكومات الغربية المنصاعة لها انصياع العبد لسيّده؟ وهل تُراهم باتوا يرون في رئيس "البرادو الدولي"، كلّما حضر اجتماعاتهم السنوية، المرجع الأول والأخير، في ما يجب أن يقولوا ويفعلوا، سواء في السر أو في العلن، من حيث أنهم يشكّلون هذه الكتلة الكهنوتية العربية المتميّزة؟ وإلا، فما الذي يمنعهم في نهاية المطاف، من اتخاذ موقف إنجيلي، علني وصريح، إزاء هذا الذي يدمّر بلدانهم المختلفة، ويهدّد لا وجودهم وحسب، بل أيضاً وجود مجتمعاتهم كلّها، على المدى القريب والبعيد؟ هذه التساؤلات كلّها كانت تقضّ مضجعي بشأن رسالة "البرادو"... وكثيراً ما كنت أطرحها في بعض الاجتماعات، وأحياناً على بعضهم... ولما لم أجد جواباً واحداً عليها... رأيت لزاماً عليّ أن أبتعد عن جميع الاجتماعات، الخاصة منها والعامة، عسى ابتعادي هذا يثير لدى هذا أو ذاك، تساؤلاً ما... ومضت على غربتي وهجرتي هاتين، سنوات طويلة!...

وكان أن أتتني بمناسبة عيد ميلاد عام 2011، رسالة من الرئاسة العامة في "جمعية البرادو" في ليون، تحمل توقيع الرئيس العام، الأب "روبير دافيو" (Robert DAVIAUD) وتوقيع كاهنين آخرين. وكانت سورية آنذاك في قلب الحرب التي تشنها عليها (140) دولة، تحتل فرنسا بينها، دوراً قذراً ومكشوفاً. وإذ بالرسالة لا تعدو كونها تأمّلات في الميلاد، لا علاقة لها البتة، بما يجري، لا في سورية وحسب، بل أيضاً في أي نقطة من بقاع الأرض، التي باتت، على نحو سافر، مسرحاً للقوى الغنيّة والظالمة، الغربية، وللقوى الغنيّة والغبيّة العربية، تزرع فيه الرعب والجوع والتشريد، والموت والدمار واليأس. فأغضبني الأمر وأثار استنكاري. فأرسلت على الفور رسالة بالبريد الألكتروني إلى الرئيس العام، ألومه فيها بقسوة على هذا التوجّه المعيب، الذي يتنكّر فيه، باسم "البرادو الدولي"، لأبسط المبادئ الإنجيلية والإنسانية، التي نادى بها "الأب انطوان شفرييه"، مؤسّس الجمعية، والتي مات في سبيلها، والتي يعلنها الإنجيل على الملأ، في كلّ كلمة من كلماته، وفي كلّ موقف من مواقف يسوع. وجاءني جوابه في سطرين لا غير، كما لو كان يُشفِق عليّ ممّا أصابني من انحراف في الفهم، ويدعوني للتعقّل... ورأيت ألا أُطلع أحداً من "برادو الشرق"، على هذين الموقفين، سوى صديقي المطران أنيس أبي عاد، مطران الكنيسة المارونية في حلب. وإني لأورد الآن نصّ هذه الرسائل الثلاثة بحرفيتها، لأسجل مرة أخرى استنكاري لهذا التوجّه غير الإنجيلي، الذي بات يسود "جمعية البرادو"، على نحو سافر في الغرب، وعلى نحو خنوع في الشرق؛ منذ فترة وجيزة سبقت رحيل الأب "ألفريد أنسل"، مساء (11) أيلول عام 1984.

1) رسالة الأب "روبير دافيو" إلى جميع أعضاء البرادو وأصدقائهم في العالم...

ملاحظة: في أعلى الصفحة الأولى من الرسالة، ظهرت نجمة مغارة بيت لحم، وقد كتب تحتها:

نجمة تدل على المغارة التي ولد فيها يسوع في بيت لحم. أما نص الرسالة، فكان بالحرف الواحد، وفي ترجمة لي:

« يا للفرح! ها نحن من جديد في زمان الميلاد!

"الأخوة والأخوات، الأصدقاء والصديقات،

إن الحديث عن الميلاد، لشيءٌ لطيفٌ، لأن هذا الزمان ينشر فينا طاقة قوية داخلية، تدفعنا إلى الأمام، وتوقظ في قلوبنا القاسية أحياناً، مشاعر جديدة من الفرح. إنها ليقظة روحية حقيقية، لطالما نحن بحاجة إليها، كي نكون اليوم حملة سلام ورجاء في العالم، وفقاً لدعوتنا المسيحية:

"افرحوا في الرب كل حين، وأقول أيضاً افرحوا،

وليكن حلمكم معروفاً لدى جميع الناس. فإن الرب قريب"

(فيليبي 4/4-5)

1. إنه فرح مجيء المخلص، المسيح الموعود للبشرية كلّها.

نحن نعلم أن هذا الفرح ليس من الشأن البشري. ففي الفصول الأولى من إنجيل القدّيس لوقا، نجد جذره: إنه فرح الخلاص، عطية الروح (الإلهي) للبشرية جمعاء، المنقولة والمقبولة من لَدُن الفقراء (لوقا 1/41-45، 1/67-79، 2/9-20، 2/25-32). فلنصغِ مثلاً إلى زكريا، الذي أصيب بالبكم منذ زمان طويل، إذ امتلأ من الروح القدس، فتنبّأ بهذه الأقوال:

"تبارك الرب إله إسرائيل، لأنه افتقد شعبه، وحقق تحرره، وأثار قوة خلاص في عائلة داود عبده". إنه لتفجر فرح وحمد لله،

"الذي أظهر محبته لآبائنا، وتذكّر عهده المقدس". وإن زكريا، إذ تنبأ برسالة يوحنا المعمدان، مولوده الجديد، يتابع قائلاً:

"وأنت أيها الطفل الصغير، سوف تدعى نبي العلي، لأنك ستسير أمام نظر الرب، لتعدّ طرقه... ولتعطي شعبه، معرفة الخلاص... إنه فعل المحبة العميقة، محبة إلهنا: بفضلها، زارنا النجم الذي من العلى... كي يقود خطانا على طريق السلام (لوقا 1/67-79).

إن سرّ التجسد لا ينتهي عند المغارة. فإن الأب "شفريبه" يرى في حياة يسوع، أن التجسد تجلى بقوة في الصليب والقربان المقدس معاً. فذاك هو موقف دائم من يسوع الذي تحمّل على نحو كامل، بشريته، والذي تقبلها بوصفها طريقاً يظهر به تضامنه وقربه من أخصائه، لا سيما الفقراء والمحرومين.

وقد ذكر ذلك على نحو مطول في الرسالة إلى العبرانيين، حيث جاء القول: "إن يسوع لم يأتِ لمساعدة الملائكة، ولكن لأحفاد إبراهيم... وبذلك توجب عليه أن يكون في كل شيء شبيهاً بإخوته، كي يصبح كاهناً أكبر، رحيماً... كي يمحو خطيئة الشعب" (عبرانيين 16/2–17)، أو أيضاً "بات قادراً على تفهّم الذين لا يعلمون فتاهوا، لأنه هو أيضاً عرضة للضعف من كل جانب... وهو الذي، عبر حياته الأرضية، قدم صلوات وابتهالات بصراخ عظيم ودموع... ولما كان ابناً، فقد تعلم الطاعة بالألم" (عبرانيين 2/5–8)

بالطريقة نفسها، كان المطوّب انطون شفريبه ينادي: "كي أدخل في ممارسة هذا السر الإلهي، أسألك أيها الآب القدوس أن تضع فيّ تعاطفاً مقدساً حيال الخطأة المساكين، وألا تدعني أنجرف بالاحتقار والبرود حيالهم. أسألك، أيها الكلمة المتجسد، أن تهبني التضحية والغيرة على النفوس، التي جعلتك تهبط من أعالي السماوات، وتتقبل من أجل خلاصنا، الإهانات والآلام والموت... يا يسوع، يا ملك النفوس الأوحد والحقيقي، أريد أن أتبعك. لكم أنت طيب وعظيم... أريد أن أتبعك في حياتك كلّها" (طريق التلميذ والرسول، ص 336).

2. لنكن إذن حملة فرح، ورجاء، وسلام، لنساء ورجال هذا الزمان...

"أنت... ستكون نبي العلي... كي تعطى معرفة الخلاص".

أجل، هذه البشرى العظيمة والرائعة، وهذه المعرفة الخلاصية، يجب أن تعطينا لعالمنا:

"بفضل محبة إلهنا العميقة، فقد زارنا النجم من العلى... كي يقود خطواتنا على طريق السلام". في عالمنا، نلاحظ انعدام الأمان، تنامي العنف العائلي، والسياسي والاقتصادي، وكذلك الجهل الديني تحت أشكال الإلحاد، واللامبالاة وانعدام التسامح الديني. ويسعنا أن نضيف تفاقم التجارة بالمخدرات، التي تطال الكثير من العائلات. وإن الأزمة الاقتصادية العالمية تجعل المستقبل غير مضمون، وتوسع الجدار الذي يباعد بين الأغنياء والفقراء. وإن التسلط المتغطرس لبعض الناس، يجعلهم قساة إزاء الألم والصراخ، بل الإقدام على الموت من قبل الذين يتصرفون كي يضمنوا ظروفاً أفضل لأولادهم. ولذلك، فنحن في حاجة ماسة لمن يقودنا على طريق السلام والرجاء، وهما ثمرتا هذه البشرى الطيبة، بشرى الخلاص في يسوع المسيح، الذي يفرح حياتنا ويغيرها.

لهذا السبب، فإن كنيستنا وجماعاتنا في حاجة ملحة إلى تجدّد دعوتنا ورسالتنا. إن إلهنا الطيب، "العلي"، يواصل استدعاءه أنبياء قادرين على التبشير بالفرح والرجاء والسلام، الذين يهبّون لمساعدة الآخرين، الذين قد يكونون باتوا تعبين وهرمين، ولكنهم يواصلون الثبات دائماً في الرسالة. وفي عالمنا، تظهر تحديات جديدة، ثمّة أشكال جديدة من الفقر تجب مواجهتها. ونحن مدعوون من قبل الكنيسة للاحتفال بالذكرى الخمسين للمجمع الفاتيكاني الثاني، وللانطلاق في تبشير جديد. وكلنا مدعوون للتساؤل، لا سيما نحن، تلاميذ ورسل يسوع المسيح، في مدرسة الطوباوي انطوان شفرييه. وفي عام 2012، سنكون ضمن سيرورة الإعداد لجمعيتنا العامة 2013، التي سيكون موضوعها: "تبشير الفقراء بغنى يسوع المسيح". أية مبادرات جديدة يتوجب علينا أن نقوم بها؟ ما هي المساهمات التي يتوجب علينا تقديمها لكنيستنا، كي نعيد إلى الرجال والنساء، معرفة الخلاص هذه، في يسوع المسيح؟

ولكن لا ننسينّ أن العمل وحده غير كافٍ. يتوجب علينا أن ندرك روحانية التجسد، والمغارة. بواسطة طفل المغارة، فإن الله يختبر المواقف الأساسية ويعلمنا إياها: التنازل، الفقر، الاتضاع، البساطة، المشاركة، إنكار الذات، الصمت، الحوار، الإصغاء، الصبر، الترقب، تعظيم الآخر، تعظيم الإنسانية، أين نحن من كل ذلك؟ قد آن لنا أن نستدرك ذلك، أن نولد من جديد!

ميلاد سعيد للجميع، في محبة عظيمة.

التواقيع: روبير دافيو	جوزيه فرنانديز	جوزيه فييرا
المسؤول العام	مساعد	مساعد

2) أما رسالتي الجوابية

فكانت فورية، بتاريخ 2012/1/9، وهي بالطبع باللغة الفرنسية، وإني لأنقلها إلى العربية بكل أمانة:

« الأب العزيز،

تلقيت للتو رسالتك لميلاد 2011.

يا لها من خيبة!

هل أنتم حقّاً أبناء الأب شفرييه؟

لكم هو لطيف التحدث عن الميلاد، في عالم يغوص في مهاوي الظلم والقمع الذي يمارسه غرب مفترس!

ولكن عليكم أن تقرأوا كتب "جان زيغلر"، و"أمين معلوف"، و"نعوم تشومسكي"، و"إسرائيل شاحاق"، و"عمانويل ليفين"، و"دومينيك فيدال"!

اقرأوا كتاب "لويجي أكاتوللي"، "عندما يطلب البابا الغفران"، الصادر عام 1997، لتعلموا أين كانت خطيئة كنيسة الغرب، في الماضي، لتعرفوا أين هي خطيئتها اليوم!

أتساءل ما الذي تفعلونه في البرادو، إزاء جميع آلام العالم!

أجل، لطيف هو الحديث عن الميلاد! »

3) جواب الأب دافيو

وجاءني جوابه بالبريد الألكتروني بتاريخ 2012/6/13، بالفرنسية طبعاً، وإني لأنقله بحرفيته:

« الأب الياس،

لتهدي آلام يسوع المسيح واستقبال روح الآب، روح التمييز فينا، وأقوالنا وأعمالنا!

التوقيع روبير دافيو »

ولكم يؤلمني أن أضيف أن رسالة عيد ميلاد عام 2012، وهي موقعة من قبل الأب العام "روبير دافيو" وكاهنين آخرين، لا تختلف، من حيث المضمون والتوجه، عن رسالة عيد ميلاد عام 2011. ترى، ماذا ينتظرون في كنيسة الغرب عامة، وفي "جمعية البرادو" خاصة، أن يحدث في سورية والشرق العربي كلّه، أكثر مما حدث، كي ينتهوا إلى ربط الإنجيل بحياة الغرب، كل الغرب؟

ولكم يؤلمني أيضاً أن يكون "برادو الشرق" قد أخذ بهذا الخدر اللاإنجيلي، على صعيد الفكر اللاهوتي والحضور الإنساني الشامل، والشهادة الجماعية الجريئة!

إنّ ما ذكرته بشأن انقطاعي المزمن عن جمعية "البرادو"، في الغرب أوّلاً، ثم في الشرق العربي، وكذلك بشأن مساءلتي العنيفة عام 2011، لرئيسها الحالي، الأب "روبير دافيو" حول تغيّبها التام عن قضايا السياسات الغربية، الظالمة والمدمّرة، حيال العالمين العربي والإسلامي عامّة، وسورية خاصّة، من جهة، وتغييب "برادو الشرق" عنها وعن الواقع المأساوي الذي يجتاح الشرق العربي منذ عشرات السنين، من جهة ثانية، دفعني تلقائيّاً للعودة إلى ما جاء في رسائل رئيس "البرادو" الأسبق، الأب "الفريد آنسل"، التي كان قد خصّني بها عبر سنوات طويلة، أي من عام 1958 إلى عام 1982، أي قبل وفاته بسنتين فقط. وإنّ مجموع هذه الرسائل ليبلغ (54) رسالة، علماً بأنها ليست كلّ ما استطعت أن أحتفظ به من رسائل وردتني منه.

ولقد أعدت قراءتها كلّها ليلة أمس، فتبيّن لي التناقض الصارخ بين توجه البرادو الحالي، وما كان يريد الأب "أنسل" من توجه لبرادو الشرق، يجمع في آن واحد، بين الالتحام التام بالإنجيل، والتجسّد التام في المجتمعات العربية. صحيح أنّ هذه الرسائل تتّسم بتوجّه شخصي كان الأب "أنسل" يخصّني به، بصفتي المسؤول عن نقل "بذرة البرادو" من بيئتها الأصلية الغربية، إلى بيئتها العربية الجديدة، إلا أنها كانت أيضاً تتسم بأفق إنساني مدهش برقّته وشفافيته، لأنها كانت أيضاً تتلازم باتضاع إنجيلي منفتح على جميع الآفاق.

ولكم كنت سعيداً، إذ كنت أعيد قراءتها، أن أكتشف من جديد أنّ الأب "أنسل" كان حقّاً من المفكرين واللاهوتيين والمسؤولين الكنسيين الغربيين القلائل، الذين استطاعوا، بفعل تأثرهم الصادق والعميق بروح الإنجيل، أن ينعتقوا من كلّ نزعة غربية من شأنها أنّ تبرّر حتى الحدود الدنيا والخفية، من الروح الاستعمارية المتأصلة بألف شكل وشكل، في كلّ غربي، شاء أم أبى.

هذه الرسائل تزخر على نحو خارق، بروح إنجيلية، ومحبّة إنسانية، تلازمتا باتضاع معرفي سحيق، وخبرة كنسية تمتدّ على نطاق العالم... ولكن حسبي منها بضع فقرات تكشف عن مدى تقبّل هذا الإنسان وتفهّمه، لتوجّه "برادو الشرق"، توجّها عربيّاً وإنسانياً صادقاً، كما كنت أدعو إليه وأتباحث بشأنه معه...

يقول في رسالته إليّ بتاريخ 1966/6/13:

« لو كنت تعلم مدى فرحي بقراءة رسالتك المؤرخة في 1966/5/11! ولو كنت تعلم ما هي الذكرى التي أحتفظ بها من زيارتي لدمشق! لست أدري ما إذا كنتُ قلتُ لك ذلك في رسالة سابقة، وهي أنها أثرت فيّ تأثيراً عميقاً، وقد تأملت في الإمكانيات القائمة لديكم بالنسبة إلى الكنيسة. وأتذكّر على نحو خاص حواراتي مع أستاذَي الجامعة (كانا انطون المقدسي وبديع الكسم)، اللذين جمعتني بهما. وقد أتيح لي أن أتحدث عنهما أكثر من مرة، ولكن دون ذكر اسميهما، وعن أهمية وجود كنيسة عربية حقّاً، ففي ذلك ما يظهر أنه لا يجوز التوحيد بين الإسلام والعروبة.

من ناحية أخرى، فإنّ سفري إلى سورية، على ما اتّسم به من سرعة، أتاح لي أن أفهم على نحو أفضل طبع الإنسان السوري. لا شك أن السوريين يتمتعون بشكيمة قوية. وما تعلمته عندكم من حيث موقفكم من جمال عبد الناصر، هو دليل على ذلك. إن الصدامات والتوترات القائمة عندكم، تجد تفسيراً لها أيضاً في غنى طبيعتكم... ولقد

فهمت على نحو أفضل أهمية العائلة عندكم... كل ذلك كان بالنسبة إليّ اكتشافاً. بالطبع، هذا يختلف كلياً عن عاداتنا الغربية، ولكنه ينطوي على قيم كبرى...

إن تجدّد الكنيسة في سورية يعني حضور الكنيسة على جانب أعظم من الفعالية بالنسبة إلى العالم كله، ولكنّه يعني في الوقت نفسه، المصاعب الهائلة التي حدّثتني عنها. فههنا تكمن في آن واحد جميع التعقيدات السياسية والدينية التي تخصّ بلدكم. »

وفي رسالة له بتاريخ 1967/7/13، يقول بالحرف الواحد:

« تسلّمت رسالتك المؤرخة في 6/18.

لست بحاجة لأن أقول لك كم من مرة رحلت بفكري إلى وطنك وإلى جميع البلدان العربية، طوال هذه الأيام الأخيرة: يؤسفني أنه حدث في فرنسا، موقف، يُفسَّر دون شك بالدعاوة القائمة، ولكنه لم يكن موضوعياً. من ذلك أن الجزائريين المتواجدين في فرنسا، عانوا كثيراً من تصرف الفرنسيين حيالهم، وقد دفعني ذلك إلى إصدار بيان بهذا الشأن في "المجلة الدينية" الخاصة بمدينة ليون. تُرى، متى سيصبح من الممكن إقامة سلام في الشرق، يرتكز حقّاً على العدالة؟

إذا التقيتَ من جديد أستاذ الفلسفة الذي تحدثت معه في دمشق (لم أعد أذكر اسمه إلا أن ملامحه حاضرة في ذاكرتي) قل له إني أحتفظ بأحاديثنا في أعماق ذاكرتي، وأنا أجاريه بعمق في بحثه الدؤوب عن الحقيقة، ضمن احترام لحرية الجميع. أتحدث عن الأستاذ المسلم. ولكني لا أنسى أيضاً صديقيك الكاثوليكيين اللذين تبادلنا الأحاديث معهما في بيتيهما. (كانا انطون المقدسي وسهيل شباط). لقد قمت بالمساعي التي سألتني إياها في روما، في طريق العودة، ولكني لا أعتقد أنها ستكلل بالنجاح. لكم هو صعب، أن تحمل على الإيمان بالحقيقة، من لم يتح لهم أن يروا بأم أعينهم!

إن سفري إلى دمشق هذا العام، كان له من التأثير ما هو أعمق مما ترك لدي سفري السابق. يبدو لي أنه، على قصره، أتاح لي أن أغوص على نحو أعمق في الذهنية السورية، وقد مكّنني هذا الأمر من معرفتك على نحو أفضل، لأنك، والحمد لله، متجذّر حقّاً في وطنك!...»

وكتب بتاريخ 1967/12/15، يقول:

« رسالتك المؤرخة في 1967/12/9، وصلتني للتو، وأنا على وشك السفر إلى أميركا الجنوبية.

لقد غمرَتني بمدى من الفرح إذ كنت أقرأها، بحيث اندفعت لإجابتك ولو بكلمة وجيزة...

لكم من مرة فكّرت في سورية خلال هذه الأشهر الماضية. لكم من مــرة تــذكّرت زيارتي لها، وحواراتي فيها، لا سيما في جامعة دمشق ومع أصدقائك... »

وكتب في 1969/10/20، يقول:

« أسعدني جداً أن أعرف أنك أصدرت كتيّباً باللغة العربية، عن "العرب المسيحيين". إن كنت، أنا شخصياً، لا أستطيع قراءته، فإني سأرسله إلى "بيير هومبلو"، الذي يهتم بهذا الأمر كثيراً. على كل حال، سيسعدني أن أراه، حتى لو كنت عاجزاً عن قراءته...

أنا متّحد بفكري، معك ومع سورية كلّها... »

وفي رسالة له بتاريخ 1969/11/26، كتب يقول:

«... أجل، أعرف أميركا الجنوبية، ولكني لم أتعامل مع الأوساط التي تتعامل معها... عندما كنت أسافر إلى أميركا الجنوبية، كنت دائماً مع الفقراء والكهنــة الــذي يهتمــون بالفقراء. وكنت أقوم بزيارات سريعة للأساقفة في المناطق التي كنت أزورها. أما بالنســبة إليك، فهناك التزامات أخرى، وتعامل مختلف. وإني، إذ كنت أقرأ رسالتك، ذهبت بفكري إلى ما كان يحدث للقديس فرنسيس الأسيزي، في طريقة تعامله عندما كان بعض الكرادلــة يدعونه في روما. فكان مثلك، يشعر بالغربة، ولكنه، بفضل اتحاده العميق بالمســيح، كــان دائماً يتمتع بالسلام، وما كان ليدين أحداً البتة... وكان أحياناً يجيز لنفسه أن يبدي بعض الآراء، التي قد تقود بعضهم إلى الله. ليس بوسعك أن تُصلِح هــذه الأوســاط ولا ذهنيــة أصحابها، ولكنه يتوجب عليك على نحو ما، أن تشفق على هؤلاء الناس الذين انخرطــوا في بنى قد تبعدهم عن الإنجيل. يجب علينا أن نثير فيهم رغبة عظيمة في لقاء المسيح. يجــب أن نثير فيهم رغبة الانحياز إلى صالح الفقراء، في وجه المظالم الاجتماعية التي ترهقهم!

... لقد أتيح لي أن أتحدث إلى المطران "غلوريو" (Glorieux) – كان سفير الفاتيكان في دمشق آنذاك – خلال زيارتي لروما. ورويت له اللقاءات التي كانت لي في دمشــق، بفضلك. فأبدى اهتماماً كبيراً بهذا الأمر. وحدثته عن أهمية موقع ســورية في الكنيســة الكاثوليكية، لأنها البلد الوحيد في العالم، الذي يستطيع فيه الإنســان أن يكــون عربيــاً بالكلية، ومسيحياً بالكلية! »

وفي رسالة أخرى له بتاريخ 1970/2/9، كتب يقول:

«... كنت سعيداً جداً بتلقي رسالتك المؤرخة في 1/30...

... أودّ أن أقول لك إني تحدثت عنك مع المطران "غلوريو"، عندما قمت بزيارة روما

في شهر تشرين الأول... أعتقد أنه سيكون من المفيد جداً أن تزوّده بالمعلومات التي يحتاج إليها، كي يتخذ الموقف المناسب في بلدكم. سيبذل دون شك قصارى جهده، كي يكون حاضراً بفعالية، ولكنه بحاجة إلى دعم. »

وفي رسالة له بتاريخ 1970/3/13، كتب يقول:

« وفي ما يخص العلاقات بين اليهود والعرب، فإن الوضع في فرنسا بالغ الغموض. إبان الحرب الرهيبة التي احتلت بها إسرائيل مدينة القدس، كان الرأي العام الفرنسي، الذي كان قد تأثّر تأثّراً مؤلماً بالمظاهرات المعادية لإسرائيل، التي قامت في مصر، قد انحاز بصورة عامة، لصالح إسرائيل. وفي تلك الفترة، كنت مدبّراً رسولياً في كنيسة ليون، فأتيحت لي الفرصة للاحتجاج علناً من منبر كاتدرائية ليون، ضد هذا التحرك المعادي للعرب...

... سأكون دائماً سعيداً بما يسعك أن تمدّني به من معلومات بهذا الشأن. إن سفري إلى سورية، أتاح لي مرات كثيرة، أن أشرح موقف العالم العربي إزاء إسرائيل. إلا أني بحاجة إلى مزيد من معلومات إضافية، ورسالتك ستتيح لي التدخل بشكل أو بآخر...

"وما قلتَه لي بشأن موقف الأب "دوبريه" من هذه القضية، يسعدني فهناك في روما، لحسن الحظ، رجال يعرفون جيداً العالم العربي! »...

وفي رسالة له بتاريخ 1970/12/16، كتب يقول:

« لقد أدركتَ أنني، إبان زيارتي لسورية، حاولت أن أشترك في حياتكم وقضاياكم. بالطبع، لم يكن بوسعي أن أملي عليك أي توجيه، ولكني كنت سعيداً بمشاركتي لكم، فكراً وروحاً، في عمق حياتكم.

أنت تحدثني عن هذا الأستاذ الذي التقينا عنده، خلال زيارتي لدمشق. إني لأتذكّر على نحو جيد جداً، ما دار بيننا من حوار، ويسعني أن أؤكد لك أنه انحفر في أعماقي. إن كنيسة سورية ليست البطريرك، ولا الأساقفة، ولا الكهنة وحدهم، إنها أيضاً المؤمنون العلمانيون. وإني لأتساءل ما إذا كان يتوجب دعوة العلمانيين على نطاق واسع، من أجل هذا العمل، الذي هو عمل ثقافي. يجب أن تفكروا في المستقبل! »

وفي رسالة له بتاريخ 1973/5/5، كتب يقول:

« أرجو أن تكونوا أدركتم في سورية أن النص بشأن العلاقات مع الدين اليهودي، كما صدر في فرنسا، ليس نصّاً صادراً عن الهيئة الأسقفية الفرنسية، ولكنه نص صادر عن

اللجنة الأسقفية للعلاقات اليهودية– المسيحية. وهو لا يعبّر عن فكر جميع أساقفة فرنسا، ولكن عن بحث لاهوتي وراعوي خاص بهذه اللجنة. ومن ناحية أخرى، فإن هذا التصريح قد أثار تفاسير سياسية كان من الواجب تجنبها. وينبغي لي أن أخبرك أني لم أطّلع عليه إلا عن طريق الصحف، وقد عرفتَ دون شك الانتقادات التي خصّ بها الكاردينال "دانييلو" واضعي هذا التصريح، من حيث رأيهم اللاهوتي. وهو بالتالي نص يتوجب علينا أن ندرسه دون شك، ولكن دون تشويهه. وهو ليس تعليماً عقائدياً تقترحه كنيسة فرنسا، ولا توجيهاً راعوياً قد يفرض تبنّيه جماعياً... أقول لك كل ذلك، لأنه وثيقة لا يجوز تضخيمها، ولا – خلافاً لمقاصد واضعيها – تحميلها دلالة سياسية... »

وفي رسالة له بتاريخ 1981/10/30، كتب يقول:

« انطلاقاً مما أعرف عن وضع الكنيسة في الشرق الأوسط، وفي سورية خاصة... يبدو لي أنها أوضاع مؤلمة، وأنها تزداد مأساوية...

"إن كتبت لي وشرحت لي ما الذي يحدث، سأسأل الله أن يلهمني ما يتوجب علي أن أقوله لك. على كل حال، ستخبرك هذه الرسالة أن في فرنسا أسقفاً عجوزاً يحبك كثيراً، ويصلي من أجلك. بدورك صلِّ من أجلي... »

وفي رسالة له بتاريخ 1981/12/30، كتب يقول:

« لم أكتب لك عندما تسلمت رسالتك الأخيرة التي تحدّثني فيها عن التفجير الأخير الذي أحدث ضحايا كثيرة. أودّ أقلّه أن أكتب لك هذه الأسطر، مع حلول رأس السنة...

... كثيراً ما أعود بفكري إلى هذا الشرق الذي أحبه كثيراً، وهو الوطن البشري لابن الله. ليرسل إليه روحه، الذي هو روح سلام وقوة وحب... »

أما رسالته إليّ بتاريخ 1982/6/29، وهي الأخيرة منه إليّ، فقد جاءت مدهشة، على معرفتي العميقة به، بما تجلّى فيها ما انطوت عليه شخصيّته من إيمان رائع بالإنجيل، ومن انفتاح شامل على العالم، ومن دعوة صريحة لإحقاق الحق والعدالة بين البشر جميعاً، ولا سيما في فلسطين. وهي تمثّل في نظري، اليوم ونحن في النصف الثاني من عام 2013، زبدة ما كنت أطالب به قديماً وحديثاً كنائس الغرب كلّها، بشأن قضايا الحقّ والعدالة والحرية على نطاق العالم عامة، وعلى نطاق الصراع العربي الإسرائيلي خاصة، من جهة، وما طالبت به "جمعيّة البرادو" في الغرب منذ عام 1975،

و"جمعية البرادو" في الشرق، منذ أن ثبّتت أقدامها في أرض الشرق العربي، من جهة ثانية. ولكم يطيب لي أن أذكر هذه الرسالة الأخيرة للأب أنسل، بحرفيّتها اليوم، عسى مسؤولي وكهنة البرادو، في الشرق أولاً، ثم في الغرب، يسمعون صوته، ويستعيدون وفاءهم لدعوتهم، في زمان جهنمي يكاد يكون كلّ ما فيه، رهناً بمساومات ومتاجرات وتنازلات، لا علاقة ليسوع بها، ولا للإنسان.

ثمّة ملاحظة لا بدّ لي من ذكرها، وهي أني كنت قد وافيت الأب "أنسل" بنسخة من رسالة لي مفتوحة إلى الرئيس ريغن، وهي بتاريخ 1982/6/12، وقد كنت أرسلتها إلى بعض الصحف والمجلات، العربية والأجنبية بنصها الإنكليزي، ولم تنشر... وقد نشرت في كتابي "من أجل فلسطين" (صفحة 67 تابع). ولسوف أوردها كاملة في ملحق هذا الكتاب.

أما رسالة الأب "أنسل" إليّ، فقد جاء فيها بالحرف الواحد:

« كثيراً ما فكرت فيك في هذه الأيام، منذ بداية الحرب الفظيعة التي شنّتها إسرائيل. تألّمت معك، ومع الفلسطينيين، ومع جميع العرب المتضامنين معهم. أعرف جيّداً أنّ لكل شيء ثمنه، عاجلاً أو آجلاً. وقد اختبرت إسرائيل ذلك قبل مجيء يسوع المسيح، الذي قال لنا:

"من يأخذ بالسيف، بالسيف يؤخذ!"... ولكن إنجاز هذه النبوءة لم يتحقق إلا بعد قرون... تذكّر تدمير الإمبراطورية الرومانية على يد البرابرة. وقد تنجز النبوءة خلال جيل واحد. لنفكّر في هتلر! على كل حال هو الله الذي، كما يقول الكتاب المقدس، يحتفظ لنفسه بحق الانتقام.

ومع ذلك، فإنه لا يجوز لنا أن ننسى المسؤولية الرهيبة، التي يتحملها من يفجّرون العنف. وما كتبته في رسالتك إلى الرئيس "ريغن"، يمثّل ما سمّي "دوامة العنف". فإن العنف، ولا سيما إذا كان غير عادل، يولّد حتماً، من الناحية البشرية، إما يأساً، وإما عدوانية تبحث عن الانتقام. إن رسالتك لرهيبة. فهي ترسم المدى الذي يمكن أن تتركه حتى في قلب الكاهن، مثل هذه الأحقاد الغريزية. صحيح أنه لا يجوز اعتماد الإنجيل من أجل تبرير الانتقام، ولكن يمكننا اعتماد الإنجيل لإدانة العنف.

إن رسالتك محقة، بمعنى أنها تعبر عن غضبك وثورتك. أنا شخصياً، لا أتمنى أن تنشرها بحرفها. ولكني تساءلت وأنا أقرأك، ما إذا كان من الممكن أن تعيد صياغتها، بحيث تأتي متوافقة مع الحق والإنجيل معاً.

قد يمكنك في القسم الأول، أن تندّد مرة أخرى بموقف إسرائيل من الفلسطينيين، فتقول بوضوح إن إسرائيل التي كادت أن تتعرض لإبادة كاملة من قبل هتلر، هي اليوم في طريقها لأن ترتكب الجريمة ذاتها حيال الفلسطينيين.

ولكن يجب أن تمضي إلى ما هو أبعد من ذلك، فتذكّر بأن العنف يولّد العنف، وأن ذلك أمر طبيعي، لا يمكن لأي شيء بشري أن يمنعه، وأن إسرائيل بالتالي تعدّ بذلك بيدها تدميرها الذاتي، لأن العالم الإسلامي، عاجلاً أو آجلاً، سيدمّرها!

وعندها، يسعك، في قسم ثالث، أن تذكر باسم الإنجيل، المثل الذي ورد في إنجيل القدّيس متى (52/26)، والذي قال فيه يسوع لبطرس: "أعد السيف إلى غمده..." فإن إسرائيل تُعدّ خرابها، إذا تابعت هذا النهج، وإن الأميركيين وجميع الذين يمدّونها بالسلاح، ويدعمونها، يهيّئون فناءها ذات يوم. فإن لكل شيء ثمنه، ومن يضرب بالسيف، بالسيف يهلك.

وإن ذلك لينطبق على جميع أمم الأرض التي تقمع الأقليات، سواء في روسيا السوفييتية أو في الدول التابعة لها، وكذلك بالنسبة إلى الدكتاتوريات العسكرية في أميركا اللاتينية...

وسيطبق ذلك أيضاً ذات يوم على الولايات المتحدة الأميركية، التي تدعم هذه الدكتاتوريات، لا في أميركا اللاتينية وحسب، بل أيضاً في بعض بلدان القارة الآسيوية.

ثمّة عدالة ذاتية ثابتة (Justice Immanente)، تحملنا على التأمل في دعوة الإنجيل إلى السلام.

أخيراً، من شاء أن يتجنّب المخاطر الرهيبة التي يتوقع حدوثها، يتوجّب عليه، طالما أتيح له الوقت، أن يعيد السيف إلى غمده. والذين يرفضون للفلسطينيين أن تكون لهم دولة، يحكمون على إسرائيل بهذه الإبادة عينها، التي كان هتلر يريدها لهم.

قد تقول لي إن ذلك قد قيل، دون أن يحدث أية نتيجة. ولكن يسوع لا يطالبنا بالنجاح، بل هو يطلب منا أن نقول الحقيقة.

ولسوف تدرك معنى اقتراحي، حتى لو لم تكن موافقاً بالمرة عليه.

حقّاً، رسالتي كلّها ستحمل لك خيبة أمل. ومع ذلك، لو كان لك أن تدرك مدى محبتي لك، ومدى مشاركتي لك في آلامك، ومدى رغبتي لك في أن تنمو في شهادتك للمسيح.

أكرّر لك كل مودّتي. وأصلّي من أجلك... »

يا أبت القدّيس ألفريد أنسل،

هل تراني أخطئ، إن قلت لك إنّ أبناءَك اليوم، في الغرب قبل الشرق، باتوا غرباء عن آلام الناس، ولا سيما عن آلام العالمين العربي والإسلامي، اللذين أحببتَهما، وكنتَ تسعى دائماً بكلّ صدقٍ وتصميم، إلى تحقيق المزيد من معرفتك الشخصية لهما، لتزداد محبّةً لهما، وقدرةً على الدفاع عنهما؟!

الفصل الرابع عشر

مرّةً أخرى، في مواجهة اللاساميّة الغربيّة وعقدة ذنبها المَرَضيّة

عندما وصلت إلى فرنسا، عام 1955، وعرف بعض الناس، ومنهم كهنة، في تلك الضاحية الجنوبية من مدينة "ليون"، أني عربي مسيحي من سورية، كان أحد أعند الأسئلة التي طُرحت عليّ، هو: كيف هي علاقاتكم مع المسلمين؟ وكانوا يفاجأون عندما كنت أقول لهم: إنها أسلم بكثير من علاقاتكم مع اليهود. ويومها كانت أقذر الإهانات في فرنسا، تُختصَر بكلمة "يهودي قذر!" (Sale juif). وعندما كانوا يعلمون أن في دمشق وسورية، والشرق العربي عموماً، يهوداً بالآلاف، يتعايش معهم الناس جميعاً، وأنهم يعملون في جميع قطاعات الحياة، باستثناء الجيش، في هدوء وصداقة، على الرغم من الصراع العربي الإسرائيلي، كانت الدهشة تستبدّ بهم. إلا أنّ هذه الدهشة كانت تبلغ قمّتها، عندما كنت أؤكد لهم أنّ المؤرخين الغربيين أنفسهم، يعترفون بأن المسلمين، عندما فتحوا دمشق والقدس ومصر والأندلس، لم يقتلوا الناس، بل تعاونوا معهم، حتى أُتيح لهم جميعاً أن يبنوا نمطاً جديداً من المجتمع والحضارة، لم يألف مثلهما العالم من قبل، حيث كان المسلم والمسيحي واليهودي، يتعايشون جنباً إلى جنب...

ولكم كنتُ أُفاجأ بدوري، عندما كنت أكتشف، حتى لدى الكهنة، وكلّهم مُثقّفون، أنهم يجهلون حقّاً تاريخهم في الغرب، فكيف لهم بتاريخ سواهم، لا سيما من العرب والمسلمين؟ ويومها، لم يكن في طول فرنسا وعرضها، من حضور للعرب، سوى حضور أولئك القادمين من شمال إفريقيا، أو ممّن جاؤوا طلباً للرزق والعمل في قطاع البناء والطرقات، الذي كان الفرنسيّون يترفّعون عن العمل فيه. وإلى ذلك، كانت الثورة الجزائرية قد ألقت بكلّ ثقلها وظلالها، على جميع جوانب الحياة في فرنسا. وبات كلّ ما يصدر عنها، ينعكس تلقائياً، لدى الفرنسيين، على كل ما هو عربي، بل بات كلّ ما هو عربي، مسلماً يجب تحاشيه أو اتّقاؤه أو محاربته، لأنه أصبح كالمسلم الجزائري، الذي كان يتهدّد وجودهم في الجزائر آنذاك، والذي قد يتهدّد وجودهم في قلب فرنسا، بعد سنوات قليلة.

ويومها، لم يكن لمعظم البلدان العربية، شأن يُذكر في نطاق الاستقلال، ولا في نطاق العلاقات الدولية المؤثّرة والفاعلة، والعمل الدبلوماسي. فكيف كان لها أن تتدارك جهل المجتمع الغربي، وبالتالي عدوانيّته حيال كلّ ما هو عربي، سواء في حاضره الهشّ أو المضطرب، أو في ماضيه الموغل في القدم، لتسارع إلى سدّ، ولو جزء يسير من هذه الثغرة؟ صحيح أن الجامعة العربية كانت حديثة السن، وقد اتّضح عبر وبعد عقود من الزمن، أنّ بريطانيا التي صنعتها، شاءتها حقّاً "جائحة" تفتك بالعالم العربي، كما هي حالها اليوم مع العرب جميعاً، ولا سيما مع سورية. وصحيح أيضاً أن ما كان يُسمّى الدول العربية، قد اصطنعت لها في العالم كلّه، ممثّليات بمستوى سفارات، اتضح أنها كانت بمعظمها أقرب إلى مناطق حرّة أو مراكز سمسرة، منها إلى مواقع طليعية في خدمة الوطن والأمة العربية والسلم العالمي. ثمّة استثناءات نادرة جداً، لكنها، ككل استثناء، تثبت القاعدة العامة. أقول هذا بألم شديد، وأستشهد عليه الكثيرين من السوريين، الذين كانوا يدرسون في فرنسا، ويُضطرّون لمراجعة السفارة في أمر ما. وإني لأذكر منهم خمسة ممّن اجتمعت بهم ذات يوم في مدينة ليون في آخر السبعينيات، وكانوا قد أرسلوا إلى السفارة جوازات سفرهم، لتجديدها، أو لتمديدها. فبقيت في السفارة أشهراً طويلة، بحجّة عدم توفّر الورق، أجل عدم توفّر الورق! وكان أن توفّر الورق في أربع وعشرين ساعة، عندما واجهت قنصلنا يومذاك، وكان من طلابي السابقين، وقد عاتبته بشدة على استهتار السفارة بمن لم يعد لهم من رابط بوطنهم، بعد أهلهم، سوى السفارة في باريس. فكيف لمثل هؤلاء الدبلوماسيين، الذين يتصرّفون حيال النخبة من أبناء وطنهم، وكأنهم لا يكنّون لهم أي احترام ووزن في الغربة، أن يكنّوا لوطنهم الوفاء المطلوب، والحضور الكفؤ والفعّال، والمرن والجريء، والمسؤول أبداً، في ظروف يعرف فيها أدنى السياسيين، بل أبسط المطّلعين، أنّ المعركة القائمة بين العرب والصهيونية، هي، في حقيقة الأمر وفي نهاية المطاف، معركة بقاء ووجود؟ وهنا، لا يسعني، حرصاً مني على استبعاد اتهامي الرخيص بالتحامل الشخصي، إلا أن أذكر واقعة جرت مع الباحثة الفرنسية المعروفة، "آن ماري غواشون" (A-M. GOICHON)، يوم كانت، وهي تقارب الثمانين، ما تزال تدرّس في "السوربون"، تسعى لدى السفارات العربية الاثنتين والعشرين، المتواجدة في باريس، كي تتّفق فيما بينها على ترشيح أستاذ عربي بديل عنها، لئلاّ يحتلّ مركزها مدرّس يهودي. وقد ظلّت، كما أكّدت لي، تكتب مدة سنتين لجميع هذه السفارات، دون أن تتلقّى أي جواب. وكان أن حلّ محلّها في جامعة "السوربون"، مدرّس يهودي!

إزاء ما أجدني مضطراً لوصفه بالاستهتار واللامبالاة، كان هناك، بالمقابل، من يعمل، بالخفاء والعلن، منذ عشرات السنين، في المجتمعات الغربية كلّها، كي يبني لذاته كياناً في فلسطين، قابلاً للحياة، بل قادراً على تفجير المجتمعات العربية كلّها من الداخل والخارج، كي يتسنّى له البقاء والتوسّع والهيمنة. وقد تبيّن من خلال كتب كثيرة، وضعها باحثون غربيون، ومنهم عدد لا بأس به من اليهود، في فرنسا والولايات المتحدة الأميركية، أنّ اليهود أوّلاً، ثمّ الصهاينة، عرفوا كيف يتغلغلون في مختلف مرافق الحياة في الولايات المتحدة، حتى كان لهم فيها الحضور الأقوى في جميع المؤسسات، السياسية والإعلامية، والتجارية والمالية، والاجتماعية والدينية، بل والعسكرية والأمنية، بحيث تسرّبوا منها إلى الهيئات الدولية الكبرى، وعلى رأسها هيئة الأمم المتحدة. وقد تمّ كل ذلك، قبل الاعتراف بدولة إسرائيل، وقبل صدور قرار التقسيم عام 1947. وثمة مراجع أخرى، ألمانية وفرنسية، تؤكّد تغلغلهم أيضاً في الدول الأوروبية كلّها، ولا سيما في ألمانيا النازية، حتى إنّ بعضهم كان من المقرّبين لهتلر، بل من مساعديه في تنفيذ مخطط "الإبادة اليهودية"، بقصد تبرير وتكثيف هجرة اليهود إلى فلسطين!

ومع انتهاء الحرب العالمية الثانية، كانت الظروف، النفسية والاجتماعية والسياسية كلّها، قد اكتملت في الغرب، في نظر اليهود، لإنجاز مشروعهم الكبير. ذلك بأنّ جريمة "الإبادة النازيّة لليهود"، كانت قد أيقظت ما كان تراكم في أعمق أعماق الغربيّين جميعاً، من آثار جريمة أخرى مارسوها حيال اليهود، مدة تقارب ألفاً وستمائة عام، وهي تلك التي باتت تعرف باسم "اللاسامية". وقد تشكّلت نتيجة تداخل هاتين الجريمتين التاريخيّتين، في وجدان الغرب والغربيّين، عقدة ذنب هائلة، أتقن اليهود استغلالها واستثمارها وإحياءها بشتى الطرق، وعلى مدار الساعة، طوال عشرات السنين، وما زالوا، حتى بات الغرب كلّه، بعد رحيل "الجنرال ديغول"، من قمة الهرم فيه إلى جميع قطاعات القاعدة، يبرّرون لليهود، وبالتالي لإسرائيل، جميع ما يُقدِمون عليه، حتى في الغرب، وخصوصاً في الشرق العربي كلّه، ولا سيما في فلسطين، دون أن تُسمع ولا كلمة إدانة فاعلة بحقّهم...

واليوم، فليس هناك مَن يجهل أنّ مشروع "سايكس- بيكو" كلّه، كان من وحي الصهيونية. ومن وحيها أيضاً، كانت الحملة البريطانية- الفرنسية المشتركة والمصطنعة، من أجل فرض ما سُمّي "الانتداب" على الشرق العربي، وتقطيع أوصال سورية إلى دويلات طائفية صرف، بعد أن اقتُطِع بقدرة قادر، من جسمها الطبيعي، ما سُمّي دولة فلسطين، وإمارة الأردن، ودولة لبنان، وبعد أن منح العراق وتركيا،

مناطق واسعة منها... وأما اليوم، فهل هناك من يشكّ لحظة واحدة، أن إسرائيل، أولاً وأخيراً - بعد أن أحكمت الصهيونية قبضتها وعقلها وأموالها ومخابراتها، على الغرب كلّه، بمؤسساته السياسية والاقتصادية، والمالية والمخابراتية، والإعلامية والثقافية، وبعد أن سمّمت عقول المسؤولين والمؤمنين في كنائس الغرب كلّه، من الولايات المتحدة وكندا، إلى استراليا وأوروبا الغربية، وبعد أن طالت بعض أعلى مراتب المسؤولية في الفاتيكان، من خلال بعض الكرادلة، وفي الكنائس الأوروبية كلّها، وبعد أن نسفت المجتمعات العربية والإسلامية كلّها، وألّبتها بالإعلام والأموال، والأسلحة والإرهاب، والحروب والفتن، على بعضها البعض - هي وراء ما يحدث في سورية منذ عامين تقريباً، وراء هذه الجحيم التي فاقت بهولها كلّ ما يمكن الإنسان أن يتصوّره من سفالة وبشاعة وتوحّش؟ كلّ ذلك، وكنائس الغرب كلّها صامتة، كما لو كانت على كوكب آخر، أو لكأني بها قد طلّقت كل ما له علاقة جادة وصادقة بالرب يسوع!...

هذا الذي أكتبه الآن، ليس بجديد عليّ، ولا على الذين ألفوا أن يقرأوا لي، إن على صعيد واقع الهيمنة الصهيونية المطلقة على الغرب، أو على صعيد ما أُريدَ ويُرادُ له أن يجري في الوطن العربي عامة، وفي سورية خاصة. والآن حسبي أن أشير إلى ما جرى في فرنسا وحدها، بشأن الهيمنة الصهيونية عليها. وإني لأعتمد وثيقتين ليس إلا: الأولى هي كتاب لكاهن فرنسي اشتهر في الخمسينيات، ويدعى "الأب شارل" (Père Charles)، والكتاب بعنوان: "حلّ المشكلة اليهودية" (La Solution du Problème Juif)، والثانية كتاب آخر لباحث مشهور يدعى "روجيه غارودي" (Roger GARAUDY)، وهو بعنوان "إسرائيل القضية" (L'Affaire Israël). فإنّ في مطالعة الوثيقة الأولى ما يدهش أشدّ الدهش، إذ إنّ مؤلفها، وهو كاهن، يدعو إلى استبعاد جميع اليهود من فرنسا، عاجلاً وقسراً وقانوناً، وإلاّ ابتلعوا كلّ شيء فيها. كان ذلك عام 1950. وأما كتاب غارودي، وهو يعود إلى عام 1983، فإنه يصدم القارئ منذ السطور الأولى من المقدّمة، إذ هي تشير إلى هيمنة الصهيونية في ذلك الحين، على جميع مرافق الحياة في فرنسا. وإليكم افتتاحية هذه المقدّمة. يقول فيها، منذ سطورها الأولى:

« إننا نواجه موضوعاً محرّماً (تابو: Tabou): الصهيونية ودولة إسرائيل. بوسع الإنسان في فرنسا، أن ينتقد العقيدة الكاثوليكية أو الماركسية، أن يهشّم الإلحاد أو الوطنية، أن يدين أنظمة الاتحاد السوفييتي، والولايات المتحدة، أو أفريقيا الجنوبية، أن ينادي بالفوضى أو المَلَكية، دون تعرّضه لأية مجازفة، سوى المجازفة العادية المثيرة لجدال أو لدحض.

ولكن إذا ما أخذ الإنسان بتحليل الصهيونية، فإنه يلج عالماً آخر، إذ هو ينتقل من

الأدب إلى القضاء: بموجب قانون 29/تموز/1981، الذي يستهدف بحقّ التشهير بكل شخص تبعاً لانتمائه إلى جنس، قومية، عرق أو إلى ديانة محددة. إنّ انتقاد سياسة دولة إسرائيل والصهيونية السياسية، التي تؤسّسها، تعرّضك للمحكمة الجنائية.

إنّ الانتقاد الأساسي لدولة إسرائيل – وأعني بالأساسي، انتقاداً لا لهذا أو ذاك من الأفعال المعزولة، حتى لو كان إجرامياً، ولكن انتقاد المنطق الذاتي لدولة تقوم على مبادئ الصهيونية السياسية – تعود عليك فوراً بتهمة "النازية"، وتجلب لك تهديدات بالموت.

إنّ مؤلف هذه المحاولة يستطيع أن يدلي بشهادته بهذا الشأن، لأنه، هو نفسه، تعرّض، للسبب عينه، للملاحقات القضائية، لاتهامه "بالنازية"، ولتهديدات بالقتل. » (انتهى)

إن لفي مثل هذا التبدّل الجذري والسريع، ما يدعو للذهول.

وهذا الذي يصرّون في الغرب على تسميته، بمنتهى القحة والسفالة، "بالربيع العربي"، ليس سوى جحيم من صنع الصهيونية، وهي تُتقن تنفيذه اليوم، بواسطة أدوات لها في الغرب، وفي البلدان العربية، وفي قلب سورية. وهذه الجحيم، كنت أتوقّعها منذ زمان طويل... ولكم كنت حذّرت منها، بالكلمة المكتوبة، بالخطب، خلال جولاتي الكثيرة في بلاد الغرب، ولا سيما مع جوقة الفرح، وبالمواجهات الشخصية، التي كنت أسعى لإجرائها، مع هذا أو ذاك من المسؤولين المرموقين في كنائس الغرب. وأنا بذلك، أقول بكل بساطة، إني لست أدّعي النبوّة. فحسب الإنسان أن يكون قارئاً صادقاً ومتابعاً، وأن يكون بالدرجة الأولى حرّاً، كي يجد نفسه أمام مُخطّط جهنمي لا يرحم، عوّدنا الغرب، عبر تاريخه كلّه، على تكرار مشاهده المأساوية، بطريقة أو بأخرى. ولقد ذكرتُه وحذّرتُ منه منذ عام 1970، في مجلة "المسرّة" الصادرة في شهر حزيران، في مقال بعنوان: "مع مكسيموس الخامس في القارة الأميركية". كما ذكرتُه وحذّرتُ منه في رسالة شخصية كتبتها لرئيس أساقفة باريس، الكردينال "فرنسوا مارتي"، بتاريخ 1973/2/23. وذكرته أيضاً وحذّرتُ منه، في رسالة شخصية أيضاً كتبتها للكردينال البرازيلي الشهير، "هلدر كامارا"، في 1975/1/4. وعدت فكتبته وحذّرت منه، في رسالة مفتوحة إلى الرئيس الأميركي جيمي كارتر، نُشِرت في مجلة المستقبل الباريسية، في 1979/4/14. ثم كتبته وحذّرتُ منه إثر زيارة السادات المشؤومة إلى القدس، في مقال نُشر في مجلة المستقبل الباريسية أيضاً، بتاريخ 1980/1/19، تحت عنوان "رحلة حتى قاع الجحيم". كما أني كتبته أيضاً وحذرتُ منه في ردٍّ على رسالة وردتني من كندا في ميلاد عام 1979، تحت عنوان "استبقتِ الزمن يا صديقتي". ولكم

كتبتُ وحذّرتُ منذ ذلك الحين، حتى حلّت الجحيم كابوساً على سورية، تأكل فيها الحجر والشجر والبشر، بأساليب وطرائق، كان يستحيل على المرء تصوّرها. إلا أنها حدثت وتحدث... وكنت دائماً أعرف أنّ كلمتي لا تقدّم ولا تؤخّر في ما يجري، وفي ما يُراد له أن يجري، فوق الأرض السورية، وفي أعماق كلّ إنسان سوري... إلا أني لم أكفّ يوماً عن الصراخ، ولن أكفّ... فأنا لست سوى تلميذ متناهي الصغر، لذاك الكبير الكبير، الذي جاءنا من فلسطين، والذي تكلّم فيها كلاماً ما يزال العالم كلّه، حتى اليوم وإلى الأبد، أصغر من أن يستوعبه، يسوع!

وإني، في متن هذا الفصل من شهادتي، لأسمح لنفسي، وأنا أستعدّ في هذه الأيام القاسية، للنهوض مع سورية، من أجل سورية، ومن أجل العرب جميعاً، بل من أجل العالم بأسره، أن أورد، من جملة ما ذكرت للتوّ من نصوص، ذاك الذي يحمل عنواناً بائساً، هو "رحلة حتى قاع الجحيم!". هذا العنوان ليس من إبداعي، بل هو من إبداع صانعي الجحيم لشعوب الأرض المستضعفة، أولئك المتربّعين على كراسيهم في واشنطن!

« **رحلة حتى قاع الجحيم**

جحيم، الرحلة من دمشق إلى باريس؟

بالتأكيد، لا.

إلا أنّها، مع ذلك، كانت تماسّاً مع جحيم...

منذ اللحظة الأولى:

في مطار دمشق، آخر عدد لمجلّة المستقبل: الافتتاحيّة لنبيل خوري عن السادات:

"لا عميل، ولا فاقد العقل..."

ماذا، إذن؟

خائن، وكفى.

حتى السادات، كان الشرق العربي، مسرحاً لأحداث حوّلت بعض بلدانه إلى جحيم...

بعد السادات، يبدو لي أنّ الشرق العربي كلّه بدأ يتحوّل إلى جحيم...

وطوال الطريق، لم يغب شرقي العربيّ، لحظةً واحدةً، عن فكري...

ماذا يُخبّأ له؟...

فوق جبال الألب...

المشهد الجليديّ فوق كلّ وصف...

ولكنّي لا أرى... سوى هنيبعل...

جبال الألب... وقاهرها هنيبعل...

وبالمقابل:

القدس... والسادات...

الله...

واخجلتاه من التاريخ...

...

في مطار أورلي:

أيدي الشباب تلوّح لي من بعيد...

الشباب: بعضٌ من بلدي... وكلّ حياتي...

...

القلق على البلد... والمصير...

والسؤال إيّاه: أنعود أم لا نعود؟...

آه، يا بلدي...

آه، يا أبناء بلدي...

ماذا أقول؟

وماذا أكتم؟

...

خلافاً لرغبة الشباب، ظللتُ مصرّاً على الإقامة في الدير إيّاه الذي ألفتُ الإقامة فيه منذ عام 1955:

هو مجال التقاء بالعديد من الأساقفة والكهنة الأوربيّين، والأميركيّين والأفارقة...

ومنذ اللقاء الأوّل:

ماذا عن السادات؟...

ماذا عن السلام؟...

لماذا تَدَعون الأبواب مُشرعةً أمام إسرائيل، وأنتم أبداً صامتون؟...

لماذا لا تقابلون بانتظام المسؤولين في الكنيسة الغربيّة؟

لماذا لا تنظَّم زيارات للشرق العربيّ، يتمّ خلالها إطلاع المثقّفين في الغرب على قضاياكم؟

لماذا؟

لماذا؟...

...

منذ اليوم الأول... حتى اليوم الأخير...

الإعلام العربيّ غائب... غائب...

والحضور الصهيونيّ طاغٍ...

هذا ليس بجديد...

ولكن الجديد فيه: تنوّع حضوره، وسرعته...

في الصحف اليوميّة،

في المجلاّت الأسبوعيّة والشهريّة والفصليّة...

في التلفزيون...

في الإذاعة،

في السينما،

في الكنائس،

في المكتبات،

في الملصقات،

حتى في "السكوب العربي"، وهي المجلة العربيّة الوحيدة المتخصّصة بالإعلان العربي: ذات الحضور الإسرائيلي، في العدد 12، أيلول 1978، صفحة 38، تحت عنوان: "صالون كوهين": "استقبال حار – ضيافة عربية":

كل شيء ينصبّ في طاحونة إسرائيل:

الماضي السحيق،

والماضي القريب،

الدين،

والكذب،

النازية،

والرومان الغزاة...

دريفوس،

والسادات،

وأيدِي أمين...

عبثاً أبحث عن كتاب يُبدي بموضوعيّة وجهة النظر العربيّة، لعلّني أستطيع أن أُهديه أحد من أحاورهم من أساقفةٍ أو كهنة...

حتى فاجأني آخر كتاب للمؤلّف المسرحي السويسري "دورنمات" بعنوان:

"من أجل إسرائيل"...

وعلى غلافه ورقة بيضاء ضيّقة كتب عليها بخطّ أحمر كبير:

"ضد الإرهاب الفكري العالميّ"...

أطيب التهاني لك يا إسرائيل...

إسرائيل، جزّار الشعوب العربية، باتت الخروف المسكين، الذي يهدّده الذئب العربيّ ومن يتودّد له من مدمني النفط...

...

عشرون يوماً في باريس،

عشرون يوماً في تماسٍّ مع جحيم اليوم...

وجحيم الغد؟

... جحيم الغد؟

رأيته بأمّ عيني في فيلم أميركيّ حديث، يثير ضجة:

"رحلة حتّى قاع الجحيم"

ذلك هو عنوانه: شطرا حياة في أميركا وفي فييتنام...

أعراس عمّال الصلب الأميركيين تنقلب مآتم،

وفييتنام تنقلب جحيماً...

قوافل النازحين...

أكوام الجثث...

أكوام الدولارات...

حرائق، ودمار، وموت...

الغول الأميركي الأهوج يحاول، عبثاً، ابتلاع شعب...

...

ماذا أقول؟

وماذا أكتم؟

فييتنام؟...

بل شرقي العربيّ...

الغول الأميركيّ؟

بل إسرائيل...

الشعب الفييتامي؟

فلأصمتْ: ههنا لا تجوز المقارنة...

...

خاتمة الفيلم:

عمّال الصلب أنفسهم، وقد عادوا من الحرب، يعودون من المدفن حيث واروا التراب زميلاً لهم انتحر في فييتنام.

اجتمعوا حول مائدة بسيطة، بصحبة خطيبة الضحية، يَقهرون الدمع، ويُنشدون بأصوات خنقها الحزن:

"يا الله صبَّ بركتك على أميركا..."

أكانوا يصلّون،

أم كانوا يسخرون؟

لست أدري...

إنّما ما أدريه، أني سمعتُني أردّد في أعماقي:

يا الله، صبَّ لعنتَك على أميركا،

يا الله، صبَّ لعنتَك على أميركا... » (انتهى)

لكم يؤلمني أنا الكاهن، أن أجدني أقول:

"يا الله، صبّ لعنتك على أميركا!"

ولكم كنت أتمنّى أن أسمع من هذا أو ذاك من المسؤولين في كنائس الغرب، كلمة حقّ يجهر بها باسم المسيح، في وجه حكام آلوا على أنفسهم نهب الأرض كلّها، وتدمير شعوبها، ولا سيما الشعوب العربية والإسلامية!...

ولكم حاولت، منذ عام 1955، أن أثير شيئاً من اليقظة، لدى العديد من الكهنة الغربيين أوّلاً، ثم لدى المسؤولين في كنائس الغرب، إزاء السياسات الظالمة واللاإنسانية، التي تنتهجها حكومات الغرب كلّها، حيال القضية الأساسية، قضية الصراع العربي الإسرائيلي.

ولكم من مرة دعوت هذا أو ذاك، من الأساقفة المرموقين في الغرب، لزيارة الشرق

العربي، ولو مرة واحدة، في مقابل زياراتهم المتكرّرة لفلسطين المحتلة، التي باتوا يسمّونها في كتاباتهم وبياناتهم الرسمية، "الأرض المقدسة"! وكنت أرجو من ذلك أن تكتمل الرؤية لديهم، ولو في حدودها الدنيا، حول ما يجري في حقيقة الأمر، في فلسطين، وبالتالي حول ما يترتّب عليهم من مسؤولية أخلاقية وإنسانية، إزاء هذه المسائل المصيرية، التي تنطوي على مساءلات صريحة للإنجيل!

وكان كلّ ذلك يتم خلال لقاءات شخصيّة معهم، ثم عبر رسائل شخصية إليهم. وقد حدث لي ذلك، أول ما حدث، مع رئيس "جمعية البرادو"، المطران "ألفريد أنسل" (A. ANCEL) عام 1956، ثم مع الكردينال "جرلييه" (GERLIER) في العام نفسه. ثم، بعد ذلك بسنوات، مع رئيس أساقفة باريس، الكردينال "فرنسوا مارتي" (F. MARTY)، خلال عام 1973 و1974. ثم كان لي لقاء شخصي مع الكردينال "لوستيجيه" (LUSTIGER) رئيس أساقفة باريس عام 1990، أعقبته برسالة شخصية له من دمشق بعد أيام قليلة، ثم برسالة شخصية له، إبان زيارته لدمشق، عام 2001، مع البابا يوحنا بولس الثاني. كما كان لي لقاء شخصي مع مطران مدينة "رين" (RENNES) الفرنسية، "جوزيف دوفال" (J. DUVAL)، في شهر أيلول من عام 1991، أعقبته بعد أيام برسالة شخصية له.

كما كتبت رسالة شخصية إلى الكردينال الفرنسي "روجيه اتشيكاراي" (R. ETCHEGARAÏ)، إثر المهمة التي قام بها إلى العراق، قبيل الحرب، بتكليف من البابا يوحنا بولس الثاني. وإني لأشير منذ الآن إلى رسالتي إلى المطران "ريكار" (RICARD)، رئيس هيئة الأساقفة الفرنسيين، عام 2002، لأني سأوردها بحرفيتها في سياق هذا الفصل. وأشير إلى لقاءين هامين كانا لي مع أسقفين فرنسيين، كان أولهما المطران "جان- بول جيجر" (J-P. JAEGER)، إبان زيارة "ميرنا الصوفانية" عام 2003، لأحد أديرة الرهبان "الصامتين" (Trappiste) في بلدة "فيسك" (WISQUES) في فرنسا، وكان ثانيهما المطران "جوزيف ميدك" (J. MEDEC) إبان زيارته مزار سيدة الصوفانية في دمشق، عام 2005، مع فريق من الحجاج الفرنسيين، كان يقودهم الأب "بيير دومولان" (P. DUMOULIN). كما أشير إلى لقاء، في شهر تموز عام 2007، مع أسقفين فرنسيين أرثوذكسيين، هما المطران فيجيل (Vigile)، والمطران مارتان (Martin)، في دير بلدة سان ميشيل دوفار (St Michel du Var).

وأخيراً، لا بد لي من الإشارة إلى الرسائل التي تبادلتها مع مطران مدينة "غرينوبل"، غي دو كيريميل" (Guy de Kérimel)، إثر المؤتمر الذي نظمه مع الدكتور

انطون ارجاكوفسكي، في مدينة "غرينوبل" عام 2011، للبحث في مسألة مسيحيي العالم العربي، والذي أرادوا مشاركتي فيه!...

وطوال هذه المدة العصيبة، لكم من لاهوتي غربي راجعت بهذا الشأن، كان أولهم من كان يدرسنا الكتاب المقدس، الأب "بول ترنان"، ومن كان يدرسنا اللاهوت النظري، الأب "بيير دوبريه"، في القدس، في الخمسينيات. ثم كان اللاهوتي الفرنسي المعروف، الأب "هنري دو لوباك" (H. de LUBAC) عام 1956، يوم كان في دير الآباء اليسوعيين في "فورفيير"، بمدينة ليون. ثم أتيح لي لقاء بائس مع اللاهوتي الفرنسي "ايف كونغار" عام 1973، رويت تفاصيله في فصل سابق. ثم جاء دور الأب "رينه لورنتان" منذ عام 1986، ثم الأب الأميركي "رابرت فوكس" (R. FOX)، والأب البلجيكي "باتريك بالان" (P. BALLAND)، والأب الفرنسي "جيرار لافون" (G. LAFOND).

وأما على نطاق "الفاتيكان"، وهو السلطة العليا في الكنيسة الكاثوليكية، فلكم من مرة، رأيت من واجبي أن أوجّه رسائل شخصية إلى البابا يوحنا بولس الثاني، بالطرق الرسمية، أي بواسطة السفارة البابوية بدمشق. ولما لم أتلقّ أي جواب، لا من روما، ولا من السفير البابوي بدمشق، قرّرت كتابة رسائل مفتوحة إلى البابا يوحنا بولس الثاني، ثم إلى البابا بينديكتوس السادس عشر، ثمّ إلى كنائس الشرق والغرب معاً، إبان انعقاد السينودس العالمي من أجل الشرق في روما، في شهر تشرين الأول عام 2010. وما كنت أكتبه وأقوله، كان مؤلماً جداً، بالدرجة الأولى... عليّ... ومع ذلك لم أتردّد من التصريح به مراراً... إلا أنّ كلّ ذلك ظلّ دون صدى...! ومع ذلك، وجدتني عشية انتخاب البابا فرنسيس، أنشر رسالة جديدة مفتوحة... "إلى البابا المرجو!"...

وهنا لا بد لي من الإشارة إلى التقرير الذي كان السفير البابوي الأسبق بدمشق، المطران "جيوفاني باتيستا مورانديني"، قد طلبه مني في شهر أيار عام 2008، حول الأوضاع الدينية والسياسية في سورية. كان قد بلغ النهاية من عمله في السلك الدبلوماسي الفاتيكاني. وكان يريد أن يرفع هذا التقرير إلى أعلى المراجع في روما. فاشترطتُ عليه الاحتفاظ بحرفية النص، فوافق. وكان أن قدّمتُه له في أواخر حزيران. وكان محتواه نارياً، وبمنتهى القسوة. وإذ به يوافيني برسالة خطيّة، حملت لي من الشكر والحرارة، ما لم أكن أتوقّعه البتة. وهنا لا بد لي من الإقرار بما يعرفه كل قرائي، وهو أن جميع رسائلي وكتاباتي، ما كانت لتكون رسائل، بقدر ما كانت صرخات تنديد وتحذير واستنهاض وتحدٍ في آن واحد، يطلقها كاهن عربي على وجه الدنيا، في وجه المسؤولين في قمة الكنيسة الكاثوليكية الغربية. أجل، كنت أطالب بكلمة حق، صادقة، جريئة، قوية قبل

فوات الأوان، وقبل حدوث ما كان يراد له أن يحدث ممّا نرى ونعيش اليوم، على نطاق العالمين العربي والإسلامي عامة، وعلى نطاق سورية خاصة، من كوارث إنسانية واجتماعية ودينية مروّعة، من مثل إبادة الشعب الفلسطيني، ومن مثل تأليب الشعوب العربية والإسلامية كي يدمّر بعضها بعضاً، ومن مثل زوال الحضور المسيحي في الشرق العربي كلّه، على نحو كلّي، تسويغاً لظهور دولة يهودية صرف في فلسطين!

ويؤسفني أن أقول وأردّد أنّ جميع هذه المحاولات ظلت دون جواب، مع أنّ ما كان فيها، كان، في نظر الكثيرين، يستوجب، في الحد الأدنى، تأنيباً، إن لم يكن عقاباً!

وإني لأتساءل: ما الذي يسعه أن يبرر مثل هذا الصمت المزمن، والمريب حقّاً؟

ولمن يقول: إنّ في كتاباتك انحيازاً فاضحاً لكلّ ما هو عربي، أجيب بكل بساطة، إني كنت أشحنها كلّها دون استثناء، بما كان قد انتهى إليه، من حقائق ونتائج وإنذارات، في غاية الخطورة، مؤرّخون وباحثون وصحفيّون غربيّون معروفون. وكان منهم يهود، بل إسرائيليون عرفوا الصهيونية، وناضلوا في صفوفها، ثم تخلّوا عنها وحذّروا منها، لما سبّبت من مآسٍ للشعب الفلسطيني وللشعوب العربية، ولما يرون ما ستسبّبه من كارثة حتمية، عاجلاً أو آجلاً، للشعب اليهودي نفسه، وقد غادروا كلّهم إسرائيل. وإني لأذكر منهم، على سبيل المثال، مكسيم رودانسون وعمانوئيل ليفين، وهما يهوديّان فرنسيّان. وأذكر منهم روجيه غارودي واينياسيو رامونيه، وهما مواطنان فرنسيّان، وجان زيغلر السويسري، وأمين معلوف اللبناني الفرنسي، وبول فيندلي وروبرت دول، وهما أميركيّان، ونعوم تشومسكي وهو يهودي أميركي، وإسرائيل شاحاق، وأفرهام بورغ، وجيلاد أتزمون، وهم إسرائيليّون وصهيونيّون سابقون!

إذن كانت الكنائس الغربية أبداً صامتة.

وإلى ذلك، كنت أرصد باستمرار ما كان يصدر من نصوص مسؤولة، من هذه الكنيسة أو تلك، عساني أقرأ فيها ما ينضح بروح الإنجيل وعشقه للإنسان في حقوقه وكرامته وحياته، على مساحة الأرض كلّها، وليس على مساحة الغرب وحده! وقد وُفّقت إلى رصد بعض هذه النصوص القليلة، إلا أنها كانت تضجّ بتفاوت هائل في الشعور بالمسؤولية، والتردّد في النطق بالحقّ، وإدانة الظالم. ومن هذه النصوص "تصريح لأساقفة الجزائر حول الشرق الأوسط" يعود تاريخه إلى 1982/6/24، وهو يضم توقيع الكردينال دوفال ومساعده المطران هنري تيسييه، وثلاثة مطارنة هم جان-ماري رانبو وجان سكوتو، وبيير كلافيري. ولكم يريحني أن أنقل ما جاء فيه في نصه الفرنسي، في ترجمة حرفية أمينة:

« يوما بعد يوم، تتّخذ أحداث الشرق الأوسط منحىً يزداد خطورة. فعدد الضحايا يتفاقم في اطراد. والدمار يتراكم في لبنان، حيث صارت الحياة أشدّ صعوبة، وقد باتت حتى مدينة بيروت وسكانها، بعد جنوب لبنان، مهدّدين في وجودهم.

نحن ندين انتشار العنف، وهيمنة القوة الوحشية.

وإنّ لامبالاة الرأي العام العالمي إزاء الأحداث الفظيعة في هذه الأيام الأخيرة، لهي فضيحة مقزّزة.

وقد بات كلّيَّ الإلحاح البحث عن السلام بوسائل آمنة، عن طريق الحوار بين جميع الأطراف المعنية.

على كل حال، يجب وضع حد لإبادة الشعب الفلسطيني، ويجب أن يُعترف له بحقوقه عملياً. وكذلك يجب توفير الحرية للبنان على كامل أراضيه. فإنّ رسالة هذا البلد في تعايش الثقافات والأديان، هي علامة على السلام في العالم.

سوف يتّحد جميع المؤمنين في صلاتهم، كي يسألوا الله أن تعود الأرض المقدّسة، أرض سلام في التفاهم المتبادل بين جميع سكانها.

التاريخ والتوقيع » (انتهى)

ويؤسفني أن أعقّب على هذه الرسالة، بأنّ كنيسة الجزائر، منذ ذلك الحين حتى اليوم، اعتصمت بالصمت!...

ومن هذه النصوص الرسمية أيضاً وخصوصاً، رسالة مفتوحة وجّهها للرئيس جورج بوش، كردينال بوسطن، "برنار لو"، بتاريخ 2002/1/4، يسعدني جداً أن أنقل بضع فقرات منها، بكل أمانة، وهو يقول له فيها بصريح العبارة، في جملة ما يقول:

« أيها السيّد الرئيس،

أنت لم تقل الحقيقة حول الشيء الذي جعل منّا هدفاً للإرهاب، عندما شرحت لماذا سنقصف أفغانستان والسودان. فقد قلت إننا هدف الإرهاب، لأننا ندافع عن الديمقراطية والحرية وحقوق الإنسان في العالم. هذا كذب أيها السيّد الرئيس. نحن هدف الإرهابيين لأنّ حكومتنا، في أكثر بقاع الأرض، دافعت عن الدكتاتورية والعبودية واستغلال البشر. نحن هدف الإرهابيين، لأننا مكروهون، ونحن مكروهون، لأننا قمنا بأفعال كريهة...

إنّ حكومتَنا، من بلد لأخر، قد شلت الديمقراطية، وخنقت الحرية، وسحقت حقوق الإنسان. لذلك نحن مكروهون في العالم، ولذلك نحن هدف الإرهابيين.

... بدل أن نرسل أبناءنا وبناتنا عبر العالم، ليقتلوا العرب، بقصد الاستيلاء على

النفط، الموجود تحت الرمال، يتوجّب علينا أن نرسلهم ليعيدوا بناء البنى التحتية، ليوفّروا ماء للشرب، ويغذوا الأطفال الجياع.

وبدل أن نواصل قتل آلاف الأطفال العراقيّين كلّ يوم، بسبب عقوباتنا الاقتصادية، يتوجّب علينا أن نساعد العراقيين لإعادة بناء مراكز الكهرباء لديهم، ومحطات معالجة المياه، ومشافيهم، أي كلّ ما دمّرنا وما نحول دون إعادة بنائه، بسبب عقوباتنا الاقتصادية...

وبدل أن ندرّب إرهابيين وكتائب الموت، يتوجّب علينا أن نغلق "مدرسة القارة الأميركية". وبدل أن ندعم التمرد وزعزعة الاستقرار، والاغتيالات والإرهاب في العالم، يتوجب علينا أن نلغي (CIA) ونقدّم المال الذي تنفقه للمنظمات الإنسانية.

باختصار، يتوجّب علينا أن نكون طيّبين، بدل أن نكون أشراراً. وعندها مَن سيحاول أن يعترضنا؟ ومَن سيكرهنا؟ ومَن يرغب في قصفنا؟

أجل هذا يا سيادة الرئيس، هذا بالذات ما يحتاج الشعب الأميركي لأن يسمعه! » (انتهى)

وثمة تصريح ثالث لأسقف فرنسي يدعى "بروغس" (BRUGÈS)، وهو أسقف مدينة "انجيه" (Angers)، ورد على الشبكة الألكترونية، خلال عام 2002، وهو يجرؤ ويندّد فيه بإسرائيل، وإن بطريقة يستدرك فيها نفسه بعض الشيء، ويقول:

« إزاء المأساة الفلسطينية، دولة واحدة رفعت الصوت قوياً وعالياً. إنّ موقف الكرسي الرسولي هو مفخرة لكنيستنا... ليس صحيحاً أنّ كل انتقاد لحكومة إسرائيل، ناجم حتماً عن موقف لاسامي. وإنّ ادعاءً كهذا يفضي إلى وضع هذه الحكومة فوق حرية الرأي والتعبير... إنّ البيوت المنهارة والبنى التحتية التي دمّرت في انتظام (كان منظر الجنود الإسرائيليين وهم يتلفون الملفات والأرشيف، وحتى شهادات وزارة التعليم والثقافة، الفلسيطينية، مسيئاً على نحو صادم) والأماكن المقدّسة المحاصرة لأوّل مرة في التاريخ الحديث، والشعب الذي أُكره على الهجرة والأعمال المتطرفة، خلال هذه الأسابيع الأخيرة، كانت القوة إلى جانب إسرائيل على نحو متفاقم، والحقّ على نحو متناقص... إنّ الشعب الإسرائيلي الذي تحمّل أبشع أنواع الاضطهادات، يعرف أكثر من سواه، السخاء والتعاطف، وبكلمة واحدة، سموّ الروح. لقد آن الأوان لإظهار ذلك »... (انتهى)

هذا كل ما استطعت أن أرصده طوال هذه السنوات، من تصريحات فيها إدانة صريحة للولايات المتحدة ولإسرائيل، صدرت عن مسؤولين في كنائس الغرب...

بالطبع هناك أيضاً بيانات رسمية لا يجوز لي أن أتجاهلها، وقد صدرت عن

مسؤولين في كنائس الغرب، الأوروبي والأميركي والكندي... كان يحدث ذلك بعد كل زيارة سنوية اعتادوا أن يقوموا بها إلى فلسطين منذ عام 1998، وقد ألِفوا أن يستبدلوا فيها اسم فلسطين، بتسمية "الأرض المقدسة"...

من هذه البيانات المتشابهة روحاً وهدفاً، لم أحتفظ إلا ببيانين، أولهما يعود بتاريخه إلى 2003/1/1، وقد وقّع عليه سبعة من الأساقفة الفرنسيين، على رأسهم، رئيس هيئة الأساقفة الفرنسيين آنذاك، المطران "جان بيير ريكار"، والبيان بعنوان "لا ننسينّ الأرض المقدسة". أما الثاني، فهو يعود بتاريخه إلى 2006/6/28، وقد وقّع عليه رئيس هيئة أساقفة كندا، المطران "ف. جيمس فايسجربر" (V. James WEISGERBER). وإنه ليؤسفني أن أصرّح أنّ ما جاء فيهما لا يتضمّن الحدود الدنيا من الملاحظة الإنسانية، والمحاكمة الإنجيلية، والدراسة التاريخية...

وحسبي هنا أن أورد الرسالة التي رأيت من واجبي، بوصفي كاهناً عربيّاً من سورية، أن أكتبها للمطران ريكار الفرنسي، بتاريخ 2003/3/24، تعليقاً على بيان الأساقفة السبعة، الرسمي. وأنا أترجمها بحرفيتها:

« صاحب السيادة،

من يكتب لك هو كاهن كاثوليكي من دمشق.

تلقّيت من أصدقاء في فرنسا، نص البيان الرسمي الذي أصدره وفد الأساقفة الفرنسيين في "الأرض المقدسة" في القدس، بتاريخ 2003/1/1.

كنتَ تترأس هذا الوفد، وبوصفك رئيساً للوفد، أكتب لك.

صاحب السيادة،

دعني أحدّثك دون مواربة.

يبدو لي أنّ بيانكم مليء بالعواطف الطيبة، ولكنّه يتجاهل كلياً المشكلة الحقيقية.

أمن الممكن ألا يكون مثل هذا الوفد قد رأى أنّ قلب كلّ هذا الصراع هو، بكل وضوح، احتلال إسرائيل للأراضي الفلسطينية؟

صاحب السيادة،

هل يمكن ألا يكون مثل هذا الوفد، لا رأى ولا استنتج أنّ هذا العنف الجهنمي، الذي يجتاح على هواه، جميع الأراضي المحتلة، يضع في المواجهة شعباً مسلّحاً بالحجارة والغضب فقط، ومحتلاً يمتلك أحدث الأسلحة المتطورة، ومنها طائرات (ف 16) الأميركية، ومروحيات الأباتشي، التي تصطاد البشر والمنازل، بمرأى من الغرب اللامبالي؟

صاحب السيادة،

لا تتهمني "بالسقوط في تحليلات بالغة السطحية، أو في أحكام مسبّقة"، كما جـــاء في بيانكم الرسمي.

إنّ ما يجري في "الأرض المقدسة"، هو، أولاً وأخيراً، واقع احتلال!

وإنه احتلال قد أدانته مرّاتٍ كثيرةً هيئة الأمم المتحدة ومجلس الأمن، وذلك منذ عقود من الزمن.

هل تعتقد، والظروف على ما هي عليه، أنّ "حواراً حقيقياً" يفضي إلى "حلول دائمة"؟

ما الذي يجعلكم، أنتم الفرنسيين، تنسون الاحتلال النازي لفرنسا؟

إنّ ذلك يجعلني حقّاً أشعر بالأسف، من أنّ النازيين لم يطيلوا احتلالهم لفرنسا أكثر مما فعلوا!

هل ينبغي تذكيركم بأنه لا الكلمات الطيبة، ولا "الحوار الحقيقي"، هو الذي جلـــب لفرنسا وأوروبا المحتلّتين، الحلّ الحقيقي و"الدائم" الذي هو التحرير، وجلب معــه أيضـــاً الكرامة وإمكانية التجاور الحسن؟

هنا، وهنا فقط، يكمن "الحلّ الدائم"، يا صاحب السيادة، ولا حلّ سواه!

ألم يحن الوقت بعد، كي تسمي كنيسة فرنسا الأشياء بأسمائها، هذه الكنيســـة الـــتي ترئس أنت هيئتها الأسقفية العامة؟

صاحب السيادة،

قد تدهشك لهجتي. ولكن ثق جيداً بأنّ الرهان على مثل هـــذا الصـــراع الجهنمـــي والمستمرّ، أخطر من أن نتحدّث عن هذه الأمور مواربة.

لذلك أسمح لنفسي بموافاتك مع هذه الرسالة بنص، رأيت من واجـــبي ككـــاهن، أن أرسله بتاريخ 2002/4/18 في شكل رسالة مفتوحة إلى "أصدقاء في الغرب". أرجو أن تمنح نفسك الوقت الكافي للاطلاع عليها بتأنٍّ.

صاحب السيادة،

تقبّل احترامي وتأكيدي لك على صَلاتي أنا الكاهن، من أجلك شخصياً، ومن أجـــل كنيسة فرنسا! التوقيع » (انتهى)

بالطبع، لم أتلقّ أي جواب، كما أنّ رسالتي لم تعد إليّ!

إلا أني في هذه الأثناء كنت أتلقّى من هنا وهناك، ولا سيما منذ الحرب الكونية، الجهنمية على سورية، رسائل عديدة، إما بالبريد العادي، وإما بالبريد الألكتروني. ولكم يطيب لي أن أذكر أنّ أربعة فقط من جميع من عرفت من كهنة، في فرنسا، طوال

عشرات السنين، كانوا أوفياء في محبّتهم لسورية، وفي قلقهم الهائل عليها، وعلى شعبها، وفي صلاتهم الدائمة من أجلها! وكانوا يبوحون لي دائماً، بطرق مختلفة، بألمهم المبرّح لما وصلت إليه الكنائس في الغرب، من تنكّر لذاتها ورسالتها، ومن تجاهل للمظالم المنتظمة التي ترتكبها الحكومات الغربية حيال الشعوب الأخرى، ولا سيما الشعوب العربية والإسلامية عامة، والشعب السوري خاصة، ومن رضوخهم الدائم والأعمى للضغوط الصهيونية!. ولكم حاول بعضهم أن يكتب هو أيضاً رسائل مفتوحة لهذا أو ذاك من المسؤولين الفرنسيين... ولكم حاول أحدهم أن يكتب أيضاً، بعد كل زيارة له إلى سورية، رسالة مفتوحة يضع فيها النقاط على الحروف، وسط إعلام ممنهج على نحو شيطاني، لا يرمي إلاّ إلى تشويه الحقائق الكبرى والصغرى معاً، بقصد إقناع شعوب الغرب جميعاً، أنّ سورية بلغت من الفساد والطغيان، ما يستدعي إلغاءها من الوجود!...

هؤلاء الكهنة الأربعة، يسعدني أن أذكر أسماءهم، راجياً أن يكونوا طلائع الكنيسة الغربية الصادقة القادمة. إنهم الأب "جان بول دوفودو" والأب ميشل جوندو" والأب "رينيه فرومون" والأب "فيليب دوكلو"...

عندي كثير أقوله بشأن هؤلاء الكهنة الأربعة، ومواقفهم الشجاعة والفعالة، من الأحداث الراهنة في سورية. إلا أني أقتصر، في إطار هذا "الكتاب - الاعتراف"، على الإشارة إلى مبادرة هامة قام بها الأب "ميشل جوندو". ذلك بأنه شاء، منذ قرابة عشر سنوات، أن ينشر في باريس، بعضاً ممّا كنت كتبت من مقالات ورسائل مفتوحة، حول الصراع العربي الإسرائيلي. وقد قدّم لها، هو وصديقنا المشترك الدكتور بطرس حلاق، المقيم في باريس. وجدّ في البحث عن ناشر، فجاءه "النصح" بالتخلي عن هذه المبادرة... وكان أن اضطر للامتثال لهذا "النصح"!...

أهذا كل ما تبقى من المسيح في كنيسة فرنسا، بسبب عقدة الذنب الرهيبة، التي لم يكن لا للعرب ولا للمسلمين، يد فيها، لا من قريب ولا من بعيد؟

وما يقال عن كنيسة فرنسا، ينسحب أيضاً على جميع كنائس الغرب دون استثناء...

ترى، متى سيأتي بابا قادم يدعو لوضع كتاب آخر بعنوان: "عندما يطلب البابا الغفران"، كالذي وضع عام 1997 عن ماضي هذا الغرب البائس، اعترافاً منه بخطيئة الغرب كلّه حيال الجرائم الفظيعة والمدمرة، التي ترتكبها حكومات الغرب، ولا سيما حكومات الولايات المتحدة الأميركية على نطاق البشرية كلّها، فيما كنائس الغرب تصمت... وتواصل الصلاة!...

وإذا ما أُعطِيَت فرصة الكلام رسمياً في أحد المحافل الدولية، فهي، كما أرى، تتقن

فنّ الكلام المنمّق، الذي لا يعني، في نهاية المطاف، شيئاً. ولئلا، هنا أيضاً، أتهم بالتحامل على كنيستي الأم في روما، فيما الكنيسة الأم في القدس ودمشق، تواجه الاقتلاع والإبادة، تحت سمع العالم وبصره، أرى لزاماً علي أن أنقل إلى قرائي، ما قال المطران "سلفانو م. توماسي" (Silvano M. TOMASI) وهو المراقب الدائم للكرسي الرسولي لدى مكتب الأمم المتحدة والمنظمات المختصة في جنيف، حول الحقّ في السلام، بمناسبة انعقاد الجلسة الثامنة والعشرين لمجلس حقوق الإنسان بتاريخ 2013/7/18. وقد ورد هذا النص بكامله في العدد (29)، في الصفحة 13، من صحيفة "المراقب الروماني" الرسمية... وإني لأنقل هذا النص إلى العربية بحرفيته، على طوله، بكل أمانة. قال:

« السيّد الرئيس،

إنّ السلام، بوصفه أحد أعمق الرغبات في قلب الإنسان، هو حقّ يتوجّب على كل إنسان أن يتمتّع به، وهو وضعٌ يجعل ممكناً التطور الكامل للإنسان. إنّ السلام هو الشرط الذي يجعل جميع الحقوق الأخرى ممكنة، وإنّ تحقيق الحقوق الأساسية تقود في النهاية إلى سلام حقيقي، قائم على الحرية والعدالة والأخوة. وإنّ شرعة الأمم المتحدة، والإعلان العمومي لحقوق الإنسان، وإنّ العديد من الأدوات الدولية الأخرى، تعبّر، في جدلية صالحة، عن هذا الرباط العميق والضروري بين السلام وحقوق الإنسان. وإنه ليتوجّب بالتالي إلغاء التهديد بالحرب، وهذا بالذات ما تعلنه الشرعة الإفريقية لحقوق الإنسان: "للشعوب حقّ في السلام والأمان، على الصعيد الوطني والصعيد الدولي، على السواء.

إنّ تعريف السلام بغياب الحرب، ينتهي به إلى قيمة سلبية. فإنّ السلام يُبنى كلّ يوم في العائلة، والمدرسة والمجتمع. وبعيداً عن الأسس الاقتصادية والسياسية والثقافية والروحية، يصبح السلام سراباً لعقول ساذجة. والذين يريدون تأسيسه حصراً، على القوة وتوازن القوى، يخطئون. فليس لهم إلا أن يقرأوا تاريخ القرن العشرين، ويتأمّلوا في واقع النزاعات الحديثة، التي يدرسها هذا المجلس في كثرة بالغة. إنّ السلام لا يفرض بكميات الأسلحة المتراكمة، ولا بتطورها أو وحشيتها. ولو كان السلام مشروطاً بالقوة العسكرية، ما كانت الشعوب المختلفة تحملت هذا الكم من الحروب، والقتلى، والخراب والحقد المدمّر. فإنّ الاسم الآخر للسلام هو التنمية، فهي تُبنى على نحو أفضل، بالمدارس المبنية، بالبنى الصحية الصالحة، بآفاق المستقبل المفتوحة أمام الأجيال الفتية.

السيّد الرئيس،

من النافل أن نقول إنّ عالمنا هو مترابط أكثر من أي وقت مضى، ولكن ذلك يرسخ

قناعتنا بأنّ العائلة البشرية هي واحدة، وأنّ جميع الرجال وجميع النساء يشتركون في الكرامة عينها. إنّ العنف والظلم وإرادة القوة داخل المجتمعات وبين الأمم، لا تفعل سوى مضاعفة مخاطر الحروب والنزاعات. فإنّ سلام وأمان البعض، لا يمكنهما أن يتحقّقا بمعزل عن سلام وأمان الآخرين. إنّ عالمنا لا يفتقر إلى الموارد، ولكنه يعاني من الظلم. إنّ أشكال التفاوت تبدو آخذة في التعمّق، والبحث عن السلام آخذ في التلاشي. وما هو نقيض السلام، هو الخوف، أكثر مما هو الحرب. وبهذا المعنى، فإنّ الخوف أصبح القاسم المشترك بين الأغنياء والفقراء، بين البلدان المتطورة والبلدان النامية، بين القوات العسكرية والقوات الأدنى تسلّحاً.

السيّد الرئيس،

إنّ الحرب هي إخفاق البشر والبشري. إنّ الحرب هي التوهم بقدرتنا على الدفاع أو على بناء مجتمع سليم أو أفضل، عن طريق إنزال آلام لا تطاق بالآخرين. والإنسان، إذ يدمّر الآخر، يدمّر ما هو إنساني فيه. فما من أحد يخرج سالماً من نزاع أو من اختبار عنيف. إنّ السلام لا يهوى التباهي، ويهوى الصبر واحترام الآخر، وهو أكثر وداعةً. ولكنّ هذه القيم بالذات هي الوحيدة القادرة على بناء مجتمعات إنسانية حقّاً.

إنّ إنشاء مجموعة عمل مشتركة بين الحكومات، مهمتها صياغة قانون رسمي لحق الإنسان في السلام، كان قراراً حكيماً نرجو له أن يؤتي أكله في إعلان فاعل ومشترك بين الجميع.

في بناء السلام أو إعادة بنائه، ثمّة أمثلة تاريخية ومعاصرة تعلمنا أن اللاعنف، بوصفه نظرية وأسلوباً، كان ويظل الطريق الأسلم للوساطة والمصالحة، كي يصار إلى إعادة التلاحم بين الروابط الإنسانية والاجتماعية والسياسية، لصالح الخير العام وسلام دائم. » (انتهى)

هنا تنتهي كلمة المطران "سلفانو توماسي"، مندوب الفاتيكان لدى مكتب الأمم المتحدة في جنيف!

كلام أكثر من معسول في الوقت الذي تمارس فيه الدول الكبرى قتلها وتشريدها للشعوب، ونهبها لخيرات الأرض...

أما آن للكنيسة أن تحمل السوط مثل يسوع، وترفع الصوت عالياً، لصالح المستضعفين في الأرض أولاً، ولإنقاذ المتجبّرين، من أنفسهم ومن تجبّرهم أخيراً؟

ولمن يقول لي: هل من يسمع؟

أقول: وهل انتظر يسوع تقبّل الناس لكلامه، كي يقول ما قال؟

وإن ظلت الكنيسة معتصمة بالصمت، فهل ثمّة مبرّر من بعد لوجودها؟

الفصل الخامس عشر

في رحاب كنيسة سيّدة دمشق

عام 1977، كنت في غمرة العمل مع أسرة الرعية الجامعية، وفرقة "هواة المسرح العشرون"، والتدريس في الجامعة، كما كنت أواصل الكتابة في الشأن الفلسطيني، عندما طُلب مني أن أصبح كاهن رعية في كنيسة سيدة دمشق الجديدة، في حي القصور. وكانت هي الكنيسة التي أُقيمت فوق أرض الفيلا، التي اشتُرِيَت من المرحوم أكرم الميداني. وكانت قد دُشِّنت في عام 1975. فطلبتُ عقد اجتماع مع البطريرك، وكاهني الرعية، وعدد من الوكلاء المتنفّذين. وكان هؤلاء بالذات قد زاروني مراراً، ليحملوني على القبول بالعمل في نطاق الرعية. ولم أكن أجهل ما كان يدور في مختلف الرعايا، من خلافات تقوم بين الكهنة والوكلاء، كما أني لم أكن أجهل أن كفّة الوكلاء هي دائماً الراجحة على كفّة الكهنة، لدى السلطة الكنسية. وعُقد الاجتماع في مكتب البطريرك. وأبديت موافقتي، شريطة أن أنصرف لخدمة الشبيبة والطفولة، تاركاً للكاهنين الآخرين، الخدمات المطلوبة من كاهن الرعية - مع أجورها طبعاً! - مثل العماد والأعراس والجناز، وزيارات البيوت والمرضى الخ... وكان أن نلت موافقة الجميع، وصدر صكّ تعييني في 1977/6/24.

وفي حقيقة الأمر، كنت منذ سنوات بعيدة، قد اتخذتُ، بموافقة السلطة الكنسية، مقراً صغيراً لي، في غرفة تابعة للقبو الكبير، الذي كانت الكنيسة ستنهض عليه.

وكنت أستقبل فيه الشبيبة وكلّ مَن كان يقصدني، وأنطلق منه إلى نشاطاتي المختلفة. وفي هذه الأثناء، كانت الأولوية في البناء قد أُعطيت كاملة للكنيسة. إلا أني كنت قد لاحظت أنّ سقف القبو كان منخفضاً جداً. ولمّا فاتحت البطريرك في الأمر، طمأنني إلى أن المشروع كلّه من تصميم مهندس إيطالي مشهور، ومنفّذه هو أحد أشهر المهندسين في دمشق. وأكد لي أنّ أرضية القبو سوف تُخفّض كثيراً، ليتحوّل إلى مسرح واسع وحديث، متعدّد الاستعمالات، بحيث تُعقد فيه الاجتماعات، وتُلقى المحاضرات، وتُقام السهرات الاجتماعية والعائلية، وتعرض الأفلام السينمائية... ولكم كنت سعيداً بمثل هذه الوعود، لأني كنت دائماً أعتبر الكنيسة ملتقى الإنسان بالله

وبجميع الناس، في محبّة وتفاهم... وعندما كنت ألحّ على البطريرك، أن يحذر لما يمكن أن يحدث في القبو من سلبيات في التنفيذ، كان يُجيبني بثقة مطلقة على عادته، وبنبرته الهادئة: "أبونا الياس، لا تقلق، أنت لست بمهندس!"...

وكان أن سافرت ذات يوم، إلى باريس، بقصد العلاج، وتفقّد العديد من أفراد الرعية الجامعية. وفوجئت عند عودتي، إذ وجدت القبو قد رُصف كلّه بالرخام، دون أن يكون أُخضع لأي تخفيض، فضلاً عن أنه لم يكن قد زُوّد بأي مجرور لتصريف المياه. وكان، فضلاً عن ذلك، قد صُمّم بشكل مدرّج، كلّ درجة فيه منفصلة عن أختها قرابة المترين، فيما هي تمتدّ على مساحة العرض كلّه. وكانت آخر درجة فيه، تقابل بالتمام مستوى ما يُفترَض أن يكون منصّة المسرح. وأما هذه المنصّة، فكان عمقها يقارب الأربعة أمتار، وعرضها ثمانية أمتار تماماً، فيما ارتفاعها لا يزيد على المائة وتسعين سنتمتراً!... حقّاً لقد بات هذا القبو كلّ شيء، إلا ما كان يُراد له أن يكون! إنها لكارثة! ثارت ثائرتي، وعبثاً راجعت الكاهنين، والوكلاء والمتعهد. وكان الجميع مجمعين على القول بأن لا دخل لهم، لأنّ كلّ شيء بيد البطريرك. وراجعته، فأدهشني بادعائه تجاهل ما حدث. وأكدت له أنه سيأتي يوم نخفّض فيه مستوى القاعة، لإنقاذ ما يمكن إنقاذه.

وأما الكنيسة، فما كان إنجازها، في نظري، لا بمستوى مسؤولية السلطة الكنسية، ولا بمستوى المهندس المنفّذ، ولا بمستوى المهندس الإيطالي "المشهور"! صحيح أنني لم أكن مهندساً، ولكني كاهن في كنيسة، وللكاهن أن يقيم في كنيسته، لأنها باتت بيته، وبات هو، ليل نهار، في خدمة أبناء الكنيسة. والحال أنه لم يؤخذ بعين الاعتبار موضوع سكن الكاهن في الكنيسة. وهنا لا بد لي من أن أذكر الحادثة التي أَرغَمت البطريرك، ذات يوم، على التفكير الجديّ، في بناء سكن لكهنة الكنيسة. وإنه ليؤسفني أن تكون هذه الحادثة قد ارتبطت بإصابتي بالتيفوئيد، ممّا أبقاني أسبوعين كاملين في البيت، طريح الفراش، دون أن يكون أتى أحد من البطريركية لزيارتي، سوى الأب الياس صارجي. أخيراً أتى البطريرك نفسه، بصحبة أحد أهم الوكلاء في كنيسة سيدة دمشق، المدعو متري حجار، وكان ابن خالة أمي، تلك المدعوة أسماء. فانتهزت أمي الفرصة، وأفرغت ما في قلبها، من أسف وغضب حيال اللامبالاة، التي تتعامل بها السلطة الكنسية مع الكهنة، حتى في مرضهم... ثم كان أن سألَتِ البطريرك ما إذا كان سكن الكهنة في الكنيسة، قد نال الاهتمام الضروري... ولما اعترف لها بأنّ تصميم الكنيسة لم يَحسب لهذا الأمر أي حساب، قالت له بنبرة قوية، بأنها سوف تجلس على كرسي في منتصف الطريق أمام البيت،

لتقول للناس إياكم أن تسمحوا لأبنائكم بأن يصبحوا كهنة!... وقد علمتُ بعد ذلك من متري حجار نفسه، أنّ البطريرك خرج من بيتنا، وهو يسأل متري: كيف السبيل إلى تدارك الأمر؟... واستدعى المهندس المنفّذ، وطلب منه حلاً لهذه المشكلة... فلم يجدوا حلاً إلا في بناء غرفتين صغيرتين، فوق الوجيبة الشرقية، التي تفصل الكنيسة عن البناء الذي قبلها. وكان ذلك يشكّل مخالفة صريحة... وأخيراً تمّت المساعي مع محافظة دمشق. وبُنيَت الغرفتان فوق الوجيبة. وكان أن استدعاني البطريرك ذات يوم، وكان بصحبة بعض الوكلاء، لتفقّد الغرفتين الصغيرتين، وسألني رأيي فيهما، ففوجئت بدوري، إذ وجدت في الجدار الجنوبي من كل غرفة، شبّاكاً واحداً وضيقاً، لا يزيد عرضه عن أربعين سنتمتراً، فيما الجدار الشرقي كلّه مغلق بالإسمنت. فسألت البطريرك أمام الوكلاء: "سيّدنا، أهذه غرفة نوم لكاهن؟" فقال: "نعم!". فقلت له: "بل هذه قنّ دَجاج. سيدنا، الخوري إنسان، وهو بحاجة إلى شمس!". وقلت له بحضور الوكلاء، وأنا أشير إلى الجدار الجنوبي: "سيّدنا، هذا الجدار، سيأتي يوم، أهدمه فيه بيدي هذه!". وخرجت. وقد يستغرب البعض مثل هذه الأمور، وقد يُنكِرها آخرون. إلا أني أؤكّد أنها الحقيقة بعينها. بالطبع، لست مسروراً البتة بسردها. فإنها معيبة، ولكنها الحقيقة المخجلة. وقد ألزمت نفسي أيضاً برواياتها، عساها تلقّن غيرنا، أياً كانوا، وأنّى كانوا، أن يكونوا أمناء وصادقين!

وكان لي مآخذ كثيرة على بناء الكنيسة، لم أدرِ كيف انطلت على المسؤولين الكنسيين، الذين اعتادوا أن يتصرّفوا وكأنهم يعرفون كل شيء، ولا كيف انطلت على المهندس المنفّذ، ولا على لجنة الإشراف على البناء، ولا على المتعهّد المعروف بخبرته الطويلة. وكانت أبسط هذه المآخذ، انحدار أرضية الكنيسة، المغطاة بالرخام، وهذا أمر غير مألوف في الكنائس. وكان أفدح هذه المآخذ، الصوت الهائل، الناجم عن أسباب كثيرة، منها غياب القبّة في سقف الكنيسة المستطيل، الذي يغطيها كلّها، والذي يستند على جدارين إسمنتيين، يسقطان حتى منتصف الكنيسة، دون أية فتحة فيهما، ليتّسعا قرابة مترين شرقاً وغرباً، ويسقطا حتى أرضية الكنيسة، مرة أخرى دون أية فتحة فيهما. ولا بد لي من الإشارة، إلى أن هذين الجدارين يقوم في منتصفهما، ولكن من جانبي الكنيسة الخارجيين، وإذن في الهواء الطلق، ممرّان طويلان بعرض مترين، لهما فتحات مستطيلة، لا يمكن استخدامهما لأيّ شيء، إلا لطرح السؤال المُحيّر حول مُبرّر وجودهما...

أما وظيفة التهوية في الكنيسة، فقد تُركَت لفتحات كثيرة وكبيرة، أُحدِثت في جانبي السقف، ويغطيها الزجاج ليس إلا، وتتحرك، لا آلياً، وإنما باليد!

وكان الصوت في الكنيسة، يُرفَد أيضاً بصخب الشارع العريض، المحاذي للكنيسة، والذي تعبره السيارات الصغيرة والكبيرة، بكثافة مذهلة، طوال النهار والليل.

وأما الشرفة الداخلية للكنيسة، المعروفة باسم الشعاري، والمُطلّة على الكنيسة كلّها، فكان يفترض فيها أن تكون مُعدّة لاستيعاب المزيد من المصلين، أو أفراد الجوقة. ولكن تصميمها لم يكن يؤهلها لاستقبال إلا أعداد قليلة، إذ كانت قد بُنيت بشكل مُدرّج يقطعه في وسطه مرتفع مربع ومسطح، فيما ارتفاع درجاته لا يقلّ عن نصف متر، وعرض كلٍّ منها لا يقلّ عن خمسة أمتار!

جميع هذه الأمور، حملتها في عقلي وقلبي، حتى قبل تعييني كاهناً في هذه الكنيسة. أمّا وقد أصبحت كاهناً فيها، بناءً على رغبة صريحة من البطريرك، ومن بعض وكلائها المتنفّذين، فقد صمّمت على مواجهتها دون مماطلة. وإنما شئت لهذه المواجهة، أن أكون فيها شريكاً مع الكاهنين الآخرين والوكلاء. واتفّقت مع الكاهنين على عقد اجتماعات دورية، نبدأها بحديث روحي، ونعقبها بحوار حول ما يمكن قيامه في هذه الكنيسة، من نشاطات مختلفة، ومن دراسة للشروط العملية لقيام هذه النشاطات. فكُلّفت تغطية الحديث الروحي، وتقديم دراسة عملية لقيام هذه النشاطات. فحاولت، خلال الحديث الروحي، أن أبيّن روحية الخدمة وجمالها، وشروطها من نسيان للذات، وفرح في التفاهم والتعاون، من أجل قيام نشاط يخدم الفرد والعائلة والمجتمع، وبالتالي الوطن كلّه... وقد حاولت في هذا الاجتماع، أن أوضّح ضرورة وجود جوقة تُبرِز روعة الطقوس البيزنطية، وتعلّم المؤمنين في الوقت نفسه، الألحان البيزنطية الجميلة، كما بيّنت لهم ضرورة وجود قاعة، تصلح لاستقبال جميع النشاطات، التي ستقوم في الكنيسة، أو تلك التي ستستعين بها في المستقبل. وكان أن أشرت بالطبع، إلى ضرورة استصلاح القاعة، لأنها في وضعها الراهن، لا تصلح لأي نشاط... وقد أكّدت على ضرورة قيام تعاون كامل بين الكهنة وهيئة الوكلاء، بما لهم من غيرة على الكنيسة، ومن خبرة غنية في شتى المجالات. فأبدى الجميع تفهّماً واستعداداً عظيمين... ثم أخذوا يغيبون، بدءاً من الكهنة، الواحد تلو الآخر، عن الاجتماعات اللاحقة. وجاء يوم أدركت فيه، في أسف شديد، أنه سيتوجب عليّ أن أتصرّف بمفردي، ما لم أتخلَّ عن كل شيء!...

وكان العام الدراسي قد بدأ. فقرّرت السعي لإنشاء جوقة الأطفال، التي تبادرت إلى ذهني فكرة إنشائها، منذ مطلع الستينيات، يوم سمعت أطفالاً فرنسيين، يُعرفون باسم "المنشدون الصغار ذوو الصلبان الخشبية"، يغنّون على نحو رائع، في قاعة سينما

الزهراء بدمشق، فيما كنت أتساءل: "وهل أطفالنا دونهم موهبة؟". فقمت بزيارة لمدرسة "راهبات البيزنسون" في باب توما، وشرحت للراهبة المسؤولة رغبتي في اختيار أطفال لجوقة الكنيسة، تتراوح أعمارهم بين الرابعة والسادسة فقط، على أن يكون أهلهم من الساكنين في جوار الكنيسة، تجنّباً لمخاطر الطرقات... وأجريت فحصاً في غاية البساطة، للأطفال الذين جيء بهم إليّ، لئلاّ أرعبهم. فاخترت خمسة وستين طفلاً، وكانوا كلّهم ينتمون إلى مختلف الطوائف المسيحية. ثم كتبت رسالة إلى أهلهم، أدعوهم فيها إلى تشجيع أطفالهم، وأرجوهم الجواب خطّياً، على قسيمة ملحقة في أسفل الرسالة. فجاءني خمسة وخمسون جواباً مشجّعاً. وكان أن بدأت التدريبات دون تأخير، في قبو الكنيسة. بالطبع شرحت للأطفال الهدف من إنشاء الجوقة. وأكّدت لهم بكل جدية، اعتمادي عليهم، كي يكونوا نواة لجوقة كبيرة. وما كنت أملّ من التأكيد لهم على أني أثق بهم، ولأني لا أملك صوتاً قوياً، فأنا أراهن عليهم مجتمعين وعلى كلّ واحد منهم. وبيّنت لهم أني، خلال التدريبات، سأدعو كل من يسبق الآخرين إلى حفظ الجملة الموسيقية، التي سأعلّمهم إيّاها، كي يقف مكاني، ويقوم بتدريب رفاقه على حفظها! فكان لهذا الكلام مفعول سحري عليهم، إن في حضورهم في المواعيد المحدّدة، وإن في انضباطهم وتركيزهم، أو في تأسيس الثقة فيهم. وكان أن تعلّموا في سرعة قياسية، ترانيم قدّاس عيد الميلاد. وأعددنا لهم ثياباً بيضاء وطويلة، كي يرتدوها في قداس الميلاد، وعلى صدورهم صلبان خشبية صغيرة. ولشد ما كانت فرحتهم عظيمة، إذ دخلوا الكنيسة، ليلة الميلاد، وسط حشود المصلين، وهم يرتّلون تراتيل الميلاد الرائعة، بأصواتهم اللطيفة، فيما كانت الدموع تنهمر من عيون الكثيرين!

كان ذلك القدّاس الميلادي، بداية لانطلاقة جوقة باتت تعرف اليوم، ومنذ سنوات طويلة، باسم "جوقة الفرح".

بالطبع، عندي الكثير أحكيه بشأن هذه الجوقة. إلا أن الكتاب الذي وضعته عنها، والذي سيصدر قريباً، بإذن الله، يعفيني من الاستفاضة. ومع ذلك، فثمّة أمور أرى لزاماً عليّ أن أشير إليها، قبل أن أطوي هذا الموضوع.

أولها هو لماذا اختيار هذه التسمية، "جوقة الفرح"؟ لأننا، بكل بساطة، نعيش في عالم يغرق يوماً بعد يوم، في جحيم من الحزن والخوف والموت. وإن ذلك ليصحّ في العالم "المتحضّر"، كما هو يصحّ في عالم الفقر والتخلّف والظلم، الذي هو عالمنا العربي. وذلك ما كان جوابي، خلال جولة الجوقة عام 2009، في الولايات المتحدة، لصحفي أميركي من أصل باكستاني... أجل، نحن في عالم يصطنع لذاته، كلّ يوم، في

غباء متغطرس، جحيماً متجدّدة من الحزن والرعب والموت... ولذلك شئنا في سورية، هذا البلد الصغير... الكبير، وفي هذا الزمن بالذات، أن نُعلن للجميع بملء حناجرنا، على امتداد الأرض، أنّ الحياة فرح، وأنّ الإنسان فرح، وأنّ الغناء فرح، لأنّ الله محبة ونور وفرح! وحسبنا هذا مبرّراً لوجود جوقتنا!

ثانيها أنه ليس لأحد، بالغاً ما بلغت نظرته من سطحية، أن يعتقد أنّ مسيرة جوقة الفرح، منذ تأسيسها عام 1977، كانت على بساط من حرير. وهل من عمل بشري واحد، سار يوماً على بساط من حرير؟ وإني لأترك لكل راغب، حرية استنباط ما يحلو له من عقبات كبيرة، أو صغيرة، صادفتنا، وفاجأتنا، وأحبطتنا، بل دفعتني أحياناً، أنا شخصيّاً، إلى درك من الحزن، كان الموت أهون منه! إلا أني لا أريد تذكّرها، ولا ذكرها، وقد بات "أبطالها" كلّهم تقريباً في ذمة الله. ولئن كان لي ما أقوله إزاءها جميعاً، فإنما هو حقيقة واحدة، قاطعة، باتت لي وللكثيرين من مسؤولي الجوقة وأفرادها وذويهم، راسخة لا تتزعزع، وهي أننا جميعاً في "جوقة الفرح" ندين بوجودنا، واستمرارنا، وإصرارنا، وعطائنا، ومجانيتنا، وإيماننا، ومحبّتنا، وقدرتنا على التحدي، لمن بيده كلّ شيء، الله، جلّت محبّته وقدرته، إذ قد لمسنا رعايته العظيمة والدائمة لنا، من خلال اختبارات جليّة، صارخة، وتدخّلات استثنائية، لا يرفض الاعتراف بها، إلا من يجهلها كلياً، أو من فقأ عينيه بيديه!

ثالث هذه الأمور، وآخرها، هو سؤال واحد فقط، أريد أن أطرحه، انطلاقاً من مسيرة جوقة الفرح، على مَن كانوا مسؤولين في منظمات الطلائع، وشبيبة الثورة، والاتحاد الوطني لطلبة سورية، وعلى أمثالهم الكثير في البلدان العربية الأخرى. وسؤالي هو، بكل بساطة وفجاجة:

ماذا فعلتم، أيها السادة المسؤولون، المؤتمنون على هؤلاء الملايين من أطفال وشبّان وشابّات، من أجل استخراج الطاقات اللامحدودة، الكامنة فيهم، بما كان لديكم من إمكانيات لا محدودة أيضاً، وضعتها كلّ دولة عربية تقريباً في تصرفكم، من إدارية، وتربوية، وثقافية، وفنية، وإعلامية، وسياسية، وديبلوماسية، وخصوصاً مالية، ومن أجل إطلاقهم في جوقات، وفرق موسيقية، ومسرحية، واستعراضية، عبر العالم كلّه، ولا سيما في العالم العربي، بدءاً من مجتمعاتهم الصغيرة في الأرياف الواسعة، لتشعل فيها شموع المعرفة المتحرّرة، والتطور السليم، والإيمان المستنير؟

أجل، ماذا فعلتم؟ ولماذا لم تفعلوا؟ أأقولها: لماذا لم تفعلوا ما فعلنا نحن في "جوقة الفرح"، ومع "جوقة الفرح"؟ وهل تحقّ المقارنة بين ما كان بأيديكم، وما كان بأيدينا؟

ألا ليتكم فعلتم جزءاً يسيراً ممّا كان مطلوباً منكم، وعندها كنتم غيّرتم قليلاً وجه وعقل وقلب هذا الإنسان العربي، الذي بات اليوم، بما تراكم فيه من فقر وجهل وحقد، وبما حقنه به الغرب والصهيونية، من أمراض وأوهان وهلوسات، يتجاوز كلّ الحدود في افتراس ذاته وأمّته، ويقدّم لأعدائه جميع المسوّغات، من أجل القضاء عليه وعلى أمّته أيضاً...

أتراني أبالغ في ما أقول وأدّعي؟ إذن دعوني أشرح في كلمات قليلة، ما كان رهاننا في جوقة الفرح مع بضعة أطفال، وما كان يكون رهانكم مع الملايين من الأطفال والشبّان والشابّات...

باختصار، كانت "جوقة الفرح"، رهاناً ليس إلا، على الطفل العربي السوري. ويومها، لم يكن لي ما أغري به الأطفال، لا العمر، ولا الصوت، ولا الألعاب، ولا الحلوى، ولا المال. وأنا لم أسعَ يوماً إلى ذلك. فما الذي كان يدفع الأطفال إلى تحمّل التعب والبرد، في قبو الكنيسة، الخالي من أي تدفئة، إذ كنت أدرّبهم وقوفاً، فيما كانوا يواظبون على الحضور في المواعيد المقرّرة، والمتعبة أحياناً، في حماسٍ وفرح؟ أتراني أبالغ أو أختلق، إذا قلت إنهم كانوا يأتون، لأنهم كانوا يجدون مَن يبتسم لهم ويمنحهم الثقة؟ بالتأكيد، لم يكونوا يفتقدون المحبّة والثقة في بيوتهم. إلا أنّ ما كنت أهبهم من محبة وثقة، كان، بالنسبة إليهم، أشبه شيء "بالقيمة المضافة"، أي أنه كان شيئاً فائضاً عما هو طبيعي. وما أحوج كلّ إنسان إلى مثل هذا الفائض، في العالم كلّه، ولا سيما في العالم العربي. فكان أن اكتشف هؤلاء الأطفال، شيئاً فشيئاً، أنّ هناك من لا يعاملهم كقطيع، بل من يقيم لكل واحد منهم قيمة، فيعرفه باسمه، ويهتم به شخصياً إذا ما تغيّب، ويسارع إلى زيارته في البيت، إذا ما ألمّ به أو بذويه مكروه، ويفرح بعودته، ويدعو رفاقه الصغار إلى الفرح به ومعه. وكان أيضاً أن اكتشفوا أن هذا "الكاهن"، الذي يدرّبهم ويفرح بهم، إنما هو يراهن عليهم! وما أعظم شعور الإنسان، عندما يكتشف أنّ هناك مَن يراهن عليه، حتى لو كان طفلاً، من أجل قضية ما!... وهل الرهان سوى مسؤولية؟ وهل المسؤولية سوى الثقة القوية بقدرة الأطفال على عطاء، ما كان ليخطر ببالهم يوماً، ولا ببال ذويهم؟ فهم إذن يُدركون، بشكل أو بآخر، أنهم مدعوّون لأداء دور جديد، يُخرجهم من دور القطيع، ويُفسح لهم المجال، ليظهروا ذات يوم، على نحو ما، بمظهر جديد، وليفاجئوا... ذواتهم والناس، بما هو جميل ومفرح، وليقولوا عندها للناس، كل الناس، كباراً وصغاراً: نحن هنا، أترونّا؟ نحن موجودون: ما رأيكم فينا؟ نحن نغنّي: هل تسمعونا؟ وهل تسمعون مجتمعنا من

خلالنا؟ ونحن قادرون على هذا، اليوم، وعلى ما هو أجمل منه غداً! فأفسحوا لنا المكان، لنكون! أجل، إنّ لنا مكاناً ودوراً في هذا المجتمع، بل في العالم كلّه! وها نحن قادمون!...

أجل، تلك كانت الرسالة الكبرى، التي حمَلَتْها "جوقة الفرح"، منذ بدأت مسيرتها المتواضعة مع أطفالها الأوائل، حتى محطاتها الكبرى والمتلاحقة، التي أدهشت الناس في دمشق وحلب وبيروت وعمان، ثم في باريس وبروكسيل وامستردام وماستريخت ومونستر في أوروبا، وفي سيدني وملبورن في استراليا، وأخيراً في محطتها الهدف، في قلب واشنطن عام 2009، التي فاجأت الأميركيين، وجعلت رئيس مركز الأبحاث العربي الأميركي، الدكتور جيمس زغبي، يتحدّى كل العرب، في مجلة مرموقة تصدر باللغة الإنكليزية، في واشنطن، بقوله: "أيها العرب، أرسلوا لنا مثل هؤلاء السفراء!".

وخلال تلك المسيرة كلّها، ما كانت "جوقة الفرح" لتقيم وزناً، إلاّ للإنسان، الإنسان طفلاً، شابّاً، فتاةً... طاقة إيمان وحب وعطاء!

وما كانت لتقيم للمال وزناً، فكان عطاؤها كلّه بالمجان. فكان أن أرسل لها الله، مَن غمرها بعطاءات مؤقتة وسخية، مكّنتها من أداء رسالتها في حرية وثقة وفرح، على امتداد العالم...

وما كانت لتتودّد لسلطة - حتى ولا لسلطة كنسية! - فاستخدمت الكلمة واللحن والموسيقى، دعوةً صريحةً، مدوّيةً وجميلةً، من أجل تكريم الإنسان، وكرامة الوطن...

وكان أن جاءها يوماً، بتدبير رباني، ذاك الكبير الكبير في دنيا الكلمة العربية المغنّاة، وديع الصافي، فأعطاها من فنّه العظيم، في تواضع ومجانية، ما أخرجها وأخرج ألحانها من جدران الكنيسة الضيقة، وحملها إلى كلّ عربي، مسيحي ومسلم على السواء، بل إلى الغربيين أنفسهم، في مشارق الأرض ومغاربها، في قربى روحية خارقة، لم يعرفها العالم يوماً، مثلما عرفتها دمشق، قديماً وحديثاً...

أفما يحقّ لي بعد كل ذلك، أن أطرح السؤال الجارح والحارق، على من كان بيدهم، في سورية، وفي الوطن العربي، مسؤولية تنظيم وإطلاق ملايين الأطفال والشبان والشابات، ولم يفعلوا؟! ولكم يذكّرني كل ذلك، بالسؤال الخجول، الذي طرحه علي الأستاذ برهان قصاب حسن، في ختام الأمسية الأولى التي قدّمتها "جوقة الفرح" مع وديع الصافي، مساء الأحد 1988/12/4، في كنيسة سيّدة دمشق. قال: "أب الياس، ما هو السر الذي جعلك تجمع مائة منشد مع وديع الصافي، في حين أني كنت مسؤولاً مدّة خمسة عشر عاماً، في وزارة الثقافة، عن إنشاء جوقة، وبتصرفي الملايين، فلم أستطع

أن أجمع خمسة عشر منشداً؟". فوجدتُني أقول له: "أستاذ برهان، الجواب هو عندك: أنت موظّف، وأنا كاهن!". تُرى، أوليس في كلّ مسؤولية، شيء من الكهنوت؟ يقيني أنهم، لو كانوا أدركوا تلك الحقيقة، أو لو كانوا وجدوا من يلقّنهم إياها، بالقول أو بالقدوة، لكانوا غيّروا وجه العالم العربي، وشحنوه مناعةً عظيمةً في وجه ما دُبِّر ويدبَّر وسيدبَّر له!...

أجل، لكم هو مريح ومفرح، التعامل الهادف والمحب، والواثق والنقي، مع الطفولة والشبيبة، على الرغم من كل ما يسبّبه في واقع الحال، من تعب جسدي صرف، ومن قلق نفسي. إلا أنّ مَن يتصدّى لمثل هذه المهمة الإنسانية والروحية، في مجتمعاتنا العربية، لا بدّ له من أن يُستَنزَف أيضاً بإجهاد محزن ومتفاقم، ناجم عن أنّ معظم أهل هؤلاء الأطفال والشبان والشابات، لا ينظرون إلى التعامل معهم بجدية واحترام، أياً كان نوع هذا التعامل. وقد تبيّن لي، عبر سنوات طويلة من الخبرات المضنية، أن غياب هذا المعيار الإنساني الهام، يعود، بكل بساطة، إلى أنّ الأهل أنفسهم قلّما يجدون في واقعهم العادي، مَن يتعامل معهم في ثقة واحترام صادقين، فكيف بهم يوم كانوا أطفالاً؟ وكثيراً ما تساءلت ما السر في انجذاب الكثيرين من الشبان والشابات، ولا سيما من الأطفال، إليّ، حتى اليوم وأنا قد تجاوزت الثمانين؟ قد يكون في ما عاشوه معي وبصحبتي، يوم كانوا أطفالاً، أو في ما قد يكونون سمعوه أو يسمعونه اليوم من رفاقهم، بل من أهلهم، عن طريقة تعاملي الواثق والمحب، مع الأطفال و... الكبار!

وهنا تحضرني حادثتان، لا تخلوان من دلالة غنية بهذا الشأن. أولاهما كانت يوم دخل مكتبي طفل صغير لم يكن أحد يصحبه! وكنت أعرف أهله معرفة قديمة وجيدة. وكان حقّاً قد أتى بمفرده، وحيّاني وجلس في مكتبي!... فاتصلت على الفور، هاتفياً، بأهله، لأطمئنهم إلى أنه عندي. وما كنّا لنصدّق، لا أنا، ولا أهله، كيف أنه استطاع أن يقطع المسافة بين البيت والكنيسة، عبر حارات متعرّجة، لا تقل مسافتها عن خمسمائة متر! هذا الطفل، واسمه فريد عبيد، كان يومها في الثانية والنصف من عمره!... وهو اليوم من أركان جوقة الفرح، وأب لطفلتين، لن تعتّما أن تنخرطا في جوقة الفرح، كما كان قد فعل هو وأخوه الأكبر هاني وأخته نانسي، منذ أن كانوا أطفالاً!

أما الحادثة الثانية، فإنها تخصّ طفلاً كان في الثامنة من عمره، يوم دخل مكتبي فجأة، وهو مقطب الجبين، وقد استهل حديثه معي بعبارة أدهشتني وأضحكتني في سرّي، إذ قال لي: "أبونا، شو هالعيشة؟!" وجلس صامتاً، وكأني به رجل يحمل جبالاً

من الهمّ! وطالت الجلسة بيننا، وطال الحوار... وقد تبيّن لي أنّ هذا الطفل كان يشعر بغربة كبيرة في بيت أهله، لأنهم لا يفطنون له، ولا يجد بينهم مَن يحاوره، كلّما حاول، حتى جاء يوم، بات فيه "غروندايزر" وحدَه، تسليته المفضلة... وكان "غروندايزر" هذا المجهول الأكبر بالنسبة إليّ!... فسألته عنه بكل بساطة، فوجد في ذلك متّسعاً من الوقت ليشرح لي من هو "غروندايزر"، وماذا يعني بالنسبة إليه وإلى أمثاله من أطفال كثيرين!... هذا الطفل، كان يدعى جورج حنين ضاهر، وهو اليوم أب لطفل!

والآن فلأعد إلى المشاريع المختلفة، المتعلّقة بالكنيسة، والتي شغلتني عنها قليلاً "جوقة الفرح"، إذ كان لي ما أقترحه بشأنها...

أبدأ بأصغر هذه المشاريع، وهو جدار الغرفة التي بنيت فوق الوجيبة الشرقية، كي تكون سكناً لكاهن. فلقد نلت، بعد فترة وجيزة، من البطريرك، الموافقة على هدمه. فأخبرت زميليّ الكاهنين وهيئة الوكلاء، وأقبلتُ على هدمه بيدي، مستعيناً بمطرقة حديديّة ضخمة. وقد تطوّع للعمل معي في هذه المهمة، شابّان من أسرة الرعية الجامعية، أحدهما بات صديقاً غالياً، وهو المصوّر توفيق جورج نوفل. وقد حلّ محلّ الجدار، ثلاث نوافذ زجاجية متصلة، يحميها تشبيك حديدي، أقيم على كامل مساحة الجدار.

وفي أحد الاجتماعات، التي كانت تضمّ الكهنة الثلاثة مع هيئة الوكلاء، طرحت مجدّداً فكرة بناء غرفتين، فوق الغرفتين اللتين بنيتا فوق الوجيبة الشرقية، كي يكتمل بذلك سكن الكهنة في الكنيسة. ورُفِض المشروع، بحجّة ارتفاع تكاليفه. ولكن اتّضح للجميع بمرور الوقت، أن سكن الكهنة في الكنيسة، أمر لا مفرّ منه، فعادوا وقبلوه، ولكن بعد مرور عشر سنوات على الأقل، وكان أن أضافوا إليه، بناء غرفة ثالثة، ومطبخ صغير، فوق الوجيبة الغربية. إلا أنّ التكاليف عندها، كانت قد تضاعفت عشرات المرات!

وأما الجداران الداخليان في الكنيسة، فقد كنتُ اقترحتُ في أحد الاجتماعات أيضاً، هدمهما، لأسباب كثيرة ووجيهة، منها أنّ إزالتهما تضيف إلى الكنيسة مساحة الممرّين الخارجيّين النافلين، لا سيما وأنّ الكنيسة باتت تضيق بالمصلّين. وإنّ في ذلك ما يوفّر نوراً وهواء وجمالية، الكنيسة بأمسّ الحاجة إليها، وما من شأنه أن يكسب الصوت في الكنيسة، مدى لا بأس به، قد يخفّف من حدّة الصدى العالية فيها. ورُفِض المشروع مراراً، دون أي نقاش، بحجّة أنّ الممرّين الجانبيّين الخارجيّين، لا يتحمّلان أي ثقل. ولما لم أكن "مهندساً"، لم أستطع إقناع الحاضرين باستشارة المهندس المنفّذ، أو أي مهندس آخر... ومضت السنون، وجاء يوم طُلِب فيه، عام 1997، من المهندس الدكتور عبدالله جبّور، أن ينفّذ المشروع، حتى باتت الكنيسة كما هي اليوم...

غير أن ما يتعلّق بالشُّرفة الداخلية (الشعاري)، لم ينتظر طويلاً كي يؤخذ بعين الاعتبار، لأنّ الجوقة باتت أساسية في الكنيسة، وباتت الحاجة إلى مراعاتها أمراً ملحّاً، وقد سلّم الكاهنان وهيئة الوكلاء، بسرعة، بضرورة إعادة النظر في شكلها الهندسي، كي تتماشى مع عدد أفراد الجوقة وتوزيعهم أثناء الترتيل. وأُخذ بالتعديلات المقترحة للاستفادة منها على أفضل وجه. كما أُعدّت في الوقت نفسه، في زاويتها الشرقية الميّتة، غرفة صغيرة، تضمّ جميع الأجهزة الصوتية، والإلكترونية، بما فيها "الخلاّط" (الميكسر)، وتُمكّن "مهندس الصوت" من متابعة الجوقة ومراقبتها، والتحكّم الفنّي بصوتها! وجاء يوم ملأنا فيه الشرفة كلّها، بمدرّجات حديدية وخشبية، تتّسع لمئات الأطفال والشبان والشابات من أفراد "جوقة الفرح"!...

وكانت المشكلة الأخيرة في بناء الكنيسة، هي مشكلة الفتحات الجانبية الواسعة، القائمة في السقف، من أجل التهوية. ولقد ثبت منذ الأيام الأولى، وطوال الأشهر اللاحقة، في الصيف والشتاء، أنها لا تصلح البتة للتهوية، وأنها تشكّل خطراً حقيقياً، على كل من يخطر بباله أن يقترب منها، في غير حذر. إلاّ أنّ الحديث عن إغلاقها نهائياً بكتلة إسمنتية، كان أشبه بالحديث عن "محرم" (تابو!) مقدّس، لا يجوز المساس به. ومرّت سنوات طويلة، قبل أن يسقط من إحداها شاب تلطّف الله به، إذ إنه سقط على أرض شرفة الجوقة، فأصيب بكسر في ساقه، وعولج... وبعد أشهر، كاد أن يسقط من فتحة أخرى، شاب آخر، كان سيُقضى عليه حتماً، لولا أنه استطاع أن يتمسك بحافتي الفتحة الحديديتين، فانتشله لحظتها مَن كان يرافقه من شبّان، لأنّ سقوطه كان سيكون في عمق الكنيسة! وعندها فقط، تقرّر إغلاق جميع الفتحات بغطاء حديدي سميك، يحفظ للفتحات شكلها، ويُبعد المخاطر عمّن سيقترب منها...

وبقيت عقبة القبو الكأداء. وكان هو "المحرّم" الأكبر. وظلّ "موّال" استصلاحه يصدح في رأسي، ولم يكن هناك من يسمع. وكانت أسرة الرعية الجامعية تُقيم فيه القداس، يوم الجمعة بعد الظهر، ثم تتابع فيه اجتماعاتها أو محاضراتها، على علاّته. وكان عيد الأسرة السنوي، وهو يقع دائماً في الرابع من شهر كانون الأول من كلّ عام. وقد ألِف الشبّان والشابّات أن يقدّموا فيه بعض اللوحات المسرحية، وأن يُلقوا بعض القصائد أو بعض القصص، وكلّها محمّلة برموز المحبّة والتضحية، لأنّ ذلك اليوم هو يوم عيد القدّيسة بربارة والقدّيس يوحنا الدمشقي، وكلاهما اسمان كبيران في عالم الشهادة والعيش المشترك بين المسيحيين والمسلمين. وفي يوم الرابع من كانون الأول عام 1977، أقيم الاحتفال بحضور الأستاذ أديب اللجمي، وكان آنذاك أميناً عامّاً لوزارة

الثقافة، وكان يعترف لي ولصديقه انطون المقدسي، بأنّ أسرة الرعية الجامعية تشكّل في نظره "بؤرة رجاء كبير في دمشق". وكان حاضراً أيضاً عددٌ من الفنانين والأدباء، بينهم صديقي رياض عصمت. إلاّ أنّ عدد الشبّان والشابّات الذين دخلوا القاعة يومها، بلغ، تبعاً للبطاقات المعطاة، سبعمائة! وكنت قد ألححت على المطران الياس نجمة، الذي كان نائباً للبطريرك الحكيم، أن يحضر، وأتى، فاكتشف بأمّ عينه ما كنت أردّده على مسامعه ومسامع البطريرك، من أنّ القاعة بوضعها الراهن، بحاجة قاهرة لعملية استصلاح. واعترف لي بذلك. واتفقتُ معه على القيام سريعاً بزيارة للبطريرك، يُطلعه فيها أمامي على ما وصل إليه من نتيجة لا مفرّ منها. وهكذا كان. وبعد أخذ ورد، وافق البطريرك، بحضور المطران، على تخفيض أرض القبو، ضمن شرطين اثنين، الأوّل أن توافق على التخفيض لجنة من المهندسين، يكون على رأسها، المهندس المنفّذ، كي يتثبّتوا من أنّ أساسات الكنيسة تُجيز الحفر، ومدى هذا الحفر، والثاني كان عدم مطالبة البطريركية بأية مساهمة في النفقات المترتّبة على الحفر أوّلاً، ثم على إعادة تأهيل القبو. فرحّبت، وكان جوابي: "سيّدنا، اعتمادي على الله، وعلى الشباب!". وجاء جوابه: "ولكن الشباب سيتخلّون عنك!" فقلت له ضاحكاً: "سترى!" وأجريتُ الاتصالات بسرعة مع عدد من المهندسين، فبُلِّغتُ ضرورة إجراء سبر للكشف عن عمق الأساسات. وأُجري السبر بسواعد الشبان، وبإشراف مهندس يدعى "ادكار زكرت"، كان قد عاد حديثاً من ألمانيا الغربية آنذاك، وكان قد تحمّس كثيراً لهذا المشروع، وتشبّع من ضرورته ومن حاجة المنطقة كلّها إليه، بحيث إنّه أبدى استعداده التام للإشراف بنفسه، وعلى نحو دائم، على الحفريات، وعلى سائر الأعمال المترتّبة على تجهيز القاعة حتى اكتمالها، ودون أي مقابل! وعُقِد اجتماع ضمّ اثني عشر مهندساً، مسيحيّين ومسلمين، وقد جاؤوا كلّهم طواعيةً، وكان على رأسهم المهندس المنفّذ! وكشفوا عن نقطة السبر، فتبيّن لهم أنّ الحفر ممكن، إلا أنّ التمديدات الكهربائية الأساسية، كانت قائمة على عمق متر واحد، فتقرّر التخفيض حتى تسعين سنتمتراً. وهنا لا بد لي من أن أذكر كلمتين، حسمتا الموضوع لصالح الحفر. فالأولى قالها المهندس الذي صمّم ونفّذ القصر العدلي بدمشق، عند الكشف عن نقطة السبر. قال: "إنّ ما وُضع في هذا القبو من إسمنت وحجارة، يصلح لمهبط مطار!". وأما الثانية، فقد قالها صديقي المهندس الدكتور ميشل سالم العيسى، في ختام المداولات كلّها: "هذا القبو، إذا لم يُحفَر، لا يصلح إلا لشيء واحد: أن يكون مستودعاً!".

وأخبرت أسرة الرعية الجامعية بالموافقة على الحفر. فأبدى الكثيرون استعدادهم

للمشاركة في أعمال الحفر. فاشترينا بعض الأزاميل، المختلفة الأشكال، وكذلك عدداً من المطارق الحديدية، وباشرنا بقلع الرخام. وكنت بالطبع، مع المهندس ادكار زكرت، في طليعة المتطوّعين. وكان العمل يتواصل طوال أيام الأسبوع، وكان الطلاب يرتّبون مجيئهم، تبعاً لبرامجهم الدراسية. وقد كنّا، منذ اليوم الأول، عملنا بنصح المهندس ادكار، ففرزنا الرخام، بين سالم ومكسور، وكنّا ننظّفه كلّه من كل ما كان عالقاً فيه من تراب أو إسمنت. وقد أدهشت كمية الرخام السالم، مهندساً صديقاً زارنا ليتفقّد الورشة، فقال: "لكأني بالشباب قد فكّوا الرخام بريف عيونهم!". ثم انتقلنا إلى مرحلة حفر الأتربة والإسمنت. ولكم فوجئنا عندما وجدنا أنّ كثافة الإسمنت، عند أعلى نقطة في القبو، تبلغ ستين سنتيمتراً، وأنّ فراشاً من الحجارة الكبيرة، يغطي مساحة القبو كلّها... وعندها اكتشفنا حاجتنا إلى حفارة كهربائية. فاتصلتُ بزوجة المتعهّد فؤاد تقلا، السيّدة منى مسمار، إذ كانت تُنشِد في جوقتي الأولى. فأرسل لنا على الفور حفارة كهربائية، وعاملاً مختصّاً بها، فأنجز عمله في ثلاثة أيام، حيث قطّع المساحة الإسمنتية الواسعة، إلى كتل صغيرة، ترتّب علينا تقسيمها إلى قطع صغيرة، بواسطة مطارق حديدية كبيرة، كي يسهل علينا حملها إلى الشاحنات الكبيرة. وكانت عملية ترحيل الأتربة والإسمنت والحجارة، تتمّ يوم الجمعة، إذ كان يحضر في هذا اليوم، عدد كبير جداً من الشبّان والشابّات، لا يقلّ عن ستّين، وكان أحياناً يبلغ الثمانين. وكانوا كلّهم يتوزّعون إلى ثلاث فئات: واحدة من الشبّان لمواصلة الحفر، وواحدة مختلَطة من شبّان وشابّات، لنقل القفف المعبّأة إلى الشاحنات، وواحدة لتقديم الشاي طوال النهار "للعمال"، ثم لتحضير المجدّرة والسَلطَة للغداء، الذي يشارك فيه الجميع، بما فيهم سائقو الشاحنات الثلاث ومعاونوهم! وكانت الشاحنات تأتينا مجاناً، بفضل والد إحدى الصبايا، واسمه أسعد يعقوب. كما أنّ شاباً شهماً من صيدنايا، يدعى جورج عازر، كان يأتينا مع شاحنته كل يوم جمعة. وقد تواصل هذا العمل دون انقطاع، مدة لا تقلّ عن عشرة أشهر.

ثمّة حدث هام برز خلال الحفر، لا بد من التوقّف عنده. فقد تبيّن لنا وجود خلل في التمديدات الصحية الخاصة بالكنيسة وملحقاتها، تسبّب في تسرّب كمّية كبيرة من المياه في أساسات البناء. وقد أرعبني الأمر عندما اكتشفناه. إلا أنّ المهندس "ادكار زكرت" طمأنني ودعاني لشكر الله، لأننا قمنا بالحفر. وإلا فقد كانت الكنيسة، بعد فترة طويلة أو قصيرة، انهارت، بفعل تسرّب المياه الكثيرة إلى أساساتها! وبالمناسبة، لا بدّ لي من الإشارة إلى أنّ هذه القاعة الكبيرة، وهي بطول 26 متراً، وعرض 16 متراً، قد حرصنا على تزويدها بمجرور يعمل كهربائياً.

خلال هذا الوقت، كنت أواصل تدريسي في الجامعة، وفي المعهد العالي للفنون المسرحية. وأحبّ أن أذكر أنّ طلاب المعهد سألوني ذات يوم، عن النص الجديد الذي كنت أكتبه، فحدّثتهم عن "مسرحية جديدة، استثنائية، أكتبها مع الشبيبة الجامعية، بالتراب والإسمنت والرخام"... وحدّثتهم عن عملية استصلاحنا لهذه القاعة، كي نجعلها في يوم قريب ملتقى ثقافياً لكلّ راغب. فجاء بعضهم وشاركنا العمل في القاعة.

وكان هناك من الأصدقاء مَن يتابع عملنا في شغف كبير، وأخصّ بالذكر منهم انطون المقدسي، وصديقنا المشترك أديب اللجمي، وكان يومها أميناً عاماً لوزارة الثقافة. وكنت أحيط المقدسي علماً بتطوّر العمل. وأما أديب اللجمي، فقد بلغ من حماسه أنه جاء ليطّلع بنفسه على العمل. فما إن دخل ورأى ما رأى، حتى التفت إليّ وقال: "أب الياس، هذا عمل جبابرة! أهنّئكم على إقدامكم عليه!" ويومها أنساني كلامُه الطيب والصادق هذا، ما كان قاله لي، قبل فترة وجيزة، الوكيل الوحيد الذي زار الورشة على نحو مفاجئ، طوال هذه الأشهر، والذي ألقى نظرة سريعة من علُ، ثم قال: "ماذا تُراك فعلت؟... مجرّد كأس ماء دلقته على الأرض!" وخرج.

وطرح الصديق أديب اللجمي العديد من الأسئلة، ومنها كيفية تغطية النفقات المترتّبة على هذا العمل... فدهش عندما علم أنّ العمل كلّه قائم على التطوّع، بدءاً من المهندس ادكار زكرت، إلى الشبيبة الجامعية، وانتهاء بالشاحنات، وأنّ الكلفة الوحيدة كانت تخصّ ما اشترينا من مطارق ومناكيش ورفوش وأزاميل وقفف، وما قدّمنا من مكافأة لعامل الحفارة الكهربائية. وقد سُرّ إذ علم أنّ من الأصدقاء من كانوا يحملون إليّ بعض المبالغ، مساهمة منهم في نفقات عمل، لم يكن بمكنتهم المشاركة فيه، بحكم سنّهم أو مركزهم! ولكم ضحك عندما علم أني كنت أأتمن على هذه المبالغ، رئيسة راهبات البيزنسون، الأخت "بيرانتيد"، في حال حدوث أي طارئ لي، وذلك بمعرفة صديقي المهندس ادكار. وكان منه، في ختام هذه الزيارة، أن وعدني بتجهيز القاعة، بمجموعة من "الأنوار الكاشفة" (البروجكتورات) الضرورية لِمنصّة المسرح، في حينها. وقد نفّذ ما وعدنا به.

وكان أن جاءنا أيضاً، المهندس فؤاد تقلا، فوقف مدهوشاً أمام ما رأى. وقبل أن يغادر، تعهّد لي بجميع التمديدات الكهربائية لإنارة القاعة كلّها، ومِنصّة المسرح. وهو أيضاً كان عند وعده.

ولما آن أوان التبليط، اتصلتُ بصديق عتيق كالذهب، كان قد جمعني به سمير سلمون، وتعاونّا طويلاً في فرقة "هواة المسرح العشرون"، أعني به "ألبير حلال". وهو

معلّم في مهنة التبليط. فأتى مع كامل ورشته، بما فيها ولداه منصور وسمير. وفرشوا القاعة بالبلاطات نفسها، التي كنا اقتلعناها قبيل سنة، ولم يحتاجوا إلى مزيد من رخام. وعندما هممتُ بالمحاسبة، قال لي: "أبونا الياس، ألا يحقّ لي أنا أيضاً مع أولادي، أن أتبرّع مثلك ومثل هؤلاء الشباب، لخدمة الكنيسة والمجتمع؟... أمّا هؤلاء العمال، فليسوا ملزمين مثلنا، وهم وعيالهم بحاجة!". وهكذا كان!

وعندما اكتملت القاعة، وتمّ تجهيز المنصة المسرحيّة، اتفقت مع أفراد الرعية الجامعية، ومهندسنا ادكار زكرت، على أن نطلق عليها اسم "قاعة السواعد"، إحياء لذكرى العمل الذي قمنا به، بفضل سواعدهم! ولكم يطيب لي أن أذكر أنّنا أعددنا، خلف المنصة المسرحية، حيث كان يقوم مجلى كبير لا حاجة إليه البتة، مكتبة واسعة، وجهّزناها بخزائن حديدية وخشبية، استقبلت في ما بعد آلاف الكتب!

وهنا، أرى لزاماً عليّ، قبل أن أطوي موضوع "قاعة السواعد"، أن أذكر حادثة، تبدو لي من تدبير غير بشري.

كنا قد ألفنا في أسرة الرعيّة الجامعية، طوال فترة استصلاح قبو الكنيسة، أن نلتقي مساء كل ثلاثاء للصلاة، ثم للدردشة وتناول لقمة بسيطة. وكان المهندس ادكار زكرت، على عادته، دائم الحضور والفعالية في هذا اللقاء العائلي. وقد قدم ذات مساء، مع سيدة أجنبية، متقدّمة قليلاً في السن، تدعى "كونيا بيروشكا". فعرّفنا بها، وإذ بها نمساوية، تدرّس في جامعات فيينا. فشاركتنا الصلاة واللقمة. وقد أبدت ارتياحها لهذا الجو البسيط. وقبل أن تغادرنا، سألتنا ما إذا كنّا بحاجة إلى خدمة يتسنّى لها تقديمها لنا في النمسا أو في ألمانيا. فرجوت ادكار أن يوصيها بشاب سوري، يدعى جهاد ناصيف، كان يدرس اللاهوت في لبنان، ثم أمره أسقفه بالعودة إلى سورية، وكنتُ قد ساعدته مع المطران الياس نجمة على السفر إلى ألمانيا، ليتابع دراسة اللاهوت هناك، ويعود إلى سورية كاهناً. وإذ بأسقفه يأمره من جديد بالعودة من ألمانيا إلى سورية. وكنت أنا أتوسم فيه خيراً كثيراً. وأعطيتها عنوانه الكامل هناك. فوعدتنا خيراً ومضت. وما هي إلا فترة وجيزة، وإذ بادكار يحمل لي نبأ حصول جهاد على منحة دراسية تضمن بقاءه في ألمانيا حتى فترة سيامته كاهناً. وهكذا كان، وقد عاد إلى سورية، ونشط نشاطاً واسعاً في كنيسة اللاذقية عشرات السنين.

وفي الرابع من شهر كانون الأول من عام 1978، أي بعد سنة كاملة من يوم عيد أسرة الرعية السابق، أقمنا حفل التدشين. ودعونا كلَّ مَن كان يترتب علينا دعوتهم، وعلى رأسهم البطريرك مكسيموس الحكيم. ولكني لم أسأله أي كلمة. وقد تخلّل

الحفل بعض اللوحات المسرحية، وبعض الرقصات والأغاني، وكانت كلّها من وحي العمل الذي أنجز في القاعة. وفي لحظة ما، رأيت البطريرك ينهض من كرسيه، ويلتفت نحو الجمهور ويرفع يده للكلام. فقُدِّم له الميكرفون، فقال كلمة وجيزة جداً، ولكنها بقيت عالقة في ذهني، كما لو كان يلقيها الآن أمامي! قال:

« لم يَرِد اسمي بين المتكلّمين. ولكني رأيت أن أقول لكم كلمةً صريحةً. فأنا الآن واقف معكم في هذه القاعة، ولا أصدّق ما أرى. عندما جاءني الأب زحلاوي، ليحدّثني عن مشروع حفر القبو، سألته علامَ يعتمد في هذا المشروع، فقال: "الله، والشباب". فقلت له: "الله، أكيد. ولكن الشباب سيخذلونك". فأكّد لي بكل ثقة أنهم لن يخذلوه. وأنا الآن أرى أنكم لم تخذلوه! أهنّئه بكم! وأهنئكم به. وهنا تحضرني مذ دخلت القاعة، كلمة مشهورة تُنسَب للقائد الروماني يوليوس قيصر، فيُروى أنه كان يقول حيثما أتى ليقاتل: (Veni, Vidi, Vici)، وهذا يعني: "أتيت، رأيت، انتصرت!". وأنا الآن أريد أن أستخدم هذه العبارة أيضاً، وأغيّر فيها الكلمة الأخيرة، فأقول أمامكم: "أتيت، ورأيت، فانتصر الأب زحلاوي!".

والحقيقة أنّ الذي انتصر كان المجتمع برمّته، من خلال الكنيسة، والشبيبة الناشطة فيها. ذلك بأنّ "قاعة السواعد" لم تعتّم أن أصبحت ملتقى ثقافيّاً وتربويّاً، يضجّ بالحياة والحركة. فبات يؤمّها الكثيرون في مجانية مطلقة، تاركين لهم حرية التبرع وحسب، مساهمة منهم في نفقاتها. ولكم كان الفرح يعمر قلبي بتزايد النشاط فيها، أسبوعاً بعد آخر. وجاء يوم، طلب فيه طلاب المعهد العالي للفنون المسرحية، ممارسة بعض تدريباتهم فيها، فوُضِعت في تصرّفهم. بل إنّ أحد أساتذتهم، وهو صديقي المخرج إيليا قجميني، الذي كان عائداً حديثاً من إيطاليا، استخدمها لأيام عديدة، قبل أن يقدّم على مسرحها، مع طلابه في المعهد، ملحمة جلجامش، في عمل مسرحي خارق. ولا يفتني بالطبع أن أذكر أنّ مختلف الحركات، التي قُيِّض لها أن تقوم في هذه الكنيسة الجديدة، وتلك التي كانت قائمة في كنائس أخرى، تفتقر إلى قاعة، باتت تُحيي في "قاعة السواعد"، اجتماعاتها ونشاطاتها. وكان أن جاء يوم، استدعى فيه أحد أعلى المراجع الكنسية في دمشق، صديقي المهندس ميشل سالم العيسى، وطلب منه إعداد دراسة من أجل "قيام قاعة شبيهة بقاعة السواعد"، في إحدى أهم كنائسه. ولكم أثلج قلبي يومها مثل هذا الكلام. وهنا، هنا بالذات، يسعدني أن أقول بمنتهى البساطة والصراحة، أني، خلال جميع مراحل هذا العمل، كنت أستمدّ قوّتي وفرحي

وقدرتي على التحدّي، مما كنت أراه بعين إيماني، من "مشاهداتي الذاتية"، لجموع الأطفال والشبان والشابات والعائلات، التي ستملأ القاعة، ذات يوم قريب، والتي قُيِّض لها أن تملأها بالفعل حتى اليوم!

إلا أنّ فرحي وفرح أسرة الرعية الجامعية والكثيرين، بوجود "قاعة السواعد"، بتوجّهها الثقافي والتربوي، المنفتح والمجاني، لم يكن ليريح "بعضهم"... وانتهز هذا "البعض" فترة غيابي في باريس، بقصد العلاج، في صيف عام 1982، ليستصدروا قراراً من البطريركية، بتشكيل لجنة جديدة للقاعة، على رأسها أحد كاهني الرعية، وبتغيير أقفالها، وإقصاء أسرة الرعية الجامعيّة كلّياً عنها، وباستعادة اسمها القديم، "قاعة كنيسة سيدة دمشق".

وعند عودتي، فوجئت كغيري بما جرى. إلا أني آثرت ألا أراجع أحداً من المسؤولين الكنسيّين في الأمر. وعندما أتاني شبّان وشابّات أسرة الرعية الجامعية، غاضبين، يُبدون كامل استعدادهم لأي إجراء أقترحه عليهم، هدّأتهم وأقنعتهم بضرورة التحلّي بالصبر والحكمة وبُعد النظر... وتابعنا نشاطنا في غرفة أخرى، ضاقت على نحو واضح بالحضور المعتاد...

أختم حديثي المقتضب هذا، عن كنيسة سيدة دمشق، بناءً جديداً ونشاطاً ناشئاً، بالتركيز على ما كان فيها يزيّن الجدار خلف الهيكل، والجدارين الجانبيّين، من أيقونات بيزنطية، رسمها الياس زيات، بما يميّز فنّه من إبداع وأصالة، أضفيا على ألوانها وشخوصها، عبقاً إنسانياً ومسحةً شرقية، أكاد أقول عربية، قلّ نظيرها في عالم الأيقونة التقليدي...

وهنا يطيب لي أن أذكر أنّ القوس الكبير، الذي يرتفع حتى سقف الكنيسة، خلف هيكلها، قد غطاه الياس زيات أيضاً، خلال عام 1999، بأيقونات بيزنطيّة ضخمة، تختزل بألوانها الزاهية، المحطات الكبرى من حياة السيّدة العذراء. كان ذلك بتكليف من أصدقائه عائلة المرحوم موسى حورانية. وقد استغرق هذا العمل، تصميماً وتنفيذاً، عاماً كاملاً، كان خلاله الياس زيات، وقد أُعطي مفتاح الكنيسة، يأتيها ويغادرها متى يشاء. ولكم كنت أهوى، طوال هذه الفترة، أن أغافل الياس خلال عمله، فأحيّيه وأجلس، أصلّي وأطيل التأمل فيه وفي لوحاته... حتى كان يوم، سمعت لحظة ولوجي باب الكنيسة، ترنيماً بيزنطياً شجيّاً، يتخلّله تكبير شبيه بتكبير المؤذن... وعندها آثرت أن أتسلّل في تكتّم تام إلى الكنيسة، ووقفت في زاوية تتيح لي أن أراه وأراقبه، دون أن يراني... لحظتها كان الياس زيات مغموراً، بكل وضوح، بحالة فريدة من النشوة

الروحية، جعلته يتراقص إزاء الأيقونة الكبيرة، وهو يرنّم لحناً تداخلت فيه ترنيمة المجدلة الكبرى الشهيرة، مع تكبير المؤذن، فيما كان يلامس بسرعة مدهشة هنا وهناك، جوانب الأيقونة بريشته... ولقد استطال هذا المشهد أكثر من عشر دقائق، تمنّيت خلالها لو كنت أمسك لحظتها بكاميرا تصوير... لألتقط ما بدا لي حالة فريدة من التصوف الفني... وإذ كنت غارقاً بدوري في هذه النشوة الروحية، حانت من الياس التفاتة طفيفة، فلمحني وجمد في مكانه!

الفصل السادس عشر

في رحـاب الكلمـة

كان للكلمـة، دائمـاً، مكانـة جليلـة في حيـاتي. كانـت طريقـي إلى الله، صـلاةً وتـرتيلاً، وكانت طريقي إلى ذاتي، يوميات أخطّها وذاكرة، وكانت طريقي إلى الآخر، كلّ آخر، أيـاً كان، وأنّى كان، حواراً وإصغاءً وقراءةً وعظةً، ورسالةً وكتابة.

وكنـت أعتمـد الكلمـة، طاقـة تواصـل وحضـور، ومحبّـة وإيمـان، وحريـة! أجـل، كانـت الكلمـة كلّ ذلـك بالنسبة إليّ. وكنـت أكتشـف يومـاً بعـد يـوم، حاجـة النـاس الحقيقيـة إليها، على الرغم ممّا كان يتأكّلهم مـن همـوم ومشـاكل، وذلـك مـن خـلال اكتشـافي، أنـا بالذات، لحاجتي الماسة والدائمـة إليهـا، وعلـى الـرغم ممّـا كـان يُحيق بـي مـن مشـاكلي الصحية والنفسية، المبكّرة والمُضنية، وعلـى الـرغم أيضـاً ممّـا كـان الشـبان والصـبايا، وبعض الأهل، والكثيرون مـن المُعوزين، يركمـون علـيّ وفـيّ، مـن همـوم، صـغيرة وكـبيرة، بعضـها مأسـاوي حقّـاً. بـل إنـي لا أتـردّد في الاعـتراف بـأنّ حـاجتي هـذه إلى الكلمـة، تضاعفت بما لا يقاس، بعد فقداني قدرتي على الترتيل والإنشاد...

فأخذت أكتب. وصرت أكتب، كلّما أُتيح لي الوقت للكتابة، ولا سيما في الليـل، لأحـرّر قلبي وعقلي وذاكرتي، ممّا أُلقي فيها كلّها، في صدق وألم، كثيراً مـا كانـا يفضـيان بـي إلى ما يشبه صلاةً متعبةً، وأحياناً يائسة... وكنـت أحـرص علـى عـدم طـيّ النـهار، دون تـدوين ما جرى وقيل فيه. إلا أني كنت أحياناً أعجز عن الالتزام بهذه المتابعة اليومية، فأجـدني، بعـد يـومين أو ثلاثـة، مضـطرّاً، ولـو علـى حسـاب نـومي، ومـا كـان النـوم يومهـا يعنـي لي الشـيء الكـثير، لاسـتعادة شـريط الـذاكرتين، البصـرية والسـمعية معـاً، لأدوّن الأحـداث، تماماً كما لو كانت ماثلة أمامي. وقد بلغتُ بهذه الممارسة الاستعادية، حدّاً اكتشـفت معـه أنّ ذاكرتيّ، البصرية والسمعية، قد بلغتا بالفعل من النموّ، مـا كـان يمكّنني مـن اسـتعادة شريط أحداث أسبوعين كاملين، بتوقيتها وتفاصيلها، وكأني بهـا ماثلـة لحظتهـا أمـامي... وما كنت أدري يومها، أنّ كلّ ذلك سيكون لي، بعـد سـنوات طويلـة طويلـة، عونـاً لا مثيـل له في معايشة أحداث الصوفانية، تلك الأحـداث، المفاجئـة والمذهلـة، بتفاصـيلها الصـغيرة والكـبيرة، الكـثيرة والمتعاقبـة، وبشخصـياتها المتباينـة والمتعـدّدة، علـى اخـتلاف مشـاربها

وثقافاتها، وجنسياتها وانتماءاتها، ومواقفها وأقوالها، وردود أفعالها، وبتخزينها في ذاكرتيّ هـاتين، البصرية والسمعية، وبإصراري علـى تجميـع الكم الهائـل مـن الوثـائق، علـى اختلاف مصادرها ولغاتها، التي أُتيح لي أن أجمعها طوال سنوات، والتي كنت أخشى أن "أرحل"، قبل أن أرتّبها في أرشيف نظامي، وَرَقي وإلكتروني، يكون بمثابة الذاكرة الحية والثابتة لهذا الحدث الروحاني والإنساني، الذي خصّ الله به، في حكمته، مدينة دمشق، وسورية والشرق العربي، والذي بات يُعرف بحدث الصوفانية... وما كنت أدري يومها أيضاً، أنه سيُرسِل الله لي، في تدبيره المدهش، مَن سيتولّون كلّ هذا العمل، وسواه من الأعمال الأخرى الكثيرة، التي ما كانت لتكون لولاهم، والتي سآتي بعد قليل على ذكرها.

وكنت أحياناً أجدني، من وحي هذه اليوميات، مضطراً لكتابة رسالة ما، في متابعة لحوار سابق مع شاب أو فتاة. وكنت أسلّمها باليد لصاحبها، بعد أن أكون نسختها بخط يدي، تحسباً لكلّ طارئ، وحفاظاً مني على "المسافة"، التي كنت أحرص دائماً على قيامها، بيني وبين مَن يقصدونني...

وأحياناً كانت لقاءاتي المختلفة مع الشبيبة، وما يتلوها أو يرافقها من صلاة وتأمل في الأحداث الدائرة من حولنا، التافهة منها والخطيرة، كل ذلك كان يُملي عليّ نصوصاً، أقدّمها للشبيبة في مناسبات دينية أو ثقافية أو وطنية، ثم أتركها بين أيديهم. وإذ بها تبدو لي ولبعضهم، بعد حين، وكأني كنت أستبق فيها بعض التوقّعات، بل بعض الأحداث...

وعندما كان يبرز من قلب التيارات الثقافية المختلفة، اسم يستحقّ وقفةً متأنّية، وقد احتلّ حيّزاً واسعاً من اهتمام الشبيبة وتساؤلاتها، كما حدث لشبيبة دمشق، في الستينيات، مع الفيلسوف الألماني نيتشه، كنت أرى من واجبي أن أوليه كلّ الاهتمام. فانتقيت بالتنسيق مع بعضهم، كتابه المفضل لديهم، وهو "هكذا تكلّم زرادشت"، وقدّمت لهم على مدى أسبوعين، محاضرتين مكتوبتين ومتكاملتين، ما كنت أرى، ولا كانوا هم يرون حرجاً البتة، في الاستماع إليهما، طوال جلستين طويلتين، كانت تعقب كلّ جلسة منهما، فترة نقاش مستفيض وصريح.

وعندما كان يُطلّ علينا من شاشة التلفزيون، من يحدّث الناس من موقع مسؤول، عمّا يسمّى "إنجيل برنابا"، بوصفه "الإنجيل الوحيد الصحيح"، ما كنت أنتظر ردّاً، أيّ ردٍّ، من كنيسة ألفت الاستكانة للركود والجمود. بل كنت أقرّر الإقدام على دراسة موضوعية، هادئة وصافية، تضع النقاط على الحروف، وتحاول أن تُبعد ولو ظلاً عابراً، ممّا يُراد لبلدنا وللوطن العربي كلّه، أن يحدث فيه من بلبلة دينية، وتفرقة اجتماعية.

ولما اكتشفت ما كان يسري بين الشبيبة، المثقّفة منها على الخصوص، من عدوى الهجرة المغرية، وتفشّي روح الغربة فيها، رأيت أن أكتب مسرحاً، استمدّ مادته من

الشبيبة عينها، وأخاطبها مباشرة من خلاله، أملاً مني في تثبيتها في أرضها، تلك الأرض التي شاء الله لها، لسرٍّ لديه، أن تكون مهداً للحضارات كلّها، ومنطلقاً للمسيحية، وملتقى للديانات جميعاً... فكانت مسرحية "ليتك كنت هنا" عام (1970).

وأما المأساة الفلسطينية، فكانت الكابوس الجاثم أبداً على قلبي وفكري وصلاتي. كما كانت مبعث السؤال الأكبر الذي كنت أتداوله دائماً مع بعض أحبّ الناس إلي، مثل أنطون المقدسي، وأديب اللجمي، وجورج حورانية، وروجيه كحيل، وسمير سلمون ورشاد أبوشاور... حتى كان يوم غبت فيه في صافيتا، ثم عدت منها بعد أيام قليلة، أحمل فيها لصديقي سمير سلمون مسرحية "المدينة المصلوبة"...

وكان أيضاً، لِما كنت أقرأ من كتب عربية وفرنسية، أو أجنبيّة مترجمة، ولِما كان يطرأ من أحداث، اجتماعية أو سياسية، فسحة خاصة في تفكيري وصلاتي، أخرج منها بكلمة، أرسلها إلى هذه أو تلك من الصحف اليومية أو الأسبوعية أو الشهرية، وأنا مُصِرّ على نشرها بحرفيتها. وكنت، إذا ما ارتأى أحدهم تغيير كلمة أو مجرّد حرف، فيها، أمتنع نهائيّاً عن التعامل معها...

كنت، وما زلت...

وكان أيضاً وخصوصاً، للكلمة التي كنت ألقيها في كلّ قدّاس يوم أحد أو عيد، بعد تلاوة الإنجيل، المكانة الأولى في صلاتي وتفكيري واهتمامي. إلا أني ما شئت يوماً أن أكتب العظة، بل شئتها دوماً طفرةً من القلب، مشحونةً بحضور مزدوج ومتلازم، حضور للرب يسوع وللناس، مَن هم في قلبي وأمامي في دمشق، ومن هم على امتداد الأرض كلّها. وشئتها دائماً وبإصرار، باللغة العربية الفصحى، احتراماً مني للغتي العربية الرائعة، وللحضور أيّاً كانوا، وحرصاً منّي على تقيّدي بسوية فكرية وروحية ومنطقية وزمنية، كنت دائماً أشعر أنّ لغتي الفصحى تُلزِمني بها، على نحو تلقائي، فيما اللغة العامية، إذ توهم الإنسان بسهولة الوصول إلى عقول الناس وقلوبهم، تعتقه تلقائيّاً من كلّ قيد فكري ومنطقي وزمني... وكنت، في استعدادي الدائم لجميع مواعظي، لا أعمد إلاّ إلى قراءة الإنجيل. فكنت، ما أن أنهي القدّاس، وأودّع الناس، أعود فوراً إلى الهيكل وأفتح الإنجيل، وأتلو بكلّ هدوء، إنجيل قدّاس الأحد أو العيد التالي. وكنت أجتهد، إذ أقرأه، أن أتصرّف وكأني أسمعه مباشرة من يسوع، أو من التلميذ الذي كتبه. ثم أستودعه ذاكرتي لأجترّه طوال الأسبوع، حيث اجتهد أن أستحضره في صلاتي، وخلال لقاءاتي بالناس، على اختلاف مشاربهم ومشاكلهم وطبائعهم، لا بل خلال سيري عبر الطرقات، بحيث كنت كثيراً ما أشعرني، وكأني أسير جنباً إلى جنب مع يسوع...

وكلّ ذلك ما كان بأيّ حال يعني أني كنت أقبِل على الوعظ بحماس، أو بسهولة.

وإني لأعترف بأني كنت أشعر أحياناً بشيء من الإحباط، وانعدام الجدوى من كلّ ما يمكن أن يقال في الكنيسة. وكنت أحياناً أخرى أؤخذ بشدة، بثقل الكلمة ومسؤوليتها، حيال جمهور تتفاوت فيه دائماً الأعمار والثقافات، وإن كان حضور الشبيبة يطغى عليه بصورة دائمة. فكان ينتابني كثير من التردّد في إلقاء العظة، حتى خلال قراءتي للإنجيل. ولكم من مرة حدث لي أن تساءلت، وأنا أغلق الإنجيل بعد تلاوته، "أأعظ اليوم، أم لا"؟ إلا أني كنت دائماً، عندما أنظر إلى الناس، وأنا أباركهم عالياً بالإنجيل، أسمعني أقول في أعماقي: "هؤلاء الأولاد بحاجة إلى طعام!" وأجدني مأخوذاً بالعظة... ولكم كان يغمرني الفرح والشكر للرب، عندما كان يأتيني، بعد القدّاس، من الناس، بل من شبّان وشابّات لم أكن أعرفهم، مَن يقول لي في نبرة صادقة ووجه مرتاح: "أبونا، أشكرك لما قلته لنا اليوم. لكأنك كنت في قلبي"... وكان من أطرف ما حدث لي، أن حضر القدّاس، ذات يوم، صديق، وهو طبيب مقيم في ألمانيا، وقد جاءني بعد القدّاس، مع صديقنا المشترك روجيه كحيل، ليقول لي بكل بساطة، وهو يبتسم: "يا أبونا، خلّيتني اليوم بوعظتك، أتمنّى الأرض تنشق وتبلعني!"...

وكان تأثّر بعض الناس بعظاتي، يدفعهم أحياناً ليقترحوا عليّ العمل على تسجيلها. وما كان من حقّي أن أسخر منهم أو أتهمهم بالمبالغة، لأني كنت دائماً ألحظ في القدّاس الذي أُقيمه، اكتظاظاً ملفتاً للنظر، كثيراً ما كان يحملني على التساؤل في أعماقي: "أوَلَم يملّ الناس من كلامي وصوتي؟" وكان يوم جاءني فيه شابّان، مهندس يدعى باسل سيوفي، وهو من حمص، وطبيب يُدعى سعيد طحان، وهو من دمشق. وكانت معرفتي بهما حديثة العهد، وكان كلاهما حديثي العهد بحدث الصوفانية. إلا أنّ ما حدث بعد ذلك، بيني وبينهما، في سرعة مدهشة، كان تطبيقاً حرفياً لإحدى كلمات يسوع، حيث يقول في إنجيل القدّيس متى (30/19): "وكثير من الأوّلين يصيرون آخرين، ومِن الآخرين يصيرون أوّلين". وفي الواقع، فإنّ عملي في دمشق، وقد خصصت به الشبيبة والطفولة، عبر السنوات، جمعني بالآلاف المؤلفة من الشبان والشابات، ومن الأطفال الذين باتوا بدورهم شبّاناً وشابّات. إلا أني لم أكن لأطلب من أحد منهم خدمة تخصّني. كما أني رفضت دائماً مقترحات كثيرة، وردتني من غير المسؤولين في الكنيسة، بتعيين أمينة سر لديّ، لأسباب كثيرة، أوّلها حرصي العنيد على "المسافة" التي التزمتُ بها في جميع أعمالي، ثانياً، حفاظاً على سرّيّة لقاءاتي مع الناس الذين كانوا يقصدونني، إن من حيث الأشخاص، أو من حيث الموضوعات المطروحة، وثالثاً لسبب مادي واضح، سآتي على ذكره بعد حين. وكان أن

جاءتني ذات يوم شقيقة باسل واسمها مها، وهي تبحث عن عمل. فاقترحت عليها المساهمة في طباعة كتاب الصوفانية الجديد على الكومبيوتر، لأنّ ابنةً أخرى للصوفانية، وهي ريتا جارالله، التي كانت تتولّى أمر طباعته، لم تعد تستطيع طباعة ما كنت أوافيها به من أوراق ووثائق جديدة. فرحّبت، إلا أنّها رفضت رفضاً قاطعاً أن تتقاضى مقابل ذلك، أي أجر، لا سيّما وأنّ "الصوفانية" كلّها قائمة على المجانية المطلقة. وبدأت عملها في طباعة الكتاب على الكومبيوتر. وتبيّن لي، بعد فترة، أنها جرّت أخاها المهندس باسل معها، من حيث لا تشعر ولا تريد، إذ كانت تتأثّر بالنصوص التي كانت تطبعها، وشيئاً فشيئاً أطلعَتْ عليها أخاها باسل، فوجد نفسه ذات يوم، غارقاً بدوره، في دهشة وسعادة، حتى قمّة رأسه، في حدث الصوفانية، فيما كان في السابق، يجهل كلّ شيء عنه. وكان أن تولّيا معاً، بالإضافة إلى ريتا جارالله، طباعة الكتاب الضخم بأجزائه الثلاثة، على الكومبيوتر. وأشرفا معاً على إعداده للطباعة، وأرفقاه بعناوين وفهارس تتيح لكلّ راغب، أن يعود في ثوانٍ إلى مبتغاه. وأغنياه بمئات الصور. وطُبع الكتاب، بمساهمة مالية كانت تأتي من هنا وهناك من محبّي الصوفانية، ومن عاشقٍ كبيرٍ لها هو أديب مصلح. وكان كلّ ذلك، فرصة غنية لي، كي أكتشف مدى النضج الروحي والرسولي، الذي بلغه باسل وأخته مها، لا سيما من حيث استيعابهما لرسالة الصوفانية.

وكان يوم جاءني فيه باسل مع سعيد طحان، يقترحان عليّ فيه تسجيل العظات، التي كنت ألقيها في كنيسة سيدة دمشق. وبعد أخذ وردّ، وافقت. فباتا كلّ أسبوع يحملان لي النص المسجّل، مطبوعاً على ورقة مستقلة، فأراجعه، كي يضمّاه إلى ملف العظات. وجاء يوم طُبِعت فيه هذه العظات بحرفيّتها، في كتاب آخر، مرخّص، في دمشق، ووُزّع مجاناً، كما كان يُوزّع مجاناً أيضاً، التسجيل الصوتي الحي، وقد أُرفِق بصور لأيقونات بيزنطية انتُقيت بمساعدة الفنان الياس زيات، في شكل (CD) مستقلّ. ولمّا كنت في هذه الأثناء، قد عُدت إلى عادتي القديمة في كتابة تأملاتي اليومية للإنجيل، رأيت أن أُطلِع عليها أيضاً باسل، وقد بات بمثابة ابن لي، نظراً لقربه الروحي مني. فأخذ يطبعها على الكومبيوتر أيضاً، حتى جاءني بها ذات يوم في كتاب أخر، رأيت أن أرخّصه وأطبعه بإشراف باسل، في دمشق، تحت عنوان "تأمّلات". كان ذلك عام 2009. ثم كانت "تأمّلات" أخرى، تناولتُ فيها إنجيل القدّيس يوحنّا، وقد طُبِع أيضاً في دمشق، عام 2010. والكتابان أيضاً يوزّعان مجّاناً. وثمّة كتابان أيضاً يضمّان العظات التي ألقيتها خلال الأزمة السورية، والتي قلتُ فيها بكل صدق

وصراحة، ما كنت أستلهمه بهذا الشأن الخطير، من الإنجيل المقدّس ومن حدث الصوفانية العظيم. وإني لأرجو طباعتهما قريباً.

في هذه الأثناء، عاد تاريخ الكنيسة الغربية يقضّ مضجعي ليل نهار، وأنا أرى في ما ترتكبه كنيسة الغرب منذ عقود، من صمت يوازي التواطؤ، حيال ما يرتكبه حكام الغرب، بحق الشعوب الفقيرة عموماً، والشعوب العربية والإسلامية خصوصاً، ولا سيما في سورية، يكرّر صمت كنيسة الغرب الماضي، حيال ما ارتكبه حكام الغرب من مظالم هائلة بحقّ شعوب الأرض. ولقد قرأت بهذا الشأن، كتاباً بالغ الأهمية، صدر عام 1997، تحت عنوان "عندما يطلب البابا الغفران"، دفعةً واحدةً في لغات ثلاث، هي الإيطالية والفرنسية والإنكليزية. وكان مؤلّفه، الصحفي الإيطالي "لويجي أكاتوللي" (Luigi ACATTOLLI) قد وضعه بالتنسيق مع البابا يوحنا بولس الثاني. فاستهوتني ترجمته إلى العربية آنذاك، إلا أني وجدتُ أنها قد تكون سابقة لأوانها. أمّا وقد قامت الدنيا في البلدان العربية، بفعل التدخّل الغربي السافر، ولا سيما في سورية، على النحو الجهنمي الذي يعرفه الجميع، وإزاء صمتٍ لا مبرّرَ له على الإطلاق، من قبل جميع كنائس الغرب، فقد رأيت أن أترجمه، وفعلت. وكان باسل شريكي في هذا العمل، حتى الترخيص الرسمي وطباعته في دمشق. وكان ذلك عام 2011، وإني لأوزّعه أيضاً مجاناً. وقد جُمِع فيه أهم تصريحات البابا المذكور، بشأن جميع ما يشكّل مآخذ على الكنيسة الغربيّة، عبر تاريخها الماضي السحيق. وإنّ لليهود وللعرب وللمسلمين، قسطاً وافراً من هذه المواقف الشجاعة والجديدة. وتوقّعت له ترحيباً واسعاً في الأوساط الدينية والثقافية والسياسية، العربية والإسلامية. ومرة أخرى فُجِعتُ بجمود جميع هذه الأوساط، حيال مثل هذا الموقف، بل بجهلها له كلّياً طوال سنوات! فإنّ أحداً لم يُعِرْه أيّ اهتمام جدّي حتى الآن، لا في نصوصه ولا في ترجمته العربية! أتُرانا يئسنا من ذواتنا، بعد ما أصابنا من "ربيع عربي"، أُعِدّ لنا بدراية فائقة في مطابخ الغرب وإسرائيل، ليكون "الجحيم الأبدية" التي أرادوها لنا، وجعلونا نحن "صنّاعَها" الحقيقيين؟!

ثمّة مَن يتساءل دون شك: لماذا، وكيف كلّ هذه المجانية؟ السؤال مُحقّ، وهوذا جوابي. في ما يتعلق بالصوفانية، كان هناك، كما سآتي على ذكره، مَن يتولّى بمبادرة ذاتية، طباعة إما الكتب بالآلاف، وإما الصور بالملايين، دون أن يكون لأحد من أسرة الصوفانية، يد في ذلك. كانت يد السيّدة العذراء وحدها، هي التي تحرّك من أسعدها أن ترى لديهم قابلية للتحرّك... وأما كتبي الأخرى، فقد كان أيضاً من أبناء الصوفانية، مَن أجهلُ اسمه حتى اليوم، ومَن كان يوافيني بين حين وآخر، حتى عام 2010، بمغلّف يضعه في صندوق بريدي الحديدي، في كنيسة سيدة دمشق، وقد دسّ

فيـه كلمـة بلغـة فرنسـية ركيكـة، لا تحمـل أي توقيـع، وهـو يؤكّـد فيهـا شـكره لسـيدة الصـوفانية، حيـث عـرفني، ويعتـذر فيهـا لمساهمته "المتواضـعة" في تغطيـة نفقـات كتـب التـأمّلات الإنجيليـة، الـتي كنـت أنـوي طباعتـها. وكـان مـا وضـعه في ثلاثـة أو أربعـة مغلفات، لست أذكر بالضبط، لا يقلّ عن ألف وخمسمائة "يورو" في كل مـرة! فكيف لا أشكر للسيدة العذراء، ليل نهار، عطاءها هذا الرائع والثابت، ولا أسارع إلى توزيع جميع هذه الكتب، التي أدين بها لها، بالمجان؟!

وفي عودة أخيرة إلى "الكلمة"، التي أخصّ بها هذا الفصل، يتوجّب عليّ أن أذكر مبادرات، ما كان لي فيها يد، وكانت الكلمة فيها هي الهدف الأبعد.

عـام 1975، كلّفـتني وزارة الثقافـة ترجمـة كتـاب عـن الفرنسـية بعنـوان: "المجتمـع والعنف". وكان كتاباً حديثاً، وضعته نخبة من الاختصاصيين الفرنسيين، في ميادين المجتمع والإعلام والسياسة وعلم النفس وعلم الحيوان. وقد أغراني بما اكتشفتُ فيه من حقائق هامة، اتّضحت أبعادها الكثيرة والخطيرة، خلال العقود الماضية. ومن أهمّها، أنّ الحرية الإنسانية والفردية، على كلّ ما لها من قيمة كبرى في حياة الإنسان، باتت، في واقع الحال، أشبه بوهم، لأنها، حتى في البلدان الأكثر تطوّراً، آخذة في الـتقلّص إلى حـدود التلاشـي، بفعـل عوامـل كـثيرة، اجتماعيـة وسياسـية ونفسـية واقتصـادية وإعلاميـة وعلميـة. فكيـف بهـا في البلـدان المتخلّفـة والجائعـة، والمُجوَّعـة، والمُضطهَدة، والمَقهورة والمُشرَّدة؟... ومنها أيضاً، أنّ العنف، الذي لازم المجتمع البشري كلّه، منذ نشأته، على اختلاف أشكاله، اتّخذ له في العصر الحديث، أشكالاً خفيّةً، مُخطَّطة ومدروسة، يصعب على المرء تبيّنها أو اكتشافها، فيما الظروف من حوله توهمه أشدّ الوهم، بتمتّعه الدائم بالحرية. ومنها أيضاً وخصوصاً، إنّ الإنسان يتفوّق بوحشيّته على الحيوان، بحيث تأتي المقارنة بينهما مهينةً للحيوان... وقد راجع هذه الترجمة أنطون المقدسي، وطبعت الوزارة الكتاب عام 1976.

وكانت وزارة الثقافة أيضاً، في عام 1979، قد كلّفتني ترجمة كتاب "تاريخ المسرح"، بأجزائـه الخمسـة. الـذي كـان قـد وضـعه المؤلـف الإيطـالي "فيتـو بانـدولفي" (Vito Pandolfi)، من نصه المترجم إلى الفرنسية، والصادر في سلسلة (MARABOUT). ولكم كنت سعيداً بهذه الترجمة، التي انتهيت منها عام 1989، لأنّ ما في المسرح، هو صورة متكاملـة عـن جميـع المجتمعـات البشـرية، وتحوّلاتهـا المختلفـة، وانطلاقاتهـا الثوريـة، الكبرى منها والصغرى، بدءاً من أولاها التي تجلّت في المسرح الإغريقي، في حركة تحرّر متنامية وعنيدة، ضدّ تسلط "الآلهة" والمجتمع على الإنسان!

وفي عام 1980، كلّفتني أيضاً وزارة الثقافة، ترجمة كتاب عن الفرنسية، بعنوان "فكر

هيجل السياسي"، وهو لباحث فرنسي يدعى "برنار بورجوا" (Bernard BOURGEOIS)، وقد رحّبت بهذه الترجمة، رغبةً منّي في التعريف قليلاً، بفكر هيجل على حقيقته، في الوقت الذي كان فيه الكثيرون من المثقّفين والكتاب، في سورية والوطن العربي، يختبئون تحت عباءة هذا الفيلسوف الكبير، ليروّجوا لأفكارهم ونظرياتهم. وقد راجع الترجمة أنطون المقدسي أيضاً، وصدر الكتاب عام 1981.

ثمّة موضوع كان يُطرح كثيراً، حول ما يسمى "شهود يهوه". فكان عدد لا بأس به من طلاب الثانويات والجامعة في دمشق، يراجعوني بشأنه. فرأيت أن أقدّم لهم دراسةً وجيزةً وموضوعيةً، شئتها بمتناول الجميع، شرحاً وحجماً. واستندت فيها إلى أبحاث كثيرة، عربية وأجنبية، ولا سيما إلى مجموعة كبيرة بالعربية، تضمّ بعض أهم مراجعهم، كان قد قدّمها لي قبل سنتين، هدية لطيفة، شاب قريب لي في الولايات المتحدة، ينتمي منذ سنوات طويلة إلى الجماعة نفسها، أملاً منه في اهتدائي إلى جماعته!... فحاولت ما استطعت، تبيان الهشاشة الفكرية والنفسية، التي كان عليها مؤسس هذه الجماعة، وخلفاؤه وأتباعه، والغاية الحقيقيّة الكامنة وراء نشاطهم، وهي خدمة الصهيونية، وتبرير احتلال اليهود لفلسطين... وقد صدر الكتيّب عام 1991، تحت عنوان: "شهود يهوه: من أين وإلى أين؟"، ووُزّع مجاناً، وقد جاءني من شاء أن يغطّي نفقات طباعته...

وفي هذه الأثناء، كان حدث الصوفانية قد انطلق يوم السبت الموافق 1982/11/27، وكنت، بعد أن تيقّنت من صحّته، قد آليت على نفسي أن أسجّل وقائعه بكلّ دقّة، كما رأيتها وسمعتها بنفسي. وقد قمت بذلك على مدى سنواته الأولى حتى عام 1990. وكان هذا الحدث الخارق، كما هو معروف، قد اتّخذ أبعاداً كثيرة، دينية واجتماعية، وفكرية وطبية وعلمية ولاهوتية، داخل سورية وخارجها على امتداد العالم. وأخذ عدد من المراجع الدينية والثقافية، ممّن تابعوا هذا الحدث، يطالبوني بنشر كتاب يوثّقه ويشرحه للناس على حقيقته، وليس كما كان يحلو لبعضهم أن يحكوا... وإني لأذكر من هؤلاء، المطران ناوفيطس إدلبي، مطران حلب للروم الكاثوليك، والمفكر المعروف أنطون المقدسي. فاستجبت وأنهيت مخطوط الكتاب، ثم سلّمت نسخة منه لكل من قداسة البطريرك زكا الأول عيواص، بطريرك السريان الأرثوذكس، والمفكر انطون المقدسي، وصديقي الأديب أديب مصلح، واللواء جورج بديوي. ورجوتهم أن يُبدوا لي رأيهم الصريح، لألتزم به، إن في الطبع كاملاً، أو في التعديل والحذف، أو في الامتناع عن طباعته. ولقد أجمع أربعتهم، دون سابق اتفاق بينهم، على ضرورة نشره، على أن

تُحـذف منـه الفقـرات الـتي مـن شـأنها أن تمـسّ هـذا أو ذاك مـن بعـض المسـؤولين الكنسيين. فالتزمت بما نصحوني به، واستبعدت جميع النصوص التي اقترحوا حذفها. وقد جمعتها في ملف خاص، يشكّل اليوم جزءاً مستقلاً من أرشيف الصوفانية الكامل.

وجاءني ذات يـوم شـاب مـن لبنـان، كـان منـذ عـام 1987، قـد عـرف انقلابـاً روحيـاً جذرياً، بعد أن شاهد الزيت ينساب في بيته، من صورة للعذراء سيّدة الصوفانية، كان الأب الياس صارجي قد قدّمها له. وكان يريـد أن يفـي للسـيدة العـذراء، ببعـض مـا لهـا عليـه مـن ديـن كـبير... ولمـا عـرف قصّـة مشـروع الكتـاب، أخـذ علـى نفسـه تلقائيـاً أمـر طباعتـه... وعنـدها كـان الكتـاب يضـمّ نصـين: يومياتي، وتـأملاً جامعـاً للمفكـر أنطـون المقدسي. ولقـد طبعنـا في أول الكتـاب وفي آخـره، عبـارة تُعلـن أن الكتـاب يـوزَّع مجانـاً، عملاً بقول الرب: "مجاناً أخذتم، مجاناً أعطوا". وقد أُصدِر لهذا الكتاب ثلاث طبعات، كانت الأولى والثانية منها تشمل عشرة آلاف نسخة، فيما الثالثة شملت خمسة آلاف نسخة. وكان أن حصلنا على ترخيص رسمي بإدخاله إلى سورية، علماً بأنه انتشر على نطاق العالم كلّه. كان عنوانه: "الصوفانية (1982 – 1990)". كان ذلك في مطلع عام 1991. وكان اسم من تولّى أمر طباعته "ماجد غريّب".

وكـان أن سـافرت إلى فرنسـا، في صـيف عـام 1991، وأنـا أحمـل معـي قرابـة مائـة صـفحة مـن هـذا الكتـاب، كنـت قـد ترجمتُهـا إلى الفرنسـية، قبـل فـترة، خـلال وعكـة صحيّة كانت قد ألّمت بي. وكنت فور وصولي إلى باريس، على موعد مع "مجموعة سيدة الصوفانية"، التي كانت في فترة سابقة، قد تشكّلت فيها، بقصد الصلاة من أجل وحدة الكنيسة، وإحلال السلام في العالم. وكانت تضمّ قرابة خمسين شخصاً، معظمهم فرنسيّون. وقد فوجئت قبل الاجتماع بساعات، بهاتف من صاحب دار نشر يسألني موعداً. فدعوتُه لحضور اجتماعنا، ومن ثم للتباحث معه. فحضر الاجتماع، وشارك في القدّاس الذي أقمته بعد الاجتماع. ثمّ طلب مني معلومات عن الصوفانية. فرأيت أن أختصر كلّ شيء، بإطلاعه على الصفحات المترجمة، وائتمنته عليها. وكان بين من حضـر هـذا اللقـاء، دكتـورة فرنسـية بعلـم الـنفس، تُـدعى "بيبيـان بوكـاي دولاروك" (Bibiane Bucaille de la ROQUE)، كانت قد زارت "الصوفانية" مرتين، في دمشق، وكتبت شهادة هامة بشأنها. ولما سمعَتْ ما دار بيني وبين الناشر من حديث، أدركت رغبتـه في نشـر كتـاب حـول الموضـوع. فأبـدت لي اسـتعدادها التـام لمراجعـة تـرجمتي الفرنسية، إن تمّ الاتفاق مع الناشر على ترجمة الكتاب كلّه. وفي صباح اليوم التالي، فاجأني هذا الناشر بهاتف يعلمني فيه عن استعداده لنشر الكتاب بكامله في أقرب

وقت ممكن، لأنه يرى فيه، كما قال حرفياً: "كتاب أعمال رسل القرن العشرين"! ولكم أفرحني ذلك. فوعدتُه بالعودة إلى باريس في الأول من أيار، للقيام بترجمته خلال الشهر، على أن يُصدره في شهر آب أو أيلول. وأخبرتُ بذلك الدكتورة "بيبيان". وما إن أنهيت ما عليّ من علاج وعمل في باريس، حتى عدت إلى دمشق. وقد ثبّت الناشر وعده عبر الرسائل التي تبادلناها، وأعلمت بذلك أيضاً الدكتورة "بيبيان". وعدت في الأول من أيار، وأقمتُ في دير الآباء البيض إيّاه، منصرفاً ليل نهار إلى الترجمة، التي كنتُ أنجزها على الآلة الكاتبة مباشرة. فكانت تأتي الدكتورة "بيبيان"، لتأخذ الصفحات المترجمة، وتعود بها بعد يوم أو يومين، فأتدارس وإياها مراجعتها، ثم أعطيها حصّتها الجديدة من الترجمة... حتى أنهينا الكتاب خلال شهر أيار، وقد فعلَتْ كلّ ذلك مجاناً، عملاً بروح الصوفانية.

إلا أنّ جديداً طرأ خلال شهر أيار، إذ كان الناشر يقرأ النص المترجم، فرأى أن يطرح علي الأسئلة، التي يتوقّع لأي قارئ فرنسي أن يطرحها لدى قراءته الكتاب. فسألته أن يجمع كل ما تبادر إلى ذهنه من أسئلة، وأن يوافيني بها، على أن أوافيه بالأجوبة في جلسات لاحقة، سوف أسترقها من وقت الترجمة، وأسجّل فيها أجوبتي إما بحضوره، وإما بحضور من ينتدبه عنه. فكان أن وافاني بالأسئلة، فدرستُها وبتّ أتأمّل فيها... وبعد أيام وجيزة، أرسل راهبة تعمل لديه، وبجعبتها مسجلة صغيرة. فأجريتُ بحضورها، في مكتبة الدير الهادئة، خمس جلسات، كنّا نفتتحها ونختتمها بالصلاة. وكانت مدة كل جلسة ساعتين. فكنت أتكلّم بمفردي، والآلة تسجّل. وبعد أيام، وافتني بنص مطبوع، كان هو النص المسجَّل خلال الجلسات الخمس. وقد سلّمتني إياه وهي تقول: "لقد اطّلع عليه السيّد "فرنسوا كسافييه"، وهو يريد نشره في كتاب مستقل، مع الكتاب المترجم. ويرجوك قراءته، وإبداء ملاحظاتك، واقتراح عنوان له". ولكم فوجئت بمثل هذا القرار، وهو المعروف بتشدّده في انتقاء المخطوطات المقدّمة له. إلا أني، بعد أن قرأته بتمعّن، أيّدت قراره، واقترحت حذف بعض العبارات المكرّرة، وأضفت بعض العناوين لبعض الفقرات، واخترتُ عنواناً له هو العبارة الأولى التي تلفّظت بها السيّدة العذراء، في الرسالة الأولى التي أملتها على المختارة ميرنا، مساء 1982/12/18، حيث قالت: "أبنائي، (اذكروا الله)" (Souvenez-vous de Dieu). وكان أن صدر الكتابان، وظهرا لأول مرة في مهرجان ديني كبير، أقيم في مدينة "بيزنسون"، في 28-29 أيلول من عام 1991، وكان لحدث الصوفانية فيه، فسحة واسعة من الصلوات والمحاضرات، إذ كانت ميرنا وزوجها نقولا، والمفكّر انطون المقدسي وأنا،

ضيوفاً على المهرجان. وهنا، أرى لزاماً عليّ أن أذكر، أن الناشر اتّبع في إصدار الكتابين، ما يتّبعه جميع الناشرين الفرنسيّين، إذ هم يتعاقدون مع الكاتب على مبلغ ما، يُعطاه فور صدور الكتاب، على أن يُعطى لاحقاً نسبة محدّدة من مبيعات الكتاب. وكنت قد وقّعت مع الناشر، على عقد من هذا القبيل، ينظّم علاقة كل منّا بالآخر. إلا أني، حال صدور الكتاب، أفصحتُ له عن رفضي القاطع لأي مبلغ من المال، عملاً بمجانية الصوفانية. وقد أدهشه الأمر إلى أبعد الحدود، لأنّ المجانية ليست واردةً في التعاملات في أوروبا خاصة، والغرب عامة. فكان ذلك الموقف تكريساً حقيقياً للصداقة، بل للأخوّة التي نشأت بيننا حتى اللحظة... كان ذلك عام 1991.

وكان للكلمة لديّ، شأن أيضاً في الأحداث التي كانت، ولا تزال، تعصف بالبلدان العربية عامة، وبسورية خاصة. وكان بعض هذه الأحداث، يستفزّني، فأجدني، إن في صلاتي، أو في عظاتي، أو في ردود أفعالي، أتفاعل تلقائياً معها، فأبدي رأياً، أو أتّخذ موقفاً، أو أكتب مقالاً، أو ألقي محاضرة، أجدني فيها كلّها خارج السرب الكنسي، أو أكتشف فيها أن أسراب الكنيسة هي التي وضعت ذاتها في مواقع تباعد بينها وبين حياة الناس وهمومهم الكبرى... أفلا يفسّر ذلك عدم دعوتي، ولا مرة واحدة، طوال خمسين عاماً من خدمتي للشبيبة في سورية، إلى أي اجتماع يضمّ السلطات الكنسية الكاثوليكية فيها، للأخذ برأيي في أي شأن يمسّ الشبيبة؟ أفلا يفسر ذلك أيضاً إصرار السلطات الكنسية الكاثوليكية في دمشق، على تكليف هذا أو ذاك من الشبان العاديين، لتمثيل الشبيبة المسيحية الكاثوليكية في دمشق، في المؤتمرات التي كانت تُعقد في سورية أو في لبنان أو في أي بلد آخر، للبحث في شؤون الشبيبة، دون الرجوع إليّ، مع أني كنت المكلّف رسمياً من قبل هذه السلطات، بخدمة الشبيبة الجامعية منذ عام 1968؟ وعلى كل حال، فأنا كاهن، وكاهن عربي، في كنيسةٍ شاءها الله والتاريخ والحضارة والثقافة، عربية، أجل عربية، وليس، كما قال لي ذات يوم، أحد الأساقفة في دمشق، "ناطقة بالعربية" (وقالها بالفرنسية: arabophone)! ولما كان شعبي وأمتي يخوضان معركة المصير، كما كان يبدو لي منذ عشرات السنين، وكما يتّضح اليوم على نحو يفقأ كلّ عين، فأنا ما شئتني كاهناً قابعاً في كنيسة، وقانعاً بالانصراف إلى الصلاة ليل نهار، إلى إله لا علاقة له بشؤون الناس. فإلهي هو ذاك الذي كشف لي عنه يسوع ابن الإنسان، يسوع ابن فلسطين، الذي علّم في فلسطين، ومن فلسطين، محبة كلّ إنسان لكلّ إنسان، وارتباط كلّ إنسان بكلّ إنسان، ولا سيما بالفقير، بالمحروم، بالمسحوق، بالمهمّش، بالمشرّد... أجل إلهي، هو ذاك الذي

بلغ من حبه للإنسان، أنه مات على صليب حبّاً بكل إنسان، وأنه جعل من محبة الإنسان للإنسان، مقياس التعامل الأوحد والأقدس لدى الله، بين البشر جميعاً. فكيف لي، وأنا كاهن يسوع، أن أتجاهل ما يجري، وما يُصيب كلّ إنسان، بدءاً من الإنسان العربي، وامتداداً إلى كل إنسان على وجه الأرض، وكذلك على امتداد التاريخ البشري، سابقاً، وحالياً، ولاحقاً؟

وشيئاً فشيئاً، تبيّن لي أنّ المقالات الخاطفة أو العظات العابرة، أو حتى المحاضرات الطويلة، لا يمكنها أن تفي بالغرض، سواء كان هذا الغرض صرخة غضب، أو تسليط ضوء على حقيقة غائبة. فرأيت أنّ الكشف عن عمق الإنسان العربي، ضرورة حيوية بالنسبة إلى الإنسان العربي عامة، والمثقّف خاصة، كي يتعرّف إلى الدوافع العميقة التي تُملي على الغرب سياساته المعادية للعرب والمسلمين، أو تلك التي تصطنعها الصهيونية، كي تحمله على تقبّل سياسات إسرائيل، بل على تسويغها والدفاع عنها... وكنت أعرف أنّ ذلك سيقودني إلى الكشف عن جذور تضرب في عمق تاريخ كل من الشرق والغرب، وتاريخ المسيحية كلّها. ووجدتني أمام بحث مستفيض، أخذت أنشر فصوله تباعاً، تحت عنوان "ما بين المسيحية واليهودية"، في مجلة "صوت فلسطين"، في منتصف السبعينيات. وقد انطلقت في بحثي، من المرحلة التي تلت فتوحات الاسكندر المقدوني، وبلغتُ فيه إلى آخر القرن الخامس الميلادي. وكانت المقالات كلّها تُترجم إلى الإنكليزية، وتُنشَر في مجلة "Resistance"، الفلسطينية، الصادرة في دمشق بالإنكليزية. وكنت أحرص على إرسال جميع مقالاتي إلى المطران يوسف طويل، يوم كان أسقفاً في الولايات المتحدة. وكان شديد الترحيب بها، وقد شجّعني على متابعتها. وإني لأرجو أن أنجز قريباً ما منعني ضغط العمل يومها من إنجازه. فعساني بذلك أساعد بعضاً من أبناء قومي ومسؤوليهم، على اكتشاف ما يستبدّ بجميع الغربيين، من عقدة ذنب رهيبة حيال اليهود. والحقيقة هي أنّ الغرب كلّه يسبح في بحر من عقدة الذنب، أتقن اليهود استثمارها، بحيث باتوا يُملون على الغرب كلّه، سياسات ظالمة بحق العالم كلّه، ولا سيما بحق العرب والمسلمين، وهي سياسات باتت اليوم تثير قلقَ، بل مخاوفَ الكثيرين من مثقّفي الغرب أنفسهم.

ولمّا بات أكثر من واضح أنّ الصهيونية تتحكّم على نحو مطلق، بالولايات المتحدة، التي هي القوة الغربية المهيمنة، رأيت أيضاً أن أسهم بدوري في الكشف عن الجذور الفكرية والنفسية، التي تنفث سمومها في هذا الكيان الجبار... والمتهالك! والحقيقة أنّ

هناك كتباً كثيرة كُتِبت في هذا الشأن... وأذكر منها، وفق تاريخ ظهورها، بعضها، عنواناً ومؤلفاً، مع تاريخ صدورها، تاركاً للقارئ، مهمة مطالعتها واكتشافها:

1	أميركا تحترق	جيمس تيفنان	James TIVNAN	1966
2	اليهودية ضد الصهيونية	عمانوئيل ليفين	Emmanuel LEVINE	1969
3	عنصرية دولة إسرائيل	إسرائيل شاحاق	Israel SHAHAK	1975
4	اللوبي (القوة السياسية اليهودية والسياسة الخارجية الأميركية)	ادوارد تيفنان	Edward TIVNAN	1987
5	من يجرؤ على الكلام	بول فيندلي	P. FIENDLEY	1987
6	إخفاقات مقصودة	بول فيندلي	P. FIENDLEY	1993
7	خطيئة إسرائيل الأصلية	دومينيك فيدال	D. VIDAL	1997
8	الكابوس الأميركي	روبرت دول	R. DOLE	1997
9	عندما يطلب البابا الغفران	لويجي أكاتوللي	L. ACCATTOLI	1997
10	الصحوة	دافيد ديوك	D. DUKE	1998
23	اختلال العالم/ الهويات القاتلة	أمين معلوف	A. MAALOUF	2011/1998
11	حروب القرن الحادي والعشرين	إينياسيو رامونيه	I. RAMONET	2002
12	الإرهاب الأميركي	إميل فلاجكي	E. VLAJKY	2003
13	كيف السبيل للإفلات من الفخ الأميركي	بيير لوكونت	Pierre LECONTE	2003
14	مجتمع الخراف - الذئاب	إميل فلاجكي	E. VLAJKY	2005
15	إمبراطورية العار	جان زيغلر	J. ZIEGLER	2005
16	اللوبي الإسرائيلي والسياسة الخارجية الأميركية	جون ميرشايمر ستيفن والت	J. Meirsheimer S. WALT	2007
17	بركان الشرق الأوسط	نعوم تشومسكي جلبير أشقر	N. CHOMSKY G. ACHKAR	2007
18	الانتصار على هتلر	أفرهام بورغ	A. BURG	2007
27	الشرق الأدنى المتفجر	جورج قرم		2007
20	بالنار والدم	شارل أندرلان	Charles ANDERLIN	2008
21	ساذج في الأرض المقدسة	ريجيس دوبريه	Régis DEBRAY	2008
19	بغض الغرب	جان زيغلر	J. ZIEGLER	2008
22	أسرار الرؤساء	فانسان نوزيل	V. NOUZILLE	2010
24	سريانا	باهار كيميانغور	B. KYMIONGÛR	2011
25	تدمير شامل	جان زيغلر	J. ZIEGLER	2011
26	قصة استير	جيلاد أتزمون	G. ATZMON	2012

إلا أنّ هناك مؤلفاً صغير الحجم وبالغ الأهمية، لم ينل حقه من الاهتمام، كما أرى، من قبل المثقفين العرب، وهو كتاب "الكابوس الأميركي"، الذي وضعه باحث كندي معاصر، من أصل أميركي، يدعى "روبير دول" (Robert DOLE). وقد تقصّد أن يكتبه باللغة الفرنسية، وأصدره في كندا عام 1997. أما الكاتب، فقد كان تخرّج من جامعة "هارفارد" عام 1968، وغادر الولايات المتحدة على الفور، إلى أوروبا، ومن ثم إلى كندا حيث استقرّ، لأنه، كما يقول في كتابه، كان يرى منذ ذلك الحين، أنّ وطنه كان يشكل الخطر الأكبر على العالم بأسره. ولم يكن قد تُرجم إلى العربية، فرأيت أن أقوم بذلك، ونشرته تباعاً في مجلة "رؤى ثقافية" الدمشقية، في منتصف التسعينيّات. التي كان قد أسّسها، محمد سعيد حمادة، الذي بات منذ ذلك الحين، صديقاً غالياً. ولسوف يُطبع قريباً، عساه هو أيضاً يسلّط بعض الأضواء قبل فوات الأوان على حقائق هامة، غائبة، ولو جزئياً، عن العرب ومثقّفيهم.

وأمّا موقف الكنيسة الغربية من سياسات الغرب الماضية عامة، ومن علاقاته الحديثة الكارثية بالعالمين، العربي والإسلامي، خاصّة، فقد بات همّاً حقيقيّاً يثقل فكري ووجداني، منذ اكتشافي الشخصي، عام 1955، للمجتمع والكنيسة في فرنسا، ومن ثم للغرب كلّه. وقد فتحت مطالعاتي الكثيرة والدؤوبة، آفاقاً رحبة أمامي، لم تكن كلّها مريحة، ولا مُطَمئِنة. كما أنّ ما أتيح لي من رحلات دائمة ومتكرّرة، منذ عام 1955، بحكم دراستي وعلاجي، وعملي مع البطريرك، وخدمتي للطلاب الجامعيّين في دمشق وعبر العالم، وعضويتي في اتحاد الكتاب العرب، ومشاركتي في مؤتمرات عديدة، ومرافقتي لجوقة الفرح في جولاتها الغنائية، ولميرنا نظور في رحلاتها التبشيرية، إلى مختلف أنحاء العالم، من فلسطين إلى لبنان فالأردن، ففرنسا، فالأميركيّتين، فشمال إفريقيا، فمصر، فأوروبا الغربية كلّها تقريباً، فاستراليا، فروسيا، كل ذلك عنى لي اكتشافات غنية ومفجعة في آن واحد، لمجتمعات تجهل العرب والمسلمين، ولمؤسّسات كنسيّة مستعدّة للحوار، ولو في حدود دنيا، لأنها غارقة في إعلام وفي معرفة، بعيدين كل البعد عن مجتمعاتنا العربية والإسلامية، بل قد يكون بعضها أسيراً لماضٍ بعيد من ذكريات الاحتلال العثماني، الظالم والدامي. وأما مسؤولية جهل الغرب، مجتمعاً وكنيسة، للعرب والمسلمين، فأياً كان نصيب المساعي الصهيونية المعروفة في هذا الشأن، فإنه لا يسعني إلاّ أن أعترف بأنها، إن كانت مسؤوليتها تقع دون أدنى شك على البعثات الدبلوماسية العربية والإسلامية، فإنما هي تقع مضاعفة، على الكنائس الشرقية المنبثّة في جميع هذه البلدان. وقد ثبت لديّ أنّ العديد من الأوساط الكنسية

في الغرب أنقى، فكريّاً ووجدانيّاً، بما لا يقاس، من الأوساط السياسية هناك، وهي تتأثر بالحقيقة ولا تتهرّب من تبنّيها، إذا عرضت عليها في صدق ومعرفة ونزاهة. وهذا بالضبط هو ما جرى للمطران يوسف طويل، إبان حرب عام 1973، إذ استطاع بمفرده، أجل بمفرده، وهو أسقف كنيسة الروم الكاثوليك في الولايات المتحدة منذ عام 1970 فقط، حيث أقام علاقات جادة وصادقة مع المسؤولين الكنسيين هناك، أن يحمل مجمع الكرادلة والأساقفة الأميركيين الكاثوليك، المنعقد في شهر تشرين الثاني (نوفمبر) عام 1973، على إصدار بيانه الشهير، بتاريخ 1973/11/13، المؤيّد لقيام دولة فلسطينية، مقابل دولة إسرائيل. وقد شكّل هذا البيان سابقةً فريدةً في تاريخ الكنيسة الأميركية، بل الغربية كلّها. وإنه ليسرني أن أورده في ملحق هذا الكتاب- الشهادة (من كتاب: من أجل فلسطين - الصفحات 438-442)، بقدر ما يُحزِنني تجاهل جميع المسؤولين العرب، حتى في سورية، لهذا الإنجاز العربي، ولمن كان وراءه، المطران يوسف طويل. ترى، من المسؤول في نهاية المطاف، عن مثل هذا التقصير الفادح؟...

أما بالنسبة إليّ، فعلى وعيي التام لحدودي، ولمدى تأثيري الصغير الصغير، فليس لي أن أنكر ما كان للكلمة، من شأن كبير جداً في حياتي ككاهن عربي. وإني لأعترف بأنّ هذه الكلمة، كلمتي، قد شئتها دائماً، تعبيراً صادقاً، دقيقاً وجريئاً، عن إيماني الحرّ، والمحبّ، والملتزم بقضايا الإنسان، لا سيما الإنسان المظلوم والمقهور والمهمش. فقد شئتها كذلك في صلاتي، في السرّ والعلن، وفي كتاباتي كلّها، وفي جميع لقاءاتي، الشخصية والعامة، وفي مقابلاتي التلفزيونية والإذاعية والصحفية. وكلّي إيمان بأنّ هذه الكلمة بالذات، هي وحدَها التي فتحت أوّلاً العيون والأفواه، دهشةً ومحبّةً، لدى الكثيرين ممّن كنتُ ألتقيهم بمحض الصدفة في الطريق، وحتى لدى سائقي التكسي في دمشق وحلب! كما أنها هي التي فتحت أمامي الأبواب واسعة، داخل المجتمع العربي السوري، وخارجه على امتداد العالم، من حيث لم أكن أريد، ولم أكن أتوقع. فوجدتُني عام 1973، على سبيل المثال، عضواً في اتحاد الكتاب العرب، فعالاً في مختلف نشاطاته الثقافية والفكرية والاجتماعية، حتى تمثيله في رحلة إلى ألمانيا الشرقية عام 1979، مع الزميلين جلال فاروق الشريف واسماعيل عامودا. ووجدتُني كاهناً وحيداً، بين مئات الكتاب والصحفيين الفلسطينيين والعرب، في مؤتمر لهم عقدوه في تونس العاصمة، عام 1976. كما وجدتُني، عام 1977، مدعوّاً للمشاركة في المؤتمر العالمي للحوار الإسلامي - المسيحي، الذي عُقد في مدينة طرابلس الغرب بليبيا... كما وجدتُني مُدرِّساً في قسم اللغة الفرنسية في جامعة دمشق، بدءاً من عام

1972 حتى عام 1978، ومدرِّساً في المعهد العالي للفنون المسرحية عام 1978-1979، مع أني لا أحمل شهادةً جامعيّةً عالية، تؤهّلني لذلك التدريس! ووجدتُني مدعوّاً عام 1996، للمشاركة في تأسيس جمعية حماية المستهلك في سورية... ووجدتُني عام 2000، مدعوّاً للمشاركة في تأسيس "لجنة دعم الانتفاضة، ومقاومة المشروع الصهيوني"، في دمشق... ووجدتُني مدعوّاً للمشاركة في ندوات ثقافية وتلفزيونية، مع سماحة مفتي حلب، الدكتور بدر الدين حسون، ومع سماحته يوم أصبح مفتي الجمهورية العربية السورية... ووجدتُني مدعوّاً للمشاركة في ندوات مع كلٍّ من مفتي حلب، الدكتور محمود عكام في حلب، والشيخ حسين شحادة في المركز الثقافي في حمص، وفي مقرّ السيّدة زينب بدمشق... كما وجدتُني مدعوّاً للاشتراك في ندوة "واقع مسيحيّي المشرق في محيطهم، على مشارف الألف الثالث" في شهر نيسان عام 1999، في لبنان...

ووجدتُني مدعوّاً، من قبل التلفزيون العربي السوري، قبل أشهر من زيارة البابا يوحنا بولس الثاني إلى سورية، خلال شهر أيار 2001، للمشاركة في عملين هامين، يتعلّقان بهذه الزيارة التاريخية. وكان أوّلهما إعداد برنامج "أعمدة النور"، لإبراز ما في سورية من آثار مسيحية، وقد أُريد له أوّلاً أن يشتمل على إحدى عشرة حلقة، يتخلّلها شرحٌ تاريخي مطوّل، يتداخل فيه الماضي بالحاضر. وكان أن اقترحت أربع حلقات فقط، يُترك فيها، قدر الإمكان، للآثار نفسها، أن تخاطب المشاهد. وقد أُخِذ برأيي، وكانت الحلقات الأربع حقّاً رائعة! وقد عاد عليّ إعداد هذا العمل، بلقاء مع أحد طلابي الجامعيّين السابقين، هو غسان الشامي، أفضى إلى صداقة غنية وفاعلة. وكان ثاني هذين العملين، مشاركتي في ندوة تلفزيونية رافقَتِ من الاستوديو، زيارة البابا لمدينة القنيطرة المحرّرة، وضمّت كلاً من السادة ناصر قنديل، ومروان فارس، ومخائيل عوض من لبنان، وأنا من سورية. ولكم يؤسفني أن أضيف، أنّ ذلك حدث في الوقت الذي استُبعدتُ فيه عمداً وكلّيّاً، مع جوقة الفرح، من قبل السلطات الكنسية المنظّمة لهذه الزيارة، من جميع فعالياتها!

وفي عام 1997، وجدتُني أمام مبادرة، جاءتني من أحد أقرب الناس إليّ، روحاً وفكراً والتزاماً، وهو المفكر والكاتب المبدع، أديب مصلح، إذ سألني إطلاعه على جميع ما كنتُ كتبتُ حتى ذلك الحين، ما نُشر منه، وما لم يُنشر. وكان أن اختار نصوصاً استأذنني في طباعتها في لبنان، على نفقته الخاصة، في كتاب، لم يشأ أن يُذكَر اسمه فيه، وقد وجد في كلماته دفقاً قوياً وحيّاً، أبى له أن يظلّ طيّ المجهول... فكان كتاب "ومن الكلمات بعضها..."، وهو حقّاً من أحب كتبي إليّ وإلى قرّائي!

وفي عام 2004، وجدتُني أمام مبادرة أخرى، طيبة، قامت بها الدكتورة جورجيت عطية، حيث طبعت لي في بيروت، كتاباً جديداً، وضع مقدمته الطويلة، صديق العمر، أنطون المقدسي، وهو بعنوان "من أجل فلسطين". وكان أن جاءني هذا الكتاب الجديد، بصداقة جديدة، كانت من أغلى وأغنى صداقات حياتي، وقد حدث ذلك عندما فاجأني الدكتور جورج حبش، بهاتف يُبدي فيه رغبته في لقائي، ويعتذر في الوقت نفسه عن عدم قدرته على القيام بزيارتي. فما كان منّي إلا أن بادرت إليه في مكتبه المتواضع. وقد بتّ، بعد ذلك، أزوره في انتظام، كلّما قدِم إلى دمشق، أو كلّما مضيتُ إلى عمّان. ولكم أسعدني أن يدعوني للمشاركة في بعض حلقات البحث التي كانت الجبهة تنظمها بين حين وآخر... ثمّ كان يوم أبدى فيه رغبته لي، في طباعة مقالات لي، أعالج فيها القضية الفلسطينية. وقد قدّم له بنفسه، وصدر الكتاب عام 2006، ضمن منشورات "الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين"، تحت عنوان "أمن أجل فلسطين وحدها؟". وإنه ليسرّني أن أذكر الآن، أني كنت من المشاركين في الكتاب الذي أصدرته "الجبهة"، بعد سنة على وفاته، تحت عنوان (الحكيم، جورج حبش... حكاية وطن). وأما بحثي، فكان يحمل هذا العنوان (هلاّ سرّعتَ الخطى، أيها الغرب!).

وفي حديثي عن نشر بعض مؤلفاتي، تستوقفني حادثةٌ أرى ضرورة الحديث عنها. فقد كنت تعرّفت منذ أكثر من أربعة عقود، على صاحب مطبعة، يدعى إنصاف الطرابلسي... وتعمقت الصداقة بيننا. وكان أن زارني من جديد، في مطلع عام 2008، وحدّثني عن بعض المصاعب التي عانى منها مع صاحب العقار الذي فيه مطبعته، وكان كاهناً... فصارحني أبو أمجد أنه، طوال فترة الخلاف مع هذا الكاهن، ألِفَ، وهو ماضٍ في الصباح إلى عمله، وهو عائدٌ منه في المساء إلى بيته، أن يمرّ بالصوفانية، ويتوقّف مقابل الأيقونة العجائبية، ويقول لها هذه العبارة فقط: "يا أمي، ابنك يعذبني!" وفجأة بعد قرابة ثلاثة أسابيع، عادت الأمور إلى أحسن ممّا كانت عليه قبل نشوب الخلاف... والغريب في الأمر، أن أيّاً منّا لم يكن يعرف حقيقة علاقة الآخر بالصوفانية. فصارحته بفرحي لموقفه منها، وحدّثته عن التزامي العميق بها، وعن تصميمي على طباعة كتاب جديد حولها، أرجو له أن يكون شهادةً وافيةً وجامعةً لهذا الحدث الفريد، الذي خصّ به الله دمشق، في زمننا المضطرب. فجاءني ردّ فعله في كلمة صاعقة صادقة، بحجم كلمته الأولى أمام الأيقونة! قال: "أبونا، هذا الكتاب لن يطبعه أحد سواي، لأنه كتاب أمي!"... أجل، هكذا تكلّم، ولكن، بالطبع، باللغة العامية.

يا سكان الغرب الأغبياء، أتسمعون؟ هذه لغة مسلم من بلادي!

وإنها لتذكّرني بكلمة أخرى قالها لي ذات يوم من عام 1968، أحد كبار المثقفين اللبنانيين، وهو الأب ميشل حايك، يوم كان يدرّس في جامعات باريس، إذ كنت أزوره مع صديقي وابني جورج حورانية، ونتبادل الرأي بشأن علاقات الشرق العربي بالغرب. قال، وقد رسخت كلمته هذه في أعماقي للتو: "أبونا الياس، تبيّن لي بعد طول معرفة وخبرة في الشرق العربي والغرب، أن حذاء أصغر فلاح في شرقنا، أفضل من رأس أكبر مثقّف في الغرب!".

ذلك كان بعضاً من شأن الكلمة المكتوبة والمنشورة، بالنسبة إلي. وثمّة جانب أثير لديّ، أجدني مدفوعاً تلقائيّاً لذكره. وأعني بذلك الكمّ الهائل من الكتب، التي كانت تُرسَل إليّ من هنا وهناك، فأغني بها فكري وأفقي ومكتبتي. بالطبع، كان معظمها يأتيني ممّن عرفتُ وأحببت وخدمت، ذات يوم، في دمشق أو حلب، أو بيروت، أو القاهرة، أو عمّان، أو فرنسا أو ألمانيا أو كندا أو أستراليا! وكان بعضها أيضاً يأتيني ممّن لم أعرف البتّة، وكانوا قد قرأوا لي بعض ما نُشِر بطريق البريد الإلكتروني. من هؤلاء يطيب لي أن أذكر اسماً واحداً فقط، شغل صاحبه مركزاً هاماً في هيئة الأمم المتحدة، ويشغل اليوم مركزاً مرموقاً في جامعات جنيف. إنه الباحث السويسري "جان زيغلر" (Jean ZIEGLER)، وقد أرسل لي عام 2009، كتاباً له جديداً وخطيراً، بعنوان "بغض الغرب" (La Haine de l'Occident)، الذي يكشف فيه عن ممارسات الغرب الظالمة، حيال الشعوب التي استعمرها خلال القرون الماضية، ويريد أن يواصل استعماره لها اليوم، بطرق أخرى... أكثر دهاءً وفتكاً!

لا بد لي أيضاً من أن أشير، وأنا بصدد الحديث عن الكلمة المكتوبة، إلى المبادرة التي بدأها الشاب أديب سلطانة، إذ فتح صفحة لي في ما يسمى "الفيسبوك"، أولاً دون علم أو استئذان مني، ثمّ بموافقتي... وبعد فترة اشتركت معه بالإشراف عليها، إحدى الفتيات في دمشق، واسمها ناديا نقولا، وبالتعاون مع الدكتور سعيد طحان... وشيئاً فشيئاً باتت هذه الصفحة تضمّ ما يقع عليه اختيارهم جميعاً، ممّا كتبتُ في السابق، أو أكتب حالياً، أو ممّا قلت في عظاتي السابقة، في قلب الجحيم التي أُشعلت في سورية... ويبقى السؤال الملح: ما مصير هذه الكلمة؟ وما مدى تأثيرها؟ ترى، هل في العالم كلّه اليوم، مَن يستطيع أن يدرك مدى تسرّب الكلمة وتأثيرها، عبر مختلف وسائل الاتصال الحديثة؟ على كل حال، ليس لي أن أعرف! ثم إنّ الأمر ليس بيدي، حتى لو شئت أن أعرف. إنما عليّ فقط أن أقول كلمة حقّ وحبّ، حيث يجب أن أقولها، وكما يُملِي عليّ وجداني أن أفعل. أما كان هو، يسوع، ابن فلسطين،

بكلّيّتـه، كلمـة حـبّ وحـقّ؟ وإنـي لأقولهـا، حتـى لـو لم يتجـاوز تأثيرهـا، مـا لحصـاة صغيرة من تأثير، عندما تُلقى في محيط!

ثمّة بُعد آخر للكلمة، أرى لزاماً عليّ أن أذكره، حتـى لـو بـدا ذلـك أمـراً في غايـة المبالغة أو الاستنتاج، وإنّه ليصبّ في الزمن الذي تعيش فيه سورية اليوم، في قلب الواقع، بل هو ينقل الكلمة إلى فعل ملموس، يقرّب مَن يحملها، من يسوع ومن كل ما دعا إليه من حب واقعي وتضحية عملية. أقول ذلك، وأنا أذكر وأستحضر مَن كانوا يحيطون بي في دمشق، منذ أكثر من ثلاثين عاماً، من ناشطين اجتماعيين، من رجال ونساء، وشبّان وشابّات، بينهم المسيحي والمسلم، الذين كانوا يأتوني بفعل الكلمة، التي كنت أحملها وأعلنها، وأكتبها وأنشرها، والذين كانوا يهبّون طوعاً لخدمات إنسانية صرف، في الظروف العادية، كما في الظروف الاستثنائية التي تعصف بسورية اليوم... ولكم من اسم مثير اتّخذوا لهم، ليعبّروا عمّا كانوا، وما زالوا، يعيشون، ضمن هذه المجموعات، من إيثار وتضحية وتفانٍ. فهؤلاء شكّلوا "صندوق الإخوة"، ونالوا الترخيص لجمعيّتهم... وأولئك اختاروا اسم "يداً بيد"، وظلّوا يواصلون نشاطهم اليومي والكثيف، بعيداً عن أي ترخيص، قد يقيّد حركتهم الإنسانية. وآخرون، وقد هبّوا واقفين في قلب الجحيم الراهنة، اختاروا تسمية لهم فيها كلّ الحب، وكلّ التحدّي، وكلّ التحريض، إذ هي تعلن "هيك تربّينا". وكانت الحاجات بادئ الأمر، عادية، إلا أنّ المال لم ينقصنا، وكأني بيد خفية ساهرة، شاءت دائماً أن تحمله لنا من قريب، ومن بعيد... وعندما اتّسع الرعب، وعمّ الخراب والحقد، ظلّت الأموال تتدفّق، بقدرة قادر، من المحبّين الواثقين، من داخل سورية، ومن خارجها، على امتداد العالم. وكان حاملوها أو مرسلوها، مسيحيّين ومسلمين، لا فرق، وقد سكن الله، بكلّ رحمته ومحبّته وسعته، في قلوبهم وأياديهم وعيونهم! وكان يبعث فيّ راحة لا توصف، يقينُهم المطلق بأنّ ما يقدّمون، يُنفَق في أمانة تامّة. حتى إني بتّ، وأنا الآن في حريصا، في لبنان، أكتب اعترافاتي هذه، أُحيلُهم، وأنا في طمأنينة تامّة، إلى هذا أو هذه، ممّن يحملون اسم "أم فادي"، أو "كلير" أو "رباب" أو "عبد الرحمن" أو "ريتا" أو "باسل" أو "فاديا" أو "سعيد" أو "هاسميك" أو "عبدالله" أو "نهال" أو "رنا" أو "ميّا" أو "ريما"... ممّن يواصلون العمل الإنساني في دمشق، وخارج دمشق، مع جميع هذه المجموعات دون استثناء، وسواها... ولكم يطيب لي الآن، أن أخترق الأعراف، فأذكر، دون الاستئذان من أحد، قائمة واحدة، تضمّ أسماء المتبرّعين وقيمة تبرّعاتهم، خلال أربعة أيام فقط، سبقت مغادرتي دمشق إلى لبنان! وقد

ائتمنت عليها من كنت أأتمنهم على مبالغ سابقة ألفوا أن يوزّعوها على أصحاب الحاجة بمنتهى الأمانة:

	أسماء المتبرعين	المبالغ المتبرع بها		تاريخ التبرع
1	لينا يازجي زوجة د. جوزيف عبدلكي	50,000	ل.س.	2012/12/20
2	غسان مجلي القائد	357,000	ل.س.	2012/12/21
3	فرنسيس جوزيف دمّر	20,000	ل.س.	2012/12/21
4	سهيل ميشل خوري	25,000	ل.س.	2012/12/21
5	جوزيف انطون ابركسيا	10,000	ل.س.	2012/12/21
6	سامي بستاني (بيد د. مي كويتر البطل)	197,000	ل.س.	2012/12/22
7	مي عبيد العبسي	25,000	ل.س.	2012/12/23
8	الآنسة رانيا نصرالله وصديقتها رولا كردوس	200,000	ل.س.	2012/12/23
9	ماري ابنة جورجيت صليبا	60,000	ل.س.	2012/12/23
10	كنان ريشان	10,000	ل.س.	2012/12/23
11	باسل حنا	5,000	ل.س.	مساهمة شهرية منذ سنوات
12	د. ماريا قروشان بواسطة مي عبيد	8,00	$	2012/12/23

وإني، إذ أتذكّر وأذكُر كل هذا الدفق الإنساني النبيل، يتجلّى في أعتى الظروف التي تواجه سورية والإنسان السوري اليوم، لا يسعني إلا أن أعود بالذاكرة إلى حادثة فذّة، انغرست عميقاً فيها. وكانت "بطلتها" طالبة جامعية من قسم اللغة الفرنسية تدعى رندا شهاب، وقد فوجئت بنبأ وفاتها في الرابع والعشرين من شهر تشرين الثاني من عام 2011. وهنا، هنا بالذات، يطيب لي أن أروي هذه الحادثة...

عرفت رندا في نطاق اللغة اللاتينية، التي كانت تخشاها، كما معظم التلاميذ، وكأنها الكابوس! هذه الصبية كانت تحبّ الصلاة، وكنت كثيراً ما أراها في القدّاس اليومي وتتقدم من التناول. وما كانت لتمتنع أحياناً عن طرح بعض الأسئلة الدينية عليّ... وقد تبيّن لي أنها تمتلك عمقاً روحيّاً وإنسانيّاً، غير عادي. وقد تكون لاحظت وجود عدد من الناس يقصدونني بعد القدّاس، أحياناً، لطلب مساعدة ما... فباتت بدورها تقدّم لي بكل خفر، بعض الدعم المادي من أجل هؤلاء... وكان بينهم رجل يُدعى عبد الرحمن غريب، وقد اعتاد أن يأتيني بين فترة وأخرى، من اللاذقية، حيث تسنّى لي أن أزوره في بيته في إحدى ضواحيها، مع صديق لي يدعى رشيد الياس، فوجدته يتخبّط مع أسرته في وضع بائس للغاية... وكان يغادر اللاذقية ليلاً، ليصل

إلى دمشق باكراً، فيأتي إلى الكنيسة، قبل قدّاس الساعة السابعة، كي يأخذ "حصته"، ويعود في اليوم نفسه إلى أسرته. وجاءني ذات يوم على عادته قبل القدّاس، فانقبض قلبي إذ رأيته في الكنيسة، ولم يكن لديّ، يومها، ما أقدّمه له... وأقمت القدّاس، وفي ختامه تقدّمت منه وحيّيته، ثم اقتدته إلى مكتبي، وأنا في حيرة من أمري... ماذا أعمل؟ وأنا لم أسمح يوماً لنفسي بطلب أي شيء من أحد!... وتبعتنا رندا إلى المكتب، وقد تكون لاحظت ارتباكي، فاستأذنتني لسؤاله: فكان على عادته خجولاً، لا يعرف سوى التلفّظ بحمد الله على كل شيء! فرويت لها قصّته باقتضاب كبير. وصارحتها بعجزي في ذاك النهار، عن تقديم أي شيء له... فسألَتْه إن كان بوسعه أن يؤخر بضع ساعات عودته إلى اللاذقية، وحدّدت له الوقت، إلى ما بعد الساعة العاشرة والنصف، فأبدى موافقته. فسألَتْه أن يلقاها في مكتبي بعد العاشرة والنصف، وخرجت.

وبعيد العاشرة والنصف، قَدِم عبد الرحمن من جديد، ثم جاءت رندا مبتسمة. وقدّمت له مغلّفاً كثيفاً بعض الشيء، وهي تقول له: "بس ادعُ لي، وادعُ لأبونا!" فخرج دون أن يفتح المغلف، وهو باسط ذراعيه في دعاء...

وعند إلحاحي، أخبرتني رندا أنها مضت إلى سوق الصاغة، وباعت سواراً كانت بيدها، وقدمت له الثمن كاملاً... وكان أربعة آلاف وخمسمائة ل.س... كان ذلك في منتصف السبعينيات!

ومضت السنون...

وفي يوم الرابع والعشرين من شهر تشرين الثاني من عام 2011، بُلّغت نبأ وفاة رندا... كان دفنها في بلدة أهلها، في عين عجوز، في وادي النصارى... فمضيت لأشارك في صلاة الجناز... وصلت قبل الصلاة، ولما كان جثمانها قد سُجّي في الكنيسة، سألت والدها أن يسمح لي بإلقاء نظرة عليها والصلاة من أجلها... وفي الكنيسة، شاهدت رندا مسجّاةً في التابوت، ولكني فوجئت بما شاهدت: كانت رندا ترقد في تابوتها، وكفّها اليمنى منبسطة كليّاً!... وعلمت من والدها، أنهم عندما تفقّدوها صباحاً في غرفتها، وجدوها قد فارقت الحياة، وكفّها اليمنى على حالها، كما كانت في التابوت. وعبثاً حاولوا إطباق هذه الكف المنبسطة، وضمّها إلى اليد اليسرى.

أجل، كانت رندا باسطةً كفّها في رقادها الأخير، كما في حياتها!

وأما عبد الرحمن غريب، فقد حمل لي ذات يوم، صورة صغيرة للطفل يسوع وقد احتفظت بها حتى اليوم، وهي موضوعة في إطار بسيط، وقد كتب خلفها بخط يده هذه العبارة:

"هذه الصورة المباركة، الغالية، تقدمة من عبد الرحمن غريب إلى أبونا السيّد الياس زحلاوي المحترم".

وقد رأيت بدوري أن أكتب يومها تحت أسطر عبد الرحمن، هذه الكلمات:

"جاءتني هذه الهدية من إنسان علّمني الكثير الكثير...

في يوم عيد المعلم، وهي صورة المعلم الأكبر والأوحد، يسوع، يعلّم، فتياً، كبار "علماء" بني إسرائيل في الهيكل". في 1990/3/9.

وضمن هذا السياق الرحب والإنساني، لا يسعني إلا أن أروي ما حدث لي ذات يوم، من أيام أيلول القاسية، عام 2011.

جاء مَن يستدعيني لزيارة مريض مدنف، يدعى إبراهيم فريج، في مشفى الأسد الجامعي بدمشق، والصلاة من أجله.

وفي المشفى، قرب المصاعد الكهربائيّة، كان الازدحام كبيراً. فأخذت أجيل النظر في الناس، بين قادم وذاهب. وإذ بي أبصر رجلاً وافداً من بعيد، وقد بدا لي أنّه كان ينظر في اتجاهي. ثمّ فوجئت به، وقد بات على مقربةٍ مني، وقد ارتاحت أسارير وجهه، فحثّ الخطى نحوي، وافترّ ثغره عن ابتسامةٍ عريضةٍ، ثمّ، إذ وصل إليّ، بسط يديه وضمّني إلى صدره بحرارة، وهو يقول في نبرة مسّت شغاف قلبي: "أب الياس، أنت في قلبي وفي قلب كلّ مسلم في هذا البلد!" ما كنت لأعرفه! إلا أنّ كلامه غمرني بفرح عارمٍ، ورجاء كبير! وكان أن أخرج على الفور، من جيب سترته، بطاقة صغيرة، وهو يقول: "أب الياس، أنا الدكتور أيسر أحمد الصالح، اختصاص عصبية من ألمانيا الغربية، وأنا هنا منذ 12 سنة. أرجوك ألا توفّرني، أيّة كانت الخدمة التي تريدها. أنت لا تطلب مني، بل تأمرني!" فقدّمت له أيضاً بطاقتي الشخصيّة، وأعربت له عن شكري وسعادتي بلقائه، وافترقنا في تأثّرٍ واضح...

وحدث، بعد يومين بالضبط، أن اتصل بي مطران الروم الكاثوليك من حلب، صديقي يوحنا جانبرت، ليسألني خدمةً من أجل مريض بحاجة لمراجعة عاجلة جداً، في قسم الأمراض العصبية في مشفى الأسد الجامعي إيّاه، وقد أُعطي موعداً بعد شهر، يخشى أن يقضي خلاله!

فاستفسرت عن اسم المريض، واتصلت على الفور بالدكتور أيسر، وإذ به يسألني إحضار المريض في أقرب وقت ممكن!

وفي عودة أخيرة إلى الكلمة، أرى لزاماً عليّ أن أتوقّف عند الكلمة المغنّاة والمرنّمة، التي عرفناها في جوقة الفرح منذ عام 1985، مع وديع الصافي، وفيما

بعـد، منـذ عـام 1998، مـع زكـي ناصـيف... فمنـذ ذلـك الحـين اكتسـبت كلمتنـا المغنّـاة والمرنمـة، سـعةً وآفاقـاً، أطلقتنـا مـن نطـاق الكنـائس الضـيق، علـى رحابتـه الروحيـة، إلى رحـــاب الإنســـان العربـــي والمســـلم أوّلاً، ثـــمّ إلى رحـــاب الإنســـان الغربـــي، في جــولات كــثيرة لنــا، قادتنــا إلى العديــد مــن البلــدان الأوروبيــة، ثــمّ إلى أســتراليا، وأخـيراً إلى الولايـات المتحـدة الأميركيـة. وقـد كنّـا في كـلّ ذلـك نسـعى لبنـاء جسـور التعارف والإعجاب والأخوة والاحترام... بين البشر جميعاً.

ثمّ كان يـوم، جاءني فيه صديق يدعى طوني فـرح، لينقل إليّ رغبةً غاليـة، مـن إنسـان كنـتُ أكـنّ لـه احترامـاً عظيمـاً، وأنـا أترقّـب فرصـة طبيعيـة تجمعنـي بـه، هـو الشيخ المنشد حمزة شكّور. وكان أن التقينـا في عـام 2001، الـذي كـان عـام شـؤم علـى العـالم بأسـره، ولا سيما علـى العـالم العربـي والإسلامي. وبـدأنا معـاً، مشـروعاً ضـمّ "جوقة الفـرح" و"رابطـة منشـدي مسـجد بنـي أميـة الكـبير"، شئنا أن نفـتح فيـه دربـاً نورانيّاً جديداً في سورية، ومن ثمّ مـن سـورية إلى العـالم. وكانـت البدايـة أمسـية غـير مسبوقة، أنشدت فيه الجوقتان معاً، في باحة كنيسة حارة الزيتون، في تسبيح لمـن لـه الحمـد وحـده، وفي دعـوة للمحبـة بـين النـاس جميعـاً. كـان ذلـك مسـاء 2001/9/27. وتواصل دربنـا في إضـاءات ضـمّتنا في دمشـق، وحلـب، وحمـص، وبـيروت، وذلـك طـوال عشر سنوات ونيف. وكنّا نُعدّ معاً لجولات حول العـالم، لبنـاء جسـور الإخـوّة والمحبّـة بـين سـورية والعـالم، عنـدما لبّـى الشـيخ حمـزة شـكور نـداء ربّـه ليلـة (2009/2/4). ففقدنا فيه رائداً فذّاً من رواد الحوار الديني والإنساني، علـى نطـاق العـالم العربـي خاصة، وعلـى نطـاق العـالم عامّـة. وإنّ مـا حـدث بعـد ذلـك، ويحـدث في سـورية، منـذ ذلـك الحـين، ليزيـدنا إصـراراً علـى السـير في النـهج نفسـه، مـع شـريك دربـه الـوفي، السيّد هشام الخطيب، ومع فرقة "تهليلة للإنشاد الديني"، التي كانا قـد أنشـآها معـاً. وإنّ مسعانا المشترك هـذا، ليرمي دائماً إلى نشر النور والإخـاء والاحـترام بـين البشـر جميعاً، بدءاً من مجتمعنا العربي، في سورية وخارجها.

في ختام هـذا الفصـل، الـذي أثـرت فيـه مختلـف الأبعـاد الكامنـة في الكلمـة، الكلمـة المقولـة والمكتوبـة والمرنّمـة علـى السـواء، أودّ أن أذكـر حادثـة ذات دلالـة عظيمـة، إذ هـي، كما أرى، تتوّج وتثبّت الحقائق الروحية والإنسانيّة، المتعدّدة والمتكاملـة، الـتي حاولـت أن أرسم خطوطها فيه.

ذات يوم من عام 2011، كانت إحدى مسؤولات جوقة الفرح، واسمها كلوديا توما، في رحلة مع مجموعة من أطفال الجوقة، إلى مدينة السويداء بجبل العرب. فقامت، ومَن

معها، بزيارة محترَف الفنان النحات فؤاد أبو عساف. فاستُقبِلوا كلّهم بحرارة أبناء الجبل المعهودة. وأخذوا يتجوّلون في دهشة عارمة، عبر المحترَف المكتظّ بمنحوتات بازلتيّة متنوّعة، انتزعت إعجاب الكبار والصغار معاً. وأخيراً، عرف الفنان فؤاد أبو عساف أنه إزاء مجموعة من جوقة الفرح، فما كان منه إلا أن رجاهم حمل منحوتة كبيرة، "للأب الياس"، تمثّل رأس السيّد المسيح، في أبهى وأرقّ ما يسع المرء أن يقرأ في ملامحه البازلتية، من حنوّ وشفافيّة ومحبّة وسلام... وقد تقبّلتُ واستقبلتُ يومها، هذه المنحوتة الخارقة، بدهشة تزداد تأجّجاً، يوماً بعد يوم، كلّما استقطَبَت نظري. فأحللتها الصدر من غرفتي وقلبي. وكان أن احتلّ الفنان النحّات فؤاد أبو عساف، في اللحظة عينها، الصدر من قلبي وروحي، وما كانت عيناي بعد قد رأتاه، ولا أذناي سمعتا صوته. ولكم أسعدني أن أحمل له بعد أيام قليلة، في إطار خشبيٍّ دافئ، أيقونة للفنان الروسي العظيم، "أندريه روبليف"، تمثّل وجه السيّد المسيح، وقد صعقني منذ اللحظة الأولى، الشبه المدهش، القائم بين هذه الأيقونة وبين منحوتته البازلتيّة، على ما بين هذين الفنانين الكبيرين، من فارق شاسع، في الزمان والمكان والثقافة! وبدورها احتلّت أيقونة وجه السيّد المسيح، صدر غرفة مَن بات صديقاً وأخاً غالياً لي، الفنان فؤاد أبو عساف!

فهل ثمّة من فارق بين قلبين، وحّدهما عشق الجمال الإلهي؟!

الفصل السّابع عشر

فرسان المحبّـة

عام 1980

حديثي عن هذه المجموعة، سيختلف كلّياً، من حيث الأسلوب، عمّا كتبت حتى الآن، وعمّا سأكتبه.

ذلك بأني سأوجز نشأة هذه المجموعة، كما عشتها وخبرتها، وساعدت على انطلاقتها، لأني، في حقيقة الأمر، لم أكن أنا من زرع هذه النبتة، بقدر ما كانت هي التي زرعت ذاتها بذاتها، ولكن بيدي. مفارقة؟ أترك للقارئ الحكم!

دعوني أوّلاً أحدّثكم عن القليل الذي كان لي فيها.

ثم أترككم تستكشفون حقيقة فرسان المحبة، وآلية عملها ومراميها، من خلال ما كتب أحد أهم بُناتها، وهو اليوم المهندس رامي سابا، شقيق بانيها الأول، الدكتور ناجي سابا.

في صبيحة يوم صيفي من عام 1980، جاءتني مجموعة صغيرة من شبان وشابات، تسألني أن أنظّم لها نشاطاً، شبيهاً بسائر النشاطات، التي نبتت في كنيسة سيدة دمشق. وكان أفرادها قد ضاقوا ذرعاً بأنفسهم، وانعتقوا من عادة التسكّع الفارغ، في منطقة الغساني الشهيرة، حيث كانوا يمضون الساعات، وهم يسندون الجدران بظهورهم، ويحدّقون بالمارة، ويثرثرون دون طائل! وقد أكّدوا لي أنّ الكثيرين من أمثالهم، ينتظرون بادرة إيجابية، لينضمّوا إليهم في عمل يشعرهم بقيمتهم.

في اليوم عينه، استدعيت ناجي سابا، وكان إذ ذاك في الثامنة عشرة من عمره، وناجي هذا، سبق لي أن عرفته طفلاً، يوم كان يأتي مع أمّه وأخته وأخيه، ليشاركوا في القدّاس الذي كنت أقيمه مساء كلّ سبت، في بيت الراهبات الفرنسيسكانيات، في شارع "كورنيش التجارة"، القريب من كنيسة سيدة دمشق. وكنت بمرور الزمن، أسعد باكتشافي ما كان ينطوي عليه منذ طفولته، من إيمان وجدية، ونبل ورصانة. ولكم توسّمت فيه الخير... فأطلعته على رغبة تلك المجموعة، فرحّب بها أيّما ترحيب، لا سيما وأنه كان يعرف جيداً أصحابها. وكانوا كلّهم يقاربونه سنّاً ودراسة ووضعاً اجتماعياً... إلا أنه كان يمتاز عليهم بقوة شخصيته، وثقته العميقة بنفسه. فاجتمعنا

كلّنا من جديد، وتبادلنا الرأي بشأن ما يمكن فعله من عمل منظّم ومفيد... وأجمعنا على ضرورته، شريطة أن يكون جاداً، ليقتلع الشبيبة من لامبالاتها، ويعمّق فيها الإحساس بقيمتها، وينمّي لديها اليقين بقدرتها في المستقبل، على المساهمة في بناء الوطن، بيتاً وكنيسة ومجتمعاً.

كان كلّ شيء آنذاك، في طور النظريات والأماني. إلا أنّ الرغبة كانت صادقة. فقرّرنا أن نحاول، تاركين للعمل نفسه وللمستقبل معاً، أن يصقلا أحلامنا ويطوّراها. وبدا لنا أنّ خير ما يمكننا فعله آنذاك، هو الذهاب بضعة أيام، بعيداً عن دمشق، مع مجموعة تضمّ ما يقارب الأربعين شاباً وفتاة، ليتاح لنا التفكير وتبادل الآراء في هدوء، والصلاة في أجواء خالية من أي صخب، وقريبة من الطبيعة. فقد نوفّق عندها إلى بلورة مشروع يستحقّ اهتمامنا، وينطوي على أهداف واضحة وجذّابة، كفيلة بجذب الشبيبة إليها. وقد بدا لي، منذ الاجتماع الأول بهذه المجموعة، أنّ جميع أفرادها يرتاحون لناجي، ويميلون إلى الأخذ برأيه، ويحبّذون تسلّمه المسؤولية فيهم. وكان أن قرّرنا يومها بالفعل، توسيع المجموعة إلى الأربعين، ممّن هم في مثل سنّهم، حتى إذا ما اكتمل العدد، نعدّ العدّة للمضيّ إلى ديرنا... وكان أن حدّدت لهم الدير القائم في بلدة صافيتا، بعد أن كنتُ اتصلت بالأب يوسف صقر، وهو المسؤول عنه، وقد أبدى استعداده التام لاستضافتنا.

وبعد فترة وجيزة، وكنّا قد بلغنا الأربعين عدداً، مضينا إلى دير بلدة صافيتا. وقضينا فيه سبعة أيام، كانت زاخرة بالاكتشافات، على الأصعدة الإنسانية والاجتماعية والروحية. وقد قادتنا كلّها إلى رسم ما بدا لنا برنامج عمل، خلال ما تبقّى لنا من أيام الصيف، وفي الأشهر الأولى القادمة، من السنة الدراسية. وتمّ فيها اختيار عدد من المسؤولين، في هذا التنظيم الناشئ، على أن يكون ناجي في موقع المسؤولية الأولى فيه...

وكان ناجي من عشاق "رائد الحركة الكشفية" في العالم، المدعو "بادن باول". وكان أيضاً من عشاق يسوع. فآلى على نفسه أن يبني حركة شبيبية، تُتقن الجمع بين نمط الحياة الكشفية، بما فيه من تماسّ مباشر ودائم بالطبيعة الجميلة، ونمط الحياة المسيحية، بما يميّزه من نبل وتعاون، وفرح وسلام. وقد حرص على وضع المسؤولين، في صورة هذا التوجّه المزدوج والمتكامل، فوجد لديهم ترحيباً وتشجيعاً...

وأخذت الاجتماعات تُعقَد في "قاعة السواعد"، ضمن إيقاع أسبوعي، في حلقات تضمّ أعداداً محدّدة، ليسهل تفقّدها والتعامل معها. وكان الجميع من الحماس والاندفاع، بحيث كان الحضور دائماً منضبطاً، بل فرحاً بنشوى هذه الروابط

الجديدة، التي لم تعتّم أن شدّت الجميع إلى بعضهم البعض، فباتوا أشبه بأسرة واحدة. وكان ما يملأ هذه الأوقات، من فرح ونقاش وصلاة، وممارسات كشفية، جديداً على الجميع. ولم يكن بخافٍ عليّ مدى ما استفزّ هذا النمط من النشاط، لدى الشبّان والشابّات، من الشعور بقيمة الحضور والحوار والعمل المشترك. ولكم من مرة سمعتُ بعضهم يُعرب بمنتهى البساطة، عن نموّ شعوره بقيمته الذاتية، وبقيمة الوقت الذي كان يُمضيه في هذه الأجواء، الجديدة والمريحة والهادفة.

وقد ترافق هذا الشعور، الشخصي والجماعي، بمؤشّر واضح عن النضج الإنساني، الذي بلغه المشاركون في هذه الحلقات. وكان ذلك إحساساً متزايداً، ذكروه مراراً خلال عدد من الاجتماعات، بضرورة توسيع هذا النشاط، بحيث يشمل أيضاً شبيبة دونهم سناً، وما أكثرَهم ممّن لم يكونوا ليجدوا خارج البيت، مَن يلتفت إليهم. فقرّروا، بادئ ذي بدء، الاهتمام بطلاب من الصفوف الإعدادية، ونجحوا... ثم انتقلوا، بعد فترة أخرى، إلى دعوة طلاب من الصفوف الابتدائية... وكان تدفّق الأطفال ينمّ عن حاجات حقيقيّة، إلا أنّه كان يفيض عن قدرة المسؤولين على استيعابهم. فاضطرّ المسؤولون لتحديد الأعداد على مضض... ثمّ كان أن اختير مسؤولون جدد، بعد فترة، فتمّ استيعاب عدد أكبر...

تلك كانت، في عام 1980، بداية "فرسان المحبّة"... وإنهم ليواصلون مسيرتهم حتى اليوم من عام 2013، بكلّ أمانة وتصميم، دون أن يتفرّد أحد منهم، بمركز أو بمسؤولية. ومنذ ذلك الحين، لكم من مخيّم أقيم هنا وهناك في ربوع سورية، الآمنة والجميلة. ولكم من حلقات نقاش، عُقدت خلال عشرات المخيمات، تحت ظلال الأشجار! ولكم من قداديس وصلوات أُقيمت إبّان مغيب الشمس، أو على ضوء الشموع في هدأة الليل! ولكم من تلال ووديان شدّت هِمم الشبّان والشابّات، بل والأطفال، فقطعوها في انبهار متجدّد أمام سحر الطبيعة الهادئة والآمنة! ولكم من برنامج سنوي أو فصلي، جدّد تدفّق الفكر والحياة والفرح، في الكبار والصغار على السواء. ولكم من حيرة انتابت المسؤولين، قبل أن يتّخذوا لمجموعتهم هذه، تسمية "فرسان المحبّة"، التي تحمل في طياتها، على غرابتها، ما يحمل مسؤولوها في قلوبهم، من إيمان واستعداد للتضحية والعطاء. ولكم من مشروع دستور حاولوا أن يصوغوا، قبل أن يستقرّوا على دستور، يصون سلامة توجّههم الروحي والإنساني، وأهدافهم الاجتماعية والثقافية والوطنية، وآلية قيادتهم، بما يجب أن تتمتّع به من حرية وقبول والتزام في آن واحد. ولكم من إبداع ابتكروا، ليحفزوا لدى الجميع، أفضل الميزات الإنسانية والمسيحية والوطنية، حتى في قلب الجحيم التي تجتاح سورية منذ سنتين ونيف!

ولمن يسألني عن دوري، في نشوء وتطوّر، واستمرار "فرسان المحبّة"، أقول بكل وضوح وصراحة، إني كنت لهم كاهناً وحسب، أي، كما أرى، أباً وأخاً للجميع، في تكتّم واحترام تامّين. فكنت أصلّي معهم، ومن أجلهم. وكنت أوجّههم، إثر محاورتي لهم في أمورهم العامة. كما كنت مرشداً شخصيّاً للكثيرين والكثيرات منهم. ولذلك، قلت في مطلع حديثي عنهم، إنهم زرعوا ذواتهم بذواتهم، ولكن بيدي. ولا إخالني أجانب الحقيقة، إذا قلت باختصار، إني كنت دائماً حاضراً معهم، ولا سيما في فكري وصلاتي، حتى وخصوصاً عندما كنت ألمس رغبة لدى البعض في الاستقلال، في هذا الأمر أو ذاك، عنّي. ولقد حرصت باستمرار على أن أترك لهم وحدهم، جميع الشؤون الإدارية والتنظيمية، والمالية والترفيهية. وربّ قائل يقول: وماذا يتبقّى؟ جوابي على هذا السؤال، إنّما هو سؤال كبير أختزله بكلمة واحدة: والروح؟ أجل، الروح، ماذا عساك تعمل بها ولها؟ أفلا يبدو لك أنها قد تكون، بالنسبة إلى أيّ تنظيم، كل شيء؟!...

أخيراً ثمّة أمران أريد أن أختم بهما، ما أردت أن يعود لي من حديث عن "فرسان المحبّة":

الأول هو حقيقة واقعية وقاطعة، قلما ينتبه لها أحد: عرفت من "فرسان المحبّة"، العشرات ممّن سافروا إلى الولايات المتحدة وغيرها من البلدان، وتخصّصوا فيها، ثم استقرّوا فيها أيضاً، ما عدا ناجي سابا وأخاه رامي!... فما السر في عودتهما إلى سورية؟ هل مفتاح هذا السر في البيت الوالدي الرائع، الذي نشآ فيه؟ هل هو في أسرة "فرسان المحبّة"، التي رعياها بأحلى ما أُعطِيا من إيمان وذكاء، وتصميم وإخلاص؟ هل هو في المجالات الواسعة التي انفتحت أمامهما في أميركا، والتي تغلّب عليها كلّها، عشقُهما لسورية؟ هل هو أيضاً في ذلك كله؟ إنه لأمر مدهش حقّاً!

أما الثاني، فهو حقيقة اجتماعيّة، يؤلمني بعمق أن أذكرها وأثيرها. وهو تفشّي ما يسعني أن أسمّيه روح اللامبالاة، لدى معظم أهل الفتيان والفتيات والأطفال، الذين ينتمون إلى "فرسان المحبّة". وإني لا أذكر ذلك من باب الانتقاد وحسب، بل من باب الدعوة إلى الإصلاح الملحّ والضروري. وأهل الفرسان أدرى الناس بالمحاولات الكثيرة التي بذلتُها شخصيّاً، وبذلها مسؤولو الفرسان، عبثاً، على هذا الصعيد!

والآن، أترك القلم، في القسم الثاني من هذا الفصل، لمن كان بمثابة ابني وشريكي في خدمة "فرسان المحبّة"، وأعني به رامي سابا.

بالطبع، ليس لي أن أُخفي أني تردّدت كثيراً، بل كثيراً جدّاً، قبل أن ألجأ إلى الأسلوب الذي قرّرت اعتماده في هذا الفصل بالذات. وأنا أعرف يقيناً أن النص الذي سأُدرِجه بعد قليل، سيُثير الكثير من التساؤلات، ولن تكون كلّها مريحة.

يومها، إذ كنت أقيم القداس مع أسرة "فرسان المحبّة"، بناءً على طلبهم، بمناسبة بلوغي الخامسة والسبعين من العمر، لم أكن أتوقّع البتّة أن يقول أحد شيئاً ما... ولم أكن أدري أنّ رامي كتب نصّاً طويلاً، سيعمد إلى تلاوته علناً في الكنيسة، وأنا واقف أصغي إليه، وكأني به يُصرّ على تأبيني قبل وفاتي! ويومها، لكم خجلتُ إذ سمعتُ رامي يتلوه بصوته الجهوري الفخور، ليحيّيني كاهناً، أعلن أنه أحد أحبّ الناس إليه!

ها قد مضى على هذا النص ما يقارب ستّ سنوات. إلا أني كلّما أعدتُ قراءته، ينتابني شعور عارم بالفرح والشكر، إذ أكتشف مدى ما أعطاني الربّ يسوع أن أعطي رامي وأمثاله، من أبنائي وبناتي في دمشق وخارجها، من حيث أدري أو لا أدري. كما أني أكتشف في ذهول يذهب في تصاعد، أوّلاً، مدى حاجة الناس الشديدة إلى الكاهن، أجل إلى الكاهن، في زمن يُخيّل إليهم فيه، بحكم طغيان المادة والشهوة عليهم، أن يسوع بات أشبه بشريد تائه في صحراء البشر، فيما هو، في الواقع، حيّ في أعماقهم، يملأهم ويحرّكهم... وأكتشف ثانياً قدرة هؤلاء الناس بالذات، على التقاط تجلّيات حضور يسوع وفعله وحبّه، في ثنايا حياة الكاهن، الكبيرة والصغيرة، شاء أم أبى!

ههنا بالذات تكمن، في نظري، أهميّة هذا النص الذي كتبه رامي ذات يوم، وهو يظن أنه يخصّني وحدي. ولسوف يكتشف رامي، قبل غيره، أنّ ما كتبه وقاله في ذاك اليوم، إنما كان يخصّه هو، ويخصّ أمثاله، وكثيرين آخرين، قبل أن يخصّني!... ولذا أجدني أكرّر أنّ ما قد يُثيره نشر هذا النص، من تأويلات، حائرة أو سلبية، لا يعنيني البتّة، لا من قريب، ولا من بعيد! ومَن كانت له عينان تُتقن القراءة، فليقرأ... عساه يكتشف عندها ما كانت أسرة "فرسان المحبّة"، لجميع مَن عرفها وعاش فيها، وليكتشف أيضاً وخصوصاً، ما كان يسوع بالنسبة إلى كلّ منهم.

بالطبع، أنقل النص بحرفيته، كما تسلّمته من رامي.

« مساء الخير،

سيّدنا جوزيف عبسي، سيدنا جورج كويتر، أبونا الياس، حضرات الآباء الأجـــلاء، إخوتي مسؤولي أعضاء أسرة كنيسة سيدة دمشق، حضرات السيدات والسادة المدعوين.

نحتفل اليوم بعيد أبونا الياس الـــ 75 وهذا عيده الخاص به.

وبعيد أبونا الياس الـــ 50 أو 40 أو 30 أو الـــ 20 بالنسبة لكل واحد منـــا، بحســـب تاريخ بدء علاقته معه.

يكثر الكلام عن أبونا سيّما وأنّ لكل منا تجربته الخاصة معه.

لذلك سأكتفي بتجربتي أنا معه والتي تمتدّ لأكثر من 33 عاماً،

وإنني لعلى يقين أن ما سأذكره الآن يلمس كلّ واحد منّا نحن المجتمعين ههنا

فإنه ومهما اختلفت الطرق والتجارب، يبقى أبونا هو "الأبونا" لكل واحد منا. وتبقى هذه الكلمات - كمثيلاتها - نابعة من قلب كلّ من أبنائه.

بدأت معه من خلال قدّاس يوم السبت في بيت الراهبات الفرنسيسكانيات في منتصف السبعينيّات من القرن الماضي.

قدّاس كان يجمع من 20 إلى 30 شخصاً من عدة عائلات.

كنّا أطفالاً آنذاك، ولكنه دعانا لمشاركة بالقداس من خلال قراءة الطلبات والصلوات.

أتذكّر حماسنا المنقطع النظير للمشاركة، وتنافسنا لتقديم أفضل أداء.

كانت تلك بداياتنا معه.

ومع المسيح والكنيسة من خلاله.

ثم، كانت علاقته مع عائلتي (كما مع عائلات كثيرة)

علاقة كانت ولا تزال، قوية مع كل أفرادها في دمشق وخارجها.

لا بل يمكنني القول، بأنه أصبح ومنذ زمن طويل عضواً أساسياً فيها لما له من وجود قيّم وفعّال مع مختلف أعضائها.

ثم كانت كنيسة سيدة دمشق،

محطة طويلة لا تزال مستمرة وندعو لله جميعنا، أن تبقى وتقوى.

وعلاقة فيها مد وجزر يتمازجان بدون انقطاع.

لكن أبونا الياس، كان حاضراً معنا، منذ البدء وحتى يومنا هذا.

وقد طبعنا جميعاً بروحانيته التي لا تزال آثارها سائدة حتى يومنا هذا

من خلال كل هذه المحطات، كانت لأبونا بصمات وذكريات لا تُعد ولا تحصى.

هو أبونا أو أبتي بالنسبة لي، وأنا ابنه كما يدعوني دائماً

تطبعت شخصيتي بالكثير منه وهذا واضح جداً من خلال رؤيتي للإيمان ورسالة الحياة.

كما كان له دور كبير في تكوين الحس الوطني والإنساني لدي، والأثر العميق في قراراتي الخاصة والعامة

وإنني مفتخر كثيراً بعلاقتنا المُحبة، الندية، الصريحة والبنّاءة.

عرفت الله منه قبل أي شخص آخر

الله المحب

الله الذي يظهر لنا من خلال كل مَن وما حولنا
الله الواحد لكنيسة واحدة
الله الذي لا ينسى أحداً مهما كان صغيراً.
والله الذي نُعاينه أحياناً لرغبتنا منه بالتدخل أكثر في حياتنا وكنيستنا.
مِن أبونا الياس عرفت معنى جديداً للصلاة والقداس.
في الثمانينات، كان قداس مساء الأحد محطة أساسية لكل واحد منا.
كان زاداً ولقاء هاماً مع الرب والجماعة المسيحية.
العظة والطلبات والصلوات، وترنيمة "نحن عبيدك" كانوا طقوساً نتابعها بلهفة وشوق.
وفي التسعينيات، كان سجود الخميس.
مناجاة عفوية، وصلوات نابعة من القلب إلى الرب.
ترانيم حنونة بأصوات شجية تنساب مرة مع الغيتار وأخرى مع العود.
وإن ننسى، فلا ننسى صلوات المخيمات الرائعة

كنا نجلس على التراب أمام هيكل صنعته أيادينا في حالة هي أقرب ما تكون إلى التماس مع الله تعالى

تحت ظلال الأشجار نراقب غروب الشمس شاكرين الرب على حياة مشتركة ملؤها المحبة قلّما نختبرها مع ضجيج المدينة وصخبها.

من خلال هذه المحطات وغيرها تعلمنا الصلاة الحقيقية، صلاة اللقاء مع يسوع والإصغاء له ولتعاليمه المقدسة.

عندما يصلي أبونا الياس، لا يمكنك إلا أن تفتح قلبك وفكرك لتتغلغل صلاته فيهما.
فهو حين يصلي، فإنما يصلي بكليته صوتاً ومشاعراً ووجداناً
فيسوع بالنسبة له هو كل شيء. وكل ما في أبونا، هو ليسوع.

كل كلمة تعني له الكثير، فتراه يتمعّن في اختيارها يساعده في ذلك امتلاك كبير للغة العربية

أبونا الياس هو من رموز الكنيسة الواحدة التي أرادها الرب.
يكاد لا يخلو كلامه، مهما كان موضوعه، من دعوة للكنيسة الواحدة.
ولا أعرف شخصاً كرّس حياته لهذه الرسالة التي زرعها فينا.
ونحن نفخر بأننا معه، وبفضله، نشكّل نواة لهذه الكنيسة.
عذراء الصوفانية، استأثرت بأبونا الياس وشغلته كثيراً

هي المعنى بالنسبة إليه، وهو لها، الحارس الأمين.

ارتبطت به وارتبط بها، إلى حد، يصعب فصلهما عن بعضهما البعض.

وكيف لا يكون ذلك وقد جسّدت له رغبة الرب المستمرة، ومن خلال العذراء أيضاً، بأن يكون معنا ويرشدنا إلى طريقه؟

وما أحوجنا إلى وجوده وإرشاده.

أبونا الياس هو صاحب المواقف...

لم أعرفه في حياتي كلّها يُتقن اللون الرمادي. هو أسود وأبيض.

فإما أن تكون معه أو ضده. ولكن، ما أن تسمح له بدخول قلبك، فلا بـــد أن تحبـــه حتى النهاية.

وهو في ذلك يتمثل بالرب الذي قال وعاش وبالحرف الواحد: "فليكن كلامكم نعـــم نعم ولا لا..."

منذ عرفته وحتى يومنا هذا، لم يقبل أي تنازل عن معتقداته وإيمانه. وصدّقوني إذا قلت لكم: أن ذلك متعب للغاية، فهو يسير عكس التيار دون كلل أو ملل.

نراه، في أصعب المواقف، جباراً لا يسمح لتفاهات هذا العالم أن تمسّه.

المال، نعرف كلنا موقفه منه وزهده به.

هو الذي لا يملك شيئاً، وغناه بنا وفينا.

السلطة، كان بإمكانه أن يتبوأ مناصباً ومراتباً عالية، لكنه فضّل غرفتـــه الصـــغيرة، في زاوية الكنيسة.

أبونا الياس هو مثال الاستقامة والأمانة

لا يضع يده في أمر إلا ويصبغه بهما.

يُقبل الناس على كل ما يرتبط باسمه بطمأنينة كاملة "إذا أبونا اليـــاس فيهـــا، مـــا في مشكلة"

قلائل جداً هم من يتمتعون بمصداقيته أمام مختلف فئات الناس وعلى اختلاف انتماءاتهم ومعتقداتهم.

أبونا هو المواطن الغيور

في عالم لا يعرف للمواطنة معنى سوى المصالح الضيقة

يجسّد صورة المواطن الحقيقي

يمد يده وكلّيته للمواطن الآخر، وبشكل دائم

فالآخر، مهما كان مختلفاً عنه، هو بالنسبة له صورة عن الرب يسوع لا يقـــدر إلا أن يتلقاها بفرح واحترام...

هو فعّال في أكثر من منظمة ومؤسسة وطنية

من اتحاد الكتاب إلى لجنة دعم الانتفاضة

رائد من رواد التآخي بين أبناء الوطن الواحد

حبه للوطن ودفاعه عن القضايا الإنسانية يُلهمان كل من يجتمع به، ولـــو دام اللقـــاء لدقائق معدودة فقط

كتابات أبونا صورة حقيقية عما يعيشه في كل لحظة

ترى بأمّ عينيك تداخل الروحانية المسيحية بالقضايا الإنسانية

وارتباط الإحساس بالمسؤولية بالفعل الجاد المثمر.

كتاباته، هي صوت صارخ في برية هذا الزمان، ودعوة لتجسيد القول بالفعل، وإرث كبير يضعه أمامنا وأمام الأجيال المقبلة لإتمامه معه.

يهتم أبونا كثيراً بأن يتابعني ويتابع تفاصيل حياتي كما أعلم أنه يفعل مع الكثيرين

فهو يدهشني بذاكرته العجيبة وقدرته على تذكّر أدق التفاصيل

فمن أعياد الميلاد إلى تذكّر الأسماء إلى متابعة الأمور من حيث توقفت، يؤكد أبونـــا على قيمة الإنسان الواقف أمامه.

وبشكل خاص، نحن الشباب والشابات

فقد كرّس أبونا الياس لنا حياته بشكل قلّ نظيره

وهو من أكثر الذين يحملون همومنا ويهتمون بمستقبلنا ورسالتنا

وأنا كذلك، أشكره باسم الحاضرين والغائبين (وما أكثرهم)

أبونا الياس،

قد تكون قد ضحيت بفكرة تكوين عائلتك الخاصة بك،

ولكنك من حيث تدري أو لا تدري كوّنت لنفسك عائلة كبيرة جداً

هؤلاء هم إخوتك، وأبناؤك وبناتك

وكلّهم يشكرون الله على نعمة خبرتهم معك، وعلى نعمة وجودك في حياتهم.

كلّهم يحبّون أن يدعونك "أبونا" وأن يستمروا بذلك

مضت حتى الآن خمس وسبعون سنة من عمرك، وقد قلت لي منذ أســبوع أنـــك لا تشعر بأنك قد وصلت لهذا العمر.

أُجيبك اليوم، بأنني وكلّ إخوتي ههنا لا نشعر بذلك أيضاً

لا بل أكثر من ذلك نقول لك أننا لا نريد لك أن تشعر بذلك

فوجودك معنا هام ولا غنى لنا عنه

وإنني أدعوك باسمنا جميعاً للاستمرار بيننا ومعنا في هذه الكنيسة "كنيسة سيدة دمشق"

التي هي نحن قبل أي شيء آخر، والتي لا يمكن أن تنسى أو تتخلى عمّن حملها في قلبه وعقله ووجدانه كما لم يفعل أي شخص آخر.

ندعو لك بطول العمر ونصلّي لله كي تبقى قادراً على المحبة والعطاء كمـــا عهـــدناك دائماً

كل عام وأنت بألف خير وصحة

واسمح لي بأن أختم مشاركتي وألخّص لك خبرتنا معك بكلمتين اســـتوحيتهما مـــن الإنجيل ومن قائد المائة بالذات، فأشير لك وأقول: "هو ذا الكاهن".

الله يخليلنا ياك

رامي سابا

30-12-2007 »

في ختام الحديث عن "فرسان المحبة"، لا يسعني إلا أن أتذكّر ذاك التمثال من خشب الأبنوس الأسود الرائع، الذي يمثّل رجلاً زنجيّاً، وقد تحوّل إلى ما يشبه شجرة ضخمة تسلّقت عليها حشود من الوجوه البشرية، وكأنها عناقيد أبنائه وبناته وأحفاده، فبات هو ركيزتها، وباتت هي ثمار حياته، وشجرات المستقبل. وقد رأيت في هذا التمثال ذاتي وجموع أبنائي وبناتي، الكثيرين، المنتشرين من دمشق، في أصقاع الأرض، والذين يسارعون إلى التجمع، كلّما قدمت إلى باريس، أو إلى مونتريال، أو إلى ألمانيا، أو إلى ديترويت، أو إلى واشنطن، أو إلى نيوجرسي، أو إلى استراليا، أو إلى دبي! وقد اقتنيته بسعر يكاد يكون رمزيّاً، من الكاهن المسؤول في دير الآباء البيض بباريس، الذي كان يفرح كثيراً، مع معظم الأباء المتواجدين فيه، كلّما رأوا حشود الشبّان والشابّات تملأ الدير حيويّةً، طوال فترة وجودي في ما بينهم!... وإنه لعمل فني رائع، صنعته يد إنسان عادي، مغمور، إذ كان قلبه البدائي... مغموراً بعشق الطبيعة والناس!

الفصل الثامن عشر

الحاجة القصوى في قلب جميع الحاجات: المحبّة

قد يستطيع أي إنسان أن يجد دائماً ما يبرّر تنصّله من حاجات الناس المادية، أية كانت. أمّا الكاهن، فلا، لأنه، بالغاً ما بلغ جهله أو بالأحرى تجاهله، لا يسعه أن ينسى كلمتين اثنتين ليسوع، تختزلان حياته كلّها، ومسؤولياته كلّها:

الأولى: "كل ما فعلتم بأحد إخوتي هؤلاء الصغار، بي أنا فعلتموه!

الثانية: "كل ما لم تفعلوه بأحد إخوتي هؤلاء الصغار، فبي أنا لم تفعلوه!" (متى 40/25 و45)

وفي دمشق، وجدتني باكراً في مواجهة يوميّة مع حاجات كثيرة، لم يكن لها ألا تنضب وحسب، بل كانت تتفاقم وتتنوّع وتتعمّق...

وقد ذكرت أني، قبل أن أصبح كاهناً عام 1959، كثيراً ما كنت أحاول تقديم بعض العون لإخوتي من سجناء القلعة في دمشق. ووجدتني شيئاً فشيئاً في حرج، علماً بأني كنت دائماً أربأ بنفسي أن أطلب شيئاً من أحد. فحاولت الاستعانة بجمعية معروفة ومشهورة، هي جمعية "مار منصور" الخيرية. وكان يرئسها يومها، رجل مسنّ ومحترم من حارتنا القديمة، يدعى حبيب زرقا. فتوقّعت استجابة سريعة منه. إلا أني، إبان مقابلتي الوحيدة له، في حضور عدد كبير من مسؤولي الجمعية، في قاعة كنيسة القدّيس كيرللس، اصطدمت معه، بسبب ما بدا لي عقليّةً تسلطيّةً وطائفيّة، تتعارض كلّيّاً مع ما هو معروف عن الأسس التي تقوم عليها جمعيّتهم. فخرجت من ذاك الاجتماع بقناعة جديدة، وهي الاعتماد مستقبلاً على الله وحده!

وبعد أن أصبحتُ كاهناً، وعدت إلى دمشق عام 1962، لاحظت أنّ الكثيرين يطرقون بابي. وكنت أحاول الاستجابة ما استطعت إلى ذلك سبيلاً. ولكني سرعان ما اكتشفت أنه لم يعد بوسعي أن ألبّي حاجات جميع من يقصدُني. وكان ذلك الواقع يسبب لي ألماً عميقاً، لأني كنت اعتدت أن أقول لنفسي: "لو كانت أختي محل هذه الصبية، أو أمي محل هذه المرأة، ماذا تراني كنت فعلت؟"... وكنت كثيراً ما أسمعني أقول للناس... عندما كنت صفر اليدين: "ادعوا، كي يرسل الله لكم ولغيركم!"

وذات يوم، بلغني أنّ صديق الطفولة، الدكتور فرنسوا دياب قد أصبح رئيساً لجمعية مار منصور الخيرية، فاستبشرت خيراً، وهنّأته هاتفيّاً. وإبّان أوّل حاجة كبيرة طُرحت عليّ، بعد ذلك، وجدتني أتّصل به لأسأله العون من "جمعيّته". فرحّب ترحيباً حارّاً، إلا أنه سألني بعض الإجراءات الإدارية "الضرورية". فسارعت إلى تنفيذها عبر مراجعات مستفيضة، لم تعد عليّ إلا بخمسين ليرة سورية آنذاك، وكانت دون الحاجة المطلوبة بما لا يُقاس... فوجدتني للمرة الثانية... والأخيرة، أقرّر الإعراض الكلّي مستقبلاً، عن أي طلب من أي جمعية خيرية، في سبيل الاعتماد على الله وحده! وفي الحقيقة هل من مُعتَمَد سواه؟!

ومنذ ذلك الحين، حاولت في تصميم قاطع، أن أواجه جميع الحالات، أياً كان حجمها، بكل ما أوتيت من إيمان وجهد وإمكانات... وقد تبيّن لي أن في ذلك، أوّلاً، وفاء لكهنوتي، ثم احتراماً لكل من كان يطرق بابي، وأخيراً استجابة سريعة وواقعيّة، لحاجته أو لبعضها. ولكم كان فرحي يترسّخ كلّما كان يُتاح لي أن أقدّم بعض العون، في ابتسامة وتكتّم تام. وأخذت في تلك الفترة بالذات، أكثر من السابق، ألمس لمس اليد حضور ما كنت أسمّيها "اليد الخفية"، سواء في أشكال العون الذي كان يأتيني، أو خصوصاً في طريقته وتوقيته. ولكم يسعدني أن أضيف في صدق مطلق، أنّه لم يكن لي في كلّ ذلك، أيّ فضل. وهنا يطيب لي أن أذكر اليوم أنّ أكثر من كان يمدّني بالعون الصامت، كان مطران حوران السابق، نيقولاوس نعمان، وكانت بعض زياراته لي تأتي في توقيت مدهش، كما حدث لي معه، إثر نشري مقالة في مجلة "النشرة العائليّة"، التي كان يصدرها في صافيتا الأب يوسف صقر، في عددها العاشر، عام 1974، تحت عنوان: "برسم بعضهم"!...

وظللت على هذه الحال سنوات طويلة، بعد أن أصبحتُ كاهن رعية عام 1977، في كنيسة سيدة دمشق، حيث كان يتاح لي في عظات كلّ أحد وكلّ عيد، أنّ أحدّث الناس في ضوء الإنجيل، عن مشاكل الناس وحاجاتهم، العادية والطارئة... ووجدتني أواجه تزايداً في الحاجات، كان أبداً يترافق بتزايد مطّرد ومفاجئ من المساعدات!

إنّ الحديث عن هذه المرحلة الطيبة والزاخرة، يذكّرني بالكثير الكثير من الحالات، التي تغمرني بالشكر الدائم لله وللمحبّين، كلّما تذكّرتها! وإني لأرجو أن يسمح لي بذكر أربع منها فقط، لا لشيء إلا للتذكير بفضل الله، الذي لا فضل قبله ولا بعده!

أولى هذه الحالات تخصّ سيّدةً مسلمةً كانت، كما شرحت لي، وكما تثبّت، تعمل في مؤسّسة "أبناء الشهداء" يوم كانت المسؤولة فيها السيّدة شهيرة فلوح. كانت هذه السيّدة تدعى "عطرية" (أم علي)، وقد بسطت لديّ وضع سكنها مع أطفالها الثلاثة في

منطقة قريبة من بلدة برزة، على نحو اضطرّني بعد يومين فقط لزيارتها مع صديق مهندس يدعى غسان خليل خوري، للاطلاع على واقع حالهم. فصُعقنا لما اكتشفنا من بؤس حقيقي على كلّ صعيد، ولكن أيضاً من نبل وإيمان مدهشين! وكنت آنذاك على وشك السفر إلى باريس بقصد المعالجة. فأطلعت بعض الأصدقاء، ومنهم صديقي أحمد الخطيب وأسرته، على أحوال هذه الأسرة، وما كنّا نرجوه لها، أقلّه من سكن لائق. فجُمعت في أيام قليلة (75000) ل.س. وعدت مع صديقي غسان خوري إلى البيت لأطمئِن أم علي وأسرتها إلى أنّنا جادّون في تهيئة سكن لائق لهم، حيث هم... وكان غسان قد قدّر تكاليف إعادة إعمار هذا السكن، بما لا يقلّ عن مائتين وخمسين ألف ليرة... فسلّمته المبلغ وسافرت. وبعد ثلاثة أسابيع، عدت، فاتصلت على الفور بغسان. فطمأنني، وبعد بضعة أيام، قمنا معاً بزيارة لهذه الأسرة، وكانت سعادتي لا توصف بما شاهدت من أمر البيت، وخصوصاً من أمر الفرح الذي كان يغمر العائلة.

ثانية هذه الحالات تخصّ صبيّةً من منطقة الكفرون، تُدعى سميرة العيد، وقد كانت تحتاج إلى طرفين اصطناعيين محلّ يديها المبتورتين! بالطبع لم أسألها عن سبب هذا البتر المزدوج، فحسبها ما كانت فيه، وقد نُصِحَت بالسفر إلى ألمانيا، كي يصار إلى تركيب الطرفين المناسبين لها. وبعد أن حصلت على كلّ ما يسعني الحصول عليه، من معلومات عنها وعن أهلها، قصدت أن أزورهم في الكفرون، وكنت برفقة صديق، هو الآخر مهندس، ويدعى سعيد يوسف الخوري... وهناك زرنا أهلها، وسألنا الكثيرين عنهم، فتبيّن لنا بؤسهم. فعدت إلى دمشق، وقابلت صديقاً عزيزاً آخر، يدعى شحادة الشيخ، وكان كثيراً ما يسافر إلى ألمانيا، فشرحت له قصة هذه الصبية، ورجوته الاهتمام بأمرها في ألمانيا. فوعدني بتولّي أقصى ما يمكنه من أمورها، كما لو كانت ابنته!. ثم قمنا بحملة لجمع التبرعات لها، من أجل إقامتها في ألمانيا... وسارت الأمور على أهون السبل. وبعد أشهر، عادت سميرة من ألمانيا، بطرفين اصطناعيين، تستطيع بهما أن تصافح الناس، وتحمل كأساً من الماء وصحناً الخ... وأقمنا لها حفل استقبال وتهنئة في "قاعة السواعد"، بحضور الكثيرين من الأصدقاء والمتبرعين!...

وثالثة هذه الحالات تخصّ طفلة تُدعى دينا، كانت في الرابعة عشرة من عمرها، عندما جاءتني بها أمّها، وقد شرحت لي أنّ طفلتها بحاجة إلى عمليّة جراحيّة في الدماغ، سوف تُجرى لها في الأردن، وكلفتها (12500) دولار أميركي آنذاك... وليس لديهم شيءٌ من هذا المبلغ. وكان ذلك منذ عشر سنوات. ولمّا لم يكن من عادتي أن أردّ أحداً، قلت لها: "اتكلي على الله!" وكنت، على عادتي، جادّاً في قولي.

وبعد يومين أو ثلاثة لا أكثر، جاءتني صبيّة من جوقة الفرح، تدعى دانيا غانم، وكانت عائدة مع والدتها من رحلة إلى أوروبا، حيث كانتا قد قضتا فترة من الزمن مع عمّ الصبية، الدكتور رولان غانم، المقيم منذ عشرات السنين في الولايات المتحدة. فبلّغتني دانيا تحيات عمّها، وقدّمت لي مغلّفاً كثيفاً، قالت إنّ عمّها أرسله لي. فقلت لها: افتحي المغلف. ففتحته، وإذ به يحتوي (9500) دولار عدّاً ونقداً. فابتسمت وشكرت للرب في أعماقي من أجل الطفلة دينا. وعندها، سمحت لنفسي أن أروي لدانيا قصة هذه الطفلة، وقلت لها: احتفظي بهذا المبلغ معك، ريثما يكتمل المبلغ المطلوب، بإذن الرب... وفي اليوم التالي، أجل، في اليوم التالي، وردني من كندا، بواسطة أحد الأصدقاء، رسالة من صديق آخر هو روجيه كحيل، وفيه مبلغ (1500) دولار. وفي المساء نفسه، مضيت أودّع صديقاً، وهو طبيب شاب مقيم في الولايات المتحدة، يدعى شادي خليل، وكان قد أمضى بضعة أيام عند أهله... وإذ به، إذ كنت أودّعه أمام ذويه، يقودني من يدي إلى غرفة مجاورة، ويُخرج مغلّفاً مغلقاً ويقول لي: هذا الظرف للمحتاجين. وكان فيه (2.000) دولار! بذلك كان مجموع ما جاءني في يومين أو ثلاثة (13000) دولار. كنت في ذروة الشكر والفرح ... فاستدعيت والدة الطفلة دينا وسلمتها المبلغ كاملاً... إلا أنّه كان يترتّب علينا أمر إخراج هذا المبلغ من سورية، يوم كان إخراج مائة دولار منها، يقود إلى السجن. وإذ كنت أستشير أحد الأصدقاء في التدبير النظامي المطلوب، ابتسم وقال لي: "لا تقلق هات المبلغ الكامل، وسأعطيك اسم وهاتف صديق لي في عمان، يعطي أهل الطفلة المبلغ إيّاه، ويساعدهم في أي أمر طارئ"... وهكذا كان. وقد أُجريت العملية الجراحية بنجاح... ولكم يطيب لي أن أذكر أن الطفلة لم تحتج منذ ذلك الحين، إلاّ إلى مراجعة طبيّة واحدة في عمّان، فيما هي تتناول حتى اليوم أدويتها... وقد باتت حياتها عادية، حتى إني علمت منها شخصيّاً، إذ شئت في 2013/8/2، أن أطمئنّ عليها، أنها تزاول حياتها الطبيعية، بعد أن أنهت دراستها الجامعية! وهي، في قلب الجحيم الراهنة، تمارس عملاً جيّداً!

أما رابعة هذه الحالات، فإنها لتطفو على سطح ذكرياتي، كلّما واجهت حالات من المرض أو الإعاقة، تصيب طفلاً. ذلك بأنّه كان لي صديقان في كندا، متقدّمان في السنّ، كنت أحرص، كلّما حملتني الظروف إلى "مونتريال"، على زيارتهما بصحبة صديقي وصديقهما روجيه كحيل. وهما هنري كبريتة وزوجته انطوانيت سويد. وكانا، على تقدّمهما في السن، على درجة مدهشة من الطيبة وسرعة البديهة وروح الدعابة. ولكم كانا شغوفين بتسقط أخبار "الشام". كما أني كنت أستمتع بما كانا يرويان

بدورهما ممّا كان عالقاً في ذاكرتهما النضرة، من "قصص الشام"، لا سيما وأن هنري هذا كان من روّاد الصيد، المعروفين في دمشق... وفي عام 1999، بلغني نبأ وفاتهما، بفارق أشهر قليلة بينهما. إلا أني فوجئت ذات يوم، وأنا في دمشق، بمن يحمل لي باسمهما، مبلغ (7.000) دولار أميركي، وعلمت أنهما خصّصاه لي في وصيتهما، وتركا لي أمر التصرف به... فأُتيح لي بذلك إنقاذ شاب... كان يشكو من التواء ولادي في عظم قدمه، وما كان من الممكن إجراء العمليات الجراحية الضرورية له، قبل بلوغه سن الثامنة عشرة!

بالطبع كنت سعيداً جداً بتقديم مثل هذه الخدمات وسواها، لكلّ من كان يطرق بابي، أياً كان دينه أو وطنه أو جنسه. فحسبي أنه إنسان، فضلاً عن أنه كان يمثل في نظري وإيماني، يسوع نفسه... ولكم اتّسعت مختلف الحاجات، ولا سيما النفسية منها، بمقدم إخوتنا العراقيّين إلى سورية. وهنا يطيب لي أن أذكر ما كانوا يتحلّون به، كلّهم، من عزّة نفسٍ وإيثارٍ حيال بعضهم البعض، على الرغم ممّا كانوا يعانون من غربة وضيق، وقلق على ذويهم! وهؤلاء، كان أقصى ما يسألوني من خدمة، الاتصال هاتفيّاً ببعض معارفهم في الولايات المتحدة الأميركية، وقد باتت محطّ أحلامهم، بعد أن كانت جلاّدهم وجلاّد شعوب الأرض!

وجاء يوم، بات فيه شعوري المتفاقم بضرورة تنظيم هذه الخدمات الإنسانية، ملحّاً لا يقاوم. فقرّرت توسيعه وتأطيره في عمل منظم، يشارك فيه متطوّعون ثابتون، بحيث لا يقوم عملهم على استقبال المحتاجين، وتوزيع ما يتوفّر لهم وحسب، بل على البحث عنهم، ودرس حاجاتهم في أماكن سكنهم، من أجل تقديم العون المرتقب لهم، من مال أو مأكل أو سكن أو عمل، في احترام تامّ، ودون أيّة منّة! وليس لي أن أخفي من خلال كلّ ما كنت أرى وأحدس و... أقرأ... أنّ ما قد يُخبّأ لسورية، قد يكون أكثر هولاً!

وتباحثت في هذا الشأن مع بعض من الشبّان والشابّات، فأبدوا كامل تقبّلهم لمثل هذه المبادرة، وقد صارحني بعضهم بأنه كان دائم القلق عليّ، من جراء هذه الخدمات المتواصلة منذ سنوات، والمتفاقمة أبداً... ثم رأيت أن أبسطها لكاهنَي كنيسة سيّدة دمشق، فأبدى المسؤول الأوّل فيهما تفهّمه، وقد ترجم هذا التفهّم، بموافقته الفورية على تخصيص أحد الصندوقين الموضوعين للتبرعات، في مزار السيّدة العذراء، تحت الاسم الذي اقترحته تسمية رسمية لهذا النشاط الجديد، وكان "صندوق الإخوة"، والمقصود بالإخوة كلّ إنسان دون استثناء. ووافق الكاهنان على توجيهي نداء إلى جميع المؤمنين، خلال صلاة جناز المسيح، التي تقام يوم الجمعة العظيمة من أسبوع الآلام،

لأشرح لهم الغاية من إحداث هذا النشاط، ولأدعوهم للانخراط الثابت فيه... وكان أن استجاب الكثيرون في حماس مثالي، وإن كان بعضهم، بعد فترة الهبّة الأولى، قد تناسوا كلّ شيء، كما هي الحال عندنا نحن العرب...

وتشكّلت "جمعية صندوق الإخوة"، وأخذت تعقد اجتماعاتها ضمن كنيسة سيّدة دمشق، وكنّا نفتتحها كلّها بتلاوة من الإنجيل المقدس، تذكّرنا أبداً بوجود الرب يسوع في كلّ إنسان محتاج، وبالتالي بحقيقة القول العربي الرائع: "من نِعَم الله علينا، حاجةُ الناس إلينا". وثبت عدد المتطوعين وتنامى فرحهم، بقدر ما كانوا ينشطون في خدماتهم. ولكنّا سرعان ما اكتشفنا أنّ هناك في حي الدويلعة، سيّدة سبقتنا منذ سنوات إلى هذا العمل الإنساني، في مبادرة يومية جعلتها تضع حياتها وبيتها، بل وأسرتها، في خدمة المحتاجين من حولها، وما أكثرهم في حي الدويلعة! كان اسمها منيرة الشاعر، وهي تُعرف بأم فادي! ولكم سرّني أن أعرف أنها تبدي الرغبة في انضمامها إلى "جمعيّتنا". فسارعت إلى التعرّف إليها، وإلى زوجها (رضوان الحمصي) وولديهما فادي وفراس... وقد تبيّن لي أنّهم جميعاً يؤيّدون هذا العمل العظيم، ويساهمون فيه، حتى إنهم خصّصوا في بيتهم غرفة واسعة، رتّبوا فيها على رفوف حديديّة، كلّ ما قد يحتاج إليه الفقير، من ثياب وحبوب، وأجبان وزيتون، ونشويات وصابون... كما عرفت أنّ هناك من الناس، مَن باتوا على علم بهذا العمل الكتوم واليومي، وأنهم يرسلون إلى "أم فادي" في سرية تامة، بين حين وآخر، المؤونة المطلوبة... وأما أم فادي وزوجها وولداها، فقد أدهشوني بابتسامتهم الدائمة، وجهوزيّتهم لكلّ خدمة ليلاً ونهاراً، دون تذمّر... واستقبالهم اللطيف لكلّ مَن يقرع الباب، أية كانت الساعة، أو يرى أن يتصل بهم هاتفياً... ولقد شعرتني منذ لقائي الأول بهم حتى اليوم، أنني أمام ما يشبه أسرةً للأم تيريزا، في قلب أفقر أحياء دمشق.

ولقد قادنا عملنا في "جمعية صندوق الإخوة" إلى اكتشاف آخر من هذا النمط بالذات، فوجدنا أنفسنا أمام سيّدة أخرى تدعى "كلير سعد"، كانت قد أخذت على نفسها منذ سنوات طويلة، أن تهبّ بمفردها لنجدة كلّ مَن تعرفه في حاجة، أنّى كان سكنه، وأية كانت حاجته. وشيئاً فشيئاً وجدت من السيدات من يساعدنها، ومن الأطباء من يستجيب مجّاناً أو بما يقارب المجّان، لمساعدة المرضى الكثيرين الذين كانوا يستنجدون بها، أو الذين كانت تتعرّف إليهم، خلال زياراتها الكثيرة إلى البيوت، لأنّ كلير آلت على نفسها أن تعرف الناس الذين يلتجئون إليها، في واقع بيئتهم وبيوتهم وسكنهم... وقد نشطت كثيراً خلال الأزمة السورية الراهنة... وجاء يوم، قرّرت

فيه، حرصاً منها على صحتي وسلامتي، أن تقوم بنفسها مع مساعداتها، بالكثير من الخدمات الاجتماعية، التي كان الكثيرون يُصرّون على طلبها مني. والجدير بالذكر أنّ هاتين السيدتين، أم فادي وكلير، تعتمدان كثيراً على الصلاة في عملهما، وتحثّان كلّ من يساعدونهما، ومن يتقبّلون المساعدة منهما، على الصلاة... ولكم طلبت منهما أن تكتبا الخبرة التي تعيشانها، لما فيها من حضور رباني واضح. إلا أنهما تحتجّان دائماً بضيق الوقت، وكلّي يقين بأنهما ترفضان لا لشيء إلا لأنهما تريدان أبداً أن تظلاّ في الظلّ، عملاً بقول الرب: "وإذا ما عملتم ما يتوجّب عليكم فعله، فقولوا: إنّما نحن عبيدٌ بطّالون، لم نفعل سوى ما هو مطلوب منا!"...

هذا العمل الجماعي انطلق منذ أكثر من خمس عشرة سنة، وتواصل في تنوّع جلب إليه العديد من الشبّان والشابّات الذين كانوا يدورون في فلك كنيسة سيدة دمشق، "مثل فرسان المحبّة"، أو "بيت العذراء" في الصوفانية... إلا أنّ أسلوب العمل فيه أخذ شيئاً فشيئاً منحيَين متباينَين، وجدا أتباعاً كثيرين من هنا ومن هناك. فالبعض رأى أنّ مثل هذا العمل لا بدّ له من ترخيص رسمي من وزارة الشؤون الاجتماعية والعمل. والبعض الآخر، آثر الاحتفاظ بالنمط العفوي في الخدمة، دون قيود رسمية. فرأيت من جهتي أنّ الصيغتين كلتيهما مشروعتان، لأنّ الحاجات في المجتمع أكثر وأعمق من أن تُحدّ الاستجابة لهما في صيغة واحدة من الخدمة. وقد نالت "جمعية صندوق الإخوة" ترخيصاً من الوزارة ذا الرقم 993، بتاريخ 2011/6/1، فيما اتّخذت المجموعة الثانية اسماً آخر هو "يداً بيد".

ولا بدّ دائماً، في انطلاقة أي عمل إنساني، من أن يكون في أعماق القائمين به والمشاركين فيه، ذخيرة حيّة من الإيمان والمحبة والرجاء، يتحدّون بها كلّ تقصير وحاجة... إلا أنه قد يأتي يوم يجدون فيه أنفسهم أمام حاجات ذهبت في تفاقم، حتى التهمت كلّ الإمكانيات والتوقّعات! ولم يعد من الممكن ترقّب الآتي، في ابتهال لا يفضي إلى طرق الأبواب... وما كان طرق الأبواب يوماً من عادتي... إلا أني وجدتني أستعرض بعضها، وكلّها في البعيد... وكان أن طرقت باب صديقين عربيّين، أحدهما سوري مقيم في الولايات المتحدة، وثانيهما سيّدة أردنية عرفتها يوم كانت طالبة في جامعة دمشق، وهي تعيش في الخليج مع أسرتها... فجاءني جوابهما، منذ ذلك الحين، حتى اليوم، في استجابة إنسانية، منتظمة، دسمة، وذكية!

ثمّ كان أن هبّ، في خضم الأزمة الرهيبة الراهنة، في سورية وخارجها، على امتداد المغتربات، مَن شاؤوا أن يمدّوا يد العون لهاتين الجمعيتين، ولسواهما...! وأخذوا كلهم

يبتكرون شتى الأساليب، لإرسال ما يستطيعون من العون المالي، دون تعرّضهم لأي ملاحقة "قانونية"، في هذه البلدان التي تدعي الدفاع "عن الحريات والديمقراطيات"، في العالم، فيما هي تسعى بكل طاقاتها، لتدميرها في جميع البلدان العربية والإسلامية، ولا سيما في سورية.

أقول هذا، لأني أرى من الضرورة بمكان عدم ذكر أي من الأسماء الكثيرة التي كنت أودّ أن أذكرها... وإني إذ أفعل، أتوجه إلى جميع الذين أُخِذوا داخل سورية وعلى امتداد المغتربات، ببريق الشعارات الأولى، أو بسحر جنسيّاتهم الأميركيّة أو الأوروبيّة، ففقدوا فيها كلّ ما كان الشرق قد زرع فيهم، من شعور إنساني ونبل روحي، وأبقاهم هياكل عظمية، لا يسكنها سوى صلف الوجود المادي الصرف، وغلظة الدولار أو اليورو المفترسة!

ولكم يؤلمني أن أقول أنّ ما يأتينا - نحن وسوانا - من المغتربات، بات اليوم يفوق أضعاف ما كان يأتينا من "الصندوق"، الموجود في مزار العذراء في كنيسة سيدة دمشق، بعد أن كان الكاهن المسؤول الأسبق فيها، قد قرّر حجبَه عن المعوزين الكثر، وذلك بمحض رغبته، ودون الرجوع إلى أي من مسؤولي "صندوق الإخوة" و"يداً بيد". فما أشبه من يريد قطع نعمة الله عن أبنائه، بمن يريد حجب الشمس بيديه!

الفصل التاسع عشر

لو كان لي أن أصمت

ترددت سنوات طويلة ومضنية، قبل أن أقرّر كتابة ما كتبت حتى الآن. إلا أن ما أُلزم به نفسي بكتابته في هذا الفصل، يُثقل عليّ وجودي بما يصعب تصوّره، ويُعيدني إلى بعضٍ ممّا كان يستبدّ بي من حزن وأسى، يوم بدأت، لخمسين سنة خلت، أكتب علناً في شؤون الكنيسة. ويومها، كنت أخضع لشعور داخلي قاهر، يكاد يُملي عليّ ما كنت أكتب. ولم أكن أُطلع عليه، سوى إنسان واحد، كان قد انتزع ثقتي بما كان يملك من صدق وشجاعة، في القول والكلمة المكتوبة، وهو الأب جورج فاخوري. إلا أنه، عندما أطلعته على مقالي الأول في الشأن الكنسي، عام 1962، وكان بعنوان "أجمود أم تجميد؟". وسألته نشره في مجلة "المسرّة"، إذ كان المسؤول عنها، أجابني دون تردّد: "ما تقوله صحيح، ويجب أن يُكتب... ولكني لا أستطيع نشره الآن!". وأخذت عليه يومها، تخوّفه من نشره، فيما كان هو، آنذاك في نظري، عنوان الشجاعة الوحيد، في الكنيسة الشرقية. وبعد أخذ وردّ، تركت المقال لديه، دون أن أحمل نسخة منه، وخرجت مستاءً ممّا آلت إليه الأوضاع في الكنيسة... وكان أن نشره في عدد عيد الميلاد من عام 1966، في غير علم مني، في مجلة "المسرة". فسمعت بعد ذلك، عدداً من الأساقفة يقولون لي، في تحذير مبطّن: "ما تكتبه صحيح... ولكن ليتك لم تفعل!". ثم كان مقالي الثاني: "الإنسان الكاهن أم الإله المال؟"، وقد أكد لي الأب جورج فاخوري، أنه رأى من الضروري عرضه على البطريرك بالذات، لينال موافقته الشخصية على نشره، وقد نشره في عدد شهر تموز من مجلة "المسرّة" عام 1971. وقد جلب لي هذا المقال أيضاً، مصارحات عديدة من أساقفة وكهنة، ترافقت كلّها بكلمة كانت تنحفر في قلبي، وهي: "ولكنك تحرق نفسك!". وعندما قدّمت للأب جورج فاخوري أيضاً، المقال الثالث، وكان بعنوان: "وفي الكنيسة فتشوا عن المال!"، أبى إلا أن ينشره باسمه، خوفاً عليّ ممّا قد يتّخذه البطريرك، هذه المرة، من إجراء بحقّي! وقد نشره مرفقاً باسمه، في عدد شهر آذار من مجلة "المسرّة"، عام 1972. وأما محاضرتي "مواجهة الجيل الجديد لمشكلة الإيمان"، التي ألقيتها في مؤتمر تعنايل عام 1973، فلم يكن يعرف بعض محتواها، سوى المطران أغناطيوس

هزيم، يوم كان مطراناً على اللاذقية.وأما مَن كان اطّلع عليها، واستأذنني في تلطيف بعض كلماتها، إنما كان الأستاذ أنطون المقدسي وحده.ومع ذلك، فقد نسفت هذه المحاضرة المؤتمر كلّه، وكدت أستقيل من مسؤولية الأمانة العامة للمؤتمر، التي تمّ انتخابي لها، في غير تدخّل مني البتة، قبل أن ألقي محاضرتي تلك بثوان، لولا أن تدخّل لحظتها صديقي المطران غريغوار حداد، وألحّ عليّ لضرورة الاستمرار، أملاً منه بإحداثي تغييراً ما في كنيستنا.وعندما فاجأني صديقي أديب مصلح عام 1997 برغبته في نشر كتاب لي يضم "بعض ما نُشِر لي، وما لم يُنشَر"، كان في طليعة ما اختار، هذه النصوص الأربعة، إذ وجدها، كما قال، "تنبض بالحقيقة وكأنها كُتِبت للتو"! وصدر الكتاب في العام نفسه تحت عنوان: "ومن الكلمات بعضُها...".

ليس لي أن أُخفي، أنّ شعوراً قاتلاً بالحزن والأسى، كان يستبدّ بي، طوال أشهر، في جميع هذه الظروف، في الفترات التي سبقتها، وتلك التي أعقبتها.وكان مبعثه الوحيد، خشيتي من إلحاق المزيد من الإساءة بيسوع.ولكم من مرة، وجدتني أردّد في ذاتي: "أفلا يكفيه ما لحق به من تشويه وأذى، منذ ألفي عام؟".

وهذا الشعور بعينه، هو الذي يستبدّ بي اليوم أيضاً، ولكن في غير حدود! لأني، بذلك، أتطاول، في نظر الكثيرين - كما في الماضي - على ما هو "مُحرّم" و"مقدّس"، في المسيحية، فيما المقدّس الأوحد في نظري، بوصفي كاهناً مسيحيّاً، هو الله، ويسوع بوصفه كلمة الله المتجسد.وأنا إذ أفعل، إنما أنا أنقد المؤسسة المسمّاة كنيسة، التي قامت وتقوم باسم يسوع، والتي يرعى شؤونها منذ ألفي عام، أناس من لحم ودم، ظهر فيهم قدّيسون عظام، ينتزعون الإعجاب وشهوة الاقتداء بهم حتى اليوم.إلاّ أنّ منهم أيضاً من يفتقرون أحياناً، إن لم يكن غالباً، إلى الحدود الدنيا من الحسّ المسؤول، والمشاركة الإنسانية، وبالتالي من التواضع والصدق والشجاعة، فيتصرّفون وكأن كراسيهم وسلطاتهم، وامتيازاتهم وتملّقات الناس لهم، باتت هي الغاية الوحيدة لوجودهم، والمحرّك الأوحد لعواطفهم وأفكارهم وأعمالهم، بل ولصلواتهم... وقد اتّضح لي من خلال خبرة طويلة ومريرة، أنّهم قلّما يتقبّلون مَن يهمس في آذانهم بعض حقائقهم، فكيف به إذا واجههم بها؟... لا سيما وأنّ ما بيد بعضهم من سلطات روحية... ومادية، واسعة وقادرة، تحملهم أحياناً، إن لم يكن غالباً، على التصرّف مع مرؤوسيهم، من كهنة، بل وأساقفة، بما يخنق الكلمة الحرة، وبالتالي الفكر الحرّ، والمبادرة الحرّة لديهم... فما الذي يتبقّى في هذه الحالة، من إنسان كان كتلة من المُثل والآمال، عندما اختار، وهو في زهوة شبابه، أن يمتنع، في حرية واعية ومطلقة، عن

جميع متع الدنيا، ليقف حياته كلّها ليسوع؟... أوَلَيس هذا بالذات ما حدث، لكاهن شاب تجرأ وقال، بعد أربع سنوات فقط من سيامته الكهنوتية، لشاب آخر كان سيتقبّل السيامة الكهنوتية بعد أشهر: "إن شئت أن تنجح في المستقبل، فتعلّم أن تتلّون كالحرباء!"...؟. إزاء مثل هذا الواقع المزري، أيجوز لإنسان أن يصمت؟

اخترت منذ اللحظة الأولى، حتى قبل سيامتي الكهنوتية، وما زلت، المواجهة، المواجهة بالكلمة الحرة، وجهاً لوجه، ثم أمام الملأ... في عظاتي... وفي كتاباتي... وجه يسوع وحده، هو الذي يعنيني من كلّ ذلك، وليس "واجهة" الكنيسة! وجاء يوم طالبت فيه الأساقفة بإقالة بطريرك، بالطريقة نفسها التي انتخبوه بها... وقد قلت ذلك لأحدهم، وكان أستاذي وصديقي وهو المطران ناوفيطس إدلبي، وأضفت: "كي يكون في ذلك تحذير لمن سيخلفه، حتى لو كنتَ أنت!".

تحدّثت في ما سبق عن بعض هذه المواجهات. فثمّة مواجهات أخرى، تنتظر حديثي عن بعضها الآن. وهذه، سأتناولها بتسلسلها الزمني، وبما لديّ من وثائق تخصّ معظمها...

1 - إجهاض محاولة لتوحيد عيد الفصح بتبنّي التقويم الشرقي.

في مطلع عام 1982، أقمت القداس المسائي، يوم الأحد الأول من شهر كانون الثاني. وألقيت العظة حول الوحدة، ولا سيما وحدة عيد الفصح. وكانت الكنيسة، على عادتها، تغصّ بالمصلّين. فجاءتني يوم الاثنين، بعد الظهر، ثلاث فتيات، لا معرفة لي بهنّ، وطلبن مقابلتي. فاستقبلتهنّ في مكتبي القديم. وإذ بهنّ أرثوذكسيّات، من كنيستَي الروم الأرثوذكس والسريان الأرثوذكس. وطالبنَني بترجمة كلامي في العظة، إلى عمل فاعل. فتشاورت معهنّ، واتفقنا على القيام بخطوة محدّدة، وهي مطالبة رؤساء الكنائس الكاثوليكية في سورية، بدءاً من دمشق، بتبنّي التقويم الشرقي، دون مماطلة، من أجل الاحتفال معاً بعيد الفصح، بدءاً من عام 1982. ولم يغادرنني حتى كنّا قد صغنا معاً نصّاً متوازناً، يلامس مشاعر الجميع برفق. وقد وعدتهنّ بالاتصال الفوري برؤسائي الكنسيين في دمشق، كي نحصل على موافقتهم، ومن ثمّ نطلق الحملة على نطاق سورية بسرعة. وكان النص هو التالي، كما عرضته بحرفيته، في اليوم التالي، على رئيسي آنذاك، المطران فرنسوا أبو مخ:

« نداء من أجل توحيد عيد الفصح المجيد

انطلاقاً من إيماننا بالمسيح الواحد، وسعياً وراء تحقيق رجائنا في كنيسة واحدة، نرجو، نحن العلمانيين المؤمنين بالمسيح، جميع السادة رؤسائنا الروحيين، من بطاركة وأساقفة، أن يستجيبوا لرغبتنا الملحّة في تبنّي التقويم الشرقي، للاحتفال بعيد الفصح المجيد معاً، بحيث يصبح هذا العيد الكبير، رمزاً لوحدة إيماننا، بدل أن يظل كما هو الآن رمزاً لانقسامنا ».

حملت هذا النص، ومضيت إلى البطريركية، لأطلع عليه المطران فرنسوا، راجياً الحصول على موافقته، لنبدأ بإطلاق الحملة. وحدّثته عمّا كان من أمر الصبايا الثلاث، وعمّا هو، في واقع الأمر، رغبة عارمة لدى العلمانيين من جميع الكنائس. وأطلعته على النص. فقرأه، ثم قال لي بالحرف الواحد: "ما منحطُلّنْ يَاها واطية!". فلم أتمالك نفسي وقلت له بقسوة: "سيّدنا، شو هالحكي؟ ما متخجل؟ وقت يسوع تجسّد، ما حطّها واطية للإنسان؟ وانت بتقللي ما منحطُلّنْ يَاها واطية! عيب، سيّدنا، عيب هالحكي!". أجل، هكذا كان جوابي، ويُخجلني أن أذكر ذلك الأمر، كما جرى. فَصَمَت المطران برهة، وهو خافض نظره، ثم نظر إليّ وقال: "موافق! اجمعوا التواقيع!".

وكان أن اتصلتُ على الفور بمجموعة من العلمانيين الرجال، من مختلف الكنائس، وهم أنطون المقدسي، والدكتور ميشل سابا، والفنان الياس الزيات، والدكتور الياس بديوي، وعادل بطل، وجورج زراعنة ومتري حجار. وعقدنا اجتماعاً، أطلعتُهم فيه على المسعى القائم، فشكّلنا معهم لجنة للاتصال بالبطريرك الأرثوذكسي، سيّدنا هزيم، كي نسأله رأيه في ما ننوي القيام به، من حملة ترمي إلى تبنّي التقويم الشرقي. وتمّ لقاؤنا بغبطة البطريرك هزيم، فأبدى ارتياحه. ثم رأينا أن نكتب رسالة جماعية إلى قداسة البابا في روما، نسأله فيها دعم رغبة العلمانيّين في سورية. وسلّمنا السفير البابوي بدمشق، هذه الرسالة، وقد كتبناها باللغة الفرنسية وسأدرجها مترجمة، في ملحق هذا الكتاب. وأطلقنا الحملة دون تأخير، على ورقة طويلة، طُبِع في أعلاها نصّ النداء، وقُسِّمت إلى عمودين، يتّسعان لخمسين اسماً، بحيث يُدرج كل منها في أحد العمودين، مع رقمه واسمه، كتابة وتوقيعاً. وكان أن جمعنا خلال أسبوعين فقط، عشرة آلاف اسم وتوقيع في دمشق وحدها. وفيما كانت الحملة قائمة، قمت بجولة سريعة مع أحد أصدقائي، وهو المهندس سعيد يوسف الخوري، وهو

أرثوذكسي، إلى كلّ من صافيتا وحمص وخبب، حيث التقيت المطارنة ميشل يتيم، وديونيسيوس غيث، ونيقولاوس نعمان. كان ذلك يوم 1982/1/28. وقد أطلعت كلاً منهم على الغاية من مسعانا. فرحّب ثلاثتهم بالمبادرة. ولما كان أول من قابلناه المطران ميشل يتيم، فقد كتب على ورقة تحمل ترويسة الأبرشية، رسالة وجّهها إلى البطريرك مكسيموس حكيم، جاء فيها بالحرف الواحد:

« **غبطة البطريرك مكسيموس الخامس حكيم الكلي الطوبى**

مولاي صاحب الغبطة

عرض عليّ حضرة الأب الياس زحلاوي فكرة توحيد عيد الفصح باتباع التقويم الشرقي، بعد موافقتكم على ذلك التوحيد.

أتمنى، كما يتمنى آباء مجلس الأبرشية، أن تتحقّق هذه الخطوة المباركة، سعياً وراء تحقيق رجائنا في كنيسة واحدة، بحيث يصبح العيد رمزاً لوحدة إيماننا، بدل أن يظلّ كما هو الآن رمزاً لانقسامنا.

وتفضلوا يا صاحب الغبطة بقبول فائق احترامي وتقديري لشخصكم الكريم.

\+ المطران ميشل يتيم

رئيس أساقفة اللاذقية وتوابعها للروم الكاثوليك »

وأما المطران ديونيسيوس غيث، فقد كتب بخط يده على الورقة ذاتها، من الجهة اليمنى السفلى بالحرف الواحد:

« بكل غبطة نرحّب بالفكرة ونباركها وندعو إليها من كلّ قلبنا.

\+ المطران ديونيسيوس غيث

متروبوليت حمص وحماه ويبرود وما يليها »

وقد وقّع وأرفق التوقيع بختم المطرانية

وهكذا فعل المطران نعمان، بعد أن اطّلع على النصّين والتوقيعين السابقين، فكتب هو أيضاً في الجهة اليسرى بالحرف الواحد:

« نوافق على المشروع بكل ترحاب وسرور، لما فيه من خير لجميع المسيحيين.

\+ التوقيع نيقولاوس نعمان

متروبوليت بصرى

\+ ختم الأبرشية »

بـالطبع، كنـت وصـديقي سـعيد الخـوري، في قمـة السـعادة والرجـاء. واحتفظـت بالرسالة الثلاثية، كما بكنز لا يقدر بثمن.

وذات صباح مـن بدايـة شـهر شـباط، دُعـي جميـع كهنـة كنيسـة الـروم الكاثوليـك في دمشق وريفها، إلى اجتماع مع البطريرك، دون توضيح السبب. فتوقّعت الأسوأ. وحملتُ معـي "الرسـالة الثلاثيـة"، ومضيتُ إلى البطريركيـة، حيـث وجـدتُ الكهنـة في نقـاش صاخب حول توحيد عيد الفصح، ولّما يحضر البطريـرك. وتبيّن لي أنّ المنطـق السـائد هو ذاك الذي كان المطران فرنسوا قد جابهني به. وقَدِم البطريرك مـع المطـران فرنسـوا. وبعـد الصلاة، بيّن البطريـرك للجميـع الغايـة مـن عقـد هـذا الاجتمـاع الطـارئ، وهـي اتخـاذ موقـف موحّـد مـن الحملـة الـتي قـام بهـا "كـاهن مـتحمّس، هـو الأب اليـاس زحلاوي"، من أجل توحيد عيد الفصح، عن طريق تبنّي التقويم الشرقي. وكان منـه أن بـيّن بهدوئـه المعهـود، مـرّتين، معارضـته الصـريحة لهـذا المشـروع. ثـم أكّـد بكـلّ ثقـة أنّ "جميـع مطارنـة الطائفـة" يعارضـون هـذا المشروع. ورأيـت أن أتمالـك نفسـي عنـد ذكـره "جميـع مطارنـة الطائفـة"، المرة الأولى. ثـم عـاد وذكـر للمـرة الثانيـة، معارضـة "جميـع مطارنة الطائفة" لهذا المشروع. وكـان، حتـى ذلـك الحـين، لم يـدع لأحـد مـن الكهنـة، أن يقول أي شيء بهذا الشأن. وكان من الواضح أنه يريد انتـزاع معارضـة الكهنـة، قبـل أن يفتح النقاش. وعندها، لم أعد أتمالك نفسي، فوقفت وتقدّمت منه، وأخرجت الرسـالة الثلاثية من جيب سترتي، ووضعتها تحت عينيه، وقلت له بنـبرة عنيفـة: "وهـذه؟! لقـد قلـت مـرّتين أنّ جميـع الأسـاقفة يعارضـون هـذا التوحيـد، وهـذه الرسـالة تبـيّن لـك موافقـة ثلاثـة أسـاقفة منـهم، وهـم المطـران ميشـيل يـتيم والمطـران ديونيسـيوس غيـث، والمطران نيقولاوس نعمان، وعلـى رأسـهم نائبـك المطـران فرنسـوا أبـو مـخ. وأنـا لم أبـدأ الحملة إلا بعد أخذي موافقته!". وعندها بدرت من المطران فرنسـوا محاولـة للتنصّـل، فصـرخت في وجهـه وقلـت لـه: "أوَلَسـتَ أنـت مـن وافقـتَ علـى هـذا النـداء، بعـد أن رفضتَه؟". ثم التفتّ إلى البطريـرك وقلـت لـه: "سـيّدنا، لا تختبـئ وراء المطارنـة، وهـذه تواقيعهم هم الثلاثة، وهي بتاريخ 28/1/. أي منـذ بضـعة أيـام..."! فـأراد البطريـرك أن يستدرك أقواله، فقال: "أنا كنت أريد أن أقول إنّ موقفهم الرافض يعود لست سنوات". فأجبتـه علـى الفـور، وبكـل قحـة: "أنـت لم تفعـل ذلـك. بـل أكّـدت أنهـم يرفضـون الآن مشـروع التوحيـد!". وأخـذت الرسـالة مـن يـده، وطويتـها وأعـدتها إلى جيـب سـترتي، وجلسـت صـامتاً... حتـى آخـر النقـاش، لأنـي كنـت أعـرف مسـبقاً الموقـف المؤيّـد لـرفض

البطريرك. ولم يكن هناك من يؤيد التوحيد سوى الأب الياس صارجي... وهكذا انطفأت شمعة الوحدة، التي أشعلتها ثلاث فتيات من دمشق!

أيجوز لي أن أكتم هذا الذي حدث كما رويته بالتمام؟!

2 - إجهاض مشروع كنسي اجتماعي في سهل معرة صيدنايا.

في سنوات قليلة، تحوّلت كنيسة سيدة دمشق، إلى ما يشبه خليّةً من النحل. فباتت تضمّ مجموعاتٍ مختلفةً من الأعمار والنشاطات، تستجلب لها مجموعات أخرى، ضاقت بها نفوس بعض المسؤولين في هذه أو تلك من الكنائس. وكان لهذه المجموعات تنظيمها الخاص، واجتماعاتها الدورية عبر السنة الدراسية. ودرجت كلّها، شيئاً فشيئاً، على قضاء فترات متفاوتة، تمتد من أيام إلى أسبوع كامل، خلال أشهر الصيف، في الأديرة، هنا وهناك، ولا سيما في مناطق صافيتا، ومرمريتا، والكفرون. وكان بعضها يؤثر أن يمضيها على الطريقة الكشفية، تحت خيام، في هذه المناطق الجميلة، والبعيدة عن صخب دمشق. ولما نشبت الأحداث الدامية في أواخر السبعينيات وأوائل الثمانينيات، منع استخدام الخيام، وازداد توجّه المسؤولين الكنسيين نحو بناء أديرة جديدة، تستوعب التدفّق المتزايد من الأطفال والشبّان والشابّات، خلال أشهر الصيف، وأحياناً في العطل المدرسية الانتصافية، أو في العطل الطويلة نسبيّاً، مثل عطلة عيد الأضحى المبارك.

ودرست مع بعض الأصدقاء، ممّن كان أولادهم ينتمون إلى هذه أو تلك من هذه المجموعات، لا سيما إلى جوقة الفرح، إمكانية إنشاء مشروع كنسي واجتماعي في منطقة هادئة، تكون في الوقت نفسه قريبة من دمشق. ورأينا أنّ منطقة سهل معرة صيدنايا، توفّر لنا ما نحلم به. ونشأت لدينا مجموعة تضم اثني عشر رجلاً، فيهم الطبوغرافي، مثل جميل نعيم الحمصي، وألكسي شكر، والمهندس مثل ادكار زكرت، والمحامي مثل العقيد سليم العبود وجورج شهرستان، والمحاسب مثل ادوار هلال، وجورج معراوي، وسواهم. واتفقنا بادئ ذي بدء، على أن تكون ملكية هذا المشروع وقفاً عامّاً لجميع الكنائس، كي لا تستأثر به كنيسة واحدة دون سواها. كما أنّنا شئناه في خدمة جميع الأطفال، وجميع فئات الشبيبة التي ترغب في استخدامه. وأجمعنا أيضاً على بناء بيت للكهنة المسنّين فيه، رغبة منا في تقديم خدمة مزدوجة للكهنة المسنّين، إذ لم يكن لهم مقرّ خاص بهم في جميع كنائس دمشق، وللأطفال والشبيبة. وشئنا

إدارته علمانية، دورية وطوعية، بإشراف دوري للسلطات الكنسية في دمشق. وأما التمويل فتركناه لله، لثقتنا بأنّ المال لن ينقصنا، عندما سنوفّق بأرض تصلح لمثل هذا المشروع.

وأخذنا نبحث عن الأرض. وكان بين معارفي من أهالي صيدنايا، شخص يملك أرضاً واسعة في سهل معرة صيدنايا. وكانت تربطني به صداقة عميقة، عرف كلّ منا قيمتها في إحدى أزماته العائلية. فقصدته، فرحّب، واقتادني مع بعض من أعضاء اللجنة، لاستكشاف الأرض. فارتاحوا له ولها. واتفقنا معه على المساحة التي كنّا بحاجة إليها، وكذلك على ثمن الدونم منها. واستمهلناه، ريثما نجري الاتصالات مع رؤسائي الكنسيّين في البطريركية. وقابلنا البطريرك مكسيموس الخامس حكيم، وحدّثناه عن المشروع، فرحّب، إلا أنه لم ينصحنا بعمومية ملكية الأرض للوقف، خوفاً من نشوب خلافات مستقبلية، هذا إذا وافقت إدارة العقارات على تسجيل الأرض بصفة وقف عام. وكذلك كان رأي المطران فرنسوا أبو مخ، وكان يومذاك نائباً للبطريرك. وقد وافقا على وضع المشروع في خدمة الشبيبة كلّها، وعلى إنشاء بيت للكهنة المسنّين فيه. كما وافقا على أن تكون إدارة المشروع بيد علمانيين، تحاشياً لتدخل محتمل من السلطات الكنسية، قد يعرقل العمل فيه. وطلبنا ضمانة أدبية للمستقبل، وافق كلاهما على أن تكون برعاية السفير البابوي بدمشق، كي يكون هو، في المستقبل، حَكَماً محتملاً لأي خلاف محتمل مع السلطات الكنسية. وكان يومها المنسنيور روتونو). وأخيراً نلت الموافقة من البطريرك والمطران واللجنة، على ألا أكون أنا من يوقّع عقد البيع والشراء، بل المطران فرنسوا، تأكيداً منّي على تهرّبي من أيّ إغراء مالي أو اتهام مادي، وثقةً مني بالمطران فرنسوا.

كلّ ذلك استغرق وقتاً وجهداً. إلاّ أنّ مَن تعهّد ببيع الأرض ظلّ وفياً لوعده، وأكّد لنا مراراً أنّ كلمته هي بمثابة عقد بيع وشراء بيننا.

وعندها، أخذنا نطرق الأبواب من أجل جمع المال المطلوب. فوجدنا، على عادة الدمشقيّين، القلوب مفتوحة قبل الأبواب. وكان يومها العقيد المحامي سليم العبود، هو أمين سر مجلسنا، وقد احتفظ حتى وفاته المبكرة، بجميع وثائق جلساتنا، وفيها أسماء المتبرعين وقيمة تبرعاتهم. وعندما اكتمل المبلغ، مضيت مع كلّ من جورج معراوي وجورج شهرستان وصاحبي الأرض، لحضور التوقيع وتسليم المبلغ. وهكذا كان. وقّع المطران فرنسوا، طرفاً ثانياً، كما وقّع كل من نسيم بن حنا الخوري، وأخوه حنّا بن حنا

الخوري. وتسلّما المبلغ من يد المطران فرنسوا بحضورنا. وكانت قيمته (267400) ل.س. وكانت مساحة الأرض (25) دونماً. وكان ذلك يوم الأحد الموافق 1983/6/27.

وفي هذه الأثناء، كنّا، على عادتنا في اللجنة، قد تدارسنا بكل أناة، هوية المشروع وآلية الإدارة فيه، وأوضحنا كلا الأمرين في ورقتين، كنّا نريد أن نعرضهما على البطريرك والمطران، للأخذ برأيهما، بحيث تصبحان، بعد صياغتهما النهائية، أساساً لعملنا القادم. هاتان الورقتان مع وثيقة عقد البيع والشراء، ستُدرج كلّها في الملف الملحق بهذه القضية.

ونظراً لضرورة توفّر المياه في مثل هذا المشروع، اتفقت اللجنة مع السيّد نسيم الخوري، من أجل القيام بإجراءات الحفر في الأرض، حيث نصحنا هو. وقد وُفّقنا منذ المحاولة الأولى، بالعثور على المياه، على عمق يقارب الأربعين متراً فقط، في منطقة تقع في الجانب الجنوبي من وسط الأرض.

كانت جميع الأمور، حتى هذه اللحظة، ميسّرة. إلا أنها ما عتّمت أن تعقّدت، عندما بدأنا نراجع المطران فرنسوا، من أجل نقل الملكية من اسمه إلى وقف البطريركية. وعبثاً حاولت مراجعته بهذا الشأن، مع هذا أو ذاك من أعضاء اللجنة. وجاء يوم فقد فيه جميعهم كلّ ثقة في المطران فرنسوا، وتمنّعوا عن مراجعته معي، لشعورهم بأنه لا يريد للمشروع أن يرى النور... وظللت أراجعه سنوات إثر سنوات، ولكم من مرة أخبرت البطريرك، فكان يعدني بالتحدّث إليه... إلا أنّ موقف المطران لم يتغيّر، إذ كان أبداً يختلق الذرائع والأعذار، تهرّباً من نقل الملكية... حتى إنه أخبرني ذات يوم، أنه بلغه أنّ الدولة تُعِدّ مشروعاً لوضع يدها على جميع الأوقاف المسيحية. وقد قال لي ذلك، وهو يريني مجسَّماً كبيراً، لمشروع ضخم كان قد بدأ بتنفيذه في ساحة معلولا، وهو يضم ديراً وكنيسة جديدين، بكلفة تبلغ عشرين مليون ليرة آنذاك! أعرف أنّ الذين سيقرأون هذا الذي أكتبه الآن، لن يصدّقوا أنه حدث كما أرويه، ولن يصدّقوا أني كظمت غضبي، على ما طُبِعتُ عليه من جرأة في المواجهات... فيومها شعرت بأنه لا يحقّ لي أن أقطع شعرة معاوية! ويا ليتني فعلت!

ثمّة أحداث طرأت خلال هذه السنوات الطويلة، لم يكن لكلينا أي مسؤولية في بعضها، ولكنها أثّرت كثيراً وسلبياً على العلاقة بين المطران فرنسوا وبيني. أول هذه الأحداث كان الحملة من أجل توحيد عيد الفصح، التي أطلقناها في مطلع عام 1982، كما رويت تفاصيلها في القسم السابق.

وكان ثانيها حدث الصوفانية، الذي وجدتني، على الرغم مني، منخرطاً فيه، وبتكليف من المطران نفسه. كان ذلك في بداية الحدث. وجاء يوم انقلب فيه عليه، بعد أن انقلبت عليه البطريركية الأرثوذكسية، بدءاً من 21 شباط عام 1983... وكان الحدث الثالث، قراره بقطع الراتب عني بالكلية، بدءاً من عام 1985، لأنني طالبت بزيادة زهيدة، كما سآتي على ذكره بعد قليل... وكان رابعها التفجير الرهيب الذي حدث في الأزبكية بدمشق، يوم 1986/4/16، وقد رأيت يومها أن أقترح عليه وعلى زميليّ، الأبوين جبرائيل معلوف وميشل حلاق، إلغاء القداس المسائي يوم الأحد، في كنيسة سيدة دمشق، لفترة وجيزة، تحسّباً لما يمكن أن يكون نقطة تفجيرات جديدة، لا سيما وأني كنت على سفر إلى باريس بقصد العلاج. فوافقوا. وعندما عدت، فوجئت بقرار صادر عن البطريرك، بإلغاء قدّاس الأحد المسائي نهائياً... إلى أجل غير مسمى! وكان خامس هذه الأحداث، أمسية الترانيم التي أقامتها جوقة الفرح مع وديع الصافي، بتأييد رسمي من المطران فرنسوا نفسه، في كنيسة سيدة دمشق، مساء الأحد 1988/12/4، تلك الأمسية التي حاول، عبثاً، البطريرك والمطران وزميلاي في الكنيسة، مع هيئة الوكلاء فيها، الحؤول دون إقامتها...

ترى، هل أنا في عالم كنسي أم في مافيا؟! كل ذلك مؤلم لي إلى أقصى الحدود، ولكني ألزمت نفسي بالاعتراف، وسأفعل. إلا أني، تجنّباً للإطالة، سأوجز ما آلت إليه أمور هذا المشروع البائس، في نقاط محدّدة، وكلّها مدعومة بوثائق تجد مكانها مع سواها في الملحق:

1- كنت قد أطلعت من زمان بعيد، صديقي الأب عادل تيودور خوري، المقيم في ألمانيا، على المشروع وتطوراته. فاقترح عليّ ضرورة البحث عن إدارة لها صفة الديمومة، كي تتسلّم مسؤولية مثل هذا المشروع، بدءاً من ملكيته. واتفقنا على التقدّم بطلب إلى رئاسة راهبات المعونة الدائمة، كي يؤول المشروع، ملكاً وإدارة، إليهن. وقمت معه بزيارة إلى ديرهنّ الرئيسي في حريصا (لبنان). وتمّ الاتفاق بيننا، على أن يوافق البطريرك بدوره.

2- وقابلنا معاً البطريرك، وشرحنا له الأمر كلّه، فرحّب. وبعد أيام، عُقِد اجتماع برئاسة البطريرك، ضم نائبه المطران فرنسوا، والقيّم العام، الأب أنطون غليل، ومحامي البطريركية، سامي وردة، ومحامي المشروع، صلاح بربارة، والأخت جوستين، ممثّلة لرئيسة راهبات المعونة، والأب عادل خوري وأنا. وبعد مداولات طويلة، تمّ الاتفاق على النقاط التالية:

أولاً: أن يتنازل المطران فرنسوا في أقرب وقت ممكن، عن ملكية الأرض لصالح راهبات المعونة...

ثانياً: أن تسجل أرض المشروع في سهل معرة صيدنايا، ضمن أوقاف البطريركية، على أن نُعطى بدلاً منها، مساحة تقاربها في المنطقة الصخرية، المُطلّة على مزار القدّيس إيليّا النبي.

ثالثاً: أن يُجرِي الأب أنطون غليل، دراسة للمنطقة الجبلية الجديدة، مع مهندسنا مجيد الخوري، الذي تبرّع بالتصميم والإشراف على التنفيذ، إذ كان أولاده الثلاثة في جوقة الفرح.

رابعاً: أن يصوغ المحاميان وردة وبربارة، نصّاً قانونياً، تبعاً لهذا الاجتماع، يعتمده الطرفان أساساً قانونياً يؤخذ به في المستقبل، في كل ما يتعلق بهذا المشروع.

وانتهى الاجتماع في ارتياح بادٍ على الجميع.

3- بعد أيام قليلة، قابلت المطران فرنسوا بصحبة المهندس مجيد الخوري، وطلبت منه البدء بإجراءات نقل الملكية، كما تمّ الاتفاق عليه في الاجتماع قبل أيام. فكان جوابه بالحرف الواحد، وبحضور المهندس مجيد الخوري:

"أنا غير موافق. شو جاييني من هالشغلة كلّها؟!".

وأصرّ على الرفض. وكان البطريرك قد غادر دمشق في جولة طويلة...

4- في أوائل تموز من عام 1993، استدعاني المطران فرنسوا، ليسألني في مودة، موافقتي على إعادة الأرض إلى صاحبها، لأنه، كما قال: "لا يريد وجع راس"!. وهو يرجو لي مع البطريرك ألا يسبب لي ذلك ضيقاً كبيراً. فغضبت، وكان الصدام شديداً بيننا. واتهمته بخيانة الأمانة، وهدّدته باللجوء إلى المحاكم المدنيّة، إذا أصرّ على فعلته... وخرجت...

5- وأخبرت على الفور الأستاذ صلاح بربارة، ورجوته مقابلة المطران في أقرب وقت، عساه يقنعه بالعدول عن فكرته...

6- قابله المحامي في اليوم نفسه، وعاد يخبرني أنه كان يتوقع أي شيء، إلا ما سمعه من المطران. فكلّفته رفع دعوى قضائية، قبل أن يقدم المطران على "فعلته"!

7- ليلة وفاة باسل حافظ الأسد، اتصل بي السفير البابوي بدمشق المنسنيور بيير جياكومو ديه نيقولو (Pier Giacomo de NICOLO)، وسألني مرافقته في الغد، إلى القرداحة، لتقديم التعازي هناك. ورافقته. وكان السفير قد طلب مني منذ أشهر

طويلة، أن أكون بمثابة مستشار له، بل وصار يعترف عندي. وفي الطريق، تحدّثنا طويلاً، وسألني الكثير عن عملي وأسلوبي في الحياة، وتطرّق إلى ما يمكن أن ألقى من مصاعب، لا سيما من قبل السلطات الكنسية. وقد علم بموقفي الرافض للمال، حتى ممارسة المجانية في خدماتي كلّها. وعلم أيضاً المصاعب التي تواجهني في مشروع الأرض في المعرة... وعدنا إلى دمشق في اليوم عينه، بعد أن مررنا ببلدة الخراب، حيث عرّفته على صديقي الأب الياس يعقوب، الذي كنت قد حدّثته عنه طويلاً، والذي أصرّ يومها على تناولنا الغداء عنده!

8- بعد مدة، استدعاني السفير دي نيقولو، وأبلغني أنه قد يسافر بعد أشهر إلى روما، وأنه على أتم الاستعداد لمساعدتي في ما قد أحتاج إليه هناك. فشكرته ووعدته بتقديم معلومات وافية عن مشكلة الأرض، عسى روما تتدخل لتدارك فضيحة الدعاوي المدنية بين رجال الكنيسة... ويومها أُحبّ أن أذكر أنه أراد أن يقدّم لي مغلّفاً يحتوي مبلغاً من المال، فرفضته بإصرار، وهو بيده. فسألني أن أقبله بصفة حسنات قداديس، فقلت له عندها إني أرفض تقبّل حسنات القداديس، لأني أعتبرها متاجرة بالأقداس، ففوجئ وقَبِل أن يحتفظ بالمغلّف...

9- في منتصف الشهر الثامن من عام 1994، استدعاني السفير من جديد، وحمل معه الورقة التي كنتُ أعددتُها بشأن أرض المعرة... ولقد فعلت ذلك، خلافاً لجميع قناعاتي برفض أي تدخل من روما في شؤون كنائسنا الشرقية. إلا أني استسلمت، أملاً بوضع حد لنزاع مُخجِل، بتّ على يقين من أنّ البطريرك والمطران متواطئان فيه...

10- وعاد السفير بعد شهر ونيف، وأخبرني أنه اجتمع بالكردينال "أشيل سلفستريني"، وهو السلطة العليا التي بيدها قضايا الكنائس الشرقية. وقد فهم منه أنه اجتمع بالمطران فرنسوا، واقتنع بوجهة نظر المطران في قضية الأرض... ولم يُفصح لي بما هو أكثر من ذلك. إلا أني لاحظت شيئاً من البرود لديه...

11- قررت أن أوافيه بترجمة رسمية إلى الفرنسية، لعقد البيع والشراء. وكلّفت بها صديقي المحامي الدكتور ميشيل سيوفي... فترجمها، وأبدى استياءه العنيف من المطران، ولم يخبرني أنه كان قد اطلع على كامل القضية من المطران، وأنه ترجم له الوثائق الخاصة بها، كي يحملها المطران بنفسه إلى الكردينال سلفستريني! وفي إصراري على متابعة هذه القضية في روما، كتبت بتاريخ 1995/3/15، رسالة إلى صديقي الأب "بيير دو بريه" (Pierre DUPREY)، وكان آنذاك في مركز كبير في روما،

أرجوه فيها الاهتمام بموضوع الأرض، ما أمكنه إلى ذلك سبيلاً. فأجابني بتاريخ 1995/8/25، يقول:

« ... أما القضية التي تحدّثني عنها في رسالتك، فإنّ طريقة تقبّلها في روما تتوقّف على توصية السفير البابوي بها، وطريقة عرضه لها. وأما بالنسبة إليّ، فإنه يصعب علي جداً أن أتدخّل على نحو مباشر. فقد يمكنني، استناداً إلى الورقة التي أرسلتها لي، أن أجيب على الأسئلة التي قد تُطرح عليّ بشأنها... »

12- وكان أن تابعت محاولاتي بالكتابة للبطريرك بهذا الشأن، في 1985/11/26، فأجابني ببطاقة مؤرخة في 1985/11/21، بأنه لا علم له بالقضية البتة!...

13- كما أني كتبت للسفير البابوي دي نيقولو رسالة شخصية في 1996/12/30، افتتحتها كما يلي:

« صاحب السيادة،

اسمح لي بإزعاجك بشأن مسألة قد تُؤثر تجاهلَها، وهي دون شك، كما يبدو لي، في أصل الجفاء الذي أبديته على نحو جلي، تجاهي...

أعني بها مسألة أرض المعرة، التي كنتَ سألتَني كلمة بشأنها، سلّمتَها بيدك للكردينال سلفستريني.

اليوم، في استجابة مني لضميري ليس إلاّ، أرسل لك، بعد فترة طويلة جدّاً من التردّد، النص العربي للعقد، مرفقاً خصوصاً بترجمته الفرنسية، وقد قام بها دكتور في القانون، هو في الوقت نفسه ترجمان محلف. إنه الدكتور ميشل سيوفي، وهو معروف جداً في نطاق كنيستنا... ».

بالطبع لم أتلقّ جواباً...

14- وقد تبيّنت لي الحقيقة الكاملة - بعد وفاة المطران فرنسوا عام 2006، إذ تسلّمتُ من صديقي المحامي صلاح بربارة، ملفّ القضية الكامل، فعرفت عندها الإجراءات التي قام بها المطران فرنسوا، ليسرّع في إعادة الأرض إلى صاحبها، "ضمن القانون"، ويقبض ما يعود له من تعويض وفوائد التعويض... وربما مبالغ أخرى، لأنّ ثمن الأرض كان منذ عام 1983، قد ارتفع عشرات الأضعاف...

15- تبيّن لي من الوثائق أنه طلب من المحامي أنطون الأشقر، دراسة "قانونية" للتخلص من الأرض... فوافاه المحامي المذكور بهذه الدراسة في صفحة واحدة، بيّن فيها

"عيوباً كثيرة وغير قانونية"، تخوّله حقّ الانفكاك ممّا ورّطتُه فيه!... كانت هذه الورقة بتاريخ 1994/5/26. وقد تمّت ترجمتها في اليوم نفسه لدى الدكتور ميشل سيوفي!...

16- والغريب في الأمر أنّ المطران حصل على "صك التسوية"، التي كان يريدها، قبل أن ينهي الاتفاق مع صاحب الأرض، ذلك بأنّ الختم والتوقيع على التسوية يحملان تاريخ 1994/5/18، فيما الاتفاق النهائي مع صاحب الأرض حصل بتاريخ 1994/7/24!...

17- وتمّ الاتفاق مع السيّد نسيم الخوري، فكتب "نصّاً قانونياً"، مؤرّخاً في 1994/7/27، يعيد بموجبه ما يترتّب عليه من مخالفة وفوائد المخالفة، ويستعيد كامل أرضه! وقد ترجم هذا النص أيضاً في اليوم نفسه، لدى الدكتور ميشل سيوفي! إنّ لفي هذه السرعة ما يدهش!

18- وكان مجموع ما قبض المطران فرنسوا، بموجب بيان القبض الذي وقّعه: (455,000) ل.س. وقد احتفظ به!...

19- هذه هي "الوثائق القانونية" التي حملها لروما... والتي بقيت في حوزته حتى موته، دون أن يكون لي أي علم بها...

20- سأدرجها كلّها في ملحق الكتاب، وأضيف إليها ورقة الفوائد والأرقام المكتوبة فيها!

رحماك يا رب!

3- هلاّ تحدّثنا قليلاً عن المال!

منذ طفولتي، كنت أسمع بعض ما كان يُحكى بين الناس، عن مفاسد المال في الكنيسة. وما كنت يومها، قادراً على التمييز بين ما يُحكى، وما هي حقيقة الواقع. وعندما اتخذت قراري النهائي بالمضي في حياتي، كاهناً من أجل يسوع، كنت قد ألزمت نفسي بنهج جديد، اكتشفته في "جمعية البرادو"، وكنت أرجو له أن يُحدث تغييراً ما في حياة الكهنة أوّلاً، ثمّ في بنى المؤسسة الكنسية، ومن ثمّ في عقول الناس.

عام 1959، كانت سيامتي الكهنوتية. وكنت، حتى ذلك الحين، أعتمد في نفقاتي كلّها، على أهلي، على ما كانوا يعانون من شدّة، ولكم كنت أقتصد فيها. وكنت أعرف أنّ أختي الثالثة، واسمها جوزفين، لم تغادر البيت إلى دير راهبات المعونة الدائمة في لبنان، في صيف عام 1955، إلا بعد أن ضمنت عملاً لأختي الصغرى، "رينيه"، تتقاضى فيه راتباً يعادل تماماً الراتب الذي كانت هي تتقاضاه من المدرسة، وتضعه في تصرف أهلي.

وفي بيروت، حيث عُيِّنتُ في المدرسة البطريركية، مسؤولاً عن النظام والطلاب الداخليين ومدرّساً، كنت أتقاضى راتباً لا يتجاوز ثلاثمائة ليرة لبنانية، كما أذكر. وكنت أجتهد ألا أنفقه كله، كي يتسنى لي أن أقدّم منه شيئاً لأهلي. وأذكر أني عندما قدّمت استقالتي، في صيف عام 1962، خطر ببالي أن أطالب رئيس المدرسة، الأب انطون المعلم، بما يعود لي من تعويض، فكان جوابه: لا تعويض للكهنة في نظام المدرسة، علماً بأني لم أحاول يوماً، أن أعرف ما كان يتقاضاه من راتب، لا هو، ولا الأب أنطون شكري.

وفي عام 1962، عدت إلى دمشق. فطُلِب مني أن أتولّى قيادة جوقة الكاتدرائية. ولم يخطر ببالي يومها، أن أطلب أي أجر لقاء هذه المهمة. كما طُلِب مني أن أدرّس الديانة المسيحية في مدرسة المعونة الدائمة، وكذلك في مدرسة الرعاية الخاصة. وقد تقاضيت من المدرستين معاً، كما أذكر، خمسمائة ليرة سورية شهرياً. وفضلاً عن ذلك، كنت أُعطى شهرياً، كما يُعطَى جميع الكهنة، مبلغاً محدّداً من البطريركية، لقاء القدّاس اليومي الذي كنت أقيمه. ولما كنت زاهداً في ثيابي وتنقلاتي، وفي نمط حياتي، نُفوراً من التدخين والشرب، ولا أسمح لنفسي إلا باقتناء ما هو ضروري من الكتب، بين حين وآخر، ولا أستطيع حبس نفسي عن مساعدة السجناء، الذين كنت أزورهم أسبوعيّاً، ومَن كانوا يطرقون بابي، كان يتسنّى لي أن أقدّم لأهلي، كلّ شهر، بعض الدعم المالي. ولكني سرعان ما اكتشفت بطلان عادة تقاضي حسنات القداديس من البطريركية، فصرت أرفضها من حيث المبدأ والتطبيق!

إلا أني في شهر آذار من عام 1966، عندما أصبت في الحنجرة، ومُنِعت حتى من الكلام، لم يعد بوسعي متابعة التدريس في المدارس الثلاث، التي كنت أدرّس فيها، والثالثة كانت مدرسة دار السلام للراهبات الفرنسيسكانيّات، وانقطعت عني الرواتب كلّها. فخصّصت لي البطريركية مبلغ مائتي ليرة سورية كلّ شهر فقط، علماً بأني بتّ، منذ تلك الفترة، أنام في بيت أهلي، وكثيراً ما كنتُ أتناول الطعام عندهم، فيما كنت أتابع معالجتي في بيروت.

وفي تلك الفترة العصيبة على كلّ صعيد، وقف بجانبي، أكثر من أي إنسان آخر، من سمّيته "ملاكي الحارس"، روجيه كحيل، وقدّم لي، بمبادرة محض ذاتية، وفي منتهى المحبّة والرقّة، مبلغاً، أصرّ على تقبّلي له، وهو يقول ويكرّر: "أرجو أن تقبله، كي تظلّ واقفاً! لا أريد لك أن يكسروك، وهذه طريقتي في مشاركتك كهنوتك!". ولم تكن تلك

المبادرة الأولى والأخيرة! وكان دائماً في تصرّفه حتى اللحظة من عام 2013، من الصدق والنبل، ما كان يشعرني حقّاً أني أمام مبادرة ربانيّة، فأتقبّلها منه، شاكراً لله، قبل أن أتوجّه بالشكر له!

وإلى ذلك، كنت، عندما أجدني مضطراً لمزيد من المال، أستدين من الأب الياس صارجي، الذي كان بالنسبة إليّ، بمثابة الأب والأخ الكبير. وهكذا، استدنتُ منه عندما اضطررت لمعالجة حنجرتي في بيروت، ثم عندما رافقت، في صيف عام 1966، ابن خالتي "ادوار حجار" وأخاه "جورج"، في السيارة، إلى تشيكوسلوفاكيا، حيث كنت أرجو معالجة شافية. وعندما عدت إلى سورية، مروراً بفرنسا، استدنت من صديقي جورج حمصي في بيروت، كي أفي ما كان ترتب عليّ من دين للأب "بيير بوز" في باريس، من أجل عودتي. ولكم يؤسفني أن أقول إنه لم يخطر ببال أحد في البطريركية، طوال هذه الفترة القاسية، أن يسألني ما إذا كنت بحاجة إلى أي شيء!

وعندما أصبحت أمين سرّ للبطريرك مكسيموس الخامس حكيم، في صيف عام 1969، كانت أشهر طويلة تمضي عليّ، قبل أن أتقاضى أي أجر. وكان البطريرك يسألني بين حين وآخر، ما إذا كنت أعيش "دون مال"، فكان جوابي على الدوام: "نعم، ليتنا كلّنا نعيش بلا مال!". ولما سافرت معه في جولتنا الطويلة إلى أميركا الجنوبيّة والشمالية، ما بين شهر تشرين الأول عام 1969، وأواخر كانون الأول من عام 1970، اضطرّ هو لدفع ثمن البطاقة، لأنه كان مصرّاً على مرافقتي له. إلا أنه، عندما عدنا، ونقدني أجور بعض الأشهر التي لم أكن قد تقاضيت أجرها، حسم منها أجور الأشهر الثلاثة التي قضيتها معه في تلك الرحلة!

وفي شهر أيلول من عام 1970، تخلّيت عن خدمتي في مكتب البطريرك، وعدت إلى دمشق، وإلى شبيبة الرعية الجامعية، وسائر حركات الشبيبة القائمة فيها، كلّما كان يُطلب مني حديث أو لقاء، وكانت جميع هذه الخدمات، بالطبع، مجانية. فكنت أكتفي بما كانت البطريركية تقدّمه لي كلّ شهر، وهو مئتا ليرة سورية فقط. وكانت بعض المقالات التي كنت أكتبها هنا وهناك في الصحف والمجلات، تحمل لي بعض الدعم. وأما الدعم الحقيقي، فكان يأتيني، كما قلت، من ذاك الذي سمّيته "ملاكي الحارس". وكان أحياناً خال أمي، أسقف البرازيل، يرسل لي بين حين وآخر، دعماً مفاجئاً. وكذلك كان يفعل مطران حوران، نقولا نعمان، في سرية تامة. وعندما طُلِب مني أن أدرّس اللغة اللاتينية والترجمة، في عام 1972، في جامعة دمشق، في قسم اللغة

الفرنسية، وافقت، لأني ألفت التعامل الفكري والإنساني، مع الشبيبة الجامعية، فضلاً عمّا كان يجلب لي من دعم ثابت، ولو هزيل. وفي مطلع عام 1978 الدراسي، طُلِب مني أن أدرّس تاريخ المسرح واللغة الفرنسية، في المعهد العالي للفنون المسرحية، فوافقت دون تردّد، لشغفي بالمسرح، إلا أني لم أستطع المتابعة أكثر من بضعة أشهر، لما أصابني من إرهاق، لا سيما وأنّ الراتب كان لا يزيد إلا قليلاً عن أجور سيارات التكسي، إذ كان المعهد آنذاك في ضاحية دمّر البعيدة.

في هذه الأثناء، كنت قد كُلِّفت ترجمة كتابين لوزارة الثقافة، هما "المجتمع والعنف"، و"فكر هيجل السياسي". وكان صديقي انطون المقدسي قد شجّعني على المضي في هذا الدرب. وقد جلبا لي أيضاً دعماً لا بأس به. ثم كلّفتني وزارة الثقافة، عام 1978، ترجمة الأجزاء الخمسة من تاريخ المسرح، الذي كان الكاتب الإيطالي، "فيتو باندولفي"، قد وضعه. وقد استغرقت ترجمة هذه الأجزاء الخمسة، عشر سنوات، جلبت لي أيضاً بعض الدعم المادي، كما جلبت لي أيضاً وخصوصاً فرحاً كبيراً، لأني شعرت أني ساهمت بهذه الترجمة، في سد ثغرة واسعة في الثقافة المسرحية العربيّة. وإني، إذ أتذكّر كلّ هذا الجهد الثقافي، لا يسعني أن أنسى الساعات الطويلة التي كنت أقتطعها من نومي، صباح كلّ يوم، فتأتي أمي وتجلس بجانبي، وهي تحضّر لي، في صمت، شيئاً من الزهورات أو الحليب أو الشاي!...

تُرى، هل من نافل الأمور أن أذكر أنّ هذا الجهد الثقافي والتعليمي، قد عاد عليّ بعدد من الأصدقاء، الذين أعتزّ بهم سواء بين المثقّفين المعروفين، من أنطون المقدسي، وأديب اللجمي، والدكتورة نجاح العطار، ورياض عصمت، وعلي عقلة عرسان، وحافظ جمالي، وعدنان بغجاتي، وميخائيل عيد، وجورج جبور، وسعدالله ونوس، ورشاد أبو شاور، وحسام الدين الخطيب، وممدوح عدوان، وكذلك بين الوسط المسرحي، مثل سمير سلمون ودريد لحام، وسليم صبري، وثناء دبسي، ومنى واصف، وأسعد فضة، وعلاء الدين كوكش، ورضوان عقيلي، ومحمود خضور، وخالد تاجا وعجاج سليم، وجهاد سعد، وزيناتي قدسية، وجمال سليمان، وعباس النوري وأيمن زيدان ونضال سيجري؟

وفي صيف عام 1977، طُلِب مني أن أخدم كنيسة جديدة، هي كنيسة سيدة دمشق، مع كاهنين آخرين، هما الأب جبرائيل معلوف، والأب ميشل حلاق، فوافقت شريطة أن أتفرّغ لخدمة الشبيبة والطفولة. وهكذا كان. وعندما أتيح لي أن أؤسّس جوقة

الفرح عام 1977، وفرسان المحبّة عام 1980، فضلاً عن رعايتي لأسرة الرعية الجامعية، لم أشأ أن أتولّى أية مسؤولية مالية فيهما. إلا أني في نطاق خدمة الكنيسة، اصطدمت بواقع آخر، كان يؤلمني من زمان بعيد، وهو واقع تقاضي أجور مالية، لقاء القداديس التي يقيمها الكاهن على نيّات محدّدة، وبطلب من أناس محدّدين. وقد اتّضح لي أن هذا الواقع راسخ في عقول الكهنة والمؤمنين معاً، رسوخاً تكاد زحزحته تستحيل كلّيّاً. وكنت أريد لصلاتي أن تكون مجانيّة بالكلية، وشاملة شمولاً مطلقاً، لأني آبى لذبيحة الرب يسوع، الشاملة شمولاً كلّيّاً في الزمان والمكان، أن تُحدّ بنيّة واحدة، في سبيل أجر، بالغاً ما بلغت قيمته! بالطبع هذا الموقف أزعج كهنة الرعية والعديد من الكهنة الآخرين، إلا أنّ أحداً منهم لم يفاتحني بالأمر. ورضخ الجميع، حتى البطريركية، لموقفي. كما أني شئت لجميع خدماتي الروحية، من زواج وعماد، وحمل القربان المقدّس للمرضى في البيوت، وسواها من خدمات أخرى، أن تكون هي الأخرى، مجانية. وكان لي ما أردت، ولكن دون أن يؤثّر ذلك في ما كنت أُعطَى من راتب شهري، يتقاضى مثله جميع الكهنة سواي، لا سيما وأني كنت أتناول الطعام دائماً في بيت أهلي، وكنت أمضي الليل في بيت أهلي أيضاً، حتى وفاة أمي في شهر تشرين الثاني من عام 1979، حيث صرت أنام في غرفتي في الكنيسة. ولكم يؤسفني أن أقول الآن، إني حتى اليوم، ما زلت الكاهن الوحيد في كنيستنا في دمشق، الذي يرفض رفضاً قطعيّاً ما يُسمّى حسنة القدّاس، وسائر الأجور الأخرى، مكتفياً بالراتب الذي تقدّمه لي البطريركية، وبما أضافت إليه بقرار شخصي من البطريرك، منذ ثلاثة أعوام فقط، لما يُسمّى "بدل طعام".

بالطبع، طوال هذه السنوات، لم أكفّ عن المطالبة بنظام مالي شفّاف في الكنيسة، على مستوى البطاركة والمطارنة والكهنة. ولكم من مرة أثرت هذا الموضوع الحساس، عندما التحقت بأمانة سرّ البطريرك الحكيم، في عامي 1969 و1970. وقد تماديت في اتهامي للإدارة البطريركية، وللإدارات الأسقفية، بالتلاعب والكذب، حتى عندما كان البطريرك ينوي طرحه في السينودس السنوي عام 1970، لمطالبة الأساقفة بكتابة وصيتهم الشخصية! وقد كنت أريد نظاماً ماليّاً شفّافاً، يُبعد عن الكنيسة الشبهات الكثيرة القائمة حولها، ويحرّر الكاهن أي كاهن، من أيّ تبعيّة مادّيّة، بحيث يُضمَن له فيه راتب شهري، مدروس ومقطوع، يغطّي جميع حاجاته في كفاية وكرامة، كما يُضمن له فيه حالات المرض والشيخوخة. وكان أن كتبت مقالين قاسيين بهذا الصدد،

عام 1971 و1972، نُشرا في "المسرّة"، لأطالب بهذه الإصلاحات. وأوليت هذا الموضوع اهتماماً خاصّاً، عندما انتُخبتُ أميناً عاماً لمؤتمر إكليروس الروم الكاثوليك، في تعنايل عام 1973. إلا أنّ الواقع المعاش كان أقوى، وقد اتضح لي أنّ معظم الكهنة باتوا يستمرئون هذا النمط من العيش، على ما فيه من مهانة واعوجاج. وأما الأساقفة، فكانوا بمعظمهم لا يريدون بديلاً لهذا النظام. وما جدوى المجانية في الخدمة الروحية، ولِمَ التحرّر من تَبعيّة مهينة، ألفها أصحاب السلطة والكهنة على السواء، وكأني بها باتت جزءاً لا يتجزّأ من حياتهم؟ وإني لأذكر أني تجرّأت ذات يوم، وطرحت هذا الموضوع بالذات، خلال واحد من الاجتماعات النادرة المشتركة، التي عُقِدت بين إكليروسَي الروم الأرثوذكس والروم الكاثوليك، وكان قد عُقد في بطريركية الروم الأرثوذكس، برئاسة كل من البطريرك هزيم وحكيم، فلم يلقَ أي ترحيب من أحد. وإني لأتذكر أني لم أجرؤ يومها، على طرح هذه المسألة الشائكة، إلا لأني كنت آنذاك على علاقة وثيقة بالبطريرك هزيم. وليُسمح لي أخيراً أن أذكر، بألم عميق، ما كان يجري في معظم اجتماعات الكهنة في دمشق مع البطريرك حكيم، ولا سيما قُبيل عيدي الميلاد والفصح، وقُبيل مغادرته دمشق إلى مقرّه الصيفي، في عين تراز بلبنان... إذ كان البطريرك، خلال هذه الاجتماعات العامة، يكلّف أحد الكهنة، وكان يخصّ منهم الأب ميشل حلاق، توزيع مغلّفات على جميع الكهنة الحاضرين، تحتوي مبلغاً لا بأس به. ويؤسفني أن أقول إني كنت الكاهن الوحيد الذي كان يرفض هذا المغلّف، لأني كنت أعتبر هذه الطريقة بالعطاء، مهينة بحقّ البطريرك والكهنة معاً. وما كنت أتردّد في التحدّث إلى البطريرك بهذا الشأن، بمنتهى الصراحة، إلا أنه، كما كان يُعرف عنه، لا يتأثّر بشيء، ولا بكلمة، ويعتصم بالصمت الهادئ، وكأني به أبو الهول! وجاء يوم، قاطعت فيه جميع هذه الاجتماعات، لعدم جدّيتها وجدواها!

وعندما بدأ المطران غريغوار حداد في بيروت حركة الإصلاح الثقافية والإدارية والمالية، في كنيسته، تفاعلت مع بعضهم، ولا سيما مع صديقي انطون المقدسي... إلا أنّ هذه الحركة، الجادة والعظيمة، وجدت بسرعة من وأدها!

تُرى، هل من حقّي أن أثير هذا الموضوع الشائك والمؤلم؟ بل إني لأشعر، على ما ينتابني من غثيان لإثارته، بواجب التحدّث عنه. إلا أني سأختزله ببضع نقاط، رأفةً بي أوّلاً، ورأفةً أيضاً بمَن يشفقون على كنيسة المسيح.

لا يظنّنَّ أحدٌ، بادئ ذي بدء، أني أريد أن أظهر بمظهر الضحية. كنت أعرف الرهان الصعب، إن لم أقل المستحيل، قبل أن أُقدِم على الكهنوت. ولقد أَقدمتُ، لثقتي

بقدرة الرب على تغيير ما لا يمكن تغييره! ولذلك اخترت شعاراً لي يبدو صنواً للمستحيل: "لا يمكنكم أن تعبدوا ربّين: الله والمال". ثم كان ما كان من جهادي المستميت في هذا السبيل، وبلغتُ اليقين بأنّ أحداً من رجال الكنيسة لن يخوض هذا الرهان، لأنّ المال بات إلى معظمهم، التعويض الأمثل لكلّ حرمان. ولكني استمتُّ في عنادي، وكان أصعب ما كنت أواجهه في هذا السبيل، معارضة أمّي لي، لا طمعاً بمالٍ كانت أكثر الناس زهداً به، وإنّما خوفاً عليّ من مرض، أو من حاجة قاهرة، أو من طارئ قاسٍ، أو من إجراء كنسيّ ظالم. والحقيقة أنّ كل ما كانت أمّي تخشاه عليّ، قد حدث. إلاّ أنّ الربّ كان حاضراً حضوراً مدهشاً، من خلال هذا أو ذاك من المؤمنين، الذين باتوا بالنسبة إليّ أكثر من إخوة وأصدقاء، يقدّمون لي ما كنت بحاجة إليه وأكثر، في توقيت مدهش، وفي لباقة ورقّة إنجيليّين!

ولئن كان لي أن أذكر بعضها، فإنما أنا فاعل، لا بدافع التشهير، بل بدافع الشهادة لمن آلوا على أنفسهم أن يعيشوا الإنجيل في صمت وإيمان ومحبة خفية.

عام 1984، كنت أتقاضى راتباً قدره (700) ل.س. فقط. فطالبت في أحد الاجتماعات التي ضمّت كهنة كنيسة سيّدة دمشق ووكلاءها، زيادة (300) ل.س. فوافق الجميع على ذلك. وصرت أتقاضى ألف ليرة. إلا أنّ البطريرك حكيم، إذ علم بذلك بعد ثلاثة أشهر، قرّر إلغاء هذه الزيادة، وكلّف المطران فرنسوا تبليغي هذا القرار في اجتماع ضمّ، في كنيسة سيدة دمشق، الآباء الثلاثة والوكلاء! وكان أن رضخ الجميع. فما كان مني إلاّ أن أعلنت عن قراري بالتخلي عن كل راتب، مع إعادة الزيادات الثلاثة، التي كنت تقاضيتها في هذه المدة. وهكذا كان، إذ أعدتها عن طريق صديقي عادل البطل، وكان يومها واحداً من الوكلاء! وظللت على هذه الحال، حتى كان يوم وجدتني أتحدّث فيه بقسوة مع المطران إيزيدور بطيخة، أمام جثمان أحد الكهنة، وعبتُ عليه وعلى السلطة الكنسية الاستهتار المطلق بالكهنة، أحياءً وأمواتاً. وذكّرته بوضعي، وكان قد مضى على حرماني الرواتب ستّة عشر عاماً. فاستهول الأمر، وادّعى جهله بالواقعة. وأكّد لي عزمه على اتخاذ الإجراء الملائم في أقرب وقت. وبعد أيام استدعاني، وفاوضني باسم البطريرك، كما ادّعى، على حلّ هذا النزاع. وفي الواقع، اجتمعنا معاً، واتفقنا على حلّ عاجل تقدّمت به، وهو أن يدفع لي مبلغ ألف وخمسمائة ليرة فقط عن كلّ شهر من السنوات الستّ عشرة، التي حُجِب عنّي فيها الراتب. بالطبع كان هذا الحلّ في غاية الغباء من قبلي، إلا أني أردت بموقفي هذا أن أظهر لهم، أنّ المال بالنسبة إلي، لا يقدّم ولا يؤخّر. بالطبع وافق المطران. إلا أني اشترطت أن يُكتَب مع الشيك، بطاقة يوقّعها المطران،

وتُفيد بأني أتقاضى هذا المبلغ تعويضاً عن ستّة عشر عاماً، حجب عني خلالها كلّ راتب. فكتب المطران ايزيدور، على بطاقة صغيرة تحمل اسمه ولقبه بوصفه النائب البطريركي بدمشق، ما يلي بالحرف الواحد:

« أُعطِيَ الشك المرفق – رقم 183709/ب 99/3/25، بتاريخ 2000/9/7 لحضرة الأب الياس زحلاوي وبقيمة مائتين وخمسين ألف ليرة سورية، وذلك تعويضاً عن رواتب ستة عشر عاماً حُجِبَت عنه خلالها.

التوقيع »

وبعد ذلك، رُفع راتبي الشهري إلى عشرة آلاف ليرة سورية حتى عام 2009، حيث رُفع أيضاً إلى اثني عشر ألف ليرة سورية، أضيف إليها، بدءاً من عام 2010، أربعة آلاف ليرة "بدل طعام"!...

أشعر بالخجل، وأنا أكتب كلّ هذه الأمور. إلا أني أصرّ على كتابتها، لعل مثل هذه الأوضاع والإجراءات التعسفية، التي لا تمتّ إلى أيّ قانون أو أخلاق بصلة، والتي تمارس في الكنيسة دون حسيب ولا رقيب، حتى من ضمير، تجد حلاً لها في يوم قريب، حلاً ينبع من الإنجيل وحسب، ليحرر الكنيسة الشرقية وخَدَمَتَها من بطاركة وأساقفة وكهنة، من كلّ ما لا يمتّ، لا إلى يسوع ولا إلى الإنسان، بصلة...

أودّ أن أختم هذا الفصل المعيب بذكر وجيز لبعض الحالات الطارئة والقاسية، التي واجهتها في ذاتي أو في أحد أفراد أسرتي، والمواقف المتباينة إزاءها، التي بدرت آنذاك من بعض المؤمنين، في غياب مبادرة السلطة الكنسية.

1- في 2005/6/18، أُجريَت لي عمليّة جراحيّة في عيني اليمنى، في المشفى الإيطالي بدمشق، من أجل استئصال الماء الزرقاء منها، وقد غطّى كلفتها صديقي أديب مصلح، بمبادرة منه!

2- في 2005/7/11، أُجريت لي عمليّة جراحيّة في العين ذاتها، إثر التهاب قيحي مفاجئ، أفقدني البصر فيها، وهدّد العين اليسرى، وذلك في مشفى الطب الجراحي بدمشق... وقد ظللت في المشفى أسبوعاً كاملاً، قيد العلاج... وقد غطّى النفقات كلّها عدد من أبنائي في جوقة الفرح وأسرة الرعية الجامعية، دون أن أعرفهم بأسمائهم!

3- في 2006/1/4، أُجريت لي عمليّة جراحيّة في مشفى الدكتور رزق، في بيروت، على يد الدكتور رياض معلوف، وبإشراف الدكتور جورج شرفان، وذلك من أجل استئصال العين اليمنى كلّيّاً، إنقاذاً للعين اليسرى. وقد زارني قبل سفري إلى بيروت،

بيومين، صديقي أديب مصلح، وسلّمني مغلّفاً فيه (4000) دولار أميركي. وسلّمت هذا المبلغ للشابين، مروان نخلة وعبدالله القائد، اللذين رافقاني إلى بيروت. وعلمتُ منهما أنّ كلفة العملية الجراحية كانت (1500) دولار أميركي. وعند عودتي إلى دمشق، أعدت المبلغ المتبقّي إلى صديقي أديب مصلح، علماً بأنه كان يصرّ عليّ كي أحتفظ به، من أجل العين الصناعية. ولّما كان يتابعني في جميع أحوالي، وعلم بحاجتي القريبة إلى العين الصناعية، وكانت قيمتها ألف دولار أميركي، فقد قدّم لي المبلغ بكامله، على أن أحيطه علماً بجميع أحوالي!...

4- بعد وفاة أختي الراهبة لوسي، يوم سبت النور، وتمّ ودفنها في دير الراهبات في حريصا، يوم اثنين الباعوث من عام 2007، أصيبت أختي الثانية نور، بعد يوم واحد، بجلطة دماغية، أُدخلت على إثرها إلى المشفى الفرنسي، مدة أسبوعين، ثم نُقلت بعده إلى مشفى البِشْر في بلدة حرستا، حيث ظلّت شهرين كاملين، وكان أن توفّيت في 3 حزيران من عام 2007. وقد غطّى جميع النفقات المترتبة للمشفيَين، صديقي أديب مصلح، بإشراف ابن أخيه فكتور مصلح.

5- في أوائل شهر آذار من عام 2009، أصبتُ بأزمة قلبيّة، أدخلتُ على إثرها المشفى الإيطالي بدمشق، حيث مكثت أسبوعاً كاملاً، قبل أن أعود إلى بيت أختي الصغرى "رينيه"، زوجة عبد المسيح أوسكا، وقد أقمت عندها شهرين كاملين، والذي غطّى نفقات المشفى هذه المرة أيضاً، كان صديقي أديب مصلح، ولكن بيد ابن أخيه فكتور مصلح. وهنا، لا بدّ لي من باب الأمانة، أن أذكر أنّ المطران جوزيف العبسي قد زارني مرتين في المشفى، وأبدى استعداد البطريركية لتغطية نفقات المشفى، فسألته ألا يحرم مَن تطوّعوا للتغطية، فَرَح مثل هذا العطاء، فاستجاب.

هذا بعض من كثير! فحسبي.

ليس لي أخيراً، إلاّ أن أرفع الشكر للرب يسوع، أوّلاً، لأنه قَبِل رهاني عليه وحده، في كلّ ما يتعلّق بالمال، فأرسل لي من لدنه، أحبّةً كثيرين، جاءت المبادرة دائماً منهم وحدَهم، أخصّ بالذكر منهم أصدقائي أديب مصلح في دمشق، وروجيه كحيل في دمشق وكندا، ورياض حنا وزوجته كلوديا مزّق، في ألمانيا، ورولان غانم في الولايات المتحدة! وأحمد الخطيب وعائلة إيلي قيومجي، وعبدالله الخاني في دمشق، وخالد العُصَيمي في سويسرا.

ثانياً، لأنّه وهبني أهلاً عرفوا جميعهم، قديماً وحديثاً، على ضيق ذات يدهم، أن يترفّعوا عن كلّ حاجة، ويغلّبوا المحبّة على كلّ شيء!

4- علاقتي بالسلطة الكنسية عامة، وبالبطريرك غريغوريوس لحام خاصة.

عليّ أن أتابع اعترافاتي، وفاءً مني لنفسي ولربي.

رسمت، في ما سبق، بعضاً من ملامح علاقاتي مع البطريرك مكسيموس الرابع الصائغ من جهة، والبطريرك مكسيموس الخامس حكيم من جهة ثانية. كما أني رسمت أيضاً بعضاً من ملامح علاقاتي بالأساقفة الذين كانوا، في دمشق، نواباً لهما.

أودّ الآن أن أتوقف عند بعض الخطوط، العريضة والحاسمة، في هذه العلاقات، كي أصل بشيء من التفصيل إلى علاقتي برئيسي الحالي، البطريرك غريغوريوس لحام.

على الرغم من كلّ ما انتاب علاقتي بالبطريرك الصايغ، من توتّرات دائمة، بلغت أحياناً حدّ مقاطعتي له عمداً، يستوقفني الموقف النبيل والكبير والأخير، الذي اتّخذه مني، قبل وفاته بثلاثة أشهر تقريباً. فقد استدعاني، وما أن دخلت مكتبه، حتى وقف، وتقدّم مني فاتحاً ذراعيه، وهو يبتسم، ويقول في معانقة حارّة، كانت له الأولى بالنسبة إلي: "أنت طيّب! طيّب! طيّب!". وكانت تلك طريقة مصالحته لي، وقد أجلسني بقربه، وتحدّثنا طويلاً، في مودّة وثقة رسختا في ذاكرتي وقلبي وصلاتي، وغسلتا كلّ الماضي جذرياً!

ولكم سرّني أن أعلم هنا في دير الآباء البولسيين، في حريصا، على لسان الأب العام إيلي آغيا، أنّ البطريرك الصايغ، قبل وفاته بأسبوع واحد، فعل الأمر نفسه مع كاهن، كان في دمشق، يرئس المدرسة البطريركية المجانية، ويخدم أطفالها الفقراء، خدمات رائعة ومتنوّعة، هو الأب جوزيف مصري. وكان قد لاقى من البطريرك الصايغ إياه، بسبب وشايات كاذبة من بعض الكهنة، معاملةً قاسيةً جداً، دفعته لا للتخلي عن دمشق وحسب، بل عن كنيسة الروم الكاثوليك، حتى إنه التحق بالكنيسة اللاتينية في بيروت، حيث واصل خدمته الرائعة لأبناء الطبقات الفقيرة فيها، تماماً كما كان يفعل في دمشق. ويومها كان البطريرك الصايغ في التاسعة والثمانين!

وقبل أن أنتقل إلى البطريرك الحكيم، الذي خلفه عام 1967، لا بدّ لي من التوقف قليلاً عند المطران يوسف طويل، الذي شغل مركز نائب للبطريرك في دمشق، من عام 1960 إلى عام 1969. ولقد تحدّثت طويلاً عمّا كان بيني وبينه أحياناً من تعاون، وأحياناً من توتّر وصدام. إلا أني أودّ الآن أن أشير إلى التغيير الجذري الذي طرأ على علاقته بي، بعد أن نُقِل إلى الولايات المتحدة عام 1970. فقد كان هو من بادر إلى الكتابة لي. وكانت أولى رسائله إليّ، مفعمة

بالمحبّة والتقدير والتشجيع! حتى إني أذكر جيّداً أني افتتحت جوابي له بهذه العبارة: "سبحان مَن باعد بيننا في المكان، ليقرّبنا الواحد من الآخر، في المحبّة والرسالة!". لم أحاول يومها أن أعرف ما الذي غيّره، إلا أنه كان قد تغيّر حيالي كلّيّاً. وتبيّن لي، بمرور الزمن، أنّ الجانب العروبي فيه قد صُقل وتأجّج، حتى إنه قام بدور بطولي حقّاً، إبان حرب تشرين عام 1973، على نطاق الكنيسة الكاثوليكية كلّها في الولايات المتحدة. وقد سرّني أن أروي ذلك في حينه، ثم أُتيح لي نشره كاملاً في كتابي "من أجل فلسطين". أجل، لكم تغيّر! ولكم كان يحتفي بي، عندما كان يتاح لي أن أزوره في مركزه، في منطقة "وست نيوتن"، بالقرب من بوسطن! ولكم كان يرتاح للتحدّث إليّ في مكتبه، فيكشف لي بعض مشاريعه، وأحياناً يبوح لي ببعض همومه. وكنت آنذاك أقارن بين ما كانت عليه الحال بيننا في دمشق، وما هي عليه الآن من حميميّة وثقة وارتياح! وكان يُسَرّ باصطحابي معه في بعض جولاته في الطائرة، لتفقّد الكنائس والرعايا في الولايات المتحدة. ولكم كان سعيداً بحدث الصوفانية، ويقظاً، وحريصاً على متابعة تفاصيله، وعلى توجيه النصح لي وللأب معلولي بهذا الشأن. وكان شديد الفرح بصُوَر سيّدة الصوفانية، وبقطع القطن المشبعة بالزيت العجائبي، ويسارع إلى توزيعها على نطاق واسع. وأما عندما كان يعود إلى دمشق، في كلّ صيف تقريباً، فقد كانت من أولوياته زيارة بيت العذراء في الصوفانية، والصلاة أمام الأيقونة العجائبية، وتسقّط آخر أخبارها. ولقد حرصت على إدراج عدد كبير من الرسائل التي كان يوافيني بها، بهذا الشأن، في كتاب الصوفانية الكبير، الذي صدر عام 2008، والذي شئته وثيقة شبه كاملة لهذا الحدث الفريد.

أصل الآن إلى البطريرك مكسيموس الخامس حكيم. كان قادماً من فلسطين المحتلّة. ويوم كنت طالباً في القدس، منذ عام 1952، كانت له طلاّت مفاجئة وسريعة على الدير، لا سيما لتناول الطعام مع الآباء البيض، حيث كنّا نحن الشمامسة، نتناول الطعام أيضاً. فلم أكن أرتاح له، عندما كان يدخل قاعة الطعام، وهو بلباسه الخمري الطويل، يتبختر متثاقلاً في مشيته، بوجه مشرق ومرتاح، فيما رائحة العطور كانت تواكبه وتملأ المكان على نحو مثير! أما انتخابه بطريركاً، فكان مفاجأة لي وللكثيرين، مع أنّ بعضهم، ومن أكثرهم نفوذاً مثل الأب جورج فاخوري، كان شديد الحماس له، وإن أبدى لي، بعد فترة وجيزة، خيبته! وفي دمشق، كان في طريقة تعامله مع الكهنة من جهة، والعلمانيين من جهة ثانية، غامضاً، إن لم أقل باطنيّاً.

وقد اتّضح للجميع بعد سنوات وسنواتٍ، أنه يجد متعة في تغيير نوّابه، إذ بلغوا ستة، وهم على التوالي: المطارنة يوسف طويل وبولس أشقر، والياس نجمة، وبطرس راعي، وفرنسوا أبو مخ، وايزيدور بطيخة!

وعندما التحقت بأمانة سرّ البطريركية، في صيف عام 1969، تكشّفت لي جوانب في شخصيته، وفي طرائق تعامله مع الناس عامة، والكهنة خاصة، لم تُرِحني، إذ لمست فيه ازدواجية، يُخفيها وراء هدوئه الدائم! ولقد حاولت طويلاً أن أتلمّس مفاتيح تفكيره وتعامله، فانتهيت إلى نتيجة غير مريحة، وهو أنه بلغ اليقين بأنه بات يحتلّ مركزاً في الكنيسة والمجتمع، لا يطاله فيه، عملياً، لا قانون كنسي، ولا قانون مدني! ومَن تُراه يحلم يوماً باحتلال مركز مثل هذا؟! ويبدو لي أنّ هذا اليقين وحده، وليس الإيمان بيسوع، هو الذي كان يقف وراء ما كان يتظاهر به من طمأنينة شبه مطلقة. وفضلاً عن ذلك، فقد كنت أعرف، كما يعرف الكثيرون، أنه كان يملك ثروة طائلة، ويرتبط إلى ذلك بشبكة علاقات كنسية واجتماعية وسياسية، تمتدّ على نطاق العالم، ولا سيما في الولايات المتحدة الأميركية!

وكان يوم التحاقي بالدائرة البطريركية في عين تراز، بداية مواجهاتي معه، وقد كادت تكون يومية. إلا أني لم أصطدم به، ولا مرة واحدة، لسبب يتعلّق بي، بل لأسباب كانت كلّها تتعلّق بأوضاع كنسيّة عامة، وبأوضاع تخصّ عدداً من الكهنة، الذين كانوا يراجعونه. وكان معظمهم يفاتحني بشأنها، إما قبل مقابلة البطريرك، وإما بعدها. ومن هنا كان إصراري على متابعة شؤون الكهنة، وإثارتها معه. ويؤسفني أن أقول إني قلّما كنت ألقى أذناً صاغية.

وفي هذه الفترة بالذات، كلّفني البطريرك مهمّةً هامّةً، في نطاق البطريركية بدمشق. فقمت بما كُلّفت به، وأجبت البطريرك برسالة سلّمته إيّاها باليد. وإني لأدرجها الآن بحرفيتها، وهي بتاريخ 1970/6/3، وقد جاء فيها:

« دمشق في 3 حزيران سنة 1970

أبت صاحب الغبطة،

كنتم طلبتم إليّ إطلاعكم على بعض ما يجري في دمشق.

حاولت أن أتقصّى الحقائق بسرعة وبموضوعية وبمحبّة. واتبعت أسلوباً تارةً مباشراً، وتارةً غير مباشر. فاتصلت بصاحبي السيادة المطرانين أشقر ويواكيم. كما تحدّثت إلى أكبر عدد من الكهنة إخوتي. وقد تسنى لي أن أسمع عدداً لا يُستهان به من العلمانيين.

إليكم ما وصلت إليه بكلّ صراحة ومحبّة واحترام. ولكن دون أي تفصيل، تاركاً للقائكم القادم بأبنائكم في دمشق، من أساقفة وكهنة وعلمانيين، أن يكشف لكم ما يكمن وراء ستارٍ كثيفٍ من التملّق والتظاهر. ولا رجاء لي إلا أن يمارسوا معكم الصراحة إيّاها التي مارسوها معي.

أبتِ صاحب الغبطة،

إنّ الحالة في البطريركية بلغت، من حيث الإدارة المادية العامة، ومن حيث علاقات الكهنة بالسلطة، حدّاً من الشك وانعدام الثقة لا نُحسد عليه.

واسمحوا لي بمصارحتكم، كما عوّدتكم، بمحبّة واحترام، بأنّ هذا الشك بلغ حدّاً جعل البعض يتساءلون بشيء من اليقين، ما إذا كان هناك مخطط تخريبي ضدّ البطريركية في دمشق!

يؤسفني أن أقول هذا ويؤلمني جدّاً، كما يؤلمني أكثر أن أضطرّ لمصارحتكم بأنّ هذا الشك يطالكم أنتم شخصيّاً!...

أعرف تماماً أنّ ما أقوله بالغ الخطورة. ولكني أعرف تماماً أيضاً أنه عين الحقيقة التي سمعت.

لذا لم أتردّد، على ما سأسبّبه لكم من ألم وحزن، في قول ما قلت، لا سيما وأنكم عوّدتموني على رحابة صدر قلّما يتمتّع بها رئيس كنسي. ومرة أخرى، كل ما أرجو هو أن يصارحكم، لدى قدومكم إلى دمشق، كلّ المعنيين بالأمر بمثل ما صارحوني به.

أما الحل، فلا يسعني إلا أن أراه في مزيد من محبّة تصدر عنكم وعن نائبكم، وحيال الكهنة فرداً فرداً، وفي سخاء مادي بات الشعور بانعدامه، يجهز على ما تبقّى من روح إيمان ومن شعور بالكرامة، لدى عدد لا يُستهان به من أبنائكم الكهنة.

لن أضيف على ذلك شيئاً، تاركاً للرب أن يلهمكم ما فيه مجد اسمه ونقاء صورته في كنيستكم في دمشق وفي بطريركيّتكم وأبنائكم الكهنة في دمشق.

أسألكم الدعاء والبركة.

ولدكم الأب الياس زحلاوي »

يؤلمني جداً ما أجدني مضطرّاً لكتابته الآن، وإن كان كلّه قد احتلّ نصيباً وافراً في مشاركاتي في مؤتمرات الإكليروس. وأودّ أن أضع حدّاً لهذا الذي يخصّ البطريرك الحكيم، بعد أن أشير إلى واقعتين اثنتين لا غير.

الأولى، كانت إثر استقالة المطران الياس كويتر، مطران البرازيل، في أواخر شهر

حزيران عام 1978، وهو خال أمي.ويومها، استدعاني البطريرك، ليعرض علي أسقفية البرازيل.فكان جوابي الفوري، بالحرف الواحد: "سيّدنا، هناك مثل عربي يقول: "خيّط بغير هالمسلّة!".فقال لي: "شو يعني؟" فقلت له: "سيّدنا، سأشرح لك بكل وضوح.أنت بطريرك.فإن كنت تريد التخلّص مني في دمشق، اتّبع طريقة أخرى.بوسعك أن تصدر قراراً تُبعدني فيه عن دمشق.أما أن تتخلّص مني على حساب أبرشية طويلة عريضة مثل البرازيل، أجهل لغتها وناسها، فهذا أمر لا يجوز.وأنت تعرف جيّداً أنّ المطران الياس كويتر، قد هيّأ كاهناً برازيلياً من أصل عربي، هو الأب موريس خوري، وهو كاهن مؤهّل، مثقّف ومحبوب جداً، كما اتضح لنا عندما زرنا البرازيل عام 1970، فضلاً عن أنّ أخته ماتت شهيدة الطهارة، مثل الشهيدة "ماريا غوريتي".وسألته عندها بصريح العبارة: "لماذا تريد خراب الأبرشية، بإرسالك كاهناً غير مؤهل، لمجرد رغبتك في التخلّص منه في دمشق؟".وما حدث بعد ذلك في كنيسة البرازيل، أؤثر ألا أتحدّث عنه.إلا أني أحثّ قارئي على محاولة الاطّلاع على ما آلت إليه أبرشية البرازيل، بعد ذلك، فيما آثر الأب موريس خوري أن يرحل إلى مصر، حيث هو يخدم الآن إحدى الكنائس في القاهرة...

الثانية، حدثت عام 1982، إثر وفاة المطران نقولا نعمان، مطران حوران وجبل العرب، منذ عام 1967.وقد استدعاني البطريرك بعد الوفاة بأيام قليلة، وعرض علي أسقفيّة حوران.فكان جوابي بالحرف الواحد: "سيّدنا، سبق أن قلت لك ذات مرة: خيّط بغير هالمسلة! لماذا تريد خراب أبرشية، أنا غير مؤهّل لخدمتها؟ وأنت تعرف تماماً أنّ فيها كهنة، يتمتّعون بكل الصفات التي تؤهّلهم لهذه الخدمة، وقد تدرّبوا طويلاً على يد المطران نعمان.فهناك نائبه الحالي، الأب موفق العيد، وهو ابن حوران، وهناك أيضاً من كان نائبه لفترة طويلة، وهو الأب خليل خنشت، وهناك خصوصاً من تدرّب على يده مدة سنوات، وهو الأب بولس برخش.وكلّهم خدموا ويخدمون المنطقة، والناس يحبّونهم! فما شأنك بي؟"...

أهكذا تخدم كنيسة يسوع؟!

محطتي الأخيرة، الآن مع البطريرك الحالي، غريغوريوس الثالث لحام، الذي انتخب في 20 تشرين الثاني عام 2000.

لقد جرت بيني وبينه لقاءات كثيرة، منها لقاءات شخصية، ومنها لقاءات ضمّت عدداً محدوداً من الكهنة، ومنها ما ضمّ جميع كهنة أبرشية دمشق.ولقد اتّضح لي أنها كلّها كانت نافلة، لأنه لا يسمع لأحد، ولا يسمع من أحد! لذا، رأيت أن أقتصر الحديث عنه، من خلال لقاءين كانا لي معه، أوّلهما كان بعد اللقاء العام الأول الذي

أجراه مع جميع كهنة دمشق وريفها، بحضور نائبه المطران ايزيدور بطيخة، بتاريخ 2001/1/16، وثانيهما كان لي معه، يوم اثنين الباعوث، في 2011/4/25، وكلّ من هذه اللقاءات يضمّ نصوصاً مكتوبة، رأيت أن أوردها بحرفيتها.

في اللقاء العام الأول، يوم الثلاثاء 2001/1/16، قال البطريرك، متحدّثاً إلى جميع الحضور، بالحرف الواحد، كما سجّل كلماته وطبعها، أخي الحبيب الأب ميشل ديراني:

« صاحب الغبطة

البطريرك غريغوريوس الثالث لحام بطريرك أنطاكية وسائر المشرق

في لقائه الاستثنائي الخاص والأول مع أبنائه الكهنة... العاملين في دمشق وريفها يوم الثلاثاء في 2001/1/16

سيدنا وبطريركنا احفظه يا ربّ... لسنين كثيرة يا سيد

إخوتي الكهنة... أنتم أعزّ الناس والأحب إلى قلبي.

هذا لقائي الأول معكم وهو قمة كلّ اللقاءات لأنكم الأجنحة التي تحيط بي وتقف معي وإلى جانبي في خدمة هذه الرعية الكبيرة.

أقول لكم: إني أحبّكم... والمحبّة متبادلة بين الراعي ورعيّته وأنّ العلاقة بيننا في هذه المحبة هي بمثابة حلقات متصلة فيما بينها تربط بين قلوبنا جميعاً.

هذا شعوري أحمله إليكم. والمحبة كلمة قديمة جدّاً استعملت منذ عهد السيّد المسيح لا بل من قبل، ولها المعنى الكبير وهو المحور الأساسي في العلاقة بين الله والإنسان... بين الإنسان وأخيه الإنسان. نحن المسيحيين لدينا صعوبة في العلاقة مع كلّ الأديان، لأننا نؤمن في سرّ التجسد... "هكذا أحبّ الله العالم حتى بذل ابنه الوحيد"... محبة الله لا حرج فيها ولا استهلاك ولا ابتذال... هكذا أحبّنا الله، وأنا بدوري أحبّكم وأطلب منكم يا إخوتي ويا أبنائي أن تبادلوني هذه المحبّة.

إنني مع الرعاة الساهرين، رعاة كلّ كنيسة ورعاة هذه الكنيسة... مع رعاة البطريركية والمطران ومعكم والعلمانيين. أحبّكم وأحبّ رعاياكم... هذا شعوري إليكم كما تشعر الأم بوليدها. يومياً وفي كلّ صباح أذكركم في صلواتي الطقسية وخصوصاً عند الطلبات... أطلب لهذه الرعية وإلى أبعد من هذه الرعية، واليوم لا يوجد عندي أبرشية معيّنة لذلك أطلب إلى كلّ كنيسة وإلى الكنيسة عامة والكنيسة المحلية خاصة. أطلب وأصلّي أولاً من أجل أن يعمّ السلام في وطننا الحبيب سوريا... ثم أطلب السلام للعالم أجمع.

المهم أن أبدأ صلاتي من هنا، وأذكركم في صلاتي من خلال علاقتي معكم...

أحملكم في صلاتي... وصلاتي هي صلاة المحبة التي تحمل العاطفة الأبوية وعاطفة الأم الحنون.

أصلي من أجل صاحب الغبطة البطريرك مكسيموس حكيم أدامه الله.

أصلي من أجل الكهنة والرهبان والراهبات.

أصلي من أجل رئيس هذه البلاد ومعاونيه أدامهم الله.

أقول لكم إن توقّفنا عن الصلاة قد تتوقّف العلاقة مع الآخرين.

الصلاة هي حضور الرعية التي نحمل إليها إشراقة الصباح والخير حين نلقي التحية في قولنا: "صباح الخير... الله معكم... السلام عليكم... وتبقى الصلاة هي المنطلق الأساسي في عملنا.

تعالوا أبنائي... لنسعى معاً إلى إحياء الحياة المشتركة فيما بيننا وخاصة في هذه البطريركية... نعيش معاً بفرح المحبة... في الخدمة والسهر والصلاة والتفكير والتدبير. وليكن أيضاً بيننا لقاءات ولقاءات جماعية وفردية وشخصية ومن يفضّل منكم أن يكتب إليّ فلا مانع عندي، لأنني لا أريد أن نفشل، ولما الفشل ما دامت المحبة تربطنا وما دام شعارنا: "السهر والصلاة في المحبة".

سلامي أمنحكم وسلامي أعطيكم...

احملوا سلامي ومحبتي ومودّتي إلى كلّ العائلات في رعاياكم...

ولتكن الكنيسة... كنيسة متنقّلة في الشوارع والساحات والأحياء والبيوت تحملون إلى الجميع، بشرى السلام والمحبة.

وأشكركم على هذا الاستقبال وهذا اللقاء الحميم والرائع معكم... وشكراً.

أمين السر

الأب ميشل ديراني »

أما ما جرى بعد ذلك، فأترك للرسائل التي سلّمته إيّاها باليد، أن تقول ما فَعلتُ، وقد كتبتُها كلّها بخط يدي، لأني لا أعرف الطباعة على "الكومبيوتر"، وما كنت أريد لأحد أن يعرف ما قلت وما كتبت للبطريرك.

الرسالة الأولى، هي بتاريخ 2001/2/26، وقد جاء فيها بالحرف الواحد، وقد كتبتها على ورقة رسمية تحمل ترويسة البطريركية بالعربية والفرنسية، وتتوسطها صورة للسيدة العذراء:

« أبت صاحب الغبطة، دمشق في 2001/2/26

يوم السبت صباحاً، قُبيل اجتماع المجلس الكهنوتي، فاتحتكم بأمر هام، أوضّحه لكم الآن خطياً، بناءً على رغبتكم.

أنتم آتون من القدس، ولستم بحاجة لمن يبيّن لكم خطورة الوضع العربي العام، والوضع المسيحي الخاص، في مواجهة صهيونية يدعمها الغرب كله دعماً دائماً وغير مشروط.

الغرب، بما فيه الكنيسة الغربية كلّها.

والغرب بالنسبة إلى العرب والمسلمين، غرب مسيحي...

ولسوف يكون العرب المسيحيون، في شتى الأقطار العربية، كبش فداء "وفشة خلق"، عاجلاً أو آجلاً، إذا استمر الوضع القائم.

لذا أرى ضرورة الدعوة لمؤتمر مسيحي عام، تدعون إليه... وتُدعَى إليه الكنائس الغربية والكنائس العربية...

الغاية من هذا المؤتمر:

إصدار إعلان يطالب الأمم المتحدة بتطبيق قراراها على إسرائيل، فقط، مثلما طبّقتها على العراق...

قد لا يسمع أحد...

وقد لا يلبّي الكثيرون من المتورّطين... أو من المتجاهلين...

وقد لا يفيد مثل هذا المؤتمر العرب المسيحيّين كثيراً...

ولكنه موقف...

موقف حقّ وواجب...

موقف تتّخذونه أمام العالم والكنيسة كلّها.

وأمام التاريخ...

ولا أرى أحداً غيركم مؤهلاً لمثل هذه الخطوة الضرورية والملحّة.

وتقبّلوا شكري ومحبتي البنوية.

الأب الياس زحلاوي »

وبعد مرور أشهر طويلة، لم أرَ ولم ألمس خلالها أي بادرة من هذا القبيل من البطريرك، رأيت أن أكتب له رسالة ثانية، سلّمته إياها باليد أيضاً، وهي بتاريخ 2001/9/23. وإني لأنقلها بالحرف الواحد، وقد جاء فيها:

« أبت صاحب الغبطة، دمشق في 2001/9/23

لن يتسنّى لي أن أحدّثك اليوم، ووقتك ضيق للغاية.
لذا رأيت أن أكتب هذه الكلمة.

لقاء البطاركة الوشيك يدفعني لأن أذكّرك بضرورة طرح مشروع عقد مؤتمر دولي، تَدعو إليه كنائس الشرق العربي، ويُدعى إليه كبار المسؤولين والمثقفين في الكنيسة والعالم.

صمت الكنيسة، شرقاً وغرباً، حيال ما حدث ويحدث في فلسطين منذ ستين سنة،

وصمت الكنيسة، شرقاً وغرباً، حيال ما حدث وسيحدث في الشرق العربي وفي العالم الإسلامي، وانعكاسه على المجتمع الدولي، وبصورة خاصة على الوجود المسيحي في الشرق العربي...

هذان الصمتان، لا يجوز الاستمرار فيهما، والأرض توشك أن تحترق، والشرق العربي على شفير كارثة...

أرجوك، أبت صاحب الغبطة، أنا لا أبالغ.

أرجوك، إطرح الفكرة في لقاء السادة البطاركة، وشدّد على ضرورة التداعي لمثل هذا المؤتمر، قبل فوات الأوان.

ولا بأس إن خرقت جدول الأعمال، فليس في ظنّي ويقيني ما هو أهم من مثل هذه القضية.

أهديك محبتي وثقتي، وأسألك الدعاء.

الأب الياس زحلاوي »

هاتان الرسالتان المتلازمتان، ظلّتا حبراً على ورق، لأن "غبطته"، كما قلت، لا يسمع من أحد، ولا يسمع لأحد...

وعلى يقيني بأنّ البطريرك لحام "لا يسمع من أحد، ولا يسمع لأحد..." عدت، بعد سنة ونيف، للكتابة له بتاريخ 2002/10/25، لأنّ المطران الطيب جورج كويتر كان قد أخبرني أنّ اجتماعاً طارئاً لبطاركة الشرق، سيُعقد في بكركي. وإني لأعترف أنّ تلك الرسالة كانت آخر محاولة لي أبذلها معه، وقد أملتها عليّ خطورة الأوضاع العربية

من جهة، وخشيتي من غرق "السادة" البطاركة، في مستنقع المساومات والمداورات. من جهة ثانية.

جاء في هذه الرسالة بالحرف الواحد:

« أبت، صاحب الغبطة، دمشق في 2002/10/25

بلغني أنّ اجتماع بطاركة الشرق سيعقد في الربوة، برئاستك، بعد أيام.

بالتأكيد هناك أمور كثيرة مدرجة على جدول الأعمال.

إلا أني أسمح لنفسي للمرة الثالثة بتذكيرك بأنّ ما من قضية أخطر وألحّ من قضية البقاء المسيحي في الشرق العربي.

وليس من يجهل أن بقاء مسيحيي الشرق رهنٌ بانتهاء الصراع العربي الإسرائيلي، على أسسٍ سليمة تستند إلى الشرعية الدولية لا غير.

والحال أنّ الغرب كلّه، وعلى رأسه الولايات المتحدة، خاضع في جبانة وغطرسة وغباء، للصهيونية، على نحو فاضح وصارخ...

والغرب في نظر العرب والمسلمين... مسيحي!

فيما كنيسة الغرب صامتة حيال الظلم الذي يحلّ على نحو مأساوي بالفلسطينيين، مسلمين ومسيحيين على السواء، ومتواطئة في آن واحد، بالكلية، مع إسرائيل، باستثناء صوت البابا، الخجول والهش!

صاحب الغبطة،

سبق لي أن تقدمت إليك بمذكرة بهذا الشأن، بناء على طلبك بتاريخ 2001/2/26، ولما يمضي على اعتلائك... المسؤولية البطريركية أكثر من شهرين، وأنا مرسل لك نسخة منها.

ثمّ كتبت كلمة سلّمتك إياها باليد، بهذا الشأن، عشية سفرك إلى روما للسينودس الاستثنائي. وسلّمت يومها نسخة منها لمستشاريك المطرانين العزيزين سليم غزال وجوزيف العبسي.

أما آن الأوان للعمل على تنظيم مؤتمر مسيحي دولي يوقظ كنيسة الغرب، أو بعضها، ويضع كنيسة الشرق العربي في الموقع المناسب والصادق من الصراع القائم؟

قد يكون مؤتمر البطاركة الحالي الفرصة الأخيرة.

أرجو أن تفعلوا جميعاً قبل فوات الأوان.

وأرجو، إن تخاذل بعضهم، أن تبادر بنفسك إلى الدعوة لمثل هذا المؤتمر، مهما كلّف الأمر.

وأرجو أخيراً ألا تقول لي: من يسمع؟ والأمور ليست بيدنا!

حسبُك أن تقول كلمة الحقّ شهادةً ليسوع ولضميرك!

أبت صاحب الغبطة،

أدعو لك، أسألك الدعاء

وأكرّر لك محبتي ورجائي.

صح: أرفق مع هذه الرسالة:

1- رسالتي الأخيرة للرئيس بوش

2- Une lettre ouverte aux amis d'Occident/رسالة مفتوحة إلى الأصدقاء في الغرب »

وأصل الآن إلى المحطة الثانية والأخيرة، وهي تضمّ أيضاً رسالتين، الأولى منه إليّ، وهي مطبوعة على الكومبيوتر. والثانية، مني له، وقد كتبتها بخط يدي. وإني لأورد هاتين الرسالتين بحرفيتهما، ولن أضيف عليهما إلا سؤالاً واحداً، أطرحه في أعقاب رسالتي للبطريرك.

1) رسالة البطريرك إليّ، وهي بتاريخ 2011/3/19، مطبوعة على الكومبيوتر، وتحمل رقم البروتوكول 2011/167 د. وقد وجدتُها ذات يوم، في درج خاص بي في كنيسة سيدة دمشق، مساء 2011/4/4. وقد جاء فيها:

« قدس الأب الياس زحلاوي المحترم

تحية صيامية مع المحبة والبركة والدعاء

أنا عائد لتوي من زيارة التعزية بالشاب الفقيد فادي خنشت، وهو من الأعضاء البارزين والفنانين المتفوقين في جوقة الفرح إحدى ثمار عطائك الكهنوتي.

لقد تأثرت جداً أنك لم تأتِ لكي تسلّم عليّ. ولاحظت استغراب بعض الحاضرين من تصرّفك. وتبادر إلى ذهني كلمات القدّيس يوحنا الحبيب: "كيف تؤكّد أنك تحب الله الذي لا تراه... وأنت (أقول لا تُبغض) لا تكرم أخاك الذي (لا) تراه".

لا أفهم ولا أحد من الكهنة رفاقك يفهمون تصرفك، أنك لا تحضر اجتماعاتهم الشهرية، ولا تشاركهم مناسبات كثيرة... هل ترضى على تصرفك الذي لا أحد يجد مبرّراً له؟

لا أريد أن أزيد على ما سبق. ولكني أجد أنه من واجبي الأخوي، والإنساني، والروحي والرعوي، أن أكتب لك هذه البطاقة، التي هي عتاب من أخ إلى أخيه، ونحن إخوة في الكهنوت المقدّس والمعمودية والأسرار المقدّسة.

آمل أن تحرّك هذه البطاقة الأخوية شعورك الكهنوتي والمسيحي المرهف، وأنت شخصية مرموقة في المجتمع والكنيسة، وتعود إلى بطريركك ومطرانك وإخوتك الكهنة الذين ينتظرونك!

مع محبتي وبركتي

+ غريغوريوس الثالث

بطريرك أنطاكية وسائر المشرق والاسكندرية وأورشليم للروم الملكيين الكاثوليك »

2) رسالتي إلى البطريرك، وهي بتاريخ 2011/4/25، وكان ذلك اليوم، يوم اثنين الباعوث، وقد سلّمته إياها باليد، أمام هيكل كنيسة سيدة دمشق، بعد أن قدّمت له التهاني بقولي: المسيح قام! وقد جاء فيها بالحرف الواحد:

« صاحب الغبطة، دمشق في 2011/4/25

المسيح قام! حقّاً قام!

أشكر لك كتابتك لي بتاريخ 2011/3/19، رسالة خاصة.

إلا أني لم أتسلّمها إلا مساء 2011/4/4، إذ كانت موضوعة في درج السكرستيا، الخاص بي.

وتساءلت ما عسى أن يكون سبب هذا التأخير.

بدوري تأخّرت في الإجابة كتابة، مع أني، ككل كاهن، أتمنى أن تكون العلاقة الدائمة بيني وبين بطريركي، علاقة مودّة وثقة ومحبّة وصفاء.

ولكم حاولت منذ لقائي الأول بك، أن تكون لي معك مثل هذه العلاقة.

وتكرّرت اللقاءات، منها الشخصية، ومنها الجماعية، وحاولت منذ الرياضة الروحية الأولى لنا معك في دير مار توما، أن أكون حاضراً وفاعلاً في هدوء وصمت ومحبة، وخصوصاً بعد انتخابي لعضوية المجلس الأبرشي، وتوالت الظروف والمناسبات إبان اختيارك كمستشارَين لأفضل كاهنين في كنيستنا، الأب سليم غزال والأب جوزيف عبسي، وإبان مراجعاتي لك من أجل قضية أرض المعرة، وإبان خدمتي في كنيسة سيدة دمشق مع الأب متري، ثم مع الأب فؤاد صايغ...

خلال كل تلك السنوات، تبيّن لي بوضوح مؤلم أنك تتحدّث كثيراً عن المحبة، ولكنك لا تعرف أن تعيشها مع مَن حولك، لا من الأساقفة، ولا من الكهنة ولا من العلمانيين.

كلّ ذلك وأنت بطريرك، والبطريرك، أوّلاً وأخيراً، أب! ولئلا أُتّهم بالتعميم الظالم، أذكّرك فقط ببعض ما يخصّني:

1- يوم قدّمتُ استقالتي في رسالة موجّهة لك، من المجلس الأبرشي، وافقتَ عليها دون أن تطرح عليّ أي سؤال بهذا الشأن...

2- يوم فقدتُ عيني، زرتني يوم 15 آب عام 2005، وأنا في منزل الدكتور سمير أزرق في المعرة، واشتهيت يومها أن تسألني ما إذا كنت بحاجة إلى شيء ما.

3- في 2006/1/4، استؤصلت عيني في عملية جراحية في بيروت. وزارني يومها المطران الصديق سليم غزال والمطران الحبيب جورج كويتر، أما أنت، فكنت غائباً بالكلية... ولم أعد أراك إلا يوم التعزية بأختي نور، التي توفّيت في أوائل حزيران من عام 2007، بعد مضي شهرين على وفاة أختي الراهبة لوسي في حريصا، التي لم تحظَ بمبادرة تعزية منك.

4- كثيراً ما حدّثني صديقي وابني الدكتور رياض حنا وزوجته كلوديا، عن إشادتك بي أمام بعض الأصدقاء في ... ألمانيا! غريب هو أمرك: تحدّث البعيدين عن محبّتك لي، ولا يخطر ببالك، لحظة واحدة، أن تتّصل بي هاتفياً، من دمشق، لا لشيء إلا لتقول بلغة الأب المحب: كيفك يا أبونا الياس.

5- مضى على سيامتي الكهنوتية بدمشق، خمسون عاماً منذ سنتين (1959)، فاشتهيت أن أسمع منك كلمة واحدة، ولو على الهاتف، فيما أنت تملأ بالصلبان المذهّبة، صدور الكهنة جميعاً، دون الالتفات إلى ما قد يسبّب لهم ذلك من غرور، ليس منّا مَن هو بحاجة إليه...

6- ومنذ عام ونيف، أُصبت بأزمة قلبية، أُدخِلتُ على إثرها المشفى الإيطالي. وزارني أخي المطران جوزيف مرتين في المشفى، وأمضيت في بيت أختي شهرين كاملين، ثم عدت إلى الكنيسة، وطوال هذا الوقت لم أتلقَّ منك ولا هاتفاً واحداً، مع أنك احتفلت بالقدّاس الإلهي، يوم اثنين الباعوث في كنيسة سيدة دمشق... وبيت أختي على بُعد مئتي متر من الكنيسة...

7- وكان أن صدر كتاب "المؤرخ" "وسام كبكب" عن كنيسة سيدة النياح، وفوجئت إذ وجدت أنّ اسمي لا يمثل بين أسماء جميع الكهنة الذين أدّوا فيها خدمة ما، علماً بأني كنت أقود فيها الجوقة من عام 1962 إلى عام 1966، وأقدّس فيها وأشارك في احتفالاتها... أهكذا تعمد إلى إلغائي؟!

8- ومنذ شهرين ونيف، زارتك السيّدة ميرنا نظور، برفقة الأب الياس سلوم، فوجدتَ من الضروري أن تحدّثها على انفراد، لتقول لها إنك تحبّني وإنه يتوجّب عليّ أن أبادلك المحبة والاحترام.

حسبي هذا... علماً بأن لدي الكثير الكثير أقوله...

صاحب الغبطة،

قد تعرف أني لست ممّن يتملّقون.

ثق بأني لو لم أكن أحبّك، لما كنت خاطبتك بمثل هذه الصراحة!

أما أن تختبئ وراء ما تنسبه إلى الكهنة من شكوك، بسبب انقطاعي عن الاجتماعات الكهنوتية، فهذا أمر لا أحسدك عليه، ويدفعني لدعوتك إلى مراجعة مجمل علاقاتك بالأساقفة والكهنة والعلمانيين.

صاحب الغبطة، نحن في أجواء الفصح، فأَسأَلُ الرب يسوع، الذي قهر الموت وحده، أن يغمرك ويغمرني بروحه الحي والمُحيي، ليجعل منك البطريرك الذي يشتهيه هو، وليجعل مني الكاهن الذي يشتهيه هو!

وعسانا نتحوّل إلى ما يشتهي الرب، قبل رحيلنا الوشيك!

بكل محبة واحترام!

المسيح قام! حقّاً قام! الأب الياس زحلاوي »

3) سؤال إلى السادة الأساقفة الذين انتخبوا المطران لطفي لحام، بطريركاً، بتاريخ 2000/11/29:

أما آن الأوان لبناء مسؤول في الكنيسة - كاهناً كان أم أسقفاً أم بطريركاً! - يكون إنساناً قبل أي شيء آخر؟؟؟

تلك كانت، باقتضاب شديد، ملامح خاطفة من علاقاتي بالسلطات الكنسية، لا سيما تلك التي أنتمي إليها، من ملكية وكاثوليكية. ثمّة ملامح أخرى أودّ إضافتها، في تسلسلها الزمني، قبل أن أطوي هذا الجانب الهام من حياتي.

ولأبدأ بالمطران الياس نجمة، يوم كان يشغل مركز نائب بطريركي في كنيسة دمشق، من عام 1973 إلى عام 1978.

أودّ أن أشير، في حديثي عنه، إلى أمرين:

الأول منهما يخصّ علاقته بي، بوصفه رئيسي المباشر. وإني لأترك للرسالة

التالية، المؤرخة في 1977/1/2، والتي سلّمته إياها باليد، أن تصف ما كانت عليه هذه العلاقة. جاء فيها بالحرف الواحد، وهي، بالطبع، في ملحق هذا الكتاب:

« دمشق في 2 كانون الثاني 1977

صاحب السيادة، المطران الياس نجمة.

بشأن وضعي في البطريركية، لم يعد من بدٍّ من الكتابة، بعد إعراضك التام عن كل ما قلت لك شخصياً، وما تركتك تحدس.

سيدي،

أكتب لك، وأمامي لا صورة أمي، بل أمي الحيّة المتهدّمة، أمي التي كانت الضحية الكبرى في تضحيتي الكهنوتية.

سمعتك مراراً تتحدّث بحرقة عن صورة والدتك التي ذهبت مع ما ذهب من مؤسسة القرطباوي، ولا أراك تتحرك قيد أنملة عندما أقول لك: ما أطالب به حقّ، ولكني لا أطالب به من أجل نفسي، وأنا لم أُقِمْ يوماً لنفسي وزناً، لا من حيث الصحة، ولا من حيث المال، ولا من حيث الوصول... بل أطالبك به من أجل أمي...

سمعتك مراراً تتحدّث عن غلاء المعيشة، حتى قلت يوماً في منزل صديقي جورج حورانية: إنّ معلّم بلاط لا يقبل في يومه أدنى من مائتي ليرة...

ولما قلت لك قبل سفري إلى فرنسا: كيف تطيق في هذه الحالة أن يتقاضى الكاهن الذي ائتمن على خدمة الجامعيين ثلاثمائة ليرة سورية لا غير، وذلك منذ عام 1967، قلت لي: هذا أمر لم يخطر ببالي يوماً... سافر الآن وسنرى ذلك حال عودتك...

سمعتك مراراً تقول لي شخصياً أو بحضوري: أعطيت كذا ألف ليرة وألف طن للمؤسسة الفلانية، أو للمنطقة الفلانية...

وأُصعق عندما أراك لا تدرك أنّ الذي تتحدّث إليه يطالبك منذ سنوات بالحدّ الأدنى الذي لا يليق بآذن في أحقر مؤسسة... وأنت تعلم تماماً أني منذ سنتين ونيف انقطعت عن البطريركية، محملاً أهلي، وخصوصاً أمي، أثقال أكلي ونومي وغسيلي ومرضي...

سألتك حقّاً وعدلاً، ففاجأتني يوم الميلاد بالذات ببادرة حملتني على الاعتقاد بأنّ الكنيسة في دمشق، حتى في عهدك، لا يرجى منها شيء بالنسبة إلى ألصق أبنائها بها وأخلصهم لها: تنقدني خمسمائة ليرة سورية، ولكن في أي نطاق، من أي صندوق، ولِمَ خصوصاً، لِمَ... ولم تجبني يومها...

عندما أذكر سيدي، بأي دفء إنساني عاملتنا الأشهر الأولى التي قدمتَ فيها دمشق، والأمل الذي عقدناه عليك، على صعيد التعامل مع الكهنة في بطريركية تحوّلت إلى مزرعة... عندها تعتريني خيبة أمل كبيرة بحجم السذاجة المُحِبّة التي أصر على وضعها مرة تلو الأخرى، في كنيستي...

حتى بتّ أؤمن بأنه ليس من ينجح في هذه الكنيسة سوى السفيه والمتملّق والسارق، وأنا أدرى الناس برأيك في كهنة دمشق ورئيسها الملقب بصاحب الغبطة.

سيدي،

ثق بأني لست بنادم على كهنوت، شئته منذ اللحظة الأولى، حرّاً، كريماً، صريحاً.

وكلّ ما أرجو أن يمدّني الرب بما يمكّنني من الاستمرار في طريق أعتبره سليماً وضرورياً لكنيستي، على ما يثير بيني وبين رؤسائي من صدامات، ترهقهم مني، بقدر ما يرضيهم تملّق ألفوه فدمّرهم.

ما كنت يوماً أظنني مضطراً للكتابة لك بمثل هذه اللهجة، وقد لمست لمس اليد كل ما تنطوي عليه من دفء إنساني وسخاء، ولكن في علاقاتك بالآخرين. فموقفك هذا المزدوج حيالي، هو الذي ألقاني مرّاتٍ ومرّات في حيرة، وحوّل أملي فيك خيبة مرة، وزادني غضباً على كنيسة، شاءها الرب، وشئتها أنا يوم اخترت الكهنوت، أمّا محبّة متفهّمة، فوجدتها تتعهّر بكل أنواع الكذب والتملّق والمتاجرة...

سيدي،

أترك لك، إن شئت، أن تعتبر كتابي هذا لك، بقيّة من أمل في رئيس لي، لم أتصوره يوماً إلا أباً وأخاً.

وأما ما كتبت، فقد كتبته استجابة مني لضميري، وصدقاً مني مع نفسي ومعك.

بالطبع، سأواصل عملي في بناء بعض المؤمنين الشبّان، كما فعلت إلى اليوم، حتى أؤمر بالتوقف.

وأرجو، يومها، أن أفاجئك بطاعتي، كما فاجأتك وفاجأت غيرك، إلى اليوم، بعنف حبي.

الأب الياس زحلاوي »

<u>أما الأمر الثاني</u>، فكان يخصّ عملي الكهنوتي، في مختلف أوساط الشبيبة. وبوصفه رئيسي الكنسي المباشر، كنت حريصاً، طوال هذه المدّة، على إحاطته علماً

بعملي في أسرة الرعية الجامعية، وفي فرقة "هواة المسرح العشرون"، وفي نطاق إرشادي للشبيبة، سواء منها مَن كان يقصدني في الدار البطريركية، أو في مختلف حلقاتها هنا وهناك. وقد غادر دمشق إلى طرابلس عام 1978. وكان أن أرسل لي، شخصين من طرابلس، في مطلع العام الدراسي الجامعي، وكانا رجلاً وابنته، وسألني، في رسالة حملاها لي، أن أجد مكاناً للصبية في أحد المراكز الخاصة بالطالبات الجامعيات. فوفّقت في اليوم نفسه، إلى قبولها عند راهبات المحبّة في باب توما... وبعد أيام قليلة وردتني من المطران الياس نجمة، كلمة شكر، يقول فيها، في ما يقول: "الآن فهمت تماماً أهميّة عملك وعمل أسرة الرعية الجامعية..." فغضبت وحزنت في آن واحد. وكتبت له معاتباً، إذ كيف له أن يقول إنه اكتشف أهمية عملي مع الشبيبة، من خلال تأمين سكن لطالبة جامعية من طرابلس، في حين أنّه عجز عن اكتشاف هذه الأهمية، طوال أربع سنوات قضاها مسؤولاً في دمشق؟...

وأتابع بمن كان أستاذي في القدس، وبات صديقاً نادراً، ثم مطراناً في حلب، عنيت به المطران ناوفيطس إدلبي. فقد أراد ذات يوم أن يؤدي لي خدمة جليلة، بتوفير سيارة لي، أستعين بها في تنقلاتي الكثيرة. إلا أنه كان يخشى عليّ، لأنه يعرف أني لم أكن بعد قد تعلّمت قيادة سيارة، وكنت يومها في الخمسين. ومع ذلك، فقد جاءتني سيارة "لانسر" بمساعيه خلال عام 1982. فسألني أحد أصدقائي أن يستخدمها، ريثما أتعلّم قيادة السيارة. فأوصيته بمنع أولاده من استخدامها، وسلّمته المفتاح. وفي ذات صباح باكر، جاءني هاتف من هذا الصديق، يخبرني فيه أن ابنه خرج بالسيارة ليلاً، وصدم بها شجرة، فانشقت واجهة السيارة. ولما لم يكن له ما يصلحها، تركت له أن يتصرّف بما يراه مناسباً، فكان أن باع السيارة، واحتفظ بثمنها. وأخبرت المطران إدلبي بما حدث، فكان جوابه: "الآن ارتاح بالي. لقد كنت دائماً أخشى عليك منها!"

أما المطران الثالث، فكان صديقاً غالياً، عرفته في مطلع الستينيات، وهو اليوم مطران الكنيسة المارونية في حلب، أنيس أبي عاد. حسبي أن أتذكّره في بطاقة استثنائية وردتني منه بمناسبة عيد الفصح، عام 2011، وهي تمثّل درجاً صاعداً، وقد كتب خلف البطاقة عباراتٍ أحببتُ أن أنقلها، دون أي تصنّع، وجاء فيها:

« أخي الحبيب أبونا الياس،
أراك صاعداً على درج القيامة كل يوم،
وفي هذا الأسبوع بنوع خاص.

أتأمل بتأمّلاتك المدوّنة على كتاباتك والحاضرة في قلبك،
وفي شخصك الذي يشعّ نوراً وبهجة.
الوطن بحاجة إلى أمثالك، خاصة في مثل هذه الأيام،
لكي يحمل صليباً وضع عليه، ويسير معه على درب القيامة.
عيداً مباركاً.

أخوك أنيس »

كان المطران الرابع، هو مطران الكنيسة المارونية في دمشق واسمه سمير نصار. وقد فاجأني ذات يوم في قلب الأزمة القائمة في سورية، بزيارة ما كنت على علم بها، فترك لي في مكتب كنيسة سيدة دمشق، بطاقة شخصية، لا تاريخ لها، كتب عليها هذه الكلمات. وإني لأنقلها هي أيضاً، بحرفيتها:

« المطران سمير نصّار،
حضر لتحية الأب الياس زحلاوي، الخادم الأمين الساهر بجرأة نبويّة على بنيان الكنيسة، وتعزيز الحوار والمحبة بين أبناء الوطن. »

ثمّة أيضاً رسالة ألكترونية، وردتني باللغة الفرنسية، من المطران سمير نصار، بتاريخ 2011/11/12، وهو يقول لي فيها ما ترجمته الحرفية:

« شكراً لك، أبت العزيز الياس، لمواقفك الجريئة والنبوية، التي تعوّض قليلاً عن صمت الكنيسة المحلية.
إنّ شهادتك تَسِم في عمق الأجيال في سورية...
إنها نبرة رجاء في هذه الأيام الصعبة.
شكراً لك لمثال حياتك الكهنوتية، البالغ الأصالة والأمانة للمسيح الذي أغواك!
نحن متّحدان في الصلاة

+ سمير نصار، رئيس الأساقفة الماروني بدمشق »

ثمّة رسالتان أودّ نشرهما الآن، وقد كتبت أولاهما للبطريرك القبطي الكاثوليكي، أسطفان الثاني سيداروس، وهي بتاريخ 2 شباط 1972، والثانية للمطران ديونيسيوس غيث، مطران يبرود للروم الكاثوليك، وهي بتاريخ 1977/5/6.

أترك لكل من هاتين الرسالتين أن تدلي بالغاية منها:

1) **رسالتي إلى البطريرك سيداروس**

« دمشق في 2 شباط سنة 1972

سيدي صاحب الغبطة البطريرك اسطفان الثاني سيداروس الكلي الطوبى،

إنني كاهن من دمشق، وأنتمي إلى طائفة الروم الكاثوليك.

رأيت من واجبي أن أكتب لغبطتكم شخصياً، بصدد مقال لي نشر في مجلتكم "الصلاح"، في العدد 8/7 بتاريخ اوكتوبر 1971. وذلك لأنها، كما جاء على الغلاف، "مجلة بطريركية الأقباط الكاثوليك"، ولأني لم أعثر فيها على اسم يشير إلى من يحررها أو يديرها.

صاحب الغبطة،

ليس من إنسان يحمل قلماً، إلا ويسرّه أن تُنشر كلماته. ولكنه يصعب عليّ أن أتصوّر كاتباً يرضى بنشر كلمة له لم يُسأل مطلقاً عن نشرها. فكيف به يسلّم بنشرها مشوّهة مبتورة؟

إني أولي المقام البطريركي الذي تنطق باسمه مجلّتكم "الصلاح"، كلّ احترام. ولكني أعجب للطريقة التي يتبعها المسؤولون عنها في انتقاء المقالات أوّلاً، وفي نشرها ثانياً. فهي لا تنطوي على أدنى احترام، سواء للكلمة أو لحملة الكلمة. وإلى غبطتكم ما يبرر موقفي هذا:

أولاً- ما يتعلق بي شخصياً:

1- أنا كاهن. لم يذكر ذلك، علماً بأن مجلة "المسرّة" التي نشرت هذا المقال سنة 1966، أرفقت اسمي بكلمة "الأب..."

2- إني لم أُستأذَن في نشر المقال... كما أنه لم يشر، لا من قريب ولا من بعيد، إلى المصدر الذي أُخذ عنه المقال. وقد علمت من إدارة المسرّة أنها لم تُسأل بهذا الشأن...

ثانياً- ما يتعلق بالمقال:

1- عنوان المقال الأصلي: "أجمود أم تجميد؟".. فهل يجوز لكائن من كان أن يغير العنوان الذي اختاره كاتب ما لمقال ما؟

2- إنّ مضمون المقال مشوّه ومبتور، فجاء مشوّهاً للفكرة التي رميت إليها يوم كتبته، وبات مفكّكاً معقّداً، يسيء إلى القارئ أكثر ممّا يخدمه. هذا فضلاً عن عشرات الأخطاء المطبعية، التي أضيفت إلى الأخطاء المطبعية الثمانية التي وردت في متن النص يوم نشر في المسرّة...

وثمة سؤال أطرحه: أما كان يليق بإدارة "الصلاح" أن توافيني بنسخة من المجلّة إيّاها، أطّلع فيها، أقلّه، على ما تجرّأت وفعلت بي وبمقالي، في غفلة مني؟ فما كنت أريد للصدفة أن تجمعني بما يمسّني شخصيّاً، وبعد خمسة شهور من حدوثه.

صاحب الغبطة،

ما كنت يوماً أخشى في ما أكتب لومة لائم. بل كنت أحمل بكلّ اعتزاز مسؤولية الكلمة التي أقول وأكتب. إلا أني، ولهذا السبب بالذات، حريص على احترام كلمتي، أياً كان ناقلها، حرصي على حريتي في الكهنوت ومسؤوليتي في الكنيسة.

هذه، يا سيدي، شكواي من مجلتكم أرفعها إلى شخصكم بالذات، تاركاً لغبطتكم بثقة بنوية، تدبّر ما يجب تدبّره في مثل هذه الحالة.

أهديكم محبتي واحترامي، وأسألكم الدعاء والبركة.

الأب الياس زحلاوي بطريركية الروم الكاثوليك – دمشق – ج. ع. س. »

2) رسالتي إلى المطران غيث

« دمشق في 1977/5/6

صاحب السيادة،

تردّدت طويلاً قبل أن أجيب على رسالتكم المؤرخة في 1977/4/27. فقد حملت إليّ، مع بركتكم، موقفاً من المحاولات الجديدة في الكنيسة، أدهشني، بل أحزنني. ولا يسعني، ككاهن، إلا أن أصارحكم بالأمر.

لمست، سيدي، في موقفكم، ازدواجية آن لنا، في نظري، أن نتحرر منها في الكنيسة.

فأنتم تباركون أسرة الرعية الجامعية، وتعتبرونها بذراً صالحاً وخميرة جيدة تخمّر العجينة كلّها، وتبدون أكثر من التحفّظ حيال إحدى ثمار هذه الرعية، وهو الكتاب الذي باشرنا بطبعه.

هل يعود ذلك إلى أنكم قد تعتبرون أسرة الرعية عملاً شخصيّاً، لا يمتّ إلى الكنيسة بصلة؟

أم لأنكم، كما تقولون، تعتبرون الطلاب والطالبات، "من بضاعة اليوم سلوكاً وتفكيراً وتبشيراً"، وأفهم، ويفهم كلّ قارئ لأسطركم، بضاعة لا قيمة لها؟

فاسمحوا لي بأن أذكّركم أوّلاً بأنّ أسرة الرعية عمل كنسي، قام بمبادرة أساقفة دمشق، وما زال يحظى بمساندتهم، وأخصّ بالذكر منهم، سيادة المطران الياس نجمة.

أما "بضاعة اليوم" فهي أغنى وأعمق مما نظنّ، وأرجو ألا يفوت عن بالكم أن خلاصنا بيدها، وأنها قادرة على القيام بذلك إن منحناها الثقة والمحبة اللتين تستحقّهما. وعندها لا نكون قد فعلنا أكثر مما فعل يسوع المسيح بالنسبة إلى تلاميذه.

ولكم كنت أتمنى أن تأتي رسالتكم الأولى إلى أسرة الرعية مشجعة، بانتظار رسالتكم الثانية التي ستبدون فيها رأيكم في كتابنا الأول، كما سألناكم ذلك في آخر رسالة الاكتتاب.

وتقبّلوا، يا صاحب السيادة، باسم أفراد أسرة الرعية وباسمي الشخصي، المحبّة والاحترام.

التوقيع »

وهناك أسقف جاءني من بعيد، من فنزويلا، وهو صديق قديم، إنه المطران حكمت بيلوني، وقد فاجأني برسالة ألكترونية، لا تحمل تاريخاً، إلا أنّ مضمونها يغني عن أي تعريف وأي تاريخ. أنقلها بحرفيتها:

« إلى العزيز حضرة الأب الياس زحلاوي المحترم

تحية حب وشوق من بلد الاغتراب فنزويلا، من الصديق القديم مار تيموتاوس المطران حكمت بيلوني، الأكسرخس الرسولي للسريان الكاثوليك.

مقالاتك وكلماتك تصلني تباعاً والحمد لله... عرفتك جريئاً، وأكبرت بصراحتك عندما كنّا نجتمع ونتحدّث وبروحانيتك التي لا شائبة فيها وبتواضعك وفقرك وكنت من الملتزمين عملياً بما تقوله وتعلّمه.

يقول المثل العامي جبل مع جبل ما بتلاقى وتراني اليوم وأشعر كأنك أمامي بضحكتك العريضة وابتسامتك وصحيح يتكلم الفم بالأحاسيس والمشاعر التي تملأ قلبه.

الله يبارك فيك وبهمتك يا أبونا الياس

أنا حزين لما يجري في بلدنا وعبرت عن ذلك ببعض المشاعر والأحاسيس ولكن نحن بحاجة إلى صحوة ضمير الله أعلم متى يأتي هذا اليوم؟؟؟؟

وعلى الأرض السلام وفي الناس المسرة الصالحة... أين هو وكيف يكون؟؟ أي سلام يرجى لعالم مضطرب بشتى المطامع؟

... الشعوب تتطاحن والقلوب تتنافر والعائلات تتناحر والكلمة الأخيرة للخيانات الإنسانية... والكلمة الأخيرة للصاروخ والمدفع والرشاش والقنبلة... ما يحدث اليوم في بلادنا المشرقية حيث ولد رب السلام الرب يسوع... اعتداءات على بلادنا الآمنة يريدون خرابها ودمارها باسم الحرية المزيفة والديمقراطية الديكتاتورية... احتلال وحشي

من قبل دول تدعي بأنها رسولة السلام والمدافعة عن حقوق الإنسان... تقتيل وتشريد وتدمير... بلاد تنعم بالسلام بالهدوء... وباسم الدين وأي دين؟ يا للظلم والبغضاء التي ملأت القلوب... إنها الهمجية التي تريد أن تدمّر ما بناه تعليم المسيح... عوض أن نسمع صوت الملائكة المنادية بالسلام والمسرّة نسمع صوت القذائف والمدافع والصواريخ... بلاد المحبة تغوص في بحر من الدماء دماء الأطفال والشيوخ والعجّز والآمنين... لقد حوّلوا محبة المسيح إلى بغض ونقمة وخصام... إنهم باسم الشيطان يريدون أن يحكموا...

لنطلب من إله السلام أن يرفع راية السلام وكفانا خصام وتطاحن ومجازر... لنجتمع حول مائدة المحبة والاحترام ولنتحاور من أجل بلادنا وليس لأجل مآرب شيطانية وإذا غرق المركب سيأتي على من فيه...

مار طيموتاوس حكمت »

5- علاقتي بالكهنة: خارج "جمعية البرادو"

علاقاتي مع الكهنة - جميع الكهنة! - لم تكن كلّها وليدة رغبتي، ولا من صنع يدي. وما كنت دائماً أحلم به، منذ أن كنت في الدير في القدس، من حياة فرح ومشاركة، وتعاون، بين الكهنة، لم أكن مستعدّاً للتخلّي عنه، لأني كنت أرى فيه - وفيه وحده! - شرطاً لا بد من توفّره على أكمل وجه، كي يكون الكاهن - كل كاهن! - إنساناً أولاً، ثم إنساناً حراً، صادقاً، وبالتالي إنساناً سعيداً وسخياً. والصحيح أنّ ثقل المؤسسة الكنسية، لم يكن من السهل زحزحته، لا في العقليات السائدة، ولا في العادات والتقاليد المتوارثة، ولا في الممارسات اليومية، ولا في الارتجالات المألوفة! إلا أني كنت، على كل ما بي من ضعف، مسكوناً بطموح روحي عنيد، أستمدّه من تأمّلي الدائم في الإنجيل، ومن رغبتي الصادقة في التمثّل بيسوع. وكنت إلى ذلك، على يقين جازم بأني لم أكن البتة، في هذا المضمار، استثناءً، لا بَين طالبي الكهنوت، وقد عايشتهم كل يوم في القدس، طوال ست سنوات، ولا بين الكهنة، سواء منهم الكهول أو المسنّون، كما كان حال معظم الكهنة في كنيسة دمشق وريفها.

إلا أنّ الواقع بدا لي، سنة بعد أخرى، أقوى من كلّ شيء، حتى إنّ الأمر انتهى بالكثيرين من "أصحاب السيادة" والكهنة، إلى التخلي - المبرَّر طبعاً! - عن أحلامهم الأولى، الطموحة والمشروعة، لصالح استسلام "واقعي" أمام ما هو قائم في المؤسسات، وفي العادات، وفي العقليات، لدى رجال الكنيسة وعامة المؤمنين، سواء بسواء!

وكان أن وجدتُني شيئاً فشيئاً، انتهج نمطاً من التفكير، والصلاة، والوعظ والمواجهة، والعمل، والتعامل، وضعني أيضاً، شيئاً فشيئاً، خارج السرب، ولكن في قلب الكنيسة. ولقد استوحيت كلّ ذلك أيضاً، شيئاً فشيئاً، من قلب الواقع الراهن، ومن صميم خبرتي العملية، بإيجابها وسلبها، ومن صلب مستقبل كانت ترتسم ملامحه أمام نظري، أو بالأحرى بعض ملامحه، بوضوح صارخ، كان يغضبني تعامي الكثيرين عنه، بل إصرارهم على هذا التعامي!... وبعد أن بذلت طوال سنوات، محاولات كثيرة، دؤوبة ومتنوّعة، في نطاق العلاقات الشخصية، مع الكثيرين من الكهنة والمسؤولين الكنسيين، وفي نطاق الاجتماعات الكنسية، الضيّقة منها والواسعة، الطارئة منها والعادية، وفي نطاق المؤتمرات العامة، داخل سورية وخارجها، من أجل النهوض الفعلي بحياة الكنيسة عامة، والكهنة خاصة، قررت الانقطاع عن جميع هذه المحاولات، إنقاذاً لنفسي ووقتي، ولكن دون التخلي عن خياري الأول والأخير، لأنه كان هو وحدَه، مبرّر وجودي وبقائي كاهناً!

كلّ ذلك، ولّد لدى كهنة كثيرين، حذراً طبيعياً حيالي، كما أنه ولّد لديّ أيضاً، خوفاً تلقائياً على الكهنة الجدد، بلغ بي أن كنت - وما زلت! - أتحاشى عن حضور قداس سيامتهم، كما حدث لي عام 1973، إبان سيامة كاهنين غاليين على قلبي، هما الأب إيلي آغيا، والأب جوزيف العبسي، البولسيين! وطالما كنت مقيماً في البطريركية، كنت أعتذر عن استقبال بعضهم، لئلا أسبّب لهم متاعب وأحكاماً مسبقة، ظالمة، هم بغنى عنها. والتزمت هذا النهج، حتى بعد أن بتّ أقيم في كنيسة سيدة دمشق، أي منذ مطلع السبعينيات. وأما من كان منهم يصرّ على مراجعتي واستشارتي، فكنت أنصحه بعدم الإشارة إلى ذلك، مخافة أن أثير له من المتاعب، ما لا طاقة له به.

وإلى ذلك، كنت أستقبل دون أي تردّد، بل بفرح، وفي كل لحظة، مَن كان يقصدني، لسبب أو لآخر، من الكهنة المسنّين، مثل الأب عبد المسيح شحيّد، والأب شريف فرح، والأب ميشل القائد والأب جريس عبود، على ما كان بيني وبينهم من فارق في السن، كبير! وكنت أنتهز الفرص بفرح أيضاً، لأبادلهم الزيارات، لشدّة محبتي لهم.

ولكم كنت أفرح ويغمرني الشكر لله، كلّما كان يأتيني كاهن متعب حقّاً - من دمشق أو من بعيد! ... - فأحمل معه بعض ما كان ينوء به! إلا أنّ هذا الفرح كان يبلغ الذروة، كلّما أُتيح لي أن أكتشف أن الله وحده مكّنني من إعادة نعمة الرجاء والفرح والسلام، لأخ لي في الكهنوت!

وهنا يطيب لي أن أختم حديثي عن علاقاتي برجالات الكنيسة، بكلمة كتبها لي أخي وصديقي الأب يوحنا جاموس، من حلب، وهي بتاريخ 2011/6/28، يقول لي فيها:

« دمشق 1959/7/5

أخي العزيز الياس حلب 2011/6/28

انتهز مناسبة ذكرى رسامتك الكهنوتية لكي أعبّر لك عن محبتي وتقديري وإعجابي. ولكني أقول لك أني سأقدّم الذبيحة الإلهية على نيتك الشخصية، وعلى نوايا جميع الذين تحملهم في قلبك وفكرك وعملك الرسولي. ذلك في 7/5، ولكي يملأك الرب تعزية وصحة وبركة وفرحاً، رغم كل الجراح التي تحملها في قلبك من أجل كنيسته وبسببها.

لتملأ عذراء الصوفانية حياتك بالتفاؤل الذي هو الرجاء المسيحي. صحتي جيدة والحمد لله وأحاول أن أقوم بالخدمة التي أوكلني الرب بها على قدر الوزنات التي أعطاني.

دمتَ في نعمة الرب

أكاد أنهي كتاب "عندما يطلب البابا الغفران".

إنه رائع! ومؤلم!

ليت جميع البشر يعترفون بأخطائهم،

ولا سيما رؤساء جميع الأديان والمؤسسات

ويطلبون هم أيضاً الغفران ويعطونه!...

أهنّئك على الترجمة والإخراج. أشكرك.

أخوك في الكهنوت والخدمة

الأب يوحنا »

الفصل العشرون

يا لها من إطلالة!

حفلت بداية الألفية الثالثة بأحداث في غاية الأهمية. وكان بعضها مفاجئاً، وبعضها بعيداً عن أي توقع! وكان بعضها حلماً رائعاً، فحوّله بعضهم إلى كابوس لا مبرّر له. وجاء بعضها الآخر... متأخّراً جداً. وجاء منها ما كان بمثابة الأحلام المستحيلة، وقد تحوّلت بقدرة القادر وحده، إلى وقائع مدهشة، مضت في تصاعد مفرح وواعد، ما كان لأحد أن يتصوّره! وبين هذه وتلك، حلّ بعضها كالكابوس، حتى كانت الجحيم الكونية، التي تحاصر سورية منذ سنتين ونيف، وهي تستهدف إلغاءها كلّيّاً، ماضياً وحاضراً ومستقبلاً!

في طليعة هذه الأحداث، كان التحرّك السياسي الواسع، الذي حدث داخل سورية، والذي أفضى إلى تشكيل هيئة وطنية جديدة، اتّخذت لها تسمية تنطوي في حد ذاتها، على برنامج وطني وقومي كبير. إنها "لجنة دعم الانتفاضة، ومقاومة المشروع الصهيوني". وقد اختارت لها بالإجماع رئيساً يشهد له تاريخه الحافل، بالنزاهة والنضال الوطني والقومي، وهو السيّد أحمد عبد الكريم. وتمّ اختياري عضواً في مكتبها التنفيذي، الذي كان يضمّ أكثر من ثلاثين عضواً، وكان منهم المطران موسى الخوري، والدكتورة نجاح العطار، والسيدة كوليت الخوري، والأديبة ناديا خوست، والسيد يوسف فيصل، والفنان دريد لحام، والشاعر صابر فلحوط، والدكتور فايز شهرستان، والسيد عبد الرحمن العطار. ودأبتُ على حضور الاجتماعات في مركزها في شارع الأرجنتين، وعلى المشاركة في معظم نشاطاتها، وكان منها جولات بعض مسؤوليها، في هذه أو تلك من المحافظات، من أجل جمع التبرعات للفلسطينيين داخل الأرض المحتلة، وإرسالها لهم مع جميع أشكال المعونات الغذائية إلى غزّة. كما كان منها أيضاً الخروج في مسيرات عبر شوارع دمشق. وهنا، يطيب لي أن أذكر أني، فيما كنت في السابق، أقاطع جميع المسيرات، لأني كنت أعتبرها كلّها مملاة، بتّ أحرص على المشاركة في مسيرات "لجنة دعم الانتفاضة"، لا لشيء إلا لأني سمعتُ يوماً أحد الفلسطينيين من الأرض المحتلة، يقول على إحدى شاشات التلفزيون: "إنّ روحنا ترتدّ إلينا، عندما نرى المسيرات التي تقوم في دمشق من أجل فلسطين!"...

في هذه الأثناء، كانت أخبار المقاومة في لبنان تَرِدنا إلى سورية، في ما كنت أظنّه مبالغاتٍ تعويضيّةً، عن هزائمنا العربية السابقة، المتلاحقة والمتراكمة، التي باتت تشكّل تربة خصبة لشتى أشكال الإحباط والإخفاق! إلا أنّ الخبر المفاجئ الذي طلَعَت به على العالم، هذه المقاومة اللبنانية، حول انسحاب القوات الإسرائيليّة دون قيدٍ أو شرط، من الجنوب اللبناني المحتلّ، ليلة الخامس والعشرين من شهر أيار عام 2000، كان أكبر من أن يصدّقه الناس، ومن أن أصدّقه أنا شخصيّاً، على ما كان يسكنني من تطلّع مزمن إلى مثل هذا الأمر! لكم سمعت يومها، وفي ما بعد، على مدى أشهر كاملة، من أناس في سورية ولبنان، من مختلف الشرائح الثقافية والاجتماعية، بل والدينية، يسكنهم حقّاً الهاجس القومي، آراء تشدّد على تحالف عميق جداً بين إسرائيل و... حزب الله! وكانوا يستشهدون بثقة مطلقة بالآتي من الأيام... والأشهر... والسنوات! وما أجمل، وما أروع ما كان يُخبّئ في الحقيقة، ذلك الآتي من تلك الأيام... والأشهر... والسنوات!

وفي أواخر شهر تشرين الثاني (نوفمبر) من العام ذاته، (2000)، تمّ انتخاب المطران لطفي لحام، مطران القدس، بطريركاً على كنيستنا، في البلدان العربية والمغتربات. ولم يخرج البطريرك الجديد على التقليد الكنسي، فاتّخذ له اسماً يونانياً يعني الكثير، وهو "غريغوريوس"، أي الساهر! ورجوت أن يكون حقّاً ساهراً على حضور الكنيسة العربية، بتخطيط مدروس وفعاليّة جماعيّة، هي بأمسّ الحاجة إليهما، بعد فترة الترهّل القاتل، التي سادتها طوال بطريركية مكسيموس الخامس حكيم. كما أني رجوت أن يحمل في داخله مشروعاً قوميّاً، لا بدّ له من أن يكون قد اختمر طوال السنوات التي أمضاها في القدس، تحت الاحتلال الإسرائيلي، حيث حلّ، منذ عام 1974، محل المناضل المطران إيلاريون كبوجي، وحيث رُقّي إلى رتبة أسقف فيها، في أواخر عام 1981. ولقد ذكرت أني قدّمت له عبثاً، مشروع عمل كنسي وقومي، منذ لقائي الأوّل به! وإلى ذلك، فعندما بلغني نبأ اختياره مستشارين له صديقيّ الكاهنين سليم غزال وجوزيف العبسي، وقد انتُخبا في 22 حزيران من العام 2001، أسقفين، سارعت إلى الاثنين معاً في حريصا وفي صيدا، لأهنّئهما وأحثّهما على المساهمة الفعالة والمنتظرة، في مهمتهما الجديدة والدقيقة. كما أني سارعت إلى لقائه في دمشق، لأهنّئه على اختياره هذا، ولأبيّن له أهمية الدور الذي كان يمكن كلّ منهما أن يلعبه، المطران سليم في نطاق العمل الاجتماعي، والعيش المشترك الإسلامي-المسيحي، والصراع العربي الإسرائيلي، والمطران جوزيف في نطاق العمل الثقافي والتجديد الليتورجي والإحياء الموسيقي!... ويؤسفني أن أصرّح على الملأ أنني ما من

مرة كنت أسأل كلاً منهما، عن مدى قيامه بدور المستشار، إلا ويأتيني الجواب بالنفي القاطع... حتى جاء يوم قال لي فيه هذا القدّيس المسمّى سليم غزال: "لقد قدّمت استقالتي للبطريرك، وأنا أقول له: إنّ يسوع ترك لعازر في القبر أربعة أيام، وأما أنت فقد دفنتني أربع سنوات! فإليك استقالتي!" وأضاف: "لقد وقّع على الاستقالة دون أن يتلفّظ بكلمة واحدة"! ولكم كان حزني وعزائي كبيرين، بل عظيمين، عندما قدمت إلى صيدا، يوم مأتم المطران سليم غزال في صيدا، بتاريخ (2011/5/2)، فاستقبلتني صوره الكبيرة، على جانبي الطريق الدولي، ببسمته الرقيقة المتواضعة، وقد علتها بخط كبير، عبارة رائعة هي: "صيدا حزينة"! ويومها، حرصت على العودة إلى دمشق، قبل مراسم المأتم برئاسة البطريرك "الساهر"!

ثمّة نبأ عظيم، أُعلن عنه خلال عام 2000، وهو زيارة البابا يوحنا بولس الثاني، إلى سورية، في شهر أيار من عام 2001! ولم تكن بخافية على أحد العراقيل الدولية الكثيرة، التي وقفت في الفترة السابقة، في وجه هذا المشروع. وكُلِّف المطران إيزيدور بطيخة، مسؤولية الإعداد الكامل لهذه الزيارة. وعُقِدت الاجتماعات في الدار البطريركية، من أجل التحضير الدقيق لهذا الحدث التاريخي، وتوزيع المسؤوليات بشأنه. وما شئت يوماً أن أغيب عن هذه الاجتماعات، وقد أعلنت فيها دوماً كامل استعدادي واستعداد جوقة الفرح، لأداء أية مهمة أُكلّف أو تُكلّف بها الجوقة. وكان قد طُرِح في هذه الأثناء مشروع كان بالنسبة إليّ، حلماً يراودني منذ سنوات، وهو إحياء حفل ديني، تؤدي فيه جوقة الفرح ورابطة منشدي مسجد بني أمية، مجموعة من الأناشيد الدينية المشتركة، في باحة مسجد بني أمية بالذات! وإني لأذكر أنّ الأب بيير مصري الحلبي، كان أوّل من اقترح هذا المشروع، ورتّب فقراته! وكنت أتابع هذا الأمر بتلهّف وتخوّف في آن واحد. وفجأةً بلغني أنّ هذه الفقرة أُسقطت من البرنامج، ولم ندرِ يومها سبباً لذلك.

ومرّت الأشهر، ووزّعت المسؤوليات، وأُعلِمَت جميع الجوقات المسيحية في سورية، بمشاركاتها في زيارة البابا، إلا جوقة الفرح! وبات مجيء البابا وشيكاً، واتضح لي أنني استُبعدت عمداً مع جوقة الفرح. بالطبع آلمني الأمر كثيراً، لاكتشافي مرة أخرى، أنّ حسابات البشر قلّما تتطابق مع حسابات الربّ، وأنّ الأخطاء إيّاها تُرتَكب، دون أن يُتاح للأخطاء السابقة أن تعلّمنا شيئاً... وأبت عليّ عزّة نفسي أن أراجع المطران ايزيدور في هذا الأمر. وذات يوم، توالت عليّ الهواتف من عدة أشخاص، يعاتبوني فيها على ما نَسَب إليّ المطران إيزيدور أمامهم، من موقف زعم فيه أني اشترطت عليه، من أجل المشاركة في زيارة البابا، أن تقوم جوقة الفرح وحدَها، دون سواها من الجوقات،

بخدمة القدّاس الذي كان البابا مزمعاً أن يقيمه في ملعب العباسيين! ولم يكن هناك من يجهل أن جوقة المعهد العالي للموسيقى، كانت هي التي ستتولّى هذه الخدمة، بقيادة المايسترو صلحي الوادي. وكنت أكثر من هلّل لمثل هذه المبادرة، لأني على يقين بأنّ مثل هذا الأمر لا يمكنه أن يحدث في أي بلد عربي آخر غير سورية! ولم أعد أحتمل، فمضيت دون سابق موعد إلى البطريركية. فوجدت المطران ايزيدور واقفاً بمفرده بجوار البحيرة في وسط الدار. وإني لأكتب الآن ما جرى، وكأنه يجري للتو. وقلت له بالحرف الواحد، باللغة العامية، وبنبرة حادّة:

"سيدنا، جئتك لأمر نسَبتَه إليّ كذباً، وهو، لو كان صحيحاً، لا يشرّفك، ولا يشرّفني. أنت تتّهمني بأني اشترطت عليك مع جوقة الفرح، خدمة قدّاس البابا في ملعب العباسيين، وحدنا، دون مشاركة أية جوقة أخرى. ولذلك استبعدتَني واستبعدتَ جوقة الفرح... إن كنت تريد استبعادي، فالأب زحلاوي، خدّه تعوّد على اللطم! ولكن ما ذنب جوقة الفرح، كي تُحرَم بسببي من المشاركة في مثل هذا الحدث التاريخي؟! أكلّ يوم يأتي بابا إلى دمشق؟ لماذا اخترعت هذا الادّعاء؟!"

فجاءني جوابه، أيضاً بالحرف الواحد: "هذا ما فهمتُه منك!"

فسألته بمزيدٍ من غضب: "ولكن، هل صدف لك، ولو مرة واحدة، أن سألتني أي شيء على انفراد، بخصوص زيارة البابا؟"

وظللتُ أحدّق فيه... وصابرت نفسي، عساه يطلع بجديد... إلا أنه لاذ بالصمت، وأشاح بنظره عني... فوجدتُني أنسحب، وأنا في قمة الغضب. ورأيت لزاماً علي أن أخبر بعض المسؤولين في الجوقة، بما حدث بيني وبين المطران ايزيدور... وكان أن غِبتُ كلّيّاً عن جميع فعاليات هذه الزيارة، باستثناء ما طُلِب مني من مشاركة، في الحوار الذي رافق زيارة البابا إلى مدينة القنيطرة المحررة، والذي شاركتُ فيه مع كل من السادة، ناصر قنديل، ومروان فارس، ومخائيل عوض. إلا أني كنت أتابع جميع محطات هذه الزيارة، على شاشة التلفزيون في غرفتي. ولا بدّ لي من الاعتراف بأنّ قمّة هذه الزيارة كانت طريقة دخول البابا إلى مسجد بني أمية، وطريقة استقباله فيه، من قبل كبار الأئمّة والمسؤولين، والكلمات الرائعة التي قيلت يومها. وأما تحية الناس له، إبان خروجه من المسجد الأموي، فكانت تندّ عن كل وصف، لما اتّسمت به من احترام وتجلّة ومحبّة!

ما حدث بعد ذلك، كان أني انقطعت انقطاعاً تامّاً عن البطريركية، طوال أربعة أشهر. وقد حاول خلالها المطران ايزيدور، مراراً، أن يصل ما انقطع، وكنت أبداً مصرّاً على مقاطعته. وأخيراً، لجأ إلى صديق مشترك، هو كلود بطارخ. وقد أعرب لي كلود

عن استعداد المطران لزيارتي في الكنيسة، بل للاعتذار إليّ أمام جوقة الفرح! فأبيت على نفسي أن أكرهه على مثل هذا الموقف. وكنت قد أدركت أنّ كلينا أخطأ، وأنّ الاستمرار في الخطأ لا يُصلح شيئاً. وتساءلت خصوصاً: لو كان يسوع في مثل ما أنا فيه، ماذا كان تُراه فعل؟ واتصلت به هاتفيّاً، ومضيت إليه، وتقصّدت ألا أعود إلى ما جرى، كي لا ننكأ الجراح مرة أخرى، في ما لا طائل تحته. وحاولت جادّاً وصادقاً أن أفتح صفحة جديدة في علاقاتنا، وكنت على يقين تام من استعداده للتجاوب معي، في أي شيء أقترحه عليه. ورأيت أن أحدّثه في ما كان مفاجأةً له، وفي ما سيكون مفاجأةً لدمشق برمتها، وهو علاقتي الجديدة بالشيخ المنشد حمزة شكور، وبمشروع إحيائنا مع جوقتينا لأمسية من الترانيم الدينية المشتركة، في أواخر شهر أيلول، ردّاً منا على تهديدات الرئيس بوش الهوجاء، بشنّ حملة "صليبية" عالمية على الإسلام. وأخذنا نبحث معاً عن المكان الملائم لمثل هذه الأمسية، حتى اقترحت عليه أن نقيمها في باحة كنيستنا الكبرى في حارة الزيتون. ولم يكن من بدّ له إلاّ أن يرحّب باقتراحي. وسارعت إلى إعلام الشيخ حمزة شكور بما اتفقنا عليه، فهلّل. ثم وضعتُ مسؤولي الجوقة الكبرى في الصورة، وكانت استعدادات الجوقتين تتواصل، والكلّ يغمرنا شعور عارم بأهمية مثل هذه الأمسية، فيما كنت أراها في نفسي، وفي أجواء البلد والغليان العالمي، المصطنع منه والفعلي، بمثابة حدث فذّ، من شأنه أن يفتح أمام الجميع، باباً جديداً كنت أرى أنّ العالم العربي والإسلامي من جهة، والعالم الغربي الأهوج، من جهة ثانية، بحاجة ماسّة إلى رمزيته الكبرى. وإني لأرفع الشكر لله اليوم، بسبب الخطوات التي قدّرنا أن نخطوها كلّنا، إثر الخطأ الذي ارتكبناه إبان زيارة البابا إلى سورية. وإنّ الحقيقة لتقتضيني الاعتراف بأنّ أفراد جوقة الفرح فوجئوا أيما مفاجأة بخطوتنا هذه. وكان بعضهم غير مصدق من إمكانية إحياء هذه الأمسية، حتى اللحظة الأخيرة. وأما رابطة منشدي مسجد بني أمية، فكنت، إذ أتحدّث عنها مع صديقي الجديد، حمزة شكور، أرتاح إلى ثقته المطلقة بتأييد أعضاء فرقته لكل ما يقرره هو! وما حاولت يوماً أن أعرف سرّ هذه الثقة، إذ كنت أشعر بأنّ لله فينا شأناً اليوم وغداً، هو أدرى به، وكان حسبنا رحمة منه تعالى أن يستخدمنا في هذه الأيام العصيبة والحبلى بشتى المفاجآت، في ما استخدم فيه أجدادنا، يوم قدّم فيه المسلمون فاتحين إلى دمشق، فتعلّموا فيها، لسرّ فيه تعالى، ما انفردوا به من "فتح"، جعل المؤرخين الغربيين يطلقون عليهم وحدهم، صفة لم تُطلَق على سواهم، إذ قالوا فيهم "إنهم أرحم الفاتحين"، ومما لم يتعلّمه فاتح آخر، لا قبلهم ولا بعدهم!

وما أن أُعلِن عن قرارنا إقامة هذه الأمسية المشتركة، في هذا المكان تحديداً، حتى عمّت صدمة المفاجأة أوّلاً، ثمّ جرأة مثل هذه الخطوة، أوساطاً كثيرة، مسيحيّة ومسلمة. وكان أن عرفت، ونحن في غمرة الاستعداد لها، أن "الترويكا الأوروبية"، وعلى رأسها "خافيير سولانا"، قادمة إلى دمشق في زيارة رسمية، في تلك الفترة بالذات. فقمت بزيارة لوزارة الخارجية، وأخبرت أحد المسؤولين فيها بأمسيتنا. ولقد أقيمت الأمسية مساء 2001/9/27، وحضرها جمهور واسع ومبهور، من المسيحيين والمسلمين، وعلى رأسهم حشد كبير من رجال الدين المسيحيين والمسلمين... وكان أن حضر السيّد فاروق الشرع مع الوفد الأوروبي، قُبيل بدء الأمسية، وقد افتتحها المطران ايزيدور بكلمة لبقة. وكانت برفقتهم بعثة من التلفزيون البلجيكي، مع مراسلها السيّد "جوزيف مارتان". ولم يُتح لهم وقتُهم أن يسمعوا هاتين الجوقتين أكثر من عشرين دقيقة. إلا أنّ ذلك كان كافياً ليحمل السيّد "مارتان" على التصريح أمام التلفزيون البلجيكي، بحديث طويل أدلى به بالطبع باللغة الفرنسية، وكنت أتسقط كلماته بانتباه كبير. وقد احتفظت منها لنفسي في أعماق ذاكرتي، بعبارة مدهشة تكاد تختزل كلّ شيء لديه. وقد أتيح لي في ما بعد، أن أردّدها عشرات المرات، هنا وهناك في دمشق، ولبنان وأوروبا وكندا واستراليا! وقد قال يومها بالحرف الواحد:

"كان على السيّد برلسكوني، بدل أن يشتم الحضارة العربية والعالم الإسلامي، أن يأتي إلى هنا، ليردم هوة جهله!"

وهل من داعٍ لأذكّر بأنّ السيّد برلسكوني كان يومها رئيس وزراء إيطاليا؟

ولا يسعني، وأنا أذكّر بهذه الأمسية "التاريخية"، في باحة كنيسة حارة الزيتون، إلا أن أستحضر في ذاكرتي وقلبي - وخصوصاً في صلاتي! - أمسيتين، متماثلتين ومدهشتين، ضمّتا أيضاً "جوقة الفرح" و"فرقة تهليلة للإنشاد الديني"، وأقيمتا بعد تلك الأمسية، بما يقارب عشر سنوات. فلقد قُيّض لأولاهما أن تُقام مساء الأحد 2011/5/19، في باحة بطريركية الروم الأرثوذكس، برعاية وحضور غبطة البطريرك اغناطيوس الرابع هزيم، أمام حشد رائع ومبهور من المسيحيين والمسلمين. وأُقيمت الثانية في جامعة بلدة "الحواش"، في وادي النصارى، مساء السبت 2011/9/17، ضمن فعاليات مؤتمر حاشد، ضمّ نخبة من كبار المثقفين، المسلمين والمسيحيين، من سورية ولبنان وفلسطين. وهنا بالذات، لكم يطيب لي أن أذكر الكلمة الوجيزة والرائعة التي قالها في ختام هذه الأمسية، مطران جبل العرب وحوران للروم الأرثوذكس، أبي وصديقي سابا اسبر! فلقد قال: "إنّ وطناً، فيه جوقات تنشد مثل هذا الإنشاد، لا يموت!"

وإني إذ أتذكّر الآن هاتين الأمسيتين، بقلب مفعم بالشكر والحمد لله وحده، وبالرجاء الثابت في رحمته التي لا حد لها، لأتطلّع إلى أمسيات شكر وحمد أيضاً، سوف تقيمها في أيام قريبة، أوّلاً في باحة مسجد بني أمية الكبير، ثم في باحات مختلف الكنائس والمساجد في سورية كلّها، مختلف الجوقات الإسلامية والمسيحية فيها، ليقيني التام بخروج سوريا قريباً، من جحيمها الراهنة، وبخروج العالمين العربي والإسلامي، من الجحيم الكونية، التي أريد لهما أن يَزُجّا في نيرانها الآكلة، وجودهما و... فناءهما!

وهنا، يطيب لي أن أذكر دعوة جاءتني في بتاريخ 2002/5/28، من مدير المركز الثقافي، في مدينة درعا، السيّد محمد خير عبد اللطيف الزعبي، لإلقاء محاضرة، ترك لي تحديد عنوانها. وكان أن اخترت هذا العنوان اللغزي: "هل من شيء يمكن فعله، بعد كل ما حدث؟". وكان أن تحدّثت في صدق تام، عمّا آل إليه الوضع العربي العام من انهيار وتشرذم، بدا معه كل أمل بتغيير، ضرباً من الخيال، على الرغم مما رَسَمت المقاومة في لبنان، من بوادر نهوض جديد! واستعرضت بالطبع، تجارب بعض الشعوب، منها الشعب الهندي، إبّان الاحتلال البريطاني، والتفافه حول غاندي، ومنها الشعب الفرنسي، إثر احتلال النازيين لفرنسا، وبروز الجنرال ديغول... ومنها انهيار اليابان، إثر إلقاء الأميركيين، القنبلتين النوويتين، على مدينتي هيروشيما وناكازاكي... ومنها اجتياح الأميركيين لفيتنام، والتفاف الشعب الفيتنامي حول "هوشي منه"!...

وخلصتُ إلى أنّ تاريخ الشعوب حافل دائماً بمفاجآت، كان أجمل ما فيها، أنها كانت تفاجئ أول من تفاجئهم، أبطالها بالذات! وانتهيت إلى طرح سؤال، كنت كثيراً ما طرحتُه على نفسي، في توقّع يُداني اليقين: لِمَ، تُرانا، نستثني أمتنا العربية من مثل هذه المفاجآت؟

وفي أوائل عام 2004، تلقّت جوقة الفرح الكبرى، دعوة من المطران عصام درويش، وهو مطران كنيستنا في استراليا، للقيام بجولة فيها، على أن تكون نفقات الطائرة على أفراد الجوقة، ونفقات الإقامة والتنقلات كلّها، هناك، على أبناء الجاليات العربية فيها. ولقد واجهَتْ هذه المهمة، مصاعب مالية كثيرة ومضنية، فضلاً عن عرقلات متلاحقة، جاءتنا من سفارة استراليا في بيروت، ذُلّلت أخيراً بتدخّل شخصي من المطران عصام نفسه. وشارك فيها ستّة وخمسون منشداً ومنشدةً، وبعض الموسيقيين، كان أحدهم مسلماً. وقد اقتُصِرَت إقامتنا وحفلاتنا وقداديسنا كلّها، في هذه القارة الهائلة، على العاصمة سيدني، ومدينة ملبورن. وقد وُوجهنا في أوّل أمسية لنا في سيدني، بمقاطعة واسعة من إخوتنا اللبنانيين. إلا أنّ تأثير ما قدّمنا في هذه الأمسية بالذات، من ألوان التراث اللبناني والسوري والمصري، أسقط في الأيام التالية، جميع

الحواجز المصطنعة، التي كانت قائمة حيالنا. ثمّ إنّ إقامة أفراد الجوقة في بيوت أبناء الجاليات العربية، شحن العلاقات بين الجوقة وأبناء هذه الجاليات، بنمط جديد ومفاجئ من المحبّة والألفة، جعل الكثيرين، من الطرفين، يبكون لحظة مغادرتنا سيدني إلى ملبورن، ولحظة الوداع في ملبورن، في طريق العودة إلى سورية!

وأما أنا، فقد عدت إلى دمشق، قبل عودة الجوقة بأيام قليلة، ليتسنّى لي أن أكون حاضراً في أمسية غنائية، كان مائة وعشرون من أطفال جوقة الفرح، سيُحيونها في قصر المؤتمرات. وكان من المقرّر أن يقدّموا خلالها، ضمّةً مختارةً من الأناشيد التراثية، السريانية واليونانية والمسيحية والإسلامية. وقد غصّت قاعة قصر المؤتمرات، على سعتها، بالحضور، وكان على رأسهم الأستاذ أحمد عبد الكريم، وعدد من مسؤولي لجنة دعم الانتفاضة. وفي ختام الأمسية، اقترح علي السيّد أحمد عبد الكريم ما كنت أحلم به دوماً، وهو تنظيم رحلة خاصة بأطفال جوقة الفرح، إلى أهم العواصم الأوروبية، وأكّد لي ثقته التامّة بدعم اللجنة لمثل هذا المشروع الحيوي. وبعد أيام قليلة، دُعينا إلى اجتماع طارئ، طرح فيه السيّد أحمد عبد الكريم، هذا المشروع، وأعرب عن كامل دعمه له، فلاقى ترحيباً واسعاً من معظم الحاضرين، وقد وافقوا على تقديم مائة ألف دولار، من أصل مجمل النفقات، في حال قيام الرحلة. وكُلِّفتُ التحضير العاجل والمتأني لها، دونما أي تأخير.

فاتصلت في اليوم نفسه بصديق غالٍ يُدعى يوسف عكة، وهو سوري مقيم منذ أكثر من ثلاثين سنة في إسبانيا، في مدريد، وله فيها مكتب سفريات مختصّ في تنظيم رحلات لجوقات أوروبية تجوب العواصم والمدن الأوروبية. فدرس المشروع ووافاني بتفصيله، وهو يضمّ أمسيات وقداديس في مدريد وروما وبروكسيل وباريس، تتواصل مدة ثلاثة عشر يوماً، ولا تتجاوز كلفتها آنذاك المائتين وعشرة آلاف دولار أميركي، على أن تضمّ الجوقة تسعين طفلاً من كلا الجنسين، وعشرة مرافقين، وعشرة موسيقيين. وثَبَّتت "لجنة دعم الانتفاضة" تقديمها مائة ألف دولار، في حال قيام الرحلة. وإنه ليؤسفني أن أعترف أننا عجزنا، في نهاية المطاف، عن جمع المبلغ المتبقّي، على الرغم من كلّ ما بَذلتُ من جهود، طالت بعض أعلى المسؤولين في سورية!

إلا أنّ الدعوة جاءتنا، بعد أشهر قليلة، من حيث لم نكن نتوقّع! ذلك بأنّ السفارة الأميركية في دمشق أخبرتني ذات يوم، برغبة مدير مركز جون كنيدي الثقافي بواشنطن، السيّد "مايكل كايزر" (Michael Kaiser)، في زيارتي! وجاء يوم الإثنين 2006/11/6، بصحبة المسؤول الثقافي في السفارة الأميركية بدمشق، ومعهما مترجم

السفارة، السيّد عبد الرؤوف عدوان. وحدّثني السيّد "مايكل كايزر" عن مشروع كبير، قرّر إقامته في واشنطن، في أواخر شباط ومنتصف آذار من عام (2009)! وكان قد اختار له اسماً مثيراً هو "مهرجان العالم العربي"! وأبدى رغبته الصريحة في اشتراك أطفال جوقة الفرح في هذا المهرجان، على أنهم الجوقة الوحيدة المنتقاة من سورية!... وكنت، إذ يتكلم، أستعيد في ذاكرتي الحيّة، المحاولات الكثيرة الفاشلة التي كنتُ قد بذلتها مع كنيستنا العربية في كلّ من كندا والولايات المتحدة، ومع العديد من أبناء الجاليات العربية فيهما، ولا سيما في الولايات المتحدة! ولقد غمرتني في تلك اللحظة نشوة عارمة من الاعتزاز بإنجازات جوقة الفرح، ومن الشعور العميق والمزدوج، بالشكر لله، وبالكبرياء الوطنية. غير أني تمالكتُ نفسي، بكل صدق، وحاولت أن أستجلي ما قد تكون الأهداف البعيدة من إقامة مثل هذا المهرجان. وما كان لي أن أنسى ما خبّأ لنا الغرب في الماضي، البعيد والقريب، من فخاخ وسموم مدمرة، وراء "شخصيات" أو مشاريع... مغرية! أجل، تجرّأت، في مكابرة قاسية إزاء حلمي القديم، وقلت للسيد "كايزر" ما يكاد يكون بالحرف الواحد:

"إن كانت الغاية من هذا المهرجان تصبّ في خانة سياسة الرئيس جورج بوش، فأنا، منذ الآن، أعتذر عن مشاركة الجوقة فيه".

فجاء جوابه صريحاً، في هدوء وابتسامة طبيعية:

"انظر، يا أب الياس، لقد تعبنا كلّنا من الحروب... والناس في كلّ مكان، صاروا يتمنّون أن يعرف بعضُهم البعض، لأنّ المعرفة مفتاح المحبّة! وهذا بالذات ما دفعني لتنظيم مثل هذا المهرجان، وليس هناك أي دافع آخر!"

بدا لي الرجل صادقاً، فارتحتُ وأبديتُ كامل استعدادنا في جوقة الفرح، للاشتراك في هذا المهرجان، على أن تُدرَس في ما بعد، كافة الشروط. وقبل أن نفترق، تبادلنا البطاقات الشخصية، ثم قدّمت له ولمرافقَيه بعضاً من تسجيلات جوقة الفرح، الصوتية والمرئية، علماً بأني كنت واثقاً من أنه اطّلع منذ زمان بعيد على أعمالنا، ورازها طويلاً، حتى قرّر اختيارنا! ولقد أُتيح لي أن أروي قصة هذه الرحلة الاستثنائية، وتوسيع دائرتها، وتمويلها الكامل، وتفاصيلها المدهشة، في الكتاب الذي خَصَصْت به مسيرة جوقة الفرح، والذي أرجو له أن يصدر قريباً في دمشق.

ثمّة مفاجآت أخرى، حملها لي عام 2005 أيضاً، تفاوتت فيها حالات الحزن والألم والرجاء، في محبّة غمرني بها الله في حكمته التي لا تُدرَك، في كل لحظة من لحظاته!

في 18 حزيران، أُجرِيت لي عملية "الماء الزرقاء" في العين اليمنى. وكان كلّ شيء

عادياً، إلا أنّ وضع العين ساء بعد ظهر يوم الأحد 2005/7/10، خلال الصلاة في مأتم. وتواصل الألم متصاعداً، طوال أكثر من ساعة، ثم أعقبه سيلان قيحي غزير. ولما لم أجد الطبيب هاتفياً، قبعتُ في الغرفة أتحمّل الألم وأصلي... حتى جاءني هاتف من صديق يطمئن عليّ، فما كان منه إلا أن بحث عن طبيبي الشخصي الذي كان خارج دمشق، وأخبره بما أصاب العين. فجاءني مع طبيب آخر في العاشرة ليلاً، واقتاداني إلى العيادة، فقرّرا ضرورة إجراء عملية عاجلة في صباح الغد، بعد أن تبيّن لهما أن القيح أكل العين، وبات يهدّد العين اليسرى... إلا أنّ الحقيقة الكاملة لم تُروَ لي، إلا بعد أكثر من أسبوع، وهي أنّ رحمة الله تلطّفت بي، لأن القيح الذي سال من العين، كان يمكنه أن يتسرّب إلى الدماغ، فينتهي كل شيء في دقائق! وأما تلك الليلة، فقد أمضيتها في غرفتي في الكنيسة، برعاية من كنتُ عرفتُه منذ قدومه إلى كنيسة سيدة دمشق، كاهناً مجبولاً بروح يسوع وتواضعه ومحبته، فكان - ولا يزال - أخاً وابناً لي في آن واحد، عنيتُ به الأب ميشل ديراني.

وفي صباح اليوم التالي، 2005/7/11، أجرى لي صديقي الدكتور هاني مسعود، العملية الجراحية، بحضور طبيبي السابق، في مشفى دار الشفاء بدمشق. وأمضيتُ فيه أسبوعاً كاملاً، أُحِطت فيه بعناية فائقة حقّاً، حتى أحسستُني خلاله، وكأني بين أهلي وأصدقائي وأبنائي. إلا أني كنت دائم التساؤل في سرّي: أين يسعني أن أمضي الفترة التالية، بحيث أكون في مكان مريح، غير بيت أهلي، على محبّتهم العظيمة لي، لأنه... قبو! وبحيث تُوفَّر لي أيضاً الرعاية الطبية، الضرورية واليومية، ويُتاح لي الكثير من الهدوء والصلاة؟! وكان أن جاءني خلال هذا الأسبوع بالذات، من يلحّ علي بالموافقة على قضاء فترة من النقاهة، يريدها لي الدكتور سمير أزرق وعقيلته جيسي في بلدة المعرة! وهل كان لي أن أحلم بمثل هذا المقترح؟ وإنه ليطيب لي أن أذكر هنا، بكل صدق، أني لم أكن يوماً قد راجعتُ الدكتور سمير في شأن عيني. صحيح أنهما لم يكونا، هو وزوجه جيسي، بغريبين عليّ. فالدكتور سمير، ألفنا من زمان، في جمعية "صندوق الأخوة" وجمعية "يداً بيد"، أن نطرق بابه بين حين وآخر، من أجل مرضانا الفقراء، وكان دائم الاستجابة، بمودّة ومجانية وروح دعابة. وأما جيسي، فكانت معرفتي بها لا تتجاوز حدود تواجدها في الصلاة، في "بيت العذراء" في الصوفانية. ثمّ إنّ ابنتهما "ساندرا" في جوقة الفرح... أما أن يأتيني مثل هذا الطلب منهما، وفي هذا الوقت بالذات، فلم يكن بوسعي إلا أن أرى فيه جواباً ربانياً سريعاً، على تمنّياتي الخفيّة! والحقيقة أني أمضيت في بيتهما في المعرة، لا أسبوعاً، كما قيل لي أوّلاً، ولا

أسبوعين، كما قيل لي بعد ذلك، بل شهراً كاملاً، أعتبره محطة مميّزة في حياتي الكهنوتية كلّها! في هذا الشهر، كنت، ليلاً ونهاراً، مغموراً بمحبّة فائقة، ورعاية متفانية، ما كانتا لتبخلا عليّ بجهد أو نصح. وقد شارك الجميع في هذا الحضور المحب، من والدة الدكتور سمير، وأسرته كلّها، إلى الحفيدة الطفلة، كما شاركتنا فيه أختاه وأسرتاهما في دمشق، وبيروت. فما أروع المحبة، المسيحية والإنسانية، عندما لا تبغي سوى الخدمة المجانية للآخر بوصفه آخر، لا سيما إذا كان هذا الآخر كاهناً! ولشدّ ما كان فرحهم بالزوّار الكثر، يدهشني. وكان هذا الفرح يبلغ القمّة، عندما كانت صالتهم الرحبة تضم العشرات من المصلين الذين كانوا يشتركون، صلاة وترتيلاً، في القدّاس الذي كان يجمعنا كلّ أحد. إلا أنّ القداس الذي أقمتُه في يومي الأخير عندهم، وهو يوم عيد انتقال السيّدة العذراء إلى السماء، فقد انحفر في ذاكرتي وذاكرة الكثيرين، حتى إني بتّ أقيمه، في الأعوام التالية، في الذكرى ذاتها، وفي المكان نفسه. والجدير بالذكر أنّ هذا المكان، كان حديقة البيت الرحبة، التي كانت إحدى زواياها قد ازدانت بمغارة حجرية في غاية الأناقة، أجمل ما فيها كان تمثالاً رائعاً للسيدة العذراء. وكانت تشرئبّ في جنباتها، فوق أرض الحديقة، ورود من شتى الأنواع والألوان، فوق شتلاتها النضرة، فيما كان الأصدقاء المصلّون يحملون شموعاً، تبهج بألسنتها المتراقصة، ليلنا وترانيمنا وصلواتنا! حقّاً، كان هذا الشهر رائعاً، على ما رافقه من آلام وقلق لي، ومن تعب، بل من إرهاق لأهل البيت، ولخادمهم الأمين (ابو سكفان) وأسرته الطيبة. غير أني أحمل من هذا الشهر، ذكرى خاصة، كانت تتجدّد كلّ مساء تقريباً، أي عندما كان دفء الطقس يسمح لنا بتناول الطعام، في الشرفة المطلة على السهل، والتي كانت أضواء دير سيدة صيدنايا، تبدو لنا فيها، وكأن السيّدة العذراء نفسها تلوّح لنا عبرها، بالسلام الذي يلازم اسمها المبارك على الدوام!

وفي السادس عشر من شهر آب عام 2005، عاد بي بعض من أبنائي في جوقة الفرح، إلى مقري السابق في كنيسة سيدة دمشق. كان سروري عظيماً بهذه العودة، وقد زرت أول ما زرت الكنيسة، حيث رفعت الصلاة، شكراً للرب، وسؤالاً إليه تعالى، من أجل جميع الذين وقفوا معي في هذا "الامتحان" الجديد، ومن أجل الذين فاتهم، لسبب ما، أن يقفوا! ثمّ صعدت إلى غرفتي، ففوجئت إذ وجدتها وقد انقلبت رأساً على عقب. فالستائر فيها جُدّدت، والأثاث الخشبي كلّه كان أيضاً جديداً، وقد بهرني بلونه، وأناقته، وجمالية شكله، وتوزيعه المنسّق. وكان يضمّ مكتبةً واسعةً، ومكتباً قام أمامه كرسي حديدي وجلدي أسود، متحرّك، وخزانة كبيرة، ومخزن للأحذية، وسرير. وقد أثار كل هذا الجديد فضولي،

لا سيما وأنّ أحداً من المسؤولين في الكنيسة، من الكهنة أو من الوكلاء، وقد غابوا كلّهم عن زيارتي طوال هذه المدة، باستثناء الأب الطيّب ميشل ديراني، لم يخطر بباله أن يحدّثني عن ذلك. ولما ألححتُ في السؤال، تبيّن لي أن من بادر، خلال إصابتي، إلى تغيير أثاث غرفتي، وتحمّل كامل نفقاته، كان أسرتين صديقتين لا غير، وهما أسرة أحمد وسمر الخطيب، وأسرة رويدة برصا، زوجة صديقي المرحوم إيلي قيومجي!...

كانت عودتي إلى كنيسة سيدة دمشق، قد وضعتني من جديد أمام إيقاع حياتي السابقة، كما لو كنتُ بكامل قواي، فيما أنا أعرف وألمس في كلّ لحظة، ما فقدتُ وما يترتّب عليّ السهر عليه من قدرة بصرية، باتت، شئت أم أبيت، محدودةً بعين واحدة، تحتاج هي أيضاً إلى رعاية دائمة!

وكان أن جاءني فجأة إلى دمشق، المسؤولان عن "جمعية برادو الشرق"، السابق والجديد يومذاك، ليتفقّدا أحوالي، وينصحاني بضرورة تغيير شيء ما في نمط تفكيري وحياتي معاً، علماً بأنّ أحداً من جميع أعضاء الجمعية في لبنان، لم يكن لا زارني، ولا تفقّدني بهاتف واحد، لا في بيروت، ولا طوال فترة علاجي في بيت الدكتور سمير أزرق في المعرة. وكان كلّ ما كان يلازمني من حالة الشكر الدائم للرب، في ما أجد لدى الناس من سلام ومحبّة وصلاة، في "كنيستي" وفي "بيت العذراء" في الصوفانية، ومن سهر ودود وصامت، من أختي نور، وأخي ميشل وزوجته سميرة، في بيت أهلي، ومن حنان دافئ من أختي رينيه، ومن حضور قوي من زوجها عبد المسيح، ومن فرح عائلي رائع في بيت ابنتها كوثر بحضور زوجها نزار، وأولادهما الثلاثة الرائعين، باسكال وجود وكريستا، وكلّ ما كان أبنائي وبناتي الكثيرين في أسرة الرعية الجامعية، وجوقة الفرح، وفرسان المحبّة، وسواهم الكثيرين أيضاً، يبدونه نحوي من سهر وتخوّف، وشتى مظاهر المحبّة المجانية، العفوية، كل ذلك كاد أن ينسيني ما كان قد أصابني بما كان بعضهم يراه مقتلاً، وبما كنت، إذ أخلد كلّ مساء إلى الصلاة، في غرفتي الصغيرة، أتذكّره، بل ألمسه ماثلاً، إن لم أقل قابعاً يترصّدني.

في تلك الفترة الجديدة والعصيبة، أعترف أنّ ملاذي الأكبر كان أخي وصديقي الأب الياس يعقوب. وكان مجرد ذكر اسمه، أو مجرد سماعي حديثاً عنه، أو مجرد سماعي صوته على الهاتف، يبعث في كياني كلّه، سلاماً لا قرار له، ويحثّني على المزيد من الاستسلام للرب يسوع وللعذراء أمّه. ودأبت شيئاً فشيئاً، طوال أشهر، على قضاء بضعة أيام من الراحة والصلاة، لديه بين حين وآخر، في مقرّه الوادع، في بلدة الخراب! وكانت أبداً أختي نور ترافقني، في صمت وحنان، على ما كان بها من آلام كثيرة، ولا سيما في

تنقّلها على عكاز. وفي الخراب، لكم كنّا نسعد بهذا الكاهن القدّيس، وبملاكيه، ليديا وهاشم، ولدَي أخيه الأكبر، اللذين كانا يلازمانه في شتى أمور الخدمة، الكنسية والمنزلية والصحية، ويبديان دائماً من الحفاوة والبشاشة لزوّاره وأحبّائه الكثيرين، بل لقاصديه المُعوزين، ما يصعب عليّ وصفه! وما كنت أدري يومها، إني كنت أمضي معه المرحلة الأخيرةَ من حياته الملائكية على هذه الأرض! حتى كان يوم، وهو الرابع عشر من كانون الأول عام 2005، تحدث فيه إليّ هاتفياً، فتواعدنا على لقاء بعد يومين أو ثلاثة. وإذ بهاتف آخر يردني بعد ساعة واحدة، ينبئني فيه أحدهم برحيله المفاجئ في هدوء، فيما كان جالساً في مكانه المعتاد، قرب الهاتف! ولم يتسنّ لي يومها أن أطير إليه، فحُرِمتُ نعمة قضاء آخر ليلة بجوار جثمانه، في صلاة مع محبّيه الكثيرين... الكثيرين، بعد أن كنت نعمت منذ أكثر من ثلاثين سنة، بصداقته، وخصوصاً بالصلاة معه! ومضيتُ في الغد باكراً إلى الخراب، ولكن دون أن أصطحب أختي نور، وشاركت الجماهير المحتشدة، المصعوقة والباكية لرحيله المفاجئ، هو الذي كان لأكثر من خمسة وعشرين سنة، أباها وأخاها وكاهنها. فشاركت الجميع، صلاتهم، وبكاءهم وجمودهم!

وعدتُ، بعد ظهر ذلك اليوم، إلى دمشق، في حزن ووحدة لا يوصفان! وكان ذاك اليوم، بداية تدهور متسارع ومحتوم، في العين اليمنى، التي كان الأطباء في دمشق وبيروت، يسعون جاهدين، منذ ستة أشهر، للإبقاء عليها، شكلاً ومضموناً، مستقرّةً، خوفاً منها على العين اليسرى. ونُصِحت مرة أخرى، من قبل طبيبيّ في دمشق، الصديقين سمير أزرق وهاني مسعود، بمراجعة الدكتور جورج شرفان في بيروت. وإن أنسَ، لا أنسَ الكلمة التي كان الدكتور سمير أزرق قد قالها لي، بهذا الشأن: "مَن يراجع الدكتور جورج شرفان، يكون كمن يراجع أفضل الأطباء في الولايات المتحدة!" ما أجملها من شهادة، يكبر بها الشاهد والمشهود له معاً!

ولدى مراجعتي الدكتور جورج شرفان، تبيّن له أنّ استئصال العين اليمنى بات أمراً ملحّاً وضرورياً. وقد تمّ الاستئصال بيد الدكتور رياض معلوف، تحت إشراف الدكتور شرفان، في مشفى الدكتور رزق، يوم 4 كانون الثاني (يناير) من عام 2006. ويومها، كان قد رافقني إلى بيروت، شابان من جوقة الفرح، هما مروان نخلة وعبدالله القائد. ولازماني، ليلاً ونهاراً، طوال إقامتي في المشفى، حتى جاء من اقتادني من المشفى، للإقامة في بيته ومع أسرته، في بلدة قريبة من حريصا، كي يتسنّى لي مراجعة الطبيب، طوال الأيام التي أعقبت استئصال العين. وكان ذاك الرجل، هو زوج أخت الدكتور سمير أزرق، المدعو إيلي طحان، وكانت زوجته تدعى زهى! وقد نعمت في

بيتهما، وبتواجد جميع أبنائهما الثلاثة، وابنتيهما الاثنتين، بجوٍّ خارق حقّاً، من المودة، والبساطة، والهدوء والتضحية! وكان إيلي وزهى يرافقاني، كلّما كنت مضطرّاً لمراجعة الطبيب، وكأني أحد أفراد الأسرة! ولكم من مرة، عاودني صوت يسوع، في تلك الفترة الصعبة، وهو يقول: "ما من أحد ترك أباً أو أمّاً، أو أخاً أو أختاً، أو ابناً أو ابنةً... من أجل اسمي، إلا ويأخذ مائة ضعف، ويرث الحياة الأبدية!" وتلك لم تكن ولن تكون المرة الأولى والأخيرة، التي تذكّرت وسأتذكّر فيها قوله المدهش هذا، في شكر واتضاع وفرح!

وعدت إلى دمشق. وعادت حياتي فيها إلى ما كان يشبه سابق عهدي فيها... أُصلّي... أعظ... أستقبل... أتلقّى الهواتف... أصغي... أتابع الأفراد، والشبيبة، وجوقات جوقة الفرح... أقرأ... أكتب!... ومضت الأيام والأسابيع والأشهر... حتى كان يوم من أيام حزيران، "فاجأت" فيه إسرائيل - على عادتها المدلّلة! - العالم "كلّه" (!...) باعتدائها الجديد على لبنان! ويومها، وقف العالم العربي، وعلى رأسه مصر والسعودية، في ما بدا لنا في سورية، شماتة مخزية، تتوقّع انهيار لبنان في ساعات! وكنت كمن يتلقّى حياة جديدة، كلّما بدا لي أنّ حزب الله صامد، وأنّ صموده يتواصل! وحلّ يوم الأحد الأوّل، بعد بدء العدوان، وكان عليّ أن أقيم القدّاس في الساعة التاسعة والنصف صباحاً. وجاءني مراسل (B. B. C.) واستأذنني في التقاط بعض الصور خلال القدّاس، فأطلقت يده بحرية تامة. وأقمت القدّاس، وبدّلت فيه ما اعتدت أن أبدّل، من وحي الظرف... وألقيت كلمتي. لم أعد أذكر الإنجيل الذي تلوته حينها. إلا أني أعرف أني دلفت منه إلى العدوان الإسرائيلي على لبنان، ودعوت الناس للصلاة من أجل صمود حزب الله، وانتصاره على إسرائيل، التي تمثّل منذ نشوئها ظلماً فظيعاً، ساهم الغرب كلّه، بما فيه كنيسة الغرب كلّها، في ظهوره واستمراره واستفحاله! كما أني رفعت القرابين بُعَيد العظة، من أجل النية ذاتها. ولم أكن أعلم عندها، أنّ مراسل صحيفة "الفيغارو" الفرنسية، كان حاضراً طوال القدّاس، وأنه كان برفقة صبية مسلمة، تترجم له الصلوات والعظة! وإذ به يأتيني بعد القدّاس، مع الصبية، ليسألني مقابلة صحفية، بعد أن عرّفني على اسمه، وهو "بيير بريبه" (Pierre Prier)، وعلى عمله. فرفضت في صراحة تامة، واتّهمته بالانحياز المسبّق مع جميع الصحفيين الغربيين، إلى إسرائيل. وعندها فقط، أكّد لي أنه حضر القدّاس، وأنّ الصبية ترجمت له ما قلت خلال القدّاس، وأنه تأثّر بكلامي، وأردف قائلاً: "أعدك بشرفي أن أنقل بكلّ أمانة، كل ما تريد أن تقوله لي". وأحسستُ أنّ الرجل سيصدق معي، فوافقت، وتحدّثنا باللغة

الفرنسية عن مجمل الصراع العربي الإسرائيلي، وعن موقفي الشخصي من هذا الصراع عامة، ومن الحرب على لبنان خاصة. وتبادلنا بطاقتينا، ومضى.

وحدث، في اليوم التالي، أن انهالت عليّ الاتصالات الهاتفية من فرنسا، من عدد من وكالات الأنباء، وقد صُدِم بعض مسؤوليها بما جاء في المقال الذي نشر للسيد "بيير برييه"، في الصفحة الأولى، من صحيفة "لوفيغارو"، تحت عنوان مثير، هو: "مسيحيّو سورية يصفّقون لحزب الله!" وقد ذكر اسمي فيه، ومواقفي وآرائي الصريحة. وفي الواقع، جاءني في اليوم نفسه، من حمل لي صورة هذا المقال، فتيقّنت عندها من صدق السيّد "بيير برييه" معي، ومن صحّة حدسي بشأنه. ولكم سُرِرت بما كان أصاب جميع المتحدّثين معي في فرنسا، من صدمة ومفاجأة، تفاقمتا دون شك، لدى سماعهم أجوبتي المباشرة.

وبعد أيام قليلة، جاءني هاتف من السفير البابوي في دمشق، يدعوني فيه لزيارته. ولما قابلته، تَثبّتُّ ممّا توقّعته: كان هو أيضاً مصدوماً بما جاء في صحيفة "الفيغارو"، وازدادت صدمته بما قلته له. ولكم يؤسفني أن أضيف أنه تبيّن لي أنه كان يجهل الأسباب الحقيقية والتاريخية، للصراع العربي الإسرائيلي. فتعاملت معه بصبر كثير. وأخيراً قلت له بصريح العبارة، ولكن بنبرة هادئة: "صاحب السيادة، يتّضح لي أنك تجهل تماماً أسباب الصراع بين العرب وإسرائيل. فاسمح لي بأن أوافيك، بعد أيام، ببضع صفحات أبيّن لك فيها هذه الأسباب، بحيث يُتاح لنا، بعد ذلك، أن نتحاور حواراً مجدياً وهادئاً!". وكان أن وافق، وافترقنا في هدوء ومودّة. وبعد أربعة أيام بالضبط، حملت له خمسة أوراق، مرفقة بكلمة وجيزة، وأسقطت الرسالة في علبة بريد السفارة البابوية. وجاءني منه، بعد يومين فقط، هاتف شخصي، يكرّر لي فيه شكره الجزيل، ويؤكد لي أني فتحت أمامه آفاقاً جديدة، ما كان يُحيط بها البتة. أجل، لقد كان هذا السفير البابوي، يتمتع بمثل هذا القدر العظيم من الاتضاع والصدق، حتى خاطبني على هذا النحو! كان هذا السفير يدعى "جيوفاني باتيستا موراندينى" (Giovanni Baptista MORANDINI). وكانت هذه الأوراق تحمل تاريخ (2006/8/27)!

والكلّ يعرف أن البابا "بينيدكتوس السادس عشر" ألقى بعد ذلك، محاضرة بتاريخ (2006/9/12) في جامعة مدينة "راتيسبون" بألمانيا، أقامت العالم الإسلامي ولم تقعده. وتابعتُ الأحداث على عادتي، بكل ما أوتيت من يقظة. ثم ارتأيت أن أكتب كلمة وجيزة، للبابا نفسه، كنت أرجو أن تصله عن طريق السفارة البابوية بدمشق. فاتصلت هاتفياً بهذه السفارة، وتحدّثت إلى السفير نفسه، وطلبتُ موعداً منه، فشعرتُ بما بدا لي

تهرّباً، ثم تمنّعاً. إلا أني أصررت، فاستجاب السفير لطلبي. ومضيتُ في الموعد المحدّد، ففوجئت به يخاطبني بنبرة عدائية، منذ إطلالته الأولى عليّ، في الصالون. فبادرته بهدوء واحترام، وأوضحتُ له أني أحمل رسالة لقداسة البابا، وأني أخصّه هو أيضاً بنسخة منها، في رسالة خاصة به. فعلا صوته على نحو فاجأني، وتلفّظ حيالي بكلمات لم أستسغها. فرجوته بكل هدوء خفض صوته، وإلا انسحبت. وبدا لي أنه لم يعد قادراً على ضبط نفسه، فجمعت الرسالتين، وأعدتهما بكل هدوء إلى حقيبتي، وخرجت دون أن أحيّيه! أجل هكذا فعلت، وكان ذلك يوم (20) من الشهر (9)، من عام 2006!

ومرّت أشهر أخرى كثيرة... وفجأةً جاءني منه شخصياً، خلال شهر أيار من عام 2008، هاتف يدعوني فيه، بنبرة ودّية، لزيارته في السفارة، لأمر ضروري. فلم أبدِ أي تمنّع. ومضيت في الموعد المحدّد، وكأنّ شيئاً لم يكن بيننا. فاستقبلني بمودة وبشاشة، ودعاني لتناول طعام الغداء معه، حيث كنّا وحيدين. فأخبرني أنه سيعود قريباً إلى روما، إذ قد أنهى عمله في السلك الدبلوماسي الفاتيكاني، وأنه يريد أن يقدّم تقريراً بشقّين، ديني وسياسي، لأعلى المراجع في الفاتيكان، وأنه يريده مني دون سواي. فأبديتُ له موافقتي على الفور، ولكن بشرط واضح وصريح: وهو عدم المسّ بأي كلمة سأخطّها في هذا التقرير. فأبدى كامل استعداده وارتياحه لجوابي. وخلال الغداء، كان في غاية المودة، وقد فتح لي قلبه على مصراعيه، في شتى الأمور، ولكنه لم يشر إلى ما حدث بيننا من توتّر في الماضي، لا من قريب، ولا من بعيد. ولقد تبيّن لي عندها، أنه قطع شوطاً واسعاً في فهمه للصراع العربي الإسرائيلي... وبعد قرابة ثلاثة أسابيع، أرسلت له بيد أمينة، الدراسة التي كان قد طلبها مني، وهي بالفرنسية، مرفقة برسالة شخصية له. وكانت هذه الدراسة بتاريخ (2008/6/21). وقد جاءني جوابه في رسالة شخصية حارّة جدّاً، وهي بتاريخ (2008/6/30).

وهنا، يطيب لي أن أعود قليلاً إلى فترة سابقة، إلى الأشهر القليلة الأخيرة، من عام 2007، لأسرد حدثاً يحتلّ في قلبي وذاكرتي، مكانة فريدة، بل ربما يتعذّر وجود ما يشبهه!

في تلك الفترة، قمت، ذات يوم، بزيارة لبيت صديقي أحمد الخطيب، لأقدّم له ولأسرته، التهاني بعيد الفطر أو الأضحى، لم أعد أذكر، ولأهنّئهم بوصول ابنهم البكر، الدكتور يزن، من الولايات المتحدة... ويزن هذا، فقد عرفته وأحببته منذ أن كان طفلاً. ويومها، فاجأني يزن باقتراح، ما كان له أن يخطر لي ببال. ذلك بأنه فكّر وأهله، في أمر بلوغي، بعد أشهر قليلة، سنّ التقاعد، أي الخامسة والسبعين. وما كانوا يريدون لي أن أغادر، لا الكنيسة، ولا حي القصور، لأنهم، كما ردّدوا، يعتبرونني، مع

الكثيرين من أبناء هذا الحي، جزءاً لا يتجزأ من حياة الناس فيه! والمعروف أنّ جميع الكهنة المتقاعدين، يترتّب عليهم مغادرة كنائسهم، للاعتكاف في الدار البطريركية في حارة الزيتون. وقد أفهموني بصريح العبارة، أنهم يريدون أن يستَبِقوا الإجراء القانوني الكنسي، إذا ما طُبِّق عليّ! فاقترحوا عليّ... اختيار أحد منزلين لهما في هذا الحي، سكناً لي، ومقراً لنشاطي، دون أي مقابل، في خشيتهم من عدم سماح السلطة الكنسية ببقائي في كنيسة سيدة دمشق، كي أواصل الحضور والعمل في المنطقة! أجل، هذا هو الخيار الرائع، الذي شاءت هذه العائلة المسلمة أن تضعني أمامه، أنا الكاهن المسيحي! وكان أن اخترت أقرب البيتين إليهم وإلى الكنيسة معاً. فنقلتُ إليه عدداً كبيراً من كتب مكتبتي، ونشاطي الثقافي، حتى إنه تحوّل، خلال خمس سنوات كاملة، إلى ورشة عمل، وقد نشط فيه عدد من الشبان الذين كانوا يساعدونني طوعاً، في نطاق ما كنت أؤلف وأطبع من كتب جديدة، ولا سيما الكتاب الوثيقة، الخاص بسيدة الصوفانية، الذي صدر في ثلاثة أجزاء كبيرة، عام 2008. ولما ثبت، بعد خمس سنوات، أني باقٍ في الكنيسة، رأيت لزاماً عليّ أن أتخلّى عن هذا البيت. وسرعان ما جاء آل الخطيب، خلال الأزمة التي تعصف بسورية، أناس شُرّدوا من منازلهم ومناطقهم، فسكنوا هذين البيتين... لوجه الله الكريم!

وكان هناك أيضاً، من فكّر، في غفلة مني، بأمر بلوغي الخامسة والسبعين، ممّن كانوا لا يريدون لي أن أغادر كنيسة سيدة دمشق، وأعتكف في الدار البطريركية، مع سائر المتقاعدين فيها. وهؤلاء، كانوا بعض مسؤولي جوقة الفرح. وكانت الجوقة آنذاك تستكمل استعداداتها لأمسية ميلادية حافلة، كانت ستقدّمها في دار الأوبرا بدمشق، قبيل عيد الميلاد. ولقد قرّروا، دون أيّ علم مني، أن يُعلِنوا أمام "المسؤولين" الحاضرين، في ختام هذه الأمسية بالذات، عن رغبة أفراد الجوقة، وذويهم، وجمهورهم الواسع، في بقائي في كنيسة سيدة دمشق. وأقيمت الأمسية بمشاركة (350) منشداً وموسيقياً وراقصاً! وقد حضرها العديد من المسؤولين، الحكوميين والدينيين، من مسلمين ومسيحيين. وكان على رأسهم، يومها، السيّد الرئيس بشار الأسد والسيدة عقيلته، والبطريرك غريغوريوس لحام، وعدد من الأساقفة والشيوخ. وكان عليّ في ختام الأمسية، أن ألقي كلمة. إلا أنّ الدكتور حبيب سليمان، وهو المسؤول الأعلى في جوقة الفرح، سبقني إلى المنصة، ليلقي كلمة وجيزة جدّاً، هنّأني فيها باسم الجوقة والأهل والحضور، وطالب فيها علناً، باسم الجميع، ببقائي في كنيسة سيدة دمشق!

وأما ما حدث بعد ذلك، فهو أني لم أحاول البتة، أن أستشرف شيئاً ممّا يمكنه أن يُتّخذ من قرار بهذا الشأن. كما أنه لم يخطر ببالي أن أتوسّط أحداً، من أجل بقائي في الكنيسة، ليقيني التام، أوّلاً، بأنّ إرادة الله فوق كلّ إرادة، ولثقتي المطلقة، ثانياً، بوجود مهام فكرية وثقافية لديّ، من شأنها أن يستغرق إنجازها لا أقل من عشر سنوات، حتى لو لم يكن لي من عمل سواها! وها أنا الآن في مسعى مني منذ أربعة أشهر، لإنجاز إحداها!

وكان أن تابعت نشاطي في شتى المجالات السابقة، وفي مجالات أخرى، جديدة، كان من أهمها رحلة أطفال جوقة الفرح إلى الولايات المتحدة في مطلع عام 2009.

وخلال هذا العام نفسه، فوجئت بمكافأة تأتيني من سويسرا، من مؤسسة السيّد خالد العصيمي، وقيمتها عشرة آلاف دولار، وذلك تقديراً من المؤسسة، لروح التآخي والمواطنة، التي رأت أني أحاول بثّها في المجتمعات العربية عامة، وفي المجتمع السوري خاصة. وقد تسلّمتها من يد صديقي الدكتور عبدالله الخاني، في منزله، بعيداً عن أي رسميات. وقد كتبت لاحقاً للسيد خالد العصيمي ولمؤسسته، شاكراً. وأما المبلغ، فقد سلّمته على الفور للدكتور حبيب سليمان، كي يضمّه إلى حساب جوقة الفرح، في المصرف. ولكم فوجئت، خلال شهر آذار من عام (2011) أيضاً، بصديقي الدكتور عبدالله الخاني، يدعوني، مرة ثانية، لتسلّم عشرة آلاف دولار أميركي، من المؤسسة نفسها، وللسبب نفسه. إلا أني هذه المرة، آثرت أن أوزّعها على عدد من العائلات، في سرّيّة تامة! وإني لأرجو المسامحة من الرب يسوع، وأنا أُقدم على مثل هذا الاعتراف، لأني أبدو فيه، وكأني أناقض قوله الرائع: "لا تَعلم شمالُك ما تصنع يمينُك!". والحقيقة أني أكره المال، على ضرورته، وأكره أن أترك ورائي شيئاً، قد يحتاج إليه محتاج! وهنا يطيب لي أن أنقل الرسالتين اللتين كتبتهما للسيد خالد العصيمي...

- الرسالة الأولى

« **السيّد خالد العصيمي المحترم** 2010/5/23

أرجو المعذرة لتأخري في توجيه الشكر لك شخصياً، وللهيئة المحترمة التي ترأسها، للمبادرة الكريمة التي فاجأتموني بها باعتباري أحد رموز التسامح و"المودّة" في سورية!

وقد سلّمني صديقنا الحبيب المشترك، الدكتور عبدالله الخاني، ترجمة لهذا الاعتبار، مغلّفاً يحتوي عشرة آلاف دولار أميركي، يوم الثلاثاء 4/27 المنصرم.

سيدي،

قد لا أفاجئك إن أكّدت لك أني لم أتوقع يوماً تكريماً من أحد، وأنا إنما أحاول أن أقوم بما أراه محض واجبي، حتى اللحظة الأخيرة.

حسبي رضى الله ورضى ضميري.

ويسعدني أن أضيف أني سارعت إلى تسجيل هذا المبلغ في حساب جوقة الفرح، عساه يدفعها في حمل الرسالة الوطنية والإنسانية، فضلاً عن رسالتها الدينية، في حضوري وغيابي على السواء.

فأرجو أن تتقبّلوا شكري العميق، ولو جاء متأخّراً بسبب أزمة قلبية انتابتني في منتصف شهر آذار.

لي رجاء أخير، أبديه لك وللهيئة المحترمة: وهو حصولي منكم على كلمة مكتوبة تبيّنون فيها، ولو بكلمات قليلة، ما الذي دعاكم لتكريمي على النحو الذي اخترتموه.

أسأل الله جلّت حكمته ومحبته، أن يحفظكم في نوره ورضاه.

وتقبل، سيدي، محبتي واحترامي. »

- **الرسالة الثانية**

« **السيّد خالد العصيمي المحترم،** دمشق في 2011/3/24

حيّاك الله وبارك لك في إيمانك وتوجهاتك، وفي كلّ من تحبّ ويحبك!

لقد سلّمني الصديق الدكتور عبدالله الخاني، صباح 16 الجاري مبلغ عشرة آلاف دولار، من مؤسستكم الزاهرة، مكافأة مجدّدة على آفاق المحبة والتسامح، التي أهلني الله في حكمته، أن أفتحها وأواصل فتحها بكل محبة وإصرار، في سورية الغالية وعلى مدى العالم.

لكم تمنّيت أن ألتقيك لأبثّك شخصياً شكري وتقديري، بعد لقائنا اليتيم بفضل الدكتور عبدالله الخاني، منذ سنتين تقريباً، أو أكثر بقليل، في فندق الفور سيزنز...

أحمل لك اليوم معي إلى بيروت بعض DVD لجوقة الفرح، وسيسعدني أن أضعها في مكتبك، آملاً أن تصلك بسرعة، علّها تحمل لك بعض الفرح من سورية.

معك ومع كل مخلص، أسأل الله، عزّ وجل، أن يحمي وطننا الغالي.

وتقبّل محبتي واحترامي. »

وقبل ذلك، كان "الربيع العربي" قد حلّ، وأخذ يتنقل بقدرة قادر من تونس إلى مصر، فاليمن والبحرين... وقبل كل ذلك، قطّع السودان إلى سودانَين، واستعاد "البشير" رضا الغرب كاملاً... حتى إشعار آخر!

وفجأة حلّت العاصفة في سورية. وإذ بالإعلام كلّه، عربيّاً وأجنبيّاً، شرقاً وغرباً، لم يعد يرى إلا سورية، ولم يعد يتكلّم إلاّ عن سورية، ولم يعد يهتمّ إلا بسورية!

ووجدتُني أستعيد في ذاكرتي، تلقائياً، ما كان حذّر منه منذ عام 1905، المفكر اللبناني نجيب عازوري، تحذيراً يكاد يكون نبوءة، في كتابه "يقظة الأمة العربية"! كما استعدت أيضاً، ما كان خُطِّط لسورية، منذ ما يقارب المائة عام، من أجل تفتيتها، وما فُرِض عليها من انتداب وتقطيع وتقسيم، قبل أن يحدث أي شيء آخر للعرب، كل العرب...

ووجدتُني أستعيد أيضاً ما كان "بن غوريون" قد كتبه منذ عام 1954، حول مشروع تفتيت العالم العربي، بدءاً من لبنان، إلى دويلات طائفية... وكذلك أيضاً، ما نشرته على الملأ، مجلة "كيفونيم" الصهيونية، في عدد شباط 1982، حول التفتيت الممنهج للعالم العربي، بوصفه "استراتيجية إسرائيل في الثمانينيات" من القرن الماضي!

ووجدتُني تلقائيّاً أيضاً، أستعيد ما كان قسطنطين زريق قد كتبه حول "معنى النكبة"، بُعَيد عام 1948، وما جدّد كتابته أيضاً حول "معنى النكبة مجدّداً"، بعد عام 1967.

كما وجدتُني تلقائيّاً، أستعيد قراءة ما جاء في كتاب انطون المقدسي، حول حرب الخليج الأولى عام 1990، تحت عنوان: "حرب الخليج، جرح في الجسد العربي!"

ووجدتُني تلقائياً أعود إلى "الكلمة"، عساني أوقظ بدوري بعض الأميّين من "قادة" أمتي!

وتبيّنتُ، منذ الأيام الأولى، أنّ لكبير المفتين، الشيخ يوسف القرضاوي، دوراً مرسوماً في هذا الشأن الخطير. فخصصته برسالة شخصية، أملاً مني في إنقاذه ممّا دُبّر له. ورأيت أن أنشرها في الصحافة السورية، ثمّ في البريد الإلكتروني. كما طُلِب إليّ أن أنقلها له مباشرةً عبر شاشة تلفزيون "الدنيا". فاستجبت يحدوني الأمل نفسه. وأخيراً وجدت في صديق غالٍ، هو الأستاذ حسام الدين الخطيب، مَن وعدني بحملها له باليد!...

وكان قلقي يتفاقم يوماً بعد يوم، إزاء تصاعد التحرّكات المفاجئة، المختلفة، التي أخذت تجتاح المجتمع السوري كلّه. وحدث لي، مرّاتٍ كثيرة، أن استقبلتُ مجموعات شبيبية جامعية، كانوا برعاية كريمة من بعض الأساتذة الجامعيين، من رجال ونساء، ممّن أعرف وأحترم، وأحب!

وكان قلقي على سورية يزداد، كلّما كنت ألحظ بروز مطالبات آنية مُحِقّة، إلا أنّ أصحابها ما كانوا ليروا ما كان يختبئ في أعماق الجبال الجليدية، المتكاثرة، القريبة والبعيدة، التي كانت تتحرك فوق سطح المحيط السوري!

ووجدتني أتابع الكتابة، في انتقاء صعب ودقيق لمواضيعي، كلّ أسبوع، علّني أُسمِع صوتاً مختلفاً بعض الشيء، ولكن حرّاً ومحبّاً في آن واحد...

في هذه الأثناء، كان قد أُعلن عن عقد أول مؤتمر تشاوري، حول الأزمة القائمة، في دمشق. وكنت قد سُئلتُ قبل أسبوعين، المشاركة فيه، فرحّبت دونما تردّد. وكان السائل صديقاً وباحثاً شجاعاً، أُتيح لي أن أعرفه عن كثب، عبر "لجنة دعم الانتفاضة..." عنيتُ به الدكتور منير الحمش...

ثم أبدى لي، هاتفياً، عشية انعقاد المؤتمر، رغبة منظّميه، في إلقائي كلمة فيه، قد تأتي بين أولى الكلمات... فأعربتُ أيضاً عن استعدادي التام لمثل هذا الأمر، لأني كنتُ أعددتُها مسبقاً، وشكرت له هذا المقترح.

وفي يوم الأحد 2011/6/10، عُقد المؤتمر التشاوري برئاسة الأستاذ فاروق الشرع. وجاءت كلمتي مكتوبة، بعد كلمتَي الدكتور طيب تيزيني والشيخ محمد حبش، المرتجلتين. وقد جاء، بعدها، مَن هنّأني، كما جاء مَن عاتبني.

وأجد لزاماً عليّ أن أورد هنا هذه الكلمة، بحرفيتها، وقد جاء فيها:

« **المشاركة في هيئة الحوار الوطني**

أيها السيدات والسادة،

اسمحوا لي أن أوجه التحية لأرواح الشهداء، والجرحى ولجميع ذويهم.

وأشكر اللجنة المنظمة لدعوتي للتحدث إليكم في هذا اللقاء الوطني التاريخي.

أود أن أوجز في كلمتي، أولاً وجهة نظري في ما حدث، ويحدث في سورية، ثانياً اقتراحاتي، بشأن جدول أعمال هذا اللقاء.

أولاً، وجهة نظري:

1- لا أتردّد عن الإعلان، بأن ما جرى ويجري، جزء أساسي من حملة استعمارية – صهيونية، قديمة، كانت ترمي، كما يعرف الجميع، إلى تقسيم العالم العربي، بل إلى تفتيته، وقد خُطّط لهذه الحملة منذ الفترة التي سبقت، ورافقت سايكس – بيكو، ووعد بلفور، وعهد الانتدابين البريطاني والفرنسي، اللذين فُرضا على الشرق العربي.

2- لا أتردّد عن الإعلان، بأنّ ما جرى ويجري، جاء أيضاً نتيجةً حتميةً وطبيعيةً، لنهجٍ سياسي عام، وضع البلد، وفق دستور جديد، في يد حزب واحد، طوال أربعين عاماً. فترتّب على ذلك، من جهة أولى، ادّعاءٌ مفرط بقدرات هذا الحزب، ومن جهة ثانية، استبعاد لقدراتٍ لا حصر لها لدى مَن استُبعدوا. ولا أقول جديداً إن ذكّرت بما نجم عن

ذلك، في ما نجم، من مصادرة واسعة للحريات، فكراً وقولاً وإبداعاً، ومن هجرة واسعة أيضاً، لأدمغة البلد وفنّييها ويدها العاملة، ومن انتشار لروح الخوف والانتهازية، ومن انزلاق الكثيرين ممّن حُمّلوا سلطة ما، في متاهة ما بتنا نسمّيه اليوم علناً الفساد الذي يشكّل، للأسف، إن لم يعالج جذرياً وسريعاً، أشرس أعداء سورية، اليوم قبل الغد.

3- لا أتردد عن الإعلان بأنّ ما جرى ويجري، كان من أسوأ نتائجه أيضاً أنه غيّب الشروط الصحيحة لنشوء أي حوار بين المسؤول والشعب. واتسعت الهوة بينهما، حتى جاء يوم بات فيه حتى من انتُخب لينطق باسم الشعب، في مجلس الشعب، لا ينطق في معظم الحالات، إلا باسم الحاكم ومصلحته الذاتية أو الفئوية...

4- كلّ ذلك كان من شأنه أن يقود البلد إلى كارثة، لولا عاملان، يبدوان لي حاسمين:

أولهما: النهج القومي الصريح والمكلف جدّاً، سياسياً وبشرياً واقتصادياً، الذي سارت عليه سورية دائماً، في مواجهة الصهيونية، إزاء التخاذل المتلاحق لمعظم الزعماء العرب، والذي عمّقه ووسّعه الرئيس بشار الأسد. ولقد كان البرهان القاطع على نجاح هذا النهج وحجم خطره، هذه الهجمة الحالية التي تشنّها إسرائيل، بواسطة أجرائها في الولايات المتحدة وأوروبا الغربية، والتي بيّنت غايتها الصريحة، وكيلة وزارة الدفاع الأميركية في بدء الأزمة، كما بيّنها منذ أيام وزير الخارجية الفرنسي السابق، برنار كوشنر.

ثانيها: الصدمة المروعة التي أحدثتها هذه الهجمة لدى معظم السوريين، واستيقاظ حبّهم الدفين والعميق لسورية، وقد وجد ما يستقطبه ويؤجّجه في شخص الرئيس الدكتور بشار الأسد، بفضل تعامله الإنساني مع الناس، وتوجهه الإصلاحي الصريح، مع أنه يشكل جزءاً من نظام ترك، على توجّهه القومي الصريح، جراحاً وغصّات ومآخذ لدى الكثيرين...

ثانياً، اقتراحاتي:

1- بشأن الحوار الوطني:

1. أي حوار يعني الاعتراف الكامل بشخصية الآخر، طالما أنه ابن هذا الوطن، وهذا يعني الاعتراف العملي بكامل حقوقه وواجباته أمام القانون وفرص الحياة، وبالتالي بكامل أهليته لممارسة المسؤولية كلّها في نطاق الوطن، بغضّ النظر عن معتقده وعرقه ولونه ومنشئه... في ظل إيمان طرفي الحوار الصادق، بضرورة الوصول إلى نتائج حقيقية، خصوصاً إذا ما توقّف على هذا الحوار مصير وطن بأكمله، أو شعوب برمتها، أو ربما العالم.

2. يترتب على ذلك إطلاق الحريات كاملة، حتى إنشاء معارضة بنّاءة، تقوم بدور المراقب على سلامة سير الأمور على كلّ صعيد: السياسي، والاقتصادي، والثقافي، وتنبّه إلى ما يجب التنبيه إليه، وتحدّد بصراحة مواطن الخطأ والمخطئين، لتصويب مسارات البلد كلّها...

3. وضع حدّ نهائي للاعتقالات التعسفية، وإطلاق سبيل معتقلي الرأي الحاليين، على الفور.

2- بشأن تعديل الدستور:

أرى ضرورة، لا إلغاء المادة الثامنة من الدستور وحسب، بل تغيير الدستور بكامله، ليأتي منسجماً مع بناء دولة حديثة، متطوّرة، تستند إلى اقتصادٍ قوي وممنهج، يستحقّها هذا الشعب الرائع الذي تجاوز من المطبّات، خلال أشهر، ما يمكن أن تتزلق بواحد منها شعوب بأكملها... دولةٍ، ينال فيها كلّ إنسان ينتمي إليها، حقّ المواطنة كاملاً وفعلياً... ولا يُحرم بموجبه أي مواطن، من تبوّء أي مركز مسؤول، إن ثُبُتت أهليته لذلك...

3- بشأن مناقشة مشاريع القوانين:

1. قانون الأحزاب:

أرى أن يُسمح بتشكيل أحزاب جديدة، وهذا ما يؤدي لتحقيق التعددية السياسية ومبدأ تداول السلطة، على ألاّ تؤسَّس على انتماء ديني أو عشائري أو عائلي.

2. قانون الانتخابات:

- لا بدّ للانتخابات من أن تكون انتخابات، وليس إملاءات... كي يكون النائب حقّاً ناطقاً باسم من انتخبه، وكي يتسنى للمنتخِب محاسبة النائب الذي انتخبه.

- أرى أن يُستبدل اسم مجلس الشعب، باسم مجلس النواب...

- لا بدّ من السهر على منع شراء الأصوات، إن في فترة الحملة الانتخابية، أو في فترة الانتخابات ذاتها...

- أما مساحة الانتخابات فتشمل:

- مجلس النواب.

- مجلس النواب ينتخب بدوره رئيس الجمهورية.

- على أن تكون مدة رئاسة الجمهورية لأربع سنوات، قابلة للتمديد مرة واحدة فقط، أيّاً كان الظرف!

3. قانون الإعلام:

- قد يكون من المهم ما بات مطروحاً بكثرة، عن حرية الصحفي وحمايته وأحقيته بالمعلومة، وعن حقّ المواطن في الحصول على المعلومة الصحيحة، التي تستند إلى إعلام

يساهم مساهمة فعالة في تنمية الوعي والمعرفة... لكن الأهم هو الاستراتيجية، أي ماذا تريد سورية من الإعلام، وكيف له أن يخدم رسالتها، داخلياً وخارجياً؟ وهذا ما أرجو أن تكون له برامج زمنية محدّدة، وفق خطط ومراحل مدروسة مع تقييم شامل سنوياً.

– ولا بدّ لقانون الإعلام من أن يولي دور الشباب أهمية كبرى، ويلتفت إلى ما كان لهم من دور فاعل في درء مخاطر الأزمة الراهنة...

"وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خيرٌ لكم". والسلام عليكم. 2011/6/10 »

وكنت أتابع الكتابة كلّ أسبوع في صحيفة تشرين اليومية. وفي تلك الفترة، كانت الاحتقانات تتصاعد في سرعة قياسية ومقلقة... فما كنت أعتذر عن أي لقاء إذاعي أو تلفزيوني، لا لشيء إلا لأُسمع كلمة، كنت أبغي دوماً منها، التذكير بالخطر الأوحد والأكبر، الضائع في متاهات مطالبات آنية وحادّة، بعضها مُحِقّ، وبعضها أهوج، وهو إلغاء سورية إلغاءً تامّاً، أجل إلغاء تاماً، بوصفها تاريخاً ماضياً، ومجتمعاً حاضراً ومستقبلاً، حاضناً أوحد وأخيراً، للفكر القومي العربي، المقاوم والعلماني.

ولكم كانت هذه الفترة، في كل دقيقة من دقائقها، قاسية، مؤلمة، مقلقة ومُحبِطة!

ولكم حاولت خلال دقائقها هذه الطاحنة، الاستعانة بالصلاة والتأمل والقراءة!

وكنت أبداً أجدني أحتمي، أجل، أحتمي كما في قلاع، في الكلمات التي كانت السيّدة العذراء وكان السيّد المسيح، قد نطقا بها، قبل سنوات طويلة، في هذا البيت الدمشقي المتواضع، في حي الصوفانية.

كما أني كنت، طوال هذه الفترة، أرتاح لرأي صديقين لا غشّ فيهما، أحدهما هبط عليّ حديثاً، وهو سمير اسحق، وثانيهما حملته إليّ منذ سنوات، في غفلة منه ومني، السيّدة العذراء في الصوفانية، وهو باسل سيوفي!

وكنت أستشعر أحياناً، لدى "المسؤولين" عن صفحة صحيفة "تشرين"، شيئاً من التردّد، وأحياناً من التمنّع، إزاء ما كنت أكتب ويُنشَر لي... حتى كان يوم، نُشِر لي فيه مقال بعنوان: "مجلس الشعب بين الأمس واليوم"، وقد حُذفت منه صفحة كاملة، دون إخطاري أو استئذاني. فحزنت حزناً عميقاً، لأني تيقّنت عندها ممّا كنت أخشاه أشدّ الخشية، وهو استمرار العقليّة المتسلّطة والانتهازية، السابقة، التي لا تريد لبعض الممارسات المألوفة والقمعية السابقة، في نطاق الحرية الفكرية، أن ترحل! فتوقّفت نهائياً عن الكتابة في "تشرين"، على الرغم من اعتذار متأخّر جداً، وردني هاتفيّاً من أحد "المسؤولين" في الصحيفة. وكنت، قبل فترة سابقة، قد عاودت الكتابة في مجلة

"الأزمنة"، وفي الوقت الذي كنت فيه أواصل الكتابة في "تشرين". وكنت على بيّنة ممّا كان يتمتّع به كل من صاحبها، الدكتور نبيل طعمة، ومديرها السيّد أيمن ونوس، من صدق وجرأة، دفع هذا الأخير، ثمنها غالياً!

وكان البريد الألكتروني ينقل آلياً مقالاتي هذه، بالعربية، وبعضها بالفرنسية، في ترجمة مني، وبالانكليزية في ترجمة من صديق عتيق كالذهب، هو الدكتور جاك توماجيان. وكانت بعض ردود الأفعال تأتيني من هنا وهناك.

ولقد علمت شيئاً فشيئاً، من بعض الردود، لا سيما من تلك الواردة من الولايات المتحدة الأميركية، ومن بعض القادمين منها، أنّ عدداً كبيراً ممّن عرفتُ وأحببتُ وخدمتُ في دمشق، وممّن رحّب ترحيباً رائعاً بجولة "جوقة الفرح" في واشنطن وديترويت وجكسونفيل وأورلندو، عام 2009، قد أكله الغول الأميركي، وحوّله بدوره إلى غول مسخ، يسعى لافتراس أمّه العظيمة، وأمّ جميع شعوب الأرض، سورية!

لكم أحزنني هذا التحوّل! ولكم أرعبني من حيث واقع قدرة المجتمع الأميركي على إعادة خلق الإنسان فيه، بما يمسخه وحشاً مفترساً، فيما هو يظنّ نفسه خير مَن "عليها"!

ولكم تذكّرت خلال هذه المحنة القاسية، كتاب "الكابوس الأميركي"!

أجل، لم يخطئ مؤلفه، "روبير دول" (Robert Dole)، يوم كان يَدرُس في منتصف الستينيّات من القرن الماضي، في جامعة "هارفارد"، عندما اكتشف أنّ "وطنه" كابوس يجثم على صدر البشرية كلّها. وقرر أن يهجره فور تخرّجه من الجامعة عام 1968، ورحل إلى أوروبا حيث درّس في جامعاتها، ثم قرّر الاستقرار في كندا، وقد انتقاها وطناً جديداً له، فيه كتب، عام 1997، كتابه الشهير، ليحذّر الناس من الخطر الأميركي، وليعلن فيه تنصّله من كلّ تبعات هذا الأصل الوبيل!

وقد زادني حزناً وقلقاً، صمت معظم الغربيين في أوروبا وكندا، ممّن عرفوا "عذراء الصوفانية"، وأحبّوها وزاروها في دمشق، مرّات ومرّات، وأحبّوا من خلالها سورية وشعبها! أجل زادني حزناً وقلقاً، صمتهم هذا إزاء ما يحلّ بشعب سورية، وما يحدث فيها من تدمير وتقتيل وتهجير وتشريد، كلّه من صنع بلدانهم، ومسؤوليهم، وسياساتهم، وأسلحتهم، ومخابراتهم، وإعلامهم، وأموالهم، ومتطرفيهم! وصرت أتذكّر لسنوات قليلة مضت، آلاف الرسائل التي كانت تردنا إلى دمشق، بسبب من "عذراء الصوفانية"، والتي كنا نقابلها دائماً بردود منتظمة! تُرى ما الذي حلّ بهؤلاء الناس؟! أتُراني أظلمهم، لو استنتجت أنّ المجتمع الغربي في أوروبا وكندا، إنما هو نموذج مصغّر عن المجتمع الأميركي، ولكن دونه قدرة على ممارسة الغطرسة المفترسة، والكذب الفاجر في مؤسّساته وإعلامه؟

ولقد جاءني من يثبّتني في حكمي ورأيي، فذهب بي، في حزني وقلقي، إلى المدى الأبعد! وقد حدث ذلك، عندما كتبت في مطلع هذه الأزمة، رسالة مفتوحة إلى وزير خارجية فرنسا، المدعو "ألان جوبيه" (Alain Juppé)، آخذ عليه فيها، تطاوله القذر والكاذب على سورية، وتخاذله المخزي، مع جميع المسؤولين الغربيين دون استثناء، أمام خروج إسرائيل، المفضوح والمتغطرس، منذ سبعين عاماً، على جميع القوانين والمعاهدات والقرارات الدولية، دون استثناء. فكان أن جاءتني الصدمة من فرنسا، من أسرة فرنسية، كانت ولا تزال من عشاق الصوفانية، حتى إنها قدمت إلى دمشق أربعاً وعشرين مرّةً، باعترافها، ما بين عام 1990 وعام 2008! وكانت آنذاك لا تني تردّد، حتى أمام الإعلام الفرنسي، أنّ سورية هي وطنها الثاني! وأما ردّ فعلها هذا، فكان يعيب عليّ "خروجي على الأدب"! - أجل "خروجي على الأدب"! - في طريقة مخاطبتي وزير خارجيتهم! وكان مبعث حزني وألمي، لا بسبب ما يحدث في سورية وحسب، وهو مروّع، بل أيضاً وخصوصاً بسبب ما آل إليه غياب الحقيقة والفكر السليم، في المجتمع الغربي برمته!

إلا أنّ حزني وألمي كانا يتفاقمان، كلّما أمعنتُ التفكير في صمت كنائس هذا الغرب البائس، إزاء السياسات المدمّرة، التي يرسمها مسؤولوه، والتي ينفّذونها في وحشية باردة، حيال جميع الشعوب المستضعفة عامة، والشعوب العربية والإسلامية خاصة. ولكم حدث لي، منذ أربعين عاماً، أن تحدّيت في رسائلي الشخصية والمفتوحة - كما في مقابلاتي الشخصية - هؤلاء "المسؤولين" في كنائس الغرب، وعلى رأسهم البابا في الفاتيكان!. وكان صمتهم الدائم يرسّخ لديّ اليقين بأنهم باتوا في حكم الموتى! فأموت بذلك حزناً على يسوع، وعلى ما آلت إليه رسالته في العالم!

وكاد الشعور باليأس أن يستولي عليّ، فيما اليأس محظور على المؤمن، ولا سيما المؤمن المسيحي، فكيف به إذا كان كاهناً؟

ووجدتُني تلقائيّاً أمعن في الصلاة والتأمل... وصرت أشعر بالحاجة الماسة إلى الانسلاخ شيئاً فشيئاً عن الاتصال المباشر والشخصي بالناس، لا سيما المحتاجين منهم، وما أكثرهم، لأني بتّ لا أتحمّل الألم الذي كان ألمُهم يسبّبه لي!

إلا أني كنت على الدوام أوصي بهم مَن حولي من شبّان وشابّات، ورجال ونساء، خبرت منذ سنوات طويلة، صدق محبّتهم للمعوزين، وفرحهم في البذل، ولكن في احترام وتواضع ودراية.

وإلى ذلك، كنت أجدني، في كلّ قدّاس، يوم الأحد، أو يوم عيد، مدفوعاً إلى مخاطبة الناس في عمق ما يعانون، والصلاة معهم وفيهم، بلغة الإنجيل وواقعهم الدامي. فأدعوهم

- وأدعو نفسي! - إلى التشبّث بمنطق الفداء، الذي دعا إليه يسوع، وكان هو أعظم شهدائه، والذي يطالبنا به اليوم، أكثر من أي وقت مضى، من أجل خلاص بشرية، فقدت بوصلتها ومرجعيتها الروحية، ومعاييرها الأخلاقية، والقانونية، والإنسانية كلّها.

أتراني كنت، بذلك التوجّه الروحي والفكري، أُوهِم نفسي - وأُوهِم الناس! - باستبدال فداء يسوع للبشر، بفداء سورية للبشرية؟

وكنتُ كلّما غصتُ في هذا التوجه الروحي والفكري بعينه، أجدني في مواجهة أخرى، لا تقلّ عنها حتمية وقسوة: ولماذا سورية بالذات؟ وكان هذا السؤال، المشبع بدماء الشهداء، أمس واليوم، يقودني إلى الاستسلام الكلي للحكمة الإلهيّة، التي شاءت، منذ فجر التاريخ أن تكون سورية ما يعرفه الجميع، ويعترفون به، وأن تكون أيضاً ما يحسدها عليه "بعضهم" اليوم، ومن قديم: أن تكون أم الأبجدية، ومهد الحضارات، ومهبط الديانات الثلاث، ومنطلقها إلى العالم، وأن تكون أيضاً وخصوصاً ساحة اللقاء التاريخي الفريد، في عيش مشترك جديد، كان الأوّل من نوعه، بين الإسلام والمسيحية واليهودية!

ويا لها من امتيازات باهظة، فريدة، شاء لها الله، في حكمته التي لا تُدرك، أن تتجدّد، بأحد وجوهها الرائعة، منذ إحدى وثلاثين سنة، في حي دمشقي متواضع، يُدعى الصوفانية، عبر أيقونة للسيدة العذراء، هي التي اصطُفِيت وحدَها فوق نساء العالمين، فسمّينا أيقونتها تلك باسم هذا الحي المتواضع، يوم كنّا نجهل أنها شفيعة بلد عظيم، هو روسيا، يحتلّ من الأرض، أوسع مساحة فيها، وها هو قد هبّ ليدافع عن سورية، بل عن ذاته، وعن كلية هذا الكوكب الفريد!

وبتّ أفاجأ يوماً بعد يوم، بما يشبه همساً داخلياً ملحّاً، يدعوني للانصراف من جديد، إلى مهمة منوطة بالكلمة ليس إلا، كلمة أقول فيها ذاتي، حتى لو لم يكن ذلك إلا لذاتي!... بعيداً عن دمشق، وما يجري فيها... بعيداً عن سورية وما يدبّر لها... بعيداً عمّا يقتل أولادها جميعاً، وعمّا يشرّدهم، أوّلاً داخل ذواتهم وبيوتهم ومعابدهم، ثانياً في أرجاء الأرض كلّها، بعد أن تحوّلت هذه الأرض في سرعة قياسية، إلى جحيم كونية، يتلذّذ شياطينها الكبار، بشيّ لحم أولادها الصغار، السمر والسود، والصفر، والبيض، والشقر!

ولكن، هل من كلمة بعد، وهذه الجحيم الكونية تستعر وتتّسع؟!

أجل، حسبي هذه الكلمة، في ما تبقّى لي من وجود!

على أن تكون كلمة حقّ وعدل وفداء، في مواجهة جحيم، استطاعت أن تحوّل مؤسسات الغرب كلّها أوّلاً، ثمّ الشرق، المدنية والدينية على السواء، إلى أوكار للخداع والكذب، والحقد والقتل، والصمت والسمسرة، والظلم والنهب!

أجل، كلمة واحدة، أخطّها قبل ما يوشك أن يكون رحيلي، إلى حيث كان كلّ إنسان وكلّ شيء، أصلاً، في قلب الله!

وفي ذات مساء، من أواخر شهر كانون الأول (ديسمبر) عام 2012، أقامت جوقة الفرح، في كنيسة سيدة دمشق، بمشاركة كامل جوقاتها، أمسية محبة وفرح ورجاء، في ذكرى بلوغي الثمانين. وفي ختامها، وجدتُني أشكر للربّ نعمة كهنوتي، وللناس نعمة محبّتهم! كما وجدتُني أيضاً أعلن لهم بكلّ صدق، أمرين: أوّلهما استعدادي لاختيار الكهنوت مجدّداً، سبيل حياة، لو أعطيت نعمة الحياة مرة أخرى، وثانيهما يقيني بعودة السلام والمحبّة إلى سورية قريباً، لا استناداً إلى أقوال هذا أو ذاك، بل استناداً إلى كلام السيّدة العذراء والرب يسوع، في بيتهما في الصوفانية، على معرفتي بجهل، بل بتجاهل أكثر الحاضرين، هذه الأقوال الكريمة!

وفي صباح اليوم التالي، اقتلعت ذاتي من ذاتي، وقد تحوّلَتْ خلال هذه السنوات كلّها، إلى كلّ ما كان كنيستي، وأهلي، ولحمي ودمي، وحبي وحياتي، ووطني وأرضي، وصليبي وقيامتي!

حملتهم كلّهم في أعماقي، وأتيت بهم إلى حيث أنا الآن، في دير محب، يربض فوق تلة في لبنان، يعلوها تمثال رائع للسيّدة العذراء، تتعالى فيه، في تواضعها السحيق، على الجبال والبحار، فيما هي تحتضن، ليل نهار، جميع أبنائها وبناتها الزاحفين إليها، والمندسّين في تضاعيف ثيابها، وقد نسوا لديها جميع ما يفرّقهم من انتماءات، وتذكّروا فقط انتماء بنوّتهم الحقيقية لها!

هنا، أقيم منذ أربعة أشهر، في صمت، في استسلام، في ابتهال، في رجاء، منصرفاً إلى الكلمة وحدَها، ومنتظراً، في يقين، بزوغ النور القريب، مع السلام الجديد، والحب الموعود!

بين إخوة لي في الكهنوت، لم يشأ لي الرب أن أصبح منهم، يوم كنت طفلاً، وطلبني من والدتي، في دمشق، أحد أقدس مسؤوليهم، الأب نقولا نعمان، عام 1944. ربما كي يتاح لي أن أختار ما اخترت بعد عام واحد، فأظل وحيداً مع الرب وأمّه، في اختياراتي كلّها، وجهادي، ونضالي، وقتالي، ومع صليبي وقيامتي!

أيها الأحبّة جميعاً، يا إخوتي وأخواتي في الأرض، أيّاً كنتم، وأية كانت أسماؤكم، وأيّاً كان دينكم، وأياً كان وطنكم، فأنتم هنا، معي، فيّ، في قلبي وصلاتي، وكلّنا في قلب الله!

أيها الأحبّة جميعاً، أنّى كنتم، في كنيسة أم في مسجد، في معبد أم في عراء، في أرض أم في سماء، فأنتم هنا، معي، فيّ، في قلبي وصلاتي، وكلنا في قلب الله!

الفصل الحادي والعشرون

من أين لي أن أكون صوتَ صارخٍ في بريّة!؟

بعد كل ما جاء في "اعترافاتي" هذه، لا يخطرنّ ببال أحد، أن اختياري لعنوان هذا الفصل، يأتي في خط من يصفوني بين حين وآخر، من هنا وهناك، تارةً في عتاب، وطوراً في إعجاب، وأحياناً في سخرية، "بالصوت الصارخ في برية"! فحسبي أن أكون ما أنا، بعيداً عن أي تقويم بشري، أياً كان صاحبه، أو بالأحرى حسبي أن أحاول أن أكون، حتى اللحظة الأخيرة، ما أتلمّسه، في صلاتي وتفكيري، واختياراتي وكلماتي، من مشيئة مَن هو فوق كل مشيئة، ومِن تطلّع دائم إلى وجهه البهي الأوحد! فكل ما عدا ذلك، خواء في خواء!

صحيح أن "اعترافاتي" هذه تضمنت صرخات كثيرة، قد يكون بعضها أثار استغراباً، وبعضها غضباً أو... راحة! إلا أن صرختي الكبرى والدائمة، تظل تلك التي وجّهتها وأوجّهها، بوصفي كاهناً عربياً كاثوليكياً، إلى من هم في قمة المسؤولية الروحية، وبالتالي الإنسانية، في هذا الزمان المتردّي والمتهاوي، وأنا أعني بهم البابا أولاً، ومن ثم الفاتيكان كله، ثم سائر السلطات الكنسية في الشرق والغرب على السواء.

من هذه الصرخات، وهي الطاغية، ما كان ينبعث تلقائياً، بعد صلاة وتفكير، من أعمق أعماق وجداني، الإنساني والكهنوتي... ومنها ما جاءني إثر لقاء شخصي مع السفير البابوي بدمشق، في شهر حزيران من عام 2006، خلال العدوان الإسرائيلي على لبنان، ومنها ما كتبته من وحي تحليلي الذاتي وقناعاتي، المسيحية والقومية، بشأن الأوضاع الدينية والسياسية في المنطقة، وذلك بناء على طلب شخصي، خصّني به السفير البابوي بدمشق، في شهر أيار عام 2008، في ختام مسيرة خدمته في السلك الدبلوماسي الفاتيكاني.

هذه الصرخات الثلاث، رأيت أن أدرج هنا ثالثتها فقط، وهي بتاريخ 2008/6/21، مرفقة برسالة السفير البابوي إليّ، وهي بتاريخ 2008/6/30. والنصان كتبا باللغة الفرنسية، وترجمتها الأمينة هنا بقلمي. وإني لأضيف إليهما، ضمن "اعترافاتي" هذه،

ثلاث رسائل وجيزة جداً، هي الأخيرة لي، وجهتها للسيد المسيح أولاً بتاريخ 2013/8/27، ثم لقداسة البابا فرنسوا، بتاريخ 2013/9/6، وأخيراً للسيد "جون كيري"، وزير خارجية الولايات المتحدة، وهي بتاريخ 2013/8/31، أي خلال التصعيد الأخير والخطير، في الحرب الكونية على وطني سورية.

1) دراسة حول الأوضاع الدينية والسياسية الراهنة:

قدّمتها للسفير البابوي "جيوفاني باتيستا مورانديني" بناءً على طلبه قبل مغادرته دمشق، بتاريخ 21 حزيران 2008.

« **صاحب السيادة،**

كنت قد طلبتَ مني، يوم 11 أيار (مايو) عام 2008، دراسة حول الأوضاع الدينية والسياسيّة الراهنة.

اليوم 21 حزيران عام 2008، يسعدني أن أسلّمك هذه الدراسة، وإني لأتحمّل مسؤوليّتها الكاملة.

تقبّل شكري لأنك سألتنيها.

خواطر حول الأوضاع الراهنة، على الصعيدين السياسي والديني

هذه المقاربة تأتي تكملة لتلك التي أنجزتها لك بتاريخ 2006/8/27، تحت عنوان "كلمة حول الصراع العربي - الإسرائيلي".

ففيها أوجزت هذا الصراع، فقدّمت أسبابه الآيديولوجية والسياسية، وتطوّراته المختلفة، وكذلك تداعياته الخطيرة على كنائس العالم العربي.

محاولتي اليوم، تستهدف أمرين:

الأول هو الإحاطة بالمجابهة الحقيقية العالمية، التي تختفي وراء عبارة "الحرب على الإرهاب"، وهي مجابهة يشكّل فيها الصراع العربي الإسرائيلي، مجرّد حلقة، متوسطة ولكن حاسمة.

الثاني هو السعي لتحديد الدور الذي يتوجّب على الكنيسة أداؤه، الكنيسة عامةً، والكنيسة في العالمين العربي والإسلامي خاصة.

I - أبعاد المجابهة الحالية

1- منذ سقوط الكتلة السوفيتية، انجرف العالم كله، كما لو كان مرغماً، في دوامة مجابهة حقيقية، تقودها الولايات المتحدة ضد "الآخرين"...

2- هؤلاء "الآخرون"، أية كانت تسمياهم وهوياهم، ليسوا سوى أولئك الذين يجرؤون أن يقولوا "لا"، لسياسة الهيمنة العالمية للولايات المتحدة.

3- في واقع الحال، فإن الولايات المتحدة، تتحرّك وفق منطق أعمى، يُمليه عليها تفوّقها الساحق، على الأصعدة العلمية والعسكرية والاقتصادية. وهي، منذ عقود، تجيز لنفسها علناً، أن تسيطر على المؤسسات الدولية، مثل هيئة الأمم المتحدة، ومجلس الأمن، وأن تملي عليها بطريقة تعسفية إرادالها، وأن تعطل آليّتها القانونية، وتتحكم بها على هواها، بل أن تستصدر منها قرارات عشوائية، تتحدى بها كل الحقائق أو التقصّيات الميدانية، التي قامت بها الأجهزة أو العناصر الرسمية، التابعة لهذه المؤسسات الدولية عينها.

4- فضلاً عن ذلك، فإن الولايات المتحدة، إذ هي تستقوي "بتبعية" "القوى الكبرى" لها، وكذلك بالتبعية المطلقة "للقوى الصغرى"، تُجيز لنفسها أيضاً، منذ عقود، تحت سمع العالم وبصره، أن تخرق جميع المعاهدات الدولية، وتجرّ معها في هذا الخرق، سائر "القوى الكبرى". والأمثلة على ذلك لا تحصى. حسبي أن أذكر: قصف السودان، حصار ليبيا وقصفها...، تدمير أفغانستان المنتظم... أما العراق، فإني لا أجد من الكلمات ما يلائم وصف ما جرى وما يجري فيه...

5- أكثر من ذلك: إن الولايات المتحدة، وقد استقوت بتواطؤ "أتباعها" وجُبنهم، من كنديين واستراليين وأوربيين، بل وروس، تمنح ذاتها الحق في وضع نفسها فوق جميع القوانين، وتجيز لنفسها أيضاً أن تضع جميع ممثّليهما وجيوشهما، فوق جميع القوانين، بحيث لا تطالهم أي ملاحقة قضائية، محلية أو دولية... إن هي إلا سيادة الخزي والعار! وليس سجنا "أبو غريب" و"غوانتانامو" سوى نموذجين بين العديد من السجون السرية، المزروعة، بالاتفاق مع سائر "القوى"، في أوربا، وعلى الأرجح في كندا واستراليا... وحتى في بعض البلدان العربية، المسماة "معتدلة".

6- ونتيجةً لذلك، ابتكرت الولايات المتحدة "الحرب الوقائية" المزعومة، ضد "الإرهاب"، وهي، بكل بساطة، خرق خالص لجميع الشرائع المعمول بها، ولجميع المعاهدات التي أُبرمت طوال قرون، بقصد الحفاظ على الأمن والسلام العالميين.

7- والحال أنّ هذه "الحرب الوقائية"، التي ابتُكرت منذ ثماني سنوات، تحت ذريعة وضع حد "للإرهاب"، قد انتهى بها الأمر إلى زجّ العالم بأسره في مواجهة مفتوحة على جميع الاحتمالات، وهي مواجهة ستولّد بدورها بؤراً جديدة من "ردود أفعال إرهابية" لن

تنتهي، بحيث يصبح كل شيء ممكناً، إلا اتهام الولايات المتحدة بالإرهاب، في حين أنّها هي بالذات باعثة الإرهاب الدولي.

8- إن تبرير هذه "الحرب الوقائية" يستبيح جميع الوسائل كي "يشيطن" الضحايا المقبلة: جميع الأكاذيب مبرّرة، اختلاق شتى أشكال الاتهامات... الخ... حصار ثلاثة عشر عاماً ضد العراق قتل من أبنائه مليوناً ونصف مليون طفل، وفق التقارير الأميركية بالذات... أما أفضل وأحدث نماذج هذه "الشيطنة"، فهو دون شك، "الطالبان" في أفغانستان، مع أن الولايات المتحدة هي التي كانت قد جنّدتهم ودرّبتهم وموّلتهم من أجل مقاومة الاحتلال السوفييتي لأفغانستان. ومن المعروف أن "الصديق الأكبر" لدونالد رامسفيلد وللغرب بأسره، كان صدام حسين بالذات... تدمير هذين البلدين وهذين الشعبين، في انتظام وبرود!

9- والحال، أن كل ذلك يقتضي من جميع الدول دون استثناء، نفقات جنونية، يكفي قسم ضئيل جداً منها، لإزالة ظاهرة واحدة، من مجمل الظواهر التي تضرب القطاع الأوسع من سكان الأرض، أعني ظاهرة الإفقار العالمي، التي تزداد تسارعاً. فالمال متوفر دونما حدود من أجل الحروب، أما مكافحة الجوع، فتواجَه بشكوى من الجميع. وقد كانت شخصية عالمية مثل "راوول فولّيرو"[1]، أعربت عن غضبها منذ عام 1976، في صحيفة الفاتيكان الرسمية ("المراقب الروماني"[2] عدد 1976/2/5)، إزاء مثل هذا الموقف. واليوم بالذات، 2008/6/6، رفع "جان زيغلر" بدوره الصوت منذراً، فيما كتابه الصادر عام 2005 في فرنسا، تحت عنوان "إمبراطورية العار"[3]، يشكّل إدانة علميّة ومنتظمة للرأسمالية المفترسة الراهنة، التي تسيطر عليها وتقودها الولايات المتحدة...

10- ومع ذلك، فثمة تماسك، قوي حتى اللحظة، ولكنه، في الواقع، مصطنع، بين الولايات المتحدة والسبعة "الكبار" الآخرين، الذين يهيمنون على دنيا المال والاقتصاد.

في حقيقة الأمر، يبدو هذا التماسك مؤسّساً على هدفين اثنين، لن يعتّما أن يُحدِثا ذات يوم، توتّراً أو صداماً داخل نادي "الثمانية":

1- "راوول فوليرو" (Raoul FOLLEREAU)، هو شخصية فرنسية (1903-1977)، أمضت حياتها كلّها في مكافحة مرض الجذام على نطاق العالم.

2- هي صحيفة الفاتيكان الرسمية. وهي أسبوعية، وتصدر بلغات كثيرة.

3- راجع كتاب: "إمبراطورية العار"، منشورات فايار (FAYARD)، بباريس عام 2005، لمؤلفه "جان زيغلر" (Jean ZIEGLER).

ذلك أن الهدف الأول يرمي إلى ضخ موارد العالم لصالح "الثمانية"، ولكن على الأخص لصالح العملاق الأميركي، ليس فقط للحفاظ على مستوى المعيشة لديهم المرتفع جداً، ولكن أيضاً من أجل رفعه نحو المزيد بحيث يحافظ المسؤولون فيه على مراكزهم، وبذلك يكسبون المزيد من أصوات الناخبين في المستقبل.

ولذا كان الهدف الثاني يقوم على إحداث توترات واضطرابات عرقية أو دينية، داخل مختلف البلدان، كي يوقفوا تطورها، ويحرفوا قواها الحية، ويمتصّوا أدمغتها ويستترفوا أموالها بشراء السلاح... ومثالاً على ذلك، أذكّر بأن مجمل البلدان الإفريقية قد اشترت عام 2007 أسلحة بقيمة (350) مليار دولار!

11- ومع ذلك، فخلف هذه القوة الغربية التي تبدو مطلقة، ظهرت، منذ عقود، هشاشة أساسية.

أولاً، على صعيد الولايات المتحدة: فإن هذا البلد في الواقع، وعلى الرغم من تفوّقه، السفيه أحياناً، يبدو أنه، منذ كيسنجر، يخضع عملياً لسلطة لم تعد تُخفي ذاتها، وتسمى "اللوبي اليهودي". فلا بد له من أن يكون مبتلى بالعمى، من لا يرى أن هذا اللوبي استطاع أن يسخّر لاسرائيل، كليّة القدرة الأميركية (أعني بذلك الرئاسة والإدارة، والإعلام، ومجلس الشيوخ، والكونغرس، والأحزاب السياسية، والسي. آي. ايه. والأسرار العسكرية، والمالية، والممثليات، والبعثات الدبلوماسية والسياسية، وحتى الحملات الانتخابية الرئاسية. ودليلنا على ذلك، آخر تصريحات السيّد "باراك أوباما" يوم 2008/6/5).

ثانياً، على صعيد البلدان "التابعة" للولايات المتحدة: مثل كندا، واستراليا والاتحاد الأوربي وروسيا، وإن كان ذلك في حدود أدنى، وفي الواقع فإن جميع هذه البلدان دون استثناء، تصوّت دائماً لصالح اسرائيل، في الأمم المتحدة ومجلس الأمن.

12- في حين أن إسرائيل تُخضع الفلسطينيين، منذ أكثر من ستين عاماً، لمحرقة تفوق بمراحل ما أنزله النازيون باليهود.

فإسرائيل تقصف، تدمّر وتقتل في وضح النهار زعماء فلسطينيّين، نساءً ومسنّين وشباناً وشابات وأطفالاً، وذلك كل يوم، منذ سنوات وسنوات.

وإسرائيل تُخضع الشعب الفلسطيني برمته إلى نظام اعتقالي، أسوأ مما كان عليه نظام التمييز العنصري في إفريقيا الجنوبية.

وإسرائيل تعتقل تعسفيّاً، كل يوم، فلسطينيين، وبعضهم أعضاء في الجمعية الوطنية التي انتُخبت ديموقراطياً.

وإسرائيل تُخضع منذ حزيران (يونيو) عام 2007، مليوناً ونصف مليون فلسطيني في قطاع غزة الضيق، لحصار يبدو إزاءه "حصار فرسوفيا" لعبة أولاد.

وإسرائيل تُبقي في الاعتقال، منذ عشرات السنين، ثلاثة عشر ألف فلسطيني، بينهم مئات من النساء، والفتيات، بل والأطفال، في سجون لم يستطع قط أي من ممثّلي الصليب الأحمر أن يزورها.

وإسرائيل اجتاحت لبنان عدة مرات.

وإسرائيل دمّرت خلال عدوانها على لبنان في شهري تموز – آب (يوليو – أغسطس) عام 2006، ربع البلد، وقتلت مئات من المدنيين، بينهم عائلات أُبيدت عن بكرة أبيها.

وإسرائيل بنت جدار العار فوق الأراضي الفلسطينية، وقد أدانتها محكمة العدل الدولية في لاهاي.

وإسرائيل ألقت خلال الأيام الأخيرة من عدوانها على لبنان عام 2006، وحتى بعد وقف إطلاق النار، أكثر من مليوني قنبلة عنقودية، تسبّبت في مقتل أو تشويه المئات من المدنيين...

وإسرائيل تخترق بطائراتها كل يوم سماء لبنان.

وإسرائيل تواصل احتلال الجولان منذ شهر حزيران (يونيو) عام 1967، وقسماً من جنوب لبنان، منذ اجتياحها له في شهر حزيران (يونيو) عام 1982.

كل ذلك يحدث دون أن يُسمع في الغرب صوت واحد يحتجّ على إسرائيل أو يوجّه لها أدنى لوم.

إلا أنّ الغرب برمته يغضب ويقرر في 2002/9/9، أن يصنّف جميع حركات المقاومة الفلسطينية، في عداد التنظيمات الإرهابية! يا له من "ذكاء" ومن "نبل" يبدران من الغرب، لا سيما الغرب الأوربي، الذي عرف الاحتلال النازي.

13– إن هذا التواطؤ المعلن بين الغرب وإسرائيل، قد وجد أيضاً تربة استثنائية في الحرب المزدوجة والبغيضة التي شُنّت على العراق، عام 1991، وعام 2003. فليس من يجهل اليوم أن الولايات المتحدة هي التي شجّعت العراق على اجتياح الكويت في الأول من شهر آب (أغسطس) عام 1990! أما الحرب التي شُنت عام 2003، فقد مُهّد لها بحملة واسعة استهدفت "شيطنة" نظام صدّام حسين، تحت ذريعة امتلاكه أسلحة الدمار الشامل، وتهديده للسلام العالمي، وبوصفه معادياً للديموقراطية!

والحال، أن لا أحد يجهل أن هذه الذرائع كانت كلّها كاذبة، وأن أول من اعترف بذلك على الملأ، كان مروّجها بالذات: "كولن باول". وكان هذا الكذب يخفي في الحقيقة أهدافاً أخرى، منها السيطرة على النفط، والتصميم على تقسيم العراق إلى دويلات طائفية، إثر نشوب توترات وصدامات طائفية فيه، وقد بات عراق اليوم يشكل، منذ اجتياحه، لوحة تفوق بهولها كل تصوّر.

14- كل ذلك يتقاطع مع المخطط الأميركي الذي وصفه السيّد بوش والسيدة كونداليزا رايس، "بالشرق الأوسط الجديد"... فثمة خريطة جغرافية له، عمّمت، وهي من مصدر أميركي. إنها تعني إعادة تركيب جديد وكلي، للشرقين الأدنى والأوسط، وفق أسس عرقية وطائفية، أي إثر حروب أهلية!

وقد اتفق أن كل ذلك يتقاطع أيضاً مع ما كان بن غوريون قد اقترحه منذ عام 1954، على رئيس مجلس الوزراء الإسرائيلي آنذاك، موشيه شاريت، وهو مشروع تقسيم العالم العربي، بدءاً من لبنان... وهو يتقاطع أيضاً مع مجمل الاستراتيجية الإسرائيلية حيال العالم العربي، التي كانت المجلة الصهيونية "كيفونيم" (= التوجه) الصادرة في القدس، قد أعلنته في العدد 14 لشهر شباط (فبراير) 1982، في مقال بعنوان: "استراتيجية إسرائيل في الثمانينيّات".

15- إن هذا التواطؤ ذاته، القائم بين الغرب وإسرائيل، يصادفنا في ميدان آخر من ميادين الشرق الأوسط: أعني به إيران. فلقد أصبحت إيران، منذ الخميني، "محور الشر" والشيطان الأكبر الذي يجب تدميره بأي ثمن، لأن قنابله النووية "القادمة" تهدّد الغرب كله... وفي الواقع، كان يجب أن يقال: "تهدد إسرائيل"، فهذا هو الشيء الوحيد المهم. وإن التصريح الذي أدلت به منذ ثلاثة أسابيع السيّدة هيلاري كلينتون حول "إزالة إيران من الوجود، فور إطلاقها أول صاروخ ضد إسرائيل"، يعكس بوضوح تام عمق العقلية الغربية، ويدهش المرء إزاء مدى تبعية الغرب لإسرائيل! والحال أن لا أحد يجهل أن إيران، كانت في عهد الشاه، الحليف الوحيد لإسرائيل في الشرق الأوسط، وأنها كانت تحظى بامتيازات فائقة. ولكن ما إن رجعت إيران إلى عالمها الإسلامي والعربي، وغيّرت بالتالي سياساتها حيال إسرائيل، حتى ثارت ثائرة الغرب برمته. وبات من الضروري منعها بأي ثمن من استخدام الذرّة حتى للأغراض السلمية. ومع ذلك، فليس من يجهل أن إسرائيل تملك منذ عام 1956، السلاح النووي، وأنها تتباهى بتهديد جيرانها العرب والمسلمين به، بين حين وآخر. هنا لا بد من أن يُقرأ من جديد ما يدعوه السيّد "جيمي كارتر" في

كتابه (فلسطين: سلام، لا فصل عنصري!) "الترسانة النووية الهائلة التي لدى إسرائيل؟"... هل تراني أتابع؟

16- كل ذلك يقودنا إلى قلب سلسلة من الأمور الفاضحة التي تفقأ العين: إن إسرائيل هي الطفل المدلل لدى العالم الغربي... فالغرب هو الذي خلقها بوعد لا سابق له، هو وعد "بلفور" (1917)، والغرب هو الذي يدعمها بجميع الوسائل، الخفية والمعلنة، كي تستمر وتبقى، وذلك على حساب الشعب الفلسطيني أولاً، ثم على حساب الشعوب الأخرى: في لبنان وسورية ومصر، والعراق، ولم لا، قريباً، في الأردن والسعودية والسودان الخ...؟ وبالطبع أيضاً، على حساب كل ما هو شرف وحقيقة وكرامة و... أموال، في طول الغرب وعرضه... وأخيراً على حساب العدل والسلام في نطاق الأمم المتحدة، وبالتالي في نطاق العالم.

17- صاحب السيادة،

في ختام هذا القسم الأول من دراستي، اسمح لي بتذكيرك بأمرين يتعلّقان بك شخصيّاً.

الأمر الأول كان دهشتك الأولى والسلبية، إزاء موقفي ككاهن عربي من العدوان الإسرائيلي على لبنان، في شهري تموز (يوليو) - آب (اغسطس) عام 2006، وقد تلتها دهشتك الثانية، الإيجابية، بعد أن قرأت "ورقتي حول الصراع العربي - الاسرائيلي"، التي كنت قد سلّمتك إياها في 2006/8/27.

الأمر الثاني كان غضبك المشروع حيال كثافة حقد بعض الصحف اللبنانية على سورية، وحملتها الخبيثة المناهضة لسورية، وخصوصاً حيال المشروع الذي أعدّته طويلاً اسرائيل وبعض أصدقائها الغربيين واللبنانيين، بشأن اجتياح لبنان وتقسيمه، وكانا متوقعين في مطلع أيار (مايو) عام 2008، كما بيّنته مقالات بعض الصحف، التي سلمتني نسخة منها في 2008/5/11، وأنا أحتفظ بها في حرص.

II - دور الكنيسة

أحاول، بوصفي كاهناً كاثوليكياً، أن أحدد دور الكنيسة الكاثوليكية على صعد ثلاثة:

- الفاتيكان.
- الكنيسة الكاثوليكية في الولايات المتحدة.
- الكنيسة الكاثوليكية في أوربا.

وأحاول، بوصفي كاهناً عربيّاً، أن أحدّد دور الكنيسة في العالم العربي.

- **بوصفي كاهنا كاثوليكياً:**

1) الفاتيكان

كل كاثوليكي ينظر إلى الكنيسة على أنها "عمود الحق"، كما وصفها القدّيس بولس.
هل الفاتيكان هو حقّاً "عمود الحق"؟

(1) يوحنا بولس الثاني.

اتخذ موقفين ثابتين ونبويّين بكل معنى الكلمة:

الأول:

إنه الموقف الرائع والمعروف جداً، الذي ورد في كتاب مشهور يحمل العنوان التالي: "عندما يطلب البابا الغفران"، الذي كتبه الصحفي الإيطالي "لويجي أكاتوللي"، والذي صدر في فرنسا، لدى دار نشر "البان ميشل"، عام 1997

الثاني:

هو الموقف الذي يشمل مواقفه الصريحة والجريئة والمتكررة، بخصوص النزاعات في لبنان وفلسطين والعراق، وقد دعمها بالعديد من المقابلات الشخصية الخاصة، ومن البعثات التي أوفدها من أجل تجنّب الحرب ضد العراق، ولا سيما بعثة الكردينال "اتشيكاراي" إلى بغداد، للقاء صدام حسين.

وبوصفي كاهناً كاثوليكياً من سورية، يطيب لي أن أذكّر بموقفه الجريء لحظة وطئ أرض سورية، إذ طالب بتطبيق قرارات الأمم المتحدة، من أجل حل عادل ودائم للصراع العربي الاسرائيلي.

(2) بيندكتوس السادس عشر.

بوصفي كاهناً يحب الكنيسة الكاثوليكية، أجدني مضطراً لتسجيل أربع ملاحظات:

– إن مقاربته الإنسانية للنزاعات الراهنة، لا سيما في الشرق الأوسط، لا تداني البتة مقاربة يوحنا بولس الثاني.

– إن نزعته الفكرية بوصفه مدرّساً جامعياً، قد تنحو به نحو نسيان البيئة الملتهبة التي تتعلق ببعض القضايا، كما حدث له إبان محاضرته في "راتسبون".

– أما بشأن الأسئلة المتعلقة بالسلام في الشرق الأوسط وبالجوع في العالم، فإني أقرأ بتمعّن، في صحيفة "المراقب الروماني"، ما يقول البابا أو ما يقوله مبعوثوه أو ممثلوه... ويؤسفني أن أقول إني أشمئزّ من سطحية الكلمات ومن الأسلوب المتبع. إنما كل ذلك كلامُ مَن لا يريد أن يقول شيئاً.

وفيما يتعلق بسفر بيندكتوس السادس عشر إلى الولايات المتحدة، فقد أُصبت بخيبة عميقة، إذ طالعت النصوص التي نُشرت في صحيفة "المراقب الروماني"، والتي كانت تنقل كلام البابا للأساقفة الأميركيين وفي الأمم المتحدة، ولا سيما للسيد بوش، هو الذي يدّعي استلهام الله مباشرة! وقد قلت في نفسي بمرارة: إن كان البابا يعجز عن قول الحقيقة للسيد بوش وللأساقفة الأميركيين - هم المخوّلون بحمل هذه الحقيقة إلى شعبهم - وللأمم المتحدة، فمن الذي سيقولها لهم؟ وحيال وحشية الولايات المتحدة، البادرة، وحيال الكوارث التي تضرب العالم، والتي قد تدمّره قريباً، ما الذي يبرر مثل هذا الصمت؟ أوَ يجب أن ننتظر مئات السنوات، حتى يأتي يوحنا بولس الثاني آخر، كي يطلب الغفران بسبب جميع الجرائم التي تُرتكب في أيامنا، ومن قبل بلد يُعتبر مسيحيّاً في نظر مليار مسلم؟

2) الكنيسة الكاثوليكية في الولايات المتحدة.

هل يمكن لكاهن أو أسقف أن يقرأ الإنجيل، دون أن يدرك أن يسوع تماهى كلياً ونهائياً مع الفقير، مع المظلوم، مع المريض، مع السجين، مع المشرّد؟

هل يمكن لكاهن أو أسقف أميركي أن يجهل:

ما جرى في فلسطين، وما يجري فيها؟

ما جرى في أفغانستان، وما يجرى فيها؟

ما جرى في العراق، وما يجرى فيه؟

ما جرى في لبنان، وما يجري فيه؟

ما جرى في الحبشة، وما يجري فيها؟

ما جرى في السودان، وما يجري فيه؟

ما جرى في الصومال، وما يجري فيه؟

ما جرى في إيران والعراق معاً، طوال ثماني سنوات، وما يُخشى أن يجري في إيران؟

أترك جانباً ما جرى في أميركا الجنوبية، في التشيلي، في باناما، وفي بلدان أخرى.

إزاء هذا الحجم من جرائم الحرب والجرائم ضد الإنسانية، ارتكبها بلدهم "العظيم"، كيف لهم أن يحتفظوا بالصمت؟

كيف يسع الأساقفة والكهنة الأميركيين، أن يضحكوا، ويناموا ويأكلوا ويصلّوا، دون أن يرفعوا صوت الغضب عالياً وقوياً، ضد حكومة تريد بأي ثمن أن ترفع من وتيرة التخمة لدى الشعب الأميركي - المتخم أصلاً حتى الانفجار! - بحقنه بالمزيد من الدولارات والنفط والأكاذيب والمتع، والأنانية والصلف، على حساب الغالبية الساحقة من البشر؟

إن الخوف من وسائل الإعلام الكلية السيطرة، لا يبرر مثل هذا الصمت!

إن الخوف من تهمة التحرش الجنسي بالأطفال لا يبرر، هو أيضاً، مثل هذا الصمت!

أعرف أن كردينال "بوسطن" الشجاع، "برنار لو"، قد هبّ ليقذف الحقيقة كلّها في وجه السيّد بوش والإدارة الأميركية. وأعرف أيضاً أنّ موقفه هذا، بوصفه رجلاً أبيّاً وأسقف المسيح، قد كلّفه منصبه، لأن سائر الأساقفة، للأسف، قد تخلوا عنه...

هل تراهم نسوا أنهم بفعلتهم تلك، قد تخلّوا عن المسيح وعن إيمانهم؟

3) الكنيسة الكاثوليكية في أوربا.

أعرف أنّ الكنيسة بمجملها في أوربا مقيّدة بعقدة الذنب تجاه اليهود.

أكتفي بطرح السؤال حول كنيستين أوربيتين لا غير:

(1) الكنيسة الكاثوليكية في فرنسا.

حالفني الحظ وعرفت كنيسة فرنسا، عندما أمضيت سنة تدريب، بوصفي طالب لاهوت، في إحدى الكنائس في مدينة ليون، عام 1955- 1956.

اكتشفت أثناء ذلك جمعية كهنة "البرادو"[4]، حيث عرفت أسقفاً استثنائياً كان بحق رجل الله، وهو المطران "الفريد انسيل"، وقد ظل حتى وفاته عام 1984، أبي الروحي.

ومنذ ذلك الحين، نشأت في نطاق العالم العربي، مجموعة من كهنة "البرادو" تضم قرابة أربعين كاهناً عربياً، بين ملكي وماروني وقبطي وكلداني.

وفي عام 1975، عقد مؤتمر طويل لكهنة "البرادو"، بالقرب من مدينة ليون، واكتشفت خلاله بأسى مدى تحكم عقدة الذنب حيال اليهود بأكثر الكهنة الغربيين انفتاحاً وجرأة، وإذ بهم يبتلون بالعمى، عندما يتعلق الأمر بالصراع العربي الاسرائيلي.

ومنذ ذلك الحين، لكم من لقاء أجريته بمبادرة مني مع أساقفة فرنسيين، منهم الكردينال "فرنسوا مارتي" في باريس عام 1974، والكردينال "لوستيجيه"، رئيس أساقفة باريس عام 1990، والمطران "دوفال"، أسقف مدينة "رين" عام 1991، ولكم من رسالة كتبتها للكرادلة "مارتي" و"لوستيجيه" و"اتشيكاراي"، وللأساقفة "دوفال" و"ريكار" و"بوبار"، وكلها رسائل ظلت دونما جواب!...

ولكن كنيسة فرنسا، في هذه الأثناء، لا تني تطلب الغفران من اليهود، وتطلق

4- جمعية "البرادو" (PRADO)، جمعية تضم كهنة فرنسيين يهتمون بالدرجة الأولى بالطبقة الفقيرة، وينتهجون المجانية في الخدمة، وقد أسسها كاهن فرنسي يدعى "أنطوان شيفرييه" (Antoine CHEVRIER) (1826-1879).

التصريحات الداعمة لإسرائيل، وهي تتجاهل كلياً مصير العرب والمسلمين، في فلسطين والعراق والسودان و... و...، متخذة بذلك موقفاً خالياً من كل إنسانية وكرامة!

وفي هذه الأثناء أيضاً، يفقد الشرق العربي مسيحيّيه!

وهنا، اسمح لي بصدد الحديث عن كنيسة فرنسا، أن أضيف: أفهم أن تكون في فرنسا عقدة ذنب تجاه اليهود، فذلك إنما هو بفعل تاريخ طويل بائس، وبفعل جبانة كنيسة فرنسا إبان الاحتلال النازي.

ولكن هل يمكن التكفير عن جبانة تاريخية بارتكاب جبانة أفدح؟

ذلك بأن الجرائم التي تُرتكب في فلسطين منذ أكثر من ستين عاماً ضد الفلسطينيين، والتي ترتكب في العراق منذ أكثر من ثلاثين عاماً (بما فيها أعوام الحرب ضد إيران، تلك التي موّلها الغرب وسلّحها...)، بقصد "عودة" اليهود إلى فلسطين، وبقصد بقائهم وحمايتهم... جميع هذه الجرائم تعدّ التربة لعقدة ذنب مزدوجة ومحتومة، أولاهما حيال الشعب اليهودي نفسه، لأنها تتيح له أن ينجز اغتيال الشعب الفلسطيني، وهي بذلك تدفعه لأن يصبح شعباً قاتلاً، والثانية حيال المسيح نفسه، إذ إنكم بذلك تطردونه من الشرق في شخص المسيحيين العرب، وقد دُفعوا دفعاً لأن يهجروا أوطانهم وكنائسهم الأصلية.

ترى، من سيغفر لكنيسة فرنسا، عقدتي الذنب هاتين الجديدتين، وكلتاهما قيد الإنجاز التام؟

(2) الكنيسة الكاثوليكية في ألمانيا.

هذه الكنيسة هي بطبيعتها، تخضع لاختبار أقسى، بسبب عقدة ذنبها حيال اليهود.

إن الشخصية النورانية للكردينال "فون غالن" لا يمكنها أن تغفر لها خطيئة جبانتها.

ولكن، أيجوز لها، بسبب عقدة الذنب هذه بالذات، أن ترتكب بدورها هاتين العقدتين اللتين أشرت إليهما في حديثي عن كنيسة فرنسا؟

من المؤسف أن كنيسة ألمانيا تجد نفسها في وضع أسوأ من وضع كنيسة فرنسا.

كل شيء يوحي بأن كرادلة ألمانيا وأساقفتها، قد فقدوا عيونهم وآذانهم وألسنتهم.

مع أن ما يجري في فلسطين وفي العراق من شأنه أن يوقظ حتى الموتى!

ترى، هل كنيسة الغرب تخلت عن كونها "عمود الحق"؟ وما هو الإيمان الذي يمكنها أن تدّعيه؟

مسكين هو يسوع!

- **كاهن عربي: كنيسة العالم العربي.**

ههنا، الكنيسة تعني لي كلِ الكنيسة، الكاثوليكية والأرثوذكسية على السواء.

في الواقع، فإن كنيسة العالم العربي هي المعنية أولاً وأخيراً بالصراع العربي الإسرائيلي، وبالصراع العالمي الراهن.

وفي الحقيقة، فإن الظروف المفروضة عليها تهدّد لا تجمّعها البشري وفاعليتها وحسب، بل حتى وجودها برمته، وإذن رسالتها ومبرر وجودها في أرض الإسلام.

من شأن مثل هذه الظروف أن تثير لدى هذه الكنيسة كلّها، توقاً مشتركاً شاملاً على أصعدة الصلاة والتفكير والعمل واتخاذ المواقف.

من المؤسف، ليس ثمّة شيء من ذلك، باستثناء التصريحات الظرفية التي تظلّ دون متابعة ولا نتائج، لأنها في معظمها إما مطلوبة، أو مملاة أو شخصية.

بالطبع، هناك التصريحات المطنبة للبطاركة الكاثوليك. ولكن لا بد من الاعتراف الصريح بأن هذه التصريحات الصاخبة، لا تغير شيئاً في واقع الأمر، ولا سيما على صعيد العمل المشترك أياً كان.

ذلك بأن كل بطريرك – وبالتالي كل أسقف – يظل في رأيي، محدوداً بكنيسته، منغلقاً على تاريخ كنيسته وطقوسها، بل أحياناً أسير تاريخه الشخصي... ولدينا مثال محزن في لبنان!

للمزيد من الواقعية، أقول إن بطريركنا في سوريا، وقد التهمه حب العظمة، لا يستشير أحداً، مهما ادعى، حتى ولا مستشاريه الأسقفين!

وفي فلسطين، فإن البطريرك "ميشل صبّاح"، وهو رجل إيمان وشجاعة بامتياز، يواجه وحده منذ سنوات، مواجهة يومية، الصراع العربي الاسرائيلي. ولذلك تجرأ وقال ما يملأ عليه فكره، وما كان يجب أن يقال، في كتاب رائع هو "سلام على أورشليم"، وقد صدر في باريس عام 2002. ومن المؤسف أنه هوجم من قبل الآباء اليسوعيين في مجلتهم "الدراسات". وهناك من يقول أن استقالته القسرية جاءت بسبب مواقفه...

ترى، لم لا يرتفع جميع بطاركتنا معاً، من كاثوليك وأرثوذكس، إلى مستوى مستقبل الكنيسة وشعوبهم، من مسيحيين ومسلمين، في العالم العربي؟ بل أذهب إلى القول: لم لا يرتفعون معاً إلى مستوى بشرية تغرق بصورة متفاقمة، في الظلم والعنف والفوضى، والجوع والاستغلال، والاستعباد... من جهة، في حين هي تنفجر من التخمة والأنانية والشهوانية، والمادية والقسوة، من جهة ثانية؟

إنها الفرصة الأخيرة لاستنهاض الوجدان العالمي والوجدان المسيحي.

وإذا ما كان الوجدان المسيحي في أوربا، على صعيد الكنيسة الكاثوليكية، قد غاص في سبات عصي على أي تفسير وخال من الكرامة، فإن لكنيسة العالم العربي أن تقوم بدورها في إرغام كنيسة الغرب على النهوض.

كيف؟

من يحب، لا يفتقر إلى الوسائل. وهذه الوسائل كثيرة، شريطة أن يتحرر هذا المحب من كل مشروع تسوّل في الغرب.

من هذه الوسائل مثلاً: ضرورة عقد مؤتمر دولي في الشرق، يدعو إليه بطاركتنا وأساقفتنا، للبحث أولاً في الصراع العربي الاسرائيلي، ثانياً في مفهوم الإرهاب الدولي. وإلا فلن يكتب البقاء لا للمسيح ولا للمسيحيين في العالم العربي.

خاتمة.

في الختام، أود أن أذكّر بقصة كرم "نابوت"، كما رواه سفر الملوك الأول[5]، في الفصل الحادي والعشرين.

بالأمس كان كرم "نابوت" فلسطين. واليوم، هو العراق. وقريباً سيكون العالم بأسره.

والملك "آحاب" هو بالطبع الغرب كله، وقد هيمنت عليه الولايات المتحدة، فيما الصهيونية تتحكم بها.

وأصبح "نابوت"، مليارات من البشر، يُغتالون بطرق مختلفة!

إن لم تشأ الكنيسة أن تكون النبي إيليا، الزائر بالحق في وجه جلادي الأرض، فما عسى يتبقّى لها من مبرر وجود؟

وإن قيل لي: ولكن هل هناك من يسمع؟

أقول:

ما كان للمسيح أن يقول كلمة واحدة، لو كان عليه أن ينتظر ليتكلم، حتى يصبح الناس أهلاً للاستماع إليه وتقبّله.

5- سفر الملوك هو أحد أسفار العهد القديم من الكتاب المقدس.

جواب السفير البابوي:

جاء جوابه بالفرنسية. أنقله بأمانة إلى العربية. وهو بتاريخ 2008/6/30.

« حضرة الأب الجزيل الاحترام،

أشكر لك من كل القلب مساهمتَك السخيّة والقيّمة جداً، بشأن الموضوع الذي يهمّنا على نحو خاص جداً، من أجل مستقبل سوريتنا (كذا!) (pour l'avenir de notre SYRIE).

ثق بأنَّ أفكارَك وخواطرَك ومقترحاتِك ستكون ذات فائدة كبيرة بالنسبة إلى الغاية التي تعرفها معرفةً تامة.

أكرّر لك شكري، وإلى اللقاء.

نظلّ متّحدين في الصلاة، تحت حماية أمّنا مريم، سيّدة دمشق.

التوقيع

جيوفاني باتستا موراندينى

Giovanni Battista MORANDINI »

2) رسالة عاجلة جدّاً إلى السيّد المسيح

« سيدي،

جئتك اليوم، راجياً إيّاك القيام بزيارة عاجلة جدّاً إلى سورية، وطنك الأرضي.

أوليست سورية تلك الأرض التي اختارها الله، منذ البدء، ليعلن عن نفسه للبشرية المعذّبة، حتى باتت مشيمة الأرض والسماء؟...

لا تتركها، يا رب!

فإنّ لك فيها محبّين كثيرين، من مسيحيّين ومسلمين، قد لا تعرف مثلهم محبّين في الأرض كلّها.

تعال، سيدي، فأنت هو الحبّ، والحبّ لا يخزي...

أولستَ أنت من أحبّ سورية، منذ البدء، دون بقاع الأرض كلّها؟...

تعال سيّدي، قبل أن تبتلعها الجحيم، التي أشعل نيرانها الشياطين القابعون في تل أبيب، وأذنابهم في واشنطن ولندن وباريس وبرلين!.

سيدي،

أولستَ أنتَ مَن خصَصتَ هذه الأرض أيضاً، بتجلّياتٍ لك ثلاث، لم تحظَ بما يُدانيها أيّ أرضٍ أخرى؟

أولستَ أنتَ مَن شئتَ، لألفَي سنةٍ خلت، أن تصعقَ في دمشق، وليس في القدس، ولا في غيرها من مدن فلسطين، ذاك السلفي اليهودي، شاول، لتطلقَه منها إلى العالم، رسولاً ليس كمثله رسول، يحمل للأرض كلّها، نورَك وحبّك وسلامَك؟

أولستَ أنتَ من شئت، لألف وثلاثمائة وسبع وسبعين سنة، أن تجمع في مدينة دمشق إياها، المسلمين الفاتحين وسكانها العرب المسيحيين، طوال سبعين عاماً، في كنيسة شهيد الحقّ، يوحنا المعمدان، لأول مرة في التاريخ، في صلاة وحياة، امتدّتا إلى القدس، فإلى مصر، فإلى الأندلس، في نمط جديد من المودة والتعاون، لم يعرف مثلهما تاريخ البشر جميعاً، منذ ذلك الحين حتى اليوم؟!

أولستَ أنتَ، يا سيدي، من شاء، لإحدى وثلاثين سنة خلت، أن يتّخذ من أحد البيوت المتواضعة في دمشق، كما في فلسطين قديماً، مسكناً، لك ولأمك المباركة، لتدعوا معاً جميع الناس في الأرض، بلغة عربية صريحة، إلى التوبة إلى الله، وإلى المحبة بين الناس؟

يا سيدي،

تعال، تعال، فالأرض كلّها تكاد أن تتحوّل إلى جحيم، إذ لم يعد يُسمع فيها سوى أصوات المتجبّرين، النهّابين، المنافقين، القتلة، وصخب أسلحتهم المدمّرة، من حكام في غربٍ **"أغوته المادة والشهوة والشهرة، حتى كاد أن يفقد القيم"**، كما وصفتَه أنت بالذات، بكلامٍ قاطع كحد السيف، عام 2004.

أولستَ أنتَ من قلتَ يومها لنا أيضاً، نحن أبناء الشرق، من مسلمين ومسيحيّين:

"حافظوا على شرقيّتكم!
لا تسمحوا أن تُسلبَ إرادتُكم،
حريتُكم وإيمانُكم في هذا الشرق"؟

كل ذلك، يا سيدي، وكنائسك في الغرب صامتة صمت القبور!

وإن تكلم يوماً فيها أحدٌ من المسؤولين، كما يحدث أحياناً نادرة لمن يمثّلك في روما، فإنما هو يستخدم لغةً مزدوجة، لا تعرف، لا قليلاً ولا كثيراً، مدى ما كانت لغتك الرائعة تتّسم به من وضوح وجرأة وتحدٍّ ومحبّة كونيّة!

وأما كنائسي في الشرق العربي، فأرجوك يا سيدي، أن تعذرني، إن اعتصمت بدوري بالصمت، إزاء أفعال وأقوال معظم "مسؤوليها"!

وعلى كل حال، فأنت أدرى بنا جميعاً!

سيدي،

أرجوك، تعال! تعال قبل أن يقضي **"أولاد الأفاعي"... "أولاد الأفاعي"** الذين نصّبوا أنفسهم آلهةً في أرضك، على ما تبقّى فيها، ممّا شئتَ لها، منذ البدء، من رقيّ ونبل ورجاء وفرح وحبّ!

تعال، قبل أن يصلبوها، ويقتسموا رداءها الأبيض، مرةً أخيرةً وإلى الأبد...! »

3) رسالة إلى قداسة البابا فرانسيس الأول

« أبت صاحب القداسة،

إنّ دعوتَك الحارة لإقامة الصلاة في العالم كله، اليوم بالذات، 7 أيلول، من أجل السلام في سورية وفي الأرض كلّها، أحيت الآمال في كل مكان. فأنت أدرى الناس بحاجة عالمنا إلى الصلاة.

وإلى ذلك، أفلا تعتقد أن هذا العالم يحتاج أيضاً وخصوصاً إلى الحقيقة؟

لذلك، أرجو أن تسمح لي، بوصفي كاهناً كاثوليكياً من سورية، أن أبثّك بعض ما في قلبي.

صاحب القداسة،

ثمّة سؤال يستبدّ بي، وإني لأطرحه عليك:

تُرى، لو كان يسوع **مكانك بالذات**، أكان اكتفى بدعوة الناس إلى الصلاة؟

إنّ ما نرى ونسمع، ممّا نخشى أن يحدث من أهوال وكوارث ماحقة، في سورية ومجمل الشرق العربي، وربما في ما هو أبعد منهما، ألا تعتقد أنه كان يُلزِمك، فضلاً عن دعوتك العامة إلى الصلاة، بقول وبذل مزيد فائض من الحقيقة؟

صاحب القداسة،

أنت تعرف تمام المعرفة أنّ يسوع، في إنجيله، قد أدان بوضوح حتى ظل شهوة الشر، إن بالنظر أو بالفكر.

فهل لك أن تتصوّر كيف كان وَصَفَ اليوم، ما تجيز القوى الغربية لنفسها أن تفعله على نطاق العالم، ولكن خصوصاً على نطاق العالمين العربي والإسلامي، تحت ذرائع اتضح أنها كلّها كاذبة ومفبركة، وذلك باعتراف عدد من المسؤولين الغربيين أنفسهم، إن في العراق، أو في أفغانستان أو في ليبيا، واليوم في سورية وطني؟

إزاء هذه الحزمة المقزّزة من "إنجازات" الغرب، إن في الحروب أو المجازر أو الأكاذيب أوالمجاعات، أو أشكال النهب والتشريد، وكلّها "إنجازات" خطّطتها أيادٍ خبيرة، ونفّذتها بأعصاب باردة، في انتظام، وبعيداً عن أي عقاب، حيال شعوب برمّتها، تُرى هل كان يسوع أغلق عينيه وفمَه دونها، كما تفعل الكنيسة الغربية كلّها اليوم؟

كيف يجوز للكنيسة الجامعة، وهي تمثّل يسوع المسيح على الأرض، أن تصمت وتكتفي بدعوة الناس إلى الصلاة، إزاء مثل هذا الكمّ من التطاول المعلَن والمتكرّر دون هوادة، على **الحقيقة، والحق، والحريّة، والحياة**، بالنسبة إلى شعوب برمّتها؟

فالكنيسة، للأسف، الكنيسة الكاثوليكية الجامعة يلفّها الصمت، منذ رحيل البابا يوحنا بولس الثاني.

أجل، هذه الكنيسة، كنيسة المسيح يسوع، تصمت!

أوَلَيس من حقّي، أنا كاهن يسوع المسيح، أن أتساءل ما الذي يُسكتها؟

وإنها لكنيسةٌ جامعة وحاضرة في كلّ مكان، فهل تُراها تجهل ما حدث ويحدث في كل هذه البلدان؟

أتُراها تجهل ما يحدث في فلسطين منذ سبعين عاماً؟

أتُراها تجهل ما يحدث في العراق منذ ثلاثين عاماً؟

أتُراها تجهل ما يحدث في ليبيا منذ ثلاث سنوات؟

أتُراها لا تعلم شيئاً عن المائة ألف من المقاتلين "الجهاديّين"، الذين أُرسِلوا إلى سورية منذ سنتين – ومنهم أميركيّون وبريطانيّون وبلجيكيّون وشيشانيّون وفرنسيّون... – والذين جُنّدوا وسُلّحوا ودُرّبوا ومُوّلوا ووُجّهوا على يد دول غربية، وأجهزة مخابراتها، فضلاً عن دول الخليج "الديمقراطية" جداً، ولا سيما دولتي قطر والسعودية؟

صاحب القداسة،

لئن كان إله المال يستطيع أن يغفر هذا الكمّ من الجرائم، التي أفسدت الأرض ودمّرتها، فإنّ يسوع المسيح، كما أعلم، لا يمكنه أن يغفر...! هو الذي طَردَ من هيكل القدس، بعض الباعة البائسين، الذين كانوا متواجدين فيه!...

صاحب القداسة،

إنّ جهل أو تجاهل مثل هذا الكمّ من الجرائم ضد الإنسانية، يشكّل بالنسبة إلى كنيسة يسوع المسيح، **كارثة**.

إلا أن **كارثة الكوارث** تقوم على معرفة الكنيسة كل ذلك، دون أن تُقدِم، أمام الملأ، وفي جرأة، على إدانة هذه السياسة الغربية، المتعارضة كلّياً مع الإنجيل ومع كل ما هو إنساني.

من جهتي، بوصفي كاهناً كاثوليكياً من سورية، لا يسعني أن أتجاهل حقيقةً بالغة الأسى، وهي أنّ كنيسة الغرب كلّها، تجدّد اليوم، ومنذ عقود، بصمتها هذا الجبان، المتصلّب وعلى نحو غير مفهوم، ارتكاب **الخطايا الخطيرة** إيّاها، من تواطؤ وتحالف ولامبالاة، التي ارتكبتها في جبن، طوال القرون الماضية.

وفي الواقع، هل من يجهل أنّ البابا يوحنا بولس الثاني، قد انتهى به الأمر إلى طلب الغفران باسم الكنيسة الكاثوليكية الغربية، خلال رحلاته الكثيرة عبرالعالم؟

وهل من يجهل أنّ البابا نفسه قد شجّع أيضاً صديقه الصحفي الإيطالي "لويجي أكاتوللي"، على وضع ونشر كتاب مرعب، عام 1997، بعنوان "عندما يطلب البابا الغفران"، الذي يروي فيه قصة نضال البابا يوحنا بولس الثاني، داخل الكنيسة الكاثوليكية، كي يحملها على فحص ضميرها، وقد جمع فيه أهم ما أقدم عليه من تصريحات رسمية، طلب فيها الغفران علناً، وقد بلغت أربعة وتسعين تصريحاً؟

صاحب القداسة،

هل يتوجّب توقّع غرق جميع هذه الشعوب، مرّةً وإلى الأبد، في "الفوضى الخلاقة" – وهي أميركية بامتياز! – أي في حروب لا تنتهي، وفي الإرهاب، والجوع، واليأس، والتشرد، والموت، كي يطلّ يومٌ بعيد، يطلَع فيه على العالم بابا جديد، ليقول باسم هذه الكنيسة الغربية الصامتة بعينها: "سامحونا"؟!

صاحب القداسة،

أعرف جيّداً أنّ لغتي هذه ستصدمك. وأرجو أن تُدرك أيضاً أنّ لجوئي إلى هذه الكتابة يسبّب لي ألماً كبيراً.

والحقيقة أنه ليس لي، أنا اليوم، أن أقول لك، ما لم أكفّ عن قوله منذ أكثر من أربعين عاماً، لمسؤولي الكنيسة الغربية. وإنما هو يعود ليسوع المسيح، إذ يُقرأ الإنجيل كلّ يوم، في الذبيحة الإلهية، يسوع هذا الذي لا مثيل له، والذي يُفترض فيه أن يملأ قلوبكم وعقولكم وضمائركم.

إلا أنّ الصمت المؤسف الذي واجهته في جميع لقاءاتي ومراسلاتي مع هؤلاء المسؤولين، قادني إلى الاعتقاد بأنّ كنيسة الغرب قد أُفرِغت من جوهرها، فباتت تترك الانطباع بأنّها في حكم الميتة!

ومع ذلك، فلكم أريد لها، أنا كاهن يسوع المسيح، أن تكون واقفةً، أجل واقفة، ولكن مع جميع الفقراء، ومع جميع الضعفاء، ومع جميع المسحوقين في الأرض، بدءاً من أولئك المتبقّين في فلسطين!

صاحب القداسة،

إنّ هذا الشرق العربي والمسلم، الذي أنا منه وأحبّه، يتوقّع مع كنيسته كلّها، منك شخصياً، في هذه اللحظات الحرجة والحاسمة، مع الصلاة، الضرورية ضرورةً كلّية، شجاعةً تحملك على التنديد رسمياً بسياسة هذا الغرب الذي يتمادى في جنونه وضياعه وغطرسته!

تُرى، هل فات الأوان من أجل بناء عالم جديد، جدير بالله وبالإنسان معاً؟

أبت، صاحب القداسة،

تقبّل رجائي واحترامي البنويّين. »

4) رسالة إلى السيّد جون كيري وزير خارجية الولايات المتحدة الأميركية

« السيّد جون كيري،

من دمشق، دعني أقول لك، أنا الكاهن ابن الحادية والثمانين، أنك بلغت بالأمس مساء 2013/8/30، فيما كنت تخاطب الدنيا بشأن سورية، منتهى الصغارة والنفاق.

ثمّة أمر واحد، أجل أمر واحد في منتهى الكِبر، ذكّرتني به، دون علم منك، طوال خطابك هذا الأجوف، وهو قول للسيد المسيح، ابن فلسطين، خصّ به المسؤولين اليهود آنذاك، قبل صلبه بأيام. قال:

"الويل لكم أيها الكتبة والفريسيّون المراؤون:
أنتم أشبه بالقبور المكلّسة، يبدو ظاهرها جميلاً،
وأما باطنها فممتلئ من عظام الموتى وكل نجاسة..." (متى 27/23)

أجل، هذا هو الأمر الوحيد الكبير، الذي تذكرته خلال خطابك: إدانة السيّد المسيح "للقبور المكلسة"، التي حاكمته بالأمس، والتي تحاكم سورية اليوم، بعد أن فرضت نتانتها في الأرض كلّها، منذ أن أنشأت جبروتها في القارة الأميركية، فوق عظام عشرات الملايين من أبنائها الأصليين!

السيّد جون كيري،
أنت تتكلم من علُ... وكما فعل أسلافك القتلة، تقرر مصائر شعوب برمتها، كما لو كان مشاهدوك وسامعوك، جهلةً وسذّجاً، ليس لهم إلا أن ينحنوا أمام "الحقائق الأميركية"!...

دعني أذكّرك وأذكّر كل من سيتسنّى لكلامي اليوم أن يطالهم، حقيقة ما جرى ويجري ويراد له أن يجري في سورية، من خلال ما كتب أحد أبرز مفكريكم، وهو نعوم تشومسكي، في كتاب له، صدر عام 2007، في كندا، تحت عنوان "القوة الخطرة". وفيه يجري الصحفي الإسرائيلي "ستيفن شالوم"، حواراً مطولاً وصريحاً، مع كل من المفكر اليهودي الأميركي "نعوم تشومسكي"، والمفكر الفرنسي، اللبناني الأصل، "جلبير أشقر". والحوار كله يدور حول الصراع العربي الإسرائيلي، وموقف الغرب، لا سيما الولايات المتحدة منه. وقد جاء في الصفحتين (184–185) من ترجمته الفرنسية، ما حرفيته:

« **شالوم**: ثمّة كلام عن احتمال قيام عمل عسكري من قبل الولايات المتحدة، ضد بلدين آخرين في الشرق الأدنى، هما سورية وإيران. كيف لك أن تقيِّم سياسة الولايات المتحدة حيال سورية؟

تشومسكي: سياسة الولايات المتحدة حيال سورية، كانت دائماً انتهازية جداً... في عام 1990، كان جورج بوش الأب يؤيد كل التأييد بقاء سورية في لبنان، لأنه كان يريد لها أن تنضم إلى التحالف المعادي للعراق... إلا أن واشنطن عادت عبر السنوات، إلى موقف مختلف، لأن سورية لا تخضع لأوامر واشنطن... ففي معظم البلدان، ينحني المسؤولون أمام الولايات المتحدة بكل بساطة. أما سورية، فلا. ولكي نرى مدى جدية انتقاد الولايات المتحدة لسورية، بشأن خروقها لحقوق

الإنسان، حسبنا أن نلقي نظرة على تاريخ الأحداث. وفي الواقع، هناك قائمة بدول داعمة للإرهاب، أي دول هي، في حقيقة الأمر، لا تُرضي الولايات المتحدة، لسبب تافه. من ذلك، أن كلينتون عرض على سورية، عام 1994، أن يشطب اسمها من هذه القائمة، إن هي قبلت بالاقتراحات "الأميركية – الإسرائيلية" (كذا!) بشأن هضبة الجولان، التي كانت إسرائيل قد احتلتها أثناء حرب عام 1967. ولما كانت سورية تريد استرداد أرضها، رفضت هذه المقايضة، فبقيت إذن في قائمة الدول الداعمة للإرهاب. ولا يحتاج الأمر إلى المزيد من الكلام بشأن هذا الموضوع.

وفي عام 2004، توفرت فرصة للتخلص من سورية. فاتفق المسؤولون في الولايات المتحدة مع فرنسا، وفرضوا على الأمم المتحدة قراراً يقضي بإرغام القوات السورية على مغادرة لبنان. واليوم تمارس الولايات المتحدة ضغوطاً قوية للإطاحة بالنظام السوري، ولكن لا للأسباب التي تدّعيها الولايات المتحدة. إن دافعها الحقيقي هو الدافع عينه الذي استخدمته في قصف صربيا: لأنها غير مطيعة!...

إن الأسباب التي تدفع الولايات المتحدة إلى معارضة سورية، ليست نبيلة البتة. ويسعنا أن نقول الأمر نفسه عن فرنسا، بقدر ما يتاح لي أن أعرب عن رأيي. إن ما دفع الولايات المتحدة بإصرار لإخراج سورية من لبنان، يعود إلى أن سورية رفضت الانضمام إلى الحرب الثانية التي شُنّت على العراق عام 2004، بل تبنّت، بالمقابل، موقفاً معادياً... ولذلك قررت الولايات المتحدة معاقبة النظام السوري. » (انتهى)

وهل من يجهل اليوم أن كل ذلك، وغيره الكثير والمروّع، مما جرى ويجري من أجل تدمير العالمين العربي والإسلامي، إنما هو من أجل ضمان أمن إسرائيل وبقائها، بعد أن باتت الولايات المتحدة... مستعمرة صهيونية؟...

السيّد كيري،

صحيح أنك اليوم وزير خارجية الولايات المتحدة. ولكنك اليوم وغداً، إنسان قبل أي شيء آخر. فدعني أذكرك للحظة واحدة، أنك في يوم قريب، ستمثل أمام الله، شئت أم أبيت...

كنت أتمنى ألا أكون أنا الكاهن العربي، من يذكّرك بهذه الحقيقة الوحيدة والحاسمة، بل أحد المسؤولين "الكبار" والكثيرين... في كنائس الولايات المتحدة... ولكن يبدو أنهم كلهم دون استثناء، قد قرروا أن يكونوا، وهم أحياء، "قبوراً مكلّسة"!...

أسفي على السيّد المسيح، لما آلت إليه كنائسه في الغرب! »

بعد كل ذلك، هل من أصداء؟

إنها لكثيرة وغالية. إلا أني اليوم، أودّ أن أختار منها واحداً فقط، جاءني منذ أيام قليلة، عبر "الفيسبوك"، من إنسان ما كنت لأعرفه، فبات لي حقّاً، أخاً وصديقاً، إذ قد قرأت كلماته المفعمة صدقاً. إنه "همام ناصر الدين حدّة". وإني لأسمح لنفسي بأن أنقل جوابه هذا، بحرفيته، تاركاً لقرائي أن يحسدوني بحقّ، على نعمة الصداقات الرائعة، القديمة والحديثة، التي شاء الله، في محبّته ورحمته، أن يغمر بها حياتي كلّها...

قال "همام ناصر الدين حدّة"، في 2013/9/12:

« حضرة الأب الياس زحلاوي المحترم!

اسمح لي أولاً أن أقبّل جبينك العالي الذي يشعّ علينا حباً وإيماناً... تارةً من قاسيون علياء الوطن... وتارةً أخرى من ملكوت السماء! فطيفك لا يكاد يفارقني منذ نلت شرف "صداقتك" على الفيسبوك وأصبحت أتابع بلهف شديد ما يخطّه يراعُك - وأدمنت ذلك - سواء التغريدات أو المقالات المفعمة بحب الوطن والإنسان.

إنّ أكثر ما أثّر بي، ودفعني إلى الكتابة إليك، رسالتك إلى جون كيري ولقاؤك على شاشة الميادين... كذلك رسالتك إلى قداسة البابا... وإلى السيّد المسيح عليه السلام... فعندما اطّلعت على كل ذلك، شدّتني الذاكرة إلى سني الطفولة!! مع أن لا رابط مباشراً يبرّر ذلك. وباتت الصور والانطباعات القديمة تنتعش في الذاكرة!!؟؟ عجبي!

لقد تذكّرت زملائي التلاميذ من طائفتكم الكريمة... حين كنا أطفالاً ندرس في مدرسة أسقفية يبرود ونلعب في ساحة الكنيسة أو في الفسحة أمام "سيدة النجاة"... معلماتي ومعلمي والراهبات و"الفرقة الكشفية"... الذين زرعوا فينا ما زرعوا... من بذور المحبة والإنسانية... فكبرنا معاً، وأصبحنا وما زلنا أصدقاء بل قل إخوة... في الإنسانية والوطن... تجمعنا وتلفّنا أمنا سوريا، طائر الفينيق، ومهبط الرسالات... بلد المحبة والسلام!! نعم فكلماتك نبشت من الذاكرة كل ما هو صافٍ ومضيء في مسيرة حياتي... ليس فقط وحسب بل نبّهتني إلى أمور كثيرة أهمها:

الأول: أن ما كنت أعتبره بدهياً وعادياً في حياتنا من عيش مشترك ومحبة وتفاعل إيجابي بين أبناء سوريا... كل أبناء سوريا... بكل ألوان طيفها... هو حالة فريدة استثنائية وميزة خاصة يتمتّع بها هذا الشعب الرائع العظيم... دون غيره من الأمم الأخرى... وهو كنز غالٍ كنّا قابعين فوقه دون أن ندرك قيمة أغلب جوانبه لولا المحنة التي تمر علينا.

الأمر الثاني: ازدياد إصراري على تنشئة أولادي على ما نشأتُ عليه من محبة الآخر والتآخي معه في الإنسانية والوطن لأن في ذلك الحصن الحصين للجميع... تاريخاً وتراثاً وثقافة... ديناً وطوائف ومذاهب... وطناً وإنساناً...

الأمر الأخير (وليس الآخر)... لولا تقصير حصل في بعض المناطق والبيئات ومناهج التعليم والتربية والثقافة... لكانت سورية اجتازت محنتها بخسائر أقل وزمن أقصر، وكنا وفّرنا الكثير... وهذا يجعلني أعتقد جازماً بضرورة نشر وترويج مثل فكرك وفلسفتك ونظرتك للحياة وللإنسان والوطن!!

وأختم بالقول: أيها الرائع! أمدّ الله في عمرك، أنت فخر لنا جميعاً... أيها الأب المسيحي المسلم! سوريا تكبر بأمثالك... أيها الأب السوري!

طوبى لك.
بكل المحبة والاحترام. »

الفصل الثاني والعشرون

ماذا عن الصوفانية؟

هل يسعني أن أطوي هذه المذكّرات، وقد شارفت على الانتهاء، دون أن أقول ما أودّ قوله بشأن الصوفانية؟

إلا أنّ ما أودّ قوله، لا يمسّني شخصيّاً، وإن كانت الصوفانية قد استحوذت عليّ، على نحو بات يصعب على أي مراقب نزيه، أن يفصلني عنها، أو يفصلها عني. وإني، إذ أقول هذا، أسارع إلى الاعتراف، الصادق والصريح، بأني آخر مَن كان يستحقّ هذه النعمة، اللهمّ إذا كان هناك مَن يستحقّها! وعلى كل حال، فالربّ هو، أوّلاً وأخيراً، من يقرّر ويختار، وهو وحدَه يهب مَن وقع الاختيار عليه، ما يحتاج إليه من قدرة، قد تؤهّله لأن يتفاعل معها، ضمن الحدود الدنيا المرجوة، من الأمانة والتضحية، دون أن تقيه البتّة السقوط المحتوم على كلّ إنسان!

وقد رأيت لزاماً عليّ، أنا بالذات، أن أتناول هذا الحدث الفريد، في هذا الفصل، في كلّيّته، أي من حيث كونه حدثاً ذا وجوه وأبعاد متعدّدة، تندرج كلّها في رسالة واحدة شاملة، دينية وإنسانية معاً.

إنّ ما حدث في الصوفانية، يستند إلى حقيقة، أجرؤ وأسمّيها علميّة، أجل علميّة، وهي تقتضينا الاعتراف بأنّ الربّ يسوع اختار سورية مرة أخرى، واختار دمشق فيها، كما اختارها منذ ألفي عام، عندما صَعَق عند أبوابها، السّلَفي اليهودي شاول. واختار في دمشق، حيّاً متواضعاً من أحيائها الكثيرة، هو حي الصوفانية. واختار في هذا الحي، بيتاً مغموراً، واختار في هذا البيت، من العائلات الثلاث، المتواجدة فيه من آل نظور، عائلة ناشئة، لم يكن قد مضى على زواج العروسين فيها، نقولا وميرنا، أكثر من ستّة أشهر... وقد شاء لغرفة هذين العروسين، أن ينسكب فيها زيت معطّر وغزير، بدءاً من يوم السبت 1982/11/27، من صورة صغيرة جداً للسيّدة العذراء، لا تتجاوز حجم الكف، فأطلقنا عليها اسم هذا الحي، فسُمّيت "سيدة الصوفانية"، فيما اتّضح لنا عام 1989، أنّ اسمها الحقيقي هو "سيدة قازان"، وأنها هي شفيعة روسيا الشاسعة الواسعة! ويومها، كانت ميرنا في الثامنة عشرة من عمرها بعد!

ما حدث بعد ذلك بات معروفاً. ولكني سأوجزه بكلمات قليلة لمن قد يجهله، وتمهيداً لما أريد أن أصل إليه.

قوبل انسكاب الزيت هذا، بصلاة تلقائية، افتتحها أسقف أرثوذكسي، هو المطران بولس بندلي، إذ كان برفقة كاهنين أرثوذكسيّين. وقد ملأت الصلاة البيت، للتو، أسابيع طويلة، في النهار والليل، بجماهير خاشعة، ضمّت مسيحيين من مختلف الكنائس، ومسلمين، جنباً إلى جنب. وبدءاً من ليلة الخامس عشر من كانون الأول عام 1982، حتى الرابع والعشرين من شهر آذار عام 1983، ترافقت هذه الصلاة بخمسة ظهورات للسيدة العذراء على سطح البيت، خصّت بها مختارتها ميرنا. وقد أدلت خلالها بأربع رسائل، بلّغتها إياها بلغة عربية، تارةً فصحى، وطوراً عاميّة، دعت فيها "الأم القدّيسة"، إلى ذكر الله، وإلى التوبة والصلاة، والمحبّة والمسامحة، ووحدة الكنيسة. ثم كان، بدءاً من أواخر شهر تشرين الأول عام 1983، أن دخلت ميرنا في طورين جديدين ومفاجئين: كان أوّلهما طور ما يسمّى في لغة التصوف، الانخطافات الروحية، التي ينتقل فيها الإنسان إلى دنيا الله، وقد رأت ميرنا النور ساطعاً، وشاهدت فيه العذراء، وهي تبلّغها رسائل جديدة، كما وأنها تشاهد أحياناً السيّد المسيح، في هيئة نورانيّة فائقة، وهو يبلّغها رسائل أخرى، بلغة عربية فصحى. وأما الطور الثاني، فكان ظهور جراح على جسد ميرنا، ستّ مرات، في كلّ من يديها وقدميها وخاصرتها، وأحياناً في جبينها، وذلك تذكيراً بجراح السيّد المسيح. وقد كانت أولاها يوم الجمعة 1983/11/25، فيما كانت الخمسة الأخرى جميعاً، في أسبوع الآلام من الأعوام التي كان جميع المسيحيّين، من كاثوليك وأرثوذكس وبروتستانت، يحتفلون فيها بعيد الفصح، في تاريخ واحد، أي في الأعوام: 1984، 1987، 1990، 2001، 2004. وإبان انفتاح الجراح، حضر أطبّاء من دمشق أوّلاً، ثمّ من مختلف بلدان العالم، مثل فرنسا وبلجيكا والولايات المتحدة، وألمانيا ولبنان، والبلدان الاسكندنافيّة.

هذا الحدث، بمجمل وجوهه، كان خارقاً على كلّ صعيد. فقد كان الأوّل من نوعه في الشرق العربي، منذ ألفي عام على انطلاقة المسيحية. وكانت هي المرة الأولى التي تتجمّع فيها في مكان واحد وعبر شخص واحد، آيات ربّانيّة، من انسكاب زيت، وصلاة تلقائية دائمة، وأشفية ثابتة، وظهورات للسيدة العذراء، وانخطافات، وظهور لجراح تماثل جراح السيّد المسيح. كما كانت هي المرة الأولى التي يتزامن فيها، طوال اثنين وعشرين عاماً، ظهور السيّدة العذراء، مع السيّد المسيح، وهما يتكلّمان اللغة العربية، الفصحى والمحكية على السواء. وكان خارقاً أيضاً ما قوبل به تدفّق الزيت من الصورة

الصغيرة، من تدفّق للصلاة ليلاً ونهاراً، من مسيحيين ومسلمين، جنباً إلى جنب. كما كان خارقاً ومثيراً أيضاً، حدوث أشفية ثابتة ودائمة، أتى في طليعتها شفاء سيّدة مسلمة تُدعى رقيّة كلتا، ثم ترافق بأشفية أخرى - لمسيحيين - ولمسلمين، أذكر منهم، بحسب التسلسل الزمني، خلال الفترة الأولى، كلاً من محمد القهوجي، وفادي باهم، وصفاء أبو فارس.

وإنه ليسعني، بعد مضي أكثر من ثلاثين عاماً على هذا الحدث الاستثنائي، ومرافقتي له منذ اليوم الثاني لانطلاقته، ومن ثم لانتشاره المدهش على امتداد العالم، أن أقول، دون أية مبالغة، إنه استحوذ على اهتمام جادّ، نظري وعملي معاً، من معظم الكنائس في الشرق والغرب. كما أنه أثار نصيباً عالياً من الفضول العلمي، والدراسات، والتحقيقات المختلفة، أهمّها لاهوتية، وطبية، ونفسية، وإعلامية، في بلدان كثيرة، مثل سورية ولبنان ومصر وفلسطين والأردن، وفرنسا وألمانيا وإيطاليا والنمسا وبولندا، والسويد والدانمارك والنروج، وروسيا، والولايات المتحدة، وكندا وأستراليا...

وقد يسعني أن أقيّم معظم هذه الدراسات والتحقيقات، إذ أخذت على نفسي، منذ اللحظة الأولى، أن أجمعها وأنظّمها وأبوّبها. وقد اطّلعت عليها كلّها، كما وُفِّقت إلى "أرشفتها"، بفضل أصدقاء رائعين أتاني بهم الرب من كندا وسورية! كما أني رافقت ظهور بعض هذه الوثائق، في أوقاتها وأمكنتها المختلفة، بل وحرّضت على صياغة بعضها، حرصاً مني على إحاطة هذه الوقائع، بأكبر قدر من الشهود الثقة. وإني، إذ أقيّمها، أجدني مضطرّاً للإعلان الصريح، بأنها كلّها تقريباً لا تخرج عمّا هو مألوف في مثل هذه الأحداث، وأعني بذلك الاعتراف الحصري بوقائعها، والإقرار الثابت بصحتها، وتشخيصها بدقّة وأمانة، والتثبّت من سلامة "بطلتها" - ميرنا - من النواحي النفسية والصحية والأخلاقيّة، وخصوصاً تطابق "الرسائل" مع الإنجيل وتعليم الكنيسة الرسمي، وأخيراً طبيعة "ثمارها" الطيبة، عملاً بقول الرب يسوع: "من ثمارِهم تعرفونَهم"!

بالطبع، يصعب على أي إنسان، أن يتابع أو يطالع جميع ما كُتب بهذا الشأن. إلا أني أرى أن ذكرَ بعضٍ من هذه الأسماء الكثيرة، سوف يرسّخ اليقين بجدّية الأبحاث التي قاموا بها، والاستنتاجات التي انتهوا إليها. وإني أقول ذلك، لأنّ الحقيقة تقتضيني الإعلان عن وجود مئات من هذه الأسماء، وقد أدرجتها مع تقاريرها الشخصية، في ما بات وثيقة الصوفانية، المعروفة بكتاب "الصوفانية بعد خمسة وعشرين عاماً"، الذي صدر في دمشق، عام 2008، عن "دار المجد للطباعة والنشر والخدمات المطبعية"، والذي يحمل ترخيصاً من وزارة الإعلام السورية، رقم /99916/ تاريخ 2008/8/14، وهو في ثلاثة أجزاء.

حسبي إذن، أن أذكر، من فرنسا، اللاهوتي المعروف، الأب "رينيه لورنتان" (René LAURENTIN)، واللاهوتي الأب "جيرار لافون" (Gérard LAFOND)، واللاهوتي الأب "ريمون هالتر" (Raymond HALTER)، واللاهوتي الأب "بول ترنان" (Paul TERNANT)، وطبيب الأمراض العصبية، "فيليب لوران" (Philippe LORON)، والعالمة "آن دامبريكور - مالاسيه" (Anne DAMBRICOURT-MALASSÉ)، ومن إيطاليا، ثلاثة لاهوتيّين، هم المطران "بيير دوبريه" (Pierre DUPREY)، والأب "جورج غريب" (Georges GHARIB)، والأب "نيقولا بوكس" (Nicolas BUX)، ومن ألمانيا اللاهوتيان الأبوان "عادل تيودور خوري" و"هربرت فوركريملر" (Herbert VORGRIMLER)، والدكتور الجراح "رياض حنا"، ومن النمسا اللاهوتي والمحلّل النفسي الأب "أندرياس ريش" (Andreas RESH)، ومن بلجيكا اللاهوتي الأب "باتريك بالان" (Patrick BALLAND)، والمحلل النفسي "أندريه باتساليدس" (André PATSALIDSES)، والدكتور "غي كلايس" (Guy KLAES)، ومن الدانمارك اللاهوتي "نيلس كريستيان هفيدت" (Niels Christian HVIDT) والفريق الطبي الذي كان يترأسه جرّاح القلب السويدي، "كنوت كفرنيبو" (Knut Kvernebo)، ومن الولايات المتحدة اللاهوتي الأب "رابرت فوكس" (Robert FOX)، والطبيب الجراح أنطوان منصور، ومن كندا، اللاهوتي "ريمون بوغران شامباني" (Raymond Beaugrand-CHAMPAGNE)، والطبيب النفسي "بيير أساليان" (Pierre ASSALIAN)، والإعلامي التلفزيوني "أندريه روستفوروفسكي" (André ROSTWOROVSKI)، والمهندس الإلكتروني "غبرييل بربريان" (Gabriel BERBERIAN).

جميع هؤلاء، وكثيرون سواهم، كما قلت، من لاهوتيّين وأطباء ومثقّفين وإعلاميّين، كان دافعهم الصريح والواضح، في كلّ ما فعلوا وقالوا وكتبوا، أن يشهدوا للحقيقة. وهذه الحقيقة إيّاها تقتضيني الاعتراف بأنّ بعضهم جاء إلى الصوفانية، بدافع الكشف عمّا كان يظنه زيفها، للعمل على تفكيكها ووضع حدٍّ لها. وقد أُتيح لي، بالطبع، أن أرافق، عن كثب، مساعي العديد منهم، على اختلاف مراحلها وتقلبّاتها. إلا أنّ هاجسهم الأول والأخير، كان، كما بدا لي، ألا يخطئوا التشخيص، ومن ثمّ التقويم والحكم، في ما كان يُنتظَر منهم. وكانوا محقّين في كلّ ذلك، وإلاّ فقدوا رصيدهم الغالي من مصداقيّة ومرجعيّة، الذي كانوا قد قضوا سنوات طويلة وشاقّة، في تأسيسه وبنائه، وحمل الناس على الاعتراف به. ومن المعروف أنّ جميع هؤلاء لم يأتوا إلى الصوفانية دفعةً واحدة. إلا أنهم كلّهم اتّخذوا في نهاية المطاف، موقفاً

موحّداً، وإن إيجابيّاً، إلا أنه لم يتجاوز حدود الاعتراف بصحّة حدث الصوفانية، في وجوهه المختلفة، من انسكاب زيت، وصلاة دائمة، ومجانيّة مطلقة، وأشفية، وظهورات، وانخطافات، وجراح، وأخيراً من حيث انسجام رسائل السيّدة العذراء والسيد المسيح، مع الإنجيل وتعليم الكنيسة.

بالطبع، كان من الممكن أن تبقى الأمور المتعلّقة بهذا الحدث، تراوح مكانها، ضمن هذه الحدود الرسمية، سنوات طويلة، لا سيما وأنها تحدث في إطار كنسي معقّد ومزمن، وفي مجتمع عربي، تهزّه أحداث وتوترات، داخلية وخارجية، خفيّة وعلنيّة، تمضي أبداً في تفاقم، وهي لا تُعدّ ولا تحصى... وقد وُجِد في مصر، ثمّ في سورية، من "المثقّفين"، من قال إنّ هذه "الخوارق" المزعومة، ليست سوى نتاج خيال مَرَضي، تفرزه مثل هذه الظروف السياسية والاجتماعية الصعبة!

إلا أنّ مَن شاء لهذا الحدث بالذات، أن يحدث في دمشق، وفي ذاك التوقيت، وبتلك الطريقة، شاء أيضاً أن يُرسل له مَن تجرّأوا وأخرجوه من هذه المسارات الرسميّة والضيّقة، ليشقّوا له مسارات أخرى، أبعد مدى، وأعمق غوراً، فأغنته واغتنت به على نحو مذهل. وكان هؤلاء قلةٍ، لا يتجاوز عددهم ثمانية أشخاص، سبعة منهم من الشرق العربي، وكان بعضهم قد هاجر، فيما الآخرون ظلّوا راسخين في أرضهم وكنائسهم. وقد قادني أصلهم المشرقي هذا، مراراً، إلى طرح سؤالٍ يبدو لي في غاية الأهميّة: ترى، هل شرقيّتهم هي التي دفعتهم إلى ابتداع هذه المسارات الجديدة، التي فتحت لهذا الحدث الدمشقي، أحلى الآفاق وأوسعها؟ وإني لأترك لقارئي الآن، أن يكتشف الأجوبة المتعدّدة على هذا السؤال، عساه يتبيّن من خلالها جميعاً، صاحبها الحقيقي.

1 - المطران "نيقولا روتونو" (Nicola ROTUNNO):

هو وحدَه كان من خارج الشرق. وكان آنذاك السفير البابوي بدمشق. وكان بالتالي، يُفترَض فيه أن يظلّ على الحياد، لا سيما وأنّ "الفاتيكان" معروف بتباطؤه الثقيل والمنتظم، في تعامله مع أحداث تماثل حدث الصوفانية... إلاّ أني فوجئت، ذات يوم، بكلمة تصلني منه بالذات، باللغة الفرنسية، ولا تحمل توقيعاً، يسلّمني إياها رئيس الآباء اللعازريين بدمشق آنذاك، الأب "بيير فرح". كان ذلك يوم 17 تموز من عام 1984. وكان السفير البابوي يطالبني فيها بتقرير مفصّل عمّا حدث ويحدث في الصوفانية، ويحدّد لي موعد تسليمه إيّاه، في السفارة البابوية، صباح 21 تموز عام 1984، يداً بيد. وقد فعلت ما طُلب مني. وإذ بالسفير إياه يسألني من جديد، وبعد فترة لا بأس بها، أن أرتّب له لقاء مع "ميرنا"، في سرّية تامّة. وعُقد اللقاء في بيت راهبات يسوع

الصغيرات، بحي باب توما، بحضور صديقة لميرنا، تدعى سلوى نعسان، وهي تتقن اللغة الفرنسية، وبحضور راهبة إيطاليّة تُدعى "بيا" (Pia)، وهي تعرف العربية. وكان ذلك يوم 1984/11/4. وبعد فترة من حوار، رغبوا في الصلاة، فقدّمت الأخت "بيا" لميرنا، صورة عادية للسيّدة العذراء. وما إن بدأت الصلاة، حتى غمر الزيت هذه الصورة، فيما ظلّت يدا ميرنا جافّتين! فحملها السفير البابوي، وخرج وهو يردّد باللغة الفرنسية: "هذه إشارة من السماء!" (C'est un signe du Ciel!). ثم كان أن تابع السفير البابوي تواصله مع "الصوفانية"، في أقصى قدرٍ من التكتّم. فكان يستدعي ميرنا وزوجها نقولا إلى السفارة، كما كان يستدعيني مع الأب يوسف معلولي، للتحقّق ممّا آلت إليه الأمور. وعندما قبل الأب اللاهوتي "رينيه لورنتان"، دعوتنا لزيارة دمشق، في الذكرى السنوية الخامسة، رأينا من واجبنا أن نحيطه علماً بهذه الزيارة، فرحّب بها، ولكنّه رغب إلينا أن نجمعه بالأب لورنتان، فور وصوله إلى دمشق. وهكذا كان، إذ وصل مساء 1987/11/25، فمررنا بالصوفانية، في زيارة أولى سريعة للأيقونة العجائبية، ثم اصطحبنا معنا الأب معلولي، وانطلقنا جميعاً إلى السفارة. وكان السفير قد استدعى بعضاً من أعضاء السفارة الإيطاليّة بدمشق. وفي السفارة البابوية، دخلنا جميعاً الكنيسة وصلّينا، ثم وقف الجميع في البهو يتبادلون التحيّات، عندما انسكب الزيت فجأة من يدي ميرنا، فتجمّد الجميع، وقَدِمت راهبات السفارة ومَسحنَ يدي ميرنا بمنديل... وكانت تلك أولى الإشارات الكثيرة، التي قُيّض للأب "لورنتان"، أن يراها خلال زيارته السريعة تلك، وقد اختتمها ظهر السابع والعشرين من الشهر نفسه.

أما السفير البابوي، فقد طلب منّا، بعد ذلك بأيام قليلة، سبع نسخ من ملف الصوفانية الكامل، ليرسلها إلى المراجع المختصة في الفاتيكان. وكان هذا الملفّ يشمل يومذاك، كلّ ما كان يدوّنه الأب معلولي منذ سنوات، يوماً بعد يوم، بمنتهى الدقة والأمانة، ومجموعة من أشرطة الفيديو، التي صُوِّرت فيها أحداث الصوفانية، بقصد التوثيق ليس إلاّ، كما كان يشمل يومياتي الشخصية. وقد أعددنا له المجموعات السبع، وحملناها إلى السفارة. وقد علمنا في وقت لاحق، أنّ إحدى هذه المجموعات سُلِّمت ليد من قُيّض له أن يصبح ذات يوم البابا بيندكتوس السادس عشر، وكان يومها المسؤول الأعلى في الفاتيكان عن شؤون الإيمان...

ولا يخفى على مَن تابع مجريات الأحداث، في ما بعد، ما كان للسفيرين البابويّين التاليين، من اهتمام كبير ودائم بحدث الصوفانية. وقد تجلّى ذلك في زياراتهما إلى

"بيت العذراء"، على نحو مفاجئ، من أجل الصلاة فيه، بل أحياناً من أجل إقامة القدّاس فيه، وسط حضور شعبي كثيف. وهنا يطيب لي أن أذكر أنّ أحدهما، وهو المطران "لويجي أكولي" (Luigi ACCOGLI)، قد قدّم بيده صورة مكبّرة لسيّدة الصوفانيّة، إلى البابا "يوحنا بولس الثاني". والمعروف عنه أنه سعى إلى إنشاء مركز باسم سيدة الصوفانية، في روما، وقد دشّن هذا المركز بالفعل، في 15-10-1999، بحضور عدد كبير من المسؤولين في الفاتيكان، ومراسلي الصحافة والتلفزيون. وكانت ميرنا حاضرة، وقد رشح الزيت من يديها أثناء الصلاة، وشاهده جميع الحاضرين... وأمّا هذا المركز، فإنّه يحمل اسم "مركز الأب "بيو" (Pio) - سيّدة الصوفانية، من أجل الحوار الديني"!...

2 - الدكتور الجراح أنطوان منصور:

هو طبيب جراح من أصل مصري، يعيش في لوس أنجيليس في الولايات المتحدة الأميركية. وكان صديقُه، المطربُ طوني حنّا، كثيراً ما يحدّثه عن الصوفانية، فيسخر منه... وفي أواخر شهر حزيران عام 1986، إذ كنت في منزل طوني حنّا في مدينة ديترويت، أتحدّث عن الصوفانية إلى عدد كبير من أصدقاء طوني حنّا، وعلى رأسهم المنسينيور جوزيف فغالي الماروني، اتصل بي الدكتور منصور، ليسألني زيارته في لوس أنجيليس، لأحدّثه عن الصوفانية، فاعتذرت. ووعدته بإرسال ملفّ خاصّ له حولها. وقد أرسلته له بالفعل في اليوم التالي، بالبريد السريع. وإذ به يأتي مع زوجته وطفلتيهما، في منتصف شهر تمّوز إلى دمشق. وقضوا فيها أربعة أيّام فقط، أمضاها كلّها في تحرّياتٍ دقيقة حول حدث الصوفانية، دون أن يكون تسنّى له أن يشاهد أي شيء خارق، خلال تلك الفترة. وفي اليوم الرابع، مساءً، ركع مع أسرته أمام الأيقونة العجائبية، وكان طوني حنا راكعاً بجواره، فالتفت وقال له، وهو يبكي: "طوني، بعد اليوم، لن تكون أنت من سيتكلّم عن سيدة الصوفانية في أميركا، بل أنا"...

وفي منتصف شهر تموز من عام 1987، عاد مع أسرته إلى دمشق، وكان طوني حنّا برفقتهم. ثم مضوا جميعاً، ومعهم ميرنا ونقولا وطفلتهما ميريم، إلى لبنان، إلى بلدة معاد، وهي بلدة طوني حنّا. وكانت أخبارهم المفرحة تردنا يوماً بعد يوم، هاتفيّاً. وكان أن عادوا إلى دمشق، مساء الأول من شهر آب. فما إن رآني الدكتور أنطوان في "بيت العذراء"، حتى قال لي بالحرف الواحد: "أبونا، أنا خَوِتت! هلّلي انتو شفتو بخمس سنوات، أنا شفتو بأسبوعين!". وفي صباح اليوم التالي، جاؤوا مودّعين "بيت العذراء"، فسلّمَنا تقريراً مقتضباً عمّا جرى في "معاد"، وسافروا عائدين إلى الولايات المتحدة.

وفي مساء 1987/11/26، اتصل هاتفياً، على عادته، من لوس أنجيليس، ليستطلع أخبار الذكرى الخامسة. فأخبرته عن الانخطاف الذي حدث لميرنا، وأمليت عليه، بناءً على طلبه، الرسالة التي وردتها من السيّد المسيح، والتي يقول لها فيها، في جملة ما يقول: "اذهبي، وبشّري في العالم أجمع، وقولي بلا خوف أن يعملوا من أجل الوحدة!". فعاود الاتصال، بعد بضعة أيام، ليدعو ميرنا ونقولا للسفر إلى الولايات المتحدة، عملاً بمشيئة الرب في التبشير. وفي دمشق، تدارسنا جميعاً هذا الاقتراح، نقولا وميرنا والأب معلولي وأنا. والحقّ يُقال أنّ فكرة السفر إلى الولايات المتحدة، قد أخافتنا كثيراً بادئ ذي بدء. وبعد أشهر طويلة من الصلاة والتشاور، وافقنا جميعاً على السفر ضمن شروط أربعة جازمة: الأوّل، أن يتولّى رعاية هذا السفر، أسقف كاثوليكي هناك، وكان المطران الماروني "جون شديد" قد أعطى موافقته الكاملة، الثاني، أن تكون الصلاة، ولا شيء آخر سوى الصلاة، الهدف الأوحد لهذا السفر، والشرط الثالث، المجانية المطلقة في كلّ شيء، كما هي الحال في الصوفانية، والرابع تحاشي الإعلام الأميركي بأيّ ثمن.

وسافر نقولا وميرنا وطفلتهما في 1988/3/19، ولم يعودوا إلاّ مساء 1988/9/6. وأمّا تلك الفترة، فكانت حافلةً بالصلاة في بيت الدكتور أنطوان منصور، وفي بيوت كثيرة. وقد ترافقت هذه الصلوات بظهور الزيت مرّاتٍ كثيرة، على يدي ميرنا، وعلى صور كثيرة للسيّدة العذراء. وكان من أهم حالات ظهور الزيت من الصورة ومن يدي ميرنا، في آن واحد، ما حدث في بيت الدكتور منصور مساء الأول من شهر أيار عام 1988، أمام البطريرك مكسيموس الخامس حكيم، بحضور كل من المطران يوسف طويل، والأب تشارلس عبودي، وطوني حنّا، وبالطبع بحضور ميرنا ونقولا وعائلة الدكتور منصور. وقد أُقيم القدّاس الإلهي في دار الدكتور منصور، مساء 1988/8/14، وحضره جمهور واسع، وقد حدث لميرنا في نهايته انخطاف، أملى عليها خلاله، السيّد المسيح، رسالةً هامّةً، بلّغني إيّاها، هاتفيّاً، من بيت الدكتور منصور، الأب جورج الخلّي في المساء نفسه.

هذه الرحلة الأولى إلى الولايات المتحدة، كانت، في الحقيقة، فاتحة وبداية لرحلات تبشيرية، كثيرة ومتواصلة، قادت ميرنا (14) مرّةً إلى الولايات المتحدة، وثماني مرات إلى كندا، ومرتين إلى أوستراليا، وعشرات المرات إلى مختلف البلدان الأوروبية.

أوَلَم يقلْ لها يسوع نفسه، في معاد، يوم كان الدكتور منصور أيضاً هناك، في 1988/10/10: "لا تختاري طريقك، لأني أنا رسمتُها لك"؟.

3- قداسة البطريرك زكا الأول عيواص:

إنه بطريرك السريان الأرثوذكس منذ عام 1980. وأنا أكنّ له، منذ لقائي الأول به، احتراماً ومحبّةً عظيمين، لأني وجدت لديه الأبوّة والثقة، اللتين افتقدتهما، للأسف، لدى رؤسائي الكنسيين. وقد رويت في صفحات سابقة، ظروف هذا اللقاء، الصعبة والقاسية. ولكم كان يومها خارقاً بصمته، وبصيرته، وحكمته! وما واجهتُه خلال الأشهر الأولى، من حدث الصوفانية، كان شديد الوطأة، وقد ذهب في تفاقم طوال السنوات الخمس الأولى، حتى خلتُني أحياناً أواجه مدينة دمشق برمّتها، بدءاً من المسؤولين الكنسيين الأعلين، الذين لم يوفّروا تهمةً يلصقونها بي. ومع ذلك، ظللتُ مُصرّاً على رفض افتعال لقاء بهذا البطريرك، قد يريحني ولو قليلاً. وكنت في ذلك وفيّاً للأسلوب الذي اتّبعتُه بشأن الصوفانية على نحو دائم، باستثناء ما كان حدث لي في الشهر الأول، وهو ألاّ أبادر إلى مفاتحة أحدٍ بهذا الأمر، ما لم يُطلَب ذلك مني مباشرةً وصراحةً. ثمّ إنّ ما نشأ من جفاء، بيني وبين من كان بمثابة أب لي طوال سنوات، وهو البطريرك أغناطيوس هزيم - وكان جفاءً قاسياً عليّ، لم أجد له يوماً تفسيراً، ولا تبريراً - زادني تشبّثاً بموقفي هذا المبدئي، على حاجتي الماسّة يومها إلى سندٍ روحي قوي، لئلاّ أسبّب أي توتّر ممكن، بين هذين البطريركين الغاليين على قلبي.

ومرّت خمس سنوات، لكم تمنّيت خلالها زيارة البطريرك زكّا. حتى كان يوم من شهر آب عام 1987، كنت واقفاً فيه، بعد الظهر، على رصيف كنيسة سيدة دمشق، أنتظر سيارة تكسي. وفجأةً مرّت سيارة البطريرك، فلمحته داخل السيارة، فانحنيت مبتسماً. واجتازتني السيارة. إلا أنها توقّفت وعادت القهقرى، حتى توقّفت بقربي. وفُتِح شبّاكها الخلفي، وأطلّ منه رأس البطريرك، وهو يقول لي ببساطة مسّتني حتى الأعماق: "أبونا الياس، أنا اشتقتلّك!". ولحظتها بالذات اتّفقنا على موعد قريب جدّاً، وكانت تلك بدايةً للقاءات كثيرة، تواصلت بيني وبين البطريرك زكّا، في مودّةٍ وبساطة، اشتهيتهما لكلّ كاهن على وجه الأرض. وفي تلك اللقاءات، عرف البطريرك حقيقة ما كان قد جرى ويجري في الصوفانية، ووَضعتُ بين يديه كلّ ما كان متوفّراً لدينا من وثائق. ولقد حرصتُ على ذكر جميع هذه اللقاءات في كتاب "الصوفانية" الأول، الذي صدر عام 1990، في بيروت. ولكم كانت غنيّةً بإيمان هذا البطريرك، وتواضعه ومحبّته، وفي ما بعد، بطريقة استقباله، السريع والودود، للعديد من اللاهوتيين الأجانب، الذين أتوا إلى دمشق، بقصد استطلاع الحقائق، وضمن توقيت ضيّق للغاية. وكان منهم الأب "رينيه لورنتان" الفرنسي، والأب "عادل تيودور خوري" اللبناني الألماني،

والأب "رابرت فوكس" الأميركي. وكانت ثمّة وفود من الحجّاج، القادمين مع كهنة رعاياهم، من فرنسا وبلجيكا وهولندا، وسواها من بلدان كثيرة. وكان أحد أهم هذه الوفود، ذاك الوفد الطبي الذي كان قادماً من البلاد الاسكندنافية، وعلى رأسه الطبيب جراح القلب، السويدي "كنوت كفرنيبو"، واللاهوتي الدانماركي "نيلس كريستيان هفيت". وكان غبطته يستقبل الجميع، على ضيق وقته، وعلى ما كان ينتابه أحياناً كثيرة، من توعّك في صحته. وكان في جميع هذه اللقاءات، ودوداً، صريحاً في منتهى الصراحة: ففي الصوفانية، تدخّل إلهي، يفتقد فيه الرب يسوع وأمه العذراء مريم، الكنيسة كلّها، والشرق كلّه، والعالم كلّه! هذا كان مختصر كلماته لجميع زوّاره.

وإني لأرى أنّ هذا البطريرك المؤمن والطيب، قد جلب للصوفانية ذاتها، من خلال تقبّله الصادق والوديع لنعمة الصوفانية، نعمةً إضافيّةً عظيمةً، امتدّت من كنيسة دمشق، إلى مختلف كنائس السريان الأرثوذكس في سورية، ومن ثمّ إلى كنائسهم في كندا والولايات المتحدة وأستراليا وأوربا والبرازيل والهند، وخصوصاً السويد. وإني لأتساءل حتى الآن، كما تساءلت مراراً في ما سبق، ما السر في اختيار الرب يسوع والعذراء مريم، في مدينة "شيكاغو" الأميركية، لعائلة تنتمي إلى هذه الكنيسة بالذات، وتعود في أصلها إلى مدينة الحسكة في سورية، ربُّها يدعى داود حنّا، كي يجعل منها صوفانية جديدة هناك، ينسكب فيها الزيت من صورة لسيدة الصوفانية، دونما انقطاع منذ صباح 14 تموز عام 1994 حتى اللحظة الحاضرة، وفيها يأتي الناس ليصلّوا، كما في دمشق، في مجانيّة مطلقة، أجل في مجانيّة مطلقة، في قلب البلاد التي حوّلت الدولار إلى إلهٍ تركع البشرية كلّها تقريباً أمامه، ليل نهار؟

أتراني بذلك أبالغ في الرفع من شأن هذا البطريرك؟ أعرف أني اتُّهمت بهذه التهمة إياها، يوم صدر كتابي الأول عام 1990، حول الصوفانية، وأُضيفَتْ إليها تهمة تغييبي المتعمَّد لبطريركي آنذاك، مكسيموس الخامس حكيم. إلا أنّ الحقيقة المؤسفة التي بات الكثيرون يعرفونها، هي أن بطريركي يومذاك كان هو بالذات من تفنّن في تغييب ذاته عن الظاهرة العظيمة! آه، لكم هو خطير وجليل، دور رجل الكنيسة الذي يعي عظمة ربّه ومسؤولية كنيسته، فيحملها في أعماقه، ويحياها بكلّ صدق وجرأة! لأنه عندها سيكون محطّ رجاءٍ وقدوة. وعندها أيضاً سيُعطَى كلُّ مؤمن بيسوع، أن يشعر أنه هو وهذا البطريرك، واحد في يسوع، وإن اختلفت الرتب والتسميات والرسميات!

في ختام حديثي السريع عن هذا البطريرك العظيم، لا يسعني إلا أن أذكر الكلمات المدهشة، التي تلفّظ بها، يوم زرتُه في دير العطشانة في لبنان، برفقة أخي

الأب بولس فاضل. ويومها، كان البطريرك زكّا في حالة صحيّة يُرثى لها، حتى إنه لم يكن قادراً على الجلوس مستقيماً في مقعده، ولا حتى على تفتيح عينيه... إلا أنه استقبلنا، وعلى عادته استقبلنا بمعانقة طويلة وحارة لكلّ منّا. ثم تكلّم كلاماً مباشراً عن الصوفانية، فرجوتُه أن يأذن لي بإعادة كتابة كلماته، فكرّرها، وكأني به في حالة غيبوبة روحية. وتلك هي كلماته بالحرف الواحد:

« الصوفانية لن تُنقِذ سورية وحسب، بل ستكون بركةً ومسامحةً لكلّ مَن أساء إلى سورية... وستبارك كلَّ إنسان دون تمييز بين رجل وامرأة، بين كبير وصغير، بين مسلم ومسيحي... بركة العذراء مريم ستكون للجميع، وخاصّةً للمؤمنين بأنّ الله أعطى صورةً للصوفانية، ونعمةً لتبارك سورية...

سأسافر، وسوف أعود. وأتمنى أن أعود إلى الصوفانية، لأنها بركة العذراء، لا لسورية فقط، بل للعالم.

وبعد ذلك، أرجو أن أغادر للسماء! »

كان ذلك في 2012/12/4...

وهل تسمح لي، يا أبت البطريرك زكّا، بأن أقول لك إنّ حضورك إن هو إلا شعاعٌ من السماء؟

4 - الأب عادل تيودور خوري:

هو كاهن لبناني، ينتمي أصلاً إلى جمعية الآباء البولسيين في لبنان. دَرَس في الخمسينيات من القرن العشرين في فرنسا وألمانيا، ثمّ استقرّ في هذا البلد الأخير، حيث درّس في جامعاتها، وحيث شغل لفترتين، مركز عميد جامعة "مونستر" اللاهوتية الكاثوليكية. وقد بنى بتآليفه الكثيرة، في الألمانية والفرنسية والعربية، جسوراً ثقافية هامة، بين مختلف الأديان في العالم، ولا سيما بين الديانتين المسيحية والإسلامية.

ما كنت لأعرفه، لولا الصوفانية، إلاّ باسمه، وببعض مقالاته في مجلة "المسرّة"، وبالكثير ممّا كان صديقاه وصديقاي، الدكتور رياض حنّا وزوجته كلوديا، المقيمان في ألمانيا، يرويانه لي عنه. وذات يوم، أبدت لي أخته الراهبة، واسمها "جوستين"، وكانت آنذاك في دمشق، رغبته في معرفة رأيي الشخصي بأحداث الصوفانية. فقلت لها: "قولي له: "تعالَ وانظر!". وما عتّم أن أتى إلى دمشق، في الذكرى السنوية السابعة، أي في أواخر شهر تشرين الثاني من عام 1989. وأقام بضعة أيام، وهو يراقب، يصلّي،

يسجّل، يسأل، يستقصي، ويقابل عدداً من الناس والكهنة والمسؤولين الكنسيين. كما أنه قابل أيضاً السفير البابوي، وكنت برفقته. وكان متأثّراً جدّاً بكلّ ما رأى وسمع وعاش. وقد دوّنت بعضاً من ذلك، في كتابي الأول حول الصوفانية.

وكان منه، بعد أن عاد إلى ألمانيا، أن نقل إلى طلابه في الجامعة أوّلاً، ثمّ إلى بعض المثقّفين والمسؤولين الكنسيين هناك، خلال دروسه ومقالاته ومقابلاته، رأيه الصريح واستنتاجاته اللاهوتية. كما انّه كتب كلّ ذلك في تقارير موقّعة باسمه، وفي مقالات، ثم في كتيّبات بالألمانية. وقد تُرجِم معظمها إلى العربية، ومنها مقال طويل بعنوان مثير، هو "علامات من السماء في دمشق: ما رأيت وما سمعت في الصوفانية"، نشر عام 1990، على مرحلتين، في مجلة المسرّة. وهو يقول فيها كلّها، باختصار: "في الصوفانية، تدخّل إلهي صريح، ودعوة لوحدة المسيحيّين، ومن ثمّ دعوة لوحدة ما بين المسيحيين والمسلمين، ودعوة لإحلال السلام في العالم...". ولما كان الأب "عادل خوري" يتبوّأ مركزاً علميّاً ولاهوتيّاً مرموقاً في ألمانيا، أبدى الكثيرون من اللاهوتيين والمختصين بعلوم الأديان هناك، اهتمامهم الصريح بظاهرة الصوفانية. وكان منه، بعد أن تشاور مع "أهل الصوفانية" في دمشق، أن عرض على بعضهم ما لديه من وثائق، وقد تدارس معهم احتمال عقد مؤتمر لاهوتي في "مونستر"، ما بين 12 و14 أيلول عام 1991. وشارك فيه قرابة عشرين لاهوتيّاً وطبيباً ومثقّفاً، قدموا من ألمانيا وفرنسا وسويسرا وسورية، بحضور ميرنا وزوجها نقولا، والأستاذ أنطون المقدسي والكاتب أديب مصلح، والأب بولس فاضل وأنا. وقد أُخذ جميع الحضور بحجم هذا الحدث وعمقه.

ومنذ ذلك الحين، أخذ الأب عادل خوري على عاتقه، على الرغم من التزاماته الكثيرة والكبيرة، تعريف المجتمع الغربي بهذا الحدث. وانتهج في هذا السبيل طريقتين متكاملتين، كانت أولاهما باعتماد الكلمة. وكانت كلمته تلك، ما كان يقوله حول الصوفانية، في دروسه في الجامعة أو في محاضراته. وكانت أيضاً ما كان يكتبه هو، وما كان يكتبه أيضاً أصدقاؤه من لاهوتيّين وأطبّاء بهذا الشأن، ولا سيما اللاهوتي والطبيب النفسي النمساوي، الأب "أندرياس ريش" (Andreas RESH). وكانت الطريقة الثانية بتنظيمه جولات لميرنا، يرافقها فيها، مع بعض الألمان من معارفه، في مختلف البلدان الأوروبية، الناطقة بالألمانية، مثل ألمانيا وفرنسا والنمسا وسويسرا وبلجيكا، وكانت أيضاً بتنظيم رحلات إلى الصوفانية في دمشق، مع العديد من الألمان والنمساويين، أخصّ بالذكر منهم اللاهوتي النمساوي والطبيب النفسي الأب "أندرياس ريش" إيّاه!

5 - روجيه كحيل:

ورد هذا الاسم مراراً في اعترافاتي. إلا أني، هنا، أفرد له فقرة خاصة بين هؤلاء الثمانية، الذين كان لهم دور مميّز في حدث الصوفانية.

عَرَفتُ روجيه بُعيد رسامتي الكهنوتية، على يد صديق آخر، غال جداً، هو جورج حورانيّة. وفي تلك الفترة، وعبر سنوات طويلة لاحقة، كان شبّان وشابّات كثيرون يزورونني، حتى في بيت أهلي. وكانت والدتي تعرفهم كلّهم بأسمائهم، وتجلس إليهم تحدّثهم، وكانوا يرتاحون كثيراً إليها. إلا أنها كثيراً ما كانت تقول لي: "كلهم "ظراف"، بس روجيه غير شي!". ولكم أثبتت لي الأيام أنّ روجيه "غير شي!".

كان روجيه يقيم مع والديه وأختيه وجدّته، في بيت يقع في حارة "كراج صيدنايا"، المجاورة لحارة الصوفانية. وقد درس في مدرسة الآباء اللعازريين، وتأثّر كثيراً بالأب يوسف معلولي. ولكنه غادر دمشق في مطلع السبعينيّات مع ذويه إلى لبنان، ثمّ إلى كندا، حيث استقرّ نهائيّاً مع أخته الصغرى ليليان. وقد فقدتُ بغيابه من كان بمثابة "ملاكي الحارس"، على ما بيني وبينه من فارق في السن ونهج الحياة. وعندما أخذ الناس يتداولون أمور الصوفانية، آليت على نفسي أن أحيطه علماً بما كان يجري في حارة "جيرانه". وكان انخراطي وانخراط الأب يوسف معلولي، فيها، يطمئنه، ويبدّد ما كان يصله عنها أحياناً، من شائعات كاذبة أو مغرضة. وجاء يوم شعر فيه بضرورة التحدّث عنها مع من حوله، من معارف وأصدقاء، ومسؤولين كنسيّين في كندا.

وكان كلّما عاد إلى دمشق، يحرص على الصلاة كلّ يوم في "بيت العذراء"، وعلى جمع كلّ ما يستطيع جمعه، من معلومات ووثائق، وعلى حمل كمية كبيرة من صورة سيدة الصوفانية، إبّان عودته، ليوزّعها هناك. وكان، بما عُرِف عنه دائماً، من نبل وهدوء، وحكمة ولباقة، يُحيط علماً المطران ميشل حكيم، هناك، بكلّ ما جرى ويجري في الصوفانية. وكان قد دعاني مراراً لزيارة كندا. وكنت في جميع هذه الرحلات، أُعرِّج على الولايات المتحدة، أحمل معي رسالة الصوفانية. وكان أهمّ ما حدث لي في هذه الرحلات عام 1988، لقاء لي، في مونتريال، برفقة روجيه، مع إعلامي تلفزيوني معروف، يدعى "أندريه روستفوروفسكي" (André ROSTWOROWSKI)، الذي رويت تفاصيل مجيئه العجيب إلى دمشق، في أواخر تشرين الثاني من عام 1989، في كتابي الأول، "الصوفانية"، الذي صدر عام 1990 في بيروت. وقد روى هو أيضاً في شهادة شخصية له، مؤرّخة في 2007/11/19، تفاصيل هذه الزيارة، وما انتهى إليه في

إثرها، من إيمان عميق بالصوفانية، ترجمه في ثلاثة أفلام طويلة، بُثَّت على الفضائيات الكندية، فيما بُثَّ أولها، كما يقول في شهادته، اثنتي عشرة مرة، من تلفزيون كندا.

كلّ ذلك مهّد لأمر كان روجيه يبيّته في سرّية تامة، وهو دعوة ميرنا لزيارة كندا. وقد أقنع بذلك المطران ميشل حكيم، وإكليروس الروم الكاثوليك من حوله، فيما كانت كنائس كندا، في هذه الأثناء، من كاثوليكية وأرثوذكسية وسريانية ولاتينية وقبطية وأرمنية، قد اختمرت حتى الأعماق، طوال هذه السنوات، بما كان تسرّب إليها من رسائل الصوفانية، التي كانت كلّها تدعو إلى الإيمان والصلاة والتوبة والوحدة المسيحية. ولقد تمّت هذه الزيارة إلى كندا، في شهر حزيران من عام 1993. وكانت كلّ يوم تحمل مفاجآت مدهشة. وكانت أولاها تدفّق الناس إلى حيث كانت تقام الصلاة، بأعداد ضخمة، تجاوزت توقّعات الشرطة نفسها، وخرقت في أمكنة كثيرة قوانين السير الصارمة، حتى اضطرّت الشرطة إلى استباق هذه اللقاءات، فكانت ترسل دوريات إضافية لتنظيم السير في بعض الطرقات. وكانت ثانية هذه المفاجآت، في نظري أنا العربي القادم من سورية، جوع الناس الواضح، في هذا البلد المتخم ماديّاً، إلى إشارة خارقة، تعلو على كلّ علم، كي تعيدهم إلى الثبات في إيمان، أخذت أرضيّته تترجرج تحت ثِقَل المادّيّة الغربية الساحقة. وكانت المفاجأة الثالثة، في نظري، حقيقة ملموسة، وهي أن الغرب كلّه يعوم على بحر من الإيمان، غيّبته هذه المادية بعينها، فيما الكثيرون فيه باتوا يرقبون إشاراتٍ واضحةً وصريحةً، تُتيح لهذا الإيمان البروز في يقين وثقة إلى حيّز النور، ليعيد إليهم معنى وجودهم... ولقد جاءتهم الإشارات، قوية متتالية، صادمة... جاءتهم في الصلوات اليومية التي كانت تقام في مختلف الكنائس، في حرارة وصدق وبساطة... وجاءتهم في كلمات ميرنا وبساطتها... وجاءتهم أحياناً في الزيت الذي كان ينهمر فجأةً من صورة سيدة الصوفانية، أو من يدي ميرنا... وجاءتهم أيضاً في المجّانية المطلقة التي كنّا نصرّ عليها، ونلتزم بها.

ما حدث طوال هذا الشهر، يستحيل وصفه. وقد أُتيح لي، بفضل أصدقاء كثيرين هناك، أن أرصد بعضه في شهادات كتبها كهنة وراهبات، وعلمانيّون عاديّون، وصحفيّون ولاهوتي معروف، وكانت كلّها رائعة.

ثمّة أمور ثلاثة أريد أن أختم بها هذه الفقرة:

1- أولها، كان استضافة ميرنا وأسرتها، في بيت السيّد إميل وماري سارة، الذي تحوّل بين ليلة وضحاها، إلى صوفانية ثانية، ففُتِحت أبوابه على مصراعيها، وأقيمت

فيه صلوات يومية، ولا سيما القدّاس الإلهي، واستُقبل فيه زوّار كثيرون ومرضى. كما قُدِّمت فيه وجبات طعام للحضور، في أريحيّة شرقيّة مدهشة.

2- ثانيها، كان نشوء تجمع للصلاة، أطلق عليه اسم "عائلة الصوفانية"، ويضم عدداً من المؤمنين من مختلف الكنائس، وقد التفّوا تلقائيّاً حول الأب ميشل سيدة. وأخذوا، بعد رحيل ميرنا، يقيمون الصلاة أو القدّاس الإلهي، كل أسبوع في بيت سارة هذا. ثم انتقلوا خلال شهر أيّار، للصلاة كلّ يوم في البيوت حول أيقونة سيدة الصوفانية. وكان هذا التجمّع هو الذي يتولّى تنظيم الاحتفال بذكرى الصوفانية السنوية، بإقامة القدّاس في إحدى كنائس مونتريال.

3- ظهور الزيت على أيقونة سيدة الصوفانية، إبان الصلاة الوداعيّة التي أقيمت أمامها، قبيل مغادرة ميرنا كندا إلى دمشق. وقد شاء يومها جميع المصلين والمودّعين، أن يتركوا هذه الأيقونة العجائبية هدية شكر لروجيه، لأنه كان له الفضل الأكبر في زيارة ميرنا لكندا. وهذه الأيقونة هي أوّل ما يشاهده أي زائر يدخل منزل روجيه، الصغير... الكبير، الذي كان، على مساحته الهزيلة، يضمّ أيقونات ووجوهاً بشرية ومشاهد طبيعية، وأحواضاً زراعية، وُزِّعَت كلّها على الرفوف والجدران، توزيعاً جعل البيت أشبه بكنيسة أو متحف، لم يُتَح لي أن أرى مثيلاً له في العالم... أجل، أرني ما تسكن، أقل لك من أنت!

6 - "كابي بربريان" (Gaby BERBERIAN):

هو مهاجر أرمني من أصل مصري، وقد هاجر في الخمسينيات مع أسرته إلى كندا، يوم كان طفلاً... لم يتسنَّ لي أن أعرفه قبل زيارة ميرنا إلى كندا، عام 1993. ومنذ ذلك الحين، تبادلنا عشرات الرسائل، والتقيته مراراً. وعرفت أنه عانى مع ذويه ممّا يعاني أي مهاجر، وقد وجد في أهله، عوناً قويّاً للثبات في الإيمان، وللكفاح من أجل النجاح، فدرس الهندسة المعلوماتية. وهو يعمل في وظيفة مجزية. بالطبع، هذا الأمر ليس بغريب على الأرمن، الذين عُرِفوا دائماً بقدرتهم الخارقة على تحدّي الصعاب، وعلى شقّ دروب الحياة في إيمان وتصميم.

كانت رحلة ميرنا الأولى إلى كندا، عام 1993، هي التي جمعتنا به. وكان أوّل لقاء لنا به... رسالة مشتركة كتبها لي ولميرنا، بالفرنسية، بتاريخ 1993/6/22، يقول لنا فيها، منذ أسطرها الأولى: "حتى وصولكما إلى كندا، كنت أتخبّط في مأزق كبير جدّاً. فقد مزّقتني الأحداث التي أصابتني منذ (11) عاماً. كنت متزوّجاً وأباً لطفلتين، فشبّ حريق التهَمَ البيت وزوجتي والطفلتين. ظللت متماسكاً بفضل إيماني بالله!". كان هذا

هو سرّ هذا الإنسان: حبّه لله وثقته به، وتصميمه على خدمته فوق كلّ شيء، وقبل كلّ شيء! وقد تأثّر برسالة الصوفانية، فشاء أن يخدمها، فانخرط في "عائلة الصوفانية" في مونتريال، بكل ما أوتي من إيمان وتصميم... إلا أنّ ذلك لم يَروِه، فأراد خدمة الصوفانية بالسعي إلى تعريف الناس بها على أوسع نطاق. واخذ يسعى، بدءاً من عام 1996، إلى تسخير وسائل الاتصال الحديثة لخدمتها. ولما لم يلقَ تجاوباً مع الكثيرين ممّن فاتحهم بالأمر، لسبب أو لآخر، قرّر العمل بمفرده... وانفتحت أمامه أبواب كثيرة. وأخذ يجمع كلّ ما يستطيع جمعه من وثائق الصوفانية، المكتوبة منها والمسجّلة والمصوّرة، حتى بات لديه مخزون فريد منها، كمّاً ونوعاً... وكان أن جاءه العشرات من المعاونين، الذين تطوّعوا مثله للعمل مجاناً، لا سيما في مجال ترجمة الوثائق إلى العديد من اللغات. وانتشرت الصوفانية على شبكات الإنترنت، بإشرافه وتوجيهه وتصميمه. وجاء يوم بات فيه الكثيرون من المراجع العلمية والدينية واللاهوتية، في مشارق الأرض ومغاربها، يتصلون به للحصول على مزيد من المعلومات، أو أيضاً ليسألوه التوسّط لدى ميرنا ونقولا، من أجل السفر إلى بلادهم. وقد اتّسع تأثير موقع الصوفانية، الذي أحدثه كابي، بحيث بات يُطلَب منه أن يرافق ميرنا ونقولا في رحلاتهما، كما حدث له عام 2002، إبان الرحلة إلى مدينة "ستوبنفيل" (Steubenville) في الولايات المتحدة، حيث دعتهما الجامعة الكاثوليكية هناك، وإبان الرحلة إلى شمال غرب فرنسا عام 2002، وعام 2003، أيضاً، وإلى السويد عام 2005، وكذلك إلى أستراليا عام 2005، وإلى أوكرانيا عام 2007، وإلى سلوفاكيا عام 2009. وكان كابي في جميع هذه الرحلات، وفي سواها ممّا لم أذكر، يحرص على تسجيل وتصوير كلّ شيء، كما كان يجتهد في انتزاع شهادات من كثيرين، ولا سيما من المسؤولين الكنسيين... وفي الكثير من هذه الرحلات، التي جمعتنا في صلاة وصداقة وشهادة، كنت ألاحظ أنه كان يمضي الليالي الطويلة، في فحص التسجيلات، وتبويبها وتصنيفها وتثبيتها، حتى إذا ما عاد إلى مونتريال، يسارع إلى ضمّ ما حصد من جديد، إلى الوثائق السابقة، ليخزّنها بأحدث الطرائق الإلكترونية المعروفة، وكثيراً ما كان يسعى إلى إرسالها لنا في دمشق، كي نضمّها إلى أرشيفنا...

وقد تبيّن لي، بعد انتقال الأب معلولي، أنه لا بد من وضع كتاب يحتوي أهم هذه الوثائق، قبل رحيلي بدوري. فقصدت كندا خصيصاً لأكمّل ما كان ينقصنا، بما كان لدى كابي من كمّ ونوع من هذه الوثائق، يصعب على المرء تصوّره، لولا ما اكتنز هذا الإنسان، في قلبه وعقله، من إيمان ومحبّة وعلم، وصبر وبُعد نظر.

واليوم بات لنا في دمشق، أرشيف خاص بالصوفانية، وقد أرسل لنا الرب يسوع وسيدة الصوفانية، مَن سعى أيضاً في إيمان ومحبّة وتجرّد ودراية، إلى جمعه وترتيبه، بل وتصويره بأحدث الطرق الإلكترونية، كي يصار إلى حفظه في مأمن. إلا أني أجزم بأنه لو أتيح لنا المقارنة بين هذين الأرشيفين، لوجدنا تفاوتاً كبيراً بين ما استطعنا جمعه في دمشق، وما جمعه كابي بربريان في كندا. وإني لأرجو أن يتاح لنا ذلك قريباً، عسانا نحقّق التكامل بين هذين الكنزين. وكلّي ثقة بأننا واجدون في كابي رسولاً يفدي سيّدة الصوفانية بروحه!

7 - المفكر العربي أنطون المقدسي:

ليس من يجهله في سورية وفي أنحاء كثيرة من الوطن العربي. إنه مفكّر عربي مسيحي، تجاوز بحجمه الثقافي، وحضوره الفكري، وتطلّعه القومي، حدود سورية إلى الوطن العربي كلّه. وقد أنعم الله عليّ بمعرفته، ومن ثمّ بصداقته، منذ الأشهر الأولى لعودتي إلى دمشق، والخدمة فيها، عام 1962. وقد حرصت، منذ لقائي الأوّل به، على توثيق علاقتي به، ومن ثمّ على استشارته في شتى أمور عملي الكهنوتي والثقافي. وقد مضت العلاقة بيننا إلى مزيد من الثقة والشفافية، حتى بات أشبه بالأب الروحي لي. ولما حدث في الصوفانية ما حدث، رأيت، بعد مضي قرابة الشهر، أن أحيطه علماً بمجريات الأمور. فكان في طريقة إصغائه واستقباله للأحداث وتعليقه عليها، ما يريح، بل ما يكاد يفتح آفاقاً جديدةً محتملة. ثم جاء يوم أبدى فيه رغبته في زيارة "بيت العذراء"، كما ألفنا أن نسمّي هذا البيت. وهناك، كان المقدسي، ما إن يقف أمام الأيقونة العجائبية، حتى يغرق في ما يشبه الغيبوبة الروحية. ولكم راجعته في ترجمة بعض الآيات من رسائل السيّدة العذراء، أو السيّد المسيح، إلى اللغة الفرنسية. وقد ظلّ حتى آخر لحظة من حياته، يتابع بلهفة، أكاد أصفها بالطفولية، ما كان يجري في هذا البيت. ولكم كان يسعد، عندما كان يُتاح له، على ما كان ينتابه من إعياء أو مرض، أن يزور "بيت الأم القدّيسة"...

وعندما طُلِب إليّ أن أنشر يومياتي حول هذا الحدث، كان هو واحداً من أربعة فقط، رأيت أن أطلعهم عليها، للأخذ برأيهم فيها، سواء كان ذلك في نشرها كاملة، أو في تعديلها أو... تغييبها كلياً. وعندما أجمعوا على ضرورة نشرها، سألته أن يخصّها بمقدمة وجيزة، كنت أريد أن أتخذ منها درعاً واقية من جهة، ومفتاحاً سحرياً من جهة ثانية، أمام العديد من المناوئين، من مختلف الأوساط الاجتماعية والثقافية، بل والدينية. إلا

أني كنت دائماً أقدّر موقفه، كلما اعتذر مني، ولكن دون أن أستسلم. حتى كان يوم حدث فيه ما كنت أتمناه من جوارح قلبي. فهو ذا ما جرى، كما دوّنته في مذكراتي:

« أخيراً أودّ أن أختم أحداث ليلة 14 آب عام 1987، بالإشارة إلى مبادرة جاءت من صديقي أنطون المقدسي، لا تخلو من دلالة... ذكرت أني كنت دعوت الأستاذ المقدسي للمجيء إلى الصوفانية. ولحظة الانخطاف، أرسلت من اتصل به هاتفياً يحضّه على الحضور... ولكنه لم يصل إلا في الساعة الثامنة... وأخبرني أنه تأخّر بسبب وجود السفير الفرنسي وزوجته لديه، ووجود الشاعر أدونيس. ولكنه ما إن سمع مضمون الرسالة، حتى انتحى بي جانباً، وقال لي: "أبونا، أنا مقتنع بضرورة نشر مذكراتك حول الصوفانية! وأنا سأكتب لك المقدمة". فاجأني الأستاذ المقدسي بهذا القرار الأخير، لأنه كان قبل أيام قليلة، إذ رجوته أن يكتب هو المقدمة، اعتذر بسبب ضغط العمل، وأنا أدرى الناس بذلك... فاجأني الأمر وأفرحني جداً... واتخذت في ذلك المساء قراراً نهائياً بنشر مذكراتي. »

هذه المقدمة، سلّمني إياها يوم 15 آب عام 1990. وحمدت الله أنها لم تكن وجيزة، كما كنت أخشى. بل جاءت طويلة وعميقة، كما كان المقدسي وحده قد عوّدنا على كتابة مقدّماته المعروفة... ولقد قرأتها وأعدت قراءتها مراراً. ولكم فاجأني بلغته البسيطة، الشفافة، التي كانت تنساب انسياباً طلقاً، لتقود القارئ من حنايا الحارات الدمشقية، العابقة بالأصالة والتاريخ، إلى متاهات الأرض الواسعة، بما يصطرع فيها من جديد وقديم، ومن علم وجهل، ومن غنى وفقر، ومن ظلم وحرمان، ومن حرب وسلم، ومن إيمان وإلحاد، ومن حياة وموت وقيامة!... ذلك هو المقدسي، وقد حدّق في العالم كلّه، عبر الصوفانية بكل ما أوتي من إيمان ومسؤولية، ومعرفة ومتابعة، وحرية وجرأة. وكان أبداً ينتهي إلى الصلاة في صفاء وحب ورجاء.

هذا النص، شئنا له أن يُنشَر أيضاً بالفرنسية. فقامت بترجمته راهبة سورية، تُقيم في تونس منذ أكثر من أربعين عاماً، تُدعى عفيفة غيث. وجاءت ترجمتها موفقة للغاية. إلاّ أنّ المقدسي شاء أن يراجع هذه الترجمة، فقمنا بذلك معاً. وكان أن أرسلت الترجمة إلى كاهن فرنسي يدعى "جان بول دوڤودو" (J-P. DEVEDEUX)، أكنّ له كلّ محبّة واحترام، وهو من عشاق سورية، ومن خيرة روّاد الصوفانية في فرنسا. وسألته كتابة المقدّمة، إذ كنّا عازمين على نشره في فرنسا. وإنه ليطيب لي أن أنقل بضعة أسطر من مقدمته هذه.

كتب يقول:

« عندما سلّمني الأب الياس زحلاوي هذه الصفحات، التي كان قد حدّثني عنها طويلاً، تقبّلتها كما لو كانت نسخة من الإنجيل. أكثر من ذلك، فقد قرأتها، وأعدت قراءتها بجدية وعناية، نخصّ بها عادة كتب التراث الثمينة. فثمة شعور كثيف يتسرّب منها، ولقد وُضِع هذا الكتاب بهجة للروح. إن هو إلاّ أيقونة.

"أنطون المقدسي، مفكّر درّس الفلسفة طوال خمس وعشرين سنة، في جامعة دمشق. ومن زملائه في دراسة الفلسفة، "عمانوئيل ليفيناس" (E. LEVINAS)، و"بول ريكور" (Paul RICOEUR). وهو يمضي، في الوقت الراهن، صباح كل يوم، إلى وزارة الثقافة، حيث يرأس قسم الترجمة والتأليف والنشر. ومن التقوا هذا الإنسان، المسالم والخفور، لم يُخفوا تأثّرهم العميق بسعة معرفته، وفضوله الفكري المتيقّظ أبداً، بل أكثر من ذلك، بصحة أحاديثه وسلامة محاكمته. وماذا عساني أقول عن انفتاحه الفكري، الذي يكاد يكون دون شبيه فوق هذه الأرض، التي تعصف بها الأهواء، وعن صفاء روحه الخارق، الذي سيسحر حتماً قراء هذا الكتاب؟ ولقد سمعت من يقول: "المقدسي قدّيس". أهو نبي؟ ربما. وهذا ما يجعله يتكلم بصراحة وغزارة. ولذلك فهو لم يعرف الخوف يوماً. ولقد زار الصوفانية، ورأى بأمّ عينه الوقائع التي يتحدّث عنها كشاهد ملتزم، غير آبه برضى السلطة أو باسترضاء الناس... وقد كتب أنطون المقدسي في نظرة صائبة يقول:

"في القرون السابقة، كانت المسيحية تطلب من المؤمنين، أقصى انسلاخ عن العالم، كي يعيشوا مع الله، وفي سبيل الله. أما اليوم، فهي تطلب منهم أن يعيشوا في العالم مع الله، أو أن يعيشوا مع الله، ومن أجله، في العالم. » (انتهى)

أما هذا النص فقد اختار المقدسي له عنواناً مثيراً، هو "العذراء تختار سكناً"! تُرى، لمَ اختار المقدسي هذا العنوان بالذات؟ فهل من عنوان بريء أو مجاني؟ وهل لمن كان في مكانة المقدسي، مرجعيّة سياسيّة، وثقافيّة عالميّة، وفكراً عروبيّاً وقوميّاً، وحضوراً مسيحيّاً صريحاً، أن يختار عنواناً محايداً بحجم حدث الصوفانية، جدّة وتوقيتاً وإشعاعاً، ورسالةً محليّةً وعالمية؟ بكل ثقة أقول: كلا! وإلى ذلك، فلا يصدمني من يصرّ على القول بأنّ هذا العنوان قد لا يكون سوى إشارة إلى زيارة السيّدة العذراء لدمشق. إلا أنني أميل إلى الاعتقاد بأنّ المقدسي كان يريد، من عنوان مقدّمته هذه، أن يعلن للقاصي والداني، أنّ السيّدة العذراء أتت، بإذن من الله تعالى، لتُقيم في دمشق مع ابنها يسوع، ولتحمل رسالة جديدة، وأنّ هذه الرسالة ذات أهمية قصوى لجميع أبناء هذا الشرق، بل لأبناء الأرض

جميعاً، لا سيما وأنها تأتي في توقيت هو في غاية الحساسية، على كل صعيد، وعلى مستوى الأرض كلّها... وإني لأرى أنّ جميع هذه الأبعاد، كانت تكمن وراء تردّد المقدسي في موافقته على كتابة هذه المقدّمة. وليس لي سوى الدعوة الملحّة إلى قراءة هذا النص الاستثنائي في تاريخ الفكر، في الشرق العربي، كي يتسنّى للمتردّدين اكتشاف ما شاء هذا الإنسان العربي المسيحي، أن يقول بالفم الملآن، من حقائق أساسية، ثابتة وحاسمة، لن تقوم للشرق العربي، بل للعالم بأسره، قائمة، إن أهملها أو استهتر بها!...

ثمّة نقطتان في غاية الأهمية، تحتجبان وراء هذه المقدّمة كلّها، أودّ التوقّف عندهما، إن صح التعبير، قبل أن أترك القارئ يغوص في بعض صفحاتها، عساه، بعد ذلك، يغرق فيها كلّها، كما حدث لي، لا مرة واحدة، بل مرّاتٍ متتالية.

النقطة الأولى تشير إلى الفرح الغامر، الذي يعتري المقدسي، وجميع أولاد "الأم القدّيسة"، كما يحلو له أن يسمّي السيّدة العذراء، إذ يجتمعون في "بيتها الدمشقي"، وأمام أيقونتها المباركة، ناسين ما كان يفرّق بينهم، قبل أيام أو ساعات أو لحظات، من انتماءات دينية وسياسية واجتماعية وثقافية، بل وجغرافية، وغارقين في فرحة إنسانية وروحية، جديدة ونضرة، تُعيدهم إلى حقيقتهم الأولى والوحيدة، إذ يكتشفون أمام "الأم القدّيسة"، أنّ انتماءهم الحقيقي والأصلي، إنما هو إلى أسرة واحدة، هي أسرة "الله"، أياً كان اسمه المبارك، وكأني بهم جميعاً ذاك "الابن الشاطر"، الذي هجر بيت أبيه، كما جاء في الإنجيل، ثم عاد إليه، بعد غربة طويلة ومريرة، فغمر فرح عظيم، الله والإنسان معاً!... والمقدسي، إذ يتحدّث عن هذه العودة الجماعية، العفوية والسعيدة، إلى الله الواحد، بواسطة "الأم القدّيسة"، لا يسعه إلاّ أن يشير في صدق جمّ، إلى خبرته الشخصية بالذات، يوم كان هو أيضاً نداً "للابن الشاطر"، إذ كان قد عاش ردحاً من الزمن، بعيداً عن "بيت الآب". وإنه ليشير إلى ذلك في أواخر مقدّمته، في حياء وخفر جليّين، حيث جاء قوله الصريح عن والده في تلك الفترة كلّها، على النحو التالي: "وعندما يئس من عودتي إلى الحظيرة، ما برح حتى الدقيقة الأخيرة من حياته، يصلي إلى الله كي لا أبقى يتيماً...".

وإني لأجيز لنفسي الآن فقط، وقد بات المقدسي في قلب الله، أن أقول إنه كان قد حدّثني مرتين عن هذا "اليتم" الذي كان قد أصابه، وعن انتزاعه منه، ذات يوم، بقدرة قادر، في لحظة مفاجئة وحاسمة. وكان، كلّما تذكّرها، تعلو وجهه الشاحب، نشوة عجيبة، فترتجف شفتاه، ثم تنتفخ أرنبتا أنفه، وتغرورق عيناه بالدموع، فيصمت، وتبقى عيناه شاخصتين إلى متحدّثه، فيما هو يظل عاجزاً عن التلفّظ بأي كلمة!

أما النقطة الثانية، فإنها تأتي من صلب الأولى وضمن منطقها. إلا أنها لا تعني أفراداً يعيشون هذا "اليتم" الروحي، في غربة عن الله، بل هي تعني العالم كلّه، ولا سيما الغرب، الذي هجر الله، ويسعى إلى تهجيره من أرض البشر جميعاً، بشتى اختراعاته وطغيانه المادي، وتفجيره الوقح والمنتظم للغرائز، وإيهامه الناس بأنّ الحياة كلّها لا تعدو كونها متعة عابرة على هذه الأرض، يجب اقتناصها بأي ثمن! والمقدسي، في حديثه عن واقع "اليتم" الذي يضرب الغرب كلّه، لا يحابي ولا يداري، بل هو يحذّر المجتمعات العربية، ويدعوها للنهوض، في تمسّك عاقل بإيمانها المشترَك بالله، وبمصيرها الواحد.

وإنه ليسعدني أخيراً أن أترك للمقدسي، أن يحدّثنا بلغته وأسلوبه الفريدين، عن هذا الذي حاولت أن اختزله بأسطر قليلة. ففي كلماته عالم نضر، بسيط، رائع، يشتهي من يطالعها، أن يكون من مكتشفيه، وإذ به، بعد حين، من صانعيه!

وقد اخترت، على مضض، ثلاث فقرات فقط: الأولى من مطلع هذه المقدمة، الثانية من قلبها، والثالثة من خاتمتها. وإني لأدرجها مع عناوينها الأصلية:

« 1- **يوم رأينا الأم القدّيسة:**

"يومًا رأى الناس العذراء بينهم. كانت فاتحة ذراعيها تحتضنهم، فهرعوا إليها، فرحّبت. كل ما فيها كان يرحب بهم: ابتسامتها العذبة، نظرتها الوديعة، رأسها الحاني على بؤسهم، وحنان يفيض من جسدها فيعيد إليهم دفء الحياة.

بسرعة البرق انتشر الخبر، نقلته الأشياء قبل الألسن إلى الملأ، بشرى، وفورًا أشرق على الأزقة القديمة، بهجة طافت منعطفات المدينة وأحياءها العتيقة فأيقظتها: كانت تعيش حلمًا مزعجاً، وها هي تعود إليها حياتها الطبيعية.

هدوء،

صمت،

سلام غلّف دمشق

غريب! لم يتغيّر حرف واحد في نظام المدينة الألفي، زحمة أسواقها، حركتها الصاخبة، بيوتها الحييّة تختفي وراء جدرانها العالية، أصوات الباعة هي هي، ومع ذلك لم يبقَ شيء على ما كان عليه، ربيع صخب انتشر على المدينة، روح مرح ونشاط، دبّت فيها حياتها، جعلت كل شيء فيها على غير ما كان عليه.

قال الحكماء الفهماء رؤساء الشعوب: تلك أساطير يصدّقها بسطاء الناس. إلاّ أن

الشعب آمن بما رأى وأحسّ، تلك الأم القدّيسة عرفناها، عرّفتنا بذاتها. فعندما تأتي تصحبها آياتها.

وتساءل الناس بعد ذلك بكثير: كيف كانت العذراء في تلك الأيام؟ جالسة أم واقفة، تمشي على الأرض أم تمرّ كالنسيم؟ أرقّ من النسيم. ما كان لون ثيابها؟ ما يذكرون أنهم قالوا لها:

– طال غيابك عنا، يا أمّنا!

– أنا دومًا معكم، كنت وما أزال وسأبقى معكم إلى الأبد! أنا الحضور الدائم...

– أنحن إذًا الذين غبنا عنك؟

– الآن نحن معًا. آمل أن نبقى معًا؛ صلّوا كي نبقى معًا إلى منتهى الدهور، وبعد الدهور...

فهموا بعد ذلك بكثير، بكثير، فهموا يوم استعادوا هذا الحوار، أن حضورها كان يقظتهم، وأنها هي التي نبّهتهم إلى وجودها، وكانوا قد تناسوه... أدركوا أن كثيرين كثيرين آثروا النسيان، فغمّضوا عيونهم وأصمّوا أذانهم، فلم يروا ولم يسمعوا، هؤلاء صلّوا من أجلهم.

ذكروا أيضًا أنّهم سجدوا وصلوا، فرحوا وبكوا. أيامًا وليالي صلوا، جباههم التصقت بالأرض، وبأفواههم قبّلوا المكان الذي داسته أقدامها وحيث تركت أثرًا منها. بعضهم ما زالوا يصلون حتى الآن. لم يدروا ما إذا كانت دموعهم دموع ابتهاج بحضورها، أم دموع أسى على أيام وسنين قضوها ضالّين تائهين في صحراء البشر. كل ما يذكرون أن دموعهم سالت حتى الأرض. وكانت، هي، تضم كلاً منهم إلى صدرها، وتمسح دموعه بمنديلها الأبيض.

... وكانت تغفر،

حملت إليهم بركة مَن إليه وحده تُقدّم الصلاة وغفرانًا من يده، وحده يقبل توبة التائبين. وهو الغفور الرحيم.

وكانوا سعداء سعداء، لا حدّ لسعادتهم. حلّت عليهم سكينة الرب، فكانوا في سلامه تعالى فرحين، لا يسألون عمّا كان وسيكون. الله نوري وخلاصي فممّن أخاف؟ المولى حصن حياتي فممّ وممّن أخشى!...

الغريب أن الأولاد كانوا أقدر على إدراك الحقيقة من أمهاتهم وآبائهم، فلم يتردّدوا، لم يخافوا، لم يُكثروا من الأسئلة، بل توجّهوا توًّا إلى الأم القدّيسة وارتموا بين يديها، كما

ترتمي النحلة على الزهرة والفراشة تداعب نور الشمس، وهي أجلستهم على ركبتيها، فأسند كل منهم رأسه إلى صدرها، فقبلتهم، باركتهم كلاً منهم بمفرده، أخذهم بين أبنائها الأقرب إليها والأحب على نفسها، وهم حقًا كذلك. ويلتصقون بها، يختبئون بين ثيابها، تشجّعهم على مداعبة شعرها. وكانت فرحة وكانوا فرحين بفرح سيكون رصيدهم عند التجربة وفي مواجهة الشرير.

هؤلاء هم الذين أظهر لهم الآب السماوي حكمته وأخفاها عن الحكماء والعلماء والمتكبّرين.

2– "علام تزورُنا اليوم العذراء؟:

"قلنا: علام تزورنا اليوم العذراء؟ علام زارت قبلنا مدناً، شعوباً، وأمماً كثيرة؟ أليس لتذكرنا، ونحن نعيش عصر الغطرسة والقوة، عصر التشريد، التهجير، التقتيل... بالطريقة التي رسمها إنجيل ابنها للإنسان، إنجيل المحبة والفداء؟ أجل، هو الامحاء أمام القريب، الذي يمكّنه من أن يتفتح ويوجد تجربة كاملة، ويبلغ بعونه تعالى، ملء التفتح والوجود.

"تعلّموا مني فإني وديع ومتواضع القلب"، "ووضع على حقويه مئزر الخدمة، وحنى رأسه، وغسل أرجل رسله". كان ذلك عشية أسلم نفسه لجلاديه فداء عنهم، عن رسله وتلاميذه، عن أمه وعنا. إنه الدرس الأخير والأبلغ، الذي سيبقى في ذاكرة الإنسان إلى منتهى الدهور.

سبع سنوات كاملة – ها الثامنة قد بدأت – والأمّ القدّيسة تردد على مسامعنا، على مرأى من العالم وبأشكال عديدة، إنجيلاً عاشته كله بكل جسدها وروحها، وهي تصلي صامتة، تعاني آلام القهر مع المقهورين، آلام الجوع مع الجائعين، آلام المرض مع المرضى، آلام الصلب مع المصلوبين... أجل كانت – وما تزال – تصلي من أجل الرسل، التلاميذ، من أجل الناس كلهم بدون استثناء – أوليسوا أخوة ابنها، وأبناءها؟ إذا – صلّت في ذلك الزمان وهي تصلي اليوم من أجل زماننا وكل الأزمنة.

"وأنت سيخترق سيف أحشاءك" هذا ما قاله لها نبي الله، وهي تقدم ابنها إلى الهيكل. وأضاف "هذا الطفل سيكون في العالم، آية التناقض، حوله يختلف الناس، وهو يشطرهم شطرين: معه وضده. وهو سيقول: من ليس علي فهو معي". هذا كان في حياته وفي حيواته الأخرى، طوال عشرين قرناً وإلى منتهى الدهر.

إنجيل المحبة والفداء هذا، به يستقيم العقل وتصير إنجازات العلم وسيلة لإسعاد البشر،

لا أداة لتدميرهم وتدمير أرزاقهم، كما صارت عليه هذه الإنجازات عندما وضعناها على خط إرادة القوة.

قال: أنت الذي تقرأ إنجيل المحبة والفداء، علام تظلمني؟ وتقول كلام السوء عني أمام الناس؟ ألم تلاحظ أن كلامك هذا هو بمثابة طعنات تسدّد إلى قلبي وتجرحه؟ من أعطاك حق الاعتداء علي، على رزقي، مالي، شرفي؟ كيف تجيز لنفسك اغتيابي حتى ولو ضبطتني بالجرم المشهود؟ لو كنت وقتها لزمت الصمت؟ غضضت طرفك وواصلت دربك، ثم أنّبتني بلطف عندما ترى الفرصة سانحة، لكنتَ ألقيتَ عليّ درساً لا أنساه حياتي كلّها. أنسيت أنك تردّد كل يوم صبحة ومساء: اغفر لنا كما نحن نغفر لمن يسيء إلينا؟ ولكن ذلك هو الإنسان، يؤكد ذاته على حساب الآخر، ناسياً أو متناسياً أنه قريبه. فهو دوماً مسؤول عنه، لحدّ ما. والأمّ القدّيسة لا تفتح قلبها إلا لمن يسير على الدرب الذي رسمه ابنها لذاته ولإخوته، أقلّه قرّر أن يسير. عندها تبادره بنعم غير متوقعة، عرف ذلك أم لم يعرف.

قال أيضاً: علام تقطّب حاجبيك، تغضب، تقسو عليّ بالكلام، وقد تدينني إذا خالفت رأيك في ظهورات الأمّ القدّيسة، أهي هنا، هناك أم في مكان آخر؟ متى فوّضتك بالدفاع عنها؟ أو جعلت منك وكيلاً لها؟ أليس الأجدى لي ولك أن تطلب منها في صلاتك الهداية لي ولك؟ إنها الأقرب إلى قلب الآب السماوي، تستمد من رحمته اللامتناهية نعماً وعطايا غير متوقّعة تفيض بها عليك، عليّ وعلى العالم.

قلت: ارحمنا، يا إلهي. فكم نسيء كل يوم بتصرفنا إلى إخوتنا، أبنائك... وقال أيضاً: إذا كانت لك طريقك، ولي طريقي، وكل من الطريقين نقيض الآخر، وكان كلّ منا واثقاً من طريقه، أميناً لها، فهل تعطي لنفسك الحق بإدانتي؟... علامَ تبدو وكأنك تريد إرغامي على اتّباع طريقك؟ إن سلوكك، إذا كان حقّاً مخلصاً لرسالتك، هو الذي يشهد لصدقك، لا أقوالك، وقد ينقل رسالتك إلى قلبي ويرسّخها فيه. أما أقوالك، وعلى الخصوص إذا أضفت إليها انفعالاتك، فغالباً ما تباعد بيني وبينك، وقد تضع بيننا فاصلاً يصعب تجاوزه. وإذا كان شباب اليوم يُحِلّون الأيديولوجيات بأنواعها محل الإيمان الديني، فلأنّهم يرون التفاوت الكبير حتى التناقض، بين أفعال المؤمنين وأقوالهم. وعندما ينتقل المرء من الجمهور إلى الرتب العالية، يصبح التناقض فاضحاً.

قلت: أليس هذا هو السبب في تكاثر زيارات الأمّ القدّيسة إلى الأرض، زيارات تكثر اعتياديّاً في الأزمات، والمنعطفات التاريخية وأوقات الفوضى الفكرية؟ ولهذا وجد الشعب

– يجد وسيجد – ملجأ في بيت الأمّ القدّيسة. أجل، هلّل وكبّر عندما رآها فاتحة ذراعيها تحتضن العائد إليها، أياً كان انتماؤه، جنسه، وطنه، عمره. ذلك اليوم، يوم اختارت العذراء لها مسكناً في دمشق (27 تشرين الثاني 1982)، سيبقى خالداً في المدينة الخالدة، تنظر الخلاص يأتيها في ساعة غير متوقّعة.

3– "رسالة الصوفانية:

"يوماً رأى الناس العذراء. كان الأطفال أوّل من لمحها، وهي قادمة إليهم تناديهم: الأم، أمّنا؟ الأم أمّنا. قفزة واحدة، وها هم بين ذراعيها، تضمّهم فرداً فرداً إلى قلبها، ودموع الفرح تنسكب على خديها من عينيها الضاحكتين، وهم يداعبون شعرها، يمسّون برفق ثوبها الأزرق، ويلفّون وجوههم بوشاحها الأبيض، يضعون رؤوسهم على كتفيها، يمرّغون جباههم بكفّيها المفتوحتين – دوماً مفتوحتين. يركضون، يرقصون، يصفّقون، ينشدون. والملائكة ترتّل معهم نشيد الفرح الأبدي والسلام الذي لا ينتهي.

الدنيا عيد، الأرض عرس. فَقدَ الكون ثقالته. صار أثيريا. فالعالم يعيش ساعات من الفرح الإلهي قلّما عرفها طوال تاريخه الطويل. لم يعد ثمّة فرق بين الملائكة والأطفال، بين السماء والأرض، بين الأمل والواقع. الكلّ واحد، يمجّد الله ويرنّم مراحمه. كأن لم يبق في الوجود إلاّ الأطفال والملائكة، الملائكة والأطفال.

ويزعم بعضهم أنهم رأوا، مع الأم العذراء، فتى وسيم الطلعة، مشرق الوجه، يتدفّق من عينيه ينبوع محبة لامتناه، وكأنه يبارك. غيرهم لم يروا إلاّ دفقاً من النور يملأ الأرض والسماء. وفي رأي فريق ثالث أنّ ثمّة وجوداً إلهياً كان يحيط بالعذراء مريم، ومنها يتساقط على الناس وكأنّه يشدّهم إلى أعلى. وعندما سألناهم: كيف عرفتم أن الوجود الذي رأيتموه إلهي؟ أجابوا: إن الله تعالى هو الذي يشعرنا بوجوده. وهو الذي لا يحتويه مكان ولا زمان، يأخذ بيدنا ويقودنا إلى حيث نجده. آخرون قالوا: حيث كانت العذراء، كانت السماء تتلوّن كلّ دقيقة بألوان يعجز الخيال عن تصوّرها لأنّه يجهلها. وكانت تظهر وتتوارى في وسط هذه الألوان، رؤى إلهية، لا تدري أهي عن يمين الأم أم عن شمالها، فوق رأسها، بجانبها أم في قلبها... ومن كان مع العذراء يا أطفال؟ فأجابوا بدون تردد: أخونا الأكبر، كان يأخذ كلاً منا بين ذراعيه ويرميه بين ذراعي أمنا.

عالم من الرؤى أيقنّا كلّنا يومها أنه الحقيقة، حقيقتنا التي نبحث عنها وقد أعطيت لنا هبة مجانية من لدنه تعالى. هبة تؤكّد لنا أنها بانتظارنا، بانتظار الإنسان حتى منتهى الدهر،

ومعها السلام والفرح اللذان لا ينتهيان...... وتؤكّد أنّ الصلاة والخدمة هي الطريق الوحيد إليها.

ذلك هو يوم العذراء في دمشق. هو يوم انفصل عن الزمان ليبعث الحياة في الزمان. وفيه صار المكان فسحة روحية منها تستمدّ الأمكنة روحها ومعناها. فللأطفال حكمة الشيوخ، وللشيوخ مرح الأطفال ورشاقتهم. هو يوم المسامحة العامّة والمعمّمة: ما لي فهو لك، وكلّ ما لك هو لي. لم يعد ثمّة لي ولك. فعندما يوجد الإنسان يزول الملك. صار الإنسان شفافاً. فقد وزنه فكأنه يطير. وبالفعل فقد رمى الناس سياراتهم وبقيّة أمتعتهم جانباً، صارت عبئاً عليهم. وما عساهم فاعلين بالفضّة والماس والذهب؟ أسفوا لأنّهم قضوا حياتهم في طلبها! الإنسان هو الجوهر والجوهرة. وعندما يصعد الإنسان إلى السماء يريد ذاته خفيفاً. إن العالم يعيش ساعات من الفرح الإلهي، قلّما عرف لها مثيلاً طوال تاريخه الطويل.

قالوا: أهو حلم؟ كيف تصبح الأحلام واقعاً؟

أهي أمانينا؟ عندما تتحقق الأماني؟

أهي أخيلتنا ورؤانا؟ ولكن الرؤى أفقر جوهراً من الواقع والحقيقة!

وذات مساء من عام 1983 (رسالة 24 آذار) أطلّت الأمّ القدّيسة وهي باسمة تقول في بداية أطول وأغنى رسائلها:

"أبنائي،

مهمتي انتهت"

– أبهذه السرعة، يا أمّنا، قلنا؟! أوَليست هذه الأمسية هي عيد ذكرى بداياتك الأولى أنت؟

– النهايات في البدايات، يا أبنائي، وربّ نهايات قد تكون بداية بدايات أبعد مدى من البدايات السابقة!

ولم نفهم، فواصلنا حديثنا:

– ومتى تزورينا بعد الآن؟ أتتركين أطفالك يتامى؟ وأبناءك مشرّدين في هذا العالم الذي لا يرحم؟

– وهل أهملتُ يوماً أحداً منكم؟

وتربكنا العذراء بأجوبتها المفحِمة، قبل أن نُدرك معناها فنصرخ:

– نحتجّ، نرفض، نرجو، نصلّي، نبكي، نقبّل قدميك الطاهرتين، أنت التي لم يسمع أحد أنك أهملت واحداً من الذين لجأوا إليك طالبين مساعدتك...

– لا تحرجوني، تلك إرادة الذي، من العدم، خلقني وخلقكم. وهو على كل شيء قدير.

يوماً يذكر الإنسان حقائق صارت من طبيعته: لا تقتل، لا تكذب،... ومن نظر إلى امرأة غيره واشتهاها فقد زنى... يوماً تسقط الأقنعة. فالإنسان وجهاً لوجه أمام نفسه، وحقيقته، على نتيجة هذه المواجهة يتوقف مصيره الأبدي: إما أن يهرب إلى الأمام أو يسلك الطريق التي سلكها ويسلكها وسيسلكها البشر. ولم يعد يجعلني أتساءل ما إذا كان من الممكن لإنسان أن يسلك غيرها. فالعالم يفرز الخطيئة. والآب الذي ينتظر الابن الشاطر، يترصّد خطاه... يشقّ له الطرق من أجل الرجوع إلى بيت الآب الذي أعدّ له العجل المسمّن...

والأمر الذي لا شك فيه عندي هو أن الصوفانية هي إحدى هذه الطرق، أحدثها وربما من أميزها، إذ كانت استجابة الأم القدّيسة وابنها يسوع سريعة لكلّ طلب من طلبات المصلين. لا بل أن كلاًّ منها استعمل بدوره المبادهة كما رأينا. وبهذا تحدّدت رسالة الصوفانية كما رأينا، وبدأت تتّضح معالم روحانيتها. فطوال سبع سنوات وبضعة أشهر لم تنقطع الصلوات وتوالت الظهورات، الانخطافات، الرسائل،... بالإضافة إلى الزيت المتدفّق باستمرار... وبقيّة الخوارق والآيات والاهتداءات على الخصوص. والإنسان أي إنسان، بحاجة دوماً إلى طريق إلهه يهتدي إليه.

أما الشعب فيشكر، يطلب، يرتّل مجد الآب السماوي... يطيع أوامره، يمهّد كي يتقيّد بها وينتظر المزيد من رحمته.

هذا الشعب أعرفه. منه أمي التي حملتني تسعة أشهر في أحشائها، تسع سنوات على يديها وفي قلبها حتى وفاتها، همّ لا يفارقها. منه أبي الذي رعاني، وعندما يئس من عودتي إلى الحظيرة، ما برح حتى الدقيقة الأخيرة من حياته يصلّي إلى الله كي لا أبقى يتيماً... هذا الشعب، أنا منه، وهو الذي قادني ويقودني، رغم اعتقادي يوماً أنّي من قادته، هو الذي ربّاني وجعلني صورة حديثة طبق الأصل عن صورته رغم حداثتها. أجل هذا الشعب الذي أعرفه لأني منه، هو شعب مغلوب على ذاته، يجترّ ماضيه. إلا أن هذا الشعب مؤمن، إيمانه وجوده، ثقته المطلقة بالله، اتّكاله عليه، استسلامه لإرادته وصبره على الضيم... هي التي حفظته في الوجود حتّى اليوم وصانته من الانقراض والتشتّت.

أتكون ساعة فرجه قد دقّت اليوم؟ على الأرجح. ولم لا؟ ثمّة علامات كثيرة تدلّ عليها، منها الصوفانية وآياتها.

كان هذا الشعب في الماضي يسأل بلهفة المستغيث: أين هي الأم القدّيسة، فنحمل إليها

الورود والرياحين، ومعها قلوبنا المنهكة تُقَدِّمهَا ذبيحة حية إليه تعالى، عسى تستجيب فتحمل إلى الآب السماوي صراخ قلوبنا الدامي، وتطلب رحمته لنا وللناس أجمعين. واليوم ها هي الأمّ القدّيسة ذاتها تأتي حاملة معها إلينا ورود السماء، رياحينها ومعها العزاء والرحمة.

اليوم، في نهاية الأزمنة يصغي الربّ الإله لأنين قلوبنا، ويبعث إلينا بالأم العذراء تدشّن لنا وللبشر كلّهم أزمنة أخرى، وعهوداً جديدة ستكون بفضله تعالى أزمنة خير وبركة تعمّ العالم كلّه. ومع الأمّ القدّيسة، ابنها قدّوس الله يشقّ لنا الطريق إلى الآب السماوي، يدرّبنا، يعلّمنا ويأخذ بأيدينا كي نجتاز بأمان طريق الحياة العسيرة فنبلغ معه شاطئ الأمان.

ارحمنا يا الله، ارحمنا فقد خطئنا إليك

استجب، يا قدّوس الله، استجب

ارحم المظلوم والظالم، الرعيّة والراعي، المواطن والوطن والحاكم

ارحم الفقير والغني، الطفل والرضيع والشيخ الهرم، المريض والسليم.

ارحم الذي نسيك، والذي يذكرك

الذي لا يصلّي والذي يصلّي

الملحد والمؤمن

الأموات والأحياء

ساكني الأرض وساكني السماء

أليس يوم الأمّ العذراء في دمشق هو يوم الشفاعة، المسامحة، المصالحة للبشر أجمعين؟

من أتى منهم في الساعة الأولى ومن تلكّأ على الطريق فوصل في الساعة الأخيرة! من وصل ومن لم يصل، من صام وصلّى، ومن لم يصُمْ ولم يصلِّ...

ألسنا كلّنا أبناء الله وإخوة يسوع الذي اشترانا بدمه الإلهي؟ ألا ينتظر كلّ منا رحمته، على طريقته الخاصة؟

بصلبه وقيامته انتصر مسيح الله على الموت. وها هو الآب السماوي يستجيب لشفاعة الأم القدّيسة، يفتح أبوابه لجميع أبنائه، الأموات منهم والأحياء سواء بسواء... ولكل منهم قبلة المصالحة والعجل المسمّن.

تلك معجزة الأم القدّيسة، إنها أنزلت السماء على الأرض

معجزة ابنها يسوع، إنه، بدمه، أزال الفوارق كلّها بين الناس

معجزة الله تعالى، إنه خالق الجميع، أبو الجميع، وإن محبته شملت الجميع في يوم الأم القدّيسة وصوفانية دمشق. » (انتهى)

في ختام هذه الصفحات الخاصة بالمقدسي، أودّ أن أضيف فقرتين:

الأولى، أرسم فيها بإيجاز كثيف، خمسةً فقط من ملامحه النبوية السبّاقة:

الأول: إبان مؤتمر عُقد في برمّانا بلبنان، ما بين 21-1972/8/26. وضمّ الممثّلين عن حركات الشبيبة المسيحيّة، في الوطن العربي، قدّم انطون المقدسي، حديثاً عن الحضور المسيحي في الشرق، افتتحه على النحو التالي: وقف إزاء اللوح الأخضر الكبير، الذي يتصدر جدار قاعة المحاضرات، وكتب عليه، قبل أن ينطق بأيّة كلمة:

"المسيحي = مواطن + خدمة".

الثاني:

كان صباح 2004/11/19، أي قبل وفاته بخمسة وأربعين يوماً...

استدعاني هاتفيّاً إلى منزله. مضيت بسرعة. كان جالساً في مقعده، والإنهاك بادٍ عليه. قال:

"أبونا، بالأمس شاهدت على التلفزيون قصة جوقة الفرح، ولقاءكم بالشيخ حمزة شكور..."

ثم صمتَ في غصّة، واغرورقت عيناه بالدموع، فيما شفتاه ترتجفان... ثم تماسك بعض الشيء، ونظر إليّ طويلاً، وقال في حبّ ورجاء:

"أبونا، تابع... إياك أن تتوقّف! هذا هو الخط!... هذا هو الخط!..."

ثم عاد إلى صمته، فيما كانت الدموع تنساب من عينيه الوديعتَين... وشفتاه ترتجفان...

الثالث:

كان مشهد العديد من المثقّفين، من مختلف الأعمار، الذين كانوا يزورونه في بيته المتواضع، قُبيل نقله إلى المشفى بأيام...

كانوا يلتفّون حوله، التفاف الأولاد حول أبيهم، وكانوا يستشعرون وداعاً يأبَون التسليم به... ويسألونه... ثم يسألونه... فيجيب في بساطة ومودّة... وهم يصغون إليه في تلهّف وخشوع... وكأني بهم نحلاتٌ يرتشفنَ رحيقاً...

أحقّاً كان يومها في التسعين؟

الرابع:

في المشفى، ذات يوم من أيامه الأخيرة...

كنّا ثلاثةً في غرفته: السيّدة زوجته، والسيد أديب اللجمي، صديق عمره... وأنا...

كنّا نحدّق فيه صامتين... وطال صمتنا.

فجأةً، قال المقدسي:

"ترون؟ أودّعكم في هدوء..."

فقال صديقه أديب:

"ونحن نودّعك في محبّة"

فأجاب المقدسي على الفور:

"مثل ما بدأنا، مو هيك؟"

الخامس:

يوم وفاته، كنت أحدّق فيه صامتاً، وألف سؤال يعصف بي، فيما الدمع ينساب غزيراً من عينَي...

فجأةً، قال لي:

"أبونا، لا تبكِ عليّ..."

قلت:

"أنا لا أبكي عليك، بل أبكي..."

فقاطعني:

"أنا ذاهب، وقلبي على كلّ العرب، وخصوصاً على العرب المسيحيين!..."

الثانية، أذكر فيها مبادرةً قمت بها بتاريخ 2006/6/28، حيث قابلت الدكتورة نجاح العطار، نائب رئيس الجمهورية، وسلّمتها رسالةً أثير فيها أمرين، كان أولهما يتعلّق بأنطون المقدسي، والثاني يثير موضوع الحرية، بمناسبة اعتقال ميشيل كيلو... انطلاقاً من اعتقال ميشيل كيلو... وقد جاء فيها بشأن المقدسي، بالحرف الواحد:

« أشعر بحرج إن ذكرت أمامك صديقنا المشترك، المفكر المرحوم أنطون المقدسي، لأنك خير من عرفه ويعرف ما تركه من إرث ثقافي كبير. ولسوف يكون عملاً ثقافيّاً وفكرياً عظيماً، إصدار أعماله الكاملة بإشرافك الشخصي وبتقديم كريم منك ».

وإني لأرى أنّ ما أصدرت له وزارة الثقافة بعد ذلك، عام 2008، بإعداد وتقديم الدكتور علي القيم، تحت عنوان "انطون المقدسي... الأستاذ"، هو دون ما يستحقّ هذا المفكر الاستثنائي، ودون ما يحتاج إليه عالم عربي ينهار برمّته في ما يُراد له من جحيم قاضية...

8 - المفكر المبدع أديب مصلح:

هذا الإنسان والمفكر العربي المسيحي، حباني الله بصداقته منذ عشرات السنين. فرأيت أن أترك له أن يقول أمام الملأ، ما كان دور الصوفانية في توجّهه الروحي والفكري والثقافي، الاستثنائي حقّاً. فجاءني جوابه في اقتضاب مذهل، وبما عُرف عنه دائماً من اتضاع سحيق. قال:

« من المدن العديدة، في العالم، التي كرّمتها العذراء بظهورها، في ثمانينيات القرن العشرين، كانت محطتها الدمشقيّة ذات وقعٍ مميّز. فقد اشتركت مع ابنها في تذكيرنا بتعاليم الإنجيل الأساسيّة، وبدعوتنا للعودة إلى أجوائه النقيّة. لقد أكّدا حضورهما بين ظهراني أبنائهما، حضوراً يشيع الأمان والرجاء، وبالمقابل طلبا أن نذكرهما في كلّ أوضاع حياتنا، وبالصلاة المتواصلة، وبعبارةٍ حقّةٍ نابعةٍ من القلب، وشدّدا على واجب المحبّة، ومقابلة الشرّ بالخير، وعلى قبول الصليب وسيلةً وحيدةً للخلاص، وعلى التواضع، وأيضاً على قدسيّة الأسرة.

كان الربّ قد اختار دمشق مسرحاً لأعظم انقلابٍ روحيٍّ في التاريخ، عندما حوّل، عند أبوابها، أشدّ دعاة اليهودية عنفاً، وضراوةً في اضطهاد المسيحيّين، إلى رسولٍ مختارٍ له، ولسانٍ ينطق بإنجيله، وقلبٍ ينشر حبّه في المسكونة، وفكرٍ يبرز جدّة تعاليمه وسموّها.

وفي غروب القرن العشرين، وحيال سيل الأضاليل التي أغرقت الأذهان، وأطاحت بقيم الأخلاق، وقع خيار الربّ وأمّه على دمشق، ثانيةً، كي يطلق منها صيحة توعيةٍ وتذكيرٍ بمقتضيات الإنجيل التي تقود إلى الخلاص، ولكي يشيعا في قلوبنا الرجاء، كما يتّضح من قول يسوع: "بالصلاة تواجهون حقيقتي، وتجابهون كلّ الضربات"، "أنا معكم في كلّ وقتٍ"، ومن قول العذراء، وكأنّه صدى لقول ابنها: "لا تخافوا، أنا معكم".

ومثلما طمأن يسوع تلاميذه، عندما كادت العاصفة تودي بمركبهم في بحر الجليل، بقوله: "لا تخافوا"، ما انفكّ، في الصوفانية، يدعونا إلى نبذ الخوف، لأنّه هو وأمّه معنا، وإلى طرد القلق، بتأكيده: "أنا أدبّر أموركم، لأنّكم عمل يدَيّ". ولميرنا قال: "كوني قويّة، ولسانك سيفٌ ينطق باسمي"، "تأكّدي أنّني معك، ومعكم جميعاً".

ولم يقتصر الربّ وأُمُّه العذراء، على تشديد عزائمنا، بل أوكلا إلينا مهمّةً خطيرةً كونيّةً: "أنتم ستعلّمون الأجيال كلمة الوحدة، والمحبّة، والإيمان".

لقد أرادانا شهوداً، وبما أنّ الشهادة لا تكتمل ولا تؤثّر، إلاّ إذا أعلن المسيحيّون إيمانهم

بصوتٍ واحدٍ، وبقلبٍ واحدٍ، فقد شدّدا على الدعوة إلى السعي في سبيل تحقيق الوحدة، بدليل قول يسوع لميرنا: "إذهبي وبشّري، وأينما كنتِ فأنا معك"، "إذهبي إلى الأرض التي عمّ فيها الفساد، وكوني بسلام الله"، "سلامي في قلبك سيكون بركةً عليك، وعلى جميع الذين ساهموا معك".

ولكم أحبّا الصوفانيّة، ورفعا شأنها! فيسوع قال: "ما أجمل هذا المكان: فيه سأُنشئ ملكي وسلامي"، والعذراء قالت: "أنتم القلب الذي فيه سيبني يسوع وحدانيّته".

وتميّزت رسائل الصوفانيّة بتشديد يسوع على مكانة أمّه العذراء الفريدة في تدبير الخلاص، وعلى سموّ المكانة التي بوّأها إيّاها، وذلك بعباراتٍ قلّما سمعنا ما يضاهيها قوّةً وصراحةً. فما أروع قوله: "هي أُمّي التي ولدتُ منها. من أكرمها أكرمني، ومن نكرها نكرني، ومن طلب منها نال، لأنّها أمّي"، "أنا الخالق، خلقتها لتخلقني. ابتهجوا لابتهاج الأرض، لأنّ خلاصكم قد تحقّق"!

وفي وصيّته الأخيرة، عبّر الربّ عن إيثاره لشرقنا الذي نجا، إلى حدٍّ، من عدوى الانحلال الأخلاقيّ، والفراغ الروحيّ المستشريين في الغرب، ودعاه إلى الحفاظ على القيّم الأصيلة، عساه يكون منارةً للعالم. وبذلك أعتقنا من مشاعر الدونيّة حيال الغرب، وزوّدنا بأسباب فخرٍ وصمودٍ.

حيال ما أبداه لنا يسوع وأمّه من حبٍّ وعطفٍ، وثقةٍ، وتكليفٍ، توجّب على كلٍّ منّا أن يعبّر عن شكره بالأسلوب الذي يُتقنه، وأن يلبّي رغبة يسوع في تكريم أمّه، ونشر رسالة الصوفانية.

وربّما كان لي سهمٌ وضيعٌ في أداء هذه المهمّة. ففي سبيل تأكيد حقيقة الظواهر الخارقة ومفاعيلها، ترجمتُ كتاب الدكتور "أليكسي كاريل"، الحائز على جائزة نوبل في الطبّ، والذي لم يكن يؤمن إلاّ بالعلم، وقُيّض له أن ينضمّ إلى قافلة مرضى قاصدين لورد التماساً لمعونة العذراء، تحدوه نيّة فضح بطلان ما كان يظنّه أوهام أشفية عجيبة، فكان شاهداً على شفاءٍ لم يجد له تفسيراً علميّاً، بدّد أوهامه العلميّة، وأكرهه على الاعتراف بقدرةٍ تفوق قدرات البشر، وتعجز معارفهم، مهما بلغت من عمقٍ واتساعٍ، عن إدراكها وتفسيرها، فانقلب كلّ كيانه، وأعلن إيمانه من خلال ما خبره، حسّيّاً، بكتابه "الرحلة إلى لورد".

ومن أجل التعريف بظواهر خارقةٍ ينعم بها بعض مختاري الله، مثل سمات الصلب،

وضعتُ كتاباً عن الراهبة الكرمليّة العربية، الطوباويّة "مريم يسوع المصلوب"، وعن واحدٍ من أجمل وجوه الكنيسة، "فرنسيس الأسّيزي"، الذي أحبّ يسوع حتّى تمثّل به، محقّقاً قول يسوع، في الصوفانيّة: "من نظر إليّ أرسم صورتي فيه".

ثمّ عكفت على كتابة سيَر أعلامٍ جسّدوا تعاليم يسوع في زمننا، أمثال غاندي الذي عاش التطويبات الإنجيلية، كما لم يعشها سوى قلائل، وسيَر ثلّةٍ من أبطال المحبّة المسيحيّة في عهدنا: الأب بيير، والأمّ تيريزا، والأخت إيمّانويل، وجان فانييه. وتشرّفت بتلبية دعوةٍ كريمةٍ إلى وضع سيرة "رسول يسوع، وقلبه، ولسانه"، العظيم بولس، الذي بعد أنّ حوّل الربّ كيانه ومصيره، غدا رائداً في اكتشاف جدّة تعليم يسوع وسموّه، ونشره في كلّ أرجاء المسكونة.

ثمّ حقّقت، متأخّراً، رغبة معلّمي الذي أكنّ له أخلص محبّةٍ، وأعمق تقديرٍ، المرحوم الأب جورج فاخوري، فترجمت مأثرة الأديب الإيطاليّ "جيوفانّي پاپيني": "سيرة المسيح".

وبعد كلّ هذه الخطوات التمهيديّة، أقدمتُ، بكثيرٍ من الرعدة والتجلّة، على مخاطرة المهمّة الكبرى، التي طالما راودني حلمها، فوضعتُ: "يسوع في حياته"، و"يسوع في إنجيله".

وحينئذٍ كان لا بدّ لي من إتمام واجبي، بتكريم أمّ المخلّص، مثلما كرّمت ابنها، ومن تحقيق رغبة أخي الحبيب، الأب الياس زحلاوي، التي عبّر عنها في تعليقه على كتاب "يسوع في حياته" بقوله: "فهلاّ اقتدتنا، يا أخي أديب، إلى تلك التي سمّاها ملاك الله "الممتلئة نعمةً"، وسمّاها ابنها، في الصوفانيّة "باب السماء..." فوضعت، على التوالي: "أمّ الله أُمّنا"، و"مختارات مريميّة"، و"أمّ الرحمة".

وأخيراً، في سياق الصوفانيّة، باشرت سلسلةً تتناول أشهر الظهورات في العالم، ظهر منها، حتّى الآن، أحد عشر كتيِّباً.

ولكن، بعد كلّ ما فعلتُ، ما زال يرهقني شعورٌ موجعٌ، بأنّني لم أفِ سوى قسطٍ يسيرٍ من دَينِ جمائل يسوع والعذراء! » (انتهى).

هل لديّ ما أضيفه؟

أجل، لديّ ما أضيفه. ولكن حسبي اليوم أمران:

أولاً، إني أترك للأجيال العربية القادمة، من مسيحيّة وسواها، أن تكتشف الصروح

الأدبية، والإنسانية، واللاهوتية، الفريدة، التي أنجزها هذا المؤمن، بمحض إيمانه وجهده، في فترة زمنية قياسية، والتي عجزت عن بناء جزء يسير ممّا يماثلها، جميع الكنائس العربية، عبر تحدّيات تاريخها الطويل، حتى الساعة!

ثانياً، إنه لا يسعني، وأنا أكاد أختتم اعترافاتي الكهنوتية هذه، إلاّ أن أنتهز هذه الفرصة، لأقول اليوم في حرية مطلقة، ما حُظِّر عليّ قوله وكتابته عام 2003، في ختام تقديمي لكتابه الرائع حول القدّيس بولس، وهو شكري الصادق للربّ يسوع ولأمّه المباركة "سيّدة الصوفانية"، لأنهما رسما له في قلب العالم الصاخب، طريقاً غير طريق الكهنوت الذي كان أديب يشتهيه، فأتاحا له بذلك، أن يوجّه في انطلاقة ذاتية، أبداً حرّة، وأبداً متجدّدة ومتوثّبة، طبيعة فائقة الغنى والوداعة، لم يجد إلى اليوم، حتى بين محبّيه وعارفيه، من يدرك أهمية إبداعاتها، وثقلها وأبعادها!...

الفصل الثالث والعشرون

هل للصوفانية ما تقوله في قلب الأحداث الراهنة في العالم العربي، ولا سيما في سوريا منذ آذار 2011؟

إنّ للموضوع الذي أثيره الآن، من الخطورة والالتصاق بالواقع الحارق الذي تعيشه سورية منذ منتصف آذار 2011، ما يضطرّني للتحدّث عنه على نحو مباشر، بدءاً من عنوانه حتى آخر كلمة فيه...

وفيه، سأترك الكلام لمن هو وحده "الكلمة"، كما وُصِف في الإنجيل المقدس وفي القرآن الكريم، يسوع المسيح، ولأمّه المباركة، مريم العذراء.

ذلك بأنّهما تكلّما. وقد تكلّما بالعربية. وكانت تلك هي المرة الأولى، التي تكلّما فيها بالعربيّة، منذ أن عاشا في فلسطين، لألفي سنة خلت.

واختارا أن يتكلّما العربية في دمشق.

تُرى، هل من صدفةٍ لدى الله؟

ولِمَ هذا المكان بالذات، دمشق؟

ولِمَ هذا التوقيت بالذات؟

فلئن كان للإنسان أن يشكّك في كلام أيّ إنسانٍ، مهما علا شأنُه، بل كلّما علا شأنُه، فلكلام السيّد المسيح والسيدة العذراء، وزنٌ دونه وزن الكون بأسرِه!

وما قالاه، كان جديداً... وقديماً جدّاً، بل قِدم الله والإنسان معاً. وقد جاء تذكيراً عربيّاً معاصراً، لما جاء في الإنجيل منذ ألفي عام، من دعوة ملحّة وحرّة، للعودة إلى الله، في إيمان واتّضاع وتوبة ومحبّة، وإنها لَعودةٌ لا تؤتي أكلَها إلاّ في عودة فعلية وثابتة إلى الإنسان، كلّ إنسان، في اتّضاع ومحبة وغفران وسلام! وهل من حياة للإنسان من دون الله؟

بالطبع، أتمنّى لجميع العرب، أو أقلّه للكثيرين أن يعرفوا جميع هذه الأقوال البالغة الأهمية، إذ فيها، كما أرى، تتكشّف ملامح خطة إلهيّة، أجل أجرؤ وأقول خطة إلهيّة، تخصّ سورية أوّلاً، وتخصّ الشرق العربي ثانياً،

وتخص العالم كلّه ثالثاً. والذين سيُتاح لهم أن يعرفوا هذه الأقوال، في ذاتها وفي مضمونها، وفي إطارها الزماني والمكاني، سيتبيّنون صحة ما أجرؤ على التصريح به، في مثل هذه الثقة والبساطة.

غير أني أعرف أيضاً، أنّ الكثيرين في الوسط الثقافي العربي، في سورية وخارجها، أبوا على أنفسهم أن يُعيروا هذا الحدث أي اهتمام، هذا إن لم يكونوا قد واجهوه، كما صارحني بذلك أحدهم، وهو منهم، بالرفض المسبق، إن لم أقل بالسخرية. ويؤسفني أن أقول إنّ ذلك كلّه قد حدث، في الوقت الذي كان فيه الكثيرون أيضاً، ولكن في الغرب، من مثقّفين وعلماء وأطبّاء ولاهوتيّين وصحفيّين، قد قدموا إلى دمشق، في مبادرة ذاتية، وأخضعوا الظاهرة كلّها لاختبارات علميّة وطبيّة ونفسيّة، دقيقة وموضوعية وصارمة، قادتهم إلى الاعتراف بها والدعوة لها، بل والكتابة عنها، وقد تنوّعت دوافع العديد منهم بين العلميّ الصرف، والفضول والإيمان والشهادة!...

وأخيراً، لا بدّ لي من أن أذكّر العارفين والمتجاهلين معاً، بأن ما حدث في حي الصوفانية، في دمشق، قد حدث بدءاً من أواخر عام 1982، أي خلال فترة الاضطرابات الأمنية الأولى، المعروفة، ومن ثمّ طوال السنوات القليلة التي سبقت مباشرة، زماننا الجهنمي هذا.

بالطبع، ليس في نيتي أن أذكر كلّ ما ورد على لسان السيّدة العذراء والسيد المسيح، طوال اثنتين وعشرين سنة. إنه لرائع، وهو على اقتضابه، يمسّ حياة جميع الناس، سواء في الشرق أو في الغرب!

كما أنه ليس في نيّتي هنا أن أتوقّف عند أهمّ ما ورد فيه، لأنّ كلّ كلمة فيه تفتح آفاقاً على الله والإنسان، لا حدود لها...

حسبي إذن أن أذكر بعضاً من هذه الأقوال الكريمة، لأحاول استجلاء بعضٍ من أبعادها... في ما يخصّ واقعَنا الراهن، وفي ما يرسم، كما أرى، ملامح المستقبل القادم.

ولكن، بادئ ذي بدء، دعوني أصرّح، تبديداً لأيّ التباس، أنّ جميع أقوال السيّدة العذراء والسيّد المسيح، قد أُعلنت في حينها، بحرفيّتها، أمام الملأ.

وثمّة استثناء واحد، وهو الذي يستوقفني الآن، لأسلّط الضوء المنبعث منه على الجحيم التي تريد أن تأكل سورية اليوم، وإلى الأبد!

هذا الاستثناء يخصّ رسالةً للسيد المسيح، وردت مساء خميس الصعود بتاريخ 1987/5/28، في "بيت العذراء" في حي الصوفانية. فلقد بدت لميرنا من الخطورة بحيث

أنّها ارتأت من تلقاء ذاتها، أن تحجب عن الحاضرين قسماً منها، فيما هي أعلنت القسم الآخر، الذي كان يضمّ عبارتين فقط، لا أقصر ولا أغنى، وهما:

« أحبّوا بعضُكم بعضاً، وصلّوا بإيمان ».

ثم طلبت ميرنا من جميع الحاضرين أن يغادروا الغرفة، باستثناء الكهنة الثلاثة المتواجدين يومذاك، وهم الآباء: يوسف معلولي، وبولس فاضل، ورزق الله سمعان. وعندها فقط بدا الاضطراب على ميرنا، فأطلعت الكهنة وحدَهم، على حقيقة وكامل ما رأت وسمعت من الربّ يسوع. وكان الأب بولس فاضل، على عادته، يسجّل بكل دقّة وأمانة، أوّلاً كلّ ما لاحظ آنذاك لدى ميرنا، من قلق وتوتّر، ثم ما قالت لهم بالحرف الواحد، وأخيراً ما دار بينه وبينها، من حوار، باللغة المحكية، وبحضور الأبوين معلولي وسمعان.

وهذا التقرير الذي كتبه الأب بولس فاضل، أرى اليوم من الضرورة بمكان، أن أنقله كاملاً، بحرفيّته. وقد جاء فيه:

« انخطاف يوم خميس الصعود 1987/5/28

(القسم الأول من التقرير)

يوم الأربعاء عشية عيد خميس الصعود، بعد الصلاة التي تُقام كلّ يوم في بيت العذراء في الصوفانية، دُعيتُ لزيارة السيّد نزيه رعد في منزله. كنت متردّداً في قبول هذه الدعوة، لأنّني كنت متوقّعاً أنّ في هذا اليوم سيحدث شيءٌ ما، اعتماداً على الأمرين التاليين:

1- في هذه السنة وفي كلّ عيد سيّديّ (أي للسيد المسيح أو للسيدة العذراء) الأيقونة العجائبية تعطي زيتاً.

2- في 31 أيار 1984، وهو يوم خميس الصعود، حدث انخطاف للسيدة ميرنا، رأت فيه السيّد المسيح وأبلغها رسالة. (راجع الرسائل)

أخيراً قبلتُ دعوة السيّد نزيه. ولكن قبل الذهاب، تركت عند بيت نظور رقم هاتف السيّد نزيه وطلبتُ منهم الاتصال بي في حال حدوث أي شيء.

حوالي الساعة 10,35 ليلاً، تلقّى السيّد نزيه مكالمة هاتفيّة، من السيّد نقولا نظور، يُعلمه عن نزول الزيت من الأيقونة. تركنا كلّ شيء وتوجّهنا إلى منزل العذراء في

الصوفانية. وكم كانت دهشتنا وفرحتنا كبيرتين، عندما رأينا الزيت يملأ أكثر من نصف الجرن واستمرار الأيقونة بإعطاء الزيت نقطة تلو الأخرى (بين النقطة والأخرى حوالي 15 إلى 20 ثانية).

ثمّ حضر الأبوان رزق الله سمعان ويوسف معلولي، وعدد من الجيران والمعارف وبعض الزائرين. هنّأ بعضنا البعض بالعيدية وبهدية العذراء. بدأنا الصلاة بترتيل المدائح ومجموعة من التراتيل المريميّة المتفرّقة، ثم بطروبارية الصعود والقنداق التابع لها. ثم تلونا المسبحة والختام بترتيلة "تعال بيننا"، بناءً على طلب أحد المصلّين. وما إن بدأت السيّدة سلوى نعسان بالترتيل، حتى لاحظتُ على ميرنا ملامح الاضطراب، وكأنّ شيئاً سيحدث، جلست ميرنا على المقعد الموجود في أرض الدار، وشبكت يديها ووضعت رأسها عليهما، وإذ بالزيت ينساب من بين أصابعها. شعرتْ ميرنا بالزيت في يديها و لم تشأ أن يراها أحد، فانتصبتْ لتدخل غرفتها لكنّها لم تتمالك قواها فهوت. حملناها ووضعناها على السرير والزيت ينسكب من وجهها ويديها.

وهذه تفاصيل ما جرى:

12,35 زيت من الوجه واليدين وألم في العينين وتردّد كلمة: "يا رب".

12,40 بكاء بسبب الألم الناتج من تأثير الزيت على العينين مع كلمة: "يا رب".

12,44 دخول في الخطاف (يلاحظ بعض الانتفاخ في الوجه مع احمرار)

12,58 تنفس عميق وبداية تحرّك بطيء. تحرّك عام في الجسم. انضمام اليد اليمنى على اليسرى. مع انفتاح العينين ثم تسكيرهما (عدة مرات).

1,03 سألها الأب بولس: هل رأيت شيئاً؟

أجابت نعم (بهز الرأس).

س: مين؟

ج: **يسوع**

س: شو لابس؟

ج: **ثوب أبيض ورافع ايدو**

س: قلّك شي؟

ج: **وصية، مافي شي**

س: شي خاص؟

ج: **لا، إلنا، عن المحبة**

س: شو قال بالضبط؟

ج: **"أبنائي. أحبّوا بعضُكم بعضاً وصلّوا بإيمان".**

س: قال شي غيرو؟

ج: **بركة** (بمعنى بارك)

س: إلك أو للجميع؟

ج: **لا، إلكن**

س: شو قال بعد البركة؟

ج: **إلي، شي خصوصي، وشفلي جروحاتي**

س: وشو قالك؟

ج: **ما قال شي**

س: طلبتي منّو شي

ج: **ما لحقت.**

س: ما صليتيلنا إذن؟

ج: **هو معكن وأنا بدي صليلكن؟**

س: كيف شفتي المسيح؟

ج: **كان هون. شفت نور كتير قوي وكان لابس أبيض. بعد ما حكي بارك وكنتو معو وتركنا وراح.**

انخطاف يوم خميس الصعود 1987/5/28

(القسم الثاني من التقرير)

سُجّلت وقائع الانخطاف بالتفصيل في تقرير خاص من قبل الأب بولس فاضل باستثناء هـذا الجزء الذي بقي محفوظاً لحين إعلانه.

(بدت علامات التأثر على وجه ميرنا بعد الانخطاف كأنها تحمل في قلبها أمراً مقلقـاً. طلبتْ ميرنا من جميع المتواجدين في الغرفة الخروج باستثناء الكهنة المتواجدين وقتئذٍ وهم الآباء: يوسف معلولي، رزق الله سمعان، وبولس فاضل).

التوقيت: 1,27 صباحاً

(نقلتُ ما قالته ميرنا حرفيّاً وبالعربي المحكي)

قالت لي ميرنا بصوت متعب: **بعدني تعبانة... جاينا وقت كتير صعب يا أبونا، مــو علينا بس، عكل الناس.**

سألتها: شو الدليل؟

ج: **هو قلّي. لازم كتير نصلّي. لأنو باسمو بنخلص.**

س: هالزمن الصعب بخص الكنيسة؟

ج: **لا، شي عالمي، بسوريا ككل، هويه حرب، هويه جوع... ما بتخلصوا إلا باسمي. عــن جدّ شفتكم وشفت المسيح وكلنا حواليه.**

س: الشدة بتدوم كتير؟

ج: **يمكن نموت وما نشوف شي.**

س: كيف شفتي المسيح؟

ج: **كان هون. شفت نور كتير قوي وكان لابس أبيض، بعد ما حكى بارك وكنتو معو وتركنا وراح.**

س: كيف كانت حركة ايديه ليسوع؟

ج: **مدري هيك مدري هيك** (حاولت رسم شكل الحركة التي فعلتها أثناء الانخطــاف وهي حركة البركة كما يرسمها الكاهن بالطقس البيزنطي).

س: شفناكي عم تمتمي. كنت عم تصلّي؟

ج: نعم (بهز الرأس)

س: شو كنت عم تصلّي؟ صلاة حافظتيها؟

ج: **صليت يا يسوع الحبيب... لأنو هو قلّي مرّة: إذا تضايقتي صلّي هالصلاة.** »

هنا ينتهي تقرير الأب بولس فاضل.

من الواضح أنّ ما ذكرته ميرنا في كلمات قليلة، يُغني عن كلام كثير، ويُلغي جميع التأويلات المحتملة، أية كانت.

ويومها، كنتُ في باريس. وعندما اتصلتُ بالصوفانية هاتفياً، مستطلعاً الأنباء، علمتُ من ميرنا نفسِها أنّ ثمّة أمراً خطيراً رافق الانخطاف، وقد رأت بحدسها

الذاتي، ألاّ تُطلِعَ عليه إلاّ الكهنة الحاضرين، على أن تُطلِعَني عليه بدوري، فور عودتي إلى دمشق.

وهنا، كما أوردت للتو القسم الذي بقي سرّياً حتى اليوم، من تقرير الأب بولس فاضل، أرى لزاماً عليّ أن أورد أيضاً ما جاء بهذا الشأن، في كتابٍ لي، طُبع عام 1990 تحت عنوان: "الصوفانية 1982 – 1990"، والذي ذكرتُ فيه وقائعها تبعاً لمشاهداتي الشخصية، بتفاصيلها وتسلسلها، بكل أمانة. ومن المعروف أنّ هذا الكتاب عرف طبعة أولى عام 1990، ثم عرف طبعتين أخريين متماثلتين مع الطبعة الأولى، وأخيراً أعاد الأب عادل تيودور خوري، الطبعة إياها، عام 2011، في مطبعة الآباء البولسيين بجونية. وقد جاء في الطبعات الثلاث الأولى، في الصفحتين (186-187)، وفي الطبعة الرابعة، في الصفحة (170)، الفقرتان التاليتان بالحرف الواحد:

« 1) "يوم الجمعة 31 أيار، وكان اليوم التالي لعيد الصعود (وهذا خطأ مني أعترف به إذ كان يقع في 29 أيار)، اتصلت هاتفياً من بلدة اسباليون، وبحضور الدكتور انطكلي، بدمشق... فعلمت من ميرنا نفسها أنها رأت الرب، أثناء الانخطاف الذي أعقب انسكاب الزيت من الصورة، حوالي الساعة 23 ليلاً، وقد بارك يسوع المصلين، وقال: "أحبّوا بعضكم بعضاً، وصلوا بإيمان!" وأضافت: "ائتمنني على أشياء بلّغتها الكهنة الموجودين آنذاك، وأنتظرك لأطلعك عليها"

2) "فور وصولي إلى دمشق، مررْتُ بالصوفانية، قبل أن أمضي إلى بيت أهلي. صلّيت مع جميع الأصدقاء هناك، وعرفت من ميرنا ما ائتمنها عليه الرب..." » (انتهى)

والحقيقة تقتضيني الاعتراف الصريح، بأنّ ما أطلعتني عليه ميرنا، كان يُنبئ بحدوث أمور في منتهى الخطورة في سورية، وربما في العالم. وهذا هو بالذات ما جعل ميرنا تقرّر من تلقاء ذاتها، إخفاءه عن الجمهور، وإطلاع الكهنة فقط عليه.

بالطبع، ما كان لنا، نحن الكهنة، أن نُهمل مثل هذا "الإنذار"، أو نتجاهله. ولكن السؤال المطروح والمُلحّ كان: ما العمل؟ ما هو المطلوب منا؟ أذكر أننا صلّينا كثيراً، وتبادلنا الرأي كثيراً. ولكن ما كان يستبدّ بنا من شعور، إزاء ما قد يُطلب منا، كان باهظ الثقل، ومحيّراً إلى أقصى الحدود.

إلاّ أنّ ما حدث، فقد حدث. وكان يلاحقنا، نحن الكهنة، ليل نهار. فكنّا نبحث عن توجيه ما!... ومضى شهران كاملان، ونحن في صلاة وترقّب... حتى قاربنا عيد انتقال السيّدة، وهو يقع في 15 آب من كلّ عام. فرأينا أن نلتقي ميرنا، ونسألها أمراً ما...

وهنا، أترك لما جاء في كتاب الصوفانية، الذي طُبع عام 1990، أن يروي لنا ما جرى في تلك الفترة، بتفاصيله كلّها. جاء في الصفحات (201-203):

« قبل أن أطوي أحداث عشيّة عيد انتقال السيّدة، أودّ أن أذكر حادثاً آخر له دلالته: ليلة 13 آب 1987، أَجريتُ مكالمتين هاتفيّتين مع فرنسا: الأولى طلبتُ فيها الدكتور جان كلود انطاكلي، أسأله فيها نصحاً بسبب وضعي الصحي آنذاك. والثانية طلبني فيها الصحفي كريستيان رافاز، ليتأكد من تاريخ مجيئي إلى فرنسا، وكنت حدّدته معه في منتصف أيلول (سبتمبر).

وقد قلت لكلٍّ من الدكتور انطاكلي والصحفي رافاز، أننا نتوقّع حدوث شيءٍ ما في مساء 14، أي اليوم التالي.

فرجاني كلاهما أن أتّصل بهما هاتفيّاً في حال حدوث شيء ما.

وهذا ما فعلته فور عودتي إلى غرفتي مساء 14 آب، فرويت لهما ما حدث، وأعطيتهما نصّ الرسالة كما جاءت في الانخطاف.

إلا أنّ السيّد كريستيان رافاز أراد أن يعرف المزيد. فقد كان عَلِم إبّان حضوره إلى دمشق، أنّ يسوع أعطى ميرنا رسالة مثيرة، ليلة عيد الصعود 28 أيار 1987، رأت ميرنا أن تبلّغها الكهنة فقط، الكهنة المتواجدين آنذاك، وأنا شخصيّاً بعد عودتي إلى دمشق. وقد كان كريستيان رافاز سمعني والأب معلولي، نتبادل الرأي مع ميرنا حول ضرورة سؤالها يسوع أو العذراء، ما إذا كان يجب علينا أن نُعلِن الرسالة أم لا، في الوقت الحاضر... بسبب ما قد يترتّب على ذلك من نتائج ذات وزن... واستناداً إلى ذلك، سألني السيّد رافاز على الهاتف، إذا كان جوابٌ ما قد أُعطِي خلال الانخطاف حول هذا التساؤل. أكّدتُ له أن نعم، على أن أوافيه بالمعلومات فيما بعد... وفي الواقع كتبت له رسالة بتاريخ 25 آب، أخبره فيها أنّ يسوع أعطى ميرنا جواباً عن السؤال، قبل أن تطرحه عليه...

ذلك أني كنت والأب معلولي، والأب بولس فاضل، قبل عيد انتقال السيّدة بيومين، قد تبادلنا الرأي مع ميرنا في جلسة خاصة، وألححنا عليها كي تطرح السؤال خلال الانخطاف... فوعدتنا بذلك، في الوقت الذي كانت تقرّ فيه بأنّها لا تدري كيف ستفعل، أو ما إذا كان سيُتاح لها أن تفعل. وقد أجمعنا نحن الكهنة على الإلحاح عليها، كي تغرس الفكرة في ذهنها، وتصلّي، تاركةً للرب أن يفعل هو ما يحلو له.

والحال أنّ ميرنا سمعتْ صوتاً منبعثاً من "النور"، يقول لها خلال هذا الانخطاف، وقبل أن يُعطيها الرسالة، سمعَته يقول لها باللغة العاميّة:

"الشّي هللي اجيتي مشانو، لا تحكوا فيه هلّق".

وقد سمحتُ لنفسي بأن أنقل للسيد رافاز هذه العبارة، ولكنّي رجوته أن يحتفظ بها لنفسه. وقد أتاحت لنا، نحن الكهنة، هذه العبارة فرصة للتأمّل الطويل، وتبادل الرأي حول الصلاة ومفاعيلها، وحول رحمة الرب وما قد يخفيه من مستقبل لكنيستنا وبلادنا...

ذكرت أنّي كنت دعوت الأستاذ مقدسي للمجيء، إلى الصوفانية... ولحظة الانخطاف أرسلتُ من اتصل به هاتفياً يحضّه على الحضور... ولكنّه لم يصل إلا في الساعة الثامنة... أخبرني أنّه تأخر بسبب وجود السفير الفرنسي وزوجته لديه، ووجود الشاعر أدونيس... ولكنّه ما إن سمع مضمون الرسالة، حتى انتحى بي جانباً، وقال لي: "أبونا، أنا مقتنع بضرورة نشر مذكّراتك حول الصوفانية!. وأنا سأكتب لك المقدمة". فاجأني الأستاذ المقدسي بهذا القرار الأخير، لأنه كان قبل أيام قليلة، إذ رجوته أن يكتب هو المقدّمة، اعتذر بسبب ضغط العمل، وأنا أدرى الناس بذلك... فاجأني الأمر وأفرحني جداً.

واتّخذت في ذلك المساء قراراً نهائياً بنشر مذكراتي. » (انتهى)

لقد سمعت ميرنا، إذن، هذه العبارة باللغة العاميّة، كما نقلتها لنا، قبل أن تُملَى عليها الرسالة:

"الشي هللي اجيتي مشانو، لا تحكوا فيه هلّق!"

كان هذا "التوجيه" في منتهى الوضوح والصراحة. وليس لي أن أُنكِر أنه أراحنا نحن الكهنة، وأراح ميرنا ونقولا زوجها. ولكننا كنّا كلّنا، إلى ذلك، نتوقّع ما يكمّله في توقيت لا بدّ آتٍ، وما قد يوضّحه لنا، حتى في طريقة تبليغه. ومرّت السنوات، دون أن يَرِدَنا أيّ شيء من هذا القبيل، حتى حلّ بسورية هذا الكابوس الجهنّمي!

وكان أن دُعِيت ميرنا لمقابلة على فضائية "نورسات" اللبنانية، مساء 2013/2/11، شاركها فيها زوجها نقولا، والأب الياس سلوم. ففاجأت جميع المشاهدين، خلالها، بإشارتها، وإن بطريقة مقتضبة، إلى رسالة 1987/5/28، وأفضت منها إلى ما يجري في سورية، منذ منتصف شهر آذار عام 2011. وقد صارحتني، إثر هذه المقابلة، وكنت لا أزال في دير الآباء البولسيّين بحريصا (لبنان)، أنّها لم تتذكّر تلك الرسالة إلا قبل يومين أو ثلاثة، بعد أن كان الأب بولس فاضل قد ذكّرها بها!

وكانت تلك المقابلة فرصةً لنا، نحن الكهنة، رعاة الصوفانية - الآباء عادل تيودور خوري، وبولس فاضل، والياس سلوم وأنا - وقد تواجدنا كلّنا في حريصا يومذاك، أن نتبادل الرأي بهذا الشأن، عسانا ننتهي إلى الموقف الذي يتوجب علينا اتخاذه في هذا الزمن الصعب. وقد شاركنا في أحد الاجتماعات اثنان من عشاق الصوفانية، وهما فريد بولاد وزوجته مايا بتساليدس. وكان أن أعدنا مرّاتٍ قراءة النص الذي كانت ميرنا قد أملته آنذاك على الآباء معلولي وفاضل وسمعان، بعد ورود تلك الرسالة مباشرة، كما أننا أعدنا أيضاً قراءة ما كتبته أنا فيما بعد، عام 1990، بهذا الشأن، في كتابي "الصوفانية"، فانتهينا إلى التمسك بما كان دائماً ثوابتنا في الصوفانية، التي لم نحد عنها يوماً. ونحن نعني بذلك أوّلاً، المشاهدة المتواضعة للأحداث، ثانياً الشهادة الأمينة لها، ثالثاً، الاعتراف الصريح بها، رابعاً وأخيراً الإعلان الكامل عنها، قولاً وكتابة، في دمشق، وعلى نطاق العالم.

ثمّة نقطة أخيرة وبالغة الأهمية، تستوقفني بشأن هذه الرسالة الخطيرة، رسالة ليلة 1987/5/28. إنها تأكيد ميرنا، لحظة خروجها من الانخطاف، إذ كانت تُملي على الأب بولس فاضل، ما رأت وسمعت خلاله، على ضرورة الصلاة شرطاً للخلاص، كما أوصاها بذلك السيّد المسيح، إذ كانت تقول آنذاك بلغتها العامية:

« هو قللي. لازم كتير نصلي. لأنّو باسمو منخلص »

وقد كرّرت أيضاً هذا القول على لسان يسوع:

« ما بتخلصوا إلاّ باسمي! »

صحيحٌ أنّ مطلبَ الصلاة هذا رافق حدث الصوفانية منذ الرسالة الأولى، وقد جاءت الاستجابة الفورية له، منذ انبثاق أول نقطة زيت من الأيقونة المقدسة حتى اليوم... إلا أنّ السيّدة العذراء والسيد المسيح، كانا، في كلّ ما قالاه، دائمَي التذكير لنا به... ولا يفتنا أن نذكر أنّ أولى الصلوات التي علّمتنا إيّاها السيّدة العذراء، كانت ليلة الحادي والعشرين من شهر شباط عام 1983، حيث قالت باللغة العامية:

« طالبة منكن طلب.

كلمة بترسخوها ببالكن، وبتردّدوها دوماً:

"الله بخلّصني، يسوع بنوّرني، الروح القدس حياتي، فأنا لا أخاف... »

ولا يفتنا أيضاً أن نذكر أنّ يسوع شاء أن يعلّمنا في أوّل رسالة له، وكانت هي أيضاً

في يوم عيد الصعود، الموافق 31 أيار 1984، صلاة "يا يسوع الحبيب"، التي قالت فيها ميرنا ليلة 1987/5/28، بالحرف الواحد:

"صلّيت يا يسوع الحبيب... لأنّو هو قلّي مرّة: إذا تضايقتي، صلّي هالصلاة!"

وهنا، يبدو لي أنّه من الأهمية بمكان، أن نتذكّر أنّ أوّل انخطاف حدث لميرنا، بعد انخطاف 1987/5/28، قد حدث لها في بلدة معاد بلبنان، بتاريخ 1987/7/22، يوم كان لبنان غارقاً في جحيم الحرب. وما أحوجنا اليوم، لا في سورية وحدها، بل في الشرق كلّه أيضاً، إن لم أقل في العالم بأسره، أن نستعيد بالحرف الواحد، ما قال الرب يسوع لميرنا، في انخطاف معاد، إذ كان الزيت ينسكب على رأسها من قدمي المصلوب، وهي راكعة تحت الهيكل مباشرة:

« لا تخافي، يا ابنتي، سأربي جيلي فيك.

صلّوا، صلّوا، وصلّوا. وإذا صلّيتم قولوا:

"أيّها الآب، بحقّ جراحاتِ ابنِكَ الحبيب، خلّصنا!" »

فما أشبه أيّام دمشق، بأيام لبنان!

ويا لها من دعوةٍ تكاد تقصُر كلماتها كلّها على الصلاة!

ويا له من وعدٍ بالخلاص يأتينا من الله الآب بجراحات الابن الكلمة!

ويا له أيضاً من وعد، بل من تعهّد، بانطلاقة البشارة مجدّداً، بشارة المحبّة والسلام.

صحيحٌ أنه قال لميرنا هنا، وفي أوقات أخرى:

« سأربيّ جيلي فيك »...

إلا أنّ الصحيح أيضاً أنّ أولى رسائل السيّدة العذراء، جاء فيها قول يعيدنا كلّنا إلى انطلاقة البشارة الأولى. وقد قالت فيها:

« بشّروا بابني عِمّانوئيل! »

والصحيح الصحيح أيضاً أنّ الربّ يسوع نفسَه ختم رسائلَه ورسائلَ أمّه بقوله يوم سبت النور، 2004/4/10:

« من هنا، انبثقَ نورٌ من جديد،

أنتم شعاعُه،

لعالمٍ أغوته المادةُ والشهوةُ والشهرة،

حتى كادَ أن يفقِدَ القيم. ».

وإني لأرى أنّ الصحيح الذي يعلو على كلّ صحيح، هو أنّ كلامَ الربّ يسوع خلْقٌ، أجل خلْقٌ لا يقدر عليه سواه!

وإني لأكاد أسمع في الصوفانية، صوتَ بولس يقول لنا اليوم في دمشق:

« إنّي أحسبُ أنّ آلامَ الوقت الحاضر، لا توازي المجدَ الذي سوف يتجلّى فينا،
فإنّ الخليقةَ تنتظرُ بفارغ الصبر، تجلّي أبناء الله،
لأنّ الخليقةَ أُخضِعت للباطل، لا طوعاً، بل بسلطان الذي أخضعَها،
ولكن على رجاء أنّ الخليقةَ نفسَها ستُحَرَّر هي أيضاً من عبودية الفساد، إلى حرية مجدِ أولادِ الله. » (روما 8/18-21)

والآن يبدو لي، بعد هذا الشرح المستفيض بشأن رسالة 1987/5/28، أنه بات بوسعي أن أتناول بشيء من التحليل الضروري، بعضاً من الآيات الكريمة، التي نطقت بها السيّدة العذراء، وتلك التي نطق بها السيّد المسيح، علماً بأني سأنتقيها آياتٍ وجيزةً، من صلب رسائل طويلة أو قصيرة. وإني لأنتقيها وفقاً لموضوعات رئيسية ثلاثة، أوّلها يخصّ الله وحده، ثانيها يخصّ الأخوة البشريّة الشاملة، وثالثها يخصّ المسيحية حصراً. وثمة رسالة أيضاً، وكانت الأخيرة، وقد تفوّه بها السيّد المسيح في 2004/4/10، وسأذكرها كاملةً، لأنها، على إيجازها الكثيف، تخصّ العالم بأسره!

ولأبدأ بذكر الله.

قالت السيّدة العذراء، في مطلع رسالتها الأولى، ليلة 1982/12/18، في حي الصوفانيّة، في لغة عربية فصحى:

« أبنائي،
اذكروا الله
لأنّ الله معنا! »

إنّ الله، جلّ جلاله، في اعتراف كلّ مؤمن، هو البداية وهو النهاية.

وهل هناك ما هو أعظم وأكرم من ذكر اسمه تعالى، في إيمان واتضاع وتوبة؟

وهل هناك في الشرق كلّه، من يعترض على ذكر الله؟

أوَلَيس حضوره الدائم في حياة الإنسان، هو وحده العامل الحاسم في انتفاء كلّ شر منه؟

أوَلَم تقل الآية الكريمة أيضاً:

« كلّ مَن عليها فان، ويبقى وجهُ ربِّك، ذو الإجلالِ والإكرام »؟

وأنتقل إلى الموضوع الثاني في رسائل الصوفانية.

أعني به الأخوّة البشرية الشاملة. وفيه قالت السيّدة العذراء، عبارتين في غاية الرقة والوضوح، في زمن تنتشر فيه رياح الحقد والكراهية، والرعب والقتل، على نطاق العالم كله!

جاءت أولى هاتين العبارتين في دمشق، باللغة العربية العامية، يوم 1983/11/4، حيث قالت:

« قلبي احترق على ابني الوحيد،

ما رح يحترق على كل أولادي! »

ومن الملاحظ أنه لم يسبق للسيدة العذراء أن تلفّظت بمثل هذه العبارة، لا من قريب ولا من بعيد، في أيّ من ظهوراتها الكثيرة والمعترف بها، حول العالم. وقد يتبادر إلى ذهن البعض، أنها تعني بكلمة "أولادي"، المسيحيين فقط. إلا أنّها، في رسالتها الثانية المتعلقة بالأخوّة البشرية، أطلّت على العالم، في بلدة "براسكات" (Braschaat) البلجيكية، وبحضور أطبّاء وحشد هائل من المؤمنين الغربيين، برسالة أفصحت فيها دون أي لبس، عن أمومتها الروحية والحقيقية لكلّ إنسان على وجه الأرض، فقالت يوم الأربعاء 1990/8/15، أي قبل العدوان العالمي الظالم على العراق، بخمسة أشهر تماماً، هذه الكلمات فقط:

« أبنائي،

صلّوا من أجل السلام، وخصوصاً في الشرق،

لأنكم كلّكم إخوةٌ في المسيح! »

لو كان للغرب أن يفهم!

أما الشرق، وقد ألف، منذ القديم، أن ينادي كلُّ إنسان فيه يلتقي غريباً، بكلمتي "أخي" و"أختي"، وبكلمتي "عمي" و"خالتي"، إذا كان هذا الغريب مُسنّاً، فهل فيه اليوم من يخطر بباله أن يرفض دعوة كريمة مثل هذه، من أجل قيام أخوّة حقيقية بين جميع البشر؟

وأما الموضوع الثالث، الذي يعني المسيحية حصراً، فقد وردت فيه ثلاث عبارات، واحدة على لسان السيّدة العذراء، والاثنتان على لسان السيّد المسيح، إحداهما مطابقة للأولى، والثانية متمّمة لهما.

قالت السيّدة العذراء في 1983/3/24، في لغة عربية فصحى:

« أنتم، ستعلّمون الأجيال كلمةَ الوحدةِ والمحبّةِ والإيمان »

وسيأتي يوم يقول فيه السيّد المسيح في دمشق أيضاً، في مطلع رسالة طويلة له، بتاريخ 1986/11/26، في لغة عربية فصحى:

« ما أجملَ هذا المكان!

فيه سأُنشِئ مُلكي وسلامي،

فأعطيكم قلبي، لأمتلكَ قلبَكم »

في هذه الأقوال الثلاثة، الكريمة، وعود صريحة، لا لبس فيها، بانطلاقة جديدة للمسيحية في الشرق، ومن الشرق. وإزاء هذه الوعود السَنِيّة، أجدني أتساءل بصوت عالٍ، هل من إنسان واحد على وجه الأرض، ولا سيما في الشرق العربي، لا يتمنّى أن يكون فيه للسيد المسيح "مُلك وسلام"؟ بالطبع شريطة أن يكون "ملكاً وسلاماً"، على صورة السيّد المسيح، كما صوّره لنا "الإنجيل المقدس" و"القرآن الكريم"، أي أن يكون "آيةً للعالمين" بلطفه ومحبّته ورحمته! أما أن يكون "مُلكاً وسلاماً"، كما شاءته كنائس الشرق والغرب، منذ عهد الإمبراطور قسطنطين، فلا، وألف لا. وإني لأعلنها بالفم الملآن، أنا الكاهن العربي الكاثوليكي. فهل هناك من يجهل ما هَوَت فيه الكنيسة، طوال مئات السنوات، من شتّى إغواءات السلطة الزمنية؟ ولقد أساءت بذلك إلى السيّد المسيح بالذات، بقدر ما أساءت إلى ذاتها، مسؤولين ومؤمنين، ومن ثم إلى البشرية جمعاء. فإنّ أخطاءها التاريخية هذه، تقف بمثابة سبب رئيسي، في سقوط المجتمع الغربي برمّته، منذ عشرات السنين، على نحو متسارع ووحشي، بل وبهيمي، في آلية تأليهٍ أعمى وفعلي ومُعمّم، لكل ما هو "مادة وشهوة وشهرة". وهي آليّة قادته وتقوده كل يوم، في منهجية جهنمية حقّاً، إلى قتل كلّ قيمة فيه من جهة، وإلى انتهاج خطة عالمية ومحكمة، لإخراج كلّ مَن عَداه، أفراداً وشعوباً، من دائرة الحياة والتاريخ!

وهنا تأتي، في إطارها الأمثل، آخر رسالة تلفّظ بها السيّد المسيح، في حي الصوفانية، بلغة عربية فصحى، يوم سبت النور، الموافق 2004/4/10، بحضور حشد كبير من أطبّاء ولاهوتيين، وصحفيّين، ومؤمنين، قدموا من البلاد الاسكندنافية، وألمانيا وفرنسا والولايات المتحدة، وبالطبع من سورية ولبنان. وأنا أوردها بنصها الكامل، قال:

« وصيّتي الأخيرة لكم:

إِرجعوا كلّ واحدٍ إلى بيته.

ولكن إِحملوا الشرقَ في قلوبِكم.

من هنا، انبثقَ نورٌ من جديد،

أنتم شعاعُه،

لعالمٍ أغوته المادّةُ والشهوةُ والشهرة، حتى كادَ أن يفقدَ القيم.

أما أنتم،

حافظوا على شرقيّتكم!

لا تسمَحوا أن تُسلبَ إرادتُكم،

حريّتُكم وإيمانُكم في هذا الشرق! ».

ترى، كيف لي أن أعلّق على رسالة، أعلنها السيّد المسيح وصيّةً أخيرة له؟ فلئن كانت وصية إنسان عادي، تكتسي قدسيّةً تفرض على كلّ إنسان تنفيذها بحذافيرها، فما عسى العالم يفعل بوصية للسيد المسيح، جامعة، مانعة، يأتمننا عليها، بعد صعوده إلى السماء، بألفي عام، في دمشق؟

صحيح أنّ كلمات هذه الوصية أقلّ من قليلة، إلا أنها تحتوي العالم كلّه، بماضيه وحاضره، ومستقبله. ففيها تشخيص في منتهى القسوة بحق الغرب كلّه، وإن جاء ملطّفاً بعض الشيء. وفيها دعوة للغربيين الحاضرين آنذاك، من أطبّاء ولاهوتيين وصحفيين ومؤمنين عاديين، أن يحملوا إلى هذا الغرب بعينه، نور الشرق في قلوبهم، كي يكونوا مناراتٍ فيه، بدل أن يَدَعوا الغرب يَصبّ على الشرق، نار حقده وجشعه وقنابله! وفيها أيضاً دعوة مزدوجة صارخة، يوجّهها السيّد المسيح نفسُه، إلى جميع أبناء الشرق دون استثناء، بكل فئاتهم وأديانهم وأعراقهم، كي يحافظوا على ما سمّاه "شرقيّتهم"، في حين كان يتوقّع الكثيرون أن يدعوهم للحفاظ على "مسيحيّتهم"! أفلا

تعني تلك الدعوة المفاجئة، أنّ السيّد المسيح يُلحّ على هؤلاء "الشرقيّين"، كي لا يدعوا مجتمع الغرب - بعد أن استبعد الله بالكلية، من حياته الخاصة والعامة، وبات لا يدين إلا بما سمّاه السيّد المسيح، بصريح العبارة، "المادّة والشهوة والشهرة" - يبتلع الشرق والشرقيّين، في بحر مغرياته المادية، وحريّاته الإباحيّة، وإنجازاته العلميّة؟ وإني لأرى أيضاً وخصوصاً، أنّ هذه الوصية تدعو جميع "الشرقيين" إلى إدراك سرّ بقائهم وتأثيرهم، على فقرهم المادي والعلمي، في تماسكهم وتحابّهم، وتضامنهم، وبعبارة أوضح، في عيشهم المشترك، مسلمين ومسيحيين ويهوداً!

بالطبع، كلّ ذلك لا يعني أنّ هذا العيش المشترك كان جنّةً على الأرض، وأنه لم يكن يخلو من ثغرات قاسية. إلا أنه كان خيراً ألف مرة، مما كان الغرب كلّه قد خبر، من حروب دينية طاحنة، ألّبت المسيحيّين فيه على بعضهم البعض، طوال مئات السنوات، فقتلت وهجّرت وأحرقت وشرّدت، على نحو يصعب على المرء تصوّره! وهو يعني أيضاً أنّ هذا الغرب بالذات، الذي يسعى منذ عقود طويلة، بجميع السبل، إلى تدمير الشرق، لغايات باتت مفضوحةً، هو اليوم بأمسّ الحاجة إلى ابتكار نمط من العيش المشترك، خاص به وبمجتمعاته كلّها، يجنّبه ما ينتظره من تفجّرات داخليّة، مدمّرة، آتية حتماً، نتيجة ما زرع بيديه الاثنتين، في داخله، وفي جميع جنبات "إمبراطوريته"، من قنابل بشرية موقوتة، نتيجة جشعه واستهتاره، وعنصريته، وغطرسته، من جهة، ونتيجة ما أشعل بالأمس، ويشعل اليوم، على نطاق العالم، من حروب وحشيّة، مفتعلة من جهة ثانية، كانت آخرها وأبشعها على الإطلاق، تلك الحرب التي يشنّها هو، بمسلمي العالم وأموالهم، على سورية!

وإني لأرى في هذه النقطة بالذات، بُعداً آخر قويّاً وحاسماً، لآخر عبارة وردت في هذه "الوصية"، حيث جاء: "لا تسمحوا أن تُسلبَ إرادتُكم، حريتُكم وإيمانُكم في هذا الشرق"! ففيها دعوة صريحة، بل محرّضة، لمقاومة كلّ ما من شأنه أن يُلغي الإنسان، بوصفه إنساناً، إذ ماذا عساه يتبقّى من الإنسان وللإنسان، إذا ما انتُزِعت منه "إرادته وحريّته وإيمانه"؟ وفي ضوء ما يُراد له أن يحدث في سورية، وفي الشرق العربي كلّه، من دمار ماديّ وروحي، ومن قتل وإرهاب وتشريد، لا بدّ لي من أن أتساءل وأسأل، ماذا عساه سيتبقّى من الإنسان وللإنسان، إذا ما انتُزِعت منه أيضاً، أرضه وكرامته، وآماله وأولاده، وأهله وتاريخه؟

إنّ لفي هذه "الوصية" وحدَها، برنامج عمل هائل، بالنسبة إلى كنائس

العالم كلّها، ولا سيما بالنسبة إلى كنائس الشرق... إلا أنّ أيّاً من تلك الكنائس لم تفطن، على الرغم ممّا حدث ويحدث في هذا الشرق بالذات، لما جاء من تحذير واستنهاض ووعود، في أقوال السيّدة العذراء والسيد المسيح. وإني لأتساءل ما الذي يجب أن يحدث، أكثر ممّا حدث، حتى الآن، في طول الشرق وعرضه عامّة، وفي سورية خاصّة، كي تستيقظ هذه الكنائس، وتتّخذ من هذه الأقوال، مرجعاً تعود إليه في إيمان واتضاع وابتهال، علماً بأنّ جميع المسؤولين فيها دون استثناء، تقبّلوا رسائل الصوفانية، واستقبلوا "رسولتها" ميرنا، في كنائسهم جميعاً، وصلّوا معها، وعاينوا بأمّ العين الإشارات الواضحة من زيت أو انخطاف أو رسالة... بحضور الآلاف من المؤمنين، في كلّ بقاع الأرض! ولكم آلمني أن أعرف أنّ المجمع الكنسي الأخير، الذي ضمّ في بلدة حريصا بلبنان، جميع البطاركة والأساقفة الكاثوليك في الشرق العربي وإيران، في أواخر عام 2012، لم يُذكر فيه أيٌّ من هذه الأقوال الخطيرة والهادية. وكان أن خرج هذا المؤتمر "الاستثنائي"، بما وصفه لي أحد أحبّ الأساقفة إلى قلبي وأصدقهم، في كلمة واحدة: "ثرثرات!" أجل، ثرثرات في مواجهة إعصار كاسح، يتهدّد المصير كلّه!

أخيراً: ثمّة سؤال: ترى، ما الذي يُتوقّع أن يحدث، إن عجز "الشرقيّون" عن منع الغرب وأعوانه، كما جاء في "الوصيّة"، من مواصلة عملهم التدميري المبرمج؟

هنا، لا بدّ لي من الاعتراف بأني أقرأ في ما وراء هذه "الوصيّة"، وعداً صريحاً بتدخّل إلهي حاسم، في توقيت وأسلوب وأدوات، لا يعرفها إلاّ الله وحده! وإني لماضٍ إلى ما هو أبعد من ذلك لأسأل: أولم يكن في انسكاب الزيت المقدّس، من أيقونة سيدة قازان تحديداً، وهي شفيعة روسيا، في دمشق وفي أماكن مختلفة، طوال أكثر من عشرين عاماً، إشارةٌ ربانيّةٌ خفيّة، لم نستطع أن نكتشفها وندركها، إلا عندما وقفت روسيا، ومعها الصين، في المحافل الدولية المتآمرة، في وجه هذا الإعصار الجهنمي؟

ذلك هو إيماني القاطع في مواجهة كلّ ما جرى ويجري وسيجري، في الشرق عامة، وفي سورية خاصة. فإنّ للسيد المسيح حضوراً في هذا الشرق، يريد له هو بالذات، ولا أحد سواه، أن يتواصل ويتجدّد، لا بل أن ينطلق من هذا الشرق إلى العالم، من أجل إنقاذه ممّا يتهاوى فيه، يوماً بعد يوم، من اللاإيمان واللاحَقّ، واللاإنسانية، تحت ضربات دولة فقدت عقلها ووجدانها، بفعل تحكّمها المطلق بالعالم

كلّه، طوال عشرين عاماً ونيف، حتى جاءها من روسيا والصين، ومعهما الهند والبرازيل، مَن يلجمها ويروّضها، ليُعيدَها إلى حجمها الطبيعي، ويعيد إلى العالم توازنه، في استعادته القانون والحقّ والعدالة.

يقيني أنّ كلّ هذا سيتحقّق قريباً، وفقاً لحضور السيّد المسيح المدهش والمتواصل، مع أمّه المباركة، طوال اثنتين وعشرين سنة، في دمشق، وعبرها في أرجاء الأرض، بعد انقطاعهما الحسّي والمعجزي، عن الشرق كلّه، مدّةً تقارب الألفي عام!

صحيح أنّ خدّامه وأدواته في هذا الشرق - وأنا واحد منهم وآخرهم - أثبتوا على نحو جليّ، أنهم دون المسؤولية المطلوبة منهم، بما لا يقاس. إلا أنّ مثل هذا الأمر ليس بجديد على السيّد المسيح. أوليس هذا هو الذي حدث لألفي سنة خلت، يوم اختار أناساً عاديّين جداً، ليحملوا نوره وحبّه إلى العالم، وقد ضمّ إليهم السلفي اليهودي القاتل آنذاك، شاول، ليُظهر قدرته على إعادة خلق الإنسان، بما لم يكن ليخطر على بال بشر؟

تعال يا رب!...

تعال!

ولكم يطيب لي، والكتاب قيد الطبع، أن أغنيه بما فاجأنا به السيد المسيح، مساء أمس، الخميس 2014/4/17، في بيت أمّه، سيّدة الصوفانية، من قولٍ وجيز، قاطعٍ وواعد، إذ قال على لسان ميرنا:

« الجراحُ التي نزَفَت على هذه الأرض،

هي عينُها الجراحُ التي في جسدي،

لأنّ السببَ والمسبّبَ واحد.

ولكن كونوا على ثقة، بأنّ مصيرَهم مثلُ مصيرِ يهوذا »

الفصل الرابع والعشرون

كلمـة أخيـرة

ماذا بعد؟

ترى، هل قلت كلّ ما كنت أريد قوله؟

أو بالأحرى، هل تراني اعترفت بكلّ ما كان يتوجّب عليّ الاعتراف به؟

بالتأكيد لا!

على كلّ حال، فإنّ للكلمة عليّ حقّاً، وقد حاولت أن أكون وفيّاً لها.

أعرف أنّ ما قلت، بل أنّ بعض ما اعترفت به، كان مفاجأة.

أجل، مفاجأة في مجتمع عربي، لم يألف يوماً الاعترافات، بل تمرّس، عبر تاريخه كلّه، على امتهان التغطية والتورية والازدواجية، والتملّق، بل والكذب الصريح!

بالطبع، لن أُفاجأ البتة، إذا ما أثارت اعترافاتي، سخط الكثيرين من "المسيحيين"، لا سيما أولئك الذين يحرصون على إنقاذ ماء وجه الكنيسة، إزاء غير المسيحيين!

أوَليس هذا هو ما بادرني به المحامي ابراهيم البطل، على الهاتف، في مطلع عام 1967، لحظة قرأ مقالي الأول في مجلة "المسرّة"، "أجمود أم تجميد؟"، وما كنت بعد عارفاً بنشره، بعد أربع سنوات من تسليمي إيّاه باليد، للأب جورج فاخوري، الذي كان، إلى ذلك، معروفاً بصراحته وجرأته؟

ولسوف تثير اعترافاتي هذه، أيضاً، دهشة الكثيرين، واستهجان آخرين، وغضب العديد، وارتياح البعض، وربما آمالاً ما، لدى بعضهم...

إلا أني أودّ أن أؤكّد أني لم أسعَ يوماً، ولا خلال لحظة واحدة، إلى انتزاع إعجاب أحد، ولا تصفيق أحد.

فلقد حاولت على الدوام، في صدق خانق، أن أطالب بالحقيقة، وأن أطلبها أوّلاً في ذاتي، ومن ثمّ على مستوى المسؤولين الكنسيين، في السرّ والعلن. وكنت أموت حزناً وتمزقاً، كلّما كنت أرى الأقنعة تتوالد، وتتكاثر وتتناقل، حتى باتت في الشرق العربي كلّه، مجتمعاً ودولاً، وأحزاباً وكنائس وأفراداً - إلاّ ما عصم ربّك! - نهجاً عاماً وخاصاً، لا يُسمح لأحد، إن كان يريد نجاحاً ما، أن يخرج عليه!

أوَليس هذا هو الواقع المؤلم، الذي دفع (فلاناً) ممّن عرفت، من طلاب الطب في جامعة دمشق العريقة، منذ عشرات السنين، وهو في سنة تخرّجه، إذ كان أستاذه يرسّبه عمداً للمرة الرابعة، لأن يدخل عليه في مكتبه، في قلب الجامعة، ويهدّده بالقتل، إن لم ينجّحه هذه المرّة، حتى كان له ما يستحقّ... وهاجر؟!

أوّليس هذا هو أيضاً، ما اعترف لي به، منذ أكثر من ثلاثين عاماً، أحد المسؤولين الحزبيين، في الحزب الذي حكم سورية أربعين عاماً، إذ قال لي بصريح العبارة:

"نحن، نحضر الاجتماعات الحزبية بانتظام، ونتحدّث طويلاً، والكلّ يعرف أنّ الكلّ يكذب، ولكنّنا نتظاهر دوماً بتصديق بعضنا البعض، ثم ترفضّ الاجتماعات، على مزيدٍ من خداع متبادل"؟!

أوَليس هذا هو أيضاً ما قاله لي طالب لاهوت، كان على مسافة أيام من سيامته الكهنوتية، إذ جاءه في الدار البطريركية بدمشق، كاهن شاب، لم يكن قد مضى على سيامته الكهنوتية أكثر من أربع سنوات، وقال له... ناصحاً، وداعماً كلامه بحركات من يده:

"إن كنت مصرّاً على أن تصبح كاهناً، عليك بانتهاج طرق الالتواء والاعوجاج، كي تنجح!"؟!

أوَليس هذا هو أيضاً، ما كان بعض الأساقفة يقولونه لي، كلّما كنت أنشر مقالاتي الأولى الغاضبة، في "المسرّة":

"أبونا الياس، ما تكتبه صحيح! ولكن من الأفضل لك أن تكفّ عن هذه الكتابات، لأنك... ستحرق حالك"؟!

أوَليس هذا هو أيضاً، ما قاله لي بعض الأساقفة، يوم أصبحت، في صيف عام 1969، أمين سرّ البطريرك الحكيم:

"أبونا الياس، الآن عليك أن تدبّر حالك! صار الطريق مفتوحاً أمامك للمستقبل!"؟!

أوَليس هذا هو أيضاً، ما دفعني، منذ صيف عام 1964، أجل منذ تلك الفترة المبكرة، لأن أتوجّه لمجموعة من نخبة الطلبة الجامعيين، بحديث تقصّدت أن أكتبه، وكان بعنوان"نريد أن نرفض" - وقد نُشر بحرفيته، في ما بعد، في كتابي "ومن الكلمات بعضها..." - دعوتهم فيه صريحاً، إلى انتهاج الرفض لكل ما يمكنه أن يبتلع حرّيّتهم في التفكير والإيمان والاختيار الشخصي، والانتماء الوطني!؟...

أوَليس هذا هو أيضاً، ما دفعني لأن أطلب ذات يوم، من أحد أصدقائي الفنانين التشكيليين، أن يرسم لي، بمناسبة "الاحتفالات" بذكرى الثامن من آذار، لوحة لـ... "ميت يرقص على قبره!"؟!...

أوَليس هذا هو أيضاً، ما كان وراء كلّ ما كنت أقوله علناً، في المؤتمرات الكنسية، سواء كانت داخل الوطن العربي، أو في أي بلد آخر؟!

أوَليس هذا هو أيضاً، ما كان وراء كلّ ما كتبت من رسائل شخصية أو مفتوحة، لمسؤولين كنسيّين وسياسيّين على مستوى العالم، بدءاً من البابا في الفاتيكان، وكارتر في واشنطن، وشيراك في باريس، وانتهاءً ببطاركتي وأساقفتي في دمشق؟!

أوَليس هذا هو أيضاً، ما كان وراء سعيي الحثيث للاجتماع شخصياً، بالمسؤولين الكنسيّين في الشرق والغرب، لأحدّثهم على نحو كان دوماً يفاجئهم، حتى إنّ واحداً منهم، وهو البطريرك زكّا الأول عيواص، بات لي منذ عام 1980، حتى اللحظة، إثر أول مقابلة له، بمثابة الأب والأخ والصديق، فيما قال لي آخر، وهو رئيس أساقفة باريس، الكردينال "لوستيجيه"، خلال مقابلتي له في شهر تشرين الأول عام 1990، قال مرتين، في همس أقرب إلى البوح: "لم يحدّثني أحد يوماً، على هذا النحو!"

(On ne m'a jamais parlé comme ça!)

إلا أني، بعد كل ذلك، أسمعني أقول لنفسي: وهل غيّرت كلماتُك شيئاً في أحد المسؤولين، البعيدين منهم والقريبين؟

بل هل حَمَلت أحداً من المسؤولين في كنيستك بعينها، على إحداث تغيير ما، في موقع ما، ذات يوم؟

وإني لذاهبٌ إلى ما هو أبعد من ذلك:

إزاء ما حدث ويحدث منذ ثلاث سنوات، في مشرق ومغرب عربيّين، ينقلبان برمّتهما، رأساً على عقب، ويستعيدان في سرعة قياسية، جاهليّةً أسوأ من جميع الجاهليّات التي عُرِفت في تاريخيهما السحيقين، هل من قيمة للكلمة بعد؟

وهنا تحضرني ثورة الكاتب والمفكر السعودي، عبدالله القصيمي، الذي طلع بها على العرب جميعاً، في منتصف ستّينيّات القرن الماضي، والذي كتب فيهم، وصفاً وتشريحاً وتحقيراً ونبذاً وإدانة، ما لم يكن ليخطر يوماً ببال ألدّ أعدائهم!

والحقيقة تضطرني للإقرار بأنّ المراقب المتتّبع لما جرى ويجري في سورية تحديداً، عبر هذا التعاون الجهنمي، الذي لم يكن بوسع أحد أن يتوقّع حدوثه يوماً، بين

الصهيونية وما يسمّى الجامعة العربية، والغرب برمّته، والقوى السلفية والجهادية المختلفة، ليشكّل مستنداً ومبرّراً لأسوأ الاحتمالات والتوقّعات، في المستقبل القريب والبعيد!

بل، إنّ ما طَلَعَت به على العالم، بكلّ قحة وفجاجة، في تصريح رسمي، منذ فترة وجيزة، سفيرة الولايات المتحدة في مصر، "آن باترسون"، من "أنّ عودة اليهود من الشتات، ومن كافة بلدان العالم، إلى أرض الميعاد، من النيل إلى الفرات، صار وشيكاً، وأنه سيتم خلال العام 2013، بعد إعلان إفلاس مصر الوشيك، والمتوقّع خلال العام نفسه!"... إنّ ذلك لينذر بما هو أسوأ من كلّ تصور، وتوقّع، وحساب!...

ومع ذلك، فأنا أكتب، وأصرّ على الكتابة، حتى إني، على عشقي لبلدي سورية – الشام! – وعلى إصراري من أجل البقاء فيها، وتتبّعي لأحداثها المأساوية، بالكلمة المسؤولة، كتابة وقولاً، في المحافل الرسمية، وعبر الإذاعة وشاشات التلفاز، وفي الكنيسة، كلّ يوم أحد وعيد... وجدتُني مدفوعاً لمغادرتها، كي يتسنّى لي أن أكتب هذا الذي كتبته، والذي أكتبه حتى الآن!

ولولا أني شعرت حقّاً، بصوت داخلي يدعوني بإلحاح واضح ومتصاعد، للمجيء إلى هذا الدير بالذات، وليس إلى سواه – حيث وجدت ما حُرِمت منه، طوال حياتي الكهنوتية، وما كنت أبداً أحلم به، من حياة محبّة عائليّة وصلاة جماعيّة! – لما كنت غادرت سورية، لحظةً واحدةً، فيما أهلها – أهلي! – يكتوون كلّ لحظة بنيران من جحيم عالمية، تضافرت قوى الشر على تأجيجها، حيث كانت السماء قد سكبت بعضاً من أنوارها ووعودها الخيّرة، قبل سنوات قليلة، في دمشق.

وهل تُراني أخرج على كلّ منطق سوي، إذا ما تساءلت ما عسى أن يكون السبب الحقيقي، الكامن وراء مثل هذه الهجمة غير المسبوقة في التاريخ، وعلى سورية تحديداً، بما تتّسم به من تضافر بين قوى، لم يكن من الممكن أن يجمعها جامع، كما تتّسم بضراوة ووحشية، فاقتا كلّ توقّع وتصوّر؟!

بالطبع، ليس من يجهل اليوم، ما كان يُخطَّط في الأمس البعيد، للمنطقة العربية عامة، ولسورية الطبيعية خاصة، من قبل الغرب الأوروبي والصهيونية معاً، حتى قامت "إسرائيل" في فلسطين! تلك كانت المرحلة الأولى من هذا المشروع المشترك بين الغرب الأوروبي والصهيونية.

أما المرحلة الثانية، فكانت هي الأهم، لأنها كانت ترمي إلى توفير شروط البقاء والتوسّع لإسرائيل هذه، ومن ثم الاستفراد مع شركائها الغربيين، بهذه المنطقة

المترامية الأطراف والغنية بتاريخها، ومناخها، ومواقعها الأثرية والدينية والاستراتيجية، وثرواتها البشرية الخام، والمائية والنفطية والغازية والغذائية، وسواها الكثير!

ومن أجل تحقيق هذه المرحلة الثانية والحاسمة، شاءت "إسرائيل" أن تكون هي حقّاً القوة الأولى اللاعبة والقادرة، على صغرها الحجمي، وسط شركائها، جبابرة الولايات المتحدة وأوروبا الغربية. وقد كان لها حقّاً ما أرادت، إذ باتت تهيمن فعلياً على جميع الهيئات والمرافق الرئيسية والمؤثّرة في الولايات المتحدة الأميركية، وبواسطتها على ما يماثلها في أوروبا الغربية، حتى انتهت إلى التحكّم الفعلي، كما تبيّن منذ خمسين سنة ونيف، ولا سيما من خلال الأزمة السورية، بجميع الهيئات الدولية الكبرى، مثل هيئة الأمم المتحدة، ومجلس الأمن، ومجلس حقوق الإنسان، والمحكمة الدولية الخ... هذه الهيئات بالذات، التي قامت أصلاً، لبسط الحق والعدل، والسلام في الأرض كلّها!...

بالطبع، من حقّ أي إنسان أن يتّهمني بالتعميم السريع والسطحي، الذي لا يستند إلى أي أساس. وإني لأدع جانباً الدخول في دهاليز لعبة الأمم، وألاعيبها، وأدعو كلّ مشكّك وباحث صادق على السواء، إلى مراجعة مؤلّفات، باتت تشكّل مراجع لا غنى عنها، لكلّ مَن يريد معرفة، ولو الحد الأدنى، من حقيقة ما يجري على أرض الواقع، وهي متوفّرة بكثرة. وإني لأقتصر على ذكر بعضها، ومنها كتاب "الصحوة" للسيناتور الأميركي الأسبق "دافيد ديوك" (عام 1988)، ومنها أيضاً كتاب هام لباحث أميركي معروف يدعى "بول فيندلي"، هو "من يجرؤ على الكلام" (عام 1987)، ومنها كتاب الرئيس الأسبق جيمي كارتر"، هو "فلسطين: سلام، لا فصل عنصري" (عام 2006)، ومنها كتاب "لروجيه غارودي"، عنوانه: "اسرائيل القضية" (عام 1983)، وكتاب مشترك لكل من "نعوم تشومسكي"، و"جلبير أشقر"، هو "القوة الخطرة" (عام 2007)، وكتاب لباحث فرنسي، يدعى "اينياسيو رامونيه"، هو "حروب القرن الحادي والعشرين" (عام 2002)، وثلاث كتب خطيرة للباحث السويسري، "جان زيغلر"، هم على التوالي، "إمبراطورية العار" (عام 2005)، و"بغض الغرب" (عام 2008)، و"التدمير الشامل" (عام 2011).

كلّ ذلك، ممّا حدث ويحدث وسيحدث، إن في الوطن العربي عامة، أو في سورية خاصة، هل تُراه يحدث بفعل مخطط سياسي- اقتصادي، بشري صرف؟

وإني لماضٍ إلى ما هو أبعد من ذلك، كي أبلغ بقارئي درجة أوفى من الوضوح، أو

ممّا يبدو لي وضوحاً. أفلا يجوز لي أن أتساءل، مع مَن قد يتساءلون، ما إذا كان كلّ ذلك أيضاً - أي في تداخل مع كلّ ما ذكرت - انتقاماً جهنمياً حقيقيّاً، تستغلّ فيه قوى الشر الروحية، ما تفعله قوى الشر الزمنية، من أجل تدمير سورية، سورية التي شاء لها الله، في حكمته التي لا تُدرَك، أن تنعم منذ مطلع التاريخ المعروف والمدوّن، بما لم تنعم بمثله أرض سواها؟

وإني، إذ أطرح هذا السؤال، الذي قد يبدو غريباً لمعظم الباحثين في شؤون التاريخ والسياسة، أجيز لنفسي أن أذكّر ببعض الحقائق، التي لا يجوز لأحد أن يجهلها أو يتجاهلها...

إنّ سورية، أوّلاً، كانت، باعتراف الجميع، مهداً للحرف والحضارات، حتى إنّ أحد أهم الباحثين، وهو الفرنسي (أندريه بارو)، كتب يقول في قول مأثور:

"لكل إنسان وطنان، وطنه الأصلي، وسورية!".

ثمّ إنّ سورية، كانت مهداً لليهودية، ومنطلقها إلى العالم.

كما أنّ سورية كانت أيضاً مهداً للمسيحية، ومنطلقها إلى العالم، بعد أن شاء السيّد المسيح، أن يصرع بنوره، في دمشق بالذات، لا في القدس، مَن كان ألدّ أعدائه، السلفي اليهودي شاول، ليحوّله فيها أيضاً، إلى أعظم مبشّر عرفته الحقبة المسيحية من التاريخ.

وسورية، كانت بدءاً من الفتح العربي - وذلك خلافاً لجميع الفتوحات المعروفة عبر التاريخ! - كانت هي، ومن ثم مصر والأندلس، أرض التلاقي الحي والدائم والمتعاون حتى اليوم - وإن بتفاوت، تبعاً لظروف تاريخية قاهرة وطارئة - بين الديانات السماوية الثلاث، اليهودية والمسيحية والإسلام!

وسورية، أخيراً، كانت، لإحدى وثلاثين سنة خلت، موطناً لحدث ديني فريد، تفشّى في العالم بسرعة مذهلة، وقد جرى في حي متواضع من أحياء دمشق، يدعى حي الصوفانية، والتقى فيه، منذ اللحظة الأولى حتى اليوم، في صلاة مشتركة، وما برحوا، مسيحيّون ومسلمون ويهود! كما نعموا فيه كلّهم، بأشفية ثابتة، طالت بعضهم. وفيه دعت السيّدة العذراء، كما دعا السيّد المسيح، لأوّل مرة في التاريخ، في لغة عربية، فصحى مَرّة، ومَحكية أخرى، جميع الناس، إلى ذكر الله، والتوبة إليه تعالى، كما دعوا إلى المحبّة الشاملة وعدم استخدام العنف، وإلى الأخوّة الفاعلة في الشرق والغرب، وإلى السلام الحقيقي في الأرض كلّها. وقد خضعت جميع هذه الأحداث والآيات، منذ

اللحظـة الأولى، في انتظـام وجدّيّـة وأمانـة، لمراقبـة حكوميّـة ودراسـات كنسـية وطبيـة ونفسية ولاهوتية، شارك فيها رجال الدين المسؤولون في دمشق وسواها مـن مـدن على نطاق العالم، وأطباء ولاهوتيون وباحثون، عرب وأجانب.

وفي عودة إلى أرضية الواقع وحسب، لا بدّ لي، ولكلّ متتبّـع منصف، مـن الإقرار بـأنّ سورية هذه تتعرّض منذ سنتين ونيف، لمخطّط تدميري لم يحدث مـا يشبهه أو يقاربـه، عبر التاريخ البشري كلّه، وذلك في تواطؤ غريب جمـع أكثـر القوى تعارضاً وتناقضاً، في الفكر والواقع، على نطاق العالم، هذا إن بقي ثمّـة فكـر على مستوى المؤسسـات الدولية والمراجع العالمية العليا، التي يفترض فيها أن تكون هي الحكم الأول والأخير!

وأما المراجع الدينية، اليهودية منها والمسيحية والإسلامية، فقد تسـاوت كلّهـا، إن في الأقوال والتوجيهات المباشرة أو غير المباشرة، كما هـي تصـدر، في تتـابع وتنـوّع مقـزّزين، مـن المؤسّسـات الرسميـة وغير الرسميـة، اليهوديـة والإسلامية على السـواء، باستثناء الشيخين العظيمين، اللذين برزا في قلب الأزمة السورية، عنيت بهما، المفتي أحمد بـدر الدين حسون، وخطيب مسجد بني أمية، شريك القـدّيس يوحنـا المعمـدان في الشـهادة، محمد سعيد رمضان البوطي!

ولئن كنت زججت بالمسيحية، في الفقرة السابقة، بين اليهودية والإسلام، فلأني أعتبر أنّ الصمت الجبان، الذي مارسته وتمارسه كنائس الغرب، في طوله وعرضه، وعلى رأسـها الـفـاتيكان، ليسـت، مـن حيث المسـؤولية، في حـدّهـا الأدنـى، دون أولئـك المُفـتين، اليهـود والمسلمين القتلة، الخارجين على كلّ دين! وأمّا إن بدا رأيـي الصـريح هـذا، تعميمـاً ظالمـاً بحق الكنيسـة الغربيـة، أو متجنّياً عليهـا، فليُسـمح لي بـأن أتحـدّى القاصـي والـداني، في جلب تصـريح واحـد، صـادر هنـا أو هنـاك، عـن أحـد المسـؤولين في هـذه الكنـائس، وفـاتني أمـره! وهنـا لا بـدّ لي مـن ذكـر الحقيقـة الرهيبـة، الكامنـة وراء القـول العربـي المـأثور: "السـاكت عـن الشـرّ، شيطانٌ أخـرس!".وإنـي لا أرى البتـة، أي اختـلاف بـين هـذا القـول، وقول السيّد المسيح الصريح في إنجيله، إذ يعلن للبشر، وهو يدينهم في الآخرة:

« كنتُ جائعاً، فلم تطعموني. وكنتُ عطشاناً، فلم تسقوني.
وكنتُ مريضاً، فلم تعودوني. وكنتُ مُشرّداً، فلم تؤووني.
وكنتُ سجيناً، فلم تزوروني...
إنكم كلّ ما لم تفعلوا ذلك بأحد إخوتي هؤلاء الصغار، فبي أنا لم تفعلوه!...
اذهبوا عني يا ملاعين إلى النار الأبدية!...» (متى/25)

بل إني لأسمعه يقول اليوم، صريحاً، للمرة الألف، لجميع المتجبّرين على وجه الأرض، في الولايات المتحدة، وأوروبا الغربية، وكندا، واستراليا، وللعرب جميعاً، وعلى الأخصّ "لإسرائيل"، أينما وُجِدت، باسم السوريين وجميع المظلومين في الأرض كلّها:

"كنتُ شبعاً، فجوّعتموني. وكنت مرويّاً، فعطّشتموني.

وكنتُ معافى، فمرّضتموني. وكنت آمناً، فشرّدتموني.

وكنتُ حرّاً، فاستعبدتموني. وكنت حيّاً، فقتلتموني!..."

آه لكم، وألف آه، مني، أنا الكاهن الكاثوليكي العربي، يا بابوات الغرب، وكرادلته، وأساقفته، وكهنته!

وأما شرقي العربي المذبوح، فإني لأترك فيه، للكردينال الكاثوليكي، المتماسك والجريء وحدَه، البطريرك مار بشارة بطرس الراعي، مهمة إيقاظ زملائه البطاركة من اكتفائهم الذاتي، وفي ركابهم، سائر الأساقفة والكهنة، في هذه الكنائس الشرقية، الكاثوليكيّة، كلّها!

وبعد، هل انتهى كلّ شيء، ولم يتبقّ لديّ سوى دعوة مستضعفي الأرض، في هذا الشرق العربي، ولا سيما في فلسطين، ولبنان وإيران، والعراق، وسورية، ومصر والبحرين، واليمن، والسعودية، ومن ثمّ في أفغانستان وباكستان والصومال والسودان، وليبيا وتونس والجزائر، وفي سائر أصقاع الأرض المعذبة... إلى الاستكانة الذليلة لمواجهة ما يُدبَّر لهم، في السر والعلن، من مظالم وفظاعات وكوارث، "ذكية جداً"، في انتظار السعادة... فقط في الآخرة، في قلب الله؟!

لا وألف لا!

فإني، على إيماني المطلق بهذه الآخرة السعيدة، المحتومة والنهائية، أعلن أيضاً إيماني الجازم بأنّ لله، جلّت حكمته، أيضاً وخصوصاً، في خليقته كلّها، خطّة مرسومة. فلئن كان عالم المجرّات والكواكب، الهائل، وعالم النبات والحيوان، يخضعان لخطة مرسومة في قانون دقيق مدهش، أفلا يكون له بشأن الإنسان، وقد شاءه خليفةً له في الأرض، قانونٌ وخطةٌ أيضاً؟!

أوَليس هذا بالذات، ما تعيشه الشعوب، منذ آلاف السنين، في هذا الشرق، حيث لليهود كتابهم، "التوراة"، وللمسيحيين كتابهم، "الإنجيل المقدس"، وللمسلمين كتابهم، "القرآن الكريم"، إذ فيها جميعاً لكل دين، مرجعيته وأسسه وشريعته؟ وثمة مسؤولون من رجال الدين، ينهضون بمهمة تثقيف الناس، في

الإيمــان والأخــلاق، وتــذكيرهم، في كــلّ لقــاء صــلاة، بأصــول واجبــاتهم، مرضــاةً لربهم، وإسعاداً للناس، إخوتهم في عيال الله هذه.

إلاّ أنّ الاستجابة، ولو الضئيلة، لمتطلبات أي دين، لم تكن يوماً من الأمور السهلة. وقد يخبو تأثير الدين الفعلي، شيئاً فشيئاً، على أتباعه، بل حتى على دُعاته، فيلبّسونه لبوساً لا علاقة له بالله البتة، ولا سيما في فترات الانتصارات السهلة أو الصلفة، وانتشار البحبوحة المادية، والأمان البَطِر، فالتراخي الاجتماعي. ولكن عندما تأتي الأزمات الصعبة، وتتوالى الأحداث الخطيرة، يأخذ الناس يتلمّسون رؤوسهم... وربّهم! وقد يأتي يوم تظهر فيه شخصيّات فذّة، فكراً ورؤيةً وخُلُقاً، فتعمل على استنهاض روح الإيمان والتجدّد الفعلي، والالتزام الصادق، في العدد الأوسع من الناس، أو أقلّه، في بعضهم!

وأبدأ بالشأن اليهودي...

هل تراني أتجاوز هذه الحقيقة التاريخية والدينية الثابتة، إذا ما ذكرت بهذا الصدد، بروز أفراد أفذاذ من صفوف جموع الصهاينة، القادمين من جميع البلدان، إلى فلسطين المحتلّة، والمعبّئين حتى العمى، بشتى "الوعود الإلهيّة"... والدنيويّة؟ من هؤلاء المستوطنين، الوافدين من بعيد، أو المولودين في "أرض الميعاد"، يطيب لي أن أذكر أربعة فقط، هم "إسرائيل شاحاق"، و"سوزان ناثن"، و"أفرهام بورغ"، و"جيلاد آتزمون" فهؤلاء جميعاً، انتهى بهم الأمر، كلّ على حدة، وفي أزمنة مختلفة، إلى أن وقفوا مع هذه الحقيقة الدينية والإنسانية معاً، وخاضوا ويخوضون، كلّ على طريقته، وفي ميدانه، نضالاً قاسياً وعنيداً. وكتبوا في جرأة وإصرار، على الملأ، ما لم تكن كتابته بجائزة، ليستنهضوا مواطنيهم اليهود أوّلاً، ثمّ الرأي العام العالمي، ضدّ واقع دولتهم، "الديني والتاريخي"، المعكوس! وواصلوا هذا النضال في تحدٍّ صريح "للسلطات الشرعيّة" القائمة، حتى جاء يوم اضطرّوا فيه، لمغادرة "الوطن الموعود"، إلى غير رجعة!

وأنتقل إلى الشأن الإسلامي، ترى، ماذا عساني أقول؟

ثلاثة أمور وحسب.

الأمر الأول، هو أنّ الحرب الكونية، الموغلة في التوحش، التي شُنّت وتُشنّ على سورية تحديداً، بتخطيط وتصميم وتنفيذ، غربي وصهيوني مشترك، تُشكّل حرباً أريد لها، لأوّل مرّة في التاريخ، أن تجري بين مسلمي الأرض جميعاً، تقريباً، ودولة عربية ذات غالبية مسلمة، كانت، منذ الفتح العربي، وعلى امتداد التاريخ، موطن الإسلام

المعتـدل. بـالطبع، كانـت لهـذه الحـرب أيضـاً، مثـل كـلّ حـرب، أهـداف أخـرى، ماديـة واستراتيجية وعرقية، وقد أُعلنت كلّها من زمان بعيد، بكلّ صفاقة وقحة. وأعني بها: أوّلاً، السيطرة المطلقة والدائمة، على مصادر النفط والغاز، ثانياً، الإبقاء على سياسة القطب الواحد، الصهيوني- الأميركي، ثالثاً، تقديم المسوّغ ليهودية دولة إسرائيل! إلاّ أنّ هذه الحرب كانت، كما أرى ويرى الكثيرون، ترمي، على الصعيد الديني، إلى ما هو أخطر من كلّ ذلك، وهو تفجير الإسلام السوري المعتدل، تفجيراً لا رجعة فيه، يدفعه، ولو كان ذلك من باب الدفاع عن النفس، إلى مواجهة الوحشية الإسلامية العالمية، بوحشية دفاعية مضادّة، أشدّ ضراوة، حتى يظهر الإسلام كلّه، بمظهر الدين المتوحّش في جوهره وتطبيقه، الحاقد واللاإنساني، الذي يشكّل خطراً على مستقبل البشرية كلّها، بحيث يتوجّب قتاله بكلّ الوسائل المتاحة، حتى يتمّ إلغاؤه، أو أقلّه، إخراجه كلّيّاً من حلبة التاريخ!

الأمر الثاني، هو أنّ هذه الحرب، التي قدّرت لها المراجع الغربية والإسلامية، المخطّطة والدافعة، شهراً واحداً من أجل إسقاط سورية، قد فشلت. أجل، فشلت، على الرغم من كلّ ما حُشِد لها من دول كبرى وصغرى... وهيئات دولية رسمية انهارت في انحياز مفضوح، حوّلها إلى أدوات ليس إلا، بيد الدولة "العظمى"، أميركا المتصهينة، وعلى الرغم أيضاً من شبكات المخابرات المتواجدة في الفضاء وعلى الأرض، والقادرة... على كلّ شيء! وعلى الرغم من "المُفتين" الذين يُحلّلون كل شيء باسم الإسلام، أجل، كلّ شيء، حتى قتل الملايين وتقطيع الإنسان و... "نكاح الأم والأخت والابنة" في سبيل "الجهاد"... وعلى الرغم من الأموال الطائلة، وتدفّق "الجهاديين" القادمين من الدنيا كلّها، والمُستنبَتين من الأرض السورية، المدجّجين "بالعقيدة" والمال والسلاح، والحقد الطائفي والمذهبي... وعلى الرغم من عملاء الداخل والخارج... وعلى الرغم من الثمن الباهظ الذي دفعته وتدفعه سورية كلّ يوم، منذ أكثر من سنتين... وعلى الرغم من تغطية إعلامية، فضائية وإذاعية وإلكترونية، تختلق وتفبرك وتحرّض وتوجّه وتقرّر، لا سابقة لها من حيث قدرتها على اختراق جميع المناعات الممكنة، من دينية، وأخلاقية، وعقلية، ومادية، ونفسية، بل وعائلية، ووطنية، وطائفية، ومذهبية، وقانونية، وسياسية، وعلمية!

الأمر الثالث، هو أخيراً، ما يحلو لي ربطه بسرّ الواقع التاريخي المعروف، الذي شاء لسورية بالذات دون سواها، أن تكون مهداً للحرف، ومهداً للحضارات الأولى، ومهداً للديانات السماوية الثلاث، ومهداً للعيش المشترك، الأوّل والثابت، بدءاً من الفتح العربي لدمشق، بين المسيحيين والمسلمين واليهود. فهل من عجب أن يشكّل هذا

الواقـع التـاريخي والفريـد، في إنسـان هـذه الأرض بالـذات، مخزونـاً نفسـيّاً وروحيّـاً وأخلاقيّاً وإنسانيّاً، استثنائيّاً؟ وقد لا يعـي الإنسـان، ولا يعـرف هـذه الحقيقـة، الفائقـة الغنى والكامنة فيه. إلا أنه يعيشها تلقائياً في الظروف العادية، ومتجلّية في الظروف الاستثنائية. وإذ بها قوة داخليّة خارقة، لا يدري لها مصدراً، ولكنّه يتجاوز بها أعتى الأهوال. وإنـي لأرى أنّ هـذه القـوة بعينـها قـد تجلّـت، علـى نحـو لا يجـوز إغفالـه أو تجاهلـه، في مجمـل الشـعب السـوري، مـن قمّتـه إلى قاعدتـه الواسـعة، بكافـة طبقاتـه، ومناطقه، وانتماءاته ومعتقداته.

على مستوى القمـة، دعوني أذكّر بواقعة تاريخيـة واحـدة، وأقارنها بواقعـة تاريخيـة أخـرى. فهـل هنـاك مَـن يجهـل مـا حمـل معـه وزيـر الـدفاع الأميركي، كولـن بـاول، بعـد اجتياح العراق، إلى القيـادة في دمشـق، مـن شـروط مدعّمـة بتهديـدات خطيـرة للغايـة؟ وهل هناك من ينسى ما كان جواب القيادة له، والكلمـة المدهشـة التي خـتم بهـا السـيّد الرئيس على وجه الدنيا، خطابه في مدرّج الجامعة: "سورية، الله حاميها"؟... وبالمقابـل، أودّ أن أذكّر بما جاء في كتاب حديث للمؤرخ اليهودي، "دومينيـك فيـدال" (D. VIDAL)، الصادر في باريس عام 1997، وخلاصته أنّ فرنسا سارعت إلى التصويت عـام 1947، في هيئة الأمم، على قرار تقسيم فلسطين الظالم، بعد أن كانت رفضته، لا لشـيء إلا لأن الولايات المتحدة هدّدتها بقطع المساعدات الغذائية التي كانت ترسلها لها!...

وعلى مستوى الهيئات الدينية، والإدارات السورية كلّها، السياسية منها، والعسكرية، والأمنيـة، والدبلوماسـية، والاقتصـادية، والثقافيـة، والتعليميـة، والحقوقيـة، والمصـرفية والفنية، وسواها الكثير، تجلّـت هـذه القـوة الروحيـة أيضـاً، في ثبـات الجميـع تقريبـاً في مراكزهم ومهامهم، على الرغم من كلّ مـا جـرى ويجـري، مـن حمـلات تهديـد وتشـهير، وخطف ورعب، المعروفة منها والسرية... وعلى الـرغم مـن حمـلات الإغـراءات، الضـخمة والمتواصـلة، الماليـة منـها والسِّياديّة... وعلـى الـرغم مـن مسلسـل الاغتيـالات المروعـة، الفرديـة منـها، والعائليـة والجماعيـة... وعلـى الـرغم مـن حـدوث أخطـاء أمنيـة، يكـاد تجنّبها في مثل هـذه الظـروف، يكون مسـتحيلاً! وأمـا السـقوط، فكـان مـن نصـيب مـن اتضح أنه كان سـاقطاً، مسـبقاً، في داخلـه! ومـن يسـألني أنموذجـاً، واحـداً، حقيقيـاً عـن هـذا الصـمود، أقـدّم لـه اثـنين خـارقين، وقـد تمـثّلا في المسـؤولين الـدينيين، المسـلمَين الكبيرين في سورية: وهمـا سمـاحـة مفـتي الجمهوريـة، وخطيـب مسـجد بـني أميـة! فهـل من الناس من يُنكِر ما كان من أمر سماحة الشيخ أحمد بدر الدين حسون، وهو يلقي كلمته، المرتجلة على عادته، فوق جثمان ولـده الشهيد الشاب، والعبرات تخنقه، وقد

جاءت آيةً في البيان والنبل والوطنية، وفي دعوته الصريحة إلى المودّة والمسامحة؟ وأما الدكتور الشهيد، محمد سعيد رمضان البوطي، فقد قدّم بدوره أنموذجاً للتاريخ لا يُمحى، بوقفته، طوال سنتين، كلّ يوم جمعة، فوق منبر مسجد بني أمية، وهو يلقي خطبه المرتجلة أيضاً، والمدهشة بتماسكها واعتدالها، وحرارة صدقها ومودّتها، فيما كان باسطاً يديه... لتلقي الطلقة القاضية، التي كان، دون شك، يتوقّعها كلّ لحظة، في سلام وطمأنينة من كان، من زمان بعيد، قد سلّم أمره كلّه، لله وحده!

ولقد تجلّت هذه القوة الروحية، أيضاً وخصوصاً، في غالبية أفراد الشعب، تماسكاً وتضحيةً وتضامناً وبذلاً متواصلاً... على الرغم من الحرب الإعلامية، العربية والعالمية، المركّزة والمفترسة، التي شُنّت وتُشّن دون هوادة، والتي سبق لمثيلاتها من الحملات الإعلامية، أن نجحت في كسر إرادة شعوب برمتها، حتى قبل أن تُهزَم جيوشُها... وعلى الرغم من فتاوى التحريض، الديني والطائفي والمذهبي، المدروسة منها والهوجاء على السواء، التي كانت وما زالت تتواصل في الليل والنهار... وعلى الرغم من التفجيرات والاعتداءات الوحشية، والمجازر الجماعية، التي أصابت المدن والقرى والأرياف كلّها... وعلى الرغم من الإغراءات المالية الضخمة والمتواترة! وإنّ الأمثلة على انتشار هذه القوة الروحية في المجتمع السوري، لأكثر من أن تُحصى. وإني لأرجو أن تجد لها يوماً، من يسعى لجمعها ونشرها، كما فعل صديقي الأب حليم عبدالله اللبناني، في كتابه الشهير "ما لم يكتَب بعد عن الحرب في لبنان"، الذي نشره في بيروت عام (1980). إلا أني أودّ أيضاً أن أذكّر في هذا الشأن، ببعض أشكال العون، السرية منها والمعلنة، التي بدرت، هنا وهناك.

إثر تفجير ساحة التحرير بدمشق، حملت لي سيّدتان مسلمتان، مبلغاً كبيراً من المال، باسم ستّ عائلات مسلمة، وقد تركتا لي أمر توزيعه، كما قالتا لي، "على بعض المتضرّرين من إخوتنا المسيحيين"... ويطيب لي أيضاً أن أذكّر بمبادرات لا تُحصى من التضامن والتعاون، قام بها مواطنون كثيرون من شبّان وشابّات، ورجال ونساء، من كلا الدينين، وقد عمّت سورية كلّها، وحاولت جاهدة أن تطال كلّ من نُكب كثيراً أو قليلاً... وقد شرّفني بعضهم بطلب رعاية مبادرتهم، مع أخي وصديقي الشيخ عبد الرزاق مؤنس... وهل مَن يجهل أنّ عدداً منهم قد استُشهد خلال خدمتهم الإنسانية هذه؟! وأرى لزاماً عليّ أن أذكّر بما تلفّظ به الكثيرون، ممّن استُشهِد لهم فردٌ أو أفرادٌ من أسرهم، من أقوال مرتجلة دائماً، وأحياناً أمام جثامين شهدائهم، تفيض إيماناً ونبلاً ودعوةً ملحّةً إلى المسامحة واستعادة المودّة. وهنا، يطيب لي أيضاً التذكير بما قاله

بالأمس بالذات – 2013/4/16 – على شاشة تلفزيون "سما"، الفنان الممثّل أحمد رافع، والد الشهيد محمد رافع، في عفوية مطلقة، من كلام فيه من الصدق والكِبَر والمودّة والمسامحة، ما يعجز عن مثله، من لم يكن قلبه في قلب الله! كما لا يسعني أن أختم هذه الفقرة، دون ذكر حادثة نموذجية حقّاً، تُبرز بوضوح كلّي، روحانية الإنسان السوري، وكان بطلها شاباً في الثلاثين، أعرف أهله عن كثب. وكان قد تخرّج من زمان، من كلية الاقتصاد في جامعة دمشق، ونجح في عمله نجاحاً أكسبه ثقة السوق. إلا أنه كان يعمد دائماً إلى تأجيل سوقه لخدمة العلم، ريثما يقتني منزلاً خاصّاً. وكان أن جاءه، في مطلع الأزمة السورية، عددٌ من زبائنه والمتعاملين معه في السوق، وعرضوا عليه التعاون معهم في ما يحدث، واعدين إياه بمركز مسؤول في "سورية الغد". فاشتمّ على الفور ما يُدبّر للوطن. فما كان منه إلا أن سارع إلى البيت، واجتمع بوالديه وإخوته، وبلّغهم قراره الالتحاق الفوري بالجيش، وهو يقول لهم: "البلد في خطر!"... والتحق بالجيش. وظلّ منذ ذلك الحين يتواصل هاتفياً مع أهله، ليطمئنهم وليسألهم الصلاة من أجل سورية، حتى أتاهم، ذات يوم، هاتفيّاً، من أحد أصدقائه في الجيش العربي السوري، خبر استشهاده!

تلك القوة الروحية الخارقة، التي نبعت من التاريخ السوري، ومن الأرض السورية، ومن الإنسان السوري، قد أُعطيتُ، خلال عشرات السنين، وعبر صداقاتي ولقاءاتي وخدماتي، داخل سورية وخارجها على امتداد العالم، أن أكتشف بعض حامليها، ولقد كانوا كلّهم رائعين، وإنّه ليبدو لي أنّي وفيت، في الصفحات السابقة، سورية وطني، وبعضاً منهم، بعض ما لها ولهم من حقّ عليّ. ولكم يطيب لي، هنا بالذات، قبل أن أطوي هذا الكتاب – الشهادة، أن أختار مرة أخرى من هذه الوجوه، وجهاً نبت من تربة شعبيّة صرف، هذه التربة الكريمة والنبيلة، لأختم به هذه اللوحة الإنسانية، الطالعة من العمق السوري السحيق.

هذا الوجه كان فلاّحاً من بلدة "حينة"، الرابضة في أسفل جبل الشيخ. وكان يقطن في حي متواضع بدمشق، قريب من الباب الشرقي، يُدعى "حارة العبارة". كان اسمه "هيكل هيلانة"، وكان متزوجاً وله خمسة أولاد، كبيرهم لم يتجاوز سنواته العشر. وكان عمله سائق تكسي. وكان فخوراً بانتمائه إلى الحزب الشيوعي، إلا أنه كان يخصّني بمودّة وثقة. وكان، على ما فُطر عليه من أنفة واعتزاز، يأتيني أحياناً "ليفش قلبه قليلاً". وإذ به ذات يوم، يفاجئني بطلب، وجدته غريباً للوهلة الأولى. فقد كان بكل بساطة، يريد مني أن أخطّ باسمه رسالة إلى الجنرال ديغول! كان ذلك في شهر

حزيران من عام 1969. ويومها علمت منه للمرة الأولى، أنّه كان قد تطوّع في الجيش الفرنسي، يوم كان له من العمر ثمانية عشر عاماً، وأنه شارك في القتال طوال الحرب، وقد كان في فرقة الجنرال "لوكلير" (Leclerc)، التي دخلت باريس، إبان تحريرها عام 1944. ثم انعتق من الخدمة في الجيش الفرنسي، مع انتهاء الحرب، وعاد إلى سورية. وهو، منذ ذلك الحين، يتقاضى راتباً زهيداً لا يتجاوز (500) ليرة سورية. وقد طالب منذ فترة بتعويض عن كامل خدماته في الجيش الفرنسي، لدى السفارة الفرنسية بدمشق، فلم يلقَ أي تجاوب. ولذلك قرّر أن يكتب للجنرال ديغول بالذات! وقد أطلعني يومها على جميع ما لديه من وثائق وصور وأوسمة، فلم أرَ بدّاً من النزول عند رغبته. وكتبت باسمه رسالة إلى الجنرال ديغول، بتاريخ 1969/6/28، رأيت أن أرسلها بالبريد العادي، بيد صديق مسافر، تحاشياً للظنون! وفيما كان صديقي هيكل واثقاً كل الثقة من تلقّيه جواباً قريباً، كنت، من ناحيتي، في شك من ذلك.

وبعد قرابة أربعة أشهر، جاءني هيكل إلى الدار البطريركية، وبيده أوراق، أخذ، منذ ولوجه الباب الكبير، يلوّح بها عالياً، فيما كانت ضحكته العريضة ترفع شاربيه الكثيفين المعقوفين! وكان ذلك جواب الجنرال ديغول! وكان صادراً عن أمانة سرّ مكتبه بتاريخ 1969/10/23، وهو يحمل ختم الأمانة وتوقيع أمين السر. وقد جاء فيه بالحرف الواحد:

« سيدي،

إنّ الجنرال ديغول قد تسلّم رسالتك، وكلّفني إجابتك.

لا بدّ لي من أن أقول لك إن القضيّة التي تثيرها فيها، لا تدخل البتّة في إطار القضايا التي يمكن للجنرال أن يهتم بها بعد اليوم.

وإني لأجيز لنفسي أن أدعوك للاتصال بالملحق العسكري لدى السفارة الفرنسية بدمشق، كي تشرح له وضعك.

سيدي،

أرجو أن تتقبّل التعبير عن أرق مشاعري. »

سرّني جداً ما قرأت، فقلت لهيكل على الفور وبكل ثقة:

"احمل هذه الرسالة، وعد إلى السفارة الفرنسية، ولسوف ينصفونك!"

فجاء جوابه جازماً، في نبرة قاطعة ووجه عابس، ينضح باعتزاز وأنفة:

"أبونا، أنا أخدت حقي! أخدت حقي! خلص! ما عاد بدي شي!..."

وعبثاً حاولت ثنيه عن قراره، آنئذٍ وبعدئذٍ!

إنها الروح السورية الغنية بالكرامة، الضاربة جذورها في أعماق هذا الشرق البائس والعظيم.

لو كانوا يدرون!

بالطبع هذه الرسالة وجوابها، سيكونان في مكانهما في الملحق.

وفي عودة صادقة إلى واقعنا الراهن، أرى أن تلك القوة الروحية السورية الخارقة، وجدت، في الوقت الحاسم والفاصل وحتى الآن، في روسيا والصين والهند والبرازيل وبعض الدول الأخرى، مَن يساندها مساندةً فعّالة، في وجه طغيان عالمي، قادر، قاتل، خارج على كلّ قانون. ولكن السؤال الأكبر هو: وغداً، ما الذي ينتظر سورية هذه، سورية المجروحة، المذبوحة، المدمّرة، المشرّدة، في داخل كلّ إنسان فيها، وعلى نطاق الوطن والمغتربات؟ وإني إذ أطرح السؤال، أتساءل بصوت عالٍ: هل من إنسان واحد، يجرؤ اليوم وغداً، أن يقدّم مجرد ملامح لسورية الغد؟ أشكّ في ذلك، على يقيني بأنّ الكثيرين، في سورية وعلى امتداد العالم، سيحاولون أن يتنافسوا في اقتراح مختلف التحاليل والحلول والتوقّعات، بل و... الحتميّات!

بالطبع، ليس هناك مَن يجهل أنّ تاريخ الشعوب كلّها، مليء بمفاجآت ما كان لأحد أن يتوقّعها. ولقد سبق لي أن أشرت إلى ذلك، في فصل سابق، وأنا أستند في هذا القول إلى وقائع تاريخية معروفة، كان لها من الأسباب، القريبة والبعيدة، ما يفسّرها...

أما ما لديّ من جواب بهذا الشأن بالذات، فإني أعلن في صراحة كلّيّة، فضلاً عن كل ما ذكرته في هذا الفصل بالذات وفي ما سبقه، أني أستند فيه إلى بعض ما ورد من أقوال، تلفّظت بها السيّدة العذراء، وتلفّظ بها السيّد المسيح، طوال اثنتين وعشرين سنة، في حدثٍ ديني غير مسبوق على نطاق العالم، وفي لغة عربية صريحة، وقد جاء معظمها في دمشق، في "بيت العذراء" في حي الصوفانية. وجاء غيرها مرةً في الحسكة، فوق الأرض السورية، ومرةً في بلدة "معاد" اللبنانية، تارةً في مدينة "لوس انجيليس" الأميركية، وطوراً في بلدة "براسكات" ببلجيكا. وإنّ لكلام مثل هذا، يأتينا من السيّدة العذراء، ومن السيّد المسيح نفسه، ثقلاً في نظري، دونه ثقل الكون بأسره!

حريصا في 2013/4/21

فهارس

أديرة

إكليريكية القدّيسة حنة (الصلاحية) - القدس، *33، 42، 45، 58، 94*

دير الآباء البولسيين في حريصا، *32، 231، 401، 519*

دير الآباء البيض في باريس، *246، 346، 370*

دير الآباء اليسوعيين في تعنايل، *227، 279*

دير الآباء اليسوعيين في ليون، *85، 310*

دير الرهبان الصامتين (Trappistes) بفرنسا، *309*

دير العطشانة في لبنان، *486*

دير القدّيسة حنة (الآباء البيض) - رياق، *38، 78، 111، 112*

دير اللترون (TRAPPISTES) بفلسطين، *95*

دير بلدة سان ميشيل دوفار (St Michel du Var) بفرنسا، *309*

دير تيزيه (TAIZÉ) بفرنسا، *171*

دير جمعية البرادو بفرنسا، *139*

دير راهبات المعونة الدائمة في لبنان، *392*

دير سيدة صيدنايا بسورية، *143، 435*

دير صافيتا بسورية، *148، 169، 362*

دير مار توما في صيدنايا، *185، 412*

دير نوتردام ديه دونب (N-D des DOMBES) بفرنسا، *85*

دير يسوع الملك بلبنان، *178*

أسماء وشخصيات

أكرم الميداني، *151، 319*

الآنسة نيقول بيريو، *277*

الخالة أم وحيد، *24، 99*

الخطاط عثمان حسين، *209*

الخياطة مدام فرح، *18*

الدكتور جاك توماجيان، *171، 449*

الدكتور جورج حورانية، *99، 125، 135، 181، 188، 197، 201، 203، 339، 354، 415، 489*

الدكتور غسان شلهوب، *102*

الزعيم القبلي اقومولافة اديبوجو، *277*

السيد أحمد الخطيب، *373، 400، 440*

السيد أسعد يعقوب، *331*

السيد ألبير حلال، *332*

السيد إميل سارة وزوجته ماري، *490*

السيد إنصاف طرابلسي، 353
السيد أيمن ونوس، 449
السيد بيير فيلان، 277
السيد جان شودويه، 277
السيد جورج عازر، 331
السيد داود حنا، 486
السيد راوول فولرو، 277
السيد رضوان الحمصي، 376
السيد سمير اسحق، 448
السيد سهيل شلهوب، 220
السيد طوني فرح، 359
السيد عبد الرحمن غريب، 356
السيد عبدالله القائد، 399، 437
السيد عطيّة الجودي، عضو القيادة القوميّة، 172
السيد فايز خوري، 278
السيد فرنسوا تراك، 175
السيد فرنسوا كسافييه، 346
السيد فريد بولاد وزوجته مايا بتساليدس، 520
السيد كابي حبيب، 172، 195، 225
السيد ماجد غريّب، 345
السيد محمد خير عبد اللطيف الزعبي، 431
السيد محمد سعيد حمادة، 350
السيد مروان نخلة، 399، 437
السيد مصباح مظلوم، 213
السيد نزيه رعد، 513
السيد هشام الخطيب، 359
السيد هنري كبريتة وزوجته أنطوانيت سويد، 374
السيدة إلهام سلطان، 213
السيدة دانيا غانم، 374
السيدة رندا شهاب، 356
السيدة شهيرة فلوح، 372
السيدة كلير سعد، 376
السيدة كونيا بيروشكا، 333
السيدة ماري كحيل، 199
السيدة منى مسمار، 331
السيدة منيرة الشاعر - أم فادي، 376

الصبية سميرة العيد، *373*
الصحفي الفرنسي بيير برييه (Pierre Prier) – مراسل صحيفة لوفيغارو، *438*
الصحفي الفرنسي بيير لوك سغيون، *277*
الصحفي الفرنسي جورج مونتارون (Georges Montaron)، *245*، *253*، *276*
الصحفي الفرنسي كريستيان رافاز، *518*
الصحفي الفلسطيني كميل حوا، *215*
الضابط الفرنسي آلان كريف، *277*
الطفل الياس ديراني، *25*
الطفلان جورج وجميل نعيم حمصي، *30*
الطفلة دينا، *373*
العقيد الطيار غازي أديب، *168*
العميد الطيار عدنان الحاج خضر، *168*
الفنانة التشكيلية البرازيلية يارا توبينامبا (Yara Tupinamba)، *191*
المتبرع الأميركي هارولد روسيني، *76*، *85*، *192*
المتعهد فؤاد تقلا، *331*
المحامي الدكتور أنطون سيوفي، *390*
المحامي أنطون الأشقر، *391*
المحامي سامي وردة، *388*
المحامي صلاح بربارة، *118*، *388*
المرنم جميل بغدان، *94*
الممرض متري، *21*
بائع الخضار عباس، *17*
جورج حمصي، *140*، *393*
جورج سرحان، *189*
جورج وماري خوري، *80*
حلاق السيدات توفيق رومية، *17*
حنا حنا الخوري، *386*
خليل حسكور، *16*
روجيه بحري، *194*
روجيه كحيل، *135*، *141*، *147*، *150*، *182*، *201*، *339*، *374*، *393*، *400*، *489*
سمير جبارة، *215*
شحادة الشيخ، *373*
عائلة إيلي قيومجي، *400*
عبد الرؤوف عدوان، *433*
عبدو حسكور، *16*
عطرية (أم علي)، *372*

غطاس حلاق، *25*
غطاس كويتر، *25، 96*
فكتور مصلح، *400*
كابي بربريان (Gaby BERBERIAN)، *491*
مراسل التلفزيون البلجيكي جوزيف مارتان، *430*
موشيه شاريت، *459*
نسيم حنا الخوري، *386*
هلغا زندل (Helga Zundel)، *277*
وزير الأوقاف محمد غالب عابدون، *174*

أصول

ابن الخالة ادوار حجار، *393*
ابن الخالة جورج حجار، *393*
ابنة عم الوالدة أديل، *27*
الأخ الشقيق ميشل، *15، 22*
الأخ الشقيق ميشل وزوجته سميرة، *436*
الأخت الثالثة جوزفين - الراهبة لوسي، *15، 18*
الأخت الثانية نور، *15، 18، 24، 413، 436*
الأخت الصغرى رينيه، *15، 21، 22، 201، 436*
الأخت الكبرى روز، *15، 18، 25*
الخال الأكبر نقولا، *15، 21، 86، 96*
الخال الثاني حنين، *15، 18، 25، 96*
الخالة ذكية، *18، 22، 27، 32*
الشماس إبراهيم، *31، 32، 34، 35، 36*
الوالد جرجي، *15، 79*
الوالدة ماري زينية، *17، 79*
خال أمي بشارة كويتر، *192*
خالة أمي أسماء، *22، 31، 32*

أعلام ومشاهير

الأستاذ برهان قصاب حسن، *326*
الأستاذ علاء الدين الأيوبي، *175*
الإعلامي الكندي أندريه روستفوروفسكي (André ROSTWOROWSKI)، *489*
الدكتور الأميركي جيمس زغبي، *326*
الدكتور عجاج سليم، *167، 219، 220، 395*
الدكتور فرنسوا دياب، *100، 372*
الدكتورة جورجيت عطية، *353*

السيد أحمد عبد الكريم، *425، 432*
السيد جمال سلوم، *167*
السيد عبدالله الخاني، *400، 442*
السيد غسان الشامي، *7، 352*
الفنان أسعد فضة، *395*
الفنان التشكيلي الياس زيات، *143، 151، 335، 341*
الفنان أيمن زيدان، *219، 395*
الفنان جهاد سعد، *219، 395*
الفنان خالد تاجا، *395*
الفنان دريد لحام، *395، 425*
الفنان رضوان عقيلي، *395*
الفنان زكي ناصيف، *359*
الفنان زياد سعد، *219*
الفنان زيناتي قدسية، *395*
الفنان سليم صبري، *395*
الفنان عباس النوري، *219، 395*
الفنان فايز قزق، *219*
الفنان نضال سيجري، *219، 395*
الفنان هشام كفارنة، *219*
الفنان وديع الصافي، *232، 246، 326، 359، 388*
الفنان يوسف عبدلكي، *165*
الفنانة انجي اليوسف، *219*
الفنانة ثناء دبسي، *395*
الفنانة جيانا عيد، *219*
الفنانة منى واصف، *395*
الفنانة وفاء موصللي، *219*
المايسترو صلحي الوادي، *428*
المخرج السينمائي عمر أميرالاي، *167*
المخرج إيليا قجميني، *334*
المخرج سمير سلمون، *145، 167، 176، 177، 215، 218، 220، 261، 332، 339، 395*
المخرج علاء الدين كوكش، *395*
المخرج فيصل الياسري، *172*
المخرج محمود خضور، *395*
المخرج والسيناريست رفيق الصبان، *142*
المخرج والممثل هاني الروماني، *142*
المذيعة منى كردي، *208*

المطرب الفنان طوني حنا، *483*
الممثل أحمد رافع، *541*
المناضل أبو يوسف النجار، *236*
المناضل كمال عدوان، *236*
المناضل كمال ناصر، *236*
النحات فؤاد أبو عساف، *360*

الأساقفة

أسقف مدينة رين بفرنسا جوزيف دوفال (J. DUVAL)، *309، 311، 463*
الأسقف الفرنسي بروغس (BRUGÈS) **أسقف مدينة انجيه** (Angers)، *313*
الأسقف عمانوئيل ميلينغو، *277*
المطران اغناطيوس زيادة، *110*
المطران اغناطيوس فرزلي، *190*
المطران البرازيلي هيلدر كامارا، 237، 242، 303
المطران إلشنجه، *234*
المطران الفرنسي بيزريل، *234*
المطران ألفريد أنسل (Alfred ANCEL)، *84، 95، 108، 111، 139، 140، 143، 258، 284، 287، 291، 296، 298، 309*
المطران الياس زغبي، *179، 199، 227*
المطران الياس كويتر، *188، 190*
المطران الياس نجمة، *168، 171، 230، 231، 330، 333، 402، 414، 416، 420*
المطران أنطونيوس فرج، *62، 96*
المطران أنيس أبي عاد، *110، 286، 417*
المطران إيزيدور بطيخة، *398، 402، 405، 427، 428، 430*
المطران إيلاريون كبوجي، *62، 87، 93، 113، 118، 213، 237، 238، 246، 426*
المطران بطرس الشامي، *137*
المطران بطرس راعي، *187، 191، 197، 232، 402*
المطران بطرس كامل مدوّر، *63، 87، 92، 108، 113، 118، 130، 147، 159، 179، 186*
المطران بولس سلمان، *32*
المطران بيير دوبريه (Pierre DUPREY)، *294، 310، 390، 480*
المطران بيير كلافيري، *311*
المطران جان- بول جيجر (J-P. JAEGER)، *309*
المطران جان بيير ريكار (RICARD)، *309، 314*
المطران جان سكوتو، *311*
المطران جان- ماري رانبو، *311*
المطران جورج حداد، *180*
المطران جورج كويتر، *413*

المطران جورج لايق، *127*
المطران جورج هافوري، *205*
المطران جوزيف العبسي، *400*، *423*، *426*
المطران جوزيف ميدك، 309
المطران جون شديد، *484*
المطران حكمت بيلوني، *420*
المطران حنا بسّول، *236*
المطران ديونيسيوس غيث، *382*، *383*، *384*، *418*
المطران سابا اسبر، *430*
المطران سابا يواكيم، *196*، *197*، *403*
المطران سلفانو م. توماسي (Silvano M. TOMASI)، *317*
المطران سليم غزال، *413*، *426*
المطران سمير نصار، *418*
المطران عصام درويش، *431*
المطران غريغوار حداد، *108*، *179*، *199*، *227*، *229*، *231*، *232*، *237*، *240*، *268*، *277*، *380*، *397*
المطران غي دو كيريميل (Guy de Kérimel)، *309*
المطران ف. جيمس فايسجربر (V. James WEISGERBER)، *314*
المطران فرانسوا أبو مخ، *113*، *164*، *212*، *280*، *381*، *384*، *402*
المطران فرانسوا مارتي (F. MARTY) **رئيس أساقفة باريس**، *243*، *257*، *267*، *270*، *272*، *274*، *275*، *276*، *303*، *309*، *463*
المطران فيتزغيرالد، *185*
المطران فيجيل (Vigile)، *309*
المطران مارتان (Martin)، *309*
المطران موسى الخوري، *425*
المطران ميشيل حكيم، *205*، *285*، *489*، *490*
المطران ميشيل يتيم، *39*، *51*، *150*، *382*، *384*
المطران ناوفيطس إدلبي، *53*، *130*، *179*، *227*، *229*، *344*، *381*، *417*
المطران نقولاوس الحاج، *186*
المطران نيقولاوس نعمان، *32*، *159*، *372*، *382*، *384*، *394*، *405*
المطران هنري تيسييه، *311*
المطران يوحنا جانبرت، *193*
المطران يوسف طويل، *113*، *114*، *118*، *125*، *126*، *127*، *133*، *143*، *153*، *154*، *348*، *351*، *401*، *402*، *484*
المنسنيور الفرنسي مارولّو، *252*
المنسينيور جوزيف فغالي، *483*

الأطباء

البروفسور برنار هالبرن (Bernard HALPERN)، *182، 201، 202، 232، 253*
الدكتور ألبينا، *63*
الدكتور الجراح كنوت كفرنيبو، *486*
الدكتور اللاهوتي الدانمركي نيلز كريستيان هفيت، *486*
الدكتور أنطوان منصور، *483*
الدكتور أيسر أحمد الصالح، *358*
الدكتور إيلي طويل، *184*
الدكتور إيلي كرعوبة، *211*
الدكتور بيير سامارك (Pierre SAMARQ)، *202، 269، 277*
الدكتور جان كلود انطكلي، *518*
الدكتور جورج شرفان، *399*
الدكتور جورج كردي، *278*
الدكتور جوزيف سيوفي، *166*
الدكتور رولان غانم، *374، 400*
الدكتور رياض حنا وزوجته كلوديا، *160، 172، 400، 413، 480، 487*
الدكتور رياض معلوف، *399*
الدكتور سمير أزرق، *412، 434، 436*
الدكتور شادي خليل، *374*
الدكتور عبود السراج، *205*
الدكتور ماهر مبيض، *73*
الدكتور منذر قزيلي، *186*
الدكتور ناجي سابا، *361*
الدكتور هاني مسعود، *434*
الدكتور هرمان غماينر (Hermann GMEINER)، *278*
الدكتور وليد فطايري، *63، 186*
الدكتور يزن الخطيب، *440*
الدكتورة بيبيان بوكاي دولاروك (Bibiane Bucaille de la ROQUE)، *345*

البطاركة

البطريرك أسطفان الثاني سيداروس، *418*
البطريرك الياس الرابع، *231*
البطريرك بطرس كسباريان، *184، 185*
البطريرك صفرونيوس، بطريرك القدس، *58*
البطريرك غريغوريوس الثالث لحام، *405، 409، 411، 412، 414، 426*
البطريرك مار اغناطيوس الرابع هزيم، *226، 227، 380، 382، 396، 430، 485*
البطريرك مار اغناطيوس زكا الأول عيواص، *166، 344، 485، 487، 531*

البطريرك مار بشارة بطرس الراعي، *536*
البطريرك مكسيموس الخامس حكيم، *149، 154، 163، 178، 183، 195، 225، 333، 383، 394، 396، 402، 484*
البطريرك مكسيموس الرابع الصايغ، *52، 81، 82، 87، 91، 92، 93، 98، 112، 113، 126، 143، 147، 148، 149، 151، 183، 400، 401*
البطريرك ميشيل صبّاح، *465*

الراهبات

الأخت بيرانتيد، *332*
الأخت تيريز بسيليس، *157*
الأخت جوستين، *388*
الأخت دنيز، *157*
الراهبة آن (Anne)، *114*
الراهبة عفيفة غيث، *494*
الراهبة لوسي زحلاوي، *392، 399، 413*
الراهبة ماري الصعود (Marie de l'Ascension)، *90*

السفراء البابويّون

المنسنيور اشيل غلوريو (Achille GLORIEUX)، *159، 215، 293، 294*
المنسنيور بيير جياكومو ديه نيقولو (Pier Giacomo de NICOLO)، *389*
المنسنيور جيوفاني باتيستا مورانديني (Giovanni Baptista MORANDINI)، *310، 439، 454، 467*
المنسنيور دييغو كاوزيرو، *185*
المنسنيور لويجي أكولي (Luigi ACCOGLI)، *483*
المنسنيور نيقولا روتونو (Nicola ROTUNNO)، *481*
المونسنيور رافائيل فورني (Raphael FORNI)، *177*

الشيوخ

الشيخ تاج، *29*
الشيخ حسين شحادة، *352*
الشيخ حمزة شكور، *213، 359، 429، 505*
الشيخ عبد الرزاق مؤنس، *540*
الشيخ كريّم راجح، *206، 208*
الشيخ محمد دقّوري، *174*
الشيخ محمد سعيد رمضان البوطي، *535، 540*
الشيخ محمد عزيز عابدين، *205، 208، 209، 210، 211، 212، 213، 214*
سماحة المفتي أحمد بدر الدين حسون، *352، 535، 540*
سماحة المفتي أحمد كفتارو، *173*

سماحة المفتي الدكتور أبو اليسر عابدين، *205*، *207*
سماحة مفتي حلب الشيخ محمود عكام، *352*

الكرادلة

الكاردينال دانييلو، *266*، *295*
الكردينال أشيل سلفستريني، *390*
الكردينال الفرنسي لافيجري (LAVIGERIE)، *45*
الكردينال برنار لو، *312*، *463*
الكردينال جرلييه (GERLIER)، *73*، *80*، *309*
الكردينال روجيه اتشيكاراي (R. ETCHEGARAÏ)، *309*، *461*
الكردينال فون غالن، *464*
الكردينال لوستيجيه (LUSTIGER)، *309*، *463*، *531*

الكهنة

الأب آبل باكييه، *248*، *250*، *258*، *264*، *276*
الأب أثناسيوس فرح، *190*
الأب اسبيريدون مطر، *179*
الأب اغناطيوس ديك، *202*
الأب افتيموس سكاف، *228*
الأب أفرام شهرستان، *149*
الأب البروفسور عادل تيودور خوري، *388*، *480*، *485*، *487*، *488*، *517*، *519*
الأب البولسي حبيب باشا، *97*، *225*، *231*
الأب ألبير كارتيرون (Albert CARTÉRON)، *72*، *73*
الأب الدومينيكي المستعرب، جاك جوميه (Jacques JOMIER)، *60*
الأب الروماني أندريه سكريما (André SKRIMA)، *60*
الأب القدّيس كوتولينغو (Cottolengo)، *86*
الأب الياس سلوم، *413*، *519*
الأب الياس صارجي، *32*، *36*، *118*، *130*، *131*، *135*، *137*، *141*، *147*، *150*، *160*، *182*، *201*، *205*، *229*، *320*، *345*، *384*، *393*
الأب الياس عرجا، *39*
الأب الياس كويتر، *63*
الأب الياس مسعد، *39*
الأب الياس يعقوب، *213*، *279*، *389*، *436*
الأب أندرياس ريش (Andreas RESH)، *488*
الأب أندريه بوشيه، *41*
الأب أندريه شاييس (André CHAÏS)، *73*، *80*
الأب أنطوان شفرييه، 66، 67، 70، 85، 108، 282، 286، 288، 289، 290

الأب انطوان مقصود، 110، 284
الأب أنطون المعلم، 103، 104، 106، 107، 182، 200، 392
الأب أنطون شكري، 103، 182، 392
الأب أنطون غليل، 388
الأب أنطون موصللي، 150، 154
الأب أنطون هبي، 177، 179
الأب أورلندو ليتاو، 276
الأب ايف كونغار (Yves Congar)، 232، 310
الأب إيلوا لوغران (Eloi LEGRAND)، 44
الأب إيلي آغيا، 401، 423
الأب إيلي كترا، 110، 241
الأب إيهاب الرشيد، 157
الأب ب. م. ريكه، 235، 276
الأب باتريك بالان (P. BALLAND)، 310
الأب باسيليوس كناكري، 39
الأب برنار فييه، 276
الأب بطرس الراعي، 53
الأب بطرس المعلم، 172، 173
الأب بطرس حداد، 39، 51، 52
الأب بلاغوي تشيفلييانوف (Blagoy TCHIFLIANOF)، 138
الأب بول ترنان (Paul TERNANT)، 61، 310
الأب بول غوتييه (Paul GAUTHIER)، 214
الأب بولس الأشقر، 83، 117، 402
الأب بولس أنطاكي، 39
الأب بولس خوري البولسي، 78
الأب بولس سليمان، 173
الأب بولس فاضل، 487، 513، 515، 518، 519، 520
الأب بومان (Baumann)، 249، 276
الأب بيريرا نيتو (Pereira Neto)، 242
الأب بيير برتولان (P. BERTHELON)، 284
الأب بيير بوز (Pierre BOZ)، 78، 80، 139، 207، 253، 268، 393
الأب بيير دومولان (P. DUMOULIN)، 309
الأب بيير سارة، 150
الأب بيير فرح، 481
الأب بيير فو (Pierre VEAU)، 214
الأب بيير هومبلو (Pierre HUMBLOT)، 108، 110، 293

الأب تشارلز عبودي، *484*
الأب تيو كليمان، *276*
الأب تيوفانوس شار، *109*
الأب جاك بوديه (Jacques BODET)، *47، 49، 50، 59، 111، 136*
الأب جان أورتوبيز (Jean HURTEBIZE)، *65*
الأب جان بول دوفودو (J-P. DEVEDEUX)، *316، 494*
الأب جان ديفورج، *110*
الأب جان كريف، *252، 276، 277*
الأب جان لوم، *276*
الأب جان مانيان (Jean MAGNIN)، *46*
الأب جان هوجيه (Jean HUGUET)، *65*
الأب جبرائيل معلوف، *164، 387، 395*
الأب جرمانوس مصري، *51*
الأب جريس عبود، *423*
الأب جورج أرنو (G. ARNO)، *284*
الأب جورج اسكندر، *110*
الأب جورج اغيايان، *184*
الأب جورج الخلّي، *484*
الأب جورج جونيل (Georges GENEL)، *43، 45*
الأب جورج عكة، *99*
الأب جورج فاخوري البولسي، *100، 111، 142، 178، 181، 198، 225، 379، 402، 509، 529*
الأب جوزيف بيطار، *85*
الأب جوزيف حجار، *53، 226، 228*
الأب جوزيف فاندريس، *46*
الأب جوزيف فويا (Joseph FOUILLAT)، *65، 66، 71، 72، 76، 77*
الأب جوزيف كارتيرون (Joseph CARTÉRON)، *65، 66، 70، 83*
الأب جوزيف كوربون (Joseph COURBON)، *73*
الأب جوزيف مصري، *134، 401*
الأب جوزيف نصرالله، *77، 233*
الأب جيرار لافون (G. LAFOND)، *310*
الأب حكمت حدادين، *279*
الأب حكمت خياط، *86*
الأب حليم ريشا، *110، 230، 284*
الأب حليم عبدالله، *540*
الأب حنا نداف، *39*

الأب دنيز فيتزباتريك، *189*
الأب دوسّيني (Dusseigne)، *248*
الأب رزق الله سمعان، *513*، *514*، *515*
الأب روبرت فوكس (R. FOX)، *310*، *486*
الأب روبير بوفري (ROBERT BEAUVERY)، *108*، *110*
الأب روبير دافيو (Robert DAVIAUD)، *285*، *286*، *287*
الأب رينيه فرومون(René FROMONT)، *316*
الأب رينيه لورنتان (René LAURENTIN)، *235*، *310*، *480*، *482*، *485*
الأب سبيريدون مطر، *241*
الأب سليمان سمور، *110*
الأب شارل (Père Charles)، *302*
الأب شريف فرح، *423*
الأب صالح نعمة، *156*، *157*، *158*، *159*، *172*، *182*، *183*
الأب عبد المسيح شحيّد، *423*
الأب عزيز حلاق، *171*
الأب عفيف عسيران، *60*
الأب عمانوئيل دو مونغولفييه (Emmanuel de MONTGOLFIER)، *65*، *66*، *67*، *72*
الأب غبرييل سمّان، *39*، *51*
الأب غريغوار عجمي، *195*
الأب غي دو كريستين (Guy de CHRISTEN)، *65*
الأب فرنسيس نعمة، *85*
الأب فيليب دوكلو، *316*
الأب ماندرون، *276*
الأب متري نعمة، *92*
الأب مكرم قزاح، *110*
الأب مكسيموس جنادري، *60*
الأب مكسيموس قسطنطين، *39*
الأب موريس بلونديل، *90*، *92*
الأب موريس خوري، *191*
الأب موفق العيد، *150*
الأب ميشل القائد، *423*
الأب ميشل بدين، *39*، *50*، *78*
الأب ميشل جوندو، *316*
الأب ميشل حايك، *354*
الأب ميشل ديراني، *405*
الأب ميشل سيدة، *491*

الأب ميشل لوباج (LEPAGE)، *250*
الأب ميشيل حلاق، *164، 387، 395، 397*
الأب نبيل الحاج، *110*
الأب نقولا دهبر، *189*
الأب نقولاوس نصرالله، *193*
الأب هنري انكلار، *248*
الأب هنري دو لوباك (H. de LUBAC)، *310*
الأب هنري لو مان (Henri le MASNE)،، *73*
الأب يوحنا جاموس، *39، 60، 89، 110، 423*
الأب يوسف بربي، *157، 172*
الأب يوسف ريّا، *39*
الأب يوسف صقر، *147، 148، 169، 172، 227، 265، 362، 372*
الأب يوسف معلولي اللعازري، *124، 126، 127، 150، 402، 482، 484، 489، 492، 513، 514، 515، 518، 520*
الأرشمندريت أغناطيوس رعد، *196*
القسيس ايدرو بولاجي، *277*
القسيس برجس كار، *277*

المهندسون
الدكتور المهندس عبدالله جبّور، *328*
الدكتور المهندس ميشل سالم العيسى، *330، 334*
الدكتور المهندس يسار عابدين، *211، 214*
المهندس ادكار زكرت، *330، 331، 332، 333، 385*
المهندس رامي سابا، *361، 364*
المهندس سعادة يازجي، *278*
المهندس سعيد يوسف خوري، *373، 382*
المهندس غسان خليل خوري، *373*
المهندس فريد عوض، *169*
المهندس مجيد الخوري، *388*
المهندس ممتاز المط، *211*
المهندس والمتعهد فؤاد تقلا، *332*

جمعيات
أسرة الإخاء السورية، *173*
أسرة الرعية الجامعية، *155، 157، 158، 159، 160، 162، 163، 164، 165، 166، 167، 168، 169، 170، 171، 172، 181، 182، 183، 208، 226، 246، 278، 319، 320، 328، 329، 330، 333، 335، 394، 395، 399، 416، 417، 420، 436*

البيت الصغير (Casa La Piccola) – **تورينو**، *86*
جمعية الآباء البولسيّين، *94*
جمعية البرادو، *61*، *65*، *66*، *83*، *89*، *94*، *97*، *107*، *143*، *279*، *284*، *392*
جمعية برادو الشرق، *109*، *133*، *135*، *230*، *279*، *283*، *284*، *285*، *286*، *290*، *291*، *296*، *436*
جمعية صندوق الأخوة، *355*، *375*، *376*، *377*، *378*، *434*
جمعية مار منصور الخيرية، *168*، *371*، *372*
جمعية هيك تربّينا، *355*
جمعية يداً بيد، *355*، *377*، *378*
جوقة الفرح، *49*، *217*، *246*، *303*، *323*، *324*، *325*، *326*، *350*، *359*، *360*، *385*، *388*، *395*، *399*، *411*، *427*، *430*، *432*، *433*، *437*، *442*، *443*، *449*، *505*
حركة الشبيبة الطالبة المسيحية، *116*، *125*، *126*
رابطة منشدي مسجد بني أمية الكبير، *359*
فرسان المحبة، *361*، *363*، *364*، *365*، *370*، *377*
فرقة تهليلة للإنشاد الديني، *359*
فرقة هواة المسرح العشرون، *167*، *177*، *215*، *217*، *218*، *319*، *332*، *416*
قرى الأطفال (SOS)، *278*
لجنة دعم الانتفاضة ومقاومة المشروع الصهيوني، *425*
مجلس كنائس الشرق الأوسط، *171*، *172*، *195*، *225*
مؤسسة أبناء الشهداء، *372*
نادي الدالفوريك، *14*
نادي القدّيس جاورجيوس، *14*
نادي الهومنتمن، *14*
نادي الوفاء الدمشقي، *126*

كنائس

الكنيسة المريمية، *145*
كاتدرائية حارة الزيتون، *118*، *145*
كاتدرائية نوتردام (NOTRE - DAME)، *77*، *82*
كنيسة السيدة عذراء فاطمة، *155*، *157*
كنيسة الصليب المقدس، *19*
كنيسة القدّيس اليان الفقير (St - Julien - le - Pauvre)، *77*
كنيسة القدّيس بولس الأثرية، *205*
كنيسة القدّيس كيرللس، *19*، *52*، *62*، *98*، *99*، *157*، *203*
كنيسة القيامة، *43*
كنيسة ألكسندر نفسكي، *138*
كنيسة المهد، *58*

كنيسة دير الآباء اللعازريين، *125، 127، 150*
كنيسة سيدة دمشق، *157، 162، 164، 212، 213، 319، 320، 326، 335، 341، 343، 361، 365، 366، 372، 375، 376، 377، 378، 385، 387، 395، 398، 411، 412، 418، 423، 434، 435، 436، 441، 452، 467، 485*

مدارس

المدرسة البطريركية في بيروت، *103، 111، 113، 182، 186، 392*
المدرسة البطريركية في دمشق، *18، 26، 103، 114، 145، 190، 193*
مدرسة المحبة، *18*
مدرسة المطران في يبرود، *62*
مدرسة المعونة الدائمة، *114، 144، 173، 392*
مدرسة دار السلام للراهبات الفرنسيسكانيات، *120، 393*
مدرسة راهبات البيزنسون، *114، 116، 127، 130، 132، 154، 323، 332، 392*
مدرسة راهبات القلبين الأقدسين، *120*
مدرسة راهبات المحبة، *18، 26، 126، 177*
مدرسة لورد، *16، 18، 26*

مدن وبلدات

بلدة الحواش، *430*
بلدة الخراب، *279*
بلدة الزبداني، *27، 79، 170*
بلدة العديدة، *170*
بلدة العيزرية، *97*
بلدة الفحيص - الأردن، *279*
بلدة الفرزل، *41*
بلدة القرداحة، *389*
بلدة بحرصاف، *278*
بلدة براسكات (Braschaat) **- بلجيكا،** *523، 543*
بلدة برمّانا، *183، 505*
بلدة بزمّار، *184*
بلدة بعتوتة، *185*
بلدة بكركي، *409*
بلدة بكفيّا، *111*
بلدة بيت حنينا، *94*
بلدة تربل، *41*
بلدة تعنايل، *227، 231، 396*
بلدة تل منين، *24، 96*

بلدة خبب، *382*
بلدة رونشون (RONCHAMP)، *81*
بلدة رياق، *37، 38، 40، 44، 50، 53، 59، 76، 113، 201*
بلدة سان فون (Saint-FONS)، *65، 66، 67، 72، 75، 83*
بلدة شافاط، *63*
بلدة صيدنايا، *62*
بلدة عين تراز، *108، 179، 186، 198، 396، 403*
بلدة عين كارم، *35*
بلدة فيسك (WISQUES)، *309*
بلدة ليمونيه (LIMONEST)، *284، 286*
بلدة ليه كلوشيت (Les CLOCHETTES)، *66، 72، 73، 75*
بلدة مرمريتا، *232، 385*
بلدة معاد - لبنان، *483*
بلدة معرة صيدنايا، *62، 385، 434*
بلدة معلولا، *62، 102، 387*
قرية أبوديس، *33*
قرية عين العجوز، *357*
مدينة أديس أبابا - الحبشة، *172*
مدينة أريحا، *55، 58*
مدينة الحسكة، *149، 486، 543*
مدينة القاهرة، *60، 131، 171، 194، 199، 237، 246، 247، 273، 275، 277*
مدينة القدس، *13، 31، 32، 33، 35، 38، 40، 41، 54، 59، 60، 63، 76، 77، 84، 87، 88، 91، 92، 94، 97، 98، 101، 108، 115، 118، 125، 131، 186، 189، 243، 246، 294، 299، 317، 402، 407*
مدينة القنيطرة، *121، 173، 352، 428*
مدينة الكرك - الأردن، *92*
مدينة اللاذقية، *170، 227، 356، 383*
مدينة أنطاكية، *186*
مدينة أنطلياس، *186*
مدينة باريس، *77، 78، 80، 81، 135، 139، 140، 143، 181، 188، 201، 207، 217، 219، 232، 233، 235، 237، 246، 247، 273، 276، 316، 320، 345، 346، 373، 387، 465، 516*
مدينة براغ، *139، 140*
مدينة بللو أوريزونتيه - البرازيل، *191*
مدينة بوينس آيريس، *188، 189، 190*
مدينة بيت لحم، *55، 57، 58، 61، 287*

مدينة بيروت، *30، 43، 50، 63، 85، 86، 103، 106، 107، 109، 111، 134، 151، 173، 237، 268، 353، 392، 393، 399، 437، 540*
مدينة بيزنسون، *73، 80، 347*
مدينة جنيف، *171، 317، 318*
مدينة حلب، *43، 60، 150، 170، 193، 217، 279*
مدينة حمص، *150، 170، 279، 382*
مدينة دمشق، *14، 17، 27، 29، 30، 31، 32، 35، 36، 43، 53، 62، 80، 87، 98، 107، 111، 113، 115، 129، 131، 139، 140، 143، 148، 151، 170، 177، 181، 186، 192، 193، 201، 203، 218، 240، 270، 275، 292*
مدينة ديترويت، *188، 192، 370، 449، 483*
مدينة راتسبون، *461*
مدينة رام الله، *55، 58، 94*
مدينة روما، *53، 57، 86، 130، 137، 219، 237، 280، 292، 293، 294، 310، 382، 389، 410، 469، 483*
مدينة سان باولو، *191*
مدينة ستوبنفيل (Steubenville)، *492*
مدينة سيدني، *326، 431*
مدينة صافيتا، *147، 161، 169، 177، 215، 217، 218، 220، 227، 339، 362، 372، 382، 385*
مدينة صوفيا - بلغاريا، *138*
مدينة طوكيو، *143*
مدينة عمّان، *32، 167، 353*
مدينة فرسوفيا، *458*
مدينة كانتربري، *227*
مدينة كليرمون فرّان (Clermont-Ferrand)، *139*
مدينة لاهاي، *458*
مدينة لوس انجيليس، *483، 543*
مدينة ليون، *65، 80، 85، 139، 165، 187، 284، 286، 292، 299، 300، 463*
مدينة مرسيليا، *65*
مدينة ملبورن، *326، 431*
مدينة مونتريال، *30، 370، 374، 489، 492*
مدينة ميونيخ، *227*
مدينة نابولي، *85*
مدينة واشنطن، *171، 304، 326، 370، 432، 449*
منطقة الكفرون، *373، 385*
منطقة وست نيوتن - بوسطن، *401*

مفكرون وأدباء

أحمد أمين، *115*

أديب اللجمي، *156، 218، 219، 220، 261، 329، 332، 339، 395، 506*

أديب مصلح، *100، 133، 341، 345، 352، 380، 399، 400، 488، 507*

إسرائيل شاحاق، *285، 290، 311، 537*

أفراهام بورغ (Avraham BURG)، *285، 311، 537*

الأديب الإيطالي جيوفانّي بابيني، *509*

الأديب حنا مينة، *231*

الأديب فرحان بلبل، *216*

الأديبة كوليت الخوري، *425*

الأديبة ناديا خوست، *425*

الباحث السويسري جان زيغلر (Jean ZIEGLER)، *290، 311، 354، 456*

الباحث اللبناني الفرنسي أمين معلوف، *311*

الباحث برنار بورجوا (Bernard BOURGEOIS)، *344*

الباحث بول فيندلي (P. FIENDLEY)، *311*

الباحث مخائيل عوض، *352، 428*

الباحثة الفرنسية آن ماري غواشون، *231، 277، 300*

الباحثة أوديت فيليبون (Odette PHILIPPON)، *74*

الدكتور أليكسي كاريل، *508*

الدكتور جورج جبور، *226، 395*

الدكتور جورج حبش، *213، 353*

الدكتور رياض عصمت، *217، 219، 220، 330، 395*

الدكتور فايز شهرستان، *425*

الدكتور مطانيوس حبيب، *156*

الدكتور منير الحمش، *445*

الدكتور نبيل طعمة، *449*

الدكتورة نجاح العطار، *231، 395، 425، 506*

السيد جلال فاروق الشريف، *351*

السيد حسام الدين الخطيب، *444*

السيد خالد العصيمي، *400، 442*

السيد عبد الرحمن العطار، *425*

السيد مروان فارس، *352، 428*

السيد ناصر قنديل، *352، 428*

السيد يوسف فيصل، *425*

الشاعر أدونيس، *166، 494*

الشاعر اسماعيل عامودا، *351*

الشاعر صابر فلحوط، *425*
الشاعر عادل غضبان، *194*
الشاعر محمود درويش، *231، 256*
الصحفي الإيطالي لويجي أكاتوللي (Luigi ACATTOLLI)، *290، 342، 461، 471*
الصحفي الفرنسي جورج مونتارون (Georges Montaron)، *226*
الكاتب الإيطالي فيتو باندولفي، *394*
الكاتب الروماني الأب فرجيل جيورجيو (Virgil GEORGIU)، *271، 272، 275، 276*
الكاتب علي كنعان، *221*
المخرج فواز الساجر، *219*
المخرج هيثم حقّي، *219*
المسرحي الإغريقي سوفوكليس، *219*
المسرحي ألخاندرو كاسّونا، *167*
المسرحي برتولد بريخت، *142*
المفكر العربي أنطون المقدسي، *126، 133، 135، 141، 143، 149، 154، 156، 164، 165، 166، 170، 201، 203، 204، 213، 220، 226، 227، 229، 230، 241، 261، 291، 330، 332، 339، 343، 344، 345، 347، 353، 380، 394، 395، 444، 488، 493، 495، 496، 505، 507، 519*
المفكر بديع الكسم، *143، 291*
المفكر قسطنطين زريق، *444*
المهندس سهيل شباط، *154، 156، 226، 292*
المؤرخ اليهودي دومينيك فيدال (D. VIDAL)، *290، 539*
المؤلف المسرحي السويسري دورنمات، *307*
جورج برنار شو، *115*
جولييت المير سعادة، *129، 130*
جيلاد آتزمون (Gilad ATZMON)، *285، 311، 349، 537*
حافظ جمالي، *395*
حسام الدين الخطيب، *395*
خالد محمد خالد، *59*
خليل مطران، *103*
رشاد أبو شاور، *395*
روبرت دول (Robert DOLE)، *311، 350، 449*
روجيه غارودي (Roger GARAUDY)، *302*
رئيف الخوري، *105*
زكي الأرسوزي، *141*
سبع بولس حميدان، *181*
سعدالله ونوس، *217، 256، 261، 395*

سوزان ناشن، 285، 537
عبدالله القصيمي، 128، 531
عدنان بغجاتي، 395
علي عقلة عرسان، 167، 216، 220، 395
عمانوئيل ليفين، 290
غبرييل مارسيل، 128
فؤاد الشايب، 132
فيتو باندولفي (Vito Pandolfi)، 343
فيليب حتي، 115
كارل ماركس، 128
كمال يوسف الحاج، 181
لويس ماسينيون (Louis MASSIGNON)، 60
ليون بلَوا (Léon BLOY)، 48
مارك توين، 132
مدحت عكاش، 198
ممدوح عدوان، 216، 395
موليير، 142
ميخائيل عيد، 395
ميشيل عفلق، 131
نجيب محفوظ، 60
نيتشه، 128
نيقولا برديائيف، 128
هنري برغسون، 128

مقالات

أجمود أم تجميد؟، 111، 142، 189، 379، 419، 529
استراتيجيّة إسرائيل في الثمانينيّات، 459
اعتراف، 125
الإنسان الكاهن أم الإله المال، 198، 379
الشباب العربي المسيحي أمام مسؤولياته، 178
الطفل الكابوس، 121
المصير بين كمال الحاج وسبع بولس حميدان، 181
إلى أين تمضي بنا وثيقة الأساقفة الفرنسيين، 233
أمام غاندي وهوشي منه، 198
امرأة من بلادي، 198
برسم بعضهم، 372
تشويه، 198

تهنئة على نبأ، *198*
دانيلو دولتشي، غاندي صقلية، *116*
رحلة حتى قاع الجحيم، *303، 304*
طائرة يتيمة فوق طوفان، *223*
عرب الإسلام لا عرب الاستسلام - علياء الصلح، *187*
عرب مسيحيّون أو مولد إيمان، *133*
علامات من السماء في دمشق، ما رأيت وما سمعت في الصوفانية، *488*
على درب المشاركة، القداس والحرب، *163*
عندما يصبح إنسان سؤالاً، *237*
عيدك بالأمس سيدي، لا غداً، *237*
في ذكرى الوعد، *198*
لقد استبقتِ الزمن يا صديقتي، *303*
ما بين الحريَة والتحرر، *116*
ما بين المسيحية واليهودية، *348*
مجلس الشعب بين الأمس واليوم، *448*
مسيحيّو سورية يصفّقون لحزب الله، *439*
مع مكسيموس الخامس في القارة الأميركية، *188، 303*
من أنتم؟ وماذا تريدون، *125*
نار أم نور، *187*
نريد أن نرفض، *125، 530*
هلاّ سرّعت الخطى أيها الغرب، *353*
واخجلتاه من كبوجي، *237*
وجهاً لوجه مع الغرب المريض بعقدة الذنب، *284*
وفي الكنيسة فتشوا عن المال، *225، 379*
يارا توبينامبا، صرخة من قارة الثراء والجوع، *188*

منشورات

المجلة العلمية (HISTORIA)، *219*
جريدة الشهادة المسيحية (T. C.)، *244، 254*
جريدة المحرر البيروتية، *215*
جريدة النهار، *187*
صحيفة الثقافة الأسبوعيّة، *121، 198، 223، 237*
صحيفة المراقب الروماني، *317، 456، 461*
صحيفة تشرين، *448*
صحيفة لسان الحال، *187*
صحيفة لوفيغارو، *234، 235، 438، 439*
صحيفة لوموند، *234*

فيلم سد الفرات - المخرج عمر أميرالاي، *167*
فيلم نحن بخير، طمّنونا عنكم! - فيصل الياسري، *172*
كتاب إسرائيل القضية (L'Affaire Israël) - روجيه غارودي - 1983، *302*، *533*
كتاب التدمير الشامل - جان زيغلر - 2011، *533*
كتاب الحكيم جورج حبش... حكاية وطن - الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين، *353*
كتاب الرحلة إلى لورد - الدكتور أليكسي كاريل، *509*
كتاب الشرق المسيحي (L'Orient Chrétien) - الأب اغناطيوس ديك، *202*
كتاب الصحوة - دافيد ديوك - 1988، *533*
كتاب العذراء تختار سكناً - أنطون المقدسي، *495*
كتاب القوة الخطرة - نعوم تشومسكي وجلبير أشقر - 2007، *533*
كتاب الكابوس الأميركي - روبرت دول (R. DOLE) - 1997، *350*، *449*
كتاب المجتمع والعنف، *343*، *394*
كتاب أمّ الرحمة - أديب مصلح، *509*
كتاب أمّ الله أمّنا - أديب مصلح، *509*
كتاب إمبراطورية العار - جان زيغلر - 2005، *456*، *533*
كتاب أمن أجل فلسطين وحدها؟ - الأب الياس زحلاوي، *353*
كتاب إنجيل برنابا - ترجمة خليل سعادة، *205*
كتاب بغض الغرب (La Haine de l'Occident) - جان زيغلر - 2008، *354*، *533*
كتاب تاريخ المسرح - فيتو باندولفي - ترجمة الأب الياس زحلاوي، *343*
كتاب حرب الخليج، جرح في الجسد العربي - انطون المقدسي، *444*
كتاب حروب القرن الحادي والعشرين - اينياسيو رامونيه - 2002، *533*
كتاب حلّ المشكلة اليهودية (La Solution du Problème Juif) - الأب شارل، *302*
كتاب سلام على أورشليم - البطريرك ميشل صبّاح - باريس 2002، *465*
كتاب سيرة المسيح لجيوفاني بابيني، *509*
كتاب عندما يطلب البابا الغفران - لويجي أكاتوللي - ترجمة الأب الياس زحلاوي، *290*، *316*، *342*، *349*، *424*، *461*، *471*
كتاب فكر هيجل السياسي - برنار بورجوا، 344، 394
كتاب فلسطين، سلام لا فصل عنصري - جيمي كارتر، *459*، *533*
كتاب ما لم يُكتب بعد عن الحرب في لبنان - الأب حليم عبدالله - 1980، *540*
كتاب مجد الله هو الإنسان الحي - الأب الياس زحلاوي، *165*
كتاب مختارات مريميّة - أديب مصلح، *509*
كتاب من أجل فلسطين - الأب الياس زحلاوي، *353*، *401*
كتاب من يجرؤ على الكلام - بول فيدلي - 1987، *533*
كتاب ومن الكلمات بعضُها - الأب الياس زحلاوي، *223*، *238*، *352*، *380*، *530*
كتاب يسوع في إنجيله - أديب مصلح، *509*
كتاب يسوع في حياته - أديب مصلح، *509*

مجلة (Resistance) **الفلسطينية،** *348*
مجلة آفاق، *240*
مجلة الآباء اليسوعيّين - الدراسات، *465*
مجلة الأسبوع العربي، *181*
مجلة الحياة الكاثوليكية، *277*
مجلة الحياة المسرحيّة، *217*
مجلة الرابطة الدمشقية، *116*، *125*
مجلة الصلاح، *418*
مجلة المستقبل الباريسية، *303*
مجلة المسرّة، *100*، *111*، *142*، *163*، *178*، *181*، *188*، *198*، *225*، *231*، *233*، *303*، *379*، *396*، *419*، *487*، *488*، *529*، *530*
مجلة المعرفة - وزارة الثقافة - دمشق، *132*
مجلة المعلومات الكاثوليكية العالمية، *244*
مجلة النشرة العائلية، *172*، *372*
مجلة رؤى ثقافية، *350*
مجلة شعوب العالم، *276*
مجلة شؤون فلسطينية، *247*
مجلة صوت فلسطين، *348*
مجلة كيفونيم الصهيونية، *459*
مجلة معاً (Ensemble)**،** *243*
محاضرة مواجهة الجيل الجديد لمشكلة الإيمان - مؤتمر تعنايل 1973**،** *379*
مسرحية الأدغال، *218*
مسرحية السؤال - هارون هاشم الرشيد، *217*
مسرحية الطريق إلى كوجو - الأب الياس زحلاوي، *218*
مسرحية المدينة المصلوبة - الأب الياس زحلاوي، *215*، *217*، *237*، *339*
مسرحية المسيح يصلب من جديد - نيكوس كزانتزاكي، *217*
مسرحية انتيغونا - سوفوكليس، *219*
مسرحية ليتك كنت هنا - الأب الياس زحلاوي، *177*، *215*، *339*
مسرحية وجبة الأباطرة - الأب الياس زحلاوي، *220*

الفهرس

لديه الكثير ليقوله.. غسان الشامي 7
مقدمة 11
يومَ كانت الطيور تعشّش في جنبات الغوطة 13
كيف لطائرٍ أن يسجن نفسه؟ 31
أكان ذلك خروجاً من القفص؟ 37
العودة إلى مدينة المدائن 53
عام الاكتشافات في فرنسا 55-56 65
بذور "البرادو" في القدس، والسيامة الكهنوتية في دمشق 87
في المدرسة البطريركية في بيروت 103
في دمشق: إنهم يقولون! 113
آفاق جديدة 153
1- في الأرجنتين 188
2- في البرازيل 190
3- في فنزويلا 191
4- في الولايات المتحدة 191
من جديد في قلب دمشق 201
مواجهاتٌ مختلفة في عالمٍ فقَدَ كلّ قيمة 223
عام استثنائي: 1974 237
بعض من يومياتي في باريس – أيار عام 1974 247
مع البرادو في فرنسا، جمعية ورئيساً 279
1) رسالة الأب "روبير دافيو" إلى جميع أعضاء البرادو وأصدقائهم في العالم... 287
2) أما رسالتي الجوابية 289
3) جواب الأب دافيو 290
مرّةً أخرى، في مواجهة اللاساميّة الغربيّة وعقدة ذنبها المَرَضيّة 299
في رحاب كنيسة سيّدة دمشق 319
في رحاب الكلمة 337

عام 1980: فرسان المحبّة.. 361
الحاجة القصوى في قلب جميع الحاجات: المحبّة.. 371
لو كان لي أن أصمت.. 379
1 – إجهاض محاولة لتوحيد عيد الفصح بتبنّي التقويم الشرقي.. 381
2 – إجهاض مشروع كنسي اجتماعي في سهل معرة صيدنايا.. 385
3– هلاّ تحدّثنا قليلاً عن المال!.. 392
4– علاقتي بالسلطة الكنسية عامة، وبالبطريرك غريغوريوس لحام خاصة.. 400
5– علاقتي بالكهنة: خارج "جمعية البرادو".. 422
يا لها من إطلالة!؟.. 425
من أين لي أن أكون صوتَ صارخٍ في بريّة!؟.. 453
1) دراسة حول الأوضاع الدينية والسياسية الراهنة.. 454
2) رسالة عاجلة جدّاً إلى السيّد المسيح.. 467
3) رسالة إلى قداسة البابا فرانسيس الأول.. 469
4) رسالة إلى السيّد جون كيري وزير خارجية الولايات المتحدة الأميركية.. 472
ماذا عن الصوفانية؟.. 477
1 – المطران "نيقولا روتونو" (Nicola ROTUNNO).. 481
2 – الدكتور الجراح أنطوان منصور.. 483
3– قداسة البطريرك زكا الأول عيواص.. 485
4 – الأب عادل تيودور خوري.. 487
5 – روجيه كحيل.. 489
6 – "كابي بربريان" (Gaby BERBERIAN).. 491
7 – المفكر العربي أنطون المقدسي.. 493
8 – المفكر المبدع أديب مصلح.. 507
هل للصوفانية ما تقوله في قلب الأحداث الراهنة.. 511
كلمة أخيرة.. 529
فهارس.. 545
الفهرس.. 569
صدر للمؤلف.. 571

صدر للمؤلف

1) **باللغة العربية:**

1. **عرب مسيحيون أو مولد إيمان**

مطبعة الأديب (دمشق) – 1969

2. **حول الإنجيل وإنجيل برنابا**

المطبعة البولسية (لبنان) – 1971

3. **المدينة المصلوبة (مسرحية)**

منشورات وزارة الثقافة – 1973

4. **الطريق إلى كوجو (مسرحية)**

منشورات اتحاد الكتاب العرب – 1976

5. **المجتمع والعنف (مترجم)**

منشورات وزارة الثقافة – 1976

6. **مجد الله هو الإنسان الحي**

بالتعاون مع أفراد أسرة الرعية الجامعية (دمشق) – 1977

7. **يقينان وسؤالان**

منشورات جيش التحرير الفلسطيني – 1979

8. **تاريخ المسرح في خمسة أجزاء (مترجم)**

منشورات وزارة الثقافة 1979– 1989

9. **فكر هيجل السياسي (مترجم)**

منشورات وزارة الثقافة – 1981

10. **وجبة الأباطرة (مسرحية)**

منشورات اتحاد الكتاب العرب – 1985

11. **شهود يهوه، من أين وإلى أين؟**

مطبعة دار العلم (دمشق) – 1991

12. **الصوفانية (1982–1990)**

مطبعة الحرية (لبنان) – 1991

13. **اذكروا الله**

(ترجمه عن الفرنسية أديب مصلح) المطبعة البولسية – 1995

14. **سيدة الصوفانية**

القاهرة – 1997

15. **ومن الكلمات بعضها**

المطبعة البولسية – 1997

16. **من أجل فلسطين**
دار عطية – بيروت 2004
17. **هروبي الأخير مع يسوع المسيح (مترجم عن الفرنسية)**
المطبعة البولسية – 2004
18. **أمن أجل فلسطين وحدها؟**
منشورات مركز الغد العربي للدراسات – 2006
19. **الصوفانية خلال 25 عاماً (ثلاثة مجلدات)**
دار المجد للطباعة والنشر – 2008
20. **تأملات**
دار المجد للطباعة والنشر – 2009
21. **تأملات في إنجيل القديس يوحنا**
دار المجد للطباعة والنشر – 2010
22. **مجموعة من العظات**
دار المجد للطباعة والنشر – 2010
23. **عندما يطلب البابا الغفران (مترجم عن الفرنسية) – 2010**
24. **مجموعة من العظات – 2011**
25. **قد يكون لي ما أقوله – 2014.**

2- En Francais

1- **Soufanieh**
Chronique des apparitions et manifestations de Jésus et de Marie à Damas (1982-1990) Editions François - Xavier de Guibert. 1991. Paris.

2- **Souvenez - vous de Dieu**
Messages de Jésus et de Marie à Soufanieh.
Damas (1982-1990) Editions François - Xavier de Guibert. 1991. Paris.

3- SOUFANIEH En SYRIE et DANS LE MONDE
Damas - 2014.